عُلَمَاءٌ عَامِلُونَ

الشَّيخ عبد القَادِر الجِيلَانِي

الشَّيخ مُحَمَّد عَبْدُه

الشَّيخ مُحَمَّد رَشِيد رِضَا

الشَّيخ عبد الحَمِيد بن بَادِيس

الشَّيخ مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوسِيّ

تأليف

الأُستاذ الدكتور

قحطان عبد الرحمن الدوري

عمان - المملكة الأردنية الهاشمية

BOOKS - PUBLISHER

'ULAMĀ' 'ĀMILŪN | علماء عاملون

Author : *Prof. Dr. Kahtan Abdul-Rahman Al-Douri* | المؤلف : الأستاذ الدكتور قحطان عبدالرحمن الدّوري

Classification : *Biographies* | التصنيف : تراجم

Year : *1442 H. - 2020 A.D* | سنة الطباعة : ١٤٤٢ هـ - ٢٠٢٠ م

Pages: *640* | عدد الصفحات : ٦٤٠

Size : *17 × 24 cm* | القياس : ٢٤ × ١٧ cm

Printed in : *Lebanon* | بلد الطباعة : لبنان

Edition : *First edition* | الطبعة : الأولى

All Rights Reserved

BOOKS - PUBLISHER
كتاب - ناشرون
Beirut-Lebanon بيروت - لبنان

Mazraa, Ras Nabea, Mohamad Al Hout street, Katerji building, First Floor, Beirut-Lebanon
Tel:+961 76 944 855 - P.O.Box: 11-374 Riyad Al-Soloh
Email:books.publisher2019@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة
2020 A. D. - 1442 H.

ISBN 978-2-7451-5025-7

عُلَمَاءُ عَامِلُونَ

الشَّيخ عَبْد القَادِر الجيلَانِيّ

الشَّيخ مُحَمَّد عَبْدُهُ

الشَّيخ مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا

الشَّيخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيس

الشَّيخ مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوسِيّ

تأليف

الأُستاذ الدكتور

قحطان عبد الرَّحمن الدُّوريّ

عمّان - المملكة الأُردنيَّة الهاشميَّة

BOOKS - PUBLISHER

كتاب - ناشرون | بيروت - لبنان Beirut-Lebanon

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١
ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢
ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤
إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥ ٱهۡدِنَا
ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ
عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا
ٱلضَّآلِّينَ ٧

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة الطَّبْعَة الأُوْلَى

الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِيْنَ، والصَّلَاةُ والسَّلَامُ علىٰ رَسُوْلِهِ الكَرِيْمِ، وعلىٰ آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ، إلىٰ يَوْمِ الدِّيْنِ.

تَقَدُّمُ الأُمَّة في جوانب الحياة المُخْتَلِفَة، غَايَةٌ ترنو إليها العُيُوْن، وتشرئبُّ لها الأعناق، وتهفو إلىٰ تَحْقِيْقها النفوس.

ولا يكون ذٰلِكَ التقدم إلَّا إذا صَلَحَ الفرد والمجتمع.

وصَلَاح آخر أُمتنا لا يكون إلَّا بما صَلَحَ به أولها.

قال الإمَام مَالِك: (لا يُصْلِحُ آخِرَ هٰذِهِ الأُمَّة إلَّا ما أَصْلَحَ أَوَّلَهَا)[1].

والإصْلَاح طريق الأنبياء والمُرْسَلين.

قال تعالىٰ علىٰ لِسَان شُعَيْب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ﴾ - هود: ٨٨.

وقال تعالىٰ علىٰ لِسَان مُوسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ - الأعراف: ١٤٢.

وإذا اتبع الناس دعوة الأنبياء هٰذِهِ، وأصلحوا حالهم، فلا سَبِيْل لهلاكهم.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ - هود:

(١) الشفا: القَاضِي عِيَاض، فصل في حكم زيارة قبره ﷺ، ج ٢ ص٦٧٦.

١١٧.

لأن الفساد في الأرض هو سبب الهلاك.

قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ - الأعراف: ٥٦.

وقال سُبْحَانَهُ: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ - الأعراف: ٨٥.

ومن هنا أثنىٰ الله سُبْحَانَهُ علىٰ الصَّالِحِيْن والصالحات في آيات كثيرة جداً.

فهم الذين يرثون الأرض ويعمرونها.

قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ - الأنبياء: ١٠٥.

وهٰذَا الطريق الذي سلكه الأنبياء والرسل، هو الذي ارتضاه الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ للناس.

قال تعالىٰ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ - النَّحل: ١٢٥.

والعُلَمَاء هم ورثة الأنبياء، ومشاعل النُّوْر، ودعاة الحق، وأصحاب الرِّسَالَة، ومَصَابِيْح الظلام، بهم تصلح الأُمَّة، وتَرْتَقِي في مدارج السَّعَادَة.

لذٰلِكَ قَيَّضَ الله تعالىٰ لهٰذِهِ الأُمَّة العُلَمَاء، المصلحين، العَامِلِيْن، الداعين إلىٰ كتاب الله تعالىٰ وسُنَّة نَبِيِّه مُحَمَّد ﷺ، الذين يجددون لها دينها، كلما تضاءل نورها.

والإِصْلَاح الذي أُمِرَ الناس به عام يشمل:

إصْلَاحَ الفرد في: نفسه، وسريرته، وعقيدته، وأَعْمَاله، ليتجه إلىٰ الله تعالىٰ بقلب صافٍ لا كدر فيه.

وإصْلَاحَ المجتمع والناس، الذي يكون في الأموال، والأعراض، والدماء، وفي كل شيء يقع التداعي والتخاصم فيه.

قال تعالىٰ: ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ - النساء: ١١٤.

والنجوىٰ: هي السر بين الاثنين أو الجَمَاعَة.

والمعروف: لفظ عام يشمل جميع أنواع البر.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ﴾، إشارة إلىٰ الأُمُور الثلاثة المذكورة.

و ﴿ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾، أي: ومن فعلها لغير ذٰلِكَ، فهو غير مستحق لهٰذَا المدح والجزاء، بل قد يكون غير ناجٍ من الوِزْر، والأَعْمَال بالنيات.

عن أُمّ حَبِيْبَة قالت: قال رَسُوْل الله ﷺ: كلام ابن آدم كله عليه لا له، إلَّا أمراً بمعروف، أو نهياً عن مُنْكر، أو ذكراً لله عَزَّ وجَلَّ[١].

والتَّارِيْخ حافل بهٰؤُلَاءِ المصلحين، الذين نفخر بهم، وبجهودهم الرائعة، التي بقيت الأُمَّة بهم حاضرة متيقظة، علىٰ الرغم من ويلات الزَّمَان ونكباته، التي مرت بها أُمَّتُنَا. وكتب التَّارِيْخ والطَّبَقَات المُخْتَلِفَة خير شَاهد علىٰ ذٰلِكَ.

وفي هٰذَا الكتاب تناولتُ خمسة أَعْلَام، لكل وَاحِد منهم لونه الخاص به.

بَيَّنْتُ مسيرتهم في الحياة، وحرصهم علىٰ تبليغ الدِّيْن، ومَنَاهِجهم في إصْلَاح المجتمع، وتَأْثِيْرهم في الحَرَكَة الفكرية والعَمَلِيَّة.

---

(١) فَتْح القَدِيْر: الشَّوْكَانِيّ ص٤١٦، وفيه: (حَدِيْث أُمّ حَبِيْبَة: أَخْرَجَهُ عَبْد بن حُمَيْد والتِّرْمِذِيّ وابن مَاجَه وغيرهم).

ونواة هٰذَا البَحْث في هٰؤُلَاءِ المصلحين، كانت دراسات ألقيتُها في مادة (الفكر الإِسْلَامِيّ)، في مَرْحَلَة الدراسات الأولية والعليا في الجَامِعَة.

معتمداً في كل ما أَثْبَتُّ من مَعْلُومَات عن هٰؤُلَاءِ الأَعْلَام: كُتُبَهُم، وآثَارَهُم، والمصادرَ الموثوقةَ التي دَوَّنَت سيرتهم العطرة.

ورأيتُ جمعها، وتَنْقِيْحها، والزِّيَادَة عليها، وطبعها، لتكون في متناول أيدي الطلبة والباحثين.

لا سِيَّمَا ونحن نعيش في زمن الضعف والخمول، تداعت فيه علينا الأُمَم، فأصبحنا بأَمَسّ الحاجة إِلىٰ ذٰلِكَ المُحَفِّز، والمُنَبِّه إِلىٰ الوضع الذي نحن فيه، ليأخذ بأيدينا إِلىٰ شاطئ الأمان والسَّلَامَة.

خطة الدراسة:

خصصتُ لكل من هٰؤُلَاءِ الأَعْلَام الخمسة فصلاً:

الفصل الأول: الشَّيْخ عَبْد القَادِر الجِيْلَانِيّ.

الفصل الثاني: الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه.

الفصل الثالث: الشَّيْخ مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا.

الفصل الرابع: الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس.

الفصل الخامس: الشَّيْخ مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ.

وتناولتُ كل وَاحِد منهم في مَبْحَثَيْن:

أولهما: عَصْره، ونشأته، وشخصيته، وآثاره العِلْمِيَّة... .

والمَبْحَث الثاني: أهدافه في تفكيره، وأثره في المجتمع... .

وستتجلىٰ للقارئ الكَرِيْم:

صورتهم، وإخلاصهم في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، ومَنَاهِجهم الإصْلَاحِيَّة، لا يبتغون بها جزاء من الناس ولا شُكُوْراً، إنما يرجون رضوان الله تعالىٰ، وصَلَاح الأُمَّة.

وتلك هي الأُسوة الحَسَنَة، والقدوة الخَيِّرَة، والنُّوْر الذي يهتدي به السارون في الظلمات الحالكة.

أرجو الله سُبْحَانَهُ أن ينفع به، ويجعله خالصاً لوجهه الكَرِيْم، إنه سَمِيْع مُجِيْب الدعاء.

وأَخِيْراً:

فإن الشكر الجزيل أُزجيه إلىٰ ولدي العَزِيْز الدكتور (**يَعْلَىٰ**)، علىٰ ما بذل من جهد وعناء في طِبَاعَة الكتاب، واخْتِيَاره الحرف الجميل، وإخْرَاجه بهٰذِهِ الحُلَّة القَشِيْبَة.

أرجو الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ أن يُوَفِّقه إلىٰ ما يحبه ويرضاه.

عَمَّان المَحْرُوْسَة

الاثنين ٧/ رَبِيْع الأول (٣)/ ١٤٤١هـ

٤/ تشرين الثاني (١١)/ ٢٠١٩م

الأُستاذ الدكتور

قَحْطَان عَبْد الرَّحْمٰن الدُّوْرِيّ

عَمَّان – المَمْلَكَة الأُرْدُنِّيَّة الهَاشِمِيَّة

١٠

الفصل الأول

الشَّيْخ عَبْد القَادِر الجِيْلَانِيّ

وُلِدَ سنة ٤٧٠هـ=١٠٧٧م

وتُوُفِّيَ سنة ٥٦١هـ=١١٦٦م

وفيه:

تَمْهِيْد.

المَبْحَث الأول: شخصية الشَّيْخ عَبْد القَادِر الجِيْلَانِيّ.

المَبْحَث الثاني: تَصَوُّف الشَّيْخ عَبْد القَادِر، وطريقه في الإِصْلَاح.

١٢

تَمْهِيْد

من الرِّجَال الأفذاذ في التَّارِيْخ الإِسْلَامِيّ، الذين كان لهم الدور الكَبِيْر في إِصْلَاح المجتمع وعلاج دائه الوبيل، الشَّيْخ المتصوف عَبْد القَادِر الجِيْلَانِيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

ودراستي عن الشَّيْخ في المَبْحَثَيْن الآتيين:

المَبْحَث الأول: شخصية الشَّيْخ عَبْد القَادِر الجِيْلَانِيّ. وفيه:

اسمه، ونسبه، وسنة مِيْلَاده، ومكان ولادته، وعَصْره، وقدومه إلىٰ بَغْدَاد، وشُيُوْخه، وتلاميذه، ومَذْهَبه، وعقيدته، ومجالس وعظه، وسعة علمه، وقوله الحق، وثناء المشايخ عليه، وأوصافه، وكَرَامَاته، وأولاده، ووفاته.

المَبْحَث الثاني: تصوّف الشَّيْخ عَبْد القَادِر الجِيْلَانِيّ وطريقه في الإِصْلَاح. وفيه:

بَيَان معنىٰ التَّصَوُّف لُغَةً واصْطِلَاحاً، وأُصُوْل طريق التَّصَوُّف، وطريق الشَّيْخ عَبْد القَادِر في الإِصْلَاح: إِصْلَاح الفرد، والتمسك بالكِتَاب والسُّنَّة، والدعوة إلىٰ العلم والتَّفَقُّه بالدِّيْن، وما يتصل بذٰلِكَ.

وحاولتُ استيفاء المادة العِلْمِيَّة الوَارِدَة في كتب التَّارِيْخ التي ذكرت أَخْبَارَهُ، وتابعتُ كُتُبَهُ لأُبيِّنَ آرَاءَهُ وأَفْكَارَهُ، ورَكَّزْتُ علىٰ تَصَوُّفِهِ الصَّافِي الذي يخلو من الغُلُوّ والتطرف والإفراط والتفريط، ومن الأَفْكَار الوافدة علىٰ التَّصَوُّف من الحُلُوْل والاتحاد ووحدة الوجود.

وانتهيتُ إلىٰ أن الشَّيْخ عَبْد القَادِر متصوف مصلح مجدد، يبتغي أن تعود صفة مجتمعنا إلىٰ صفة عَصْر الصَّحَابَة والتَّابِعِيْن، عَصْر الصفاء الكَامِل.

ووَثَّقْتُ مادته العِلْمِيَّة من مصادره، فأثقلتُ الهوامش بها، لتتضح صورته وأَفْكَاره

كما دوَّنها معاصروه وتلاميذه، وهم أقدر الناس علىٰ وصفه، وأَوْثَقهم، لقربهم منه.

أرجو أن أكون قد وُفِّقْتُ في تقديم صورة ناصعة صَادِقَة عن هٰذَا الشَّيْخ الجَلِيْل، الذي نذر نفسه لخدمة الإِسْلَام والمُسْلِمِيْن.

رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ رحمةً وَاسِعَة.

المَبْحَث الأول

شخصية الشَّيْخ عَبْد القَادِر الجِيْلَانِيّ

اسمه ونسبه:

هو مُحْيِي الدِّيْن أبو مُحَمَّد عَبْد القَادِر بن أبي صالح مُوسَىٰ بن عَبْد الله بن يَحْيَىٰ الزَّاهِد بن مُحَمَّد بن دَاوُد بن مُوسَىٰ بن عَبْد الله بن مُوسَىٰ الجَوْن بن عَبْد الله المَحْض بن الحسن المُثَنَّىٰ بن الحسن بن أَمِيْر المُؤْمِنِيْن عَلِيّ بن أبي طَالِب رَضِيَ اللهُ عَنْهُم أجمعين.

الهَاشِمِيّ العَلَوِيّ الحَسَنِيّ الجِيْلِيّ الحَنْبَلِيّ[1].

---

(١) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٨٠.

وهٰذَا النسب في:

فُتُوْح الغَيْب ص٢ عن ابنه عَبْد الرَّزَّاق، قال: قال والدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وفيه: (... بن أبي صالح مُوسَىٰ جَنْكِيْ دُوْسْت).

وفي أول الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص٥.

ونسبه هٰذَا في: مُهْجَة البَهْجَة ص١١٤.

وبَهْجَة الأَسْرَار ص١٧١، وفيه: (عن ابنه عَبْد الرَّزَّاق، قال: سألتُ والدي الشَّيْخ مُحْيِي الدِّيْن عن نسبه، قال: عَبْد القَادِر بن أبي صالح مُوسَىٰ جَنْكِيْ دُوْسْت بن أبي عَبْد الله بن يَحْيَىٰ الزَّاهِد بن مُحَمَّد بن دَاوُد بن... المحض، ويُلَقَّب أَيْضاً بالمُجَلّ...).

وأَيْضاً في: قَلَائِد الجَوَاهِر ص٣، وفيه: (... بن أبي صالح جَنْكِيْ دُوْسْت، وقيل: جنكا

. . . .

دوست مُوسَىٰ بن أبي عَبْد الله بن يَحْيَىٰ... المحض، ويُنعت بالمجل أخذه من الإِجْلَال...).

ومِرْآة الجَنَان ج٣ ص٢٦٤-٢٦٥، لٰكِن فيه: (بن أبي عَبْد الله بن يَحْيَىٰ).

والنُّجُوْم الزَّاهِرَة ج٥ ص٣٧١، وفيه: (بن الحسن أبي مُحَمَّد المُثَنَّىٰ).

وفي الذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص٢٩٠: (وبعض الناس يذكر نسبه إلىٰ عَلِيّ بن أبي طَالِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فيَزِيْد بعد أبي عَبْد الله: بن يَحْيَىٰ الزَّاهِد... إلىٰ: الحسن بن عَلِيّ بن أبي طَالِب).

ومثل ما في الذَّيْل ورد في: المَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢١٦.

وورد في الطَّبَقَات الكُبْرَىٰ للشَّعْرَانِيّ ج١ ص٢٢٧: (أبو صالح عَبْد القَادِر بن مُوسَىٰ بن عَبْد الله... إلىٰ: عَلِيّ بن أبي طَالِب).

وفي شَذَرَات الذَّهَب ج٦ ص٣٣٠-٣٣١: (عَبْد القَادِر بن أبي صالح عَبْد الله بن جَنْكِيْ دُوْسْت بن أبي عَبْد الله بن عَبْد الله بن يَحْيَىٰ بن مُحَمَّد بن دَاوُد... إلىٰ: عَلِيّ بن أبي طَالِب). وتحرفت فيه كلمة (الجون) إلىٰ (الحوزي)، وكلمة (المحض) إلىٰ (المُحْصَن).

وورد تَفْسِيْر هٰذِهِ الألقاب في: بَهْجَة الأَسْرَار ص١٧٣، جاء فيه:

(الجَوْن: لقب مُوسَىٰ، وهو من أَسْمَاء الأضداد، يُطلق علىٰ الأبيض والأسود. والأسود هو المُرَاد هنا، لأن مُوسَىٰ كان آدم اللون.

المحض: لقب عَبْد الله، وهو من كل شيء: الخالص، لأن عَبْد الله بن الحسن بن الحسن بن عَلِيّ، وأُمّه فَاطِمَة بنت الحُسَيْن بن عَلِيّ، فنسبه من أبويه خالص، لسَلَامته من الموالي، وانتهائه إلىٰ عَلِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المُجَلّ: مأخوذ من الإِجْلَال، لهٰذَا المعنىٰ.

المُثَنَّىٰ: هو نعت للحسن، لأنه الحسن بن الحسن).

وورد اسمه في كتب من ترجم له مُخْتَصراً علىٰ النَّحْو الآتي:

١ - عَبْد القَادِر بن أبي صالح، أبو مُحَمَّد الجِيْلِيّ: في:

. . . .

المُنْتَظَم ج١٨ ص١٧٣. والكَامِل لابن الأَثِيْر ج٩ ص٤٨٢. ومِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٧٧. والمُخْتَصَر في أَخْبَار البَشَر ج٣ ص٤٣. ودُوَل الإسْلَام ج٢ ص٦٥. والبِدَايَة والنِّهَايَة ج١٢ ص٢٥٢.

٢- عَبْد القَادِر بن أبي صالح الجِيْلِيّ. في:

مَنَاقِب الإمَام أَحْمَد لابن الجَوْزِيّ ص٧٠٧. ونقله عنه سِبْطه في مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٧٩.

٣- أبو مُحَمَّد مُحْيِي الدِّيْن عَبْد القَادِر بن أبي صالح الجِيْلِيّ. في:

مِرْآة الجَنَان ج٣ ص٢٦٢.

٤- عَبْد القَادِر بن أبي صالح عَبْد الله بن جَنْكِيْ دُوْسْت. الشَّيْخ أبو مُحَمَّد الجِيْلِيّ الحَنْبَلِيّ.

وزاد بعض الناس في نسبه إلىٰ أن وصله بالحسن بن عَلِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقال: ابن أبي عَبْد الله بن عَبْد الله بن يَحْيَىٰ الزَّاهِد... إلىٰ آخر النسب الوارد في المتن أعلاه، دون لفظة (الجون).

تَارِيْخ الإسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٢.

٥- عَبْد القَادِر بن أبي صالح عَبْد الله بن جَنْكِيْ دُوْسْت، أبو مُحَمَّد الجِيْلِيّ مُحْيِي الدِّيْن. في:

المَعِيْن في طَبَقَات المُحَدِّثِيْن للذَّهَبِيّ ص١٦٩ رقم ١٨١٠، ولم يذكر: (أبو مُحَمَّد).

والعِبَر للذَّهَبِيّ ج٤ ص١٧٥. ومَسَالِك الأَبْصَار ج٨ ص١١٧، ولم يذكر: (أبو مُحَمَّد). وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٧ نَقْلاً عن تَارِيْخ الإسْلَام للذَّهَبِيّ، وفيه: (بن جنكا دوست). وقَلَائِد الجَوَاهِر ص١٣٥ عن مَسَالِك الأَبْصَار لابن فضل الله.

٦- أبو مُحَمَّد مُحْيِي الدِّيْن عَبْد القَادِر بن صالح بن عَبْد الله بن جَنْكِيْ دُوْسْت، الجِيْلِيّ البَغْدَادِيّ. في:

. . . .

المَقْصَد الأَرْشَد ج٢ ص١٤٨.

٧- مُحْيِي الدِّيْن أبو مُحَمَّد عَبْد القَادِر بن أبي صالح عَبْد الله بن جَنْكِيْ دُوْسْت الجِيْلِيّ. في:

سِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٣٩، وفي هامشه: (جَنْكِيْ دُوْسْت: أي: العَظِيْم القدر، نَقْلاً عن مُعْجَم الشُّيُوْخ ج١ ص٥٢. وانظر: المُعْجَم الفَارِسِيّ في معاني «دوست»).

وفَسَّرَهُ في قَلَائِد الجَوَاهِر ص٣ بقوله: جَنْكِيْ دُوْسْت: لفظ عَجَمِيّ، معناه: يحب القتال.

٨- عَبْد القَادِر بن أبي صالح بن مُوسَىٰ جَنْكِيْ دُوْسْت الجِيْلِيّ. في:

مُخْتَصَر أَخْبَار الخُلَفَاء لابن السَّاعِي ص١٠١.

ونَسَبَهُ حَفِيْدُهُ القَاضِي أبو صالح نصر بن أبي بَكْر عَبْد الرَّزَّاق ابن الشَّيْخ عَبْد القَادِر الجِيْلِيّ فقال: هو عَبْد القَادِر بن أبي صالح عَبْد الله بن مُوسَىٰ جنكا دوست بن أبي عَبْد الله مُحَمَّد بن يَحْيَىٰ بن مُحَمَّد بن دَاوُد...، فأتىٰ بالنسب المتقدم المذكور أعلاه بالمتن، إلىٰ عَلِيّ بن أبي طَالِب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

مُخْتَصَر أَخْبَار الخُلَفَاء لابن السَّاعِي ص١٢٤.

وستأتي معارضته بعد قليل.

٩- عَبْد القَادِر بن أبي صالح بن جَنْكِيْ دُوْسْت. في:

المُسْتَفَاد ص٣٠٤.

١٠- عَبْد القَادِر بن أبي صالح بن جَنْكِيْ دُوْسْت، أبو مُحَمَّد الجِيْلِيّ. ينتهي نسبه إلىٰ الحُسَيْن بن عَلِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

فَوَات الوَفَيَات ج٢ ص٣٧٣.

١١- عَبْد القَادِر بن أبي صالح بن عَبْد الله بن جَنْكِيْ دُوْسْت بن أبي عَبْد الله بن عَبْد الله الجِيْلِيّ البَغْدَادِيّ، مُحْيِي الدِّيْن أبو مُحَمَّد. في:

الذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص٢٩٠.

والشَّيْخ عَبْد القَادِر هو سِبْط أَبي عَبْد الله الصَّوْمَعِيّ الزَّاهِد، وبه كان يعرف، حيث كان بجِيْلَان[1].

وهو في المَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢١٥-٢١٦، لٰكِن فيه: (أبي صالح عَبْد الله).

١٢- عَبْد القَادِر بن أبي صالح مُوسَىٰ بن جَنْكِيْ دُوْسْت. ينتهي نسبه إلىٰ الحُسَيْن بن عَلِيّ بن أبي طَالِب، أبو مُحَمَّد الجِيْلِيّ الحَنْبَلِيّ.

التَّاج المُكَلَّل ص١٥٥.

١٣- عَبْد القَادِر الجِيْلَانِيّ.

جَامِع كَرَامَات الأَوْلِيَاء ج٢ ص٢٠٠.

١٤- عَبْد القَادِر بن أبي صالح مُوسَىٰ جَنْكِيْ دُوْسْت بن أبي عَبْد الله بن يَحْيَىٰ الزَّاهِد بن مُحَمَّد بن دَاوُد، مُحْيِي الدِّيْن أبو مُحَمَّد، الجِيْلِيّ، أعني: الكيلاني البَغْدَادِيّ.

هَدِيَّة العَارِفِيْن ج١ ص٥٩٦.

١٥- عَبْد القَادِر بن مُوسَىٰ بن عَبْد الله بن جَنْكِيْ دُوْسْت الحَسَنِيّ، أبو مُحَمَّد مُحْيِي الدِّيْن الجِيْلَانِيّ، أو الكيلاني، أو الجِيْلِيّ.

الأَعْلَام للزِّرِكْلِيّ ج٤ ص٤٧.

١٦- عَبْد القَادِر بن مُوسَىٰ بن عَبْد الله بن يَحْيَىٰ بن مُحَمَّد الكيلاني الحَسَنِيّ، مُحْيِي الدِّيْن.

مُعْجَم المُؤَلِّفِيْن ج٢ ص٢٠٠.

١٧- عَبْد القَادِر بن صالح الجِيْلِيّ، أبو مُحَمَّد.

تَارِيْخ الخَمِيْس ج٢ ص٣٦٦.

ولم يذكر أحد أن أباه (صالح)، إنما هو (أبو صالح)، فلعله خطأ مطبعي.

(١) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٨٠. وبَهْجَة الأَسْرَار ص١٧١. ومِرْآة الجَنَان ج٣ ص٢٦٥. والنُّجُوْم الزَّاهِرَة ج٥ ص٣٧١. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢١٦. وشَذَرَات الذَّهَب ج٦ ص٣٣١.

وأُمُّهُ أُمّ الخير أَمَةُ الجَبَّار فَاطِمَة بنت أبي عَبْد الله الصَّوْمَعِيّ[1]، وينتهي نسبها إلىٰ الحُسَيْن بن عَلِيّ بن أبي طَالِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[2]، وكان لها حظ وافر من الخير والصَّلَاح[3].

والصَّوْمَعِيّ من جُمْلَة مشايخ جِيْلَان ورؤساء زهادهم، وله الأحوال والكَرَامَات الجلية[4].

والشَّيْخ عَبْد القَادِر هو خال السَّيِّد أَحْمَد بن الرِّفَاعِيّ[5].

وسُمِّيَ (عَبْد الله الصَّوْمَعِيّ) في:

فُتُوْح الغَيْب، تَكْمِلَة في آخر الكتاب، ص١١٢. ومُهْجَة البَهْجَة ص١١٥. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٣.

(١) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٨٠. وبَهْجَة الأَسْرَار ص١٧٢. ومِرْآة الجَنَان ج٣ ص٢٦٥. والنُّجُوْم الزَّاهِرَة ج٥ ص٣٧١. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢١٦. وشَذَرَات الذَّهَب ج٦ ص٣٣١ (لم يذكر اسمها فَاطِمَة).

وكلهم ذكروا (بنت أبي عَبْد الله). وفي قَلَائِد الجَوَاهِر ص٣: (بنت عَبْد الله الصَّوْمَعِيّ الحُسَيْنِيّ).

(٢) فُتُوْح الغَيْب، تَكْمِلَة في آخر الكتاب، ص١١٢.

(٣) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٨٠. وبَهْجَة الأَسْرَار ص١٧٢. ومِرْآة الجَنَان ج٣ ص٢٦٥. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢١٦، وأضاف: والتوكل والتفويض. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٣.

(٤) بَهْجَة الأَسْرَار ص١٧١. ومِرْآة الجَنَان ج٣ ص٢٦٥. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٣.

(٥) مُخْتَصَر أَخْبَار الخُلَفَاء لابن السَّاعِي ص١٠٢.

السَّيِّد أَحْمَد بن الرِّفَاعِيّ: هو أبو العَبَّاس أَحْمَد بن عَلِيّ بن أَحْمَد بن يَحْيَىٰ الحُسَيْنِيّ الرِّفَاعِيّ. تُنْسَب إليه الطريقة الرِّفَاعِيَّة، مَغْرِبِيّ الأصل، جاء والده إلىٰ العِرَاق، فسكن البطائح في قَرْيَة أُمّ عَبِيْدَة، فوُلِدَ فيها ابنه أَحْمَد سنة ٥١٢هـ، وتوفي فيها سنة ٥٧٨هـ، وقبره فيها يُزَار. وهو صاحب الكَرَامَات الظَّاهِرَة، ومَنَاقِبه أكثر من أن تُحصر. من كتبه: شرح التَّنْبِيْه في فُرُوْع الفِقْه الشَّافِعِيّ.

وَفَيَات الأَعْيَان ج١ ص١٧١. وطَبَقَات الشَّافِعِيَّة الكُبْرَىٰ ج٦ ص٢٣. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٨٣.

فالشَّيْخ عَبْد القَادِر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَسَنِيّ الأب، حُسَيْنِيّ الأُمّ.

وذكر الذي تولىٰ طِبَاعَة كتاب (فُتُوْح الغَيْب) في آخره، اتصالَ نسب الشَّيْخ عَبْد القَادِر بالخُلَفَاء الراشدين: أبي بَكْر الصِّدِّيْق، وعُمَر بن الخَطَّاب، وعُثْمَان بن عَفَّان، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أَيْضاً.

وبعدها ذكر نسبه هو - أي: الذي تولىٰ طباعته - إلىٰ الشَّيْخ عَبْد القَادِر(١).

هٰذِهِ المصادر المتقدمة تفيد نسبة الشَّيْخ عَبْد القَادِر إلىٰ الحسن(٢) بن عَلِيّ بن أبي طَالِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

لٰكِن ذَكَرَ آخرون أن من الناس من يرفع نسبه إلىٰ عَلِيّ بن أبي طَالِب، وليس كلهم، وهم:

١. الذَّهَبِيّ، حيث قال: (وزاد بعض الناس في نسبه إلىٰ أن وصله بالحسن بن عَلِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا)(٣).

وجَامِع كَرَامَات الأَوْلِيَاء ج١ ص٤٩٠. ومُعْجَم المُؤَلِّفِيْن ج١ ص٢١٣.

(١) فُتُوْح الغَيْب، تَكْمِلَة في آخر الكتاب ص١١٢-١١٥.

(٢) فيما رجعتُ من مصادر لم أجد أحداً من المؤرخين يذكر أن الشَّيْخ عَبْد القَادِر الجِيْلِيّ منسوب إلىٰ الحُسَيْن بن عَلِيّ بن أبي طَالِب، وليس للحسن، سوىٰ اثنين، هما:

١. صاحب (فَوَات الوَفَيَات)، وهو مُحَمَّد بن شَاكِر الكُتُبِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٧٦٤هـ، في: ج٢ ص٣٧٣.

٢. صاحب (التَّاج المُكَلَّل)، وهو مُحَمَّد صِدِّيْق حسن خان القَنُّوْجِيّ الهِنْدِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٠٨هـ، في: ص١٥٥.

ولعله سبق قلم منهما، أو خطأ مطبعي، لأن مصادرهما في ترجمته هي ما ذكرتُه آنِفاً، وكلها لم تذكر أن الشَّيْخ عَبْد القَادِر منسوب إلىٰ الحُسَيْن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) تَارِيْخ الإِسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٢، وتقدم قوله آنِفاً.

٢. وابن رَجَب، حين قال: (وبعض الناس يذكر نسبه إلىٰ عَلِيّ بن أبي طَالِب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فيَزِيْد بعد أبي عَبْد الله: ابن يَحْيَىٰ الزَّاهِد بن مُحَمَّد بن دَاوُد... عَلِيّ بن أبي طَالِب)[1] بالنسب الذي تقدم آنِفاً بالمتن.

٣. والعُلَيْمِيّ، حيث قال: (وبعض المؤرخين يذكر له نسبه إلىٰ عَلِيّ بن أبي طَالِب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ...)[2].

٤. وابن مُفْلِح، حيث قال: (وبعض المؤرخين يرفع نسبه إلىٰ عَلِيّ بن أبي طَالِب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ)[3].

ولعلهم يشيرون إلىٰ ما ذكره ابن السَّاعِي في مُخْتَصَر أَخْبَار الخُلَفَاء، حين قال:

وفي أوائل أيام خلافته - أي: المُسْتَنْصِر - عزل القَاضِي أبا صالح نصر بن أبي بَكْر عَبْد الرَّزَّاق ابن الشَّيْخ عَبْد القَادِر الجِيْلِيّ من منصب القَضَاء.

وبعد سنين شاع أن أبا صالح نصراً هٰذَا، ادَّعىٰ النسب إلىٰ الإمَام الحسن بن عَلِيّ بن أبي طَالِب كرم الله وجهه، وأنه نسب جَدَّه الشَّيْخ عَبْد القَادِر إليه، وذكر النسب كما قدمتُه آنِفاً عنه.

وقد عارضه بذٰلِكَ النقيب الأتقىٰ ابن الأعرج والسَّيِّد طاهر بن طباطبا وجَمَاعَة من الهَاشِمِيِّيْن ما بين عَبَّاسِيّ وفَاطِمِيّ وجَعْفَرِيّ. وطلبوا منه البينة الشَّرْعِيَّة علىٰ ذٰلِكَ، فأعجزت البينة أبا صالح نصراً، ولم يثبت ما ادَّعاه، واعتزل بعد ذٰلِكَ الناس، فكان لا يخرج، لا إلىٰ سوق، ولا إلىٰ زيارة أحدٍ، حياءً من الناس. وقال فيه ابن المُظَفَّر:

إذا كـان الأعـاجـمُ مـن قُـرَيْـش ... فـما فضلُ العبيد علىٰ المَـوَالِـي

---

(١) الذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة لابن رَجَب ج١ ص٢٩٠.

(٢) المَنْهَج الأَحْمَد للعُلَيْمِيّ ج٣ ص٢١٦.

(٣) المَقْصَد الأَرْشَد لابن مُفْلِح ج٢ ص١٤٩.

متىٰ صار ابنُ جَنْكَا هَاشِمِيّاً أمن بَشْتِيْرَ حَيْدَرة الرِّجَال
أم الشَّرَفُ المُؤَلَّقُ من عَلِيّ بِهُرْمُزَ نال عِقْدَ الاتصال

وكان قد أطلق خطه قبل ذٰلِكَ في كثير من كتبه بأن جده الشَّيْخ عَبْد القَادِر من آل بشتير، بياء تحتية بعد التاء، بطن من الهرامزة بكيلان، وحكاه آخرون بباء موحدة بعد التاء.

ويقال: إنه كتب كتاباً إلىٰ الشَّرِيْف بن مَيْمُوْن نقيب مَكَّة، يطلب منه أن يدخلهم في مشجَّره مع بني الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكتب له في الجواب: السَّلَام عليكم ورحمة الله، أما أنت فعرفناك قَاضِياً، وأما أبوك عَبْد الرَّزَّاق فهو رجل فقيه صالح، وأما جدك الشَّيْخ عَبْد القَادِر فهو شَيْخ صُوْفِيّ تَقِيّ يتبرك به، ويطلب صالح دعائه، ونسبه بشتبريٌّ، كما أنت أطلقت في بعض كتبك، ينتهي إلىٰ بشتبر بطن من الهرامزة بفَارِس. فاتَّقِ الله، ودع الهَاشِمِيَّة لأهلها، والسَّلَام. اهـ.

ولا زالت دعوىٰ أبي صالح مَكْتُوْمَةً، لأن الشَّيْخ عَبْد القَادِر لم يقل بها، ولم يقل بها أَيْضاً أحد من أولاده، وأبو صالح هو أول قائل بها. وقد كان ابن عمه عَبْد السَّلَام يرمىٰ ببغض عَلِيّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإلىٰ ذٰلِكَ أشار المُهَذَّب بقوله فيه كما سبق:

زُحَلِيّاً يَشْنَا[1] علياً ويَهْوَىٰ آلَ حَرْب حِقْداً عليه وضِغْنَا

ومات أبو صالح نصر هٰذَا سنة ثلاث وثلاثين وستمائة (٦٣٣هـ)، ودفن بباب

(١) زَحَلَ عن مكانه، يَزْحَلُ زَحْلًا وزُحُولًا، أي: تَنَحَّىٰ وتباعد. / المُعْجَم العَرَبِيّ الأَسَاسِيّ، مادة (زحل)، ص٥٧١.

والمُرَاد: أنه متباعد عن حب عَلِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

يَشْنَا: شَنَأَ، شَنِئَ، يَشْنَأُ شَنْئاً وشَنَآناً: كَرِهَ وأبغض. / المُعْجَم العَرَبِيّ الأَسَاسِيّ، مادة (شنأ)، ص٧٠٤.

حَرْب، ولم يولَّ أحد القَضَاء من الحَنَابِلَة غيره، ولذٰلِكَ أحسن بعضهم ذكره.

ولبعضهم فيه أقاويل كثيرة.

ولما انقضىٰ أمر الخِلَافَة العَبَّاسِيَّة... وفل رباط الأمر، وأمكن لكل أحد أن يقول ما يريد، أظهر أولاد أحفاد الشَّيْخ عَبْد القَادِر الكلمة بدعوىٰ النسب للإمَام الحسن، والناس فيهم علىٰ القول الأول(١).

ثم قال ابن السَّاعِي:

نعم كان السَّيِّد تاج الدِّيْن ابن السَّيِّد شمس الدِّيْن مُحَمَّد بن الرِّفَاعِيّ يكف عن الطعن بالقَاضِي أبي صالح ونسبه، ويذكره بخير، وربما انتصر له، فقال:

ساق النقيب الأتقىٰ، والسَّيِّد طاهر بن طباطبا، والجَمَاعَة الذين أنكروا علىٰ القَاضِي أبي صالح مدعاه عدم ادعاء الشَّيْخ وأولاده النسبة المذكورة، ولا يقضىٰ سكوت الشَّيْخ وطبقة أولاده عن ادعاء هٰذِهِ النسبة بعدمها، بل ولا يقضىٰ جهلهم بها وعدم علمهم لها برد دعوىٰ القَاضِي أبي صالح.

ويمكن أنه ظهر له ذٰلِكَ وتيقنه وعرف صحته، ونقله عن جَمَاعَة ثِقَات عنده، وهو علىٰ حال من الصَّلَاح والديانة، ولا نظن به ارتكاب هٰذِهِ الدعوىٰ بالباطل.

وقال جَمَاعَة ابن طباطبا وابن الأتقىٰ: سبب انتصار السَّيِّد تاج الدِّيْن للقَاضِي أبي صالح تزوجه بأَمَة الإلٰه أَسْمَاء بنت أَحْمَد بن مُحَمَّد ابن القَاضِي أبي صالح نصر الجِيْلِيّ.

ولٰكِن ينقض قولهم هٰذَا: أن تزوج السَّيِّد تاج الدِّيْن بأَمَة الإلٰه أَسْمَاء بعد سنين

(١) مُخْتَصَر أَخْبَار الخُلَفَاء لابن السَّاعِي، خِلَافَة المُسْتَنْصِر العَبَّاسِيّ ص١٢٤-١٢٥. ونقله محقق المَقْصَد الأَرْشَد: د. عَبْد الرَّحْمٰن بن سُلَيْمَان العثيمين في ج٣ ص٥٨-٥٩ وفيه بعض الأخطاء ونقص سطر أو أكثر، وأشار إلىٰ النَّصّ أَيْضاً في ج٢ ص١٤٩.

وأعوام من انتصاره لأبي صالح، فإنه تزوج بها بعد دخول القاني[١] بَغْدَاد، وبنىٰ بها ببيت ابن الدواليبي وهو شَيْخ كَبِيْر، وهي علىٰ طائفة من الزهد والصَّلَاح.

وخُلَاصَة ما يقال:

إن دعوىٰ القَاضِي أبي صالح فشت، وفشا فيها الخلاف. والسكوت عنها وردها إلىٰ الله تعالىٰ أَوْلَىٰ. والله تعالىٰ أعلم، وإليه المصير، له الحكم وإليه ترجعون[٢].

وقال محقق المَقْصَد الأَرْشَد أَيْضاً:

(وفي ترجمة فضل الله بن عَبْد الرَّزَّاق، أخي الشَّيْخ نصر، في مُعْجَم الحافظ الدِّمْيَاطِيّ ج٢ ص١٣٣، رفع نسبه إلىٰ عَلِيّ بن أبي طَالِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم قال: هٰكَذَا أملاه عَلَيَّ من لفظه وحفظه، وليس بمُتَّصِل)[٣].

أقول:

والذي أُرَجِّحُهُ أن الشَّيْخ عَبْد القَادِر حَسَنِيّ، لما يأتي:

١- إن الذين ترجموا الشَّيْخ عَبْد القَادِر، من أَعْيَان المؤرخين وثِقَاتهم، قالوا بنسبته إلىٰ الحسن ابن الإمَام عَلِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢- إن ابنه الشَّيْخ عَبْد الرَّزَّاق قال: قال والدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وساق نسبه إلىٰ الحسن بن عَلِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، الذي ورد في أول كتاب (فُتُوْح الغَيْب)، كما أشرتُ إليه في (اسمه ونسبه).

٣- إن القَاضِي نصراً، وهو تَقِيّ خَيِّر، لا بد أن يكون قد سمعه وتيقنه، فقال به.

---

(١) القَان: هو الملك الحَاكِم. / تَارِيْخ الخُلَفَاء للسُّيُوْطِيّ ص٧١٢.

والمُرَاد به هنا هو: هولاكو. وكان دخوله بَغْدَاد في سنة ٦٥٦هـ.

(٢) مُخْتَصَر أَخْبَار الخُلَفَاء لابن السَّاعِي ص١٢٥-١٢٦.

(٣) المَقْصَد الأَرْشَد ج٣ ص٥٩ الهامش.

٤- اشتُهر بين الناس في جِيْلَان حين وُلِدَ الشَّيْخ عَبْد القَادِر: أنه وُلِدَ للأشراف ولد لا يرضع في نهار رَمَضَان[١].

والأشراف هم المنتسبون إلىٰ الرَّسُوْل ﷺ.

٥- قال الشَّيْخ عَبْد القَادِر:

أنا الجِيْلَانِي مُحْيِي الدِّيْن اسمي وأَعْـلَامـي علىٰ رُوْس الجبالِ
أنـا الحَسَنِيّ والمَخْدَعْ مَقامي وأقدامي علىٰ عُنُق الرِّجَال[٢]

٦- وقال الشَّيْخ عَبْد القَادِر أَيْضاً:

أنـا الحَسَنِيّ الأصلِ عبدٌ لقَادِر دُعِيتُ بمُحْيِي الدِّيْن في دَوْحَة العُلا
وصَلِّ علىٰ جَدِّي الحَبِيْب مُحَمَّد بأحلىٰ سَلَام في الوجود وأَكْمَلا[٣]

أما قولهم:

إنه لم ينقل عن الشَّيْخ عَبْد القَادِر نسبته إلىٰ الإمَام عَلِيّ، ولا عن أحد من أولاده، فلا يعني عدم انتسابه إليه.

ونترك الأمر لله تعالىٰ، كما قال السَّيِّد تاج الدِّيْن.

سنة مِيلَاده:

اختلفوا في سنة مولده علىٰ أقوال:

---

(١) مُهْجَة البَهْجَة ص١١٦. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٣. وسيأتي هٰذَا الخبر بتمامه بعد قليل.

(٢) مُهْجَة البَهْجَة ص٣٥٠ من الملحق، وفيه إشارة إلىٰ مقولته: (قدمي علىٰ رَقَبَة كل وَلِيّ)، التي ستأتي في ص١٠٤.

(٣) مُهْجَة البَهْجَة ص٣٥٦.

القول الأول:

ولد سنة ٤٧٠هـ[١].

قال ولده عَبْد الرَّزَّاق: سألت والدي عن مولده، فقال: لا أعلمه حقيقة، لٰكِني قَدِمْتُ بَغْدَاد في السنة التي مات فيها التَّمِيْمِيّ، وعُمري إذ ذاك ثَمَانِي عشرة سنة، والتَّمِيْمِيّ توفي سنة ثمانٍ وثَمَانِين وأربعمائة[٢].

فيكون مولده سنة ٤٧٠هـ[٣].

القول الثاني:

ولد سنة ٤٧١هـ[٤].

---

(١) المُنْتَظَم ج١٨ ص١٧٣. ومِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٧٧ نَقْلًا عن المُنْتَظَم.

وأَيْضاً: مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٨٠. والكَامِل في التَّارِيْخ ج٩ ص٤٨٢. والمُخْتَصَر في أَخْبَار البَشَر ج٣ ص٤٣. والبِدَايَة والنِّهَايَة ج١٢ ص٢٥٢. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص١٣٤ نَقْلاً عن القُطْب اليُوْنِيْنِيّ، وشمس الدِّيْن بن ناصر الدِّمَشْقِيّ. وطَبَقَات الشَّعْرَانِيّ ج١ ص٢٢٧.

(٢) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٨٠.

والتَّمِيْمِيّ: هو أبو مُحَمَّد رزق الله بن عَبْد الوَهَّاب. / بَهْجَة الأَسْرَار ص١٧١. ومِرْآة الجَنَان ج٣ ص٢٦٥.

وفي مُهْجَة البَهْجَة ص١١٦: (سُئِلَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن مولده، فقال: لا أعلمه... آنذاك ثَمَانِي عشرة سنة).

وانظر: قَلَائِد الجَوَاهِر ص٣ دون نسبة، وص١٣٤.

(٣) بَهْجَة الأَسْرَار ص١٧١. ومِرْآة الجَنَان ج٣ ص٢٦٥.

(٤) المُسْتَفَاد ص٣٠٦. وبَهْجَة الأَسْرَار ص١٧١. وتَارِيْخ الإِسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٣. والعِبَر ج٤ ص١٧٥. وسِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٣٩. ومَسَالِك الأَبْصَار ج٨ ص١١٨. والنُّجُوْم الزَّاهِرَة ج٥ ص٣٧١. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص١٣٤ ونقل أَيْضاً السنة عن الذَّهَبِيّ.

ذكر أبو الفَضْل أَحْمَد بن صالح الجِيْلِيّ الحَنْبَلِيّ: أن مولد الشَّيْخ مُحْيِي الدِّيْن المذكور سنة ٤٧١هـ، وأنه دخل بَغْدَاد سنة ٤٨٨هـ، وله ثَمَانِي عشرة سنة[١].

القول الثالث:

ذكر بعضهم التَّارِيْخَيْنِ: ٤٧٠هـ أو ٤٧١هـ، ولم يجزم بأي منهما[٢].

مكان ولادته:

ولد الشَّيْخ عَبْد القَادِر في جِيْلَان[٣].

---

(١) بَهْجَة الأَسْرَار ص١٧١ . ومِرْآة الجَنَان ج٣ ص٢٦٥.

وانظر: قَلَائِد الجَوَاهِر ص١٣٤.

(٢) المَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢١٦.

وفي الذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص٢٩٠: (ولد سنة ٤٩٠ أو ٤٩١هـ)، وهو خطأ قطعاً لمخالفته جميع المصادر التي ذكرت سنة ولادته، ولعله سبق قلم، لأنه ذكر المحقق في هامشه: (في خَطِّيَّة الإدارة الثقافية أنه ولد سنة ٤٧٠ أو سنة ٤٧١هـ).

ونحوه في: التَّاج المُكَلَّل ص١٥٥: (ولد بجِيْلَان سنة ٤٩٠ أو سنة ٤٩١هـ).

وفي فَوَات الوَفَيَات ج٢ ص٣٧٣: (قال الشَّيْخ شمس الدِّيْن: ولد بجِيْلَان سنة إحدىٰ وتسعين وأربعمائة). وهو أَيْضاً خطأ قطعاً، لمخالفته ما أثبته الذَّهَبِيّ في تَارِيْخ الإسْلَام وسِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء: أنه ولد سنة ٤٧١هـ، كما أشرتُ آنِفاً، ولمخالفته المصادر التي ذكرت سنة ولادته. ومقدار عُمْره، أو أنه خطأ مطبعي.

(٣) بَهْجَة الأَسْرَار ص١٧١ عن أبي الفَضْل أَحْمَد بن صالح الجِيْلِيّ الحَنْبَلِيّ.

وهو في: تَارِيْخ الإسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٣. والعِبَر ج٤ ص١٧٥. وسِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٣٩. ومَسَالِك الأَبْصَار ج٨ ص١١٨. وفَوَات الوَفَيَات ج٢ ص٣٧٣ عن شمس الدِّيْن (الذَّهَبِيّ). والذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص٢٩٠. والنُّجُوْم الزَّاهِرَة ج٥ ص٣٧١. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢١٦. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص١٣٤، وفيه: وُلِدَ ببلدة

قال شمس الدِّيْن بن ناصر الدِّيْن الدِّمَشْقِيّ رحمة الله عليه:

والجيل موضعان:

أحدهما: اسم لصُقْعٍ وَاسِعٍ مجاور لبلاد الدَّيْلَم، مشتمل علىٰ بلاد كثيرة، ليس منها مَدِيْنَة كَبِيْرَة[١].

وجِيْلَان أو كيلان، ويقال أَيْضاً: بلاد الدَّيْلَم: وِلَايَة من القسم الشمالي الغربي من بلاد فَارِس، يحدها شمالاً ناحية تاليس الروسية، وجنوباً بغرب سلسلة جبال البرز الفَاصِلَة بينهما وبين أَذْرَبِيْجَان وعِرَاق العَجَم، وجنوباً بشرق مَازَنْدَرَان، وشمالاً بشرق بحر قَزْوِيْن. وهي تعد من أجمل ولايات فَارِس[٢].

الجيل. وشَذَرَات الذَّهَب ج٦ ص٣٣١. والتَّاج المُكَلَّل ص١٥٥.

وجاء في: المُسْتَفَاد ص٣٠٥ أنه من أهل جِيْلَان، وكذٰلِكَ في سِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٤١ نَقْلاً عن السَّمْعَانِيّ.

(١) قَلَائِد الجَوَاهِر ص١٣٤.

وفي مُخْتَصَر أَخْبَار الخُلَفَاء لابن السَّاعِي ص١٠٢: (وأصلهم - والكلام عن أحفاد الشَّيْخ عَبْد القَادِر - من كيلان، وهي بلاد متفرقة وراء طَبَرِسْتَان).

(٢) رِجَال الفكر والدعوة ص٢٩٥ نَقْلًا عن دائرة المَعَارِف للبُسْتَانِيّ.

وانظر: مِرْآة الجَنَان لليَافِعِيّ ج٣ ص٢٦٥، وفيه: (أنه منسوب إلىٰ جِيْل، بكسر الجيم وسكون المثناة من تحت، وهي بلاد متفرقة وراء طَبَرِسْتَان، وبها ولد، ويقال لها أَيْضاً: جِيْلَان وَكِيْلان).

ونحو ما في مِرْآة الجَنَان هو في: قَلَائِد الجَوَاهِر ص١٣٤ نَقْلاً عنه وعن بَهْجَة الأَسْرَار.

وانظر: شَذَرَات الذَّهَب ج٦ ص٣٣١.

وفي تَاج العَرُوْس، مادة (جيل)، ج٢٨ ص٢٦١: (و) جِيلانُ (بالكسر: إقليم بالعَجَم، مُعَرَّب كِيلانَ) بالإمالة، وإليه نسبة القُطْب سَيِّدِي عَبْد القَادِر الجِيْلَانِيّ.

والآخر: بلدة الشَّيْخ عَبْد القَادِر وهي الجيل، وتسمىٰ الكيل، بكاف مشوبة بالجيم، وبكاف خالصة.

وسماها الحافظ أبو عَبْد الله مُحَمَّد بن سَعْد الدينثي[١]: الكال، وكأنه أخذه من ابن الحَجَّاج الشاعر، فإنه سماها في بعض شعره بالكال، وهي قَرْيَة تحت مدائن كسرىٰ[٢].

وورد في (مُهْجَة البَهْجَة) أنه:

(ولد بالجيل، وهي قَرْيَة بشاطئ الدِّجْلَة، قرب المدائن، علىٰ مَسِيْرَة ثلاث ليال تحت بَغْدَاد. وهو الأصح، لأن كتب الأقدمين لم تنعته بالجِيْلَانِيّ نسبة جِيْلَان، بل الجِيْلِيّ وهي نسبة جيل العِرَاق)[٣].

ويعكر عليه ما قاله في مُهْجَة البَهْجَة بعد ذٰلِكَ:

(قال ولده عَبْد الوَهَّاب: سمعت من مشايخ الجيل وعلمائها في رحلتي إليها، يروون عن أكابرهم، أنه كان لا يرضع في نهار رَمَضَان، يعني والده الشَّيْخ مُحْيِي الدِّيْن عَبْد القَادِر الجِيْلِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)[٤].

والذي أراه:

أن (الجيل) القَرْيَة بشاطئ دِجْلَة قرب المدائن، ليست هي محل ولادة الشَّيْخ عَبْد القَادِر.

---

(١) هٰكَذَا في قَلَائِد الجَوَاهِر، ولعله: أبو عَبْد الله مُحَمَّد بن سَعِيْد الدُّبَيْثِيّ، المؤرخ الشهير، المُتَوَفَّىٰ سنة ٦٣٧هـ.

(٢) قَلَائِد الجَوَاهِر ص١٣٤ نَقْلًا عن شمس الدِّيْن بن ناصر الدِّيْن الدِّمَشْقِيّ.

وهٰذَان الموضعان في: بَهْجَة الأَسْرَار ص١٧١ بعد قوله: (قلتُ). وفي: مَرَاصِد الاطِّلَاع ج١ ص٣٦٨.

(٣) مُهْجَة البَهْجَة ص١١٥.

(٤) مُهْجَة البَهْجَة ص١١٦-١١٧.

وهو في: بَهْجَة الأَسْرَار ص١٧٢.

وإنما ولد في (جِيْلَان) التي ذكرها المؤرخون أنها من بلاد الدَّيْلَم، من بلاد فَارِس، وهي بلاد سكنتها القبائل العَرَبِيَّة من أيام الفُتُوْحات الإسْلَامِيَّة الأُوْلَىٰ، والدليل علىٰ ذٰلِكَ ما يأتي:

١- أن (الجيل) بلد كَبِيْر، فيه مشايخ وعُلَمَاء وأكابر، وهٰذَا عادةً لا يتوفر في قَرْيَة صَغِيْرَة.

٢- أن ابنه الشَّيْخ عَبْد الوَهَّاب قد ارتحل إليها، وسمع من مشايخها وعلمائها، وهٰذَا الارتحال والسَّمَاع من المشايخ والعُلَمَاء لا يتم في قَرْيَة صَغِيْرَة من ضواحي بَغْدَاد.

٣- في حكاية الشَّيْخ عَبْد القَادِر عن سفره إلىٰ بَغْدَاد لطلب العلم، قال: (فَسِرْتُ مع قافلةٍ صَغِيْرَة نطلب بَغْدَادَ، فلما تجاوزنا هَمَذَان، وكنا بأرض برتيك، خرج علينا...).

وسفره من جيلان إلىٰ بَغْدَاد لطلب العلم، وتجاوزه هَمَذَان، وأرض برتيك، وهٰذِهِ كلها في إيران، يَدُلّ علىٰ أن الشَّيْخ من جيلان الإيرانية[1].

٤- أن أُمّه لما وضعته قالت غير مرة: لما وضعتُ ابني عَبْد القَادِر كان لا يرضع ثديي في نهار رَمَضَان، وغُمَّ علىٰ الناس هِلَال رَمَضَان، فأتوني وسألوني عنه، فقلتُ: لم يلتقم اليوم ثدياً، ثم اتضح أن ذٰلِكَ اليوم كان من رَمَضَان.

واشتهر في ذٰلِكَ الوقت أنه ولد للأشراف ولد لا يرضع في نهار رَمَضَان[2].

فأُمّه جِيْلَانِيَّة، ووالدها أبو عَبْد الله الصَّوْمَعِيّ، كان من مشايخ جِيْلَان ورؤساء زهادهم، كما تقدم ذٰلِكَ في نسبه.

فأُسرته ونشأته وبيئته بهٰذَا الحجم لا يُتَصَوَّر أن تكون في قَرْيَة صَغِيْرَة.

---

(١) عبارة الشَّيْخ بتمامها في موضوع (صدقه) الآتي.

(٢) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٨٠. وبَهْجَة الأَسْرَار ص١٧٢. ومُهْجَة البَهْجَة ص١١٦. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢١٦. والطَّبَقَات الكُبْرَىٰ للشَّعْرَانِيّ ج١ ص٢٢٧.

٥- لما قال الشَّيْخ أبو يَعْقُوْب يُوْسُف الهَمَدَانِيّ للشَّيْخ عَبْد القَادِر: تكلم علىٰ الناس. أجابه الشَّيْخ عَبْد القَادِر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا سَيِّدِي أنا رجل أَعْجَمِيّ، أيش أتكلم علىٰ فصحاء بَغْدَاد؟ فقال لي: أنت الآن حفظت الفِقْه وأُصُوْل الفِقْه والخلاف والنَّحْو واللُّغَة وتَفْسِيْر القُرْآن، الآن يصلح لك أن تتكلم علىٰ الناس. اصعد علىٰ الكرسي، وتكلم علىٰ الناس، فإني أرىٰ فيك عِذْقاً سيصير نخلةً[1].

وذُكِرَ في وصف الشَّيْخ عَبْد القَادِر بأنه (عَجَمِيّ)[2] أو (أَعْجَمِيّ)[3].

ومَعْلُوْم أن نسبه عَرَبِيّ حَسَنِيّ، لٰكِنه سكن بلاد العَجَم في جِيْلَان، فنُسِبَ إليها، فقيل: إنه عَجَمِيّ أو أَعْجَمِيّ. وهٰذَا يَدُلّ علىٰ أن المُرَاد بجِيْلَان هو من بلاد الدَّيْلَم، بلاد العَجَم، كما ذكرناه.

عَصْرِه:

ولد الشَّيْخ عَبْد القَادِر سنة ٤٧٠هـ أو ٤٧١هـ، وتوفي سنة ٥٦١هـ. فعاصر ستة خُلَفَاء عبَّاسِيِّيْن، هم:

---

(١) بَهْجَة الأَسْرَار ص٢٧٨-٢٧٩.

وتَارِيْخ الإِسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٩. وسِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٤٦. ومَسَالِك الأَبْصَار ج٨ ص١٢٠. وفي هٰذِهِ الثلاثة: (أَعْجَمِيّ قُحّ أخرس).

(٢) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص١١٤ في وصف أبي بَكْر بن هَوَّار، بلفظ: (عَجَمِيّ شَرِيْف).

ومِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص١١٧ في وصف عزاز بن مستودع البطائحي، بلفظ: (عَجَمِيّ شَرِيْف).

وبَهْجَة الأَسْرَار ص٢١١ في وصف أبي البَقَاء العُكْبَرِيّ فيمن لبس عنه الخِرْقَة، بلفظ: (عَجَمِيّ).

والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٤١ في وصف أبي بَكْر بن هَوَّار، بلفظ: (عَجَمِيّ شَرِيْف).

(٣) بَهْجَة الأَسْرَار ص٢٥٥ في ترجمة أبي بَكْر بن هَوَّار، بلفظ: (أَعْجَمِيّ شَرِيْف).

١- المقتدي بأمر الله، أبو القَاسِم عَبْد الله بن مُحَمَّد بن القائم بأمر الله.

وخلافته من سنة ٤٦٧هـ إلىٰ ٤٨٧هـ.

٢- المستظهر بالله، أبو العَبَّاس أَحْمَد بن المقتدي بالله.

وخلافته من سنة ٤٨٧هـ إلىٰ ٥١٢هـ.

٣- المسترشد بالله، أبو مَنْصُوْر الفَضْل بن المستظهر بالله.

وخلافته من سنة ٥١٢هـ إلىٰ ٥٢٩هـ.

٤- الراشد بالله، أبو جَعْفَر مَنْصُوْر بن المسترشد.

وخلافته من سنة ٥٢٩هـ إلىٰ ٥٣٠هـ.

٥- المقتفي لأمر الله، أبو عَبْد الله مُحَمَّد بن المستظهر بالله.

وخلافته من سنة ٥٣٠هـ إلىٰ ٥٥٥هـ.

٦- المستنجد بالله، أبو المُظَفَّر يُوْسُف بن المقتفي.

وخلافته من سنة ٥٥٥هـ إلىٰ ٥٦٦هـ(١).

وفي أيام هٰؤُلَاءِ الخُلَفَاء كان الصراع دائراً بين الخُلَفَاء وسَلَاطِيْن السلاجقة، الذين يريدون بسط نفوذهم علىٰ الدولة العَبَّاسِيَّة، مما أدىٰ إلىٰ اضطرابات سياسية عنيفة في البلاد(٢).

ومما زاد الصراع عنفاً الدولةُ الفَاطِمِيَّة في مِصْر وشمال إفْرِيْقِيَّة، التي كانت تدين بمَذْهَب الشِّيْعَة الإسْمَاعِيْلِيَّة.

والإسْمَاعِيْلِيَّة نسبة إلىٰ إسْمَاعِيْل ابن الإمَام جَعْفَر الصَّادِق، الذي نَصَّ علىٰ أن إسْمَاعِيْل هو الإمَام بعده، وجعل الوصية إليه، لأن إسْمَاعِيْل هو أسن أولاده، وآثرهم عنده.

---

(١) تَارِيْخ الخُلَفَاء للسُّيُوْطِيّ ص٦٥٠ وما بعدها.

(٢) انظر نماذج من هٰذَا الصراع في: تَارِيْخ الخُلَفَاء للسُّيُوْطِيّ.

وافترقت الإِسْمَاعِيْلِيَّة إلىٰ شعبتين هما:

الشُعْبَة الأُوْلَىٰ: وقفت في موت مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيْل، المُلَقَّب بالمَكْتُوْم، وقالت برجعته بعد موته، وانتظرته مَهْدِيّاً يبعث، وهٰؤُلَاءِ هم القَرَامِطَة.

والشُعْبَة الثانية: ساقت الإِمَامَة من بعد إِسْمَاعِيْل في أَئِمَّة مستورين، أولهم ابنه مُحَمَّد المَكْتُوْم إلىٰ أن ظهر الإِمَام الشَّرْعِيّ في شخص عُبَيْد الله المَهْدِيّ مؤسس الدولة الفَاطِمِيَّة، الذي هو أول الأَئِمَّة الظَّاهِرِيّن، المُتَوَفَّىٰ سنة ٣٢٢هـ.

ومن هٰؤُلَاءِ: البُهْرَة، والحشاشون، والخَطَّابِيَّة.

وكل هٰؤُلَاءِ من الغُلَاة، تستروا بالتشيع، وظهر منهم التعطيل والإباحة(١).

ومن عَقَائِد الإِسْمَاعِيْلِيَّة:

١- ما قاله الحَامِدِيّ في كتابه البَاطِنِيّ كَنْز الولد: إن عَلِيّاً هو الله الخَالِق البَارِئ المُصَوِّر.

٢- النُّبُوَّة عندهم مكتسبة، فالإنسان يستطيع أن يكون نبياً بالرِّيَاضات والمُجَاهَدَة. والقُرْآن من كلام الرَّسُوْل.

٣- الإِمَامَة فرض من الله سُبْحَانَهُ، فلا يَصِحّ الإيمان بالله والرَّسُوْل إلَّا بالإيمان بالإِمَام. ومن مات ولم يعرف إِمَام زَمَانه مات ميتة جاهلية.

لذٰلِكَ كان الإِسْمَاعِيْلِيَّة يخاطبون أئمتهم مخاطبة العبد لربه. قال ابن هانئ

(١) كتابي: العَقِيْدَة الإِسْلَامِيَّة ومَذَاهِبها ص٨٧ وما بعدها، نَقْلًا عن: مَقَالَات الإِسْلَامِيِّيْن للأَشْعَرِيّ، والتَّبْصِيْر في الدِّيْن للإِسْفَرَايِيْنِيّ، وتَبْصِرَة الأَدِلَّة للنَّسَفِيّ، وشرح الحُوْر العِيْن لنَشْوَان، والمِلَل والنِّحَل للشَّهْرَسْتَانِيّ، واعْتِقَادَات فِرَق المُسْلِمِيْن للرَّازِيّ، والفِرَق الإِسْلَامِيَّة للكَرْمَانِيّ، وشرح المَوَاقِف للسَّيِّد الشَّرِيْف، والمُنْيَة والأَمَل لابن المُرْتَضَىٰ، وخِطَط المَقْرِيْزِيّ، وكَشَّاف اصْطِلَاحَات الفُنُوْن للتَّهَانَوِيّ.

الأَنْدَلُسِيّ مخاطباً المُعِزّ الفَاطِمِيّ:

ما شِئْتَ لا ما شاءتِ الأقدارُ فاحكمْ فأنتَ الواحِدُ القَهَّارُ

٤- الإسْمَاعِيْلِيَّة يقولون بالحُلُوْل والتناسخ، وهو عَيْن ما يقوله الهِنْدوس.

٥- الإسْمَاعِيْلِيَّة يعتقدون بتحريف القُرْآن الكَرِيْم. قال جَعْفَر بن مَنْصُوْر الإسْمَاعِيْلِيّ: (وقد خاب من حمل ظلماً، ظلم آل مُحَمَّد) هٰكَذَا أُنزلت هٰذِهِ الآية.

٦- الإسْمَاعِيْلِيَّة يقولون بتكفير الصَّحَابَة، وعلىٰ رأسهم: أبو بَكْر وعُمَر وعُثْمَان.

٧- الإسْمَاعِيْلِيَّة يعتقدون بأن مُحَمَّد بن إسْمَاعِيْل نسخ شريعة مُحَمَّد ﷺ، وأنه خاتم النَّبِيِّيْن[1].

٨- استحلوا استعراض الناس بالسَّيْف، وقتلهم، وأخذ أموالهم، والشهادة عليهم بالكفر.

٩- استحلوا المحرمات، فأباحوا الأُمَّهَات والبنات والأخوات والذكران، والزنا واللواط والسرقة وشرب الخمور، وقالوا: كل ما حرمه الشَّرْع هو مباح.

وأباحوا شهادة الزور لموافقيهم علىٰ مخالفيهم[2].

قال أبو الحسن القَابِسِيّ:

إن الذين قتلهم عُبَيْد الله وبنوه من العُلَمَاء والعُبَّاد أربعة آلاف رجل، ليردهم عن

(١) كتابي: العَقِيْدَة الإسْلَامِيَّة ومَذَاهِبها ص٩٣ وما بعدها، نَقْلًا عن الإسْمَاعِيْلِيَّة لإحْسَان إلٰهِيّ ظَهِيْر، الذي نقل عن مصادرهم.

(٢) كتابي: تَأْوِيْل النَّصّ الشَّرْعِيّ ص٤١٣ وما بعدها، نَقْلًا عن المَقَالَات والفِرَق للقُمِّيّ، وفِرَق الشِّيْعَة للنَّوْبَخْتِيّ.

التَّرَضِّي عن الصَّحَابَة، فاختاروا الموت[١].

لذٰلِكَ أمر أبو سَعِيْد الجَنَّابِيّ وولدُهُ أبو طاهر عند تمكنهم في دارهم، بترك الصلاة والأذان وشرائع الإسْلَام، وبالاستخفاف بالرَّسُوْل الكَرِيْم ﷺ، وبالبيت الحرام، وقتل الحُجَّاج، وتخريب المساجد، واستحلال كل محرم في الدِّيْن، وهجران القُرْآن، وجميع أَحْكَام الأنبياء صلوات الله عليهم، وأمرهم بنكاح البنات والأخوات وتزويج الذكران، وبناء بيوت الشراب، وشتيمة الأنبياء.

وأمر ابنه أبا طاهر فقصد مَكَّة لإخرابها سنة ٣١٧هـ، ودخلها يوم التَّرْوِيَة، وقتل من الحُجَّاج في رِوَايَة الإِمَام المَنْصُوْر بالله عَلَيْهِ السَّلَامُ ستة آلاف، وفي رِوَايَة ابن مَالِك اثْنَي عَشَر ألفاً، ورمىٰ القتلىٰ في زَمْزَم، وأخذ الحجر الأسود، وعَرَّىٰ الكَعْبَة، وقلع بابها، وبقي الحجر الأسود عندهم اثنتين وعشرين سنة إلَّا شهراً.

وظل عندهم حتىٰ ورد عليهم رسل ابن يَاقُوْت التُّرْكِيّ، فردوه لخمس بقين من ذي القِعْدَة سنة ٣٣٩هـ.

وأقام أبو طاهر كذٰلِكَ حتىٰ سلم مملكته إلىٰ زِكْرَوَيْه المَجُوْسِيّ.

قال الرَّاوِي: وتالله لقد رأيتُ المصاحف أيام زِكْرَوَيْه يُتَغَوَّط عليها، ويمسح بها آثار الغائط، تعمداً بذٰلِكَ[٢].

وكان البَاطِنِيَّة يعيثون في الأرض فساداً، فاغتالوا الأَعْيَان والأَئِمَّة، منهم: الإِمَام الرُّوْيَانِيّ عَبْد الوَاحِد بن إسْمَاعِيْل، فَخْر الإِسْلَام الشَّافِعِيّ الطَّبَرِيّ، الذي قتلته البَاطِنِيَّة بجَامِع آمُل، سنة ٥٠٢هـ.

(١) تَارِيْخ الخُلَفَاء للسُّيُوْطِيّ ص٦٨.

(٢) كتابي: تَأْوِيْل النَّصّ الشَّرْعِيّ ص٤١٦ وما بعدها، نَقْلًا عن بَيَان مَذْهَب البَاطِنِيَّة وبطلانه للدَّيْلَمِيّ.

ومنهم الحشاشون الذين كان لهم دور كَبِيْر في إثارة البلبلة والرعب في المجتمع الإسْلَامِيّ، وقطع الطريق، وتخريب البلاد.

لذٰلِكَ أفتىٰ العُلَمَاء بارتداد الإسْمَاعِيْلِيَّة وزندقتهم، كما قال القَاضِي عِيَاض: (أجمع العُلَمَاء بالقَيْرَوَان أن حال بني عُبَيْد حال المُرْتَدّين والزنادقة).

وقال البَغْدَادِيّ: (والذي صح عندي من دين البَاطِنِيَّة - وهو من أَسْمَاء الإسْمَاعِيْلِيَّة - أنهم دهرية زنادقة، يقولون بقدم العالم، وينكرون الرَّسُوْل والشرائع كلها، لميلها إلىٰ استباحة كل ما يميل إليه الطبع).

وكتب الإمَام الغَزَالِيّ كتابه (فضائح البَاطِنِيَّة)، رَدَّ فيه مَقَالَاتهم، وأوجب تخطئتهم وتضليلهم، وألزم تكفيرهم والتبري منهم.

وكذٰلِكَ مُحَمَّد بن الحسن الدَّيْلَمِيّ في كتابه (بَيَان مَذْهَب البَاطِنِيَّة وبطلانه)[1].

وأَيْضاً الشَّيْخ عَبْد القَادِر في كتابه (الغُنْيَة) الذي كتب فيه فصلاً (في بَيَان الفرق الضالة عن طريق الهُدَىٰ)، فتحدث عن فرق الغُلَاة، والإسْمَاعِيْلِيَّة والقَرَامِطَة منهم[2]، وغيرهم.

وبقي هٰؤُلَاءِ علىٰ ضلالهم وعبثهم بأمن البلاد، واتصالهم بالصليبيين، بل كانوا أدلاء لهم علىٰ المُسْلِمِيْن في الشَّام وغيرها.

إلىٰ أن جاء صَلَاح الدِّيْن الأَيُّوْبِيّ، فبدأ بهم، وأسقط الدولة الفَاطِمِيَّة العُبَيْدِيَّة سنة ٥٦٧هـ، ثم ثَنَّىٰ بالصليبيين، لأنه يخشىٰ أن لو بدأ بالصليبيين عاونهم الفَاطِمِيُّون.

(١) كتابي: العَقِيْدَة الإسْلَامِيَّة ومَذَاهِبها ص٩٩-١٠٠، نَقْلًا عن الإسْمَاعِيْلِيَّة لإحْسَان إلٰهِيّ ظَهِيْر، والفَرْق بين الفِرَق للبَغْدَادِيّ.

وانظر: تَارِيْخ الخُلَفَاء للسُّيُوْطِيّ ص٦٦-٦٩و٦٠٣.

(٢) الغُنْيَة ص١٢٣-١٢٧.

ويقابل ذٰلِكَ ما قام به الفرنجة من اعتداءات علىٰ البلاد الإِسْلَامِيَّة وحصارها وقتل رِجَالها، في أوقات متعددة.

ففي سنة ٤٩٢هـ استولىٰ الفرنجة علىٰ بَيْت المَقْدِس بعد حصار شهر ونصف، وقتلوا به أكثر من سبعين ألفاً، منهم جَمَاعَة من العُلَمَاء والعُبَّاد والزهاد، وهدموا المَشَاهد، وجمعوا اليَهُوْد في الكنيسة، وأحرقوها عليهم[١].

وحروبهم مع المُسْلِمِيْن سجال.

وفي سنة ٥٤٣هـ حاصرت الفرنج دِمَشْق، فوصل إليها نور الدِّيْن مَحْمُوْد بن زَنْكِي وهو صاحب حَلَب يومئذٍ، وأخوه غازي صاحب المَوْصِل، فنُصِرَ المُسْلِمُوْن، وهُزِمَ الفرنج، واستمر نور الدِّيْن في قتال الفرنج، وأخذوا ما استولوا عليه من بلاد المُسْلِمِيْن[٢].

يُضاف إلىٰ ما تقدم دخول العناصر الأجنبية بعاداتها وتقاليدها، وظهور الفلسفات الوافدة، وهٰذَا أدىٰ إلىٰ تبعثر المعايير الخلقية، وانعدام المَوَازِيْن التي كان عليها المُسْلِمُوْن الأوائل.

فتكالب الناس علىٰ المادة وحب الدنيا والمناصب والجاه.

هٰؤُلَاءِ الخُلَفَاء الستة الذين عاصرهم الشَّيْخ عَبْد القَادِر، كان من صفاتهم الحزم والقوة ومَعْرِفَة السِّيَاسَة.

إلَّا أنهم مهما أُوتوا من صفات جَلِيْلَة، فإن الظروف المُحِيْطَة بهم مما ذكرنا، والأوضاع المُضْطَرِبَة القلقة، لا يستطيعون معها أن يحققوا ما تصبو إليه نفوسهم، من استقرار البلاد والنهضة بها إلىٰ درجات الرقي المنشود.

---

(١) تَارِيْخ الخُلَفَاء للسُّيُوْطِيّ ص٦٥٦.

(٢) تَارِيْخ الخُلَفَاء للسُّيُوْطِيّ ص٦٧٣.

فيأتي هنا دور المصلح الذي يفتح الآفاق، فيربي النفوس، ويصف دواءها، وينهض بالمجتمع مُزِيْلاً أسقامه وعلله، بهمة قَوِيَّة، ونفس زَكِيَّة، عازفة عن الشهوات.

ويملك لِسَاناً ذَرِباً يخاطب الناس علىٰ قدر عُقُوْلهم، العُلَمَاء منهم وعامتهم، ويهدي الحائرين إلىٰ سَبِيْل الحق، ويخرجهم من الظلمات إلىٰ النُّوْر، فيهذب النفوس، ويجدد الصِّلَة بالله تعالىٰ، ويذكر بالآخِرَة، ويخلص الدِّيْن لله سُبْحَانَهُ، فيعيد صورة المجتمع الأُوْلَىٰ التي كان عليها الصَّحَابَة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ظهر الشَّيْخ عَبْد القَادِر في هٰذِهِ الظروف العصيبة متصوفاً، ومجدداً، وداعياً إلىٰ رأب الصدع الذي حدث في النفوس والمجتمع، ومرشداً يداوي أمراض عَصْره، ويرد ضلالة الناس.

فتسلم الزعامة الدِّيْنِيَّة، والتَفَّ حوله الناس، ورأوا فيه المنقذ المداوي لما في المجتمع من أمراض وبيلة.

قدومه بَغْدَاد:

بَغْدَاد مركز العالم الإِسْلَامِيّ، وعَاصِمَة الخِلَافَة العَبَّاسِيَّة، وموئل الحَضَارَة، وزِيْنَة البلاد.

فيها المدارس، والمكتبات، ودور العلم، والشُّيُوْخ، والحلقات العِلْمِيَّة.

فلا غرابة أن تكون محط أَنْظَار الطلبة من كل أنحاء البلاد.

قدم الشَّيْخ عَبْد القَادِر بَغْدَاد شاباً[1]، سنة

(١) المُسْتَفَاد ص٣٠٥. وتَارِيْخ الإِسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٣. والعِبَر ج٤ ص١٧٥. وسِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٣٩. ومَسَالِك الأَبْصَار ج٨ ص١١٨. وفَوَات الوَفَيَات ج٢ ص٣٧٣ عن شمس الدِّيْن، أي: الذَّهَبِيّ. والذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص٢٩٠. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢١٨. والتَّاج المُكَلَّل ص١٥٥.

٤٨٨هـ(١)، وعُمْره ثَمَانِي عشرة سنة(٢).

وجاء إلىٰ زاوية الشَّيْخ حَمَّاد بن مُسْلِم الدَّبَّاس، أول دخوله بَغْدَاد(٣).

شُيُوْخه:

كان الشَّيْخ عَبْد القَادِر حريصاً علىٰ تَحْصِيْل العُلُوْم الشَّرْعِيَّة، لأن طلب العلم فريضة علىٰ كل مُسْلِم، وأنه شِفَاء للنفوس المريضة، إذ هو أفصح سَبِيْلاً، وأبلغ حُجَّة، وأظهر دليلاً، وأرفع معارج اليقين، وأعظم مناصب الدِّيْن، فشمر عن ساعد الجد في طلب أُصُوْله وفُرُوْعه، وقصد الشُّيُوْخ أَعْلَام الهُدَىٰ، يتعلم علىٰ أيديهم.

---

(١) المُسْتَفَاد ص٣٠٥. وتَارِيْخ الإسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٦ عن ابن النَّجَّار. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٧ عن مُحِبّ الدِّيْن مُحَمَّد بن النَّجَّار في تَارِيْخه.

(٢) المُسْتَفَاد ص٣٠٥. وتَارِيْخ الإسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٦ عن ابن النَّجَّار. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٧ عن ابن النَّجَّار.

وفي المَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢١٨: ابن سبع عشرة سنة، أو ثَمَانِي عشرة.

(٣) في قَلَائِد الجَوَاهِر ص٣: (قال الشَّيْخ الإمَام تَقِيّ الدِّيْن مُحَمَّد الواعظ اللُّبْنَانِيّ عفا الله عنه في كتابه الموسوم برَوْضَة الأبرار ومَحَاسِن الأخيار: فلما دخل إلىٰ بَغْدَاد وقف له الخضر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومنعه الدخول، وقال له: ما معي أمر بأن تدخل إلىٰ سبع سنين.

فأقام علىٰ الشط سبع سنين يلتقط من البقالة من المباح، حتىٰ صارت الخضرة تبين من عنقه. ثم قام ذات ليلة، فسمع الخطاب: يا عَبْد القَادِر، ادخل بَغْدَاد. فدخل، وكانت ليلة مطيرة باردة، فجاء إلىٰ زاوية الشَّيْخ حَمَّاد بن مُسْلِم الدَّبَّاس. فقال الشَّيْخ: أغلقوا باب الزاوية، وأطفئوا الضَّوْء. فجلس الشَّيْخ عَبْد القَادِر علىٰ الباب، فألقىٰ الله تعالىٰ عليه النوم، فنام، فأجنب، ثم قام فاغتسل، فألقىٰ الله تعالىٰ عليه النوم، فأجنب. ولم يزل كذٰلِكَ سبع عشرة مرة، وهو يغتسل عَقِيْبَ كل مرة. فلما كان عند الصبح، فتح الباب، فدخل الشَّيْخ عَبْد القَادِر. فقام إليه الشَّيْخ حَمَّاد، فاعتنقه، وضَمَّهُ إليه، وبكىٰ، وقال له: يا ولدي عَبْد القَادِر، الدولة اليوم لنا، وغداً لك، فإذا وليت فاعدل بهٰذِهِ الشَّيْبَة. انتهىٰ كلامه).

فقرأ القُرْآن العَظِيْم حتىٰ أتقنه[١].

● وسمع الحَدِيْث من:

أبي غالب مُحَمَّد بن الحسن البَاقِلَّانِيّ[٢].

وأبي سَعْد مُحَمَّد بن عَبْد الكَرِيْم بن خُشَيْش[٣].

وأبي عُثْمَان بن مُحَمَّد بن ملّة الأَصْبَهَانِيّ[٤].

وأبي بَكْر أَحْمَد بن المُظَفَّر بن سُوسَن التَّمَّار[٥].

وأبي القَاسِم عَلِيّ بن أَحْمَد بن بَيَان الرَّزَّاز[٦].

---

(١) بَهْجَة الأَسْرَار ص٢٠٢. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٤. ومِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص١٠٦.

(٢) المُسْتَفَاد ص٣٠٥. ومِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص١٠٦. وبَهْجَة الأَسْرَار ص٢٠٢. وتَارِيْخ الإِسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٣. والعِبَر ج٤ ص١٧٥. وسِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٤٠. والذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص٢٩٠. والمَقْصَد الأَرْشَد ج٢ ص١٤٩. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢١٨. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٤. والتَّاج المُكَلَّل ص١٥٥.

(٣) المُسْتَفَاد ص٣٠٥. ومِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص١٠٦. وبَهْجَة الأَسْرَار ص٢٠٢. وتَارِيْخ الإِسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٣. وسِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٤٠. والذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص٢٩٠. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢١٨. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٤، وفيه: (أبو سَعِيْد مُحَمَّد بن عَبْد الكَرِيْم بن خشيشا).

(٤) المُسْتَفَاد ص٣٠٥. وبَهْجَة الأَسْرَار ص٢٠٢.

(٥) المُنْتَظَم ج١٨ ص١٧٣. ومِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٧٧ عن المُنْتَظَم وص١٠٦. وبَهْجَة الأَسْرَار ص٢٠٢. وتَارِيْخ الإِسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٣. وسِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٤٠، وفيه: (ابن سوس). والذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص٢٩٠. وفَوَات الوَفَيَات ج٢ ص٣٧٣ عن شمس الدِّيْن. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢١٨. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٤. والتَّاج المُكَلَّل ص١٥٥.

(٦) المُنْتَظَم ج١٨ ص١٧٣. ومِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٧٧ عن المُنْتَظَم وص١٠٦. وتَارِيْخ الإِسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٣. وسِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٤٠. والذَّيْل علىٰ طَبَقَات

وأبي طَالِب بن يُوْسُف(١).

وأبي الغنائم مُحَمَّد بن عَلِيّ بن مَيْمُوْن النَّرسيّ(٢).

● وقرأ الفِقْه علىٰ:

أبي الوفاء عَلِيّ بن عَقِيْل(٣).

الحَنَابِلَة ج١ ص٢٩٠. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢١٨. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٤، وفيه: (أبو القَاسِم عَلِيّ بن أَحْمَد بن بنان الكَرْخِيّ).

(١) المُنْتَظَم ج١٨ ص١٧٣. ومِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٧٧ عن المُنْتَظَم وص١٠٦. وتَارِيْخ الإسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٣. وسِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٤٠، وفيه: (أبي طَالِب اليُوْسُفي). والذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص٢٩٠. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢١٨. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٤، وفيه: (أبو طَالِب عَبْد القَادِر بن مُحَمَّد بن يُوْسُف).

(٢) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص١٠٦. وبَهْجَة الأَسْرَار ص٢٠٢. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢١٨. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٤، وفيه: (أبو الغنائم مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عَلِيّ بن مَيْمُوْن الفرسي).

(٣) المُسْتَفَاد ص٣٠٥. ومِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص١٠٦. وبَهْجَة الأَسْرَار ص٢٠٢. ومُهْجَة البَهْجَة ص١٣١. وتَارِيْخ الإسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٦ عن ابن النَّجَّار. والذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص٢٩٠. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢١٨. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٤. وشَذَرَات الذَّهَب ج٦ ص٣٣١. والتَّاج المُكَلَّل ص١٥٥.

ابن عَقِيْل: أبو الوَفَاء عَلِيّ بن عَقِيْل بن مُحَمَّد بن عَقِيْل البَغْدَادِيّ الظَّفَرِيّ، المُقْرِئ الفَقِيْه الأُصُوْلِيّ، الواعظ المتكلّم، شَيْخ الإسْلَام. تَفَقَّهَ بالقَاضِي أبي يَعْلَىٰ ولازمه، وبأبي إسْحَاق الشِّيْرَازِيّ، أفتىٰ ودَرَّسَ ونَاظِر الفُحُوْل، كان دَيِّناً حافظاً للحدود، شهماً مِقْدَاماً مُفْرط الذكاء، له تصانيف أكبرها كتاب الفُنُوْن بمائتي مجلد. وله في الفِقْه: الفُصُوْل، وعُمْدَة الأَدِلَّة، وله الإرْشَاد في أُصُوْل الدِّيْن، والواضح في أُصُوْل الفِقْه وغيرها. كان كثير التَّعْظِيْم للإمَام أَحْمَد وأصحابه والرد علىٰ مخالفيهم. مات سنة ٥١٣هـ ببَغْدَاد، ودفن في دَكَّة قبر الإمَام أَحْمَد.

طَبَقَات الحَنَابِلَة ج٢ ص٢٥٩ والذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص١٤٢ والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٧٨ وشَذَرَات الذَّهَب ج٤ ص٣٥ والأَعْلَام ج٤ ص٣١٣.

وأبي الخطاب محفوظ الكَلْوَذَانِيّ[١].

والقَاضِي أبي الحُسَيْن بن الفَرَّاء[٢].

وأبي سَعْد المُخَرِّمِيّ[٣].

---

(١) المُسْتَفَاد ص٣٠٥. ومِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص١٠٦. وبَهْجَة الأَسْرَار ص٢٠٢. ومُهْجَة البَهْجَة ص١٣١. وتَارِيْخ الإسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٦ عن ابن النَّجَّار. والذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص٢٩٠. والمَقْصَد الأَرْشَد ج٢ ص١٤٩. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٦١و٢١٨. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٤. وشَذَرَات الذَّهَب ج٦ ص٣٣١.

أبو الخَطَّاب: مَحْفُوْظ بن أَحْمَد بن الحَسَن بن أَحْمَد الكَلْوَذَانِيّ البَغْدَادِيّ. الفَقِيْه، أحد أَئِمَّة الحَنَابِلَة. من مُصَنَّفَاته: الهِدَايَة في الفِقْه، والخلاف الكَبِيْر، والصَّغِيْر، وغيرها. نُقِلَ عن أبي البَرَكَات بن تَيْمِيَّة أنه كان يشير إلىٰ أَنَّ ما ذكره أبو الخَطَّاب في رُؤُوْس المَسَائِل (الخلاف الصَّغِيْر) هو ظَاهِر المَذْهَب. كان عَدْلاً رضياً ثِقَة. مات سنة ٥١٠هـ، ودفن إلىٰ جانب قبر الإمَام أَحْمَد.

طَبَقَات الحَنَابِلَة ج٢ ص٢٥٨ والذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة لابن رَجَب ج١ ص١١٦ والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٥٧.

(٢) تَارِيْخ الإسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٦ عن ابن النَّجَّار. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢١٨. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٤، وفيه: (أبو الحسن مُحَمَّد بن القَاضِي أبي يَعْلَىٰ مُحَمَّد بن الحُسَيْن بن مُحَمَّد الفَرَّاء). وشَذَرَات الذَّهَب ج٦ ص٣٣١. والتَّاج المُكَلَّل ص١٥٥.

مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن الحُسَيْن بن مُحَمَّد ابن الفَرَّاء: القَاضِي أبو الحُسَيْن، المُتَوَفَّىٰ سنة ٥٢٦هـ. وهو ابن شَيْخ المَذْهَب القَاضِي الكَبِيْر أبي يَعْلَىٰ.

الذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص١٧٦. والمَقْصَد الأَرْشَد ج٢ ص٤٩٩. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص١٠٦.

(٣) المُنْتَظَم ج١٨ ص١٧٣. ومِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٧٧ نَقْلًا عن المُنْتَظَم وص١٠٦، وفيه: (مَذْهَباً وخلافاً وفُرُوْعاً وأُصُوْلاً). ومَنَاقِب الإمَام أَحْمَد ص٧٠٧. وبَهْجَة الأَسْرَار ص٢٠٢. ومُهْجَة البَهْجَة ص١٣١، وفيه: (أبو سَعِيْد المُخَرِّمِيّ). وتَارِيْخ الإسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٣، ونَقَلَ في ص٢٥٦ عن ابن النَّجَّار. والعِبَر ج٤ ص١٧٥. وسِيَر

● وقرأ الأدب علىٰ أبي زَكَرِيَّا يَحْيَىٰ بن عَلِيّ التِّبْرِيْزِيّ[1].

● وله شُيُوْخ آخرون[2].

● ولقي جَمَاعَة من أَعْيَان زهاد الزَّمَان، وعظماء العَارِفِيْن، بالعَجَم والعِرَاق، أكرم بهم مجداً وسؤدداً، وعزاً وفَخْراً مُؤَيَّداً. فهم حماة الملة ودواها، وأَنْصَار الشَّرِيْعَة

أَعْـلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٣٩. ومَسَالِك الأَبْصَار ج٨ ص١١٨. وفَوَات الوَفَيَات ج٢ ص٣٧٣ عن شمس الدِّيْن (أي: الذَّهَبِيّ). والبِدَايَة والنِّهَايَة ج١٢ ص٢٥٢. والذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص١٦٧و٢٩٠. والمَقْصَد الأَرْشَد ج٢ ص١٤٩-١٥٠، وفيه: (أبي سَعِيْد المُخَرِّمِيّ). والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٧٨و٢١٨، وفيه: (مَذْهَباً وخلافاً وفُرُوْعاً وأُصُوْلاً). وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٤، وفيه: (أبو سَعِيْد المُبَارَك بن عَلِيّ المُخَرِّمِيّ، مَذْهَباً وخلافاً وفُرُوْعاً وأُصُوْلاً). وشَذَرَات الذَّهَب ج٦ ص٣٣١.

المُبَارَك بن عَلِيّ: بن الحُسَيْن بن بُنْدَار البَغْدَادِيّ المُخَرِّمِيّ، الفَقِيْه القَاضِي أبو سَعْد، المُتَوَفَّىٰ سنة ٥١٣هـ.

المَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٧٦، وفيه: (والمُخَرِّمِيّ بكسر الراء منسوب إلىٰ المُخَرِّم: مَحَلَّة ببَغْدَاد شرقيها، نزلها بعض وُلْد يَزِيْد بن المُخَرِّم، فنُسبت إليه). وهٰذِهِ النسبة في: قَلَائِد الجَوَاهِر ص٥ أَيْضاً. وانظر: طَبَقَات الحَنَابِلَة ج٢ ص٢٥٨. وذَيْل طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص١٦٦.

(١) المُسْتَفَاد ص٣٠٥. وتَارِيْخ الإِسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٦. وسِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٤٤ وكلاهما نَقْلاً عن ابن النَّجَّار.

ومِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص١٠٦. وبَهْجَة الأَسْرَار ص٢٠٣. وفَوَات الوَفَيَات ج٢ ص٣٧٣. والذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص٢٩١، وفيه: (زَكَرِيَّا). والمَقْصَد الأَرْشَد ج٢ ص١٤٩. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢١٩. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٤. والتَّاج المُكَلَّل ص١٥٥.

(٢) انظر مشايخه في:

مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص١٠٦. وبَهْجَة الأَسْرَار ص٢٠٢-٢٠٣. ومِرْآة الجَنَان ج٣ ص٢٦٦. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢١٨.

وأعضادها، وأَعْلَام الإِسْلَام وأركانه، وسيوف الحق وسِنَانه.

فقام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في أخذ العُلُوْم الشَّرْعِيَّة عنهم دائباً، وفي تلقي الفُنُوْن الدِّيْنِيَّة منهم واصباً، حتىٰ فاق أهل زَمَانه، وتميز بين أقرانه.

ثم إن الله تعالىٰ أظهره للحق، وجعل له القبول العَظِيْم عند الخاص والعام، والهيبة الوافرة عند العُلَمَاء، وأظهر الله الحِكَمَ من قلبه علىٰ لِسَانه، وظهرت علامات قدرته من الله تعالىٰ، وأمارة ولايته، وشواهد تخصيصه، مع قدم راسخ في المُجَاهَدَة، وتجرد خالص من دواعي الهوىٰ، ومقاطعة دائمة لجميع الخَلَائِق، وصبر جميل في طلب مولاه سُبْحَانَهُ علىٰ مر الشدائد والبلوىٰ، ورفض كلي لكل الأشغال(١).

تلاميذه:

حَدَّثَ عنه الكثير، منهم:

السَّمْعَانِيّ صاحب الأَنْسَاب(٢).

وعُمَر بن عَلِيّ القُرَشِيّ.

والحافظ عَبْد الغَنِيّ بن عَبْد الوَاحِد المَقْدِسِيّ(٣).

---

(١) بَهْجَة الأَسْرَار ص٢٠٣. ومُهْجَة البَهْجَة ص١٣٢-١٣٣.

(٢) **السَّمْعَانِيّ**: أبو سَعْد تاج الإِسْلَام عَبْد الكَرِيْم بن مُحَمَّد بن مَنْصُوْر التَّمِيْمِيّ المَرْوَزِيّ الشَّافِعِيّ. رحل كَثِيْراً، كان ذكياً ثِقَة حافظاً حُجَّة، درّس وأفتىٰ ووعظ وأَمْلَىٰ. من تصانيفه: الأَنْسَاب، وتَارِيْخ مَرْو، والإملاء والاستملاء، والتَّحْبِيْر. مات سنة ٥٦٢هـ بمَرْو.

تَذْكِرَة الحُفَّاظ ج٤ ص١٣١٦ رقم ١٠٩٠ ومِرْآة الجَنَان ج٣ ص٣٧١ وطَبَقَات الشَّافِعِيَّة للأَسْنَوِيّ ج٢ ص٥٥ ووَفَيَات الأَعْيَان ج٣ ص٢٠٩ واللُّبَاب في تَهْذِيْب الأَنْسَاب ج١ ص١٣ ومُعْجَم المُؤَلِّفِيْن ج٢ ص٢١١.

(٣) **الحافظ عَبْد الغَنِيّ بن عَبْد الوَاحِد**: بن عَلِيّ المَقْدِسِيّ الجَمَّاعِيْلِيّ الدِّمَشْقِيّ الصَّالِحِيّ الحَنْبَلِيّ، تَقِيّ الدِّيْن أبو مُحَمَّد. صاحب كتاب الكَمَال في مَعْرِفَة رِجَال الكتب الستة.

والشَّيْخ مُوَفَّق الدِّيْن بن قُدَامَة[١].

وعَبْد الرَّزَّاق، ومُوسَىٰ، ولداه.

والشَّيْخ عَلِيّ بن إِدْرِيْس البَعْقُوْبِيّ.

وأَحْمَد بن مطيع البَاجِسْرَائِيّ.

وخلق آخرون[٢].

وانتمىٰ إليه جمع من العُلَمَاء، وتلمذ له خلق كثير لا يحصون.

فممن انتمىٰ إليه من المشايخ وأخذ عنه من العُلُوْم:

الشَّيْخ الإمَام القدوة أبو عَمْرو عُثْمَان بن مرزوق بن حميد بن سَلَامَة القُرَشِيّ نزيل مِصْر.

المُتَوَفَّىٰ سنة ٦٠٠هـ.

سِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢١ ص٤٤٣. والذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج٢ ص٥. والمَقْصَد الأَرْشَد ج٢ ص١٥٢.

(١) ابن قُدَامَة مُوَفَّق الدِّيْن: أبو مُحَمَّد عَبْد الله بن أَحْمَد بن مُحَمَّد بن قُدَامَة بن مِقْدَام المَقْدِسِيّ الدِّمَشْقِيّ الحَنْبَلِيّ. شَيْخ الإِسْلَام الإمَام الثِّقَة الحُجَّة. ولد بجَمَّاعِيْل، ونشأ بدِمَشْق، ورحل إلىٰ بَغْدَاد، فسمع بها من الشَّيْخ عَبْد القَادِر الجِيْلَانِيّ وغيره. من تصانيفه: المُغْنِي في شَرْح الخِرَقِيّ، وهو كتاب بليغ في المَذْهَب، والكافي، والمُقْنِع، والرَّوْضَة، والبُرْهَان في مَسْأَلَة القُرْآن، ومِنْهَاج القَاصِدِيْن. وله كَرَامَات مشهورة. مات بدِمَشْق سنة ٦٢٠هـ.

الذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج٢ ص١٣٣ وشَذَرَات الذَّهَب ج٥ ص٨٨ ومِرْآة الجَنَان ج٤ ص٤٧ ومُقَدِّمَة كتاب المُغْنِي لابن قُدَامَة، التي كتبها الشَّيْخ عَبْد القَادِر بَدْرَان.

(٢) انظر هٰؤُلَاءِ التلاميذ وغيرهم، في: تَارِيْخ الإِسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٣. وسِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٤٠. ومِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص١٠٦-١٠٨. وفَوَات الوَفَيَات ج٢ ص٣٧٣ عن شمس الدِّيْن. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٢٥. والتَّاج المُكَلَّل ص١٥٩.

قال الشَّيْخ عَبْد الرَّزَّاق:

لما حج والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في السنة التي كنت معه فيها، اجتمع به في عرفات الشَّيْخَان ابن مرزوق وأبو مدين، ولبسا منه خِرْقَة بركةٍ، وسمعا عليه جزءاً من مَرْوِيَّاته، وجلسا بين يديه.

وقال الشَّيْخ سَعْد بن عُثْمَان بن مرزوق المذكور:

وكان أبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ يقول:

قال شَيْخنا عَبْد القَادِر كذا وكذا.

رأيت سيدنا الشَّيْخ عَبْد القَادِر يفعل كذا.

سمعت أُسْتَاذنا الشَّيْخ أبا مُحَمَّد عَبْد القَادِر يقول كذا.

كان إمَامنا وقدوتنا الشَّيْخ عَبْد القَادِر يفعل كذا.

وممن انتمىٰ إليه الشَّيْخ الإمَام العالم القَاضِي أبو يَعْلَىٰ مُحَمَّد بن مُحَمَّد الفَرَّاء الحَنْبَلِيّ، قال عَبْد العَزِيْز بن الأخضر: سمعت أبا يَعْلَىٰ يقول: جالست الشَّيْخ عَبْد القَادِر كَثِيْراً وقلت بإرادته[1].

وسرد الشَّيْخ التَّاذِفِيّ أَسْمَاء كثيرة لعُلَمَاء تلقوا العلم علىٰ يد الشَّيْخ عَبْد القَادِر، وقال بعد ذٰلِكَ: (وغيرهم ممن لا يمكن إثبات اسمه بهٰذَا المُخْتَصر خوف الإطالة والضَّجَر)[2].

وتخرج بصحبته غير وَاحِد من الأكابر، وانتهىٰ إليه أكثر أَعْيَان مشايخ العِرَاق.

وقال بإرادته جمع غفير من ذوي الأحوال الفاخرة.

---

(١) بَهْجَة الأَسْرَار ص٢٠٤. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٥-٦.

(٢) قَلَائِد الجَوَاهِر ص٥-٦.

وتتلمذ له خلق كثير، لا يحصون عدداً وكثرةً، من أرباب المقامات الرفيعة.

وانعقد عليه إجماع المشايخ والعُلَمَاء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بالتبجيل والإعْظَام والإحْكَام، والرجوع إلىٰ قوله، والمصير إلىٰ حكمه(١).

قال الذَّهَبِيّ:

أنبأني أبو بَكْر بن طَرْخَان، أَخْبَرَنَا الشَّيْخ مُوَفَّق الدِّيْن أبو مُحَمَّد بن قُدَامَة، وسئل عن الشَّيْخ عَبْد القَادِر، فقال:

أدركناه في آخر عُمْره، فأسكننا في مدرسته، وكان يُعْنَىٰ بنا، وربما أرسل إلينا ابنه يَحْيَىٰ، فيُسْرِجُ لنا السِّرَاجَ، وربما يرسل إلينا طعاماً من منزله. وكان يصلي الفريضة بنا إمَاماً، وكنتُ أقرأ عليه من حفظي من كتاب الخِرَقِيّ غُـدْوَةً، ويقرأ عليه الحافظ عَبْد الغَنِيّ من كتاب الهِدَايَة في الكتاب، وما كان أحدٌ يَقْرَأ عليه في ذٰلِكَ الوقت سوانا.

فأقمنا عنده شهراً وتسعةَ أيام، ثم مات، وصَلَّيْنَا عليه ليلاً في مدرسته... وسمعنا عليه أجزاء يَسِيْرَة(٢).

مَذْهَبه:

الشَّيْخ عَبْد القَادِر حَنْبَلِيّ المَذْهَب(٣).

(١) مُهْجَة البَهْجَة ص٣٣٦-٣٣٧. وفي بَهْجَة الأَسْرَار ص٢٠٤-٤٤٤ أَسْمَاء الكثير من تلامذته وممن انتمىٰ إليه، وتَرَاجُمهم.

(٢) سِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٤٢. وتَارِيْخ الإسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٥. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٦-٧ عن الذَّهَبِيّ في تَارِيْخه.

(٣) الكَامِل في التَّارِيْخ ج٩ ص٤٨٢. والمُخْتَصَر في أَخْبَار البَشَر ج٣ ص٤٣ عن ابن الأَثِيْر. ومُخْتَصَر أَخْبَار الخُلَفَاء لابن السَّاعِي ص١٠١. وتَارِيْخ الإسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٣. ودُوَل الإسْلَام ج٢ ص٦٥. والمَعِيْن في طَبَقَات المُحَدِّثِيْن ص١٦٩ رقم ١٨١٠. وتَارِيْخ الخَمِيْس ج٢ ص٣٦٦. والتَّاج المُكَلَّل ص١٥٥.

بل قال السَّمْعَانِيّ: هو إمَام الحَنَابِلَة وشَيْخهم في عَصْره[١].

وأحل كثير من فُقَهَاء الحَنَابِلَة رأيه محل الاعتبار، ونقلوه في كتبهم، وأشاروا إلىٰ كتابه (الغُنْيَة) في كثير من المواضع.

واستعرضتُ كتب الفِقْه الحَنْبَلِيّ في (المَكْتَبَة الشَّاملة) في الحاسوب، التي ورد فيها اسم الشَّيْخ عَبْد القَادِر، فوجدتُ أقواله وآراءه الفِقْهِيَّة قد نُقِلَت في أكثر من (١٢٠) موضعاً من تلك الكتب، مثل:

الاخْتِيَارات الفِقْهِيَّة لابن تَيْمِيَّة، المُتَوَفَّىٰ سنة ٧٢٨هـ.

والفُرُوْع، لشمس الدِّيْن بن مُفْلِح، المُتَوَفَّىٰ سنة ٧٦٣هـ.

والمُبْدِع في شرح المُقْنِع، لبُرْهَان الدِّيْن بن مُفْلِح، المُتَوَفَّىٰ سنة ٨٨٤هـ.

والإنْصَاف في مَعْرِفَة الراجح من الخلاف، للمَرْدَاوِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٨٨٥هـ.

وتَصْحِيْح الفُرُوْع، للمَرْدَاوِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٨٨٥هـ.

ومَعُوْنَة أُوْلِي النُّهَىٰ شرح مُنْتَهَىٰ الإرادات، لابن النَّجَّار، المُتَوَفَّىٰ سنة ٩٧٢هـ.

وكَشَّاف القِنَاع، للبُهُوْتِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٠٥١هـ.

ودَقَائِق أُوْلِي النُّهَىٰ لشرح المُنْتَهَىٰ، للبُهُوْتِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٠٥١هـ.

ومَطَالِب أُوْلِي النُّهَىٰ، للرُّحَيْبَانِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٢٤٣هـ.

ومَنَار السَّبِيْل، لابن ضويان، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٥٣هـ.

وغيرها.

---

(١) تَارِيْخ الإسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٤. وسِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٤١. ومَسَالِك الأَبْصار ج٨ ص١١٨. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢١٧ ولم يذكر السَّمْعَانِيّ.

وفي تَارِيْخ الإسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٣: (شَيْخ الحَنَابِلَة).

وهٰذَا يَدُلّ علىٰ أن الشَّيْخ عَبْد القَادِر شَيْخ في المَذْهَب الحَنْبَلِيّ، له رأيه المعتبر فيه.

وفي مُهْجَة البَهْجَة:

كان الشَّيْخ عَبْد القَادِر شَيْخ الشَّافِعِيَّة والحَنَابِلَة ببَغْدَاد. وانتهت إليه رئاسة العلم بعد أبي حَامِد الغَزَالِيّ في وقته(١).

عقيدته:

للشَّيْخ عَبْد القَادِر كلام حسن في التَّوْحِيْد، والصفات، والقَدَر، وفي عُلُوْم المَعْرِفَة، موافقٌ للسُّنَّة.

وله كتاب الغُنْيَة لطالبي طريق الحق، وكتاب فُتُوْح الغَيْب، وجمع أصحابه من مجالسه في الوعظ كَثِيْراً.

وكان متمسكاً في مَسَائِل الصفات والقَدَر ونحوهما بالسُّنَّة، بالغاً في الرد علىٰ من خالفها(٢).

قال في كتابه الغُنْيَة: وهو بجهة العلو، مستوٍ علىٰ العرش، محتوٍ علىٰ الملك، مُحِيْط علمه بالأشياء.

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ - فاطر: ١٠.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ - السجدة: ٥.

---

(١) مُهْجَة البَهْجَة ص٣٣٦.

(٢) الذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص٢٩٦.

ومثله في: المَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٤٤. وفي التَّاج المُكَلَّل ص١٥٧-١٥٨.

ولا يجوز وصفه بأنه في كل مكان، بل يقال: إنه في السماء علىٰ العرش، كما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ - طه: ٥.

وذكر آيات وأَحَادِيْث، إلىٰ أن قال:

وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تَأْوِيْل، وأنه استواء الذات علىٰ العرش. قال:

وكونه علىٰ العرش مذكور في كل كتاب أُنزل علىٰ كل نَبِيّ أُرسل بلا كيف. وذكر كلاماً طَوِيْلاً، وذكر نحو هٰذَا في سائر الصفات[1].

لٰكِن قال اليَافِعِيّ:

قلت: وأما اعْتِقَاده فقد أَخْبَرَنِي - والله - من لا أشك في صدقه من أصحاب شَيْخ عَصْره وفريد دهره، الشَّيْخ نَجْم الدِّيْن الأَصْبَهَانِيّ قدس الله تعالىٰ روحه أنه قال: رجع آخراً عما كان يعتقده أولاً، لما بلغه أن الفَقِيْه الإمَام البارع المَشْكُوْر تَقِيّ الدِّيْن بن دَقِيْق العِيْد المشهور تَعَجَّبَ من شُذُوْذ الشَّيْخ عَبْد القَادِر المذكور في اعْتِقَاده عن موافقة الجُمْهُوْر من المشايخ العَارِفِيْن والعُلَمَاء المحققين في مَسْأَلَة الجهة المعروفة.

قلت - أي: اليَافِعِيّ - : ومثل الشَّيْخ نَجْم الدِّيْن المذكور إذا أخبر فعلىٰ الخَبِيْر سقط المخبر، إذ هو من أهل الاطلاع ظَاهِراً وبَاطِناً، أما البَاطِن فلأنه من أهل النُّوْر والكشف. وأما الظَّاهِر فلقرب الدار إذ كان العِرَاق لهما موطناً... .

قال: ومما يؤيد ذٰلِكَ، ويَدُلّ علىٰ عدم اعْتِقَاده الجهة والمكان في حال النِّهَايَة والعِرْفَان كلامه المشهور عنه في مَنَاقِبه الثَّابِتَة بِرِوَايَة الرِّجَال الشائعة في البُلْدَان... .

وبعد أن جاء بنُصُوْص تؤيد ذٰلِكَ قال:

---

(١) الذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة، ومثله في: التَّاج المُكَلَّل، السَّابِقَان.

وهو في: شَذَرَات الذَّهَب ج٦ ص٣٣٤ نَقْلاً عن ابن رَجَب.

فهٰذَا بعض كلامه في ذٰلِكَ محتوياً علىٰ التَّوْحِيْد والتنزيه، ومُصَرّحاً بنفي التجسيم والتشبيه، مفصحاً بكون الحق تعالىٰ لم ينتقل إلىٰ مكان، ولم يتغير عما عليه كان[١].

وكان الشَّيْخ عَبْد القَادِر يقول:

مُرُّوا بأَخْبَار الصفات علىٰ ما جاءت[٢].

وهٰذَا معنىٰ قول الكثير من السَّلَف في النُّصُوْص المُوْهِمَة للمُشَابَهَة: (اقرؤوها كما جاءت)، أي: آمنوا بأنها من عند الله، ولا تتعرضوا لتَأْوِيْلها ولا تَفْسِيْرها، لجواز أن يكون ابتلاءً، فيجب الوقف والإذعان له[٣].

وكان يقول في مجلسه: اعْتِقَادُنَا اعْتِقَادُ السَّلَف الصالح والصَّحَابَة[٤].

طريقة الشَّيْخ عَبْد القَادِر في التَّصَوُّف:

صحب الشَّيْخ حَمَّاداً الدَّبَّاس[٥]، وأخذ عنه علم

---

(١) مِرْآة الجَنَان لليَافِعِيّ ج٣ ص٢٧٢-٢٧٤.

(٢) الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمانِيّ، ذكر وفاته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ص٣٩٣. وفُتُوْح الغَيْب، تَكْمِلَة في ذكر وصاياه لأولاده، ص١١٠.

(٣) مُقَدِّمَة ابن خَلْدُوْن ص٤٣٤.

وانظر: المِلَل والنِّحَل للشَّهْرَسْتَانِيّ ج١ ص٩٢ مشيراً إلىٰ: أَحْمَد بن حَنْبَل، ودَاوُد، ومَالِك، ومُقَاتِل.

وانظر أَيْضاً كِتَابَيّ: العَقِيْدَة الإِسْلَامِيَّة ومَذَاهِبها ص٣٥٣. وتَأْوِيْل النَّصّ الشَّرْعِيّ ص١٤٨.

(٤) تَارِيْخ الإِسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٥. ومَسَالِك الأَبْصَار ج٨ ص١١٨.

(٥) المُسْتَفَاد ص٣٠٥. ومِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص١٠٦. وبَهْجَة الأَسْرَار ص٢٠٣. ومُهْجَة البَهْجَة ص١٣١. وتَارِيْخ الإِسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٦ عن ابن النَّجَّار. وسِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٤١ نَقْلاً عن السَّمْعَانِيّ. والعِبَر ج٤ ص١٧٥. ومُخْتَصَر أَخْبَار الخُلَفَاء

الطريقة(١)، بعد أن لبس خِرْقَة المشايخ من أبي سَعْد المُبَارَك المُخَرِّمِيّ(٢).

وقال القَاضِي أبو سَعِيْد المُخَرِّمِيّ المذكور:

لبس عَبْد القَادِر الجِيْلِيّ مني خِرْقَةً، ولبستُ منه خِرْقَةً، يتبرك كل وَاحِد منا بالآخر(٣).

ثم أظهر اللهُ الشَّيْخَ عَبْد القَادِر للخَلْق، وحَدَّث، وصَنَّفَ، وأوقع له القبولَ

ص١٠٢. ومَسَالِك الأَبْصَار ج٨ ص١١٨ نَقْلاً عن السَّمْعَانِيّ. والذَّيل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص٢٩١. والمَقْصَد الأَرْشَد ج٢ ص١٥٠. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢١٩. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٤، وص٧ نَقْلاً عن ابن النَّجَّار في تَارِيْخه. وشَذَرَات الذَّهَب ج٦ ص٣٣١. والتَّاج المُكَلَّل ص١٥٥.

حَمَّاد: هو أبو الخير حَمَّاد بن مُسْلِم بن دَرْوَةَ الدَّبَّاس. / قَلَائِد الجَوَاهِر ص٤.

(١) المُسْتَفَاد ص٣٠٥. وبَهْجَة الأَسْرَار ص٢٠٣. وتَارِيْخ الإِسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٦ عن ابن النَّجَّار. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢١٩. وشَذَرَات الذَّهَب ج٦ ص٣٣١. وفي مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٧٧: منه اكتسب عُلُوْم المعاملات والحَقَائِق. وفي فَوَات الوَفَيَات ج٢ ص٣٧٤: علم الطريق. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٤، وص٧ عن ابن النَّجَّار في تَارِيْخه.

(٢) شَذَرَات الذَّهَب ج٦ ص٣٣١.

وانظر لبس الشَّيْخ عَبْد القَادِر خِرْقَة المشايخ من المُخَرِّمِيّ، في:

مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٧٨ وذكر سلسلة لبس الخِرْقَة إلىٰ عَلِيّ بن أبي طَالِب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وج٢١ ص١٠٦. ومُخْتَصَر أَخْبَار الخُلَفَاء ص١٠٢، وفيه: (من أبي سَعِيْد بن المُبَارَك المُخَرِّمِيّ المَخْزُوْمِيّ). وبَهْجَة الأَسْرَار ص٢٠٣. ومِرْآة الجَنَان ج٣ ص٢٦٦. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢١٩، وذكر سلسلة لبس الخِرْقَة إلىٰ عَلِيّ بن أبي طَالِب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٤، وذكر سلسلة لبس الخِرْقَة إلىٰ عَلِيّ بن أبي طَالِب... إلىٰ جِبْرِيْل... إلىٰ الله تعالىٰ، وذكر المُخَرِّمِيّ أبو سَعِيْد.

(٣) قَلَائِد الجَوَاهِر ص٥.

العَظِيم[١].

وكان أبو سَعْد المُخَرِّمِيّ قد بنىٰ مدرسة لَطِيْفَة بباب الأَزَج، ببَغْدَاد، وتُسَمَّىٰ الآن: (مَحَلَّة باب الشَّيْخ)، ففُوِّضَت إلىٰ الشَّيْخ عَبْد القَادِر، فتكلم علىٰ الناس بلِسَان الوعظ، وظهر له صيتٌ بالزهد، وكان له سَمْت وصَمْت.

فضاقت مدرسته بالناس، فكان يجلس عند سور بَغْدَاد بباب الحَلْبَة مستنداً إلىٰ الرِّباط.

ويتوب عنده في المجلس خَلْقٌ كثير.

فعمرت المدرسة ووُسِّعَت، وتَعَصَّبَ له العوام[٢].

وأُضيف إليها مما حولها من المنازل والأمكنة ما يَزِيْد علىٰ مثليها، وبذل الأغنياء في عمارتها أموالهم، وعمل الفُقَرَاء بأنفسهم[٣]، واتفق أن امرأة مسكينة جاءت بزوجها، وكان من الفَعَلَة الروزجارية، وقالت لعَبْد القَادِر: هٰذَا زوجي، ولي عليه من المهر قدر عشرين دِيْنَاراً، ووهبتُ له النصف بشرط أن يعمل في مدرستك بالنصف البَاقِي، وقد

(١) المُسْتَفَاد ص٣٠٥-٣٠٦. وتَارِيْخ الإسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٦ عن ابن النَّجَّار. وسِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٤٤. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٧ عن ابن النَّجَّار في تَارِيْخه.

(٢) المُنْتَظَم ج١٨ ص١٧٣. ومِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٧٧ نَقْلًا عن المُنْتَظَم. وتَارِيْخ الإسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٤. وسِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٤١. ومَسَالِك الأَبْصَار ج٨ ص١١٨. والذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص٢٩١. والتَّاج المُكَلَّل ص١٥٥. وكلهم نقلوا عن ابن الجَوْزِيّ.

ومُخْتَصَر أَخْبَار الخُلَفَاء لابن السَّاعِي ص١٠٢. والبِدَايَة والنِّهَايَة ج١٢ ص٢٥٢. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٢٥.

وانظر: قَلَائِد الجَوَاهِر ص٥.

(٣) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص١٠٦. وبَهْجَة الأَسْرَار ص٢٠٣. ومُهْجَة البَهْجَة ص١٣٣. ومِرْآة الجَنَان ج٣ ص٢٦٧. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٥.

تراضينا علىٰ هٰذَا، فقَبِلَ الزوج ذٰلِكَ، وأحضرت المرأة الخط، وسلمته إلىٰ عَبْد القَادِر، فكان يستعمل الزوج في المدرسة، وكان يعطيه يوماً الأُجرة، ويوماً لا يعطيه، لعلمه بأن الرجل مُحْتَاج فَقِيْر، ولا يملك شَيْئاً، إلىٰ أن علم أن الزوج عمل بخمسة دنانير، فأخرج عَبْد القَادِر الخط، ودفعه إلىٰ الزوج، وقال: أنت في حل من البَاقِي[١].

ولازم الانقطاع والخلوة والرِّيَاضَة والمُجَاهَدَة[٢]، فانقطع عن الناس في مدرسته متشاغلاً بالتدريس والتذكير[٣].

وكان قد تحمل الأحوال الشاقة، والدخول في الأُمُور الصَّعْبة من مخالفة النفس، وملازمة السهر والجوع، والمقام في الخراب والصحاري[٤].

وقال الشَّيْخ شمس الدِّيْن (الذَّهَبِيّ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

سمعتُ الشَّيْخ مُوَفَّق الدِّيْن رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول:

لبستُ أنا والحافظ عَبْد الغَنِيّ الخِرْقَةَ من يد شَيْخ الإسْلَام عَبْد القَادِر في وقتٍ وَاحِد. واشتغلنا عليه بالفِقْه، وسمعنا منه، وانتفعنا بصحبته، ولم ندرك من حياته غير خمسين ليلة[٥].

(١) الذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص٢٩١. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٥.

(٢) المُسْتَفَاد ص٣٠٥. وتَارِيْخ الإسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٦. وسِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٤٤. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٧. وكلهم نقلوا عن ابن النَّجَّار في تَارِيْخه.

(٣) مَنَاقِب الإمَام أَحْمَد ص٧٠٧. ومِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٧٩ نَقْلًا عن مَنَاقِب الإمَام أَحْمَد.

(٤) قَلَائِد الجَوَاهِر ص٧ عن ابن النَّجَّار في تَارِيْخه.

(٥) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص١٠٨. وبَهْجَة الأَسْرَار ص٢٠٨، وفيه: (أَخْبَرَنِي قَاضِي القُضَاة شمس الدِّيْن أبو عَبْد الله مُحَمَّد المَقْدِسِيّ).

وقول الإمَام مُوَفَّق الدِّيْن عَبْد الله بن أَحْمَد بن مُحَمَّد قُدَامَة المَقْدِسِيّ بحروفه، في: قَلَائِد الجَوَاهِر ص٦.

والحافظ عَبْد الغَنِيّ هو ابن عَبْد الوَاحِد المَقْدِسِيّ.

قال السَّمْعَانِيّ:

كان عَبْد القَادِر من أهل جِيْلَان... وكان يسكن بباب الأزَج في مدرسةٍ بُنِيَت له.

مضينا لزيارته، فخرج وقَعَدَ بين أصحابه، وخَتَمُوا القُرْآن، فألقىٰ درساً ما فهمتُ منه شَيْئاً.

وأعجبُ من ذا أنّ أصحابه قاموا وأعادوا الدرس.

فلعلهم فهِموا، لإلفهم بكلامه وعبارته[١].

تربية المريدين:

انتهت إلىٰ الشَّيْخ عَبْد القَادِر تربية المريدين بالعِرَاق[٢].

وأتىٰ مقاليد الحَقَائِق، وسُلِّمَت إليه أَزِمَّة العَارِفِيْن والمَعَارِف، فأصبح قُطْب الوقت حكماً وعلماً، وقام بالنَّظَر والفتوىٰ نَقْضاً وبَرْماً، وبرهن علىٰ العلم فرعاً وأَصْلاً، وبَيَّنَ الحكم نَقْلاً وعقلاً، وانتصر للحق قولاً وفعلاً[٣].

ووضع الشَّيْخ عَبْد القَادِر أُصُوْل تربية المريدين، وآدابهم مع الشَّيْخ، لأن المشايخ هم الطريق إلىٰ الله عَزَّ وجَلَّ والأَدِلَّاء عليه، والباب الذي يدخل منه إليه، مع لزوم الاعْتِقَاد بأنهم ليسوا بمعصومين.

وهٰذِهِ التربية يؤكد الشَّيْخ عليها في كتابه الغُنْيَة، وذٰلِكَ في:

---

(١) سِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٤١. وتَارِيْخ الإسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٤. ومَسَالِك الأَبْصَار ج٨ ص١١٨.

(٢) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص١٠٦. وبَهْجَة الأَسْرَار ص٢٠٣. ومُهْجَة البَهْجَة ص١٣٣. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٢٥. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٥.

(٣) بَهْجَة الأَسْرَار ص٢٠٣. ومُهْجَة البَهْجَة ص١٣٣-١٣٤.

ذكره آداب المريد مع الشَّيْخ، إذ الواجب عليه:

ترك مخالفة شَيْخه في الظَّاهِر، وترك الاعتراض عليه في البَاطِن.

وإذا ظهر له من الشَّيْخ ما يكره في الشَّرْع استخبر عن ذٰلِكَ بضرب المثل والإشارة، ولا يصرح به، لئلا ينفر به عليه.

وإن رأىٰ فيه عيباً ستره عليه، ويعود بالتهمة علىٰ نفسه، ويتأول للشَّيْخ في الشَّرْع.

فإن لم يجد له عذراً في الشَّرْع استغفر للشَّيْخ، ودعا له بالتوفيق والعلم والتيقظ... .

ولا يعتقد فيه العصمة... .

وإذا غضب الشَّيْخ، وعَبَسَ في وجهه، أو ظهر منه نوع إعراض عنه لم ينقطع عنه، بل يفتش بَاطِنه، وما جرىٰ منه من سوء الأدب في حق الشَّيْخ...، ثم يعتذر إلىٰ الشَّيْخ...، ويتحبب إليه بترك المخالفة له في المستقبل... .

ومن آداب المريد:

أن لا يتكلم بين يدي شَيْخه إلَّا في حالة الضرورة.

وأن لا يظهر شَيْئاً من مَنَاقِب نفسه بين يديه... .

وينبغي للمريد إذا جرت مَسْأَلَة بين يدي الشَّيْخ أن يسكت، وإن كان عنده فصل وإشباع جواب فيها، بل يغتنم ما يفتح الله علىٰ لِسَان شَيْخه فيقبله، ويعمل به، وإن رأىٰ في جوابه نقصاناً فلا يردّ عليه، بل يشكر الله علىٰ ما خصه من فضل وعلم ونور...، ولا يقول أخطأ الشَّيْخ في المَسْأَلَة، ولا يناقض كلامه إلَّا أن يغلب عليه ذٰلِكَ... .

وينبغي للمريد أن لا يتحرك في حال السَّمَاع بين يدي الشَّيْخ إلَّا بإشارة منه عليه.

وينبغي للمريد أَيْضاً أن يتأدب بشَيْخ يكون له إيمان وتَصْدِيْق واعْتِقَاد أن لا أحد في تلك الديار أَوْلَىٰ منه، حتىٰ ينتفع به فيما هو مَرَامه.

وعليه الانقياد والالتزام ما يأمر به شَيْخه من التأديب.

ثم انتقل إلىٰ ما يجب علىٰ الشَّيْخ من تأديب المريد، قال:

عليه أن يقبله لله عَزَّ وجَلَّ لا لنفسه، فيعاشره بحكم النصيحة، ويلاحظه بعين الشَّفَقَة، ويلاينه بالرفق عند عجزه عن احتمال الرِّيَاضة، فيربيه تربية الوالدة لولدها، والوالد الشفيق الحَكِيْم اللَّبِيْب لولده، فيأخذه بالأَسْهَل، ولا يُحَمِّله ما لا طاقة له به.

ثم بالأشد فيأمره أولاً بترك متابعة الطبع في جميع أُمُوره... .

ثم ينقله من الرخص إلىٰ العزيمة شَيْئاً فشَيْئاً... .

وعليه أن يحفظ سر المريدين، فلا يُطْلِع غَيْرَهُ علىٰ ما يحصل له من الإشراف علىٰ أحواله، لأنه أمانة عنده... إلخ.

وأسهب في ذٰلِكَ(١).

ثم تحدث الشَّيْخ عن الصحبة مع الإخوان بالإيثار والفتوة والصفح عنهم، ومن الصحبة بهم إظهار الموافقة لهم في جميع ما يقولون أو يفعلون، ويكون أَبداً معهم علىٰ نفسه، ويتأول لهم، ويعتذر عنهم، ويترك مخالفتهم ومنافرتهم ومجادلتهم ومشاددتهم، ويتعامىٰ عن عيوبهم... .

وأما الصحبة مع الأجانب فيحفظ السر عنهم، وينظر إليهم بعين الشَّفَقَة والرحمة... .

وأما الصحبة مع الأغنياء فترك الطمع فيهم، وقطع الأَمَل مما في أيديهم، وإخْرَاج جميعهم من قلبك، وحفظ دينك من التضعضع لهم لنوالهم... .

والصحبة مع الفُقَرَاء تكون بإيثارهم، وتقديمهم علىٰ نفسك في المأكول والمشروب

(١) الغُنْيَة ص٤٤٥-٤٥٣.

والملبوس والمجالس وكل شيء نفيس، وترىٰ نفسك دونهم... .

واحذر أن تمنّ عليهم بذٰلِكَ، بل اشكر الله عَزَّ وجَلَّ علىٰ ما أولاك من توفيقه علىٰ تَيْسِيْر ذٰلِكَ.

ومن آداب الصحبة مع الفُقَرَاء أن لا تُحْوِجَهُم إلىٰ مسألتك، وإن اتفق فاستقرض الفَقِيْر منك شَيْئاً فتقرضه في الظَّاهِر، ثم تبرئه منه في البَاطِن.

ومن الأدب معهم مراعاة قلبه بتعجيل مُرَاده، لأن الفَقِيْر ابن وقته.

ومن الأدب معهم الصبر علىٰ ما يذكر الفَقِيْر من حاله، وأن تتلقاه في حال ما يخاطبك بوجه طلق مستبشر، ولا تلقاه بالعبوس ولا بالنَّظَر الشزر ولا بالكلام الوحش... .

ثم تكلم الشَّيْخ عن آداب الفَقِيْر في فقره، ومنها:

أن لا يترك الاحتياط في الورع في حال ضيق اليد، فلا يخرج إلىٰ ما لا يحل في الشَّرْع لفقره، فيخرج من العزيمة إلىٰ الرخصة، فإن الورع ملاك الدِّيْن، والطمع هلاكه، وتناول الشبهات فساده[1].

وتحدث عن سؤال الفَقِيْر، وذكر:

أن من أدب الفَقِيْر ترك السؤال للخلق ما دام يجد عنده ما يكفيه. فإن ألجأته الضرورة والحاجة فيسأل بقدر الحاجة، فتكون حاجته كفارته. ثم إن أُعطي شكر، وإن منع صبر.

وذكر الشَّيْخ آداب العِشْرَة مع إخوانه، ومنها:

أن يكون منبسط الوجه غير عبوس، ولا يخالفهم فيما يريدون، بشرط أن لا يكون

(١) الغُنْيَة ص٤٥٣-٤٥٩.

فيه خرق للشَّرْع وارتكاب للإثم.

ولا يكون ممارياً ولا لجوجاً، ويكون أَبَداً مساعداً للإخوان، ويكون صَبُوْراً علىٰ أذاهم غير حقود، ويذب عن أخيه في حال غيبته، ويستر العيوب علىٰ إخوانه ما أمكنه، وإن مرض أحد منهم عاده، فإن لم يستطع اعتذر منه.

وينبغي له أن يعاشر من دونه بالشَّفَقَة عليه، ومن فوقه بالإجْلَال، ومن هو مثله بالإفضال والإيثار والإحْسَان.

وذكر آداب الفُقَرَاء عند الأكل، ومنها:

أن لا يأكلوا بالشَّرَهِ.

وأن يذكروا اسم الله عَزَّ وجَلَّ بقلوبهم عند الأكل.

وأن لا يمدوا أيديهم عند الطعام قبل من هو فوقهم.

وأن لا يرفع يده من الطعام ما دام يأكل من معه، لئلا يحتشم صاحبه، فيحمله علىٰ الامتناع[1].

وذكر الشَّيْخ آداب الفُقَرَاء فيما بينهم، ومنها:

أن يجتهد المريد في تقديم الطعام إلىٰ الفُقَرَاء، وأن يكون أنظف ما يمكنه، وأوفق لهم.

وإن كان في قوم فلا ينبغي أن ينفرد عنهم بأكل شيء، ولا بأخذ شيء.

ولا ينبغي له أن يرفع صوته بين الفُقَرَاء بتسبيحه وقِرَاءَته، بل يخفي ذٰلِكَ عنهم ويستتر به، أو ينقل ذٰلِكَ إلىٰ تفكر واعتبار عِبَادَة بَاطِنَة.

وإن كان بين قوم فينبغي أن لا يُسَارَّ أحداً دونهم.

(١) الغُنْيَة ص٤٥٩-٤٦١.

ولا يكثر من النوافل بين أيديهم.

وإذا صام الجَمَاعَة وَافقَهُم في ذٰلِكَ، وإذا أفطروا وَافَقَهُم في ذٰلِكَ أَيْضاً.

وذكر الشَّيْخ آدابهم مع الأهل والولد، ومنها:

حسن الخلق، والإنفاق عليهم بالمعروف بما أمكنه.

وإيثار عياله علىٰ نفسه.

وإطعامهم المباح، ولا يطعمهم الحرام.

وليجتهد في ذات نفسه بإصْلَاح العَمَل والصدق وطهارة البَاطِن، حتىٰ يصلح الله أمره بينه وبين عياله في حسن الصبر وحسن الطاعة لله عَزَّ وجَلَّ والموافقة له، وتعود بركة صَلَاحه علىٰ عياله.

ويجب أن يؤدب أهله بملازمة ظَاهِر العلم والشَّرِيْعَة(١).

وذكر الشَّيْخ آدابهم في السفر، منها:

أن يراعي قلبه في أول سفره.

وأن يعاشر أصحابه في سفره بحسن الخلق، وجميل المداراة، وترك المخالفة واللجاج في جميع الأشياء، ويشتغل بخدمتهم، ولا يستخدم منهم أحداً.

وتكلم عن آداب السَّمَاع ولبس الخِرْقَة.

ثم قال الشَّيْخ عَبْد القَادِر:

وهٰذَا آخر ما أَلِفْنَا من آداب القوم علىٰ وجه الاخْتِصَار والإقلال...(٢).

والذي ذكرتُهُ من الآداب هنا إنما هو إشارات مما أفاض به في كتابه الغُنْيَة لطالبي

---

(١) الغُنْيَة ص٤٦١-٤٦٤.

(٢) الغُنْيَة ص٤٦٤-٤٦٨.

طريق الحق.

وقد سبقه في كثير منها الإمَام الغَزَالِيّ في كتابه إحياء عُلُوْم الدِّيْن.

مجالسه ووعظه:

بعد انقطاع الشَّيْخ عَبْد القَادِر عن الخلق وتجرده وملازمته الخلوةَ والمُجَاهَدَات، أظهره الله تعالىٰ للناس، وكتب له القبول العَظِيْم عند الخاص والعام(١).

فعقد مجلس الوعظ في سنة ٥٢١هـ، وأظهر الله الحكمة علىٰ لِسَانه(٢).

وكان أول جلوسه للوعظ في شَوَّال سنة ٥٢١هـ(٣)، وكان المجلس بالحَلْبَة البَرَّانِيَّة(٤).

واعتقد الناس صَلَاحه وديانته، وحصل له القبول التام من الناس، وانتفعوا به وبكلامه ووعظه، وانتصر أَهْل السُّنَّة بظهوره، واشتهرت أحواله، وأقواله، وكَرَامَاته،

---

(١) المَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٢٤.

(٢) تَارِيْخ الإِسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٦. وفَوَات الوَفَيَات ج٢ ص٣٧٤. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٢٤.

(٣) بَهْجَة الأَسْرَار ص١٧٤. ومِرْآة الجَنَان ج٣ ص٢٦٣. ومُهْجَة البَهْجَة ص٣٢٢. وفي الذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص٢٩١: (جلس للوعظ بعد سنة ٥٢٠هـ). ونقله في شَذَرَات الذَّهَب ج٦ ص٣٣٣ عن ابن رَجَب. وهو في المَقْصَد الأَرْشَد ج٢ ص١٥٠.

(٤) بَهْجَة الأَسْرَار ص١٧٤. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٢٤. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص١٣٧ عن مُحِبّ الدِّيْن بن النَّجَّار في تَارِيْخه.

الحَلْبَة: مَحَلَّة كَبِيْرَة ببَغْدَاد في شرقيها، قرب باب الأَزَج. / مَرَاصِد الاطِّلَاع ج١ ص٤١٧.

باب الأَزَج: مَحَلَّة كَبِيْرَة ذات أسواق كثيرة، ومحالّ كبار، في شرقي بَغْدَاد. / مَرَاصِد الاطِّلَاع ج١ ص٦٥.

والأَزَج: ضرب من الأبنية. / القَامُوْس المُحِيْط، مادة (الأزج)، ص٢٢٩.

ومكاشفاته، وهابه الملوك فما دونهم[١].

وازدحم الخَلْقُ عليه في مجلسه بباب الحَلْبَة، ثم ضاق علىٰ الناس الموضع، فأُخرج الكرسيُّ إلىٰ داخل السور بين التنانير، وكان الناس يجيئون بالليل بالشمع والمشاعل، يأخذون لهم مواضع.

ثم ضاق علىٰ الناس الموضع، فحمل الكرسي إلىٰ خارج البلد، وجُعِلَ في المُصَلَّىٰ.

وكان الناس يجيئون علىٰ الخَيْل والبِغَال والحَمِيْر والجِمَال، ويقفون بها دار المجلس كالسُّور.

وكان يحضر المجلس نحو سبعين ألفاً، ويتوب عنده في المجلس خلق كثير[٢].

وبعد الفراغ من بناء مدرسة أبي سَعْد المُخَرِّمِيّ سنة ٥٢٨هـ تصدر فيها الشَّيْخ عَبْد القَادِر للتدريس والفتوىٰ والوعظ[٣].

وقُصِدَت بالزيارات والنذور، واجتمع عنده بها من العُلَمَاء والفُقَهَاء والصلحاء جَمَاعَة من الآفاق، فحملوا عنه، وسمعوا منه[٤].

---

(١) الذَّيل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص٢٩١-٢٩٢. وفي شَذَرَات الذَّهَب ج٦ ص٣٣٣ عن ابن رَجَب. والمَقْصَد الأَرْشَد ج٢ ص١٥٠. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٢٤.

(٢) المَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٢٤. وبَهْجَة الأَسْرَار ص١٧٧. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص١٣.

وحضور هٰذَا العدد (السبعين ألفاً) لا يُتَصَوَّر أن يكون بوقتٍ وَاحِد، إذ لا يسعهم المكان، وإنما يكون في أوقاتٍ مُخْتَلِفَة.

(٣) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص١٠٦. وبَهْجَة الأَسْرَار ص٢٠٣. ومُهْجَة البَهْجَة ص١٣٣. وتَارِيْخ الإِسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٦.

وانظر: فَوَات الوَفَيَات ج٢ ص٣٧٤. ومِرْآة الجَنَان ج٣ ص٢٦٧. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٥. وشَذَرَات الذَّهَب ج٦ ص٣٣٢.

(٤) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص١٠٦. وبَهْجَة الأَسْرَار ص٢٠٣. ومُهْجَة البَهْجَة ص١٣٣و٣٣٧.

وأقام فيها يدرِّس ويَعِظ إلىٰ أن توفي[١].

وكان يكتب ما يقول في مجلسه أربع مئة محبرة عالم وغيره[٢].

وما كان يخرج من مدرسته إلَّا يوم الجمعة إلىٰ الجَامِع أو إلىٰ الرباط. وما كان أحد يراه إلَّا في أوقات الصلاة[٣].

قال عَبْد الوَهَّاب ابنه: كان والدي يتكلم في الأُسْبُوع ثلاث مرات، بالمدرسة، بُكْرَة الجمعة، وعشية الثلاثاء، وبالرباط بُكْرَة الأحد.

وكان يحضره العُلَمَاء والفُقَهَاء والمشايخ وغيرهم.

ومدة كلامه علىٰ الناس أربعون سنة، أولها سنة إحدىٰ وعشرين وخمسمائة (٥٢١هـ)، وآخرها سنة إحدىٰ وستين وخمسمائة (٥٦١هـ).

ومدة تصدره للتدريس والفتوىٰ بمدرسته ثلاث وثلاثون سنة، أولها سنة ثمان وعشرين وخمس مئة (٥٢٨هـ)، وآخرها سنة إحدىٰ وستين (أي: ٥٦١هـ).

وكان يقرأ في مجلسه أخوان قِرَاءَة مُرْسَلَة مُجَوَّدَة بغير ألحان، ويقرأ أَيْضاً في مجلسه

وتَارِيْخ الإسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٦. ومِرْآة الجَنَان ج٣ ص٢٦٧. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٥.

(١) المُنْتَظَم ج١٨ ص١٧٣. وتَارِيْخ الإسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٤. وسِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٤١. ومَسَالِك الأَبْصَار ج٨ ص١١٨. وكلها نقلت عن ابن الجَوْزِيّ.

والذَّيل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص٢٩١.

(٢) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٩٦. وبَهْجَة الأَسْرَار ص١٨٤. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٢٧. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص١٨.

(٣) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٧٧-٧٨. وتَارِيْخ الإسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٦٢ نَقْلًا عن مِرْآة الزَّمَان.

وانظر: مُهْجَة البَهْجَة ص١٢٦. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٦.

الشَّرِيْف مَسْعُوْد الهَاشِمِيّ.

وكان يموت في مجلسه الرجُلان والثلاثة(١).

وكان سكوته أَكْثَرَ من كلامه، وكان يتكلم علىٰ الخواطر، فظهر له صيت عَظِيْم، وقبول تام(٢).

قال مُحَمَّد بن الخضر الحُسَيْنِيّ:

سمعت أبي يقول: كان سيدنا الشَّيْخ عَبْد القَادِر... يتكلم علىٰ خواطر أهل المجلس، ويواجههم بالكشف(٣).

سعة علمه:

برع في المَذْهَب والخلاف والأُصُوْل(٤).

قال مُحَمَّد الحَسَنِيّ المَوْصِلِيّ: سمعتُ أبي يقول: كان سيدنا الشَّيْخ عَبْد القَادِر يتكلم في ثلاثة عشر عِلْماً. وكان يذكر في مدرسته درساً من التَّفْسِيْر، ودرساً من

(١) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٩٥-٩٦. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٢٧. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص١٨.

(٢) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٧٧. وتَارِيْخ الإِسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٦٢. وسِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٤٩. ومَسَالِك الأَبْصَار ج٨ ص١٢١. وكلهم نقلوا عن مِرْآة الزَّمَان.

ومُهْجَة البَهْجَة ص١٢٦ نَقْلاً عن مُوَفَّق الدِّيْن بن قُدَامَة.

وانظر: قَلَائِد الجَوَاهِر ص٦.

(٣) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٩٣.

وانظر: بَهْجَة الأَسْرَار ص١٧٦و١٨١. ومُهْجَة البَهْجَة ص٣٣٠. والعِبَر ج٤ ص١٧٥.

وكلامه علىٰ الخواطر في: تَارِيْخ الإِسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٥. والعِبَر ج٤ ص١٧٥. ومَسَالِك الأَبْصَار ج٨ ص١٥٨. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٧ نَقْلاً عن العِبَر.

(٤) المَقْصَد الأَرْشَد ج٢ ص١٤٩.

الحَدِيْث، ودرساً من المَذْهَب، ودرساً من الخلاف.

وكان يُقْرَأ عليه في طرفي النهار: التَّفْسِيْر، وعُلُوْم الحَدِيْث، والمَذْهَب، والخلاف، والأُصُوْل، والنَّحْو.

وكان يُقْرِيُ القُرْآن بالقِرَاءَات بعد الظهر(١).

وقال الحافظ أبو العَبَّاس أَحْمَد البَنْدَنِيْجِيّ:

حضرتُ أنا والشَّيْخ جمال الدِّيْن بن الجَوْزِيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مجلس سيدنا الشَّيْخ عَبْد القَادِر رحمة الله عليه، فقرأ القارئ آية.

فذكر الشَّيْخ في تَفْسِيْرها وَجْهاً.

فقلتُ للشَّيْخ جمال الدِّيْن: أتعلم هٰذَا الوجه؟

قال: نعم.

فذكر الشَّيْخ فيها أحد عشر وجهاً.

وأنا أقول له: أتعلم هٰذَا الوجه؟ وهو يقول: نعم.

ثم ذكر الشَّيْخ وجهاً آخر، فقلتُ له: أتعلم هٰذَا؟

قال: لا، حتىٰ ذكر فيها كَمَال أَرْبَعِيْن وجهاً، يعزو كُلَّ وجهٍ إلىٰ قائله. والشَّيْخ جمال الدِّيْن يقول: لا أعرف هٰذَا الوجه.

واشتد تعجبه من سَعَة علم سيدنا الشَّيْخ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ثم قال: نترك القال، ونرجع إلىٰ الحال، لا إلٰه إلَّا الله، مُحَمَّد رَسُوْل الله.

---

(١) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٩١. وبَهْجَة الأَسْرَار ص٢٢٥ عن أبي عَبْد الله مُحَمَّد بن الخضر الحُسَيْنِيّ المَوْصِلِيّ. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٢٧ ولم ينسبه. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٣٨. وطَبَقَات الشَّعْرَانِيّ ج١ ص٢٢٨ من غير نسبة.

فاضطرب الناس اضطراباً شديداً، وخَرَق الشَّيْخ جمال الدِّيْن بن الجَوْزِيّ ثيابه(١).

كتبه:

للشَّيْخ عَبْد القَادِر جُمْلَة من المؤلفات، هي:

١- الغُنْيَة لطالبي طريق الحق(٢).

تَضَمَّنَ الأبواب الآتية:

باب فيما يجب علىٰ من يريد الدخول في ديننا: التلفظ بالشهادتين. ثم الصلاة، وشرائطها: الطهارة، وفرائض الطهارة وسُنَنها، وأركان الصلاة وواجباتها ومسنوناتها وهيئاتها. ثم الزكاة وأنصبتها. والصيام. والحج ومناسكه، والعُمْرَة وصفتها.

ثم باب الآداب، كالابتداء بالسَّلَام، والعشر الخصال من الفطرة...، وآداب الأكل والشرب، والحَمَّام، والاستنجاء، واللباس، والعَمَل، والسفر، وبر الوَالِدَيْن، والمصافحة، والدعاء، والسوق، والنكاح، والأمر بالمعروف والنهي عن المُنْكر، وما يتعلق بها.

ثم باب في مَعْرِفَة الصانع عَزَّ وجَلَّ، والإيمان، والبِدَع وعلامات أهله.

ثم فَصَّلَ بَيَان الفِرَق الضالة عن طريق الهُدَىٰ. وحَدِيْث الثلاث والسبعين فِرْقَة.

ثم باب الاتعاظ بمَوَاعِظ القُرْآن، وذكر عدة مجالس: في قوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ - النَّحل: ٩٨، وفي قوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ ﴾ - النمل: ٣٠ وفي

(١) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٩١. وبَهْجَة الأَسْرَار ص٢٢٤-٢٢٥. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٣٨.

(٢) البِدَايَة والنِّهَايَة ج١٢ ص٢٥٢، وفيه: (صنف كتاب الغُنْيَة، وفُتُوْح الغَيْب، وفيهما: أشياء حَسَنَة، وذكر فيهما أَحَادِيْث ضعيفة وموضوعة). والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٤٤، وفيه: (وهو معروف). والتَّاج المُكَلَّل ص١٥٨. وهَدِيَّة العَارِفِيْن ج١ ص٥٩٦. والأَعْلَام ج٤ ص٤٧. ومُعْجَم المُؤَلِّفِيْن ج٢ ص٢٠٠.

البسملة، وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ - النُّوْر: ٣١ وشروط التوبة، وفي قوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ - الحُجُرَات: ١٣.

ومجالس في فَضَائِل الشهور كرَجَب وشَعْبَان ورَمَضَان، وفضل ليلة القدر، والتراويح، والأيام العشر، والجمعة، وغيرها.

وكان خاتمة الكتاب ذكر كتاب آداب المريدين، والتَّصَوُّف والصُّوْفِيَّة وآدابهم.

وكتاب الغُنْيَة هو أحد كتب الفِقْه الحَنْبَلِيّ، وبعض آراء الشَّيْخ عَبْد القَادِر فيه مَنْقُوْلَة عنه في كتب المَذْهَب الحَنْبَلِيّ، التي مَرَّت معنا، عند كلامنا عن مَذْهَبه، مما يَدُلّ علىٰ اعتبار رأيه الفِقْهِيّ في المَذْهَب الحَنْبَلِيّ.

وهو أَيْضاً أحد كتب التَّصَوُّف الصَّافِي الخالي من الكَدَر والشُّذُوْذ.

٢- فُتُوْح الغَيْب[1].

ويشتمل علىٰ ثَمَانِي وسبعين مَقَالَة في موضوعات مُخْتَلِفَة، منها:

فيما لا بد لكل مُؤْمِن، والتواصي بالخير، وفي الابتلاء، وفي التقرب إلىٰ الله تعالىٰ، وفي النفس وأحوالها، وفي الخوف والرجاء، وفي التوكل ومقاماته، وفي الأمر بوفاء الوعد، والنهي عن خُلْفِهِ، وفي الرضا بما قسم الله تعالىٰ، وفي الحث علىٰ ملازمة باب الله تعالىٰ، وفي الورع، وفي ذم الحسد، وفي الزهد، وفي جِهَاد النفس، وفي التَّصَوُّف...، وغيرها.

وفي آخر الكتاب: تَكْمِلَة في ذكر وصاياه لأولاده، ومرضه، وموته، ونسبه من جهة والدته، واتصال نسبه بالخُلَفَاء الراشدين: أبي بَكْر وعُمَر وعُثْمَان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وتسلسل لبسه الخِرْقَة، وبَيَان أولاده، وعقيدته.

---

(١) البدَايَة والنِّهَايَة ج١٢ ص٢٥٢ وسبق كلامه فيه. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٤٤. وكَشْف الظُّنُوْن ج٢ ص١٢٤٠. والتَّاج المُكَلَّل ص١٥٨. وهَدِيَّة العَارِفِيْن ج١ ص٥٩٦. والأَعْلَام ج٤ ص٤٧.

٣- الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ[١].

وفيه اثنان وستون مجلساً، وهي دروس في الوعظ، في موضوعات مُخْتَلِفَة، مثل:

عدم الاعتراض علىٰ الله، في الفقر، في عدم تمني الغنىٰ، في التوبة، في سبب حب الله للعبد، في نصيحة المُؤْمِن لأخيه، في الصبر، في عدم المُرَاءاة، في ابتلاء المُؤْمِن، في عدم التكلف، في مَعْرِفَة الله عَزَّ وجَلَّ، في العَمَل بالقُرْآن، في الزهد في الدنيا...، وخُتِمَ الكتاب بذكر وفاته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٤- الفيوضات الرَّبَّانِيَّة[٢].

٥- جلاء الخاطر في البَاطِن والظَّاهِر[٣].

٦- سر الأَسْرَار ومظهر الأَنْوَار فيما يحتاج إليه الأبرار[٤].

٧- آداب السُّلُوْك والتوصل إلىٰ منازل الملوك[٥].

٨- حزب الرجاء والانتهاء[٦].

٩- الرِّسَالَة الغَوْثِيَّة[٧].

---

(١) إِيْضَاح المَكْنُوْن ج٢ ص١٦٣، وفيه: (والمدد) بدلًا من (والفَيْض). والأَعْلَام ج٤ ص٤٧. ومُعْجَم المُؤَلِّفِيْن ج٢ ص٢٠٠.

(٢) الإِعْلَام ج٤ ص٤٧. وفي هَدِيَّة العَارِفِيْن ج١ ص٥٩٦: (الفيوضات الرَّبَّانِيَّة في الأوراد القَادِرِيَّة).

(٣) مُعْجَم المُؤَلِّفِيْن ج٢ ص٢٠٠.

(٤) مُعْجَم المُؤَلِّفِيْن ج٢ ص٢٠٠.

(٥) مُعْجَم المُؤَلِّفِيْن ج٢ ص٢٠٠.

(٦) كَشْف الظُّنُوْن ج١ ص٦٦٢. وهَدِيَّة العَارِفِيْن ج١ ص٥٩٦.

(٧) كَشْف الظُّنُوْن ج١ ص٨٧٩. وهَدِيَّة العَارِفِيْن ج١ ص٥٩٦.

١٠- معراج لَطِيْف المعاني[١].

١١- يَوَاقِيْت الحكم[٢].

١٢- تُحْفَة المُتَّقِيْن وسَبِيْل العَارِفِيْن[٣].

١٣- الكبريت الأَحْمَر في الصلاة علىٰ النَّبِيّ ﷺ[٤].

١٤- مراتب الوجود[٥].

١٥- جَوَاهِر الرَّحْمٰن - في التَّصَوُّف[٦].

١٦- أوراد الجِيْلَانِيّ[٧].

١٧- إغاثة العَارِفِيْن وغَايَة مُنَىٰ الواصلين[٨].

١٨- دعاء أوراد الفَتْحِيَّة[٩].

١٩- دعاء البسملة[١٠].

٢٠- الحزب الكَبِيْر[١١].

---

(١) كَشْف الظُّنُوْن ج٢ ص١٧٣٨. وهَدِيَّة العَارِفِيْن ج١ ص٥٩٦.
(٢) كَشْف الظُّنُوْن ج٢ ص٢٠٥٣. وهَدِيَّة العَارِفِيْن ج١ ص٥٩٦.
(٣) هَدِيَّة العَارِفِيْن ج١ ص٥٩٦. وإِيْضَاح المَكْنُوْن ج١ ص٢٥٧.
(٤) هَدِيَّة العَارِفِيْن ج١ ص٥٩٦. وإِيْضَاح المَكْنُوْن ج٢ ص٢٦٠.
(٥) هَدِيَّة العَارِفِيْن ج١ ص٥٩٦.
(٦) إِيْضَاح المَكْنُوْن ج١ ص٣٧٦.
(٧) مُعْجَم المُؤَلِّفِيْن ج٢ ص٢٠٠.
(٨) مُعْجَم المُؤَلِّفِيْن ج٢ ص٢٠٠.
(٩) مُعْجَم المُؤَلِّفِيْن ج٢ ص٢٠٠.
(١٠) مُعْجَم المُؤَلِّفِيْن ج٢ ص٢٠٠.
(١١) مُعْجَم المُؤَلِّفِيْن ج٢ ص٢٠٠.

٢١- كتاب في الفِقْه والتَّصَوُّف(١).

٢٢- أوراد الأيام والأوقات(٢).

٢٣- رِسَالَة في الأَسْمَاء العَظِيْمَة للطريق إلىٰ الله(٣).

وجمع أصحابه من مجالسه في الوعظ كَثِيْراً(٤).

فتاواه:

قال الشَّيْخ عُمَر البَزَّاز: كانت الفَتَاوَىٰ تأتيه من بلاد العِرَاق وغيره، وما رأيناه تبيتُ عنده فتوىٰ ليطالع عليها، أو يفكر فيها، بل يكتب عليها عَقِيْبَ قِرَاءَتها.

وكان يفتي علىٰ مَذْهَب الإمَام الشَّافِعِيّ وأَحْمَد رَحِمَهُمَاٱللَّهُ، وتعرض فتاواه علىٰ عُلَمَاء العِرَاق، فما كان تَعَجُّبُهُم من صوابه أَشَدَّ من تَعَجُّبِهِم من سُرْعَة جوابه فيها.

وكان من اشتغل عليه في فنّ من الفُنُوْن الشَّرْعِيَّة افْتُقِرَ إليه فيه، وساد علىٰ أقرانه(٥).

صفته:

قال قَاضِي القُضَاة أبو عَبْد الله مُحَمَّد بن الشَّيْخ العِمَاد إِبْرَاهِيْم بن عَبْد الوَاحِد المَقْدِسِيّ: سمعتُ شَيْخنا الشَّيْخ مُوَفَّق الدِّيْن بن قُدَامَة، المُتَوَفَّىٰ سنة ٦٢٠هـ، يقول: دخلنا بَغْدَاد سنة إحدىٰ وستين وخمسمائة، فإذا الشَّيْخ عَبْد القَادِر ممن انتهت إليه الرئاسة

(١) مُعْجَم المُؤَلِّفِيْن ج٢ ص٢٠٠.
(٢) مُعْجَم المُؤَلِّفِيْن ج٢ ص٢٠٠.
(٣) مُعْجَم المُؤَلِّفِيْن ج٢ ص٢٠٠.
(٤) المَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٤٤.
(٥) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٩٢. وبَهْجَة الأَسْرَار ص٢٢٥. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٣٠. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٣٨. وطَبَقَات الشَّعْرَانِيّ ج١ ص٢٢٨.

بها علماً، وعملاً، وحالاً، واستفتاءً. وكان يكفي طالب العلم عن قصد غيره، من كثرة ما اجتمع فيه من العُلُوْم، والصبر علىٰ المشتغلين، وسعة الصدر، وكان مِلْء العين، وجمع الله فيه أوصافاً جميلة، وأحوالاً عَزِيْزة، وما رأيت بعده مثله(١).

وقال الشَّيْخ الإمَام مُوَفَّق الدِّيْن (ابن قُدَامَة صاحب المُغْنِي) رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كان شَيْخنا مُحْيِي الدِّيْن عَبْد القَادِر رَحِمَهُ ٱللَّهُ نحيفَ البدن، رَبْعَ القامة، عريضَ الصَّدْر واللِّحية، طَوِيْلها، أسمرَ، مقرون الحَاجِبين، حفياً، ذات صوت جَهْوَرِيّ، وسَمْتٍ بَهِيّ، وقَدْرٍ عَلِيّ، وعِلْم وَفِيّ. رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ(٢).

وقال إبْرَاهِيْم بن سَعِيْد الدَّارِيّ:

كان شَيْخنا عَبْد القَادِر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يلبس لباس العُلَمَاء، ويتطيلس، ويركب البغلة، وتُرفع الغاشية بين يديه، ويتكلم علىٰ كرسي عالٍ، وكان في كلامه سرعة وجَهْر، وله كلمة مسموعة، إذا قال أُنْصِتَ له، وإذا أمر ابْتُدِرَ لأمره، وإذا رآه ذو القلب القاسي خَشَع، وإذا مَرَّ إلىٰ الجَامِع يوم الجمعة وقف الناس في الأسواق يسألون الله تعالىٰ به حوائجهم، وكان له صيت وصوت، وسَمْت وصمت.

---

(١) الذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص٢٩٣-٢٩٤ نَقْلًا عن كتاب الشَّطَّنَوْفِيّ، قال ابن رَجَب: (ومن أحسن ما في هٰذَا الكتاب...) ونقل هٰذَا الخبر.

وقول الشَّيْخ مُوَفَّق الدِّيْن بن قُدَامَة في: بَهْجَة الأَسْرَار ص٢٢٥-٢٢٦، ومُهْجَة البَهْجَة ص١٢٥-١٢٦ بحروفه تَقْرِيْباً.

وقول قَاضِي القُضَاة أبي عَبْد الله مُحَمَّد بحروفه في: قَلَائِد الجَوَاهِر ص٦ نَقْلاً عن كتاب البَهْجَة (بَهْجَة الأَسْرَار ومعدن الأَنْوَار) للإمَام العلامة أبي الحسن عَلِيّ المُقْرِئ الشَّطَّنَوْفِيّ المِصْرِيّ.

(٢) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٨٠. وبَهْجَة الأَسْرَار ص١٧٤. ومُهْجَة البَهْجَة ص١١٥. ومِرْآة الجَنَان ج٣ ص٢٦٥. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢١٧. وقَلَائِد الجَوْهَر ص٦. وشَذَرَات الذَّهَب ج٦ ص٣٣١.

ولقد عَطَسَ يوم جمعة، فَشَمَّتَهُ الناس حتىٰ سُمِعَتْ في الجَامِع ضَجَّةٌ عَظِيْمَة، يقولون: يرحمك الله، ويرحم بك.

وكان المستنجدُ بالله الخَلِيْفَة في مقصورة الجَامِع، فقال: ما هٰذِهِ الضجة؟ قيل له: قد عَطَسَ الشَّيْخ عَبْد القَادِر. فهاله ذٰلِكَ[١].

كان جميل الصفات، شَرِيْف الأَخْلَاق، كَامِل الأدب والمروءة، ... دائم البشر، وافر العلم والعقل، ... معظماً لأهل العلم، مكرماً لأرباب الدِّيْن والشَّرِيْعَة، ... محباً لمريدي الحق، مع دوام المُجَاهَدَة ولزوم المُرَاقَبَة إلىٰ الموت، له كلام عالٍ في عُلُوْم المَعَارِف، ... سخي اليد، كَرِيْم النفس علىٰ أجمل طريقة.

وبالجُمْلَة فلم يكن في زَمَانه مثله، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢].

قال الشَّيْخ الفاضل أبو طاهر مُحَمَّد بن الحسن الأَنْصَارِيّ الخَطِيْب: سمعتُ الشَّيْخ أبا عَبْد الله مُحَمَّد القُرَشِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: سمعتُ الشَّيْخ أبا الرَّبِيْع سُلَيْمَان المَالَقِيّ يقول: سيد أهل زَمَانه الشَّيْخ عَبْد القَادِر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال أبو طاهر: فقلتُ للشَّيْخ القُرَشِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الشَّيْخ عَبْد القَادِر سيد أهل زَمَانه. فقال: نعم.

أما الأَوْلِيَاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فهو أعلاهم وأَكْمَلهم.

---

(١) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٨٠-٨١. ومُهْجَة البَهْجَة ص٣٣٢ دون نسبة.

وانظر أوله إلىٰ قوله: ... وكرسي عالٍ، في: طَبَقَات الشَّعْرَانِيّ ج١ ص٢٢٧.

وانظر أوله إلىٰ قوله: خشع، في: قَلَائِد الجَوَاهِر ص٨. ومن قوله: وإذا مر إلىٰ الجَامِع ... فهاله ذٰلِكَ، في: ص١٩.

(٢) مُهْجَة البَهْجَة ص٣٣٧.

وانظر: قَلَائِد الجَوَاهِر ص١٣٧-١٣٨، وذكر فيه أوصافاً جَلِيْلَة للشَّيْخ.

وأما العُلَمَاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فهو أورعهم وأزهدهم.

وأما العارفون فهو أعلمهم وأتمهم.

وأما المشايخ فهو أمكنهم وأقواهم.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين، ورضي عنا بهم[١].

لبسه في وسط الشتاء قَمِيْصاً:

قال ابن الأخضر:

كنتُ أدخل علىٰ سيدنا الشَّيْخ عَبْد القَادِر سَلَام الله عليه في وسط الشتاء وقوّة برده، وعليه قَمِيْص وَاحِد، وعلىٰ رأسه طاقية، والعَرَق يخرج من جسده، وحوله من يُرَوِّحُهُ بمِرْوَحَة كما يكون في شدة الحر[٢].

قال الشَّيْخ أبو سَعْد القَيْلَوِيّ:

قوة سيدنا الشَّيْخ عَبْد القَادِر مع الله وفي الله وبالله، ضَعُفَت عندها قوىٰ الصناديد، ولقد سبق كَثِيْراً من المتقدمين بتمسكه بعُرْوَة من طريقة لا انفصام لها، ولقد رفعه الله إلىٰ مقامٍ عَزِيْز بتدقيقه في تَحْقِيْقه[٣].

---

(١) قَلَائِد الجَوَاهِر ص٦٦.

(٢) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٩٩.

وهو في: بَهْجَة الأَسْرَار ص١٦٩. وتَارِيْخ الإِسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٦١. وسِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٤٩. ومَسَالِك الأَبْصَار ج٨ ص١٢١. وكلهم نقلوا عن ابن النَّجَّار.

والذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص٢٩٩ عن ابن النَّجَّار عن أبي مُحَمَّد الأَخْفَش. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٢٣. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٦٦. وطَبَقَات الشَّعْرَانِيّ ج١ ص٢٣١. وجَامِع كَرَامَات الأَوْلِيَاء ج٢ ص٢٠٢.

(٣) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص١١٤، وفيه: (القيلويي).

وقال الشَّيْخ عَبْد الرَّحْمٰن (بن أبي الحسن عَلِيّ البَطَائِحِيّ) الرِّفَاعِيّ:

قَدِمْتُ بَغْدَاد، وحضرتُ الشَّيْخ عَبْد القَادِر سَلَام الله عليه، فرأيت من حاله، وفراغ قلبه، وخلوّ سره، ما أذهلني.

فلما رجعتُ إلىٰ أُمّ عَبِيْدَة، أخبرتُ خالي الشَّيْخ أَحْمَد عنه بذٰلِكَ، فقال: يا ولدي، ومن يُطِيْق مثل قوة الشَّيْخ عَبْد القَادِر، وما هو عليه، وما وصل إليه[1].

إنفاقه على الفُقَرَاء:

قال الشَّيْخ طَلْحَة بن مُظَفَّر العَلْثِيّ:

قال شَيْخنا عَبْد القَادِر: أقمتُ ببَغْدَاد في بُدُوِّ أمري عشرين يوماً ما أجد ما أقتاتُ به، ولا أجد مباحاً، فخرجت إلىٰ خراب إيوان كسرىٰ أطلب مباحاً، فوجدتُ هنالك سبعين رجلاً من الأَوْلِيَاء، كلهم يطلب ما طلبتُ. فقلتُ: من المروءة أن أُزاحمهم؟

فرجعتُ إلىٰ بَغْدَاد، فلقيني رجل أعرفه من بلد أهلي، فأعطاني قُرَاضَةً، وقال: هٰذِهِ

وفي قَلَائِد الجَوَاهِر ص٢١: (أبو سَعِيْد القَيْلَوِيّ)، وضبطها بالحروف في ص١٠٦، وفيها ترجمته، وقيل: أبو سَعْد.

وفي بَهْجَة الأَسْرَار ص٣٠٧: (وقيلوي: نسبة إلىٰ قَيْلُوْيَه، بفتح القاف، وسكون الياء آخر الحروف، وبعدها لام مضمومة، وواو ساكنة، وياء آخر الحروف مفْتُوْحة، وهاء تأنيث، علىٰ وزن حمدويه. وهي قَرْيَة من قرىٰ نهر الملك، قريبة من بَغْدَاد، وبها مات أبو سَعْد، قريباً من سنة ٥٥٧هـ تقدِيراً، وقبره بها ظَاهِر يُزَار).

(١) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص١١٤. وبَهْجَة الأَسْرَار ص١٦٣-١٦٤. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٢١.

أُمّ عَبِيْدَة: هي الآن تابعة لمحافظة مَيْسَان - العِمَارَة، والطريق إليها من قَضَاء الرِّفَاعِيّ التابع لمحافظة ذي قار (النَّاصِرِيَّة). وعَبِيْدَة بوزن سَفِيْنَة.

كتابنا: المَدْخَل إلىٰ الدِّيْن الإسْلَامِيّ ص٧٢.

بعثت بها أُمُّكَ إليكَ معي. فأخذتُ منها قطعةً تركتها لنفسي، وأسرعت بالبَاقِي إلىٰ خراب الإيوان، وفَرَّقْتُ القُرَاضَةَ كلها علىٰ أُوْلٰئِكَ السبعين.

فقالوا لي: ما هٰذَا؟ قلتُ: إنه قد جاءني هٰذَا من عند أُمّي، وما رأيتُ أن أتخصص به دونكم.

ثم رجعتُ إلىٰ بَغْدَاد، واشتريتُ بالقطعة التي معي طعاماً، وناديتُ فُقَرَاء، فأكلنا جميعاً، ولم يبت معي من القُرَاضَة شيء(١).

وقال ابن النَّجَّار:

قال الشَّيْخ عَبْد القَادِر: فَتَّشْتُ الأَعْمَال كلها، فما وجدتُ فيها أفضلَ من إطعام الطعام، أَوَدُّ لو كانت الدنيا بيدي فأُطعمها الجياعَ(٢).

وقال الجُبَّائِيّ:

قال لي الشَّيْخُ عَبْد القَادِر: وذكر عبارة ابن النَّجَّار، وأَكْمَلها بقوله: كَفِّي مثقوبة، لا تضبط شَيْئاً، لو جاءني ألف دِيْنَار لم أُبَيِّتْهَا. وكان إذا جاءه أحد بذهب، يقول: ضَعْهُ تحت السَّجَّادَة(٣).

وذكروا أن الشَّيْخ عَبْد القَادِر كان إذا جاءه أحدهم بذهب، يقول له: ضَعْهُ تحت الوسادة، ولا يمسه، فإذا جاء خادمه، قال: خذ ما تحت الوسادة وأعطه الخباز والبقال(٤).

وكان غلامه يقف عند باب دار الشَّيْخ، والطبق فيه خبز.

---

(١) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٨٣-٨٤. وبَهْجَة الأَسْرَار ص١٩٩. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٩.

(٢) شَذَرَات الذَّهَب ج٦ ص٣٣٢. وتَارِيْخ الإِسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٩. ومَسَالِك الأَبْصَار ج٨ ص١١٨. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٨.

(٣) سِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٤٧. وتَارِيْخ الإِسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٦٠. ومَسَالِك الأَبْصَار ج٨ ص١١٨. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٨.

(٤) بَهْجَة الأَسْرَار ص١٩٩. ومُهْجَة البَهْجَة ص١٢١. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٣٦ عن الجُبَّائِيّ.

وكان إذا جاءه خلعة من الخَلِيْفَة، يقول: أعطوها لأبي الفَتْح الطحان، وكان يأخذ منه الدقيق بالقرض، لأجل خبز الفُقَرَاء والأضياف.

وكان له حِنْطَة مرباة من الحلال بيد بعض أصحابه، يزرعها له كل سنة، وكان له بعض أصحابه يطحنها ويخبز له كل يوم أربعة أرغفة أو خمسة، ويأتي بها في آخر النهار إلىٰ الشَّيْخ، فكان الشَّيْخ يُفَرِّقُ منها علىٰ من حضره كسرةً كسرةً، والبَاقِي يدخره لنفسه.

وكان إذا أُهديت له هَدِيَّة، يُفَرِّقُ منها علىٰ من حضره ذٰلِكَ الوقت.

وكان يقبل الهَدِيَّة ويكافئ عليها.

ويقبل النذور ويأكل منها(١).

ونُقِلَ عن ولده عَبْد الرَّزَّاق، قال:

لم يحج والدي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بعد أن اشتهر أمره، إلَّا حَجَّة وَاحِدَة، وكنتُ فيها قائد زمام راحلته في الطلعة والرجعة.

فلما كنا بالحِلَّة، قال لنا: انظروا أفقر بيت هنا. فوجدنا خربة فيها بيت من الشعر، فيه شَيْخ وعجوز وصبية، فاستأذنه والدي في النُّزُوْل عنده، فأَذِنَ له، فنزل هو ومن معه في تلك الخربة.

وجاء مشايخ الحِلَّة يومئذٍ ورؤساؤها وأَعْيَانها إليه، وسألوه أن يتحول إلىٰ منازلهم هو ومن معه، أو إلىٰ غيرها، فأبىٰ.

وساق أهل البلد من الغنم والبقر والطعام والذَّهَب والفضة والقماش شَيْئاً كَثِيْراً، ورحلوا له رواحل لأجل السفر.

---

(١) بَهْجَة الأَسْرَار ص١٩٩. ومُهْجَة البَهْجَة ص١٢١-١٢٢.
وانظر: قَلَائِد الجَوَاهِر ص٨و٣٦.

وهَرَعَ الناس إليه من كل جانب.

فقال الشَّيْخ لمن معه: أنا قد خرجتُ عن نصيبي من جميع ما هنالك لأهل هٰذَا البيت.

فقالوا له: ونحن كذٰلِكَ.

فأمر بجميع ما هنالك، فأعطىٰ لذٰلِكَ الشَّيْخ والعجوز والصبية.

وبات ورحل في السَّحَر.

قال: فاجتزتُ في الحِلَّة بعد عدة سنين، وإذا بذٰلِكَ الشَّيْخ أكثر أهلها مالاً.

فقال لي: جميع ما ترىٰ من بركة تلك الليلة، وأن تلك الماشية نتجت ونمت، وهٰذَا كله منها[1].

وقال أبو صالح نصر (وهو ابن عَبْد الرَّزَّاق ابن الشَّيْخ عَبْد القَادِر، المُتَوَفَّىٰ سنة ٦٣٣هـ):

أَخْبَرَنَا أبي، قال: كنتُ مع والدي الشَّيْخ عَبْد القَادِر الجِيْلِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الجَامِع يوم الجمعة، فأتاه تاجر، فقال له: إن معي مالاً أُريد أن أُعطيه للفُقَرَاء والمساكين من غير الزكاة، وما وجدتُ له مستحقاً، فمرني أن أُعطيه لمن تريد.

فقال له الشَّيْخ: أعطه لمن يستحق ولمن لا يستحق، والأجر علىٰ الله.

قال: ورأىٰ فَقِيْراً مكسور القلب، ما شأنكَ؟

قال: مررتُ بالشط، وسألتُ ملاحاً أن ينقلني إلىٰ الجانب الآخر، فأبىٰ، انكسر قلبي لفقري.

(١) بَهْجَة الأَسْرَار ص١٩٨ عن أبي الحسن عَلِيّ بن يَحْيَىٰ الأَزَجِيّ، عن قَاضِي القُضَاة أبي صالح نصر، قال: أَخْبَرَنِي والدي عَبْد الرَّزَّاق. ومُهْجَة البَهْجَة ص١١٨-١١٩ عن الذَّهَبِيّ.

فلم يتم كلام الفَقِيْر، حتىٰ دخل رجل معه صُرَّةٌ فيها ثلاثون دِيْنَاراً، نذراً للشَّيْخ.

فقال الشَّيْخ لذٰلِكَ الفَقِيْر: خذ هٰذِهِ الصُّرَّة، واذهب بها إلىٰ الملاح، وأعطها له، وقل له: لا ترد فَقِيْراً أَبَداً.

وخلع الشَّيْخ قَمِيْصه، وأعطاه للفَقِيْر(١).

قوله الحق وموقفه من السُّلْطَان:

كان الشَّيْخ عَبْد القَادِر يصدع بالحق علىٰ المنبر، وينكر علىٰ من يُوَلِّي الظَّلَمَة علىٰ الناس.

ولما وَلَّىٰ المقتفي القَاضِي ابن المُرَخِّم، الظالم، قال الشَّيْخ علىٰ المنبر: وَلَّيْتَ علىٰ المُسْلِمِيْن أظلمَ الظالمين، ما جوابك غداً عند رب العالمين؟(٢).

وقال الشَّيْخ المُعَمَّر جرادة في صفة الشَّيْخ عَبْد القَادِر:

... وما قام لأحد من العظماء ولا الأَعْيَان، ولا أَلَمَّ بباب وَزِيْر قَطُّ ولا سُلْطَان.

وحكىٰ مُحَمَّد بن الخضر، عن أبيه، قال:

خدمتُ سَيِّدِي الشَّيْخ عَبْد القَادِر ثلاث عشرة سنة، فما رأيته فيها يتمخط، ولا يَتَنَخَّع، ولا قعدت عليه ذبابة، ولا قام لأحد من العظماء، ولا أَلَمَّ بباب ذي سُلْطَان،

---

(١) مُهْجَة البَهْجَة ص١٢٢. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٣٦.

وهو في: بَهْجَة الأَسْرَار ص١٩٩-٢٠٠ عن الشَّرِيْف مُحَمَّد بن الخضر الحُسَيْنِيّ.

(٢) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٧٨. ومُهْجَة البَهْجَة ص١٢٦، (إلىٰ قوله الظَّلَمَة) نَقْلًا عن مُوَفَّق الدِّيْن بن قُدَامَة. وتَارِيْخ الإسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٦٢ نَقْلاً عن مِرْآة الزَّمَان. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٦، وفيه: (ابن المُرَخِّم القَاضِي أبو الوفا يَحْيَىٰ بن سَعِيْد بن يَحْيَىٰ بن المُظَفَّر). وتَكْمِلَة النَّصّ فيه: (عند رب العالمين أرحم الراحمين، فارتعد الخَلِيْفَة وبكىٰ، وعزل القَاضِي المذكور لوقته).

ولا جلس علىٰ بساطه، ولا أكل من طعامه إلَّا مرة وَاحِدَة.

وكان يرىٰ الجلوسَ علىٰ بساط الملوك ومن يليهم من العُقُوبَات المُعَجَّلَة.

وكان يأتيه الخَلِيْفَة أو الوَزِيْر أو من له الحرمة الوَافِية، وهو جالس، فيقوم ويدخل داره، فإذا جلس خرج الشَّيْخ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من داره، لئلا يقوم لهم.

وإنه ليكلمهم الكلام الخَشِن، ويبالغ لهم في العظة، وهم يُقَبِّلُون يده، ويجلسون بين يديه متواضعين متصاغرين.

وكان إذا كاتب الخَلِيْفَة يكتب إليه: عَبْد القَادِر يأمركَ بكذا، وأمره نافذ عليك، وطاعتك واجبة عليه، وهو لك قُدْوَة وعليك حُجَّة.

فإذا وقف الخَلِيْفَة علىٰ ورقته قَبَّلَهَا، وقال: صدق الشَّيْخ[1].

وكان الشَّيْخ عَبْد القَادِر **ينكر علىٰ المنافقين**، ويخاطبهم بكل صراحة، قال:

أين أنتم وهم؟ يا خَوَنَة في العلم والعَمَل، يا أعداء الله ورَسُوْله، يا قاطعي عِبَاد الله عَزَّ وجَلَّ، أنتم في ظلم ظَاهِر، ونفاق ظَاهِر.

هٰذَا النفاق إلىٰ متىٰ؟ يا عُلَمَاء ويا زهاد؟

كم تنافقون الملوك والسَّلَاطِيْن، حتىٰ تأخذوا منهم حطام الدنيا وشهواتها ولذاتها؟ أنتم وأكثر الملوك في هٰذَا الزَّمَان ظَلَمَةٌ خَوَنَةٌ في مال الله عَزَّ وجَلَّ في عِبَاده[2].

وقال: يا غلام، لا تنظر إلىٰ الخَلْق بعين البَقَاء، بل انظر إليهم بعين الفناء، لا تنظر

(١) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٨١. وبَهْجَة الأَسْرَار ص١٦٧. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٢٣ من غير نسبة. وطَبَقَات الشَّعْرَانِيّ ج١ ص٢٣١. وفي مُهْجَة البَهْجَة ص١١٧: ولا أَلَمَّ بباب وَزِيْر قط، ولا سُلْطَان. وقول المُعَمَّر جرادة في: قَلَائِد الجَوَاهِر ص١٩. وحكاية مُحَمَّد بن الخضر في: قَلَائِد الجَوَاهِر ص١٩-٢٠.

(٢) الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص٢٢٤، المجلس الحادي والخمسون، سنة ٥٤٥هـ.

إليهم بعين الضر والنفع، بل انظر إليهم بعين العجز والذل...[١].

أَمَا تستحي؟ قد حملك حرصك علىٰ أنك تخدم الظَّلَمَة، وتأكل الحرام[٢].

هيبته:

وكان الشَّيْخ مُحْيِي الدِّيْن عَبْد القَادِر ذا هيبة عَظِيْمَة، إذا نظر إلىٰ أحد يكاد يَرْعُدُ من هيبته، وربما ارتعدوا إذا جلس يحدق بهم[٣].

وكان شديد الغضب إذا انتهكت محارم الحق عَزَّ وجَلَّ[٤].

إجْلَال الناس له:

قال مُحَمَّد بن الخضر الحُسَيْنِيّ: سمعتُ أبي يقول:

... وكان إذا قام فوق الكرسي، يقوم الناس لجَلَالته، وإذا قال لهم: اسكتوا سكتوا، حتىٰ لم يُسْمَعْ منهم سوىٰ أنفاسهم هيبةً له[٥].

ثناء المشايخ عليه:

أثنىٰ علىٰ الشَّيْخ عَبْد القَادِر معاصروه وتلاميذه ثناءً لا مَزِيْد عليه، وهم أقرب الناس إليه، وأعرفهم بسيرته، وكلامهم موضع ثِقَة وصحة وصدق.

فقد وصفه السَّمْعَانِيّ، وهو ممن أخذ عن الشَّيْخ عَبْد القَادِر، بقوله: كان

---

(١) الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص٢٢٥، المجلس الثاني والخمسون، سنة ٥٤٥هـ.

(٢) الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص٢٢٩، المجلس الثاني والخمسون، سنة ٥٤٥هـ.

(٣) مُهْجَة البَهْجَة ص٣٣٣.

(٤) مُهْجَة البَهْجَة ص٣٣٧.

(٥) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٩٣. وبَهْجَة الأَسْرَار ص١٨١. ومُهْجَة البَهْجَة ص٣٣٠ دون نسبة.

عَبْد القَادِر من أهل جِيْلَان إمَام الحَنَابِلَة وشَيْخهم في عَصْره. فقيه، صالح، دَيِّن، خَيِّر، كثير الذكر، دائم الفكر، سَرِيْع الدمعة...[١].

كتبتُ عنه، وكان يسكن بباب الأَزَج في مدرسةٍ بُنِيَت له[٢].

وكان الشَّيْخ عَدِيّ بن مسافر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٥٥٧هـ، يقول:

كانت الأوقات التي جالسنا فيها الشَّيْخ عَبْد القَادِر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، كأنها في المنام، كانت أَخْلَاقة رضية، وأوصافه زَكِيَّة، ونفسه أبية، وكفه سخية[٣].

وقال الشَّيْخ أبو المَحَاسِن عُمَر بن عَلِيّ بن الخضر القُرَشِيّ الواعظ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٥٧٥هـ:

ما رأت عيناي أحسن خلقاً، ولا أَوْسع صدراً، ولا أكرم نفساً، ولا أعطف قلباً،

---

(١) تَارِيْخ الإسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٤ . وسِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٤١. وكلاهما عن السَّمْعَانِيّ.

ونُقِلَ النَّصّ عن السَّمْعَانِيّ في: مَسَالِك الأَبْصَار ج٨ ص١١٨. والذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص٢٩١. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٧. وشَذَرَات الذَّهَب ج٦ ص٣٣٣.

(٢) سِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء السَّابِق عن السَّمْعَانِيّ. والذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة، وشَذَرَات الذَّهَب، السَّابِقَة.

ومنها لفظة: (كتبت عنه)، ومن قَلَائِد الجَوَاهِر ص٧.

وهٰذَا النَّصّ لم أجده في كتاب الأَنْسَاب للسَّمْعَانِيّ، في مادة (الجِيْلِيّ) ج٣ ص٤١٥، حيث ورد فيه: (وأبو مُحَمَّد عَبْد القَادِر بن...) فقط، وأشار محققه الأُسْتَاذ المُعَلِّمِيّ إلىٰ وجود (بياض) في المخطوطة.

وأرىٰ أن النَّصّ الساقط من المطبوع هو الذي ذكرته أعلاه.

(٣) مُهْجَة البَهْجَة ص١٢٣.

ولا أحفظ عملاً ووداً من الشَّيْخ مُحْيِي الدِّيْن عَبْد القَادِر الجِيْلِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١).

وقال الشَّيْخ المُعَمَّر جرادة:

ما رأت عيناي أحسنَ خُلُقاً، ولا أَوْسعَ صدراً، ولا أكرمَ نفساً، ولا أعطف قلباً، ولا أحفظ عهداً ووداً من سيدنا الشَّيْخ عَبْد القَادِر(٢).

وسئل عنه الشَّيْخ أبو مدين (شُعَيْب بن حُسَيْن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٥٩٠هـ، وهو من كبار تلاميذ الشَّيْخ عَبْد القَادِر، وهو أَنْدَلُسِيّ، دفن في تِلِمْسَان بالجَزَائِر)، فقال:

كان ظَاهِر الوضاءة، دائم البشرة، كثير البهاء، شديد الحياء، ما رأيت أنزه لِسَاناً، ولا أظهر لفظاً منه.

وكان يقول:

إن الشَّيْخ عَبْد القَادِر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَرِيْع الدمعة، شديد الخشية، كثير الهيبة، مجاب الدعوة، كَرِيْم الأَخْلَاق، طيب الأعراق، أبعد الناس عن الفحش، أقرب الناس للحق، شديد البأس إذا انتهكت محارم الله عَزَّ وجَلَّ.

ولا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لغير ربه، ولا يرد سَائِله. كان التوفيق رائده، والأُنْس نديمه، والبسط نسيمه، والصدق رايته، والفَتْح بضاعته، والذكر وَزِيْره، والفكر سميره، والمكاشفة غذاءه، والمشَاهدة شِفَاءه، وآداب الشَّرِيْعَة ظَاهِرَهُ، وأوصاف الحقيقة سَرَائِرَهُ.

وأنشد أبياتاً(٣).

وكان الشَّيْخ عُمَر السُّهْرَوَرْدِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٦٣٢هـ، إذا ذكر الشَّيْخ عَبْد القَادِر

(١) مُهْجَة البَهْجَة ص١١٧.
(٢) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٨١. وبَهْجَة الأَسْرَار ص١٩٧. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص١٩.
(٣) مُهْجَة البَهْجَة ص١٢٤-١٢٥.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينشد:

الحمد لله أني في جوار فتى ... ما في الحقيقة نفاع وضرار
لا يرفع الطرف إلَّا عند مكرمة ... من الحياء ولا يُغْضِي علىٰ عار(١)

وقال الإمَام الحافظ أبو عَبْد الله مُحَمَّد بن يُوْسُف بن مُحَمَّد البِرْزَالِيّ الإشْبِيْلِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٦٣٦هـ، في كتاب المَشْيَخَة البَغْدَادِيَّة للرَّشِيْد بن مَسْلَمَة:

عَبْد القَادِر الجِيْلَانِيّ فقيه الحَنَابِلَة والشَّافِعِيَّة ببَغْدَاد، وشَيْخ جماعتها، وله القبول التام عند الفُقَهَاء والفُقَرَاء والعوام، وهو أحد أركان الإسْلَام، وانتفع به الخاص والعام، وكان مجاب الدعوة، سَرِيْع الدمعة، دائم الذكر، كثير الفكر، رَقِيْق القلب، دائم البِشْرِ، كَرِيْم النفس، سخي اليد، غزير العلم، شَرِيْف الأَخْلَاق، طيب الأعراق، مع قدم راسخ في العِبَادَة والاجْتِهَاد(٢).

وقال مَحْمُوْد بن النَّعَّال: سمعتُ أبي يقول:

كنتُ يوماً عند الشَّيْخ حَمَّاد الدَّبَّاس، فجاء الشَّيْخ عَبْد القَادِر، وهو شاب يومئذٍ، فقام إليه، وتَلَقَّاهُ، وقال: مرحباً بالجبل الراسخ، والطَّوْد المنيف الذي لا يتحرك، وأجلسه إلىٰ جانبه... .

وقال له الشَّيْخ حَمَّاد: أنت سيد العَارِفِيْن في عَصْرك(٣).

وقال الشَّيْخ العارف القدوة عَلِيّ بن وَهْب السِّنْجَارِيّ:

عَبْد القَادِر أحد أَعْيَان الدنيا، الشَّيْخ عَبْد القَادِر أحد أفراد الأَوْلِيَاء، الشَّيْخ

---

(١) مُهْجَة البَهْجَة ص١٢٣-١٢٤.

(٢) قَلَائِد الجَوَاهِر ص٧-٨.

(٣) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص١٢١. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٤٢ دون إسناد.
وهٰذَا النَّصّ في: قَلَائِد الجَوَاهِر ص١٦.

عَبْد القَادِر من تحف الوجود، الشَّيْخ عَبْد القَادِر من هدايا الله تعالىٰ إلىٰ الكون، طوبىٰ لمن رآه، طوبىٰ لمن جالسه، طوبىٰ لمن بات في خاطر الشَّيْخ عَبْد القَادِر[١].

وقال سِبْط ابن الجَوْزِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٦٥٤هـ:

لم يجتمع لأحد من المَنَاقِب، وأسباب المَحَامِد ما اجتمع لسيدنا الشَّيْخ مُحْيِي الدِّيْن رحمة الله عليه من العلم، والعَمَل، والحسب، والمَوَاهِب الجسيمة، والنعم المتتابعة، نفعنا الله ببركته، وحشرنا في زمرته، وأماتنا علىٰ محبته[٢].

ووصفه ابن النَّجَّار مُحِبّ الدِّيْن مُحَمَّد، المُتَوَفَّىٰ سنة ٦٤٣هـ، بأنه أحد الأَئِمَّة الأَعْلَام، صاحب الكَرَامَات الظَّاهِرَة[٣].

وقال عنه الذَّهَبِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٧٤٨هـ:

الزَّاهِد، شَيْخ العَصْر، وقدوة العَارِفِيْن، صاحب المقامات والكَرَامَات، ومدرس الحَنَابِلَة، انتهىٰ إليه التقدم في الوعظ، والكلام علىٰ الخواطر[٤].

وقال عنه أَيْضاً:

الشَّيْخ، الإمَام، العالم، الزَّاهِد، العارف، القدوة، شَيْخ الإسْلَام، علم الأَوْلِيَاء، شَيْخ بَغْدَاد[٥].

وقال عنه أَيْضاً:

---

(١) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص١٢٥.

(٢) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص١٣٠.

(٣) المُسْتَفَاد ص٣٠٥.

وانظر: قَلَائِد الجَوَاهِر ص٧ عن ابن النَّجَّار.

(٤) العِبَر ج٤ ص١٧٥. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٧ نَقْلًا عن العِبَر.

(٥) سِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٣٩. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٧ نَقْلًا عن سِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء.

شَيْخ الوقت، الواعظ، المفتي، الحَنْبَلِيّ، الزَّاهِد، أحد الأَعْلَام ببَغْدَاد(١).

وقال عنه أَيْضاً:

الجِيْلِيّ الحَنْبَلِيّ الزَّاهِد، صاحب الكَرَامَات والمقامات، وشَيْخ الحَنَابِلَة رحمة الله عليه، وكان إِمَام زَمَانه، وقُطْب عَصْره، وشَيْخ شُيُوْخ الوقت بلا مدافعة(٢).

وقال في آخر ترجمته:

قلتُ: كان الشَّيْخ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عديم النظير، بعيد الصيت، رأساً في العلم والعَمَل...، وفي الجُمْلَة: فكَرَامَاته متواترة جمة، ولم يُخَلِّف بعده مِثْلَهُ(٣).

وقال عنه ابن فضل الله العُمَرِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٧٤٩هـ:

عَلَم الأَوْلِيَاء، مُحْيِي الدِّيْن، سيد طائفة كانوا بالنهار لا يفترون، وبالأسحار هم يستغفرون، طَلَعَ من هَاشِم بن عَبْد مَنَاف في الذوائب، وكَرَعَ منه في غدير لم يُرْفَق بالشوائب، وكان من الشَّرَف في شامخ قلاله، وراسخ النسب العَلَوِيّ في كرم خلاله...(٤).

وقال عنه اليَافِعِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٧٦٨هـ:

قُطْب الأَوْلِيَاء الكرام، شَيْخ المُسْلِمِيْن والإِسْلَام، رُكْن الشَّرِيْعَة، وعَلَم الطريقة، وموضح أَسْرَار الحقيقة، حَامِل راية عليا للمَعَارِف والمفاخر، شَيْخ الشُّيُوْخ،

---

(١) دُوَل الإِسْلَام ج٢ ص٦٥.

(٢) تَارِيْخ الإِسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٣.

(٣) تَارِيْخ الإِسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٦٣.

والنَّصَّان في: قَلَائِد الجَوَاهِر ص٧ نَقْلاً عن تَارِيْخ الإِسْلَام للذَّهَبِيّ.

(٤) مَسَالِك الأَبْصَار ج٨ ص١١٧.

وقدوة الأَوْلِيَاء العَارِفِيْن الأكابر، أُسْتَاذ أرباب الوجود...[١].

وقال عنه ابن رَجَب، المُتَوَفَّىٰ سنة ٧٩٥هـ:

الزَّاهِد، شَيْخ العَصْر، وقدوة العَارِفِيْن، وسُلْطَان المشايخ، وسيد أهل الطريقة في وقته، ...، صاحب المقامات والكَرَامَات، والعُلُوْم والمَعَارِف، والأحوال المشهورة[٢].

وقال عنه ابن تَغْرِي بَرْدِي، المُتَوَفَّىٰ سنة ٨٧٤هـ:

كان شَيْخ العِرَاق، صاحب حال ومقال، عالماً عاملاً، قُطْب الوجود، إمَام أهل الطريقة، قدوة المشايخ في زَمَانه بلا مدافعة، ومَنَاقِبه وشهرته أشهر من أن تذكر، كان ممن جمع بين العلم والعَمَل، أفتىٰ ودَرَّس ووعظ سنين، ونظم ونثر، وكان مُحَقِّقاً، صاحب لِسَان في التَّحْقِيْق، وبَيَان في الطريق، وهو أحد المشايخ الذين طنّ ذكرهم في الشرق والغرب، أعاد الله علينا من بَرَكَاته وبَرَكَات أسلافه الطاهرين[٣].

وقال عنه ابن مُفْلِح، المُتَوَفَّىٰ سنة ٨٨٤هـ:

عَبْد القَادِر... شَيْخ العَصْر، وقدوة العَارِفِيْن، وسُلْطَان المشايخ، سيد أهل الطريقة في وقته، صاحب المقامات والكَرَامَات، والعُلُوْم والمَعَارِف، والأحوال المشهورة[٤].

ونعته العُلَيْمِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٩٢٨هـ، بقوله:

الشَّيْخ، الإمَام، العالم، السَّيِّد الكَبِيْر، الزَّاهِد، شَيْخ العَصْر، وقدوة العَارِفِيْن، وسُلْطَان المشايخ، وسيد أهل الطريقة في وقته، صاحب المقامات، والمَوَاهِب

(١) مِرْآة الجَنَان ج٣ ص٢٦٢. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص١٣٦ نَقْلًا عن اليَافِعِيّ من كلام طَوِيْل.
(٢) الذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص٢٩٠. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٧ نَقْلًا عن ابن رَجَب.
(٣) النُّجُوْم الزَّاهِرَة ج٥ ص٣٧١.
(٤) المَقْصَد الأَرْشَد ج٢ ص١٤٨-١٤٩.

والكَرَامَات، والخوارق الباهرات، والعُلُوْم والمَعَارِف والأحوال المشهورة[١].

ووصفه النَّبْهَانِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٥٠هـ، بقوله:

سُلْطَان الأَوْلِيَاء، وإمَام الأصفياء، وأحد أركان الوِلَايَة الأَقْوِيَاء الذين وقع الإجماع علىٰ ولايتهم عند جميع أفراد الأُمَّة المُحَمَّدِيَّة من العُلَمَاء وغير العُلَمَاء، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وعن سائر الأَوْلِيَاء[٢].

وقال مفتي العِرَاق مُحْيِي الدِّيْن أبو عَبْد الله مُحَمَّد بن حَامِد البَغْدَادِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ:

كان الشَّيْخ عَبْد القَادِر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَرِيْع الدمعة، شديد الخشية، كثير الهيبة، مجاب الدعوة، الهيبة تلوح من سمته، كَرِيْم الأَخْلَاق، طيب الأعراق، أبعد الناس عن الفحش، أقرب الناس إلىٰ الحق، شديد البأس إذا انتهكت محارم الله عَزَّ وجَلَّ.

لا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لغير ربه. لا يرد سَائِلاً ولو بأحد ثوبيه.

كان التوفيق رائده، والتأييد معاضده، والعلم مُهَذِّبه، والقرب مؤدبه، والمحاضرة كَنْزه، والمَعْرِفَة حرزه، والخطاب مشيره، واللحظ سفيره، والأُنْس نديمه، والبسط نسيمه، والصدق رايته، والفَتْح بضاعته، والحلم صناعته، و الذكر وَزِيْره، والفكر سميره، والمكاشفة غذاءه، والمشَاهدة شِفَاءه، وآداب الشَّرِيْعَة ظَاهِرَهُ، وأوصاف الحقيقة سَرَائِرَهُ. وأنشد فيه:

لله أنـت لـقـد رحـبـت جـنـابـا ... وشرفـت أَصْـلاً طـاهـراً ونـصـابـا

وعظمت قـدراً شـامخـاً حتىٰ غدا ... قـوس الـغـمام لأخمصيك ركـابـا

---

(١) المَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢١٦.

(٢) جَامِع كَرَامَات الأَوْلِيَاء ج٢ ص٢٠٠.

٩ أبيات[١].

والمَنْقُوْلات في تَزْكِيَة الشَّيْخ عَبْد القَادِر كثيرة جداً ممن عاصره، أو تتلمذ عليه، والعُلَمَاء الناقلين عنه.

لٰكِن قال اليَافِعِيّ راداً علىٰ الذَّهَبِيّ وما قاله بعض الذين ترجموا للشَّيْخ عَبْد القَادِر:

قلتُ: هٰذَا ما ترجمه فيه بعضهم، وهو كذٰلِكَ، بل فوق ذٰلِكَ. وأما ترجمة الذَّهَبِيّ في قوله: والشَّيْخ عَبْد القَادِر بن أبي صالح الزَّاهِد، فمدحهُ بصفة الزهد، التي هي من أوائل منازل السالكين المبتدئين من المريدين.

وقول: انتهىٰ إليه التقدم في الوعظ والكلام علىٰ الخواطر، فغَضٌّ من منصبه العالي، وقدحٌ لا مدحَ فيما له من المفاخر والمعالي.

فمن مدح السادات أهل نِهَايَة ... وسامىٰ مقامات بأوصاف مُبْتَدِي
فقد ذمّهم فيما به ظنّ مدحهم ... وكم معتدٍ فيها بزعمه مهتدي[٢]

أوصافه:

اختلفت ببَدَائِع أوصافه الألسن:

فمن واصفٍ له بذي البَيَانَيْن واللِّسَانَيْن.

ومن مُلَقَّب له بصاحب البُرْهَانَيْن والسُّلْطَانَيْن.

ومن داعٍ له بإمَام الفريقين والطريقين.

(١) بَهْجَة الأَسْرَار ص٢٠١. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٢٠.

(٢) مِرْآة الجَنَان لليَافِعِيّ ج٣ ص٢٦٤.

ومن مسمٍّ له بذي السِّرَاجَيْن والمِنْهَاجَيْن[١].

ومن ناعتٍ له بكَرِيْم الجدين والطرفين[٢].

ومن كانت هٰذِهِ أوصافه كان حَرِيّاً أن يكون مَنَارَة إِصْلَاح، ومثلاً يحتذي به الناس.

لقبه:

كان الشَّيْخ عَبْد القَادِر يعرف بالباز الأَشْهَب[٣].

وأول من لقبه به هو الشَّيْخ عَقِيْل المَنْبِجِيّ[٤].

تواضعه:

قال الشَّيْخ المُعَمَّر جرادة:

ولقد كان مع جَلَالَة قَدْره، وعُلُوّ منزلته، وسَعَة عِلْمِهِ، يقف مع الصَّغِيْر، ويُوَقِّر الكَبِيْر، ويبدأ بالسَّلَام، ويجالس الضعفاء، ويتواضع للفُقَرَاء[٥].

(١) بَهْجَة الأَسْرَار ص٢٠٤. ومُهْجَة البَهْجَة ص١٣٤، وفيه: (بصاحب البَرَاهِيْن والسَّلَاطِيْن... الفريقين والطرفين). وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٥.

(٢) بَهْجَة الأَسْرَار ص٢٠٤. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٥.

(٣) مُخْتَصَر أَخْبَار الخُلَفَاء لابن السَّاعِي ص١٠٢.

(٤) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص١٢٢. وبَهْجَة الأَسْرَار ص٢٨١. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٧٦.

(٥) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٨١. وبَهْجَة الأَسْرَار ص١٩٧.

والنَّصّ بحروفه في: مُهْجَة البَهْجَة ص١١٧ دون نسبة.

والنَّصّ في: المَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٣٠ دون نسبة.

وفي مُهْجَة البَهْجَة ص٣٣٧: (كثير التواضع).

وقَلَائِد الجَوَاهِر ص١٩.

وكان الشَّيْخ عَـدِيّ بن مسافر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٥٥٧هـ، يقول في وصف الشَّيْخ عَبْد القَادِر:

(... وكفه سخية، وكان يأمر بمد السِّمَاط، ويأكل مع الأضياف، ويجالس الفُقَرَاء والضعفاء، ويعود المرضىٰ، ويصبر علىٰ طلبة العلم.

لا يظلم جليسه إن أحداً أكرم عليه منه.

ويتفقد من غاب من أصحابه، ويسأل عن شؤونهم، ويحفظ ودّهم، ويعفو عن سيئاتهم.

ويصدّق من حلف، ويخفي علمه فيه.

وما رأيت أشد حياءً منه)(١).

صدقه:

قال الشَّيْخ مُحَمَّد بن قائد الأَوَاني:

كنتُ عند سيدنا عَبْد القَادِر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فسأله سَائِل: علامَ بنيت أمرك؟ قال: علىٰ الصدق، ما كذبتُ قط، ولا لما كنتُ في المكتب. ثم قال:

كنتُ صَغِيْراً في بلدنا... فجئتُ إلىٰ أُمِّي، وقلتُ لها: هبيني لله عَزَّ وجَلَّ، وأْذَني لي في المسير إلىٰ بَغْدَاد، أشتغل بالعلم، وأزور الصَّالِحِيْن. فسألتني عن سبب ذٰلِكَ؟ فأخبرتُها خبري.

فبَكَتْ وقامت إلىٰ ثَمَانِين دِيْنَاراً رُكْنِيَّة، ورَّثها أبي. فتَرَكَتْ لأخي أَرْبَعِيْن دِيْنَاراً، وخَاطَتْ لي في دَلَقِي تحت إبْطِي أَرْبَعِيْن دِيْنَاراً. وأَذِنَتْ لي في المسير، وعَاهَدَتْنِي علىٰ الصدق في كل أحوالي، وخَرَجَتْ مُوَدِّعَةً لي، وقالت لي: يا ولدي، اذهب، فقد خرجتُ

(١) مُهْجَة البَهْجَة ص١٢٣. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٨ دون نسبة.

عنك لله عَزَّ وجَلَّ، فهٰذَا وَجْه لا أراه إلىٰ يوم القيامة.

فسرتُ مع قافلة صَغِيْرَة نطلب بَغْدَاد، فلما تجاوزنا هَمَذَان، وكنا بأرض برتيك[(١)] خرج علينا ستون فَارِساً، فأخذوا القافلة، ولم يتعرض لي أحد، فاجتاز بي أحدهم، وقال: يا فَقِيْر، ما معك؟ فقلتُ: أربعون دِيْنَاراً. فقال: وأين هي؟ قلتُ: مُخَاطَة في دَلَقِي تحت إبطي. فظنني أستهزئ منه، فتركني وانصرف.

ومَرَّ بي آخرُ، فقال لي مثلَ ما قال الأول، وأجبتُهُ كجواب الأول، فتركني وانصرف.

وتوافيا عند مُقَدَّمِهِم، وأخبراه بما سمعاه مني، فقال: عَلَيَّ به. فأُتِي بي إليه، وإذا هم علىٰ تلّ يقتسمون أموال القافلة، فقال لي: ما معك؟ قلتُ: أربعون دِيْنَاراً. فقال: وأين هي؟ قلت: مخاطة في دَلَقِي تحت إبْطِي، فَفُتِق، فوجد فيه الأَرْبَعِيْن دِيْنَاراً. فقال لي: ما حَمَلَكَ علىٰ هٰذَا الاعتراف؟ قلتُ: إن أُمِّي عاهدتني علىٰ الصدق، فأنا لا أخون عهدها.

فبكىٰ، وقال: أنت لم تَخُنْ عهدَ أُمّك، وأنا اليوم كذا وكذا سنةً أخون عهد ربي. فتاب علىٰ يدي.

فقال له أصحابه: أنت كنتَ مُقَدَّمَنَا في قطع الطريق، وأنت الآن مُقَدَّمُنَا في التوبة. فتابوا كُلُّهُم علىٰ يدي.

ورَدُّوا علىٰ القافلة ما أخذوا منهم.

فهم أول من تاب علىٰ يدي[(٢)].

---

(١) (برتيك) هٰكَذَا في: مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٨٢.

وودت: (ترنتك) في: بَهْجَة الأَسْرَار ص١٦٨. و(تَرتَنْك) في: المَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢١٧. و(ربيك) في: قَلَائِد الجَوَاهِر ص٩.

(٢) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٨١-٨٢.

التوبة على يديه:

وتاب علىٰ يده معظم أهل بَغْدَاد، وأسلم معظمُ اليَهُوْد والنَّصَارَىٰ(١).

قال الجُبَّائِيّ:

قال لي سيدنا الشَّيْخ عَبْد القَادِر: أَتَمَنَّىٰ أن أكون في الصحاري والبراري كما كنتُ في الأول، لا أرىٰ الخَلْق ولا يروني، ثم قال: أراد الله عَزَّ وجَلَّ مني منفعة الخلق، فإنه قد أسلم علىٰ يَدَيَّ أكثر من خمس مئة من اليَهُوْد والنَّصَارَىٰ، وتاب علىٰ يَدَيَّ من العَيَّارِيْن والمَشَالِحَة وقُطَّاع الطرق أكثر من مئة ألف، وهٰذَا خير كثير(٢).

وهٰذَا النَّصّ بحروفه - إلَّا بعض كلمات - في: بَهْجَة الأَسْرَار ص١٦٧-١٦٨. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢١٧-٢١٨ من غير إسناد.

والنَّصّ أَيْضاً في: قَلَائِد الجَوَاهِر ص٨-٩.

(١) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٧٧. ومُخْتَصَر أَخْبَار الخُلَفَاء ص١٠٢. ومُهْجَة البَهْجَة ص١٢٦ وأَكْمَلها (فيها علىٰ يده)، نَقْلاً عن مُوَفَّق الدِّيْن بن قُدَامَة.

وتَارِيْخ الإِسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٦٢. وسِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٤٩. وكلاهما نقل عن مِرْآة الزَّمَان.

وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٦. وشَذَرَات الذَّهَب ج٦ ص٣٣٢.

(٢) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٨٤. وتَارِيْخ الإِسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٦٠. وسِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٤٧.

والنَّصّ في: مُهْجَة البَهْجَة ص٣٣٤ ولم ينسبه. وانظره في: مَسَالِك الأَبْصَار ج٨ ص١١٨. وانظر أَيْضاً: المَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٢٨ من غير نسبة.

وفي قَلَائِد الجَوَاهِر ص١٩: (... أكثر من خمسة آلاف من اليَهُوْد...).

وانظر: بَهْجَة الأَسْرَار ص١٨٤.

وقال عُمَر الكمياثي:

لم تكن مجالس سيدنا الشَّيْخ عَبْد القَادِر تخلو ممن يسلم من اليَهُوْد والنَّصَارَىٰ، ولا ممن يتوب عن قطع الطريق، وقتل النفس، وغير ذٰلِكَ من الفُسَّاد، ولا ممن يرجع عن معتقد سيئ.

وأتاه راهب، وأسلم علىٰ يديه في المجلس...[1].

قال:

وأتاه مرة أُخْرَىٰ ثلاثة عشر رجلاً من النَّصَارَىٰ، وأسلموا علىٰ يده في مجلس وعظه، وقالوا: نحن من نَصَارَىٰ المَغْرِب، وأَرَدْنَا الإسْلَام، وتَرَدَّدْنَا فيمن نقصده لنسلم علىٰ يديه، فهتف بنا هاتفٌ، نسمع كلامه ولا نرىٰ شخصه، يقول: أيها الركب ذا الفلاح، ائتوا بَغْدَاد، وأسلموا علىٰ يد الشَّيْخ عَبْد القَادِر، فإنه يوضع في قلوبكم من الإيمان عنده ببركته ما لم يوضع فيها عند غيره من سائر الناس في هٰذَا الوقت[2].

المَشَالِحَة: شَلَحَ ثيابه يَشْلَحُ شَلْحاً: خلعها جزئياً. / المُعْجَم العَرَبِيّ الأَسَاسِيّ، مادة (شلح)، ص٧٠٠.

والمُرَاد بهم: الذين يسلبون الناس ما عليهم.

ووردت الكلمة في قَلَائِد الجَوَاهِر (المَسَالِحَة) بالسين، والمُرَاد بهم: الذين يحملون السلاح.

(١) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٨٥.

والنَّصّ في: مُهْجَة البَهْجَة ص٣٣٤ ولم ينسبه. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٢٨ من غير نسبة.

وفي قَلَائِد الجَوَاهِر ص١٨: (عُمَر الكيماني).

(٢) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٨٥. وبَهْجَة الأَسْرَار ص١٨٥. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص١٨.

عِبَادته:

قال الشَّيْخ أبو الفَتْح الهَرَوِيّ:

خدمتُ سَيِّدِي الشَّيْخ عَبْد القَادِر أَرْبَعِيْن سنة، فكان في مدتها يصلي الصبح بوُضُوْء العشاء.

وكان إذا أحدث جَدَّدَ في وقته وُضُوْءاً، وصلىٰ ركعتين.

وكان يصلي العشاء ويدخل خَلْوَتَهُ، ولا يدخلها معه أحدٌ، ولا يخرج منها إلَّا عند طلوع الفجر.

ولقد أتاه الخَلِيْفَة بالليل مراراً بقصد الاجتماع به، فلا يقدر علىٰ ذٰلِكَ إلىٰ الفجر.

وبتّ عنده ليالي، فكان يصلي أول الليل يسيراً، ثم يذكر إلىٰ أن يمضي الثلث الأول، يقول: المُحِيْط، الرب، الشَّهِيْد، الحَسِيْب، الفَعَّال، الخلاق، الخَالِق، البَارِئ، المُصَوِّر...، ثم يصلي قائماً علىٰ قدميه يتلو إلىٰ أن يذهب الثلث الثاني، وكان يطيل في سجوده جداً، يباشر بوجهه الأرض، ثم يجلس متوجهاً مراقباً مشَاهداً إلىٰ قريب طلوع الفجر، ثم يأخذ في الدعاء والابتهال والتذلل... إلىٰ صلاة الصبح(١).

توكله على الله:

قال أبو عَبْد الله النَّجَّار:

قال لي سيدنا الشَّيْخ عَبْد القَادِر: تَرِدُ عَلَيَّ الأثقالُ الكَبِيْرَة لو وُضِعَتْ عل الجبال تفسَّخت، فإذا كثرت عَلَيَّ وضعتُ جنبي علىٰ الأرض، وقلتُ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ

(١) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٩٦. وبَهْجَة الأَسْرَار ص١٦٤. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٢٢-٢٢٣. وطَبَقَات الشَّعْرَانِيّ ج١ ص٢٣٠. وجَامِع كَرَامَات الأَوْلِيَاء ج١ ص٢٠١-٢٠٢. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٧٦ إلىٰ قوله: (علىٰ ذٰلِكَ إلىٰ الفجر).

مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾ - الشَّرْح.

ثم أرفع رأسي، وقد انفرجت عني تلك الأثقال(١).

كَرَامَاته:

الكَرَامَة: هي ظهور أمر خارق للعادة علىٰ يد الوَلِيّ، غير مقارِن لدعوىٰ النُّبُوَّة.

والوَلِيّ: هو العارف بالله تعالىٰ وصفاته بحسب ما يمكن، المواظب علىٰ الطاعات، المجتنب عن المعاصي، المعرِض عن الانهماك في اللذات والشهوات(٢).

وسبب الكَرَامَات الإيمان والتقوىٰ(٣). قال تعالىٰ يصف الأَوْلِيَاء: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ

---

(١) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٨٤. وتَارِيْخ الإِسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٦٠ عن الجُبَّائِيّ. وسِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٤٧ عن الجُبَّائِيّ. ومَسَالِك الأَبْصَار ج٨ ص١٢١ عن ابن النَّجَّار. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٢١ من غير عزو. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص١٠. وطَبَقَات الشَّعْرَانِيّ ج١ ص٢٢٧ من غير عزو.

(٢) نقلتُ موضوع (الكَرَامَة) هٰذَا من كتابي: العَقِيْدَة الإِسْلَامِيَّة ومَذَاهِبها ص٥١٠-٥١٤. وتعريف (الكَرَامَة) في المصادر الآتية:

شَرْح العَقَائِد النَّسَفِيَّة للتَّفْتَازَانِيّ ص١٧٥. وشَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٧٢. والإِرْشَاد للجُوَيْنِيّ ص٣١٦. وتَبْصِرَة الأَدِلَّة ج١ ص٥٣٦. وشَرْح العَقَائِد العَضُدِيَّة للدَّوَّانِيّ ج٢ ص٢٨٢. وشَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِير وحَاشِيَة الصَّاوِيّ عليه ص١١٣. ولَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٣٩٢ وفيه ذكر شروط الوَلِيّ. والرِّسَالَة القُشَيْرِيَّة ص١٥٨ وما بعدها. وكتاب الفُرْقَان بين أَوْلِيَاء الرَّحْمٰن وأَوْلِيَاء الشيطان لابن تَيْمِيَّة. وشَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص٢٥٣. وحُجَّة الله علىٰ العالمين في معجزات سَيِّد المُرْسَلين. واليَوَاقِيْت والجَوَاهِر ج١ ص١٦٠-١٦٢. ورِسَالَة التَّوْحِيْد لمُحَمَّد عَبْدُه ط١٠ ص٢٣٦.

(٣) الفُرْقَان لابن تَيْمِيَّة ص٨٩.

﴿ٱلۡعَظِيمُ ٦٤﴾ - يُوْنُس.

وقد أثبتها جُمْهُوْر المُسْلِمِيْن من السَّلَف والخَلَف، وأبو الحُسَيْن البَصْرِيّ من المُعْتَزِلَة(١)، حتىٰ أنكر الإمَام أَحْمَد بن حَنْبَل علىٰ من أنكرها، وضلَّله(٢)، بل جعل بعضهم إنكارها فسقاً وابتداعاً(٣). وحجتهم:

١- ما ورد في القُرْآن الكَرِيْم: مثل:

حمل مريم من غير ذَكَر.

وتساقط الرُّطَب الجَنِيّ عليها من النخلة اليابسة، قال تعالىٰ: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ - مريم: ٢٥.

ووجود الرزق عندها بلا سبب، قال تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ - آل عِمْرَان: ٣٧.

ولبث أهل الكهف ثلاثمائة وتسع سنوات بلا طعام وشراب، نياماً أحياءً بلا آفةٍ، قال سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾ - الكهف: ٢٥.

وإتيان وَزِيْر سُلَيْمَان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ (آصف بن برخيا) بعرش بِلْقِيْس بطرفة عَيْن مع المسافة البعيدة قال تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾ - النمل: ٤٠.

٢- تواتر عن الصَّحَابَة الكرام عدد كَبِيْر من الكَرَامَات بحيث لا يمكن إنكاره

---

(١) لَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٣٩٣و٣٩٦.

وانظر: المَوَاقِف ج٨ ص٢٨٨.

ووَرَدَ رأي أبي الحُسَيْن في: الفَائِق في أُصُوْل الدِّيْن ص٣١٨.

(٢) لَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٣٩٣ عن نِهَايَة المبتدئين لابن حمدان.

(٣) حَاشِيَة الصَّاوِيّ علىٰ الدَّرْدِيْر ص١١٣.

منها:

لمَّا أرسل عُمَر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جيشاً إلىٰ نَهَاوَنْد، أَمَّر عليهم رجلاً يسمىٰ سَارِيَة، فبينما عُمَر يَخْطُب، فجعل يصيح علىٰ المنبر: يا سَارِيَةُ الجَبَلَ. فقدم رَسُوْل الجيش فسأله، فقال: يا أَمِيْر المُؤْمِنِيْن لقينا عدوَّنا فهزمونا، فإذا بصائح: يا سَارِيَةُ الجَبَلَ، يا سَارِيَةُ الجَبَلَ، فأسندنا ظهورنا بالجبل، فهزمهم الله.

ولما حاصر خَالِد بن الوَلِيْد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِصْناً مَنيعاً، قالوا لا نسلم حتىٰ تشرب السُّم، فشربه فلم يضرّه[(١)].

٣- إثبات الكَرَامَة للوَلِيّ هو إثبات مُعْجِزَة الرَّسُوْل ﷺ، لأنه لن يكون وَلِيّاً إلَّا بعد أن يكون محقاً في ديانته، وديانتُه الإقرار بالقلب واللِّسَان برِسَالَة رَسُوْل الله ﷺ مع الطاعة له في أوامره ونواهيه، لأن الوَلِيّ لو ادعىٰ الاستقلال بنفسه وعدم المتابعة للنَّبِيّ، لم يكن وَلِيّاً، ولم تظهر الكَرَامَة علىٰ يده، ولو فُرِضَ ظهورها فهو حينئذٍ من قبيل الاستدراج[(٢)].

٤- الكَرَامَة أمر ممكن، ووجود الممكنات مستند إلىٰ قدرته تعالىٰ الشَّامِلَة لجميعها، فلا يمتنع شيء منها علىٰ قدرته[(٣)].

---

(١) انظر هٰذِهِ الأمثلة وغيرها في: المَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٨٨. وشَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٧٥. وشَرْح العَقَائِد النَّسَفِيَّة للتَّفْتَازَانِيّ ص١٧٥. ولَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٣٩٤. وسُبُل الهُدَىٰ والرَّشَاد ج١٠ ص٨١١. وشَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص٢٥٢.

(٢) شَرْح العَقَائِد النَّسَفِيَّة للتَّفْتَازَانِيّ ص١٧٧. ولَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٣٩٦. وسُبُل الهُدَىٰ والرَّشَاد ج١٠ ص٨١٠.

(٣) شَرْح المَوَاقِف للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٨٨.

وانظر: أُصُوْل الدِّيْن للغَزْنَوِيّ ص١٦٢.

وأنكر الكَرَامَة: أبو إسْحَاق الإسْفَرَايِيْنِيّ، وأبو عَبْد الله الحَلِيْمِيّ من الأَشَاعِرَة، وأكثر المُعْتَزِلَة(١)، وابن حَزْم الظَّاهِرِيّ(٢). بحُجَّة:

أنها لا تتميز عن المُعْجِزَة، فلا تكون المُعْجِزَةُ حينئذٍ دالةً علىٰ النُّبُوَّة، ويَنْسَدُّ بابُ إثباتها(٣).

ورُدَّ بما يأتي:

١- الكَرَامَة ثَابِتَة بالقُرْآن، وتواترها في كل عَصْر يشهد بأنها حق لا يمكن إنكاره، كما تَقَدَّم.

٢- إن المُعْجِزَة تفترق عن الكَرَامَة بالأُمُور الآتية:

أ. المُعْجِزَة تتميز بالتَّحَدِّي مع ادِّعَاء النُّبُوَّة، أما الكَرَامَة فليس فيها ذٰلِكَ(٤).

ب. المُعْجِزَة مقارِنة لدعوىٰ النُّبُوَّة، أما الكَرَامَة فهي غير مقارِنة لها، فصاحب

---

(١) شَرْح العَقَائِد العَضُدِيَّة للدَّوَّانِيّ ج٢ ص٢٨٢. وشَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٧٣. والمَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٨٨. ولَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٣٩٤. وحَاشِيَة الصَّاوِيّ علىٰ الدَّرْدِير ص١١٣. وشَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص٢٥٣. والرِّسَالَة القُشَيْرِيَّة ص١٥٨. والإرْشَاد للجُوَيْنِيّ ص٣١٦. والتَّمْهِيْد للّامِشِيّ ص٩١. والمُحَصِّل للرَّازِيّ ص٢٢١.

وجاء في الفَائق في أُصُوْل الدِّيْن ص٣١٧: (مَنَع شُيُوْخنا أبو عَلِيّ وأبو هَاشِم وأصحابهما من جواز ظهور المعجِز علىٰ الصالح، والكذاب علىٰ العكس، وعلىٰ من سيُبْعَثُ إرهاصاً لنبوته).

(٢) الفِصَل لابن حَزْم ج٥ ص١٠٩.

وذكر رأي أهل الظَّاهِر: الطُّوْسِيّ في اللُّمَع ص٣٩٣.

(٣) المَوَاقِف ج٨ ص٢٨٩. وسُبُل الهُدَىٰ والرَّشَاد ج١٠ ص٨١٢.

(٤) المَوَاقِف ج٨ ص٢٨٩.

الكَرَامَة لا يدعي النُّبُوَّة، بل هو متبع للنَّبِيّ متمسك بشرعه، ولو ادَّعَاها صار عدواً لله، لا يستحق الكَرَامَة بل اللعنة والإهانة[١]، فلا تلتبس عندئذٍ الكَرَامَة بالمُعْجِزَة.

ج. المُعْجِزَة مقدورة للأنبياء متىٰ أرادوها، إما باخْتِيَارهم، وإما باقْتِرَاح الأُمَّة. أما الكَرَامَة فقد يأتي بها الوَلِيّ، وقد لا يستطيع الإتيان بها[٢].

د. الأنبياء يحتجون بمعجزاتهم علىٰ المُشْرِكِيْن، لأن قلوبهم قاسية لا يؤمنون بالله عَزَّ وجَلَّ، والأَوْلِيَاء يحتجون بالكَرَامَة علىٰ نفوسهم، حتىٰ تطمئن، وتوقن، ولا تضطرب، ولا تجزع عند فوت الرزق، لأنها أَمَّارَة بالسوء جاحدة مُشْرِكَة مجبولة علىٰ الشك، ليس عندها يقين بما ضمن لها خَالِقها من الرزق[٣].

هـ. إن الأنبياء كلما زيدت لهم من المعجزات، يكون أتم لمعانيهم وفضلهم، وهٰؤُلَاءِ الذين لهم الكَرَامَات من الأَوْلِيَاء كلما زيدت في كرامتهم، يكون وَجَلُهم أكثر، وخوفهم أكثر، حذراً أن يكون ذٰلِكَ من المكر الخفي لهم والاستدراج، وأن يكون ذٰلِكَ نصيبهم من الله عَزَّ وجَلَّ، وسبباً لسقوط منزلتهم عند الله عَزَّ وجَلَّ[٤].

ولٰكِن الذي يجب الالتفات إليه هو أن أَهْل السُّنَّة وغيرهم في اتفاقٍ علىٰ أنه لا يجب الاعْتِقَاد بوقوع كَرَامَة معينةٍ علىٰ يد وَلِيٍّ معين بعد ظهور الإسْلَام، فيجوز لكل

---

(١) شَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٧٣. وشَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص٢٥٣.
(٢) شَرْح العَقَائِد النَّسَفِيَّة لرَمَضَان أفندي ص٢٨٩-٢٩٠. والرِّسَالَة القُشَيْرِيَّة ص١٥٩. وبَحْر الكَلَام للنَّسَفِيّ ص١١٦.
(٣) اللُّمَع للطُّوْسِيّ ص٣٩٣.
(٤) اللُّمَع للطُّوْسِيّ ص٣٩٥.
وهناك فُرُوْق أُخْرَىٰ في: أُصُوْل الدِّيْن للبَغْدَادِيّ ص١٧٤-١٧٥.

مُسْلِم بإجماع الأُمَّة أن ينكر صدور أي كَرَامَة كانت من أي وَلِيٍّ كان، ولا يكون بإنكار هٰذَا مخالفاً لشيءٍ من أُصُوْل الدِّيْن، ولا مائلاً عن سُنَّةٍ صَحِيْحَة، اللهم إلَّا أن يكون مما صَحَّ في السُّنَّة عن الصَّحَابَة(١).

والشَّيْخ عَبْد القَادِر اشتُهر بأنه صاحب الكَرَامَات.

قال مُوَفَّق الدِّيْن أبو مُحَمَّد بن قُدَامَة، صاحب كتاب المُغْنِي:

لم أسمع عن أحدٍ يُحكىٰ عنه من الكَرَامَات أكثر مما يُحكىٰ عنه - أي: عن الشَّيْخ عَبْد القَادِر - ، ولا رأيت أحداً يُعظِّمُهُ الناسُ للدِّيْن أكثر منه(٢).

وقال الشَّيْخ عِزّ الدِّيْن عَبْد العَزِيْز بن عَبْد السَّلَام الفَقِيْه الشَّافِعِيّ:

ما نُقلت إلينا كَرَامَات أحدٍ بالتواتر، إلَّا الشَّيْخ عَبْد القَادِر(٣).

وقال اليَافِعِيّ:

---

(١) رِسَالَة التَّوْحِيْد لمُحَمَّد عَبْدُه ط١٠ ص٢٣٨.

(٢) تَارِيْخ الإسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٥. وسِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٤٢. وكلاهما عن أبي بَكْر بن طَرْخَان عن مُوَفَّق الدِّيْن.

والعِبَر ج٤ ص١٧٦. والذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص٢٩٢. والمَقْصَد الأَرْشَد ج٢ ص١٥٠. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٦. وشَذَرَات الذَّهَب ج٦ ص٣٣٢. والتَّاج المُكَلَّل ص١٥٦.

(٣) سِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٤٣ عن الحافظ أبي الحُسَيْن عَلِيّ بن مُحَمَّد.

وتَارِيْخ الإسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٥٦. وفَوَات الوَفَيَات ج٢ ص٣٧٣. وكلاهما عن أبي الحُسَيْن اليُوْنِيْنِيّ.

والذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص٢٩٢. والمَقْصَد الأَرْشَد ج٢ ص١٥٠. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٤٣. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص١٣٤. وشَذَرَات الذَّهَب ج٦ ص٣٣٢. والتَّاج المُكَلَّل ص١٥٦.

وأما كَرَامَاته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فخارجة عن الحصر، وقد ذكرتُ شَيْئاً منها في كتاب نشر المَحَاسِن، وقد أَخْبَرَنِي من أدركت من أَعْلَام الأَئِمَّة الأكابر: أن كَرَامَاته تواترت، أو قريب من التواتر. ومَعْلُوْم بالاتفاق أنه لم يظهر ظهور كَرَامَاته لغيره من شُيُوْخ الآفاق[(١)].

وقال الشَّيْخ مُحْيِي الدِّيْن النَّوَوِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في كتابه بُسْتَان العَارِفِيْن:

ما علمنا فيما بلغنا من الثقاة الناقلين كَرَامَات الأَوْلِيَاء أكثر مما وصل إلينا من كَرَامَات القُطْب شَيْخ بَغْدَاد مُحْيِي الدِّيْن عَبْد القَادِر الجِيْلِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)].

وكان يعد من كَرَامَاته أن أقصىٰ الناس في مجلسه، يسمع صوته كما يسمعه أدناهم علىٰ كثرتهم[(٣)].

ومن أَجَلّ كَرَامَاته:

إحياء القلوب الميتة، وشِفَاء النفوس المريضة، ودخول العدد الكَبِيْر من اليَهُوْد والنَّصَارَىٰ في الإِسْلَام، وتوبة العَيَّارِيْن وقُطَّاع الطرق والفاسدين وأصحاب الجرائم من القتلة والسُّرَّاق، كما تقدم آنِفاً.

إلَّا أن الذَّهَبِيّ قال:

قلتُ: ليس في كبار المشايخ من له أحوالٌ وكَرَامَات أكثر من الشَّيْخ عَبْد القَادِر. لٰكِن كَثِيْراً منها لا يَصِحّ، وفي بعض ذٰلِكَ أشياء مستحيلة[(٤)].

ثم قال:

---

(١) مِرْآة الجَنَان لليَافِعِيّ ج٣ ص٢٦٨. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص١٣٧ نَقْلًا عن اليَافِعِيّ.

(٢) مُهْجَة البَهْجَة ص٣٣٦. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص١٣٧ من نص طَوِيْل.

(٣) بَهْجَة الأَسْرَار ص١٨١. ومُهْجَة البَهْجَة ص٣٣٠.

(٤) سِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٥٠.

وفي الجُمْلَة: الشَّيْخ عَبْد القَادِر كَبِيْر الشأن، وعليه مآخذ في بعض أقواله ودعاويه، والله المَوْعِدُ، وبعض ذٰلِكَ مكذوب عليه(١).

وقال ابن كَثِيْر:

وكان فيه تزهدٌ كثير، وله أحوال صالحة ومكاشفات، ولأتباعه وأصحابه فيه مَقَالَات، ويذكرون عنه أقوالاً وأفعالاً ومكاشفات، أكثرها مغالاة، وقد كان صالحاً ورعاً...، وبالجُمْلَة كان من سادات المشايخ(٢).

وقال ابن رَجَب:

وكان الشَّيْخ عَبْد القَادِر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عَصْره معظماً، يعظمه أكثر مشايخ الوقت من العُلَمَاء والزهاد، وله مَنَاقِب وكَرَامَات كثيرة.

ولٰكِن قد جمع المقرئ أبو الحسن الشَّطَّنَوْفِيّ المِصْرِيّ في أَخْبَار الشَّيْخ عَبْد القَادِر ومَنَاقِبه ثلاث مجلدات، وكتب فيها الطم والرم، وكفىٰ بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع.

وقد رأيتُ بعض هٰذَا الكتاب، ولا يطيب علىٰ قلبي أن أعتمد علىٰ شيء مما فيه، فأنقل منه إلَّا ما كان مشهوراً معروفاً من غير هٰذَا الكتاب، وذٰلِكَ لكثرة ما فيه من الرِّوَايَة عن المجهولين، وفيه من الشطح، والطامات، والدعاوىٰ، والكلام الباطل، ما لا يحصىٰ. ولا يليق نسبة مثل ذٰلِكَ إلىٰ الشَّيْخ عَبْد القَادِر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ثم وجدتُ الكَمَال جَعْفَر الأُدْفُوِيّ قد ذكر: أن الشَّطَّنَوْفِيّ نفسه كان متهماً فيما

---

(١) سِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٥١.

(٢) البِدَايَة والنِّهَايَة لابن كَثِيْر ج١٢ ص٢٥٢.

وانظر من كَرَامَاته في: تَارِيْخ الإِسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٦٢. وجَامِع كَرَامَات الأَوْلِيَاء ج٢ ص٢٠١ وما بعدها.

يحكيه في هٰذَا الكتاب بعينه(١).

ونقد الذَّهَبِيّ كتاب الشَّطَّنَوْفِيّ بقوله:

أتىٰ فيه بالبَرَّة وأُذُن الجَرَّة، وبالصَّحِيْح والواهي والمكذوب، فإنه كَتَبَ فيه حكايات عن قومٍ لا صِدْقَ لهم...، وفي الجُمْلَة فكَرَامَاته متواترة جَمَّةٌ، ولم يُخَلِّف بعده مثله(٢).

وقال القَنَّوْجِيّ:

أقول: هٰذَا الكتاب هو (بَهْجَة الأَسْرَار) وفيه نسب الحكايات الشركية التي لا تلائم حال الأبرار إلىٰ حضرة الشَّيْخ عليه الرحمة، وهو مملوء بالأكاذيب والأباطيل.

وقد سلك صاحب (أَخْبَار الأخيار) وغَيْرُهُ من أهل الطَّبَقَات في مدائح الشَّيْخ ومَنَاقِبه طريق المُبَالغَة والإغراق، وذكروا أشياء لا يقبلها العقل السَّلِيْم، والنقل المُسْتَقِيْم، والظَّاهِر أنها مكذوبة عليه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ(٣).

قدمي على رَقَبَة كل وَلِيّ:

حكي عن الشَّيْخ عَبْد القَادِر أنه قال: (قدمي هٰذِهِ علىٰ رَقَبَة كل وَلِيّ).

وساقها الشَّطَّنَوْفِيّ عنه من طرق متعددة(٤).

قال ابن رَجَب:

وأحسن ما قيل في هٰذَا الكلام: ما ذكره الشَّيْخ أبو حَفْص السُّهْرَوَرْدِيّ في عوارفه:

---

(١) الذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص٢٩٣. والتَّاج المُكَلَّل ص١٥٦ نَقْلًا عن ابن رَجَب.

(٢) تَارِيْخ الإِسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٦٣.

(٣) التَّاج المُكَلَّل ص١٥٧.

(٤) بَهْجَة الأَسْرَار للشَّطَّنَوْفِيّ ص٢٢ وما بعدها.

إنه من شطحات الشُّيُوْخ التي لا يقتدىٰ بهم فيها، ولا يقدح في مقاماتهم ومنازلهم، فكل أحد يؤخذ عليه من كلامه ويترك، إلَّا المعصوم ﷺ[١].

لٰكِن قال بعضهم: القدم هنا مجازي لا حقيقي، لأنه المناسب للأدب... .

يقال: فُلَان علىٰ قَدَم حَمِيْد، أي: طريقة حَمِيْدَة، أو عِبَادَة عَظِيْمَة، أو أدب جميل، أو نحو ذٰلِكَ، والمعنىٰ أن طريقته وقربه وفتحه أعلىٰ طريقة وقرب وفتح في حالة انتهائه[٢].

وهٰذَا التَّفْسِيْر هو الأَوْلَىٰ، لأن نسبة الشطح إليه بعيدة، لما تقدم من سيرته ومن تمسكه بالكِتَاب والسُّنَّة.

وأَخِيْراً:

فإن هٰذِهِ الصفات التي ذكرناها في الشَّيْخ، وحرصه علىٰ نشر العلم والفَضَائِل، ومسيرته الطَّوِيْلَة في تربية المريدين، وإنفاقه علىٰ الفُقَرَاء، وتفقده المُحْتَاجين، وسجاياه النَّبِيْلَة، وأَخْلَاقه الرفيعة، هٰذِهِ كلها تؤهله للصدارة في المجتمع مرشداً، ومربياً، ومعلماً، وداعياً إلىٰ الله سُبْحَانَهُ.

فكان المجدد لهٰذَا الدِّيْن، المصلح، المتمسك بالكِتَاب والسُّنَّة، المتأسي بما كان عليه الصَّحَابَة والتابعون، غير الملتفت إلىٰ أعراض الدنيا.

ورأىٰ أن غايته التي كان ينشدها في حياته، وهي إصْلَاح الفرد والمجتمع، لا تتحقق إلَّا بسُلُوْكه طريق التَّصَوُّف الصَّافِي، والزهد.

لهٰذَا عمد إلىٰ ذٰلِكَ السُّلُوْك، فتربت علىٰ يده أجيال من الطلبة، وأَعْيَان الدعاة

---

(١) الذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة لابن رَجَب ج١ ص٢٩٥. والمَقْصَد الأَرْشَد ج٢ ص١٥١ ولم يسنده. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٢٢-٢٣. وشَذَرَات الذَّهَب ج٦ ص٣٣٤. والتَّاج المُكَلَّل ص١٥٦-١٥٧.

(٢) قَلَائِد الجَوَاهِر ص٢٣، وفيه تفاسير أُخْرَىٰ.

الذين كان لهم دور واضح في المجتمع.

أولاده:

قال ابن النَّجَّار:

سمعت عَبْد الرَّزَّاق بن عَبْد القَادِر يقول:

وُلِدَ لوالدي تسعةٌ وأربعون ولداً: سبعة وعشرون ذكوراً، والبَاقِي إناثاً، رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١].

ومن أولاده:

عَبْد الوَهَّاب، وعَبْد الرَّزَّاق، وعَبْد العَزِيْز، وسُلَيْمَان، وإِبْرَاهِيْم[٢]، وعِيسَىٰ، وعَبْد الجَبَّار، ومُحَمَّد، وعَبْد الله، ويَحْيَىٰ، ومُوسَىٰ. وله أحفاد[٣].

وهٰذِهِ ترجمة موجزة لهٰؤُلَاءِ:

١ - عَبْد الوَهَّاب بن عَبْد القَادِر، الفَقِيْه الواعظ، سَيْف الدِّيْن، أبو عَبْد الله.

ولد سنة ٥٢٢هـ، وأسمعه والده في صباه من جَمَاعَة، وقرأ الفِقْه علىٰ والده حتىٰ

---

(١) المُسْتَفَاد ص٣٠٧. وتَارِيْخ الإِسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٦٠ نَقْلًا عن ابن النَّجَّار.

وسِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٤٧. ومَسَالِك الأَبْصَار ج٨ ص١٢٢. وفَوَات الوَفَيَات ج٢ ص٣٧٤. وهٰذِهِ المصادر الثلاثة لم تذكر ابن النَّجَّار.

وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٤١ عن ابن النَّجَّار في تَارِيْخه. وشَذَرَات الذَّهَب ج٦ ص٣٣٦. وفي التَّاج المُكَلَّل ص١٥٩: (... عشرون ذكراً...) وهو خطأ قطعاً، ولعله مطبعي، إذ سقط منه (سبعة و)، بدلالة ما في المصادر السَّابِقَة.

(٢) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٧٩.

(٣) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص١٠٩-١١٢.

وانظر: تَاج العَرُوْس، مادة (جيل)، ج٢٨ ص٢٦١.

برع فيه، ودَرَّس نيابة عن والده بمدرسته، وهو حي.

كان فقيهاً مُجَوِّداً زَاهِداً واعظاً حسن الكلام في مَسَائِل الخلاف.

جعله الخَلِيْفَة النَّاصِر علىٰ المظالم سنة ٥٨٣هـ، وقَلَمُهُ شديد في الفتوىٰ.

وحَدَّث، وسمع منه جَمَاعَة.

توفي سنة ٥٩٣هـ، وصُلِّيَ عليه بمدرسة والده. ودفن بمقبرة الحَلْبَة[1].

٢- عَبْد الرَّزَّاق بن عَبْد القَادِر، المُحَدِّث الحافظ أبو بَكْر الحَلْبِيّ (نسبة إلىٰ مَحَلَّة الحَلْبَة).

ولد سنة ٥٢٨هـ ببَغْدَاد.

وسمع الكثير، وحَصَّلَ الأُصُوْل، وتَفَقَّهَ علىٰ والده، وكانت له مَعْرِفَة بالمَذْهَب، ومعرفته بالحَدِيْث غَطَّت علىٰ معرفته بالفِقْه.

كان حافظاً، ثِقَة، مأموناً، ورعاً، متديناً، سخياً، كان خَشِن العيش، صابراً علىٰ فقره، عَزِيْز النفس.

توفي سنة ٦٠٣هـ، وصُلِّيَ عليه بمواضع متعددة، ودفن بمقبرة الإِمَام أَحْمَد، وكان يوماً مشهوداً[2].

٣- عَبْد العَزِيْز بن عَبْد القَادِر، أبو بَكْر.

تَفَقَّهَ علىٰ والده، وسمع منه، ومن غيره. وحَدَّثَ ووَعَظَ، ودَرَّسَ، وتخرج به غير

---

(١) المَنْهَج الأَحْمَد ج٤ ص٥ رقم ٨٨٧. والمَقْصَد الأَرْشَد ج٢ ص١٥٢ رقم ٦٣٥. والذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص٣٨٨ رقم ١٩٦. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٤٢.

(٢) المَنْهَج الأَحْمَد ج٤ ص٧٣ رقم ٩١٧. والمَقْصَد الأَرْشَد ج٢ ص١٥٥ رقم ٦٣٧. وسِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢١ ص٤٢٦. والذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج٢ ص٤٠ رقم ٢٢١. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٤٣.

وَاحِد.

وكان بهياً متواضعاً.

رحل إلىٰ الحِيَال (وِزَان: كِتَاب)، قَرْيَة من قرىٰ سِنْجَار، واستوطنها[١].

وفي قَلَائِد الجَوَاهِر: (رحل إلىٰ الجبال، «وصوابه: الحيال»، كما تقدم. واستوطنها في حدود سنة ٥٨٠هـ، بعد أن غزا عَسْقَلَان، وزار القُدْس الشَّرِيْف. وذُرِّيَّته بالجبال «وصوابه: الحيال» إلىٰ يومنا هٰذَا. ولد سنة ٥٣٢هـ، وتوفي بالجبال «وصوابه: بالحيال» سنة ٦٠٢هـ)[٢].

وهو أحد قادة جيش صَلَاح الدِّيْن الأَيُّوْبِيّ، ومستشاريه[٣].

٤- إبْرَاهِيْم بن عَبْد القَادِر.

تَفَقَّهَ علىٰ والده، وسمع منه ومن غيره.

ورحل إلىٰ وَاسِط، وتوفي بها في سنة ٥٩٢هـ[٤].

٥- عِيسَىٰ بن عَبْد القَادِر.

تَفَقَّهَ علىٰ والده، وسمع منه ومن غيره من المشايخ.

ودَرَّسَ، وحَدَّثَ، ووَعَظَ، وأفتىٰ. وصَنَّفَ الكتاب المسمىٰ بجَوَاهِر الأَسْرَار ولطائف الأَنْوَار، في عُلُوْم الصُّوْفِيَّة.

---

(١) المَنْهَج الأَحْمَد ج٤ ص٧٥.

وانظر: قَلَائِد الجَوَاهِر ص٤٣. وتَاج العَرُوْس، مادة (حول)، ج٢٨ ص٣٨٤.

(٢) قَلَائِد الجَوَاهِر ص٤٣.

(٣) مُقَدِّمَة مُهْجَة البَهْجَة ص٦٧.

(٤) المَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٣٢٢ رقم ٨٨٢. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٤٤.

وقدم مِصْر، وحَدَّثَ بها، ووعظ، وتخرج به من أهلها غَيْرُ وَاحِد[١].

وقال ابن النَّجَّار في تَارِيْخه: خرج من بَغْدَاد بعد وفاة والده، ودخل الشَّام، وسمع بدِمَشْق من عَلِيّ بن مَهْدِيّ بن المفرج الهِلَالِيّ في سنة ٥٦٢هـ، وحَدَّثَ عن والده، ثم إنه دخل مِصْر، وكان يعظ علىٰ المنابر، وله قبول من الناس.

وقال المُنْذِرِيّ: قدم مِصْر، وحَدَّثَ، ووعظ بها، وتوفي بها.

وقال ابن النَّجَّار: قرأت علىٰ بلاطة قبر عِيسَىٰ ابن الشَّيْخ عَبْد القَادِر الجِيْلِيّ بقَرَافَة مِصْر: توفي في ١٢/ رَمَضَان/ ٥٧٣هـ[٢].

٦- عَبْد الجَبَّار بن عَبْد القَادِر.

تَفَقَّهَ علىٰ والده، وسمع منه، ومن أبي مَنْصُوْر القَزَّاز، وغيره[٣].

وكان ذا كتابة حَسَنَة، سالك سَبِيْل التَّصَوُّف، مصاحباً لأرباب القلوب، وسمع منه أخوه عَبْد الرَّزَّاق شَيْئاً يسيراً، وكان يكتب خطاً عجيباً. مات وهو شاب سنة ٥٧٥هـ، ودفن برباط والده بالحَلْبَة من بَغْدَاد[٤].

٧- مُحَمَّد بن عَبْد القَادِر.

تَفَقَّهَ علىٰ والده، وسمع منه، ومن ابن البنا، وأبي الوقت، وغيرهم. وحَدَّث.

توفي ببَغْدَاد سنة ٦٠٠هـ. ودفن من يومه بمقبرة الحَلْبَة[٥].

---

(١) المَنْهَج الأَحْمَد ج٤ ص٧٤. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٤٢.
(٢) قَلَائِد الجَوَاهِر ص٤٢.
(٣) المَنْهَج الأَحْمَد ج٤ ص٧٥. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٤٣.
(٤) قَلَائِد الجَوَاهِر ص٤٣.
(٥) المَنْهَج الأَحْمَد ج٤ ص٦٦ رقم ٩٠٨. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٤٤.

٨- عَبْد الله بن عَبْد القَادِر.

سمع من أبيه ومن ابن البنا، ويقال: إنه حَدَّث.

ولد سنة ٥٠٨هـ، وهو أسن أولاد الشَّيْخ.

وتوفي ببَغْدَاد سنة ٥٨٩هـ(١).

٩- يَحْيَىٰ بن عَبْد القَادِر.

ولد سنة ٥٥٠هـ.

وتَفَقَّهَ علىٰ والده، وسمع منه ومن غيره. وحَدَّثَ، وانتُفِعَ به، وقدم مِصْر.

توفي ببَغْدَاد سنة ٦٠٠هـ، ودفن عند أخيه عَبْد الوَهَّاب برباط والده بالحَلْبَة، وكانت أُمُّهُ حَبَشِيَّة(٢).

١٠- مُوسَىٰ بن عَبْد القَادِر.

تَفَقَّهَ علىٰ والده، وسمع منه، ومن ابن البَنَّا، وغيرهما.

وحَدَّثَ بدِمَشْق، وعُمِّرَ، وانتُفِعَ به، ودخل مِصْر، ثم استوطن دِمَشْق.

ولد سنة ٥٣٩هـ، ويقال ٥٣٧هـ.

وتوفي بدِمَشْق بالعُقَيْبَة، سنة ٦١٨هـ، ودفن بسفح جبل قَاسِيُوْن.

وهو آخر من مات من أولاد الشَّيْخ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣).

وقال الجُبَّائِيّ:

---

(١) المَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٣١٤ رقم ٨٧٢. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٤٤.

(٢) المَنْهَج الأَحْمَد ج٤ ص٦٦-٦٧. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٤٤.

(٣) المَنْهَج الأَحْمَد ج٤ ص١٤١ رقم ٩٦٦. وسِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٢ ص١٥٠ رقم ٩٩. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٤٤.

قال لي سيدنا الشَّيْخ عَبْد القَادِر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان إذا وُلِدَ لي ولدٌ أخذته علىٰ يدي، وقلتُ: هٰذَا ميت، فأُخْرِجُهُ من قلبي. فإذا مات لم يؤثر عندي موته شَيْئاً، لأني قد أخرجته من قلبي أول ما يولد[1].

وقال:

فكان يموتُ من أولاده الذكور والإناث ليلة مجلسه، فلا يقطع المجلس، ويصعد علىٰ الكرسي، ويعظ الناس، والغاسل يغسل الميت، فإذا فرغوا من غسله، جاءوا به إلىٰ المجلس. فينزل سيدنا الشَّيْخ، ويصلي عليه[2].

المحنة بعد وفاته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

قال ابن السَّاعِي:

وفي زمن الخَلِيْفَة النَّاصِر أُخرج الشَّيْخ عَبْد القَادِر من قبره بفتوىٰ بعض الفُقَهَاء الحَنابِلَة.

أمر بإخْرَاجه سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة الوَزِيْر أبو المُظَفَّر الحَنْبَلِيّ، ويقال: إنه رمىٰ عِظَامه باللُّجَّة. وقال: المدرسة وقف لا يحل أن يدفن فيها أحد.

وأسباب ذٰلِكَ، إهانة مَسَّتْهُ من أولاد الشَّيْخ عَبْد القَادِر أيام كان منكوباً، فلما استوزره الخَلِيْفَة انتقم منهم، وبعث بهم إلىٰ الطوامير بوَاسِط، فمات أكثرهم بها، ولم يبقَ منهم في بَغْدَاد أحد، وإلىٰ يومنا هٰذَا لم يكن لهم بقية ببَغْدَاد.

---

(١) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٩٨. وبَهْجَة الأَسْرَار ص١٦٩ عن ابن النَّجَّار. وتَارِيْخ الإسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٦٠ عن الجُبَّائِيّ. وسِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٤٧. ومَسَالِك الأَبْصَار ج٨ ص١٢٢. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٤٢. وطَبَقَات الشَّعْرَانِيّ ج١ ص٢٣١.

(٢) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٩٩. وبَهْجَة الأَسْرَار ص١٦٩ عن ابن النَّجَّار. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٣٢. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٤٢.

ويذكر لهم بقية بالحيال من أَعْمَال المَوْصِل[(١)].

وقال الذَّهَبِيّ:

كان ابن يُوْنُس وَزِيـر الإمَام النَّاصِر قد قَصَدَ أولاد الشَّيْخ عَبْد القَادِر، وبَدَّدَ شَمْلَهُم، وفعل في حقهم كل قبيح، ونفاهم إلىٰ وَاسِط.

فبَدَّدَ اللهُ شَمْلَ ابن يُوْنُس ومَزَّقَهُ، ومات أقبح موتة[(٢)].

وفَصَّلَ الحَادِثَةَ ابنُ تَغْرِي بَرْدِي، بقوله:

وفيها (سنة ٥٩٣هـ) توفي عُبَيْد الله بن يُوْنُس بن أَحْمَد الوَزِيْر جَلَال الدِّيْن أبو المُظَفَّر الحَنْبَلِيّ، وَلِيَ حجابة الديوان، ثم استوزره الخَلِيْفَة، وكان إمَاماً عالماً في الأصلين والحساب والهَنْدَسَة والجبر والمُقَابَلَة، غير أنه شَانَ أَمْرَهُ بأُمُور فعلها، منها:

أنه أخرب بيت الشَّيْخ عَبْد القَادِر الجِيْلَانِيّ، وشَتَّتَ أولادَه. ويُقَال: إنه بعث في الليل من نَبَشَ علىٰ الشَّيْخ عَبْد القَادِر، ورَمَىٰ بعِظَامه في اللُّجَّة، وقال: هٰذَا وقف ما يحل أن يُدْفَنَ فيه أحد.

قلتُ (أي: ابن تَغْرِي بَـرْدِي): وما فعله هو بعِظَام الشَّيْخ أقبحُ من أن يُدْفَنَ بعضُ المُسْلِمِيْن في بعض أوقاف المُسْلِمِيْن. وما ذاك إلَّا الحَسَدُ داخله من الشَّيْخ عَبْد القَادِر، وعِظَمُ شهرته، حتىٰ وقع منه ما وقع. ولهٰذَا كان موته علىٰ أقبح وجه، بعد أن قَاسَىٰ خطوباً ومِحَناً، وحُبِسَ سنين، حتىٰ أُخرج من الحبس ميتاً. وهٰذَا ما وقع له في الدنيا، وأما الأُخْرَىٰ فأمره إلىٰ الله تعالىٰ. وبالجُمْلَة فإنه كان من مساوئ الدهر[(٣)].

---

(١) مُخْتَصَر أَخْبَار الخُلَفَاء لابن السَّاعِي ص١٠٢.

(٢) تَارِيْخ الإسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٦٢.

(٣) النُّجُوْم الزَّاهِرَة ج٦ ص١٤٢.

زوجاته:

وكان قد تزوج أربع زوجات، قال: ما منهن إلَّا من تنفق عَلَيَّ إرادةً ورغبةً(١).

وفاته:

توفي الشَّيْخ عَبْد القَادِر ليلة السبت ثامن شهر رَبِيْع الآخر، سنة ٥٦١ إحدىٰ وستين وخمس مائة من الهِجْرَة(٢)، الموافق سنة ١١٦٦ ألف ومئة وست وستين للمِيْلَاد(٣).

وفي تَارِيْخ يوم وفاته قولان آخران هما:

القول الأول: تاسع رَبِيْع الآخر(٤).

القول الثاني: عاشر رَبِيْع الآخر(٥).

---

(١) قَلَائِد الجَوَاهِر ص٤١.

(٢) المُنْتَظَم ج١٨ ص١٧٣. ومَنَاقِب الإمَام أَحْمَد ص٧٠٧. ومِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٧٧ نَقْلًا عن المُنْتَظَم، وفي ص٧٩ نَقْلاً عن مَنَاقِب الإمَام أَحْمَد. والذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص٢٩٩ نَقْلاً عن ابن الجَوْزِيّ، وفيه: (بعد المَغْرِب). ومَسَالِك الأَبْصَار ج٨ ص١٢٢. والمَقْصَد الأَرْشَد ج٢ ص١٥١. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص١٣٤. والتَّاج المُكَلَّل ص١٥٩ عن ابن الجَوْزِيّ، وفيه: (بعد المَغْرِب). وفي المَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٤٤: (بعد المَغْرِب).

والتَّارِيْخ المذكور في المتن في: مُهْجَة البَهْجَة ص١٢٦-١٢٧ نَقْلاً عن شِهَاب الدِّيْن بن حَجَر العَسْقَلَانِيّ، في كتابه (غِبْطَة النَّاظِر).

(٣) الأَعْلَام للزِّرِكْلِيّ ج٤ ص٤٧. ومُعْجَم المُؤَلِّفِين ج٢ ص٢٠٠.

(٤) الذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص٢٩٩. والتَّاج المُكَلَّل ص١٥٩.

(٥) المُسْتَفَاد ص٣٠٦. وتَارِيْخ الإسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٦٣. وسِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٥٠. ومَسَالِك الأَبْصَار ج٨ ص١٢٢. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص١٣٤ عن ابن النَّجَّار. وشَذَرَات الذَّهَب ج٦ ص٣٣٦، وفيه: (بعد عتمة ليلة السبت).

وبعضهم ذكر الشهر والسنة، لٰكِنه لم يعين اليوم[١].

واقتصر بعضهم علىٰ ذكر سنة وفاته (٥٦١هـ) فقط[٢].

ودفن بمدرسته[٣] من وقته[٤] في الليل، من كثرة الزحام، فإنه لم يبقَ ببَغْدَاد أحد إلَّا وجاء إلىٰ باب الأَزَج، وامتلأت الحَلْبَة والشوارع والأسواق والدروب، فلم يَتَمَكَّنوا من دفنه في النهار[٥].

---

(١) الكَامِل لابن الأَثِيْر ج٩ ص٤٨٢. والمُخْتَصَر في أَخْبَار البَشَر ج٣ ص٤٣.

(٢) مُخْتَصَر أَخْبَار الخُلَفَاء ص١٠٢. والعِبَر ج٤ ص١٧٦. والإِعْلَام بوَفَيَات الأَعْلَام ج٢ ص٣٧٨. وفَوَات الوَفَيَات ج٢ ص٣٧٣ نَقْلاً عن شمس الدِّيْن (أي: الذَّهَبِيّ). ومِرْآة الجَنَان ج٣ ص٢٦٢. والبِدَايَة والنِّهَايَة ج١٢ ص٢٥٢. والنُّجُوْم الزَّاهِرَة ج٥ ص٣٧١. وتَارِيْخ الخَمِيْس ج٢ ص٣٦٦. وطَبَقَات الشَّعْرَانِيّ ج١ ص٢٢٧. والتَّاج المُكَلَّل ص١٥٩. وكَشْف الظُّنُوْن ج١ ص٦٦٢و٨٧٩ وج٢ ص١٢٤٠و٢٠٥٣. وهَدِيَّة العَارِفِيْن ج١ ص٥٩٦. وإِيْضَاح المَكْنُوْن ج١ ص٢٥٧ وج٢ ص١٦٣.

(٣) المُنْتَظَم ج١٨ ص١٧٣. ومِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٧٧ نَقْلًا عن المُنْتَظَم. والذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص٢٩٩ عن ابن الجَوْزِيّ. ومَنَاقِب الإِمَام أَحْمَد ص٧٠٧. والمُسْتَفَاد ص٣٠٦. ومِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٧٩ عن مَنَاقِب الإِمَام أَحْمَد. ومُهْجَة البَهْجَة ص١٢٧ عن غِبْطَة النَّاظِر لابن حَجَر العَسْقَلَانِيّ. وسِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٥٠. ومَسَالِك الأَبْصَار ج٨ ص١٢٢. والبِدَايَة والنِّهَايَة ج١٢ ص٢٥٢. والمَقْصَد الأَرْشَد ج٢ ص١٥١. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٤٤. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص١٣٤. والتَّاج المُكَلَّل ص١٥٩.

(٤) الذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص٢٩٩. والمَقْصَد الأَرْشَد، والمَنْهَج الأَحْمَد، والتَّاج المُكَلَّل، السَّابِقَة.

(٥) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٧٩. ومُهْجَة البَهْجَة ص١٢٧ عن مِرْآة الزَّمَان. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص١٣٤ عن مِرْآة الزَّمَان.

وفي شَذَرَات الذَّهَب ج٦ ص٣٣٦: (وفُرِغَ من تجهيزه ليلاً... ثم دفن في رِوَاق مدرسته، ولم يفتح باب المدرسة حتىٰ علا النهار، وأهرع الناس للصلاة علىٰ قبره وزيارته، وكان يوماً مشهوداً).

وصلىٰ عليه ولده عَبْد الوَهَّاب[١]. وشَيَّعَهُ خَلْق لا يحصون[٢].

وقبره ظَاهِر في مدرسته ببَغْدَاد يُزَار[٣].

أقول:

قَبْر الشَّيْخ عَبْد القَادِر في جَامِعه، في جانب الرُّصَافَة ببَغْدَاد، وهو اليوم من أجمل الجَوَامِع في العِرَاق وأَوْسعها.

عُمْره:

وقد بلغ الشَّيْخ عَبْد القَادِر عند وفاته تسعين سنة[٤].

وما في الشَّذَرَات هو في: قَلَائِد الجَوَاهِر ص١٣٤ عن ابن النَّجَّار.

(١) مُهْجَة البَهْجَة ص١٢٧. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٤٥. وقَلَائِد الجَوَاهِر ص١٣٤. وشَذَرَات الذَّهَب ج٦ ص٣٣٦.

(٢) سِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٥٠.

(٣) الذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص٣٠٠. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٤٥.

(٤) المُنْتَظَم ج١٨ ص١٧٣. ومِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٧٧ نَقْلًا عن المُنْتَظَم. والذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص٢٩٩ عن ابن الجَوْزِيّ. ومَنَاقِب الإِمَام أَحْمَد ص٧٠٧. ومِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٧٩ نَقْلاً عن مَنَاقِب الإِمَام أَحْمَد. وتَارِيْخ الإِسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٦٣. والعِبَر ج٤ ص١٧٦، وفيه: (قلتُ: عاش تسعين سنة). ودُوَل الإِسْلَام ج٢ ص٦٥. وسِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٥٠. والبِدَايَة والنِّهَايَة ج١٢ ص٢٥٢. والمَقْصَد الأَرْشَد ج٢ ص١٥١. والمَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٤٤. وتَارِيْخ الخَمِيْس ج٢ ص٣٦٦. وشَذَرَات الذَّهَب ج٦ ص٣٣٦.

وفي التَّاج المُكَلَّل ص١٥٩ نقل عن ابن رَجَب: (وبلغ سبعين سنة)، وهو خطأ قطعاً، ولعله سبق قلم، أو خطأ من الناسخ، أو من المَطْبَعَة، لمخالفته جميع المصادر التي ذكرت تَارِيْخ ولادته ووفاته.

وفي مِرْآة الزَّمَان: توفي وله اثنتان وتسعون سنة[١].

وعند احتضار الشَّيْخ عَبْد القَادِر، سأل الشَّيْخُ عَبْدُ الجَبَّار والده الشَّيْخ عَبْد القَادِر، ماذا يؤلمك من جسمك؟

فقال: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: جميع أعضائي تؤلمني إلَّا قلبي، فما به ألم، وهو مع الله عَزَّ وجَلَّ.

ثم أتاه الموت، فكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: استعنتُ بلا إلٰه إلَّا الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ، والحي الذي لا يخشىٰ الفوت، سُبْحَانَ من تعزز بالقدرة، وقهر عِبَاده بالموت، لا إلٰه إلَّا الله مُحَمَّد رَسُوْل الله.

ثم خرجت روحه الكَرِيْمَة رضوان الله تعالىٰ عليه[٢].

رثاؤه:

ورثاه كثيرون منهم:

نصر النُّمَيْرِيّ بقصيدة أولها:

مُشْكِلُ الأمرِ ذا الصباحُ الجديدُ ما له ذٰلِكَ السَّنَا المعهودُ

وله مرثية أُخْرَىٰ[٣].

---

(١) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٧٩.

(٢) فُتُوْح الغَيْب ص١١٠، تَكْمِلَة في ذكر وصاياه لأولاده، وفيه أَخْبَار لأولاده أُخْرَىٰ.

(٣) الذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة ج١ ص٣٠٠.

والقصيدة في (٢٧) بيتاً، أَجْمَلَ فيها صفاته ومكارمه.

وهي برمتها في: المَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٤٥-٢٤٦.

ومطلعها في: قَلَائِد الجَوَاهِر ص١٣٤.

المَبْحَث الثاني

تصوف الشَّيْخ عَبْد القَادِر الجِيْلَانِيّ، وطريقه في الإِصْلَاح

ظهور اسم التَّصَوُّف:

المُسْلِمُوْن بعد الرَّسُوْل ﷺ لم يَتَسَمَّ أفاضلهم في عَصْرهم بتسمية سوىٰ صحبة الرَّسُوْل ﷺ، إذ لا فضيلة فوقها، فقيل لهم: الصَّحَابَة.

وجاء بعدهم أهل العَصْر الثاني فسُمِّيَ من صحب الصَّحَابَة: التَّابِعِيْن، ورأوا ذٰلِكَ أَشْرَف سِمَة.

ثم قيل لمن بعدهم: أتباع التَّابِعِيْن.

ثم اختلف الناس وتباينت المراتب:

فقيل لخواص الناس ممن له شدة عِنَايَة بأمر الدِّيْن: الزهاد والعُبَّاد.

ثم ظهرت البدع، وتعددت الفرق، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهاداً، فانفرد خواص أَهْل السُّنَّة المراعون أنفاسهم مع الله تعالىٰ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة، باسم التَّصَوُّف.

واشتهر هٰذَا الاسم لهٰؤُلَاءِ الأكابر قبل المائتين من الهِجْرَة، منهم:

أبو إِسْحَاق إِبْرَاهِيْم بن أدهم البَلْخِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٦١هـ.

وأبو سُلَيْمَان دَاوُد بن نصير الطَّائِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٦٥هـ.

وأبو عَلِيّ الفُضَيْل بن عِيَاض، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٨٧هـ.

وأبو عَلِيّ شقيق بن إبْرَاهِيْم البَلْخِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٩٤هـ.

وجاء بعدهم:

أبو محفوظ معروف بن فَيْرُوْز الكَرْخِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٢٠٠هـ.

وأبو نصر بِشْر بن الحَارِث الحافي، المُتَوَفَّىٰ سنة ٢٢٧هـ.

وأبو عَبْد الله الحَارِث بن أَسَد المُحَاسِبِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٢٤٣هـ.

وأبو الفَيْض ذو النون المِصْرِيّ ثَوْبَان بن إبْرَاهِيْم، المُتَوَفَّىٰ سنة ٢٤٥هـ.

وأبو الحسن سَرِيّ بن المُغَلِّس السَّقَطِيّ، خال الجُنَيْد البَغْدَادِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٢٥٧هـ.

وغيرهم(١).

التَّصَوُّف في أصل اللُّغَة:

اختلف العُلَمَاء في المعنىٰ الذي ينسب إليه (الصُّوْفِيّ) علىٰ أقوال، منها:

١- الصُّوْفِيّ نسبة إلىٰ أهل الصُّفَّة في مسجد رَسُوْل الله ﷺ.

٢- الصُّوْفِيّ نسبة إلىٰ الصَّفّ، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم، من حيث المحاضرة من الله تعالىٰ.

٣- الصُّوْفِيّ مشتق من الصفاء، لصفاء قلوبهم من كدورات البشر.

واستبعدها القُشَيْرِيّ لمخالفتها قياس اللُّغَة.

٤- الصُّوْفِيّ مشتق من الصوف، وتَصَوَّفَ إذا لبس الصُّوف، كما يقال: تَقَمَّصَ إذا لبس القَمِيْص.

(١) الرِّسَالَة القُشَيْرِيَّة ص١٦ وما بعدها، وفيه تَرَاجُم هُؤُلَاءِ وغيرهم.

واستبعده القُشَيْرِيّ أَيْضاً، لأن القوم لم يختصوا بلبس الصوف(١).

إلَّا أن أبا نَصْر السَّرَّاج الصُّوْفِيّ في كتابه اللُّمَع(٢)، وابن خَلْدُوْن في مُقَدّمته(٣)، وابن تَيْمِيَّة(٤)، وابن الجَوْزِيّ(٥)، أيدوا صحة النسبة إلىٰ الصوف، لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلىٰ لبس الصوف(٦).

ثم إن ملابس الصوف هي رمز البساطة الأُوْلَىٰ، التي كان عليها الصَّحَابَة والتابعون. كما أن فيه رداً علىٰ النزعة المادية والانغماس في الترف.

التَّصَوُّف اصْطِلَاحاً:

قال أبو مُحَمَّد الجَرِيْري: التَّصَوُّف هو الدخول في كل خُلُق سَنِيّ، والخروج من كل خُلُق دَنِيّ(٧).

وللعُلَمَاء المُتَصَوِّفَة تعاريف كثيرة، ذكر جُمْلَة منها الإمَام القُشَيْرِيّ المُتَوَفَّىٰ سنة ٤٥٦هـ في رسالته، وابن الجَوْزِيّ المُتَوَفَّىٰ سنة ٥٩٧هـ في كتابه تَلْبِيْس إبْلِيْس، وغيرهما.

---

(١) الرِّسَالَة القُشَيْرِيَّة ص٢٧٢-٢٧٣.
وانظر أَيْضاً: تَلْبِيس إبْلِيْس لابن الجَوْزِيّ ص١٨٥.
(٢) اللُّمَع لأبي نَصْر السَّرَّاج ص٤٠-٤١.
(٣) مُقَدِّمَة ابن خَلْدُوْن ص٤٥٠، واستظهره بعد أن أورد أقوال القُشَيْرِيّ.
(٤) الصُّوْفِيَّة والفُقَرَاء لابن تَيْمِيَّة ص١٥.
(٥) تَلْبِيس إبْلِيْس ص١٨٧، قال: وهٰذَا يحتمل.
(٦) مُقَدِّمَة ابن خَلْدُوْن ص٤٥٠.
(٧) اللُّمَع لأبي نَصْر السَّرَّاج ص٤٥. والرِّسَالَة القُشَيْرِيَّة ص٢٧٣.
وهٰذَا القول نسبه ابن الجَوْزِيّ إلىٰ الجُنَيْد. / تَلْبِيس إبْلِيْس ص١٨٧.

وكلها تدور حول ما ذكره أوائلهم من التعويل علىٰ الكِتَاب والسُّنَّة.

قال أبو يَزِيْد طيفور بن عِيسَىٰ البِسْطَامِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٢٦١هـ: من ترك قِرَاءَة القُرْآن والتقشف ولزوم الجَمَاعَة وحضور الجَنَائِز وعيادة المرضىٰ، وادَّعَىٰ بهٰذَا الشأن، فهو مبتدع.

وقال السَّرِيّ السَّقَطِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٢٥٣هـ: من ادعىٰ بَاطِن علم، يَنقض ظَاهِر حكم، فهو غالط.

وعن الجُنَيْد البَغْدَادِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٢٩٧هـ، أنه قال: مَذْهَبنا هٰذَا مقيد بالأُصُوْل: الكِتَاب والسُّنَّة.

وقال أَيْضاً: علمنا منوط بالكِتَاب والسُّنَّة، من لم يحفظ الكتاب، ويكتب الحَدِيْث، ولم يتَفَقَّه، لا يقتدىٰ به[1].

وقال سهل بن عَبْد الله التُّسْتَرِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٢٨٣هـ: الصُّوْفِيّ من صفا من الكَدَر، وامتلأ من العِبَر، وانقطع إلىٰ الله عن البشر، وتساوىٰ عنده الذَّهَب والمَدَر.

وقال الغَزَالِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٥٠٥هـ:

التَّصَوُّف هو تَجْرِيْد القلب لله تعالىٰ واحتقار ما سواه.

أي: تخليص القلب لله تعالىٰ، واعْتِقَاد أن ما سواه لا ينفع ولا يضر، فلا يعول إلَّا علىٰ الله.

فالمُرَاد باحتقار ما سواه: اعْتِقَاد أنه لا يضر ولا ينفع، وليس المُرَاد به الازدراء والتنقيص[2].

ونقل الشَّيْخ عَبْد القَادِر:

---

(١) تَلْبِيس إِبْلِيْس ص١٩٢.

(٢) حَاشِيَة البَاجُوْرِيّ علىٰ الجَوْهَرَة ص٣٤٠.

أن التَّصَوُّف هو الصدق مع الحق، وحسن الخُلُق مع الخَلْق.

والصُّوْفِيّ من كان صَافِياً من آفات النفس، خالياً من مذموماتها، سالكاً لحميد مَذَاهِبه، ملازماً للحَقَائِق، غير ساكن بقلبه إلىٰ أحد من الخَلَائِق(١).

وقال أَيْضاً:

التَّصَوُّف مشتق من الصفاء، ما من لبس الصوف الصُّوْفِيّ الصَّادِق في تصوفه، يصفو قلبه عما سوىٰ مولاه عَزَّ وجَلَّ.

وهٰذَا شيء لا يجيء بتغيير الخرق، وتصفير الوجوه، وجمع الأكتاف، ولقلقة اللِّسَان بحكايات الصَّالِحِيْن، وتحريك الأصابع بالتسبيح والتهليل، وإنما يجيء بالصدق في طلب الحق عَزَّ وجَلَّ، والزهد في الدنيا، وإِخْرَاج الخلق من القلب، وتجرده عما سوىٰ مولاه عَزَّ وجَلَّ(٢).

وفي (فُتُوْح الغَيْب) في التَّصَوُّف وعلىٰ أي شيء مبناه:

قال الشَّيْخ عَبْد القَادِر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: أُوصيك بتقوىٰ الله وطاعته، ولزوم ظَاهِر الشَّرْع، وسَلَامَة الصدر، وسخاء النفس، وبشاشة الوجه، وبذل الندىٰ، وكف الأذىٰ، وحمل الأذىٰ والفقر، وحفظ حرمات المشايخ، والعِشْرَة مع الإخوان، والنصيحة للأصاغر والأكابر، وترك الخصومة، والإرفاق، وملازمة الإيثار، ومجانبة الادخار، وترك صحبة من ليس من طبقتهم، والمعاونة في أمر الدِّيْن والدنيا(٣).

فأصل طريقة التَّصَوُّف هو عند سَلَف الأُمَّة من الصَّحَابَة والتَّابِعِيْن ومن بعدهم.

---

(١) الغُنْيَة ص٤٤٢.

(٢) الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص١١٧، المجلس الخامس والعشرون، في ١٩/ ذي الحِجَّة/ ٥٤٥هـ.

(٣) فُتُوْح الغَيْب، المَقَالَة الخامسة والسبعون ص١٠٢-١٠٣.

وذكر ابن تَيْمِيَّة:

أن أول ما ظهرت الصُّوْفِيَّة من البَصْرَة، وأول من بنىٰ دويرة الصُّوْفِيَّة، بعض أصحاب عَبْد الوَاحِد بن زَيْد من أصحاب الحسن البَصْرِيّ[١].

قيل لعَبْد الوَاحِد بن زَيْد، وكان ممن يَصْحَب الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ، وكان من أَجِلَّة أصحابه: من الصُّوْفِيَّة عندك؟

فقال: القائمون بعُقُوْلهم علىٰ همومهم، والعاكفون عليها بقلوبهم، المُعْتَصِمون بسيدهم من شر نفوسهم، هم الصُّوْفِيَّة[٢].

ورُوِيَ عن الحسن البَصْرِيّ أنه قال: رأيت صُوْفِيّاً في الطواف، فأعطيتُهُ شَيْئاً، فلم يأخذه، وقال: معي أربعة دوانق، فيكفيني ما معي[٣].

وإذا كان التَّصَوُّف قد ظهر منذ أوائل القرن الثاني الهِجْرِيّ، فإن اسْتِعْمَال هٰذِهِ الكلمة قد شاع في آخره، وبدأت المُنَاظَرَات بين الصُّوْفِيَّة وخصومهم من المُحَدِّثِيْن والفُقَهَاء، فكانت ثمرتها محاكمة الحَلَّاج وصلبه.

والتَّصَوُّف في هٰذَا الدور مبني علىٰ رياضة النفس، ومُجَاهَدتها، وذكر الله، وتلاوة القُرْآن، والصلاة، والزهد في الحياة الدنيا.

قال إِبْرَاهِيْم بن أدهم، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٦١هـ: (ما حملني علىٰ مفارقة أبويّ والخروج من مالي إلَّا حب الأَثَرَة لله، ومع ذٰلِكَ الزهد في الدنيا والرغبة في جوار الله).

وقال الجُنَيْد البَغْدَادِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٢٩٧هـ: (ما أخذنا التَّصَوُّف عن القيل والقال، ولٰكِن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمُسْتَحْسَنَات).

ثم ظهرت فيهم **فكرة الحب الإلٰهِيّ**، فعِبَادتهم ليست خوفاً من نار، ولا طمعاً في

(١) الصُّوْفِيَّة والفُقَرَاء لابن تَيْمِيَّة ص١٥.
(٢) اللُّمَع لأبي نَصْر السَّرَّاج ص٤٥.
(٣) اللُّمَع لأبي نَصْر السَّرَّاج ص٤٢.

جنة، وإنما هي حب إلٰهيّ.

قال ذو النون المِصْرِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٢٤٥هـ: (عِبَاد الله تركوا الذنب استحياءً من كرمه، بعد أن تركوه خوفاً من عقوبته).

وقالت رابعة العَدَوِيَّة، المتوفاة سنة ١٣٥هـ

أُحِبُّكَ حُبَّيْنِ: حُبُّ الهوىٰ ... وحُبٌّ لأنك أَهْلٌ لذاكا

واتخذ رِجَال الصُّوْفِيَّة الربط والتكايا يقيمون بها أذكارهم ورياضاتهم، يسلكون بها الطريق، ليصلوا إلىٰ النشوة بمحبة الله تعالىٰ.

وهم طرق متعددة كالطريقة القَادِرِيَّة نسبةً إلىٰ الشَّيْخ عَبْد القَادِر الجِيْلَانِيّ، والرِّفَاعِيَّة نسبةً إلىٰ السَّيِّد أَحْمَد الرِّفَاعِيّ، والشَّاذِلِيَّة نسبةً إلىٰ أبي الحسن الشَّاذِلِيّ، وغيرها.

وقد مال إلىٰ التَّصَوُّف عدد كَبِيْر من الناس، لأنه يمثل طريق التخلص من دنس النفوس، ويمثل طريق الوُصُوْل إليه تعالىٰ.

وبعد ذٰلِكَ **شاعت الفلسفات الهِنْدِيَّة واليُوْنَانِيَّة وغيرهما**، فأثّرت في الفكر، فظهر عند الصُّوْفِيَّة إلىٰ جانب التدين فكر يحمل معه بعض الآراء الفلسفية كفكرة الفَيْض، ونَظَرِيَّة الاتحاد، ووحدة الوجود التي قال بها مُحْيِي الدِّيْن بن عَرَبِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٦٧٨هـ.

وكانت هٰذِهِ الأَفْكَار الفلسفية، والشطحات التي ظهرت عند الصُّوْفِيَّة، ومُنَاظَرَاتهم للفُقَهَاء وغيرهم، قد أحدثت فجوة كَبِيْرَة بين الطرفين، مما دعا بعض عُلَمَاء التَّصَوُّف إلىٰ أن يضع قَوَاعِد التَّصَوُّف وحدوداً تقرب بين الآراء، وتزيل الجدل العقيم.

فكتب الكَلَابَاذِيّ المُتَوَفَّىٰ سنة ٣٨٠هـ كتابه التعرف لمَذْهَب أهل التَّصَوُّف، والقُشَيْرِيّ المُتَوَفَّىٰ سنة ٤٦٥هـ رسالته، والغَزَالِيّ المُتَوَفَّىٰ سنة ٥٠٥هـ كتابه إحياء

عُلُوْم الدِّيْن، والشَّيْخ عَبْد القَادِر الجِيْلَانِيّ المُتَوَفَّىٰ سنة ٥٦١ هـ كتابه الغُنْيَة، وغيرها.

وكتبهم كلها تبين أن الصُّوْفِيّ الحَقَّ مُسْلِم لا يخرج عن الكِتَاب والسُّنَّة.

وممن كتب في هٰذَا الباب الإمَام النَّوَوِيّ، إذ جمع ما قاله السَّابِقون، ونسقه في كتابه (المَقَاصِد)، وانتهىٰ إلىٰ القول بأن أُصُوْل طريق التَّصَوُّف خمسة، وهي التي سأستقرئها في كلام الشَّيْخ عَبْد القَادِر الجِيْلَانِيّ. والتي يتبين من خلالها كيف حرص الشَّيْخ عَبْد القَادِر علىٰ تَحْقِيْقها في النفوس، ليتحقق صَلَاح المجتمع من جوانبه المُخْتَلِفَة.

التَّصَوُّف عند الشَّيْخ عَبْد القَادِر:

يؤكد الشَّيْخ عَبْد القَادِر في كلامه عن التَّصَوُّف كَثِيْراً علىٰ وجوب التمسك بالكِتَاب والسُّنَّة، لذٰلِكَ جعل ضابط التَّصَوُّف عنده هو تَقْيِيْده بالكِتَاب والسُّنَّة، فقال:

كل حقيقة لا تشهد لها الشَّرِيْعَة فهي زندقة، طِرْ إلىٰ الحق عَزَّ وجَلَّ بجناحي الكِتَاب والسُّنَّة.

ادخل عليه ويدك في يد الرَّسُوْل ﷺ، اجعله وَزِيْرك ومعلمك، دع يده تزينك وتمشطك وتعرضك عليه.

هو الحَاكِم بين الأرواح، المربي للمريدين، جَهْبَذ المُرَادِيْن، أَمِيْر الصَّالِحِيْن، قسام الأحوال والمقامات بينهم، لأن الحق عَزَّ وجَلَّ فوض ذٰلِكَ إليه، جعله أَمِيْر الكل(١).

ويؤكد الشَّيْخ علىٰ هٰذَا الأصل، قائلاً:

ترك العِبَادَات المَفْرُوْضَات زندقة، وارتكاب المحظورات معصية، لا تسقط

(١) الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص١٨٥، المجلس الرابع والأربعون، عشية الثلاثاء في المدرسة، ١٣/ رَجَب/ ٥٤٥هـ.

الفرائض عن أحد في حال من الأحوال(١).

وقال أَيْضاً:

كل حقيقة لا تشهد لها الشَّرِيْعَة فهي زندقة(٢).

وهٰذَا هو التَّصَوُّف الخالص الصَّافِي الخالي من الكَدَر والزيغ.

أُصُوْل طريق التَّصَوُّف:

وهي خمسة علىٰ ما ذكره الإمَام النَّوَوِيّ:

الأصل الأول:

تقوىٰ الله في السر والعَلَانِيَة.

والتقوىٰ لفظة تشمل خَيْرَي الدنيا والآخِرَة، لأنها عبارة عن اجتناب كل المنهيات، وفعل المَأْمُوْرَات.

والمُتَّقِي شرعاً هو من يقي نفسه عما يضره في الآخِرَة، وله ثلاث مراتب:

١- التوقي عن العذاب المخلد بالتبري من الشرك، وعليه قوله تعالىٰ: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ - الفتح: ٢٦.

٢- التجنب عن كل ما يؤثم منه، فعل أو ترك، حتىٰ الصغائر عند بعضهم. وهو المتعارف بالتقوىٰ شرعاً، وهو المعني بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ﴾

---

(١) الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص٥٢، المجلس الحادي عشر، بُكْرَة الجمعة بالمدرسة، ١٩/ شَوَّال/ ٥٤٥هـ.

(٢) الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص١١٠، المجلس الثالث والعشرون، بُكْرَة الجمعة بالمدرسة، ١٢/ ذي الحِجَّة/ ٥٤٥هـ. والفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص٣٦٧، المجلس الحادي والستون في المدرسة، ٢٠/ رَجَب/ ٥٤٦هـ.

الأعراف: ٩٦.

٣- التنزه عن ما يشغل سره عن الحق، ويتبتل إليه بِشَرَاشِرِهِ.

وهو التقوىٰ الحقيقي المطلوب بقوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ - آل عِمْرَان: ١٠٢.

وقد فسر قوله تعالىٰ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ - البقرة: ٢، بالأوجه الثلاثة[1]، كما ذكره البَيْضَاوِيّ في تَفْسِيْره.

وتَحْقِيْق هٰذَا الأصل يكون بالورع، وهو التجنب عن المحرمات والمكروهاتِ والمشبوهات، وبالاستقامة علىٰ الطاعات[2].

ومن كلام الشَّيْخ عَبْد القَادِر في مجالس وعظه:

عن النَّبِيّ ﷺ أنه قال: (من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله، ومن أحب أن يكون أقوىٰ الناس فليتوكل علىٰ الله، ومن أحب أن يكون أغنىٰ الناس فليكن واثقاً بما في يد الله أَوْثَق منه علىٰ ما في يده).

من أحب الكَرَامَة دنيا وآخِرَة فليتق الله عَزَّ وجَلَّ، لأنه قال عَزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ - الحُجُرَات: ١٣.

---

(١) تَفْسِيْر البَيْضَاوِيّ في تَفْسِيْر قوله تعالىٰ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ - البقرة: ٢، ص٧٧، قال شَيْخ زاده في حاشيته علىٰ تَفْسِيْر البَيْضَاوِيّ: (وهٰذِهِ المرتبة - أي: الثالثة - من التقوىٰ هي تقوىٰ أخص الخواص، والمرتبة الثانية منها تقوىٰ الخواص، والمرتبة الأُوْلَىٰ تقوىٰ العوام). وبَيَّنَ شَيْخ زاده معنىٰ الآية: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ علىٰ هٰذِهِ الأوجه الثلاثة.

الشَّرَاشِر: النَّفْس وجميع الجسد. / القَامُوْس المُحِيْط، مادة (الشر)، ص٥٣٢.

(٢) انظر: المَقَاصِد للنَّوَوِيّ ص٥٦. وشرحه في كتابنا: المَدْخَل إلىٰ الدِّيْن الإسْلامِيّ ص٦٢.

الكَرَامَة في تقواه، والإهانة في معصيته.

الكَرَامَة في الإقبال عليه، والمهانة في الإعراض عنه.

الكَرَامَة في التَّوْحِيْد له، والمهانة في الشرك به.

ومن أحب القوة في دين الله عَزَّ وجَلَّ فليتوكل علىٰ الله، لأن التوكل يُصَحِّح القلب ويُقَوِّيه، ويهذبه ويهديه، ويريه العجائب.

لا تتكل علىٰ درهمك ولا دِيْنَارك وأسبابك، فإن ذٰلِكَ يُعجزك ويُضعفك.

وتوكل علىٰ الله عَزَّ وجَلَّ، فإنه يُقَوِّيك ويغنيك، ويلطف بك، ويفتح لك من حيث لا تحتسب، فحينئذ تكون أقوىٰ الناس، ومن أحبَّ الغنىٰ في الدِّيْن والدنيا فليتق الله عَزَّ وجَلَّ دون غيره، ويقف علىٰ بابه، ويستحيي منه أن يأتي باب غيره، و يغمض عينيه عن النَّظَر إلىٰ غيره، أعني: عيني القلب لا عيني القالب(١).

ومن كلام الشَّيْخ عَبْد القَادِر في مجالس وعظه:

عن النَّبِيّ ﷺ أنه قال: (ملعون ملعون من كانت ثِقَتُهُ بمخلوق مثله).

ما أكثر الذين قد دخلوا في هٰذِهِ اللعنة، من كل خلق كثير وَاحِد يثق بالله عَزَّ وجَلَّ، ومن وثق بالله عَزَّ وجَلَّ فقد استمسك بالعُرْوَة الوثقىٰ، ومن وثق بمخلوق مثله فهو كالقَابِض علىٰ الماء، يفتح يده لا يرىٰ فيها شَيْئاً(٢).

والشَّيْخ عَبْد القَادِر بَيَّنَ كلام العُلَمَاء في معنىٰ التقوىٰ وحقيقة المُتَّقِي، حين شرح قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ - الحُجُرَات: ١٣، واستعرض

(١) المَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٣٩.
(٢) المَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٤٠.

أقوال عدد من الصَّحَابَة والتَّابِعِيْن وأتباعهم وأَعْلَام المُتَصَوِّفَة.

فنقل عن ابن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن المُتَّقِي الذي يَتَّقِي الشرك والكبائر والفواحش.

وقال عُمَر بن الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لكَعْب الأحبار: حَدِّثْنِي عن التقوىٰ، قال: هل أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم. قال: فما عملت فيه؟ فقال: حذرت وشَمَّرْتُ، قال كَعْب: كذٰلِكَ التقوىٰ.

وقال عُمَر بن عَبْد العَزِيْز رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: ليس التقىٰ صيام النهار وقيام الليل والتخليط فيما بين ذٰلِكَ، ولٰكِن التقوىٰ ترك ما حرم الله، وأداء ما افترض الله، فما رزق الله بعد ذٰلِكَ فهو خير إلىٰ خير.

وقال مَيْمُوْن بن مِهْرَان: لا يكون الرجل تَقِيّاً حتىٰ يكون أشد محاسبة لنفسه من الشَّرِيْك الشحيح والسُّلْطَان الجائر.

وقال أبو عَبْد الله الرُّوْذْبَارِيّ: التقوىٰ مجانبة ما يبعدك عن الله تعالىٰ.

وأورد الشَّيْخ عَبْد القَادِر أقوال آخرين كُثْر في التقوىٰ، ثم قال:

فالتقوىٰ جماع الخَيْرَات، وحقيقة الاتقاء التحرز بطاعة الله عَزَّ وجَلَّ عن عقوبته.

وقال أَيْضاً:

طريق التقوىٰ، أولاً: التخلص من مظالم العِبَاد وحقوقهم، ثم من المعاصي الكبائر منها والصغائر، ثم الاشتغال بترك ذنوب القلب التي هي أُمَّهَات الذنوب وأُصُوْلها[1].

وحين استوصىٰ عَبْد الوَهَّاب والده الشَّيْخ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مرض موته، قال له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عليك بتقوىٰ الله وطاعته. ولا تخف أحداً، ولا تَرْجُهُ، وكُلِ الحوائجَ كلها إلىٰ الله عَزَّ وجَلَّ. واطلبها منه، ولا تثق بأحد سوىٰ الله عَزَّ وجَلَّ، لا تعتمد إلَّا عليه

(١) الغُنْيَة ص١٩١-١٩٦.

سُبْحَانَهُ، التَّوْحِيْد التَّوْحِيْد التَّوْحِيْد[١].

ولما مرض الشَّيْخ عَبْد القَادِر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه مرضه الذي مات فيه، قال له ابنه عَبْد الوَهَّاب قدس سره: أوصني يا سَيِّدِي بما أعمل به بعدك.

فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه: عليك بتقوىٰ الله عَزَّ وجَلَّ، ولا تخف أحداً سوىٰ الله، ولا تَرْجُ أحداً سوىٰ الله، ووَكِّلِ الحوائج إلىٰ الله عَزَّ وجَلَّ، ولا تعتمد إلَّا عليه، واطلبها جميعاً منه تعالىٰ، ولا تتكل بأحد غير الله سُبْحَانَهُ. التَّوْحِيْد التَّوْحِيْد جماع الكل[٢].

الأصل الثاني:

متابعة خاتم النَّبِيِّيْن مُحَمَّد ﷺ في العَقَائِد والأقوال والأفعال والأَخْلَاق، لأن من علامة محبة الله تعالىٰ متابعة رَسُوْله ﷺ في الأقوال والأفعال.

قال الجُنَيْد: الطرق كلها مسدودة إلَّا علىٰ من اقتفىٰ أثر الرَّسُوْل ﷺ.

وقال أَيْضاً: إن طريق السادات المقربين مقيد بالكِتَاب والسُّنَّة، فهم الصُّوْفِيَّة علىٰ الحقيقة، والعُلَمَاء العَامِلُوْن بالشَّرِيْعَة والطريقة، وهم وُرَّاث النَّبِيّ ﷺ المتبعون له في أقواله وأفعاله وأَخْلَاقه وأحواله.

ومن لم يكن متبعاً أمر الله تعالىٰ ورَسُوْله، ويدعي حبهما، فهو كاذب، يصدق عليه قول عَبْد الله بن المُبَارَك:

تعصي الإِلٰه وأنت تظهر حبه ... هٰذَا محال في الفعال بَدِيْعُ
لو كان حبك صادِقاً لأطعته ... إن المحب لمن يُحِبُّ مُطِيْعُ

وعلم الشَّرِيْعَة لا بد من اقترانه بالعَمَل، وقد استعاذ النَّبِيّ ﷺ من علم لا ينفع.

---

(١) الفَتْح الرَّبَّانِي والفَيْض الرَّحْمَانِيّ، ذكر وفاته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ص٣٩٢.
(٢) فُتُوْح الغَيْب، تَكْمِلَة في ذكر وصاياه لأولاده، ص١٠٩.

والمقصود بالعلم حيثما تكرر في الكِتَاب والسُّنَّة، فالمُرَاد به العلم النَّافِع، الذي تقارنه الخشية، وتكتنفه المخافة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ - فاطر: ٢٨.

لذٰلِكَ قال الغَزَالِيّ:

ولو قرأ العلم مئة سنة، وجمع ألف كتاب، لا يكون مستعداً إلىٰ رحمة الله تعالىٰ، إلَّا بالعَمَل، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ - النَّجْم: ٣٩.

وتَحْقِيْق هٰذَا الأصل يكون بكَمَال الاتباع، والتحفظ من الابتداع، وحسن الخلق(١).

وطاعة الله ورَسُوْله تعني:

تَطْبِيْق الشَّرِيْعَة كَامِلَة غير مجزوءة، واعتمادها أَسَاساً في جميع جوانب الحياة، سواء كان ذٰلِكَ في:

١- الأُصُوْل الاعْتِقَادِيَّة من الاعْتِقَاد بالله وتَوْحِيْده والإيمان بصفاته العلىٰ، وما يتصل بها. والاعْتِقَاد بالنُّبُوَّة عامة ونُبُوَّة مُحَمَّد ﷺ خاصةً. والاعْتِقَاد باليوم الآخر ومشَاهد القيامة.

٢- والمبادئ الأَخْلَاقِيَّة من الأمانة، والوفاء، والصدق، والتواضع...، وغيرها.

٣- والأَحْكَام العَمَلِيَّة التي تنظم حياة الفرد والمجتمع في أحواله كلها في كل زَمَان ومكان، فتنظم علاقة الإنسان بخَالِقه في النظام الروحي، وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان في النظام الاجتماعي، وعلاقة الإنسان بالمال في النظام الاقْتِصَادِيّ، وعلاقة الإنسان برئاسة الدولة في النظام السياسي... .

وبذٰلِكَ يكون الإسْلَام بعدله ورحمته قد شمل جميع مناحي الحياة الدنيوية والأُخْرَوِيَّة. وهٰذَا مصداق قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ - الأنبياء:

---

(١) انظر: المَقَاصِد للنَّوَوِيّ ص٥٦. وشرحه في كتابنا: المَدْخَل إلىٰ الدِّيْن الإسْلَامِيّ ص٦٢.

.١٠٧

وقولي: (كَامِلَة غير مجزوءة) يفيد أن الإِسْلَام شريعة لا تقبل التجزئة، قال تعالىٰ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ - البقرة: ٨٥.

والإنسان بتَطْبِيْقه تلك الأوامر والنواهي الوَارِدَة في القُرْآن الكَرِيْم والسُّنَّة النَّبَوِيَّة يكون متابعاً للرَّسُوْل ﷺ.

وهٰذَا هو الأصل الثاني من أُصُوْل التَّصَوُّف، التي دعا إليه رِجَالهم.

قال الشَّيْخ عَبْد القَادِر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ:

(وقد دعا الله عَزَّ وجَلَّ خلقه إلىٰ تَوْحِيْده وطاعته، بالوعد والوعيد، والتَّرْغِيْب والتَّرْهِيْب، فحذر وأنذر وخَوَّف وزجر، إعذاراً إليهم، وتأكيداً للحُجَّة عليهم، فقال عَزَّ وجَلَّ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ - النساء: ١٦٥.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ - الإسراء: ١٥.

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ - يُوْنُس: ٥٧.

وقال جل وعلا في التخويف والتحذير: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ - آل عِمْرَان: ٣٠.

وذكر جُمْلَة كَبِيْرَة من الآيات الكَرِيْمَة في ذٰلِكَ.

وتحدث عن دخول النار وتضاعف العذاب فيها بسبب الأَعْمَال السيئة والأَخْلَاق المرذولة، وعن دخول الجنة وتضاعف النَّعِيْم فيها بسبب الأَعْمَال الصالحة والأَخْلَاق

الحَسَنَة.

وذكر ما أعد الله تعالىٰ للكافرين في جهنم من عذاب أليم، وما أعد للمُؤْمِنِيْن في الجنة من نَعِيْم مقيم(١).

وهٰذَا كله مبني علىٰ الطاعة المطلقة من العبد لله تعالىٰ ولرَسُوْله الكَرِيْم، فيأتمر بما أمره به الشَّرْع، وينتهي عما نهاه عنه. قال تعالىٰ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ – مُحَمَّد: ٣٣.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ – الحشر: ٧.

وترجم الشَّيْخ عَبْد القَادِر ذٰلِكَ في كتبه، وعلىٰ رأسها كتابه (الغُنْيَة لطالبي طريق الحق) الذي تقدمت مضامينه عند الكلام عن كتبه.

من ذٰلِكَ يتبين أن فهم الشَّيْخ عَبْد القَادِر للإِسْلَام كان فهماً صَافِياً كما ورد في القُرْآن والسُّنَّة، لا غُلُوّ ولا تعسفَ فيه، وهٰذَا هو التَّصَوُّف الحقيقي كما فهمه الصَّحَابَة الأوائل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

الأصل الثالث:

الإعراض عن الخَلْق في الإقبال والإدبار.

والإعراض يكون في القلب، لأن حقيقة التَّصَوُّف هو تَجْرِيْد القلب عما سواه، ودوام الحضور مع مولاه.

فالصُّوْفِيّ مع الناس في الظَّاهِر، وقلبه مشغول بصحبة مولاه.

وهٰذَا موافق لقوله تعالىٰ: ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ – النُّوْر: ٣٧.

قال الجُنَيْد: لو أقبل صَادِق علىٰ الله تعالىٰ ألف مرة، ثم أعرض عنه لحظة، كان

(١) الغُنْيَة ص١٩٦–٢٢٨.

ما فاته أكثر مما ناله.

وذٰلِكَ لأن النَّبِيّ ﷺ يقول: (من استوىٰ يوماه فهو مغبون).

وتَحْقِيْق هٰذَا الأصل: يكون بالصبر علىٰ تحمل المشقة علىٰ أذىٰ الناس، وتفويض الحال إلىٰ الباري عَزَّ وجَلَّ، والثِّقَة بمن رحمهم وآتاهم تقواهم[1].

وحين تكلم الشَّيْخ عَبْد القَادِر عن النجاة أورد أقاويل الشُّيُوْخ فيها، منها:

قول الجُنَيْد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: ما نجا من نجا إلَّا بصدق اللجوء إلىٰ الله عَزَّ وجَلَّ، قال الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ - التوبة: ١١٨.

وأورد الشَّيْخ عَبْد القَادِر تَفْسِيْر النجاة من قول الحسن البَصْرِيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ:

ما نجا من نجا إلَّا بالإعراض عن الدنيا وأهلها. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ﴾ - مُحَمَّد: ٣٦.

وقد ذكر النَّبِيّ ﷺ: (أن حب الدنيا رأس كل خَطِيْئَة، وما تَقَرَّبَ المتقربون إلىٰ الله بشيء أفضل من أداء ما افترض الله)[2].

الأصل الرابع:

الرضا عن الله تعالىٰ في القليل والكثير.

فلا يخلو الإنسان من مسرة أو مضرة، أو رخاء وشدة، فعليه أن لا يخرج عن العبودية، وهي الرضا بالموجود، والصبر عن المفقود، والوفاء بالعهود، والحفظ للحدود.

قال الفُضَيْل: إذا استوىٰ عنده المنع والعَطَاء فقد رضي عن الله تعالىٰ.

---

(١) انظر: المَقَاصِد للنَّوَوِيّ ص٥٦. وشرحه في كتابنا: المَدْخَل إلىٰ الدِّيْن الإسْلَامِيّ ص٦٣.

(٢) الغُنْيَة ص١٩٦.

وتَحْقِيْق هٰذَا الأصل: يكون بالقَنَاعَة، والرضا بالدون، والتَّسْلِيْم لله[١].

قال الشَّيْخ عَبْد القَادِر في الرضا بما قسم الله تعالىٰ:

ارْضَ بالدون، والزمه جداً حتىٰ يبلغ الكتاب أجله، فتنقل إلىٰ الأعلىٰ والأنفس، وبه تهنأ... .

واعلم أن القَسْم لا يفوتك بترك الطلب، وما ليس بقَسْم لا تناله بحرصك في الطلب والجد والاجْتِهَاد، فاصبر والزم الحال وارْضَ به...[٢].

قال الشَّيْخ عَبْد القَادِر:

لا تختر جلب النعماء، ولا دفع البلوىٰ، فإن النعماء وَاصِلَة إليك بالقسمة، استحليتها أم كرهتها، والبلوىٰ حالة بك ولو كرهتها ودفعتها، فسَلِّمْ لله تعالىٰ في الكل بفعل ما يشاء، فإن جاءتك النعماء فاشتغل بالذكر والشكر، وإن جاءتك البلوىٰ فاشتغل بالصبر والموافقة والرضا والتَّنَعُّم بها[٣].

الأصل الخامس:

الرجوع إلىٰ الله تعالىٰ في السراء والضراء.

قال تعالىٰ: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ - الأنعام: ١٧.

وتَحْقِيْق هٰذَا الأصل: يكون بالشكر له في السراء، أي: الرجاء والصحة والغنىٰ. وباللجوء إليه في الضراء، أي: الشدة والفقر والعناء[٤].

---

(١) انظر: المَقَاصِد للنَّوَوِيّ ص٥٦. وشرحه في كتابنا: المَدْخَل إلىٰ الدِّيْن الإِسْلَامِيّ ص٦٤.
(٢) فُتُوْح الغَيْب، المَقَالَة الثالثة والعشرون، ص٣٣.
(٣) طَبَقَات الشَّعْرَانِيّ ج١ ص٢٣٣.
(٤) انظر: المَقَاصِد للنَّوَوِيّ ص٥٦. وشرحه في كتابنا: المَدْخَل إلىٰ الدِّيْن الإِسْلَامِيّ ص٦٤.

ومنه الرضا بالبلاء.

قال الشَّيْخ عَبْد القَادِر:

قال الله عَزَّ وجَلَّ في بعض كتبه: (أنا الله الذي لا إلٰه إلَّا أنا، من استسلم لقضائي، وصبر علىٰ بلائي، وشكر نعمائي، كتبته عندي صدِّيقاً. ومن لم يستسلم لقضائي، ولم يصبر علىٰ بلائي، ولم يشكر نعمائي، فليطلب رباً سواي).

إذا لم تَرْضَ بالقَضَاء، ولم تصبر علىٰ البلاء، ولم تشكر النعماء، فلا رب لك، التمس رباً غيره ولا رب غيره.

إن أردت فارْضَ بالقَضَاء، وآمن بالقَدَر خيره وشره، حلوه ومره، وإن أصابك لم يكن ليخطئك بالتحذر، وما أخطأ لم يكن ليصيبك بالجد والطلب.

إذا تحقق لك الإيمان قدمت إلىٰ باب الوِلَايَة، فحينئذٍ تصير من عِبَاد الله المحققين لعبوديته.

علامة الوَلِيّ أن يكون موافقاً لربه عَزَّ وجَلَّ في جميع أحواله(١).

لذٰلِكَ قال الشَّيْخ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لا تَشْكُ لأحد ما نزل بك من ضر كائناً ما كان، صديقاً أو قريباً، ولا تتهمنَّ ربك فيما فعل فيك، ونزل بك من إرادته، بل أظهر الخير والشكر، ولا تسكن إلىٰ أحد من الخلق، ولا تَسْتَأْنِس به، ولا تُطْلِع أحداً علىٰ ما أنت فيه، لا فاعل سوىٰ ربك، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ - الأنعام: ١٧(٢).

ومن كلام الشَّيْخ عَبْد القَادِر في مجالس وعظه:

---

(١) الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص٣٠٧-٣٠٨، المجلس الثاني والستون، بُكْرَة الجمعة في المدرسة، سَلْخ رَجَب/ ٥٤٦هـ.

(٢) طَبَقَات الشَّعْرَانِيّ ج١ ص٢٣٤.

المُؤْمِن يستحي من الله عَزَّ وجَلَّ في خلوته وجَلْوَتِهِ، والمنافق يَظهر منه الحياء في جلوته، ويُبارزه بالعظائم في خلوته.

قال النَّبِيّ ﷺ: (إذا أغلق أحدُكم بابَه، وأرخىٰ ستره، وخلا بمعصية ربه عَزَّ وجَلَّ، يقول الله عَزَّ وجَلَّ: يا ابن آدم، جعلتني أهون النَّاظِرين إليك؟)[1].

السَّمَاع عند الشَّيْخ عَبْد القَادِر:

سئل شَيْخ الإِسْلَام الشَّيْخ شِهَاب الدِّين أَحْمَد بن حَجَر الشَّافِعِيّ العَسْقَلَانِيّ، هل ورد عن الشَّيْخ عَبْد القَادِر أنه حضر السَّمَاع الذي اتخذه الفُقَرَاء بالدفوف والمواصيل وغير ذٰلِكَ من الآلات أو أمر بحضوره، أو قال فيه شَيْئاً بإباحة أو تحريم؟

فأجاب رحمة الله عليه:

أما الشَّيْخ عَبْد القَادِر فالذي وصل إلينا من أَخْبَاره الصَّحِيْحَة: أنه كان فقيهاً زَاهِداً عابداً، يتكلم علىٰ الناس، ويرغبهم في الزهد والتوبة، ويحذرهم من العُقُوبَة علىٰ المعصية، فكان يتوب علىٰ يده من الخلق ما لا يحصىٰ كثرة، وله كَرَامَات مُسْتَفِيْضَة لم ينقل لنا عن أحد من أهل عَصْره ولا من بعده أكثر مما نقل عنه.

ولا أعرف عنه في مسالة السَّمَاع بهٰذِهِ الآلات شَيْئاً[2].

ومما تقدم:

يتبين أن الشَّيْخ عَبْد القَادِر لم يخرج عن الكِتَاب والسُّنَّة.

وهٰذِهِ الأُصُوْل الخمسة التي هي أُصُوْل التَّصَوُّف الرَّشِيْد، والتي لخصها الإِمَام النَّوَوِيّ من كلام العُلَمَاء والصُّوْفِيَّة الأصفياء، تجلّت واضحة في كتابات الشَّيْخ

(١) المَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٤٠.
(٢) قَلَائِد الجَوَاهِر ص١٣٥.

عَبْد القَادِر، فلا تَطَرُّفَ في فكره، ولا غُلُوّ، ولا إفراط، ولا تفريط، ولا تجد فيه أثراً للنَّظَرِيَّات الفلسفية الشَّاذَّة كالحُلُوْل ووحدة الوجود، ونحوها.

طريق الشَّيْخ عَبْد القَادِر في الإصْلَاح:

يتضح طريقه بما يأتي:

١- إصْلَاح الفرد:

حين يذكر الشَّيْخ عَبْد القَادِر ما يجب علىٰ المريد للوُصُوْل إلىٰ الله تعالىٰ، إنما يؤكد أن الفرد يكون لبنة صالحة لبناء المجتمع السَّلِيْم إذا أخذ بأُمُور سبعة، هي أَسَاس لطريقته، وهي:

المُجَاهَدَة، والتوكل، وحسن الخلق، والشكر، والصبر، والرضا، والصدق.

وأخذ يشرح كل أمر من هٰذِهِ الأُمُور:

أولاً: المُجَاهَدَة:

قال: الأصل فيها قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ – العنكبوت: ٦٩.

وقال أبو عَلِيّ الدَّقَّاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من زَيَّنَ ظَاهِره بالمُجَاهَدَة حَسَّنَ الله سرائره بالمشَاهدة.

والأصل في المُجَاهَدَة مخالفة الهوىٰ، فيفطم نفسه عن المألوفات والشهوات واللذات، ويحملها علىٰ خلاف ما تهوىٰ في عموم الأوقات.

ولا تتم المُجَاهَدَة إلَّا بالمُرَاقَبَة، وهي التي أشار إليها رَسُوْل الله ﷺ حين سأله جِبْرِيْل عن الإحْسَان، فقال: (الإحْسَان أن تَعْبُدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

لأن المُرَاقَبَة علم العبد باطلاع الرب سُبْحَانَهُ عليه، واستدامته لهٰذَا العلم مُرَاقَبَة لربه. وهٰذَا هو أصل كل خير.

وإنما يصل إلىٰ هٰذِهِ الرتبة بعد المحاسبة، وإصْلَاح حاله في الوقت، ولزوم طريق الحق، وإحْسَان مراعاة القلب بينه وبين الله تعالىٰ...، فيعلم أن الله تعالىٰ عليه رَقِيْب، يعلم أحواله، ويرىٰ أفعاله، ويسمع أقواله.

وعندئذٍ لا يدع التضرع إليه تعالىٰ، والاستعانة به في كل حَرَكَاته.

ولأهل المُجَاهَدَة والمحاسبة وأُولي العزم عشر خصال، جرَّبوها لأنفسهم، فإذا أقاموها وصلوا إلىٰ المنازل الشَّرِيْفَة. هي:

١- أن لا يحلف العبد بالله عَزَّ وجَلَّ صَادِقاً ولا كاذباً، عامداً ولا ساهياً، لأنه إذا عَوَّدَ لِسَانه علىٰ ذٰلِكَ، فتح الله له باباً من أَنْوَاره، ورفع درجته.

٢- أن يجتنب الكذب هازلاً وجاداً.

٣- أن يحذر أن يَعِدَ أحداً شَيْئاً فيُخْلِفه إياه، وهو يقدر عليه، إلَّا من عذر بَيِّن.

٤- أن يجتنب أن يلعن شَيْئاً من الخلق، أو يؤذي ذرة فما فوقها، لأنها من أَخْلَاق الأبرار والصَّالِحِيْن.

٥- أن يجتنب أن يدعو علىٰ أحد من الخلق، وإن ظلمه، ويحتمل ذٰلِكَ لله تبارك وتعالىٰ.

٦- أن لا يقطع الشهادة علىٰ أحد من أهل القِبْلَة بشرك ولا كفر ولا نفاق.

٧- أن يجتنب النَّظَر والهمّ إلىٰ شيء من المعاصي ظَاهِراً وبَاطِناً، ويكف عنها جوارحه.

٨- أن يجتنب أن يجعل علىٰ أحد من الخلق منه مؤنة صَغِيْرَة ولا كَبِيْرَة، فبه يقوىٰ علىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المُنْكر.

٩- ينبغي له أن يقطع طمعه مما في أيدي الآدميين، فإنه العِزّ الأكبر.

١٠- التواضع، لأن به تعلو منزلته. وهٰذِهِ الخَصْلَة أصل الطاعات كلها وفرعها وكَمَالها(١).

والشَّيْخ يوصي بمُجَاهَدَة النفس الأمارة بالسوء، لأنها مصدر المعصية.

فقال:

النفس كلها مخالفة منازعة، فمن أراد صَلَاحها فليجاهدها، حتىٰ يأمن شرها، كلها شر في شر.

فإذا جوهدت واطمأنت، صارت كلها خَيْراً في خير، تصير موافقة في جميع الطاعات، وفي ترك جميع المعاصي(٢).

ثانياً: التوكل:

والأصل فيه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ - الطلاق: ٣.

وحقيقة التوكل: تفويض الأُمُور إلىٰ الله عَزَّ وجَلَّ. فيقطع العبد أن لا تبديل للقسمة، فما قسم له لا يفوته، وما لم يقدر له لا يناله، فيسكن قلبه إلىٰ ذٰلِكَ، ويطمئن إلىٰ وعد مولاه.

وأورد الشَّيْخ أقوالاً كثيرة للمشايخ في التوكل، مثل:

قول الجُنَيْد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: التوكل أن تُقْبِلَ بالكُلِّيَّة علىٰ ربك، وتُعْرِضَ عمن

(١) الغُنْيَة ص٤٦٨-٤٧٧.

وأورد هٰذِهِ النقاط العشر في: فُتُوح الغَيْب، المَقَالَة الثامنة والسبعون في أهل المُجَاهَدَة والمحاسبة وأُولي العزم وبَيَان خصالهم ص١٠٥-١٠٩.

(٢) الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص٦، المجلس الأول في بُكْرَة الأحد بالرباط، ٣/ شَوَّال/ ٥٤٥هـ.

دونه[١].

ثالثاً: حسن الخلق.

والأصل فيه قوله تعالىٰ لنبيّه ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ - القلم: ٤.

والخلق الحسن أفضل مَنَاقِب العبد، وبه تظهر جَوَاهِر الرِّجَال، والإنسان مستور بخَلْقِهِ، مشهور بخُلُقِهِ.

وحسن الخلق مع الله عَزَّ وجَلَّ ان تؤدي أوامره، وتترك نواهيه، وتطيعه في الأحوال كلها، من غير اعْتِقَاد استحقاق العوض عليه، وتسلم جميع المقدور إليه[٢].

رابعاً: الشكر.

والأصل فيه قوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ - إبْرَاهِيْم: ٧.

وحقيقة الشكر عند أهل التَّحْقِيْق: الاعتراف بنعمة المُنْعِم علىٰ وجه الخضوع. وعلىٰ هٰذَا المعنىٰ وصف الله تعالىٰ نفسه بأنه الشَّكُوْر توسعاً، معناه: أنه يجازي العِبَاد علىٰ الشكر، فسمىٰ جزاء الشكر شكراً.

ثم الشكر ينقسم أقساماً:

شكر باللِّسَان، وهو اعترافه بالنعمة بنعت الاستكانة.

وشكر بالبدن والأركان، وهو اتصاف بالوفاء والخدمة.

وشكر بالقلب، وهو انعطاف علىٰ بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة.

---

(١) الغُنْيَة ص٤٧٧-٤٨٠.

وانظر: الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص١٧٤، المجلس الثاني والأربعون، بُكْرَة في المدرسة، ١٩/ رَجَب/ ٥٤٥هـ.

(٢) الغُنْيَة ص٤٨٠-٤٨١.

وذكر الشَّيْخ أقوالاً أُخْرَىٰ في الشكر(١).

خامساً: الصبر.

والأصل فيه قوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ - آل عِمْرَان: ٢٠٠.

قال الشَّيْخ:

الصبر علىٰ ثلاثة أضرب:

أحدها: صبر لله عَزَّ وجَلَّ، وهو علىٰ أداء أمره وانتهاء نهيه.

وصبر مع الله عَزَّ وجَلَّ، وهو الصبر تحت جريان قضائه وأفعاله فيك من سائر الشدائد والبلايا.

وصبر علىٰ الله عَزَّ وجَلَّ، وهو الصبر علىٰ ما وعد من الرزق والفَرَج والكِفَايَة والنصر والثواب في دار الآخِرَة.

قال الخَوَّاص رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: الصبر الثبات مع الله تعالىٰ علىٰ أَحْكَام الكِتَاب والسُّنَّة(٢).

وقال الشَّيْخ عَبْد القَادِر أَيْضاً:

معنىٰ الصبر أنك لا تشكو إلىٰ أحدٍ، ولا تتعلق بسبب، ولا تكره وجود البلية، ولا تحب زوالها.

العبد إذا تواضع لله عَزَّ وجَلَّ في حال فقره وفاقته، وصبر معه علىٰ مُرَاده، ولم يستنكف من الصفة المباحة، وواصل الضِّيَاء بالظلام بالعِبَادَة والكسب، ينظر إليه بعين

(١) الغُنْيَة ص٤٨٢-٤٨٤.
(٢) الغُنْيَة ص٤٨٤-٤٨٥.

الرحمة، يغنيه ويغني عياله من جهة لم تكن في حسابه. قال الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ - الطلاق: ٢-٣(١).

سادساً: الرضا.

والأصل فيه قوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ - المائدة: ١١٩، والتوبة: ١٠٠، والمجادلة: ٢٢، والبينة: ٨.

والراضي هو الذي لا يعترض علىٰ تقدِير الله عَزَّ وجَلَّ.

وقال أبو عَلِيّ الدَّقَّاق: ليس الرضا أن لا تحس بالبلاء، إنما الرضا أن لا تعترض علىٰ الحكم والقَضَاء(٢).

سابعاً: الصدق.

والأصل فيه قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ - التوبة: ١١٩.

والصدق عِمَاد الأمر، وبه تمامه، وفيه نظامه. وهو ثاني درجة بعد النُّبُوَّة، قال عَزَّ وجَلَّ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ - النساء: ٦٩.

والصدق استواء السر والعَلَانِيَة.

والصَّادِق هو الذي صَدَقَ في أقواله.

والصِّدِّيق هو من صدق في أقواله وجميع أفعاله وأحواله(٣).

---

(١) الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص١٦٢، المجلس الثامن والثلاثون، بُكْرَة الأحد في الرباط، ٧/ رَجَب/ ٥٤٥هـ.

(٢) الغُنْيَة ص٤٨٥-٤٨٩.

(٣) الغُنْيَة ص٤٨٩-٤٩٠.

فالشَّيْخ يدعو إِلىٰ إِصْلَاح الفرد بإِصْلَاح سريرته، قال:

أصلحوا قلوبكم، فإنها إذا صَلَحَت صَلَحَ لكم سائر أَحوَالِكم، ولهٰذَا قال النَّبِيّ ﷺ: (في ابن آدم مُضْغَة إذا صَلَحَت صَلَحَ لها سائر جسده، وإذا فَسَدَت فَسَد لها سائر جسده، أَلَا وهي القلب).

صَلَاح القلب بالتقوىٰ، والتوكل علىٰ الله عَزَّ وجَلَّ، والتَّوْحِيْد له، والإخلاص في الأَعْمَال، وفساده بعدم ذٰلِكَ(١).

وقال أَيْضاً:

يا غلام، عليك بالتقوىٰ، عليك بحدود الشَّرْع، والمخالفة للنفس والهوىٰ والشيطان وأقران السوء(٢).

وقال أَيْضاً:

يا غلام لا تكن مع النفس، ولا مع الهوىٰ، ولا مع الدنيا، ... ولا تتابع سوىٰ الحق عَزَّ وجَلَّ(٣).

٢- التمسك بالكِتَاب والسُّنَّة:

فحين قال الشَّيْخ عَدِيّ بن مسافر للشَّيْخ عَبْد القَادِر: أوصني. قال: أُوصيك بالكِتَاب والسُّنَّة(٤).

---

(١) الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص٧، المجلس الأول، في بُكْرَة يوم الأحد بالرباط، ٣/ شَوَّال/ ٥٤٥هـ.

(٢) الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص٩، المجلس الأول، في بُكْرَة يوم الأحد بالرباط، ٣/ شَوَّال/ ٥٤٥هـ.

(٣) الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص١١، المجلس الأول، في بُكْرَة يوم الأحد بالرباط، ٣/ شَوَّال/ ٥٤٥هـ.

(٤) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص١٢٥.

وكان الشَّيْخ عَبْد القَادِر يقول لأصحابه:

اتبعوا ولا تبتدعوا، وأطيعوا ولا تخالفوا، واصبروا ولا تجزعوا، واثبتوا ولا تتمزقوا، وانتظروا ولا تيأسوا، واجتمعوا علىٰ الذِّكْر ولا تتفرقوا، وتطهروا عن الذنوب ولا تتلطخوا، وعن باب مولاكم لا تبرحوا(١).

وقال:

اتبعوا ولا تبتدعوا، وأطيعوا ولا تمرقوا، ووحدوه ولا تشركوا، ونزهوا الحق ولا تتهموا، وصَدِّقُوا ولا تَشُكُّوا، واصبروا ولا تجزعوا، واثبتوا ولا تنفروا، واسألوا ولا تسأموا، وانتظروا وترقبوا ولا تيأسوا، وتواخوا ولا تعادوا، واجتمعوا علىٰ الطاعة ولا تتفرقوا، وتحابوا ولا تباغضوا، وتطهروا عن الذنوب وبها لا تتدنسوا...(٢).

وقال أَيْضاً:

عليكم بالاتباع من غير ابتداع، عليكم بمَذْهَب السَّلَف الصالح، امشوا في الجادة المُسْتَقِيْمَة، لا تشبيه ولا تعطيل، بل اتباعاً لسنة رَسُوْل الله ﷺ من غير تكلف ولا تطبع ولا تشدد(٣).

وقال في أحد مجالس وعظه:

يا قوم، اتبعوا ولا تبتدعوا، وَافِقُوا ولا تخالفوا، أطيعوا ولا تعصوا، أخلصوا ولا تشركوا، وحدوا الحق عَزَّ وجَلَّ وعن بابه فلا تبرحوا، سلوه ولا تسألوا غيره، استعينوا

وفي مُهْجَة البَهْجَة ص٣٣٧: (كان الشَّيْخ عَبْد القَادِر شديد الاقتفاء للكِتَاب والسُّنَّة...، مبغضاً لأهل البدعة والأَهْوَاء). وقَلَائِد الجَوَاهِر ص٧٧.

(١) طَبَقَات الشَّعْرَانِيّ ج١ ص٢٣٢.

(٢) فُتُوْح الغَيْب، المَقَالَة الثانية، ص٤.

(٣) الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص٤٥، المجلس العاشر، بُكْرَة الأحد ١٤/ شَوَّال/ ٥٤٥هـ.

به ولا تستعينوا بغيره، توكلوا عليه ولا تتوكلوا علىٰ غيره[١].

وأصل دعوة الشَّيْخ عَبْد القَادِر هو التمسك بالكِتَاب والسُّنَّة.

قال في تربية المريدين في باب فيما يجب علىٰ المبتدئ في هٰذِهِ الطريقة أولاً:

(فالذي يجب علىٰ المُبْتَدِي في هٰذِهِ الطريقة الاعْتِقَاد الصَّحِيْح، الذي هو الأَسَاس، فيكون علىٰ عَقِيْدَة السَّلَف الصالح، أَهْل السُّنَّة القديمة، سنة الأنبياء والمُرْسَلين، والصَّحَابَة والتَّابِعِيْن، والأَوْلِيَاء والصِّدِّيْقِيْن.

فعليه بالتمسك بالكِتَاب والسُّنَّة، والعَمَل بهما، أمراً ونهياً، أَصْلاً وفرعاً، فيجعلهما جناحيه يطير بهما في الطريق الواصل إلىٰ الله عَزَّ وجَلَّ، ثم الصدق، ثم الاجْتِهَاد، حتىٰ يجد الهِدَايَة والإِرْشَاد إليه والدليل)[٢].

وكان الشَّيْخ عَبْد القَادِر يوصي تلميذه بقوله:

يا غلام، بينتك ملازمة الكِتَاب والسُّنَّة، والعَمَل بهما، والإخلاص في العَمَل.

إني أرىٰ عُلَمَاءكم جهالاً، زهادكم طالبي الدنيا ورَاغِبين فيها، متوكلين علىٰ الخلق، ناسين للحق عَزَّ وجَلَّ الثِّقَة بغير الحق عَزَّ وجَلَّ سبب اللعنة. عن النَّبِيّ ﷺ أنه قال: (ملعون ملعون من كانت ثقته بمخلوق مثله)[٣].

وقال أَيْضاً:

لا فلاح لك حتىٰ تتبع الكِتَاب والسُّنَّة. عن بعضهم رحمة الله عليه أنه قال: من لم

---

(١) الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص١٩٧-١٩٨، المجلس السابع والأربعون، يوم الثلاثاء في المدرسة، مستهل شَعْبَان/ ٥٤٥هـ.

(٢) الغُنْيَة ص٤٤٥.

(٣) الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص١٦١، المجلس الثامن والثلاثون، بُكْرَة الأحد في الرباط، ٧/ رَجَب/ ٥٤٥هـ.

يكن له شَيْخ فإبْلِيْس شَيْخه.

اتبع الشُّيُوْخ العُلَمَاء بالكِتَاب والسُّنَّة العالمين بهما، أو حسّن الظن بهم، وتعلم منهم، وأحسن الأدب بين أيديهم، والعشرة معهم، وقد أفلحت... . أما سمعت: من استغنىٰ برأيه ضل؟ هَذِّب نفسك بصحبة من هو أعلم منك، اشتغل بإصْلَاحها، ثم انتقل إلىٰ غيرها[1].

وقال أَيْضاً:

تأدبوا رحمكم الله تعالىٰ بين يدي الله عَزَّ وجَلَّ، من لم يتأدب بآداب الشَّرْع أدبته النار يوم القيامة[2].

لذٰلِكَ:

كان يتألم لحال الدِّيْن، وما أصاب المُسْلِمِيْن بسبب ابتعادهم عنه.

فقال:

حيطان دين نبينا قد تواقعت، تستغيث بمن يبنيه، نهره قد نضب ماؤه، والرب لا يعبد، وإذا عبد عبد رياءً ونفاقاً.

من يعاون في إقامة الحيطان... وكسر أهل النفاق[3].

وقال أَيْضاً:

(١) الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص١٦٦، المجلس التاسع والثلاثون، بُكْرَة الجمعة في الرباط، ١٢/ رَجَب/ ٥٤٥هـ.

(٢) الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص٥٨، المجلس الثاني عشر، بُكْرَة يوم الأحد بالرباط، ٢/ ذو القِعْدَة/ ٥٤٥هـ.

(٣) الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص٣٢٧، المجلس الثاني والستون، بُكْرَة الجمعة في المدرسة، سَلْخ شهر رَجَب/ ٥٤٦هـ.

دين مُحَمَّد ﷺ تتواقع حيطانه، ويتناثر أَسَاسه، هلموا يا أهل الأرض نشيد ما تهدم، ونقيم ما وقع، هٰذَا شيء ما يتم[١].

٣- الدعوة إلىٰ العلم، والتَّفَقُّه في الدِّيْن، والعَمَل به:

كان الشَّيْخ عَبْد القَادِر حريصاً علىٰ دروسه مع طلبته، ومع عامة الناس، لِيَفْقَهُوا دينهم، ويعملوا به.

فإذا تم لهم ذٰلِكَ كانوا الأداة الصالحة في إعمار البلد وصَلَاح الناس.

قال: يا غلام، علمك يناديك، أنا حُجَّة عليك إن لم تعمل بي، وحُجَّة لك إن عملتَ بي[٢].

وقال أَيْضاً مؤكداً علىٰ طلب العلم والعَمَل به:

ويحك تحفظ القُرْآن ولا تعمل به، تحفظ سنة رَسُوْل الله ﷺ ولا تعمل بها. فلأي شيء تفعل ذٰلِكَ؟ تأمر الناس وأنت لا تفعل، وتنهاهم وأنت لا تنتهي.

قال عَزَّ وجَلَّ: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ - الصف: ٣[٣].

وأوجب تعلم العلم لله عَزَّ وجَلَّ، فقال:

يا غلام، تعلم العلم وأخلص، حتىٰ تخلص من شبكة النفاق وقَيْدِهِ. اطلب العلم لله عَزَّ وجَلَّ، لا لخلقه ولا لدنياه.

---

(١) الفَتْح الرَّبَّانِي والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص٣٨٢، المجلس الثاني والستون، بُكْرَة الجمعة في المدرسة، سَلْخ شهر رَجَب/ ٥٤٦هـ.

(٢) الفَتْح الرَّبَّانِي والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص١٩، المجلس الثالث، بُكْرَة يوم الجمعة بالمدرسة المعمورة، ٨/ شَوَّال/ ٥٤٥هـ.

(٣) الفَتْح الرَّبَّانِي والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص٤٥، المجلس العاشر، بُكْرَة الأحد ١٤/ شَوَّال/ ٥٤٥هـ. وانظر: ص٤٨ من المجلس نفسه.

علامة طلبك العلم لله عَزَّ وجَلَّ خوفك ووجلك منه عند مجيء الأمر والنهي، تراقبه وتذل له في نفسك، وتتواضع للخلق من غير حاجة إليهم، لا طمعاً فيما في أيديهم.

وتُصَادِق في الله عَزَّ وجَلَّ، وتعادي فيه(١).

وأوضح أن العُلَمَاء العَامِلِيْن هم النائبون عن سَلَف الأُمَّة، فقال:

العُلَمَاء العُمَّال بعلمهم نواب السَّلَف، هم ورثة الأنبياء، وبقية الخَلَف، هم مُقَدّمون بين أيديهم، يأمرونهم بالعِمْرَان في مَدِيْنَة الشَّرْع، وينهونهم عن خرابها.

يجتمعون يوم القيامة هم والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فيستوفون لهم الأُجرة من ربهم عَزَّ وجَلَّ(٢).

وكان الشَّيْخ عَبْد القَادِر يدعو إلىٰ التَّفَقُّه في الدِّيْن.

قال الجُبَّائِيّ:

كنتُ أسمع كتاب (حِلْيَة الأَوْلِيَاء) علىٰ ابن ناصر، فَرَقَّ قلبي، وقلتُ في نفسي: أشتهي أن أنقطع عن الخَلْق، وأشتغل بالعِبَادَة.

ومضيتُ وصليتُ خلف الشَّيْخ عَبْد القَادِر، فلما صَلَّىٰ جلسنا بين يديه، فنظر إِلَيَّ، وقال: إذا أردت الانقطاع، فلا تنقطع حتىٰ تَتَفَقَّهَ، وتجالس الشُّيُوْخ، وتتأدب بهم، فحينئذٍ يصلح لك الانقطاع، وإلَّا فتمضي وتنقطع قبل أن تَتَفَقَّهَ، وأنتَ فُرَيْخٌ ما رَيَّشْتَ،

---

(١) الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص١٦٠، المجلس الثامن والثلاثون، بُكْرَة الأحد في الرباط، ٧/ رَجَب/ ٥٤٥هـ.

وانظر: الفَتْح الرَّبَّانِيّ ص٢٤٣-٢٤٤، المجلس الرابع والخمسون، بُكْرَة الجمعة في المدرسة، ١٠/ رَمَضَان/ ٥٤٥هـ، طلب العلم.

(٢) الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص٦٥، المجلس الثالث عشر، عشية يوم الثلاثاء بالمدرسة، ٤/ ذو القَعْدَة/ ٥٤٥هـ.

فإن أشكل عليك شيء من أمر دينك تخرج من زاويتك وتسأل الناس.

ينبغي لصاحب الزاوية أن يكون كالشمعة، ليستضاء بنوره[١].

وقال الشَّيْخ عَبْد القَادِر:

تَفَقَّهْ، ثم اعتزلْ. من عَبَدَ الله بغير علم كان ما يفسده أكثر مما يصلحه، خذ معك مِصْبَاح شرع ربك، من عمل بما يعلم أورثه الله علم ما لم يعلم[٢].

٤- استخفافه بالدنيا وإنكاره علىٰ المخالفين:

قال الشَّيْخ:

ويلك لو صح إيمانك به، واعْتِقَادك أنه ناظر إليك، قريب منك، رَقِيْب عليك، لاستحيت منه.

إني أقول لكم الحق، ولا أخاف منكم، ولا أرجوكم، أنتم وأهل الأرض عندي كالبق وكالذر، لأني أرىٰ الضر والنفع من الله عَزَّ وجَلَّ لا منكم.

المَمَالِيْك والملوك عندي سواء.

أنكِروا علىٰ أنفسكم وعلىٰ غيركم بالشَّرْع، لا بالهوىٰ والنفس والطبع، ما سكت الشَّرْع عنه فوافقوه في سكوته، وما نطق به فوافقوه في نطقه[٣].

---

(١) مِرْآة الزَّمَان ج٢١ ص٨٦.

والخبر بتصرف في: تَارِيْخ الإسْلَام للذَّهَبِيّ ج١٢ ص٢٦٠. وسِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء ج٢٠ ص٤٤٨. ومَسَالِك الأَبْصَار ج٨ ص١٢١.

والخبر في: قَلَائِد الجَوَاهِر ص٣٠.

(٢) قَلَائِد الجَوَاهِر ص٦٤.

(٣) الفَتْح الرَّبَّانِي والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص٢٢٢، المجلس الحادي والخمسون، ٢٠/ شَعْبَان/ ٥٤٥هـ.

والشَّيْخ يرىٰ أن لا بأس بالتمتع بمباحات الدنيا من خَيْرَات وطَيِّبَات، إلَّا أنه كان يرىٰ مُعَارَضَة الانغماس في ملذاتها، قال:

وفي الناس من تكون الدنيا بيده ولا يحبها، يملكها ولا تملكه، تحبه ولا يحبها، تعدو خلفه ولا يعدو خلفها، يستخدمها ولا تستخدمه، يفرقها ولا تفرقه، قد صلح قلبه لله عَزَّ وجَلَّ، ولا تقدر الدنيا أن تفسده، فيتصرف فيها، ولا تتصرف فيه. ولهٰذَا قال النَّبِيّ ﷺ: (نِعْمَ المال الصالح للرجل الصالح)(١).

٥- العَدْل:

العَدْل مَأْمُوْر به شرعاً.

قال الله تعالىٰ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ - النَّحْل: ٩٠.

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ - الحُجُرَات: ٩.

وقال رَسُوْل الله ﷺ: (إن المُقْسِطين عند الله علىٰ منابر من نور، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا) - رواه مُسْلِم.

وبذٰلِكَ قال الشَّيْخ عَبْد القَادِر:

لا تظلم أحداً في الدنيا، فإنك تؤخذ به في الآخِرَة.

اعدل في الدنيا حتىٰ لا يعدل بك عن طريق الجنة.

الظَّلَمَة لما تركوا العَدْل عدل بهم عن طريق دار أهل العَدْل(٢).

---

(١) الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص١٤٧، المجلس الرابع والثلاثون.

وانظر: فُتُوْح الغَيْب ص٧، المَقَالَة الخامسة.

(٢) الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص٢١٣، المجلس التاسع والأربعون في المدرسة، الجمعة ١١/ شَعْبَان/ ٥٤٥هـ.

٦- الرحمة بالناس:

وهٰذِهِ صفة رَسُوْل الله ﷺ في القُرْآن الكَرِيْم، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ - الأنبياء: ١٠٧.

والشَّيْخ عَبْد القَادِر دعا المُسْلِمَ قائلاً:

يا غلام، اجهد أنك لا تؤذي أحداً، وأن تكون نيتك صالحة لكل أحد، إلَّا من أمرك الشَّرْع بأذيته، فأذيتك له عِبَادَة(١).

وقال أَيْضاً:

يا غلام، صم، وإذا أفطرت واسِ الفُقَرَاء بشيء من إفطارك، لا تأكل وحدك، فإن من أكل وحده، ولم يطعم، يُخاف عليه من الفقر والكُدْيَة.

يا قوم تشبعون وجيرانكم جياع، وتدّعون أنكم مُؤْمِنُوْن...، ارحم من في الأرض حتىٰ يرحمك من في السماء(٢).

وقال أَيْضاً:

العارف خُلُقُهُ من أَخْلَاق الحق عَزَّ وجَلَّ، فهو يجتهد في تخليص العاصي من يد الشيطان والنفس والهوىٰ.

إذا رأىٰ أحدكم ولده أسيراً في يد كافر، أليس يجتهد في تخليصه؟ فهٰكَذَا العارف، الخلق جميعهم كالأولاد(٣).

---

(١) الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص٩٣، المجلس التاسع عشر، عشية الثلاثاء بالمدرسة، ١٨/ ذو القِعْدَة/ ٥٤٥هـ.

(٢) الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص٨٦، المجلس الثامن عشر، بُكْرَة الأحد بالرباط، ١٦/ ذو القَعْدَة/ ٥٤٥هـ.

(٣) الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص٢٣٢، المجلس الثالث والخمسون، عشية الثلاثاء في المدرسة، ١٧/ رَمَضَان/ ٥٤٥هـ.

وقال:

العبد إذا عرف الله عَزَّ وجَلَّ سقط الخَلْق من قلبه، وتناثروا عنه كما يتناثر الورق اليابس من الشجر[١].

٧- التواضع:

الرَّسُوْل ﷺ قال: من تواضع لله رفعه.

لذٰلِكَ قال الشَّيْخ عَبْد القَادِر:

لا تحقروا أحداً من المُسْلِمِيْن، فإن أَسْرَار الحق عَزَّ وجَلَّ مبذورة فيهم، تواضعوا في أنفسكم، ولا تتكبروا علىٰ عِبَاد الله عَزَّ وجَلَّ[٢].

٨- الأَعْمَال بالخواتيم:

هٰذَا جزء من حَدِيْث رَسُوْل الله ﷺ.

لذٰلِكَ قال الشَّيْخ عَبْد القَادِر:

يا غلام، لا تغتر بعمل، فإن الأَعْمَال بخواتمها. عليك بسؤال الحق عَزَّ وجَلَّ أن يصلح خاتمتك، ويقبضك علىٰ أحب الأَعْمَال إليه. إياك ثم إياك إذا تبت أن تنقض ثم ترجع إلىٰ المعصية[٣].

---

(١) الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص٢٥٥، المجلس السادس والخمسون، بُكْرَة الأحد في الرباط، ١٩/ رَمَضَان/ ٥٤٥هـ.

(٢) الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص٩١، المجلس التاسع عشر، عشية الثلاثاء بالمدرسة، ١٨/ ذو القِعْدَة/ ٥٤٥هـ.

(٣) الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص٨٢، المجلس السابع عشر، بُكْرَة الجمعة بالمدرسة، ١٤/ ذو القِعْدَة/ ٥٤٥هـ.

٩- النصح:

قال رَسُوْل الله ﷺ: (الدِّيْن النصيحة. قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرَسُوْله ولأَئِمَّة المُسْلِمِيْن وعامتهم) - رواه مُسْلِم.

وعن جَرِيْر بن عَبْد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (بايعتُ رَسُوْل الله علىٰ إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مُسْلِم) - مُتَّفَق عليه.

قال الشَّيْخ عَبْد القَادِر:

سُبْحَانَ من ألقىٰ في قلبي نصح الخلق، وجعله أكبر همي.

إني ناصح، ولا أُريد علىٰ ذٰلِكَ جزاء. آخرتي قد حصلت لي عند ربي عَزَّ وجَلَّ.

ما أنا طالب دنيا، ما أنا عَبْد الدنيا ولا الآخِرَة، ولا ما سوىٰ الحق عَزَّ وجَلَّ.

ما أعبد إلَّا الخَالِق الوَاحِد الأحد القديم.

فرحي بفلاحكم، وغمي لهلاككم[١].

١٠- الجِهَاد:

ذكر الشَّيْخ عَبْد القَادِر أن الله عَزَّ وجَلَّ أخبر بجِهَادَيْن: ظَاهِر وبَاطِن.

فالبَاطِن: جِهَاد النفس، والهوىٰ، والطبع، والشيطان، والتوبة عن المعاصي والزلات، والثبات عليها، وترك الشهوات المحرمات.

والظَّاهِر: جِهَاد الكفار المعاندين له ولرَسُوْله ﷺ، ومقاساة سيوفهم ورماحهم وسهامهم يَقتلون ويُقتلون.

---

(١) الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص٣٧، المجلس السادس، يوم الجمعة بالمدرسة، منتصف شَوَّال/ ٥٤٥هـ.

والجِهَاد البَاطِن أصعب من الجِهَاد الظَّاهِر، لأنه شيء ملازم متكرر... فمن امتثل أمر الله عَزَّ وجَلَّ في الجِهَادَيْن حصلت له المجازاة دنيا وآخِرَة(١).

١١- التوبة:

وتحدث الشَّيْخ عن التوبة، وبَيَّنَ معناها لُغَة، وهي الرجوع.

واصْطِلَاحاً هي الرجوع عما كان مذموماً في الشَّرْع إلىٰ ما هو مَحْمُوْد في الشَّرْع، والعلم بأن الذنوب والمعاصي مهلكات مبعدات من الله عَزَّ وجَلَّ ومن جنته، وتركها مُقَرِّب إلىٰ الله عَزَّ وجَلَّ وجنته.

وتحدث باستفاضة عن أن التوبة من سائر الذنوب واجبة بإجماع الأُمَّة، بدلالة آيات ذكرها، والتوبة من الذنوب الكبائر والصغائر وتحديدهما(٢).

وعقد الشَّيْخ فصلاً عن **شروط التوبة** وكيفيتها، فذكر أن شروطها ثلاثة:

١- الندم علىٰ ما عمل من المخالفات، وهو قول النَّبِيّ ﷺ: (الندم توبة).

وعلامة صحة الندم: رقة القلب، وغزارة الدمع، ولهٰذَا رُوِيَ عن النَّبِيّ ﷺ أنه قال: (جالسوا التَّوَّابين، فإنهم أرق أفئدة).

٢- ترك الزلات في جميع الحالات والساعات.

٣- العزم علىٰ أن لا يعود إلىٰ مثل ما اقترف من المعاصي والخَطيئات(٣).

وذكر:

---

(١) الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ ص٨٣، المجلس الثامن عشر، بُكْرَة الأحد بالرباط، ١٦/ ذو القَعْدَة/ ٥٤٥هـ.

(٢) الغُنْيَة ص١٥٩.

(٣) الغُنْيَة ص١٦٦-١٦٧.

أن المعاصي إذا كانت تتعلق بحق الله تعالىٰ، وهي بينه وبينه، لا تتعلق بمظالم العِبَاد كالزنا وشرب الخمر والملاهي ومس المصحف بغير وُضُوْء واعْتِقَاد بدعة، فتوبته عنها بالندم والتحسر والاعتذار إلىٰ الله عَزَّ وجَلَّ.

ويحسب مقدارها من حيث الكثرة، ومن حيث المدة، ويطلب لكل معصية عنها حَسَنَة تناسبها، فيأتي من الحَسَنَات بمقدار تلك السيئات، أخذاً من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ - هود: ١١٤، ومن قول النَّبِيّ ﷺ: (اتق الله حيثما كنت، وأَتْبِعِ السيئةَ الحَسَنَةَ تمحها)، فتكفير كل سيئة بحَسَنَة من جنسها بما تقارب أن تكون كَفَّارَة له دون غيره في التشبيه، فتكفير شرب الخمر بالتصدق بكل شراب حلال هو أحب إليه وأطيب عنده، وسَمَاع الملاهي بسَمَاع القُرْآن وأَحَادِيْث الرَّسُوْل ﷺ وحكايات الصَّالِحِيْن... .

وأما في حق العِبَاد فلا يخلو أن يكون في النفوس، أو في الأموال، أو الأعراض، أو القلوب...، وإن كانت المظلمة في الأموال، فليحاسب نفسه علىٰ الحبات والذرات من أول يوم جنايته إلىٰ يوم توبته، قبل أن يأتيه الموت علىٰ غفلة من غير حساب...[1].

فإذا تخلص من مظالم العِبَاد، وتفرغ لعِبَادَة الله في خاصته، سلك **طريق الوَرَع**... .

ولا يتم الورع إلّا أن يرىٰ عشرة أشياء فريضة علىٰ نفسه:

١- حفظ اللِّسَان من الغَيْبَة.

٢- الاجتناب عن سوء الظن.

٣- الاجتناب عن السخرية.

٤- غض البصر عن المحارم.

٥- صدق اللِّسَان.

(١) الغُنْيَة ص١٦٩-١٧٢.

٦- أن يعرف منّة الله عليه، لكيلا يعجب بنفسه.

٧- أن ينفق ماله في الحق، ولا يُنْفِقه في الباطل.

٨- أن لا يطلب لنفسه العلو والكبر.

٩- المحافظة علىٰ الصلوات الخمس.

١٠- الاستقامة علىٰ السُّنَّة والجَمَاعَة.

وأورد لكل أمر من هٰذِهِ العشرة آيات تدل عليه[١].

ثم ذكر الأَخْبَار والآثار الوَارِدَة في التوبة[٢].

وقال بعد ذٰلِكَ:

إنما تعرف توبة التائب في أربعة أشياء:

١- أن يملك لِسَانه من الفضول والغِيْبَة والنميمة والكذب.

٢- أن لا يرىٰ لأحد في قلبه حسداً ولا عداوة.

٣- أن يفارق إخوان السوء.

٤- أن يكون مستعداً للموت، نادماً مستغفراً لما سَلَف من ذنوبه، مجتهداً في طاعة ربه[٣].

ثم أورد الشَّيْخ عَبْد القَادِر أقاويل شُيُوْخ الطريقة في التوبة، منها:

قول أبي بَكْر الوَاسِطِيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: التوبة النصوح أن لا يبقىٰ علىٰ صاحبها أثر من

(١) الغُنْيَة ص١٧٦-١٨٢.

(٢) الغُنْيَة ص١٨٣.

(٣) الغُنْيَة ص١٨٩.

المعصية سراً ولا جهراً، ومن كانت توبته نصوحاً لا يبالي كيف أمسىٰ وأصبح[١].

هٰذِهِ التوبة التي أفاض الشَّيْخ عَبْد القَادِر الكلام فيها هي طريق الوُصُوْل إلىٰ الله تعالىٰ. قال تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ - النُّوْر: ٣١.

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ - التحريم: ٨.

والشروط الثلاثة للتوبة التي تقدمت في كلام الشَّيْخ هي التي ذكرها العُلَمَاء، مثل: القُشَيْرِيّ، والقُرْطُبِيّ، والنَّوَوِيّ، وغيرهم.

وإذا فقد شرط منها لم تَصِحّ التوبة أَصْلاً، فمثلاً:

لو ترك المعصية من غير ندم لا يكون تائباً شرعاً، وكذٰلِكَ من ندم عليها لكونها أضرت ببدنه.

وأُضيف شرط رابع هو: أن يكون ذٰلِكَ حياءً من الله تعالىٰ وخوفاً منه لا من غيره.

وهٰذَا، كما قدمنا من كلام الشَّيْخ، إذا كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالىٰ.

أما إن كانت مُتَعَلِّقَة بحق آدمي، فيشترط إضافة إلىٰ الشروط السَّابِقَة: أن يبرأ من حق صاحبها، فإن كانت مالاً رده إليه، وإن كانت حد قذف ونحوه مَكَّنَهُ منه أو طلب عفوهُ، وإن كان غِيْبَة استحلّه منها[٢].

ومن كلامه في مجلس وعظه:

يا غلام، ما دام الحبل بطرفيه في يدك، فاجمعه واتركه في كمك قبل أن يؤخذ منك.

---

(١) الغُنْيَة ص١٩١.

(٢) كتابي: العَقِيْدَة الإسْلَامِيَّة ومَذَاهِبها ص٦٢٦-٦٢٧، نَقْلًا عن الرِّسَالَة القُشَيْرِيَّة، والتَّذْكِرَة للقُرْطُبِيّ، ورياض الصَّالِحِيْن للنَّوَوِيّ، وغيرها.

عليك بالتوبة والثبات عليها، وذكر الموت وما وراءه، وقد رأيت خَيْراً دنيا وآخِرَة، يقارنك الفلاح، ولا يفارقك دنيا وآخِرَة، خالف نفسك وطبعك وهواك وشيطانك، واثبت علىٰ باب ربك عَزَّ وجَلَّ، وقد خرق لك العادة، يقيم القدرة والحكمة في خدمتك، يضع التكوين في يَدَي قلبك فتكوِّن الأشياء[١].

(١) المَنْهَج الأَحْمَد ج٣ ص٢٤٠.

الخاتمة

هٰذِهِ السِّيْرَة العطرة، والصورة المُنِيْرَة لهٰذَا الشَّيْخ الجَلِيْل عَبْد القَادِر توضح الوجه الوضاء المشرق للمُسْلِم المتصوف الصَّافِي، والقدوة التي يحتذىٰ بها في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ.

ولم أجد في آثاره العِلْمِيَّة ما يشير إلىٰ خروجه عن الكِتَاب والسُّنَّة، بل وجدت فيه عالماً فذاً، وداعيةً صالحاً، يدافع عن حمىٰ هٰذَا الدِّيْن القَوِيْم وصورته الناصعة.

وكأني أرىٰ في سيرته صورة الرعيل الأول والسَّلَف الصالح من الصَّحَابَة والتَّابِعِيْن وأتباعهم، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أجمعين.

١٦٠

الفصل الثاني

الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه

وُلِدَ سنة ١٢٦٥هـ=١٨٤٩م

وتُوُفِّيَ سنة ١٣٢٣هـ=١٩٠٥م

وفيه:

تَمْهِيْد: الأُسرة الخِدَيْوِيَّة في مِصْر.

المَبْحَث الأول: شخصية الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه.

المَبْحَث الثاني: آراء الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه.

١٦٢

تَـمْـهِـيْـد

الأُسرة الخِـدَيْـوِيَّـة في مِصْـر

بدأ حكم هٰذِهِ الأُسرة مِصْر من سنة ١٨٠٦م، حين ثَبَّتَ الباب العالي مُحَمَّد عَلِيّ باشا والياً علىٰ مِصْر.

واستمر مُحَمَّد عَلِيّ باشا ومن بعده أولاده في حكم مِصْر، إلىٰ أن تحولت مِصْر إلىٰ جُمْهُوْرِيَّة، حين خُلِعَ الملك فاروق وابنه سنة ١٩٥٢م بالثورة المِصْرِيَّة.

وفي هٰذَا التَّمْهِيْد استعرضتُ بإيجاز الذين حكموا مِصْر من هٰذِهِ الأُسرة.

وفي زمنهم ظهر الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه، وتلميذه مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا، رائدين للإصْلَاح في هٰذَا البلد علىٰ ما سنبينه في هٰذَا البَحْث.

(١)

مُحَمَّد عَلِيّ باشا بن إبْرَاهِيْم أغا بن عَلِيّ مؤسس الأُسرة الخِدَيْوِيَّة بمِصْر

ولد مُحَمَّد عَلِيّ سنة ١٧٦٩م في قَرْيَة (قواله)، الواقعة علىٰ مسافة ٣٢٠كم غرب الآستانة.

وتعلم في صغره ألعاب السَّيْف، ونبغ، فانتظم في سلك الجِهَادِيَّة، فأظهر في جباية الضرائب مهارة وبسالة، فرقي إلىٰ رتبة بلوك باشي، وتزوج امرأة لها أموال وعقار، فتعاطىٰ التجارة.

وحين عزمت الحكومة العُثْمَانِيَّة علىٰ إخْرَاج الفرنسيين من مِصْر بمُسَاعَدَة

إنجلترا، بعثت إليهم سنة ١٧٩٩م قوة، وكان مُحَمَّد عَلِيّ معاوناً لقائد الكتيبة البَحْرِيَّة المؤلفة من ثلاثمائة جُنْدِيّ ألباني (أرناؤوط).

وحين وصلت تلك القوة إلىٰ أبي قير، كانت الغلبة للفرنسيين، فعاد قائد القوة إلىٰ بلاده تاركاً رِجَاله تحت قيادة مُحَمَّد عَلِيّ.

ثم تغلب العُثْمَانِيُّوْن بمُسَاعَدَة الإنجليز، وحَملَة الصدر الأعظم، ودخلوا البلاد، وأخرجوا الفرنسيين في آب سنة ١٨٠١م، وكان مُحَمَّد عَلِيّ قد أبدىٰ من المقدرة في تلك المعارك ما ساعده علىٰ الوثوب إلىٰ القيادة العامة دفعة وَاحِدَة.

وظل مُحَمَّد عَلِيّ يراقب الأحداث المتتابعة والنزاع الشديد بين المَمَالِيْك والعُثْمَانِيِّيْن، واستغل ذٰلِكَ النزاع، حتىٰ أمسىٰ سيد البلاد الفعلي في سنة ١٨٠٥م.

فلما كانت سنة ١٨٠٦م، ثَبَّتَهُ البابُ العالي والياً علىٰ مِصْر.

ثم قضىٰ علىٰ المَمَالِيْك بعد فترة، فاستتب له الأمر، فأنشأ جيشاً قَوِيّاً، وبنىٰ أُسطولاً، وساعد السُّلْطَان ليستَرْضِيه في إخماد ثورة اليُوْنَان والقَضَاء علىٰ حَرَكَة الوَهَّابِيِّيْن في الحِجَاز، وفتح السُّوْدَان أملاً في الحصول علىٰ الذَّهَب وغيره، ثم أعلن الحَرْب علىٰ السُّلْطَان، فاستولىٰ علىٰ سُوْرِيَا كلها بجيش مِصْرِيّ بقيادة ابنه إبْرَاهِيْم باشا سنة ١٨٣٢م، ودخل آسيا الصُّغْرَىٰ منتصراً، ففتح له طريق إسطنبول، فأوعز مُحَمَّد عَلِيّ إلىٰ ابنه أن يوقف الحَرْب خشية تدخل الأجانب.

وأرسل السُّلْطَان حَملَة كَبِيْرَة لإخْرَاج المِصْرِيِّيْن من سُوْرِيّا، لٰكِن المِصْرِيِّيْن انتصروا ولم يبقَ أمامهم مايمنع من مهاجمة إسطنبول.

فتدخلت الدول الأُوربية، وطلبت من مُحَمَّد عَلِيّ أن يسحب جيشه من سُوْرِيّا، ويكتفي بحكم مِصْر وحدها، فأذعن مُحَمَّد عَلِيّ، وانتهت المشكلة سنة ١٨٤١م بشرط أن تظل مِصْر تابعة لحكمه ولذريته من بعده، وأن يدفع للسُّلْطَان ضريبة سنوية، وأن يكون للسُّلْطَان الحق المطلق أن يختار من عائلة مُحَمَّد عَلِيّ من يريد لتوليته.

وقام مُحَمَّد عَلِيّ بإِصْلَاحات كثيرة، منها: تنظيمه العَسْكَرِيّ علىٰ النظام الأُوربي، وتنظيمه الإداري، فأنشأ الدواوين ومجالس القَضَاء، وأقام المشاريع الزراعية والصِّنَاعِيَّة ونشط التجارة، وفتح المدارس وكُلِّيَّة الطب والهَنْدَسَة والزراعة وغيرها، وأرسل البعثات إلىٰ أُوربا، وأسس مَطْبَعَة بُوْلَاق.

وتوفي في ٢/ آب/ ١٨٤٩م في الإِسْكَنْدَرِيَّة، ونقلت جثته إلىٰ القَاهِرَة، ودفنت في جَامِعه بالقلعة(١).

(٢)
إِبْرَاهِيْم باشا بن مُحَمَّد عَلِيّ باشا

ولد في (قواله) سنة ١٢٠٤هـ=١٧٩٠م، ومال إلىٰ الأَعْمَال الحَرْبِيَّة، فكان أَخِيْراً سَاعِدَ أبيه الأول في حروبه. وحين توعك مزاج أبيه مُحَمَّد عَلِيّ في منتصف سنة ١٨٤٨م، وازدادت فيه ظواهر الخرف لم يعد بد من تولية ابنه إِبْرَاهِيْم، فتوجه إِبْرَاهِيْم إلىٰ الآستانة في آب لتثبيته علىٰ وِلَايَة مِصْر خلفاً لأبيه، فثبته السُّلْطَان بنفسه، فعاد لمعاطاة الأَحْكَام، وظل إلىٰ أن مات في ١٠/ تشرين الثاني/ ١٨٤٨م = ١٢٦٥هـ. ودفن في مدفن العائلة الخِدَيْوِيَّة بجوار الإِمَام الشَّافِعِيّ بالقَاهِرَة. وقد دام حكمه ١١ شهراً، وتوفي قبل والده.

وكان صارم المُعَامَلَة، في حين أن أباه كان لين العريكة، ذا دهاء وحكمة(٢).

---

(١) تَارِيْخ مِصْر الحَدِيْث من الفَتْح الإِسْلَامِيّ إلىٰ الآن: جرجي زَيْدَان ج٢ ص١٤٧-١٩٧. وتَرَاجُم مَشَاهِيْر الشرق في القرن التاسع عشر: جرجي زَيْدَان ج١ ص١٩، وفيه الكلام عن أفراد الأُسرة الخِدَيْوِيَّة الحَاكِمة كتَارِيْخ مِصْر المشار إليه. وتَارِيْخ الشعوب الإِسْلَامِيَّة: كارل بروكلمان ص٥٤٢ وما بعدها. والأَعْلَام للزِّرِكْلِيّ ج٦ ص٢٩٨. وأَعْيَان القرن الثالث عشر لخَلِيْل مَرْدَم بك ص١١٥.

(٢) تَارِيْخ مِصْر الحَدِيْث: جرجي زَيْدَان ج٢ ص١٧٣و١٩٨. والأَعْلَام ج١ ص٧٠. ودائرة المَعَارِف الإِسْلَامِيَّة ج١ ص١٥٧. وأَعْيَان القرن الثالث عشر ص١٢٠.

(٣)

عَبَّاس باشا بن طوسون باشا بن مُحَمَّد عَلِيّ باشا

ولد في جدة سنة ١٢٢٨هـ=١٨١٣م، ونشأ بِمِصْر، وشَهِدَ أكثر الوقائع، ورافق عمه إبْرَاهِيْم إلىٰ الشَّام.

وحين مات إبْرَاهِيْم كان عَبَّاس في مَكَّة، فوصل القَاهِرَة بعد قضائه فروض الحج، ولم تعترض الآستانة علىٰ توليته، فتولىٰ سنة ١٢٦٥هـ.

وله أَعْمَال مَجِيْدَة، منها: نجدة الدولة العُثْمَانِيَّة ضد الروس، وإنشاء خط حديدي بين مِصْر والإسْكَنْدَرِيَّة.

كان شديد الكره للأُوربيين.

قتل في شَوَّال سنة ١٢٧٠هـ=١٨٥٤م، في بَنْهَا، ودفن في مدفن العائلة الخِدَيْوِيَّة بالقَاهِرَة[١].

(٤)

سَعِيْد باشا بن مُحَمَّد عَلِيّ باشا

ولد سنة ١٢٣٧هـ=١٨٢٢م، في الإسْكَنْدَرِيَّة، وكان محباً للعلم.

تولىٰ الحكم سنة ١٢٧٠هـ، وكان مُؤْثِراً للعَدْل والفضيلة، مهتماً بالإصْلَاح الإداري وعدل الضرائب.

توفي في الإسْكَنْدَرِيَّة في ٢٦/ رَجَب/ ١٢٧٩هـ = ١٨٦٣م، ودفن فيها[٢].

---

(١) تَارِيْخ مِصْر الحَدِيْث: جرجي زَيْدَان ج٢ ص١٧٤و١٩٩. والإعْلَام ج٣ ص٢٦١.

(٢) تَارِيْخ مِصْر الحَدِيْث: جرجي زَيْدَان ج٢ ص٢٠٠. وأَعْيَان القرن الثالث عشر ص١٢٣.

(٥)
إِسْمَاعِيْل باشا بن إِبْرَاهِيْم باشا بن مُحَمَّد عَلِيّ

ولد سنة ١٨٣٠م، ولما بلغ السادسة عشرة من عُمْره بعثه جده وولديه إلىٰ باريس، تلقوا بها العُلُوْم العَالِيَة: اللُّغَة الفرنسية والطبيعيات والرِّيَاضيات والهَنْدَسَة... .

وتولىٰ الحكم سنة ١٨٦٣م بعد وفاة سَعِيْد باشا.

وكانت وِلَايَة مِصْر تنتقل في الأُسرة الخِدَيْوِيَّة إلىٰ من يختاره السُّلْطَان الأعظم بقطع النَّظَر عن علاقته بالوالي السَّابِق. وكان ولاة مِصْر يلقبون بالعَزِيْز أو الوالي أو الباشا، وإذا لقبوا بالخِدَيْوِي فإنما يكون ذٰلِكَ علىٰ سَبِيْل التجمل والتفخيم، والخِدَيْوِي لقب فَارِسِيّ قديم، معناه الحَاكِم أو السَّيِّد.

أما إِسْمَاعِيْل باشا فهو أول من نال رتبة الخِدَيْوِيَّة، ولقب بالخِدَيْوِي، فأصبحت مِصْر إرثاً صَحِيْحاً في نسله، ينتقل منه إلىٰ أكبر أولاده، ومنه إلىٰ أكبر أولاده، وهٰكَذَا علىٰ التعاقب، وذٰلِكَ بالفرمان الصادر سنة ١٢٩٠هـ=١٨٧٣م.

ويختلف إِسْمَاعِيْل باشا عن غيره من الولاة، أنه حبب سكنىٰ الديار المِصْرِيَّة إلىٰ الأجانب، من جالية أُوربا وأمريكا وغيرهما، بما مهده من وَسَائِل الراحة مع تأييد مشاريعهم، فجاؤوا أفواجاً.

وكان شديد الشغف بتنظيم المدن، وبناء القصور الباذخة في القَاهِرَة والإِسْكَنْدَرِيَّة، وأنشأ المتحف المِصْرِيّ في بُوْلَاق، والمَكْتَبَة الخِدَيْوِيَّة، وأسس مجلس النواب، ونظم مجالس القَضَاء، ونشط المطبوعات، وصدرت الجرائد العديدة بعد أن كانت وَاحِدَة... إلخ.

وفي سنة ١٨٦٩، احتفل بافتتاح قناة السُّوَيْس التي بوشر بحفرها في عهد سَعِيْد باشا، فحضره ملوك أُوربا، وأُعجبوا بالزِّيْنَة التي تقاصرت عنها همة العظماء.

وفي زمنه تأسست المحافل الماسونية المِصْرِيَّة، وبحمايته تعزز شأن الجمعية الماسونية في مِصْر، وانتشرت مبادئها، حتىٰ انتظم في سلكها نجله الخِدَيْوِي توفيق وجَمَاعَة من أُمَرَاء البلاد ووجهائها.

وفي زمنه حدثت الثورة الفكرية التي قادها جمال الدِّيْن الأَفْغَانِيّ.

إسْمَاعِيْل باشا والديون المِصْرِيَّة:

أول من وضع جرثومة الدَّيْن المِصْرِيّ سَعِيْد باشا سنة ١٨٦٢م، وقدره (٣,٢٩٢,٨٠٠) جنيه بفائدة ٧٪.

وحين تولىٰ إسْمَاعِيْل في العام الذي يليه، أخذ في البذل والإنفاق في التشييد وغيره، حتىٰ زادت النفقات علىٰ الدخل، فبلغت ديون مِصْر زهاء مئة مليون جنيه، فأصبحت حملاً ثقيلاً علىٰ الخَزِيْنَة المِصْرِيَّة وعلىٰ أهالي البلاد، لأنه كان يضرب الضرائب الفادحة، ليفي فائدة تلك الديون، ويستخدم العنف في تَحْصِيْلها من الأهالي.

فآل الأمر إلىٰ تدخل الدول الأجنبية، للمحافظة علىٰ أموال رعاياها أصحاب الديون، فأُلِّفَت لجنة دولية مشتركة سموها صندوق الدَّيْن العمومي، صدر الأمر العالي بتشكيله سنة ١٨٧٦م، وورد في ذٰلِكَ الأمر: أن هٰذَا الصندوق قد أُنْشِئَ لتأمين أرباب الديون علىٰ ديونهم، واستلام ما يستحق لهم من الفَوَائِد وغيرها، وأن الحكومة لا يجوز لها تجديد قرض إلَّا بالاتفاق مع صندوق الدَّيْن.

وكانت أَعْمَال الحكومة المِصْرِيَّة تجري بمُقْتَضَىٰ إرادة الخِدَيْوِي رأساً، ولٰكِن بعد مداخلة الأجانب بأحوال المالية، لم ير إسْمَاعِيْل بُداً من جعل حكومة شورية، فشكل مجلس النظار (مجلس الوزراء) علىٰ ما هو عليه برئاسة الأَرْمَني نوبار باشا، وصَادَقَ علىٰ تعيين ناظرين: أحدهما: إنجليزي، وهو المستر ولسن للمالية، والآخر: فرنسي، وهو المسيو بلينير للأشغال العمومية.

فرأىٰ مجلس النظار أن يقتصد شَيْئاً من نفقات الجند بفصل قسم منهم، ففشل، فاستقال نوبار تخلصاً من التبعة، فشكل الخِدَيْوِي مجلساً آخر برئاسة ابنه توفيق باشا، ولٰكِن لم يقلل ذٰلِكَ من القلاقل، لأن إسْمَاعِيْل استعظم أن يكون في مجلسه ناظران أجنبَيَان، فقلب هيئة ذٰلِكَ المجلس سنة ١٨٧٩م، وأخرج النَّاظِرين الأجنبيين، وعهد برئاسة المجلس إلىٰ شَرِيْف باشا، فعظم ذٰلِكَ علىٰ إنجلترا وفرنسا، لاعتبارهما ذٰلِكَ إهانة لهما، فسعوا إلىٰ الباب العالي سراً وجهراً.

وفي ٢٦/ حزيران/ ١٨٧٩م، صدر الأمر الشَّاهاني بإقالته وتولية ابنه توفيق باشا.

وفي ٣٠ منه، سافر إسْمَاعِيْل من القَاهِرَة إلىٰ الإسْكَنْدَرِيَّة، ومنها إلىٰ أُوربا، حتىٰ أفضت به الحال إلىٰ الإقامة في الآستانة، إلىٰ أن توفاه الله فيها في ٦/ آذار/ ١٨٩٥م، فحملت جثته إلىٰ مِصْر، ودفنت فيها[1].

(٦)
مُحَمَّد توفيق باشا الخِدَيْوِي

ولد سنة ١٢٦٩هـ=١٨٥٢م، وكان ميالاً للعلم، فأحرز منه جانباً أَهَّلَهُ لرئاسة المجلس الخصوصي في حياة والده، وعُمْره تسع عشرة سنة. ثم تقلد نظارة الداخلية، ونظارة الأشغال العمومية، ورئاسة مجلس النظار.

وتسلم زمام الحكم في ٢٦/ حزيران/ ١٨٧٩م = ١٢٩٦هـ، وجاءه التلغراف من الصدر الأعظم يؤذن بذٰلِكَ.

وحين عزم علىٰ تشكيل الوزارة كان قد وافق علىٰ تعيين المفتشين الماليين لمُرَاقَبَة مالية مِصْر، وهما: اللورد كرومر عن إنجلترا، والمسيو بلينيار عن فرنسا. وأصدرت

(١) تَارِيْخ مِصْر الحَدِيْث: جرجي زَيْدَان ج٢ ص٢٠٢-٢٢٧. والأَعْلَام ج١ ص٣٠٨. وتَارِيْخ الشعوب الإسْلَامِيَّة: بروكلمان ص٥٧٧.

الحكومة أمراً بتحديد سيادة هٰذَيْنِ المفتشين، فجعلت لهما حق الحضور في مجلس النظار، علىٰ أن يكون لهما رأي استشاري.

وبعد بضعة أشهر استقرت أحوال الحكومة، وتقررت العلائق بين مِصْر والسُّلْطَان، وبينها وبين المراقبين أو المفتشين الماليين.

وكانت من جُمْلَة العراقيل الأزمة المالية، فتعينت لتَصْفِيَة الديون لجنة في ٥/ نيسان/ ١٨٨٠م من خمسة أعضاء أُوربيين وعضو مِصْرِيّ وهو بطرس باشا غالي، لينوب عن الحكومة المِصْرِيَّة، ووضعت قَانُوْناً صَادَقَ عليه الخِدَيْوِي في ١١/ تموز من تلك السنة. وبذلت الحكومة جهدها في أثناء ذٰلِكَ لتخفيف أثقال الأهلين وفي نشر الأمن، فأصدرت أمراً بإلغاء الضرائب.

ثم داهمتها الثورة العَسْكَرِيَّة العُرَابِيَّة، وكان قائدها أَحْمَد عُرَابِي باشا قد طالب الخِدَيْوِي في مُظَاهَرَة ساحة عَابِدِيْن بأُمُور، هي: إسقاط الوزارة، وتشكيل مجلس نواب، وزِيَادَة عدد الجيش، والتَّصْدِيْق علىٰ قَانُوْن العَسْكَرِيَّة الجديد، وعزل شَيْخ الإِسْلَام الشَّيْخ العَبَّاسِيّ.

وبعد استفحال الثورة ازدادت مشاكل الخِدَيْوِي والمراقبين، ثم كانت حادثة الإِسْكَنْدَرِيَّة التي اصطدم فيها الأهالي بالأجانب، واعتدوا عليهم، فاستولىٰ القلق والاضطراب علىٰ سكان القطر، وكثرت الإشاعات، ونزع الأجانب إلىٰ الجلاء، فأصبحت الإِسْكَنْدَرِيَّة ملجأ الوافدين، للاحتماء بجوار الأُسطولين الإنجليزي والفرنسي.

وتتابعت الأحداث، حتىٰ انتهت أَخِيْراً بقصف الإنجليز حصون الإِسْكَنْدَرِيَّة في صباح ٢٢/ شَعْبَان/ ١٢٩٩هـ = ١٨٨٢م، وتلاها أَخِيْراً الاحتلال الإنجليزي لمِصْر، ومطاردة العُرَابِيِّيْن الذين كانوا يرون أن الخِدَيْوِي متفق مع الإنجليز علىٰ إضاعة البلاد.

ثم أصدر الخِدَيْوِي أمراً بإلغاء الجيش المِصْرِيّ، وتنظيم جند جديد، وبمحاكمة كبار الضباط والقادة، فحكم علىٰ: أَحْمَد عُرَابِي، وعَبْد العال حلمي، ومَحْمُوْد سَامِي، بالقصاص، إلَّا أنه بدل إلىٰ النفي المؤبد، فنفوا إلىٰ جَزِيْرَة سيلان، وما زالوا فيها إلىٰ سنة ١٩٠١م، حيث أذن الخِدَيْوِي لهم بالعَوْدَة إلىٰ مِصْر، بعد توسط ولي عهد إنجلترا الذي زار سيلان ورأىٰ حال المنفيين فيها.

وكافأ الخِدَيْوِي سُلْطَان باشا بعشرة آلاف جنيه علىٰ صداقته التي أبداها أثناء الثورة.

ولم تفرغ مِصْر من الثورة العُرَابِيَّة حتىٰ ظهرت الثورة السُّوْدَانِيَّة المهدوية بظهور مُحَمَّد أَحْمَد المَهْدِيّ السُّوْدَانِيّ، ومن بعده عَبْد الله التعايشي. فقضىٰ الإنجليز عليها في ٢٤/ نوفمبر، تشرين الثاني/ ١٨٩٩م، حين قتل التعايشي وخلفاؤه.

وصارت السُّوْدَان تحت سَيْطَرَة الدولتين الإنجليزية والمِصْرِيَّة.

ومن الإصْلَاحات التي حدثت أيام توفيق باشا، صدور أمره سنة ١٨٨٣م بتشكيل:

١. مجالس المديريات، مجلس في كل مديرية، يكون لها أن تقرر رسوماً فوق العادة، لصرفها في مَنَافِع عمومية تتعلق بالمديرية، ولا تكون قراراتها قطعية في هٰذَا الشأن إلَّا بعد تَصْدِيْق الحكومة عليها.

٢. مجلس شُوْرَىٰ القوانين، للنَّظَر في القوانين التي تسن حَدِيْثاً قبل نشرها، ولا يجوز إصدار قَانُوْن أو أمر يشتمل علىٰ لائحة إدارة عمومية ما لم يتقدم ابتداءً إلىٰ هٰذَا المجلس لأخذ رأيه فيه.

٣. الجمعية العمومية، فلا يجوز ربط أموال جديدة أو رسوم علىٰ مَنْقُوْلات أو عقارات أو عوائد شخصية في مِصْر، إلَّا بعد مباحثة الجمعية وإقرارها.

٤. مجلس شُوْرَىٰ الحكومة، وقد صدر الأمر بتشكيله، لٰكِن تأجل بَيَان أَعْمَاله.

ومن شكل الوزارة في زمنه: نوبار باشا، ورياض باشا، ومُصْطَفَىٰ باشا فهمي.

وتوفي الخِدَيْوِي توفيق سنة ١٣٠٩هـ=١٨٩٢م[1].

(٧)

عباش باشا حلمي

ولد سنة ١٨٧٤م، وهو بِكْر الخِدَيْوِي السَّابِق، وحين توفي والده كان في مدرسته بڤِيَنَّا، فأصبح خِدَيْوِياً، وجاءته رِسَالَة الصدر الأعظم بتثبيته علىٰ العرش.

واشتهر بانعطاف المِصْرِيِّيْن حوله، وامتاز عَصْره باتساع نطاق الحَرَكَة العِلْمِيَّة، ففتحت مدرسة القَضَاء الشَّرْعِيّ، والجَامِعَة المِصْرِيَّة، وبذلت العِنَايَة بتَحْسِيْن حالة الأَزْهَر والأوقاف، وأُطلقت حرية الصحافة والمطبوعات، وأُنشئت الجمعيات الأدبية والعِلْمِيَّة والخَيْرِيَّة، واتسعت النهضة المالية، فأثرىٰ الناس، وتكاثرت الأبنية الفخمة، وجنح الناس إلىٰ الحكم الدُّسْتُوْرِيّ، وارتفع صوت المُطَالَبَة بالدُّسْتُوْر وتوسيع اختصاص مجلس الشُّوْرَىٰ.

وكل ما أجرته حكومة مِصْر علىٰ عهد الخِدَيْوِي إنما جرىٰ علىٰ أيدي وزرائه، شأن الحكومات الدُّسْتُوْرِيَّة الكُبْرَىٰ، مع ما تقتضيه حالة مِصْر السياسية من قبول مشورة المحتلين بلِسَان عميدهم.

وكان العميد في أول حكمه اللورد كرومر الذي ظل في منصبه إلىٰ ٦/ مايس/ ١٩٠٧م، فغَيَّرَتْهُ إنجلترا، وجاءت بالسير الدون غوست.

---

(١) تَارِيْخ مِصْر الحَدِيْث ج٢ ص٢٢٨-٢٣١.

وانظر: تَارِيْخ الشعوب الإِسْلَامِيَّة ص٥٩٠-٥٩٢ وص٦٤١-٦٤٩. والأَعْلَام ج٦ ص٦٥.

وفي زمن اللورد كرومر تمكن نفوذ الإنجليز في مِصْر، وكثر نوابهم في الحكومة المِصْرِيَّة، وهم المستشارون، ولا تخلو نظارة من مستشار أو وَكِيْل فضلاً عن المفتشين والمُهَنْدِسِيْن والقُضَاة ورؤساء المصالح ومديريها وغيرهم.

فأَعْمَال الحكومة المِصْرِيَّة يجريها الوزراء باسم الجناب الخِدَيْوِي وبمُصَادَقَة سموه ومشورة الإنجليز[١].

واستمر في الحكم إلىٰ أن قصد أُوربه فالآستانة مصطافاً سنة ١٩١٤م، ونشبت الحَرْب العالمية الأُوْلَـىٰ وهو في الآستانة، فتأخرت عودته، فاتخذت بريطانيا تأخره وسيلة لخلعه، وبسطت حمايتها علىٰ مِصْر، وأقامت عمه الأَمِيْر حُسَيْن كَامِل سنة ١٣٣٣هـ=١٩١٤م، واستقر عَبَّاس في لوزان بسويسرا، إلىٰ أن ولي أَحْمَد فؤاد سنة ١٩١٧م، فاتَّصَلت بينهما الرسل، ونزل له عَبَّاس سنة ١٩٣١م عما كان له من حق في العرش، وقضىٰ بقية حياته مغترباً، وتوفي بسويسرا، ودفن بالقَاهِرَة، وذٰلِكَ في سنة ١٩٤٤م.

وكان فيه دهاء ينقصه الكتمان والحزم[٢].

(٨)

حُسَيْن كَامِل بن الخِدَيْوِي إسْمَاعِيْل

ولد سنة ١٢٧٠هـ=١٨٥٣م بالقَاهِرَة، وهو أول من ولي السَّلْطَنَة بمِصْر، به تحولت الخِدَيْوِيَّة المِصْرِيَّة إلىٰ سَلْطَنَة.

توفي سنة ١٣٣٦هـ=١٩١٧م، ولم يقم بعمل كَبِيْر في مدة سلطنته[٣].

---

(١) تَارِيْخ مِصْر الحَدِيْث ج٢ ص٣٣٢.

(٢) الأَعْلَام ج٣ ص٢٦٠. وتَارِيْخ الشعوب الإسْلَامِيَّة ص٧١٥ وما بعدها.

(٣) الأَعْلَام ج٢ ص٢٥٢.

(٩)
الملك فؤاد الأول

هو أَحْمَد فؤاد الأول ابن الخِدَيْوِي إِسْمَاعِيْل بن إِبْرَاهِيْم بن مُحَمَّد عَلِيّ باشا الكَبِيْر.

ولد سنة ١٢٨٤هـ=١٨٦٩م بالقَاهِرَة، وتعلم بها، ثم بجنيف بسويسرا، ثم في المدرسة الحَرْبِيَّة بتورينو بإيطاليا، وأُلحق بالبلاط الملكي بروما. ورحل إلىٰ الآستانة، فعين «ياوراً» فخرياً للسُّلْطَان عَبْد الحَمِيْد، فملحقاً حَرْبِيّاً للسفارة العُثْمَانِيَّة بعَاصِمَة النمسا.

وعاد إلىٰ مِصْر سنة ١٨٩٢م، فعُيِّنَ ياوراً للخِدَيْوِي عَبَّاس الثاني، واستمر ثلاثة أعوام، إلىٰ أن دُعِيَ لتولي سَلْطَنَة مِصْر سنة ١٣٣٥هـ=١٩١٧م بعد وفاة أخيه السُّلْطَان حُسَيْن كَامِل، والحماية البريطانية مضروبة علىٰ مِصْر.

وفي أيامه قامت مِصْر بحركتها الوطنية سنة ١٩١٨م بقيادة سَعْد زَغْلُوْل، فرُفِعَت الحماية سنة ١٩٢٢م، ووضع دُسْتُوْر للبلاد، وقَانُوْن لتَوَارُث العرش، وقَانُوْن لأُمَرَاء الأُسرة الحَاكِمة. وتَحَوَّل لقبه من سُلْطَان إلىٰ ملك.

وفي أيامه أُنْشِئَ مَجْمَع اللُّغَة العَرَبِيَّة بمِصْر.

وتوفي سنة ١٣٥٥هـ=١٩٣٦م[١].

(١٠)
الملك فاروق، وابنه: أَحْمَد فؤاد الثاني

ولد فاروق ابن الملك فؤاد الأول في ١١/ شباط/ ١٩٢٠م، وكان يدرس في

(١) الأَعْلَام ج١ ص١٩٦.

وانظر: تَارِيْخ الشعوب الإسْلَامِيَّة ص٧٢٢ وما بعدها.

الكُلِّيَّة الحَرْبِيَّة ببريطانيا، وتولىٰ شؤون البلاد خلال السنة الأَخِيْرَة التي سبقت بُلُوْغه سن الرشد مجلس وصاية، حتىٰ إذا انتهىٰ شهر تموز ١٩٣٧م تولىٰ الملك فاروق سلطاته الدُّسْتُوْرِيَّة[١].

وأرغمته ثورة مِصْر سنة ١٩٥٢م علىٰ خلع نفسه، فنزل عن العرش لابنه الطفل أَحْمَد فؤاد الثاني، الذي ما لبث أن خُلِعَ، بتحويل مِصْر إلىٰ جُمْهُوْرِيَّة.

وأقام فاروق في روما عَاصِمَة إيطاليا، يزور أَحيَاناً سويسرا وفرنسا، حتىٰ توفي سنة ١٩٦٥م[٢].

(١) تَارِيْخ الشعوب الإِسْلَامِيَّة ص٧٣٨.

(٢) الأَعْلَام ج٥ ص١٢٨.

١٧٦

المَبْحَث الأول
شخصية الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه

اسمه، ومولده، وأُسرته:

هو مُحَمَّد بن عَبْدُه[١] بن حسن خير الله، من قَرْيَة (مَحَلَّة نصر) بمركز (شبراخيت) من مديرية (البَحِيْرَة).

كان والده (عَبْدُه) شهماً شُجَاعاً محترماً، ومن عوامل ذٰلِكَ الاحترام: الوقار في الحَرَكَات والأَعْمَال والهيئة، ومُبَالغَة أهل بلدته في توقيره، وإيواؤه الغَرِيْب، وإقراؤه الضيف، وافتخاره بإكْرَام النزيل.

أما والدته (جنينة) فكانت منزلتها بين نساء القَرْيَة لا تنزل عن مكانة زوجها، ترحم المساكين، وتعطف علىٰ الفُقَرَاء، وتعد ذٰلِكَ مجداً وطاعة لله وحمداً.

واشتهر والده بالفتوة، والبراعة في الصيد بالسلاح، فأحبه القوم.

وتسلل أهل قَرْيَة (مَحَلَّة نصر) ليقيموا في جوار أهله، ويتخلصوا من الظلم، فأحس ذٰلِكَ الشقي بانتقاص مَنَافِعه، فشكا (عَبْدُه) ومن معه إلىٰ مدير البَحِيْرَة، بحُجَّة أن هٰؤُلَاءِ عُدُّوا مأوى لمن فروا من قريته بأسلحتهم المحظور حملها، فحبس (عَبْدُه) ومن معه في محافظة (البَحِيْرَة) إلىٰ أن يصدر الأمر بشأنهم، لٰكِن مات عَبَّاس باشا، فأُفرج عنهم وعن غيرهم.

---

(١) بإضافة (عبد) إلىٰ (الهاء)، أي: عَبْدُه تعالىٰ.

مُحَمَّد عَبْدُه للعقاد ص٨٢.

فعاد (عَبْدُه) إلىٰ مسقط رأسه في أول وِلَايَة سَعِيْد باشا، ولم يجد إلَّا جدران بيته المهدمة، بعد أن أقام في القَرْيَة نحو خمس عشرة سنة، تعرف فيها علىٰ إبْرَاهِيْم عُثْمَان، كَبِيْر بلدة تسمىٰ (حصة شبشير) بمركز طنطا، فتزوج ابنته، وأخذها إلىٰ شنرا. وفيها ولد (مُحَمَّد عَبْدُه) في أواخر سنة خمس وستين بعد المائتين والألف من الهِجْرَة سنة ١٢٦٥هـ=١٨٤٩م[١].

طلبه العلم:

نشأ مُحَمَّد عَبْدُه في (مَحَلَّة نصر) من غير خلاف، والنشأة في القرىٰ البعيدة أعون علىٰ خلوص النَّظَر من تصنع البلاد المتحضرة[٢].

وبعد أن جاوز العاشرة من عُمْره تعلم القِرَاءَة والكتابة في منزل والده، ثم حفظ القُرْآن علىٰ يد حافظ في سنتين.

وفي سنة ١٢٧٩هـ=١٨٦٢م، ذهب إلىٰ (طنطا) لتجويد القُرْآن في المسجد

(١) هٰذِهِ المَعْلُوْمَات مما كتبه الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه نفسه.
تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام للشَّيْخ مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج١ ص١٣-١٦.
وهي في: الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، الفصل الأول: أهلي، ج٢ ص٣٢١ وما بعدها.
وانظر ما كتبه تلميذه الشَّيْخ مُصْطَفَىٰ عَبْد الرازق عنه في مَقَالَة الأُسْتَاذ الإمَام، مُقَدِّمَة (دروس من القُرْآن الكَرِيْم) للشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه - كتاب الهِلَال ص٢٠.
(شنرا): هٰكَذَا وردت في تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص١٦ بموضعين.
ووردت (شترة) في مقال الشَّيْخ مُصْطَفَىٰ عَبْد الرازق.
ووردت (شتراء) في فصل (سيرتي) الذي كتبه الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه، الوارد في: تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص١٥. وفي: الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه ج٢ ص٣٢٣و٣٢٤.
(٢) الأُسْتَاذ الإمَام: مُصْطَفَىٰ عَبْد الرازق ص٢١.

الأَحْمَدِيّ، حيث هناك أخوه لأُمِّهِ الشَّيْخ مُجَاهِد.

وفي سنة ١٢٨١هـ=١٨٦٤م، بدأ بتلقي شرح الكَفْرَاوِيّ علىٰ الآجُرُّوْمِيَّة في النَّحْو في المسجد الأَحْمَدِيّ، وقضىٰ سنة ونصف السنة لا يفهم من تلك الاصْطِلَاحَات شَيْئاً لرداءة طريقة التَّعْلِيْم، فيئس وهرب من الدرس، وأَخِيْراً رجع إلىٰ (مَحَلَّة نصر) علىٰ نية أَلَّا يعود إلىٰ طلب العلم.

وتزوج سنة ١٢٨٢هـ=١٨٦٥م علىٰ هٰذِهِ النية، لٰكِن والده ألزمه بعد زواجه بأَرْبَعِيْن يوماً بالذهاب إلىٰ (طنطا) لطلب العلم، فلم ينفع معه الاحتجاج أو التمنُّع، فأصحبه والده بأحد أقاربه، ليشيعه إلىٰ محطة القطار، ليركبه إلىٰ (طنطا)، في يوم عاصف شديد الحر، فحاول مُحَمَّد التعريج علىٰ قَرْيَة ينتظر فيها أن يخف الحر، فأبىٰ عليه مصاحبه، فتركه مُحَمَّد هارباً من مشادته، وذهب إلىٰ (كُنَيِّسَة أورين)، ففرح به شبانها - الذين كان غالبهم من خؤولة أبيه - لأنه كان معروفاً بالفروسية واللعب بالسلاح، فأدركه صاحبه، وأراده علىٰ السفر، فلم يفلح.

لقاؤه بالشَّيْخ دَرْوِيْش:

وبقي في القَرْيَة خمسة عشر يوماً، تحولت فيها حالته بعد لقائه بالشَّيْخ دَرْوِيْش خضر أحد أخوال أبيه[1].

جاء الشَّيْخ دَرْوِيْش في صباح يومه الأول، وسأله أن يقرأ له شَيْئاً من رَسَائِل التَّصَوُّف في آداب النفس وتَرْوِيضها علىٰ مكارم الأَخْلَاق وتزهيدها في الباطل، وذٰلِكَ

---

(١) الشَّيْخ دَرْوِيْش ممن سافر إلىٰ صحراء ليبيا وطَرَابُلُس الغرب، وجلس إلىٰ السَّيِّد مُحَمَّد المَدَنِيّ والد الشَّيْخ ظافر المشهور، وتعلم عنده شَيْئاً من العلم، وأخذ عنه الطريقة الشَّاذِلِيَّة، وكان يحفظ المُوَطَّأ وبعض كتب الحَدِيْث، ويجيد حفظ القُرْآن وفهمه، ثم رجع من أسفاره إلىٰ قريته (كُنَيِّسَة أورين)، واشتغل بالزراعة.

تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمام ج١ ص٢١-٢٢.

لضعف بصره، فلعن القِرَاءَة، ودفع طلبه بشدة، فابتسم الشَّيْخ، ولم يزل به حتىٰ أخذ الكتاب، وقرأ منه بضعة أسطر، فاندفع يفسر له معاني ما قرأ بعبارة واضحة، تغالب إعراضه فتغلبه وتسبقه إلىٰ نفسه، وبعدها انصرف إلىٰ اللعب.

لٰكِن الشَّيْخ دَرْوِيْشاً أَلَحَّ عليه في القِرَاءَة في اليوم الثاني، وانصرف بعدها أَيْضاً إلىٰ اللعب.

أما اليوم الثالث، فقد بقي يقرأ له فيه، والشَّيْخ يشرح معاني ما قرأ نحو ثلاث ساعات، لم يمل فيها، ثم ذهب الشَّيْخ دَرْوِيْش إلىٰ المَزْرَعَة، فطلب مُحَمَّد عَبْدُه إبْقَاء الكتاب معه فتركه، قال: (ومضيتُ أقرؤه، وكلما مررتُ بعبارة لم أفهمها وضعتُ عليها علامة لأسأله عنها، إلىٰ أن جاء وقت الظهر، وعصيت في ذٰلِكَ اليوم كل رغبة في اللعب، وهوى ينازعني إلىٰ البطالة.

وعَصْر ذٰلِكَ اليوم سألته عما لم أفهمه فأَبَان معناه علىٰ عادته، وظهر عليه الفرح بما تجدد عندي من الرغبة في المُطَالَعَة والميل إلىٰ الفهم.

لم يأتِ عَلَيَّ اليوم الخامس إلَّا وقد صار أبغض شيء إلَيَّ ما كنت أُحبه من لعب ولهو، وفخفخة وزهو، وعاد أحب شيء إلَيَّ ما كنت أُبغضه من مُطَالَعَة وفهم.

وفي اليوم السابع، سألت الشَّيْخ: ما هي طريقتكم؟ فقال: طريقتنا الإِسْلَام.

فقلت: أَوَ ليس كل هٰؤُلَاءِ الناس بمُسْلِمِيْن؟ قال: لو كانوا مُسْلِمِيْن لما رأيتهم يتنازعون علىٰ التافه من الأمر، ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير سبب.

هٰذِهِ الكلمات كانت كأنها نار أحرقت جميع ما كان عندي من المتاع القديم، متاع تلك الدعاوىٰ الباطلة والمزاعم الفاسدة، متاع الغرور بأننا مُسْلِمُوْن ناجون، وإن كنا في غمرة ساهين.

وسألته: ما وِرْدكم الذي يتلىٰ في الخلوات أو عقب الصلوات؟ فقال: لا وِرْد لنا سوىٰ القُرْآن، نقرأ بعد كل صلاة أربعة أرباع مع الفهم والتدبر.

قلت: أَنَّىٰ لي أن أفهم القُرْآن ولم أتعلم شَيْئاً؟ قال: أقرأ معك، ويكفيك أن تفهم الجُمْلَة، وببركتها يُفِيْضُ الله عليك التفصيل، وإذا خلوت فاذكر الله علىٰ طريقة بَيَّنَهَا.

وأخذت أعمل علىٰ ما قال من اليوم الثامن، فلم تمضِ عَلَيَّ بضعة أيام إلَّا وقد رأيتني أطير بنفسي في عالم آخر غير الذي كنت أعهد، واتسع لي ما كان ضيقاً، وصغر عندي من الدنيا ما كان كَبِيْراً، وعظم عندي من أمر العِرْفَان والنزوع بالنفس إلىٰ جانب القُدْس ما كان صَغِيْراً، وتفرقت عني جميع الهموم، ولم يَبْقَ لي إلَّا هَمٌّ وَاحِدٌ، وهو أن أكون كَامِل المَعْرِفَة، كَامِل أدب النفس. ولم أجد إمَاماً يرشدني إلىٰ ما وجهت إليه نفسي إلَّا ذٰلِكَ الشَّيْخ الذي أخرجني في بضعة ايام من سجن الجهل إلىٰ فضاء المَعْرِفَة، ومن قيود التقليد إلىٰ إطلاق التَّوْحِيْد.

هٰذَا الأثر الذي وجدته في نفسي من صحبة أحد أقاربي، وهو الشَّيْخ دَرْوِيْش خضر، من أهل (كُنَيِّسَة أورين) من مديرية البَحِيْرَة، وهو مِفْتَاح سعادتي إن كانت لي سَعَادَة في هٰذِهِ الحياة الدنيا.

وفي اليوم الخامس عشر، خشي عتاب والده، فذهب إلىٰ (طنطا)، وذٰلِكَ في شهر جمادىٰ الآخِرَة سنة ١٢٨٢هـ=١٨٦٥م، فجلس في درس شرح الزُّرْقَانِيّ علىٰ العِزِّيَّةِ، وشرح الشَّيْخ خَالِد علىٰ الآجُرُّوْمِيَّة، قال: فوجدت نفسي أفهم ما أقرأ وما أسمع، والحمد لله، وعرف ذٰلِكَ مني بعض الطلبة، فكانوا يلتفون حولي، لأُطالع معهم قبل الدرس ما سنتلقاه.

وفي منتصف شَوَّال من تلك السنة، ذهب إلىٰ الأَزْهَر، وداوم علىٰ طلب العلم علىٰ شُيُوْخه، وفي أواخر كل سنة دراسية كان يذهب إلىٰ (مَحَلَّة نصر)، ليقيم بها شهرين، فيجد الشَّيْخ دَرْوِيْشاً قد سبقه إليها، ويستمر بدراسة القُرْآن والعلم إلىٰ يوم سفره.

وكل سنة كان يسأله عما قرأ، ويسأله: ما درست المنطق؟ ما درست الحساب، شَيْئاً من مبادئ الهَنْدَسَة؟ وهٰكَذَا. فكان مُحَمَّد يقول له: بعض هٰذِهِ العُلُوْم غير معروف

الدراسة في الأَزْهَر. فيجيبه: طالب العلم لا يعجز عن تَحْصِيْله في أي مكان. قال: فكنت إذا رجعت إلىٰ القَاهِرَة ألتمس هٰذِهِ العُلُوْم عند من يعرفها - الشَّيْخ حسن الطَّوِيْل أُسْتَاذ المنطق والفلسفة - فتارةً كنتُ أُخطئ في الطلب، وأُخْرَىٰ أصيب، إلىٰ أن جاء المرحوم السَّيِّد جمال الدِّيْن الافغاني إلىٰ مِصْر أواخر سنة ١٢٨٦هـ=١٨٦٩م[١].

وظل الشَّيْخ دَرْوِيْش يأخذه بالتربية الصُّوْفِيَّة، فكان يصوم النهار ويقيم الليل، معتزلاً عن الناس إلَّا من يستفيد منه علماً ونصيحةً، وبقي كذٰلِكَ بعد دخوله الأَزْهَر سبع سنين، والشَّيْخ يقوده في سَبِيْل قهر النفس علىٰ المكاره بالصوم تارةً ولبس الخشن تارةً أُخْرَىٰ، حتىٰ إذا رآه الشَّيْخ دَرْوِيْش مكتمل النفس والسُّلُوْك، قال له بعد رجوعه إلىٰ (مَحَلَّة نصر) سنة ١٢٨٨هـ=١٨٧١م: إلىٰ متىٰ هٰذِهِ العزلة؟ وما الفائدة في العلم وتَحْصِيْله إذا لم يكن لك نور تهتدي به، ويهتدي به الناس؟ إن من المكروه أن تستأثر بالفائدة دون أهل ملتك، وإن من لم ينفع بما تعلم فقد أضاع أهم ثمرة تقصد من غراس المَعْرِفَة، فعليك أن تخالط الناس، وتعظهم وترشدهم إلىٰ الطريق القَوِيْمَة والسنة الصالحة.

فذكر له اشمئزازه من الناس، وثقلهم علىٰ نفسه إذا لاقاهم، ونفرتهم من الحق إذا عرض عليهم، فقال الشَّيْخ دَرْوِيْش: (هٰذَا من أقوىٰ الدواعي إلىٰ ما حثثتك عليه، فلو كانوا جميعاً هداة مَهْدِيِّيْن لما كانوا في حاجة إليك).

فأخذ يَسْتَصْحِبُهُ إلىٰ مجالس العامة، ويفتح الكلام في الشؤون المُخْتَلِفَة، ويوجه الخطاب إليه ليتكلم، فيتكلم الحاضرون فيجيبهم، وما زال به حتىٰ ألف الناس واسْتَأْنس

---

(١) هٰذَا مما كتبه الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه بنفسه عن مبدأ تَعْلِيْمه وتربيته في ترجمته التي كتبها للسَّيِّد رَشِيْد رِضَا قبل اشتداد مرضه الأَخِيْر.

تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص٢٠-٢٥.

وهو في: الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، الفصل الثاني: النشأة والتربية وطلب العلم، ج٢ ص٣٢٨-٣٣٢.

بمكالمتهم.

وفي شَوَّال من تلك السنة، وَدَّعَهُ، وبكىٰ بكاءً شديداً، ومات في السنة الثانية[١].

وبعد أن انتهىٰ من الدراسة في الأَزْهَر، عرض نفسه علىٰ لجنة الامتحان لنيل شهادة العالمية في سنة ١٢٩٤هـ=١٨٧٧م، ورأت اللجنة عدم منحه درجة ما في العلم، بسبب صحبته للأَفْغَانِيّ، لٰكِنها رأت من حسن جوابه عما سألوه فوق ما كانوا ينتظرون، فحلف الشَّيْخ العَبَّاسِيّ مُحَمَّد المَهْدِيّ شَيْخ الأَزْهَر رئيس اللجنة، أنه لم يُرَ أَحَدٌ امتحن في عَصْره مثله، وأنه لو كان فوق الدرجة الأُوْلَىٰ درجة ممتازة لاستحقها، ومنح أَخِيْراً الدرجة الثانية. وعين مدرساً في الجَامِع الأَزْهَر للمنطق وعلم الكلام. وظل يواصل القِرَاءَة والجهود العِلْمِيَّة اتباعاً لقوله ﷺ: (اطلب العلم من المهد إلىٰ اللحد). وكان يقول في آخر حياته: (إنني لا أزال طالب علم، أبتغي المَزِيْد منه في كل يوم)[٢].

كان الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه قبل أخذه شهادة التدريس يطالع مع بعض الطُّلَّاب الدروس التي يحضرونها في الأَزْهَر، ثم يقرأ لهم بعض الكتب التي لم تدرس في الأَزْهَر، فكان يفتح عليهم أبواب المُذَاكَرَة والمناقشة، وفُتِنَ الأذكياءُ به.

وبعد أن عَيْن مدرساً في الأَزْهَر للمنطق وعلم الكلام، كانت دروسه بناءً جديداً للعَقَائِد علىٰ اساس البَرَاهِيْن القطعية.

وكان يقرأ في بيته لطائفة من المجاورين كتاب (تَهْذِيْب الأَخْلَاق) لابن مِسْكَوَيْه الـرَّازِيّ، فكان سبب طبعه للمرة الأُوْلَـىٰ، وكتاب كيزو في السِّيَاسَة، فأقبل الكثيرون علىٰ درسه، لما فيه من مُتْعَة، وتقديم الجديد غير المألوف.

(١) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص١٠٦-١٠٨.

وهو في: الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، الفصل الثاني: النشأة والتربية وطلب العلم، ج٢ ص٣٣٣.

(٢) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص١٠٢-١٠٣.

وعين في أواخر سنة ١٢٩٥هـ=١٨٧٨م مدرساً للتَّارِيْخ في مدرسة دار العُلُوْم، وللعُلُوْم العَرَبِيَّة في مدرسة الألسن الخِدَيْوِيَّة، إضافة إلىٰ تدريسه في الجَامِع الأَزْهَر.

بدأ دروسه في دار العُلُوْم بقِرَاءَة مُقَدِّمَة ابن خَلْدُوْن، قَاصِداً بث أَفْكَاره السياسية والاجتماعية في أذهان التلاميذ، فكان يبين أسباب ضعف الدول والوَسَائِل التي تنهض بها، مطبقاً ذٰلِكَ علىٰ أُمَّتِهِ.

وكان يكلف التلاميذ بكتابة المَقَالَات والفُصُوْل، فشعر كل منهم بأنه مخلوق لخدمة بلاده وإعْلَاء شأن أُمَّتِهِ.

وأَلَّفَ لهم كتاباً في علم الاجتماع وفلسفة التَّارِيْخ، انتقد فيه بعض ما قاله ابن خَلْدُوْن، واستدرك عليه ما نسخته طبيعة الاجتماع في هٰذَا العَصْر من أَحْكَام العِمْرَان في العصور الغابرة.

ولهيمنة الشَّيْخ علىٰ تلاميذه ولإعجابهم به، أنه كانوا إذا حضروا دروسه ودروس السَّيِّد الأَفْغَانِيّ أحسوا أن باستطاعتهم القيام بكل إصْلَاح يُنَاط بهم، وأنهم إذا وزعوا علىٰ مديريات القطر ومحافظاته يصلحونها في أقرب وقت[1].

مع السَّيِّد جمال الدِّيْن الأَفْغَانِيّ:

قال أحد المجاورين في رِوَاق الشوام للشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه: جاء إلىٰ مِصْر عالم أَفْغَانِيّ عَظِيْم، وهو يقيم في خان الخَلِيْلِيّ، فسره ذٰلِكَ، وأخبر الشَّيْخ حسن الطَّوِيْل، ودعاه إلىٰ زيارته معه، فأَلْفَيَاهُ يتعشىٰ، فدعاهما إلىٰ الأكل معه، فاعتذرا، فطفق يسألهما عن بعض آيات القُرْآن الكَرِيْم، وما قاله المُفَسِّرُوْن والصُّوْفِيَّة فيها، ثم يفسرها لهما، مما ملأ قلب الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه عجباً وحباً، لأن التَّصَوُّف والتَّفْسِيْر هما قُرَّة عينه، أو كما قال مِفْتَاح سعادته.

---

(١) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص١٣٣-١٣٦.

قال الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه:

(وقد صاحبته من ابتداء شهر المحرم سنة ١٢٨٧هـ=١٨٧٠م، وأخذت أتلقىٰ عنه بعض العُلُوْم الرِّيَاضية والحكمية «الفلسفية» والكلامية، وأدعو الناس إلىٰ التَّلَقِّي عنه كذٰلِكَ).

وقرأ علىٰ السَّيِّد الأَفْغَانِيّ:

كتاب الزوراء للدَّوَّانِيّ في التَّصَوُّف، وشرح القُطْب علىٰ الشمسية، والمَطَالِع، وسلم العُلُوْم، من كتب المنطق. والهِدَايَة والإشارات وحكمة العين وحكمة الإشراق من الفلسفة. وعَقَائِد الجَلَال الدَّوَّانِيّ في التَّوْحِيْد، والتَّوْضِيْح مع التلويح في الأُصُوْل، والجِغْمِيْنِيّ، وتَذْكِرَة الطُّوْسِيّ في الهيئة القديمة.

وأرشده السَّيِّد إلىٰ الإنشاء وكتابة المَقَالَات الأدبية والاجتماعية والسياسية، ومرنه علىٰ الخطابة، فبرع حتىٰ فاق أُسْتَاذه.

وأخذ مشايخ الأَزْهَر والجُمْهُوْر من الطلبة ينقلون عنه، ويزعمون: أن تلقي تلك العُلُوْم قد يفضي إلىٰ زعزعة العَقَائِد الصَّحِيْحَة[١].

قال الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه:

فكنت إذا رجعت إلىٰ بلدي عرضت ذٰلِكَ علىٰ الشَّيْخ دَرْوِيْش، فكان يقول لي: إن الله هو العَلِيْم الحَكِيْم، ولا علم يفوق علمه وحكمته، وإن أعدىٰ أعداء العَلِيْم هو الجاهل، وأعدىٰ أعداء الحَكِيْم هو السفيه، وما تقرب أحد إلىٰ الله بأفضل من العلم والحكمة، فلا شيء من العلم بممقوت عند الله، ولا شيء من الجهل بمَحْمُوْد لديه،

(١) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص٢٤-٢٦.

وانظر: الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، الفصل الثاني: النشأة والتربية وطلب العلم، ج٢ ص٣٣٢-٣٣٣.

إلَّا ما يسميه بعض الناس علماً، وليس في الحقيقة بعلم كالسحر والشعوذة إذا قصد من تَحْصِيْلهما الإضرار بالناس[١].

بقي الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه ملازماً للسَّيِّد جمال الدِّيْن طوال مكوثه في زيارته لمِصْر حتىٰ نفيه سنة ١٢٩٦هـ=١٨٧٩م، فكانت شخصيته هٰذِهِ الفترة غير متميزة عنه.

فهو من الناحية الفكرية، اقتصر دوره علىٰ التَّلَقِّي عن أُسْتَاذه الأَفْغَانِيّ، وصياغة أَفْكَاره، ونشرها في مِصْر بين الطلبة والناس والتدرب علىٰ الكتابة.

ومن الناحية السياسية، تَبِعَ الشَّيْخُ مُحَمَّد عَبْدُه أُسْتَاذَهُ جمال الدِّيْن الأَفْغَانِيّ، **فدخل معه المحفل الماسوني، ثم غادر معه المحفل البريطاني إلىٰ المحفل الشرقي الفرنساوي**، عندما وقفت الماسونية بمِصْر موقف الذي لا يبالي بظلم النظام واستبداده، والذي يخدم النفوذ الأجنبي الزاحف إلىٰ البلاد.

وطعن البعض بالسَّيِّد الأَفْغَانِيّ، والشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه، وبعدد كَبِيْر من قادة مِصْر ومفكريها، لانضِمَامهم إلىٰ الحَرَكَة الماسونية في ذٰلِكَ التَّارِيْخ.

وموقفهم هٰذَا بعيد عن الصواب لما يأتي:

١- إن الحَرَكَة الماسونية كانت مركز جذب لأصحاب الفكر الحر في ذٰلِكَ الوقت، لأنها كانت حَرَكَة مناهضة لسُلْطَان الكنيسة، وسُلْطَان الأباطرة الإقطاعيين، وكانت تعمل علىٰ فصل السُّلْطَان الكنسي عن دوائر الحكم، وعلىٰ تَحْرِيْر العلم والعُلَمَاء من سَلْطَنَة الكهنوت.

٢- لم يكن يبدو من الماسونية إلَّا وجهها التقدمي، الذي يرفع شعار الثورة

---

(١) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص٢٤-٢٦.

وانظر: الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، الفصل الثاني: النشأة والتربية وطلب العلم، ج٢ ص٣٣٣.

الفرنسية: الحرية، والإخاء، والمساواة.

ولم تكن العناصر اليَهُوْدِيَّة في الحَرَكَة الماسونية قد انخرطت بعد في سلك الصهيونية.

ولم يكن التيار الصهيوني الحَدِيْث في الحَرَكَة اليَهُوْدِيَّة قد تَكَوَّن بعد.

ولم تكن الأَوْساط اليَهُوْدِيَّة قد اتفقت بعد علىٰ السعي لإقامة دولتها في فِلَسْطِيْن سنة ١٩٤٨م[١].

فلما ظهرت بعض أهداف الحَرَكَة الماسونية حينذاك، تبرأ الكثير من شُيُوْخ الأَزْهَر ورِجَال الأُمَّة الذين انتموا إلىٰ المحفل الماسوني من تلك الحَرَكَة، علىٰ صفحات الجرائد.

كما تبرأ الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه منهم أَخِيْراً، لما بدأت تتكشف نواياها وأهدافها.

لٰكِن ظهرت الحَرَكَة الماسونية علىٰ حقيقتها بعد اغتصاب اليَهُوْد فِلَسْطِيْن خاصةً.

قال السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا:

كان السَّيِّد جمال الدِّيْن قد أخذ علىٰ نفسه العهود والمواثيق أن يعمل عملاً عَظِيْماً ينهض بدولة إِسْلَامِيَّة نهوضاً يعيد للإِسْلَام مجده، إِلَّا أنه كان مستعجلاً يريد أن يعمل هٰذَا العَمَل العَظِيْم، ويرىٰ أثر نجاحه في حياته.

لذٰلِكَ جاءه من طريق الحكومة، وتوسل إليه بالعلم، فاتخذ له في مِصْر تلاميذ، حتىٰ إذا وثق بهم مزج لهم السِّيَاسَة بالعلم. وخاف استبداد إِسْمَاعِيْل باشا أن يحول بينهم وبين ما يشتهون، فانتظم مع مريديه في سمط الجمعية الماسونية.

قال السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا:

إن الأُسْتَاذ الإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه ترك الماسونية من زمن طَوِيْل، بعد رجوعه من النفي إلىٰ مِصْر، وأهدوا إليه وساماً فلم يقبله.

---

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه، المُقَدِّمَة، ج١ ص٣٥-٣٦ مع الهامش.

وقال السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا أَيْضاً:

أَخْبَرَنِي الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه بأن دخوله مع السَّيِّد فيها كان لغرض سياسي اجتماعي، وأنه قد تركها من سنين، ولن يعود إليها.

وذكر السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا أَيْضاً:

إن الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه أخبره كيف انسحب هو والسَّيِّد جمال الدِّين من الماسونية(١).

ومن الناحية السياسية أَيْضاً، تَبِعَ الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه أُسْتَاذه الأَفْغَانِيّ في مَوَاقِفه، فساهم في تكوين (الحزب الوطني الحر) الذي رأسه الأَفْغَانِيّ، والذي يهدف إلىٰ: عزل الخِدَيْوِي إسْمَاعِيْل عن الحكم، وإقامة الحياة النيابية، ونبذ حكم الأجانب، فسار معه في كل خطوة يخطوها لقلب نظام الحكم، حتىٰ عزم علىٰ اغتيال الخِدَيْوِي إسْمَاعِيْل بيده، باقْتِرَاح من أُسْتَاذه جمال الدِّيْن(٢).

كان بين الرجلين من التشابه الفطري، والتعارف الروحي، والاستعداد العقلي، والتربية الصُّوْفِيَّة، واستقلال الفكر في طلب العلم، ومن عُلُوّ الأَخْلَاق، ما كان سبباً لاتصال كل منهما بالآخر منذ تلاقيهما في خان الخَلِيْلِيّ أول ليلة. وكان كل منهما قد دعا إلىٰ التحرر الفكري من التقليد والجمود، والتحرر السياسي من الاستعمار، وتَقْيِيْد سلطة الحَاكِم بالقَانُوْن(٣).

وسر الإقدام فيهما يعود إلىٰ التربية الصُّوْفِيَّة التي تلقياها، لأن من خلق الصُّوْفِيّ الاستخفاف بعظمة الدنيا، فلا يتهالك عليها ولا تملكه، فلا يخشىٰ من يملكونها. فالسَّيِّد

(١) مَجَلَّة المَنَار، المجلد الثامن، الجزء الحادي عشر، ص٤٠١-٤٠٣.

(٢) الأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه، المُقَدِّمَة، ج١ ص٣٥ وما بعدها.

وعزمه علىٰ اغتيال إسْمَاعِيْل ورد في ملاحظاته علىٰ رأي عُرَابِي في الثورة: الأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه ج١ ص٥٦٩.

(٣) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص٩٧٥-٩٧٦.

جمال الدِّيْن كان لا يلتفت إلىٰ الحُكَّام والأُمَرَاء والملوك. وكذٰلِكَ الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه كما هو واضح من سيرته، كان يجابه الخِدَيْوِي، وقد عزم علىٰ قتل إسْمَاعِيْل، ولا يلتفت إلىٰ كبار رِجَال الدولة، حتىٰ شكا منه الخِدَيْوِي عَبَّاس الثاني، فقال: يدخل عَلَيَّ كأنه فرعون، وحين سمع الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه ذٰلِكَ قال: الله يجزيه أهو فرعون أم أنا، إنني لست إلَّا رجلاً من رعيته[١].

بروز شخصية الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه:

وحين نفي السَّيِّد الأَفْغَانِيّ من مِصْر سنة ١٢٩٦هـ=١٨٧٩م بتَأْثِيْر وكلاء الدول الأجانب، **نفي الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه إلىٰ قريته (مَحَلَّة نَصْر)** حوالي العام، لئلا يشتغل في الحزب الوطني الحر[٢]، حتىٰ إذا عاد مُحَرِّراً ثالثاً ثم مُحَرِّراً أول في قلم تَحْرِيْر الجريدة الرسمية سنة ١٢٩٧هـ=١٨٨٠م، اتخذها منبراً لإرْشَاد رِجَال الحكومة وانتقادهم، لا سِيَّمَا وزارة المَعَارِف، ثم عضو في مجلس المَعَارِف الأعلىٰ سنة ١٢٩٨هـ=١٨٨١م[٣]، برزت شخصيته المُخْتَلِفَة عن السَّيِّد جمال الدِّيْن في طريقة الدعوة إلىٰ التحرر السياسي والفكري.

فالأَفْغَانِيّ كان يرىٰ أن طريق الثورة والسِّيَاسَة هو المَوْصِل إلىٰ الغَايَة المنشودة والإصْلَاح.

أما الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه، فكان يرىٰ أن طريق التربية والتَّعْلِيْم السَّبِيْل الوحيد لبُلُوْغ تلك الغَايَة فكرياً وسياسياً.

---

(١) مُحَمَّد عَبْدُه للعقاد ص١٢٧.

وقول الشَّيْخ في: تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص٥٧٣.

(٢) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص٩٧٦-٩٧٧.

(٣) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص١٣٧و١٤١.

قال السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا: (وكل من الرأيين يفضي إلىٰ الآخر، وكلاهما ضروري، ولٰكِن الأول أدنىٰ وأسرع، والثاني أثبت وأدوم)(١).

وحين بدأت **بوادر الثورة العُرَابِيَّة**، كان الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه كارهاً لها منددا بزعمائها بخطبه ومجالسه، لأنه كان يرىٰ أن أَمِيْرهم الجديد توفيق باشا ووَزِيْره رياض باشا قد سارا بِمِصْر بطريق الإِصْلَاح، وكان يرىٰ أن الثورة تحبط عمله، وتحبط كل إِصْلَاح تقوم به الحكومة أو تنويه، وأنها تمهد السَّبِيْل للأجانب للاستيلاء علىٰ البلاد(٢).

وكان من رأيه: وجوب البَدْء بالتربية والتَّعْلِيْم، لتكوين رِجَال يقومون بأَعْمَال الحكومة النيابية علىٰ بَصِيْرَة مُؤَيَّدَة بالعزيمة، وحمل الحكومة علىٰ العَدْل والإِصْلَاح، ومنه تعويدها الأهالي علىٰ البَحْث في المصالح العامة، واستشارتها إياهم في الأمر بمجالس خاصة تنشأ في المديريات والمحافظات، وليس من الحكمة أن تعطىٰ الرعية ما لم تستعد له، فذٰلِكَ بمثابة تَمْكِيْن القاصر من التصرف بمَالِهِ قبل بُلُوْغه سن الرشد... إن الأُمَّة لو كانت مستعدة لمشاركة الحكومة في إدارة شؤونها لَمَا كان لطلب ذٰلِكَ بالقوة العَسْكَرِيَّة معنى... ويُخْشَىٰ أن يجر هٰذَا الشعب علىٰ البلاد احتلالاً أجنبياً، يسجل علىٰ مسببه اللعنة إلىٰ يوم القيامة.

وهٰذَا هو ما قاله الشَّيْخ لأَحْمَد عُرَابِي ومجموعة من قادة الثورة العُرَابِيَّة حين جمعهم منزل طلبة باشا أحد رِجَال الثورة، في عيد الفطر(٣).

وكان قد قال له مرات عديدة: (عليك بالهدوء والسكينة، وأنا أضمن لك أكثر مما

---

(١) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإِمَام ج١ ص٩٧٤-٩٧٧.
(٢) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإِمَام ج١ ص١٤٦.
(٣) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإِمَام ج١ ص١٤٦-١٤٧. والأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه، السلطة للصَّفْوَة المستنيرة، ج١ ص٣١٦.

تطلب في بضع سنين، ونهاه بعد ذٰلِكَ عن محاربة الإنكليز)[١].

فكان يتهم التيار الثَّوْرِيّ بأنه يقلد أُوربا وأمريكا تقليداً أعمىٰ، ولم يراعِ الفوارق بيننا وبينهم، ويعتبر دعاة الحياة الدُّسْتُوْرِيَّة والنيابية عقلاء، ولٰكِنهم مخطئون.

ولٰكِن بعد مُظَاهَرَة عَابِدِيْن في ٩ سبتمبر ١٨٨١م، ألقىٰ بكل قواه في الثورة بعد المذكرة الثنائية الإنجليزية - الفرنسية إلىٰ مِصْر في يناير ١٨٨٢[٢].

فتغير رأيه[٣]، وعاد إلىٰ رأي السَّيِّد جمال الدِّيْن، فصار صوتاً يدافع عن الثورة ومطاليبها، فتحدث عن الشُّوْرَىٰ والاستبداد والقَانُوْن في مَقَالَات تبين فيها تحريم الشَّرِيْعَة للاستبداد، وأنها توجب تَقْيِيْد الحَاكِم بالسُّنَّة، وأن الشُّوْرَىٰ واجب شَرْعِيّ، وأنها ممكنة في مِصْر ونَافِعَة لها، ولا شك أن انتخاب النواب كان لتَحْقِيْق منفعة الشُّوْرَىٰ[٤].

وفي احتفال جمعية المَقَاصِد بمناسبة التَّصْدِيْق علىٰ لائحة مجلس النواب دعاه عَبْد الله نديم إلىٰ الخطابة، فتكلم في وجود البارودي رئيس النظار، وعُرَابِي ناظر الجِهَادِيَّة، وغيرهما من النظار والضباط، فتحدث عن المبادئ التي يجب أن يتضمنها دُسْتُوْر البلاد الذي كان موضع مناقشة في مجلس شُوْرَىٰ النواب، فبين أن الحكومة القَانُوْنِيَّة هي التي يكون فيها نواب من الأُمَّة يساعدون الحكومة في إجراءاتها، وأن توجه العِنَايَة إلىٰ نشر العلم في عموم الأُمَّة وتحصين التربية لكسب الفضيلة والشَّرَف، واطلاع حرية الأَفْكَار والأقوال والأَعْمَال، وإعْطَاء المكافآت لسوق النفوس إلىٰ

(١) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص١٤٩.

(٢) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، المُقَدِّمَة، ج١ ص٢٣-٢٤.

(٣) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، موقفي من الثورة، ج١ ص٥٦٤.

(٤) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه: في الشُّوْرَىٰ والاستبداد، ج١ ص٣٥٠. وفي الشُّوْرَىٰ، ج١ ص٣٥٧. والشُّوْرَىٰ والقَانُوْن، ج١ ص٣٦٢.

التدبر، ووضع القوانين والأنظمة التي تبين الحقوق والواجبات، وتفصل بين الحق والباطل، والصَّحِيْح والفاسد(١).

انتهت الثورة بالاحتلال الإنجليزي، وقبض علىٰ زعمائها، وقتل الكثير منهم، وجعل الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه منهم، وصدر الأمر بأن تكون محاكمتهم بالقَانُوْن الإنجليزي، وعين لهم محام إنجليزي، جاءهم فسمع منهم، وكلفهم بأن يكتب كل منهم دفاعه بيده، فلم يَرَ في كتابتهم ما تقوم به الحُجَّة خلا حجج الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه فأشعره بالخفايا(٢)، وما في زوايا القصر من الخبايا، كقوله: إن الحَاشِيَة خاطبت محافظ الإسْكَنْدَرِيَّة بلِسَان البرق بكذا في يوم كذا، بأن يفعل كيت وكيت، وأعطاه من المستندات ما يقلب وجه المَسْأَلَة، فكان ذٰلِكَ سبباً لتخفيف الحكم ونسخ إعدام الزعماء عُرَابِي ورفاقه بالنفي الأبدي، وعلىٰ الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه بالنفي ثلاث سنين، بعد أن سجن ثلاثة أشهر وأيام، كان فيها عالي الهمة، يَدُلّ علىٰ ذٰلِكَ قصيدته في سجنه التي صورت نفسيته والثورة ورِجَالها، ورَسَائِله إلىٰ أصحابه.

وقد شرع الشَّيْخ في أواخر حياته بكتابه تَارِيْخ الثورة العُرَابِيَّة وأسباب الحوادث ومسبباتها، بطلب من الخِدَيْوِي عَبَّاس حلمي في السنين الأُوْلَىٰ من إمارته، لٰكِنه لم يكد يُتِمّ القسم الأول منه في مُقَدّمات الثورة وأسبابها التي أبرزت جانباً مهماً من تَارِيْخها، حتىٰ نَجم التناكر بين الخِدَيْوِي والشَّيْخ، فتوقف عن كتابته، لا سِيَّمَا وأن أَعْمَاله قد تضاعفت بعد جعله مفتياً للديار المِصْرِيَّة، وعضواً في مجلس الأوقاف الأعلىٰ، ومجلس شُوْرَىٰ القوانين، ورئيساً للجمعية الخَيْرِيَّة، وعضواً في مجلس إدارة الأَزْهَر(٣).

---

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، خطبته في احتفال جمعية المَقَاصِد بالتَّصْدِيْق علىٰ لائحة النواب، ج١ ص٣٨٠-٣٨٢.

(٢) دفاعه وأقوال المحامي الإنجليزي برود لي فيه في: تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص٢٢٥-٢٣٢.

(٣) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص١٤٩-١٥٨و٢٦٦.

وانظر أَيْضاً: الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، مذكراته في الأحداث العُرَابِيَّة، ج١

نفيه إلى سُوْرِيَّـة:

كان حكم النفي عليه في سنة ١٣٠٠هـ=١٨٨٣م، وممن حكم عليه الحكم ذاته صديقه إبْرَاهِيْم اللَّقَانِيّ تلميذ السَّيِّد جمال الدِّيْن، فسافرا إلىٰ سُوْرِيَّة، قابلهم بها أهلها من الأُدَبَاء والعُلَمَاء والوجهاء بالحفاوة والإكْرَام، وأرسل إلىٰ السَّيِّد جمال الدِّيْن رِسَالَة، بَيَّنَ فيها موقفه من الثورة، وأَكَّدَ فيها سُلُوْكه نهجه الأول[1].

في باريس وبعد نحو عام، سافر الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه إلىٰ أُوربا بدعوة من جمال الدِّيْن الذي سبقه إليها، وذٰلِكَ في أواخر سنة ١٨٨٣م.

وفي باريس أنشأ **جريدة العُرْوَة الوثقىٰ** لِسَان جمعية العُرْوَة الوثقىٰ، التي تهدف إلىٰ بناء الحكومة الإسْلَامِيَّة علىٰ قاعدة الخِلَافَة الراشدة وطرد الاستعمار من مِصْر والسُّوْدَان وغيرهما.

وقد صدر منها ثَمَانِيَة عشر عدداً، كان العدد الأول منها في ١٥ جمادىٰ الأُوْلَىٰ ١٣٠١هـ الموافق ١٣ مارس ١٨٨٤م، وكان آخر عدد منها قد صدر في ٢٦ ذي الحِجَّة ١٣٠١هـ الموافق ١٧ أكتوبر ١٨٨٤م.

وكان مدير سياستها السَّيِّد جمال الدِّيْن، ورئيس تَحْرِيْرها الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه، القائل: (إن الأَفْكَار في العُرْوَة الوثقىٰ كلها للسَّيِّد - أي: جمال الدِّيْن الأَفْغَانِيّ - ليس لي منها فكرة وَاحِدَة، والعبارة كلها لي ليس للسَّيِّد منها كلمة وَاحِدَة). كان تَأْثِيْرها كَبِيْراً في الشرق والغرب معاً، فصدر قرار مجلس النظار المِصْرِيّ إلىٰ نظارة الداخلية المِصْرِيَّة بمنع تداول الجريدة في مِصْر، فمنعت، وأُغلقت أبواب الهِنْد دونها بتَأْثِيْر

ص٤١٥-٥٧١.

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، رِسَالَة إلىٰ جمال الدِّيْن الأَفْغَانِيّ، ج١ ص٥٧٥.

الإنجليز(١).

وحين مارس مُحَمَّد عَبْدُه عمله السياسي في جمعية العُرْوَة الوثقىٰ، كتب العديد من الرَّسَائِل التي بعث بها باسم الجمعية إلىٰ فُرُوْعها وأعضائها، وكتب القَسَمَ للأعضاء(٢).

وقام بعدة رحلات إلىٰ لندن وبلاد الشرق في مهام سياسية، ومنها مِصْر مستخفياً عن الخِدَيْوِي والمحتلين(٣).

لٰكِن الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه رأىٰ أن هٰذَا العَمَل السياسي لا يأتي بالفائدة المرجوة بعد تعطيل جريدة العُرْوَة الوثقىٰ، وتخاذل المُسْلِمِيْن دون مساعدتها الواجبة، فعرض علىٰ أُسْتَاذه ما كان في نفسه سَابِقاً من نبذ السِّيَاسَة وسُلُوْك سَبِيْل التربية والتَّعْلِيْم، فقال له: (أرىٰ أن نترك السِّيَاسَة، ونذهب إلىٰ مجهل من مجاهل الأرض، لا يعرفنا فيه أحد، نختار من أهله عشرة غلمان أو أكثر من الأذكياء السَّلِيْمي الفطرة، فنربيهم علىٰ مَنْهَجنا، ونوجه وجوههم إلىٰ مقصدنا، فإذا أُتيح لكل وَاحِد منهم تربية عشرة آخرين، لا تمضي بضع سنين أُخْرَىٰ إلَّا ولدينا مائة قائد من قواد الجِهَاد في سَبِيْل الإصْلَاح، ومن أمثال هٰؤُلَاءِ يرجىٰ الفلاح. فقال له السَّيِّد: إنما أنت مثبط، نحن قد شرعنا في العَمَل، ولا بد من المضي فيه ما دمنا نرىٰ له منفذاً)(٤).

---

(١) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص٢٧٤ وما بعدها. وقول الشَّيْخ في ص٢٨٩.

وانظر: الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، المُقَدِّمَة، بطاقة حياة، ج١ ص٢٥. وانظر فيها أَيْضاً: جريدة العُرْوَة الوثقىٰ، ج١ ص٥٨٠.

(٢) القَسَم في: تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص٢٨٧، وفي قسم تنظيم العُرْوَة الوثقىٰ في: الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه ج١ ص٥٧٩. والرَّسَائِل (رَسَائِل سياسية) في: الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه ج١ ص٥٨٦ وما بعدها.

(٣) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، المُقَدِّمَة، بطاقة حياة، ج١ ص٢٥.

(٤) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص٤١٦-٤١٧و٨٩٤.

وانظر: الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، حَدِيْث عن السِّيَاسَة بين الأُسْتَاذ الإمَام

فسكت الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه، لأنه لا يمكنه أن يقاوم سُلْطَان السَّيِّد، لا سِيَّمَا في حضوره.

عودته إلى سُوْرِيَّة:

وبعد توقف العُرْوَة الوثقىٰ غادر باريس إلىٰ تُوْنُس، ومنها إلىٰ بَيْرُوْت سنة ١٨٨٥هـ، ليعود مصلحاً عن طريق التربية والتَّعْلِيْم، مفارقاً طريق السِّيَاسَة التي كانت سَبِيْل أُسْتَاذه جمال الدِّيْن، إلىٰ آخر عُمْره.

فكانت داره مدرسة عامة يؤمها الأذكياء من جميع المِلَل والطوائف. ومما كان يقرأ عليه فيها: السِّيْرَة النَّبَوِيَّة علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والتحية، وكان يقرأ التَّفْسِيْر في الجَامِع الكَبِيْر، وفي جَامِع الباشورة، لا يلتزم فيه كتاباً، وإنما يقرأ في المصحف، ويلقي ما يُفِيْضُ الله علىٰ قلبه. وكان الناس يقبلون علىٰ درسه إقبالاً لم يعرف في تلك البلاد لأحد من قبله، حتىٰ حسد النَّصَارَىٰ عليه المُسْلِمِيْن، وكانوا يقفون بباب المسجد يمدون أعناقهم. ثم إنهم استأذنوه في دخول المسجد والجلوس في ناحية من حلقة الدرس، فأذن لهم، قال سُبْحَانَهُ: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ – التوبة: ٦.

وفي أول سنة ١٣٠٣هـ=١٨٨٦م، دُعِيَ إلىٰ التدريس في المدرسة السُّلْطَانِيَّة لإحياء اللُّغَة والدِّيْن، فأدخلها في طور جديد، وكان يجلس إليه الناس علىٰ اختلاف مَذَاهِبهم وأديانهم، فيوسع صدره للجميع، ويناقش ويشرح، لٰكِنه كان يتجنب انتقاص مَذْهَب أو عَقِيْدَة من يحضر مجالسه، وإن كانوا مخالفين له.

وكان يقول: إن العلم الذي لا يمتزج بالنَّص، ولا يصير جزءاً من أجزائها، لا ينبغي أن يُسَمَّىٰ علماً.

واشتغل بالتأليف، فنقل إلىٰ العَرَبِيَّة رِسَالَة الرد علىٰ الدهريين التي كتبها السَّيِّد

والشَّيْخ رَشِيْد رِضَا، ج١ ص٦٨٢.

جمال الدِّيْن بالفَارِسِيَّة، وشرح كتاب نهج البَلَاغَة، ومقامات بَدِيْع الزَّمَان الهَمْدَانِيّ، وأقبل الناس علىٰ هٰذِهِ الكتب، فطبعت مراراً.

وقدم إلىٰ الوالي لائحة في إصْلَاح البلاد الإداري، وكتب لائحة أُخْرَىٰ في الإصْلَاح الدِّيْنِيّ، قدمها إلىٰ السُّلْطَان بواسطة الوالي.

وجال في أرجاء الوِلَايَة واختبرها، فرحل إلىٰ بَيْت المَقْدِس ودِمَشْق والشَّام وبعلبك وطَرَابُلُس وغيرها، وهو كيفما رحل، وأينما حل، ينتهز الفرصة لينفع الخلق عامةً، ينشر العلم، ويدعو إلىٰ نصرة الدِّيْن(١).

عودته إلى مِصْر:

انتهت مدة نفيه في أوائل سنة ١٣٠٣هـ، آخر سنة ١٨٨٥م، بقي بعدها في بَيْرُوْت، لأنه كان يرجو أن يقنع أُولي الأمر في الدولة العُثْمَانِيَّة بإصْلَاح التربية والتَّعْلِيْم في المدارس بحسب رأيه. ولما طال الأمد، ولم يستجب له أحد، عاد إلىٰ وطنه مِصْر سنة ١٣٠٦هـ=١٨٨٩م بوساطة تلميذه سَعْد زَغْلُوْل وغيره(٢)، فتلقاه أصدقاؤه بالإجْلَال والسرور، واتخذ داراً له في شارع الشَّيْخ ريحان بالقرب من سراي عَابِدِيْن، ولما سئل عن سبب اخْتِيَاره هٰذَا المكان قال: نناطح عَابِدِيْن مناطحة.

وتسابق العظماء إلىٰ توفيق باشا يسألونه العفو، فعفا عنه، وقال: ما عفوت عن أحد عفواً هو أشبه بالاعتذار منه بالعفو إلَّا هٰذَا(٣).

---

(١) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص٣٩١-٣٩٢ و٣٩٨ و٤٠٢ و٤١٢. والأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، المُقَدِّمَة، بطاقة حياة، ج١ ص٢٥-٢٦.

(٢) انظر الروايات المتعددة التي ذكرت فيها أسباب عودته إلىٰ مِصْر في: مُحَمَّد عَبْدُه لعُثْمَان أمين ص١٠٥. ومُحَمَّد عَبْدُه للعقاد ص١٤٥. ومُحَمَّد عَبْدُه لقَدْرِي قَلْعَجِيّ ص٦٤ عن بلنت وغيره.

(٣) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص٤١٦-٤١٨.

واقتنع أَخِيْراً بأن العَمَل السياسي غير نَافِع، سواء كان في الفترة التي قام بها قبل الثورة العُرَابِيَّة أم بعدها، وسواء كان ذٰلِكَ مع السَّيِّد جمال الدِّيْن أم مع العُرَابِيِّيْن. وزاده اقتناعاً تعطيل جريدة العُرْوَة الوثقىٰ، وتخاذل المُسْلِمِيْن عن نصرته ونصرة السَّيِّد جمال الدِّيْن. ورأىٰ أن الخِدَيْوِي توفيق غضبان عليه، كاره له، وأن الإنجليز أصحاب النفوذ في البلاد، وكلهم يكتمون الأنفاس، لا سِيَّمَا وأنهم ذاقوا من مرارة قلمه ما ألهب عليهم العالم الإسْلَامِيّ الشرقي.

كما أنه يقدر الوقت، ويخشىٰ أن يمر بلا فائدة يقدمها للناس، فرأىٰ أن يسير في طريق الإصْلَاح بالتربية والتَّعْلِيْم، وهو طريق يأمن به سلطة الاحتلال، وإن وضعت له العراقيل، ويمكن أن يؤتي ثِمَارَهُ، فينشأ مجتمع واعٍ يفهم ما يجب عليه، ويدرك أن سلطة الاحتلال يجب أن تقلع من جذورها.

وطلق بعد ذٰلِكَ السِّيَاسَة إلىٰ آخر عُمْره. فمن كلامه المشهور: (ما دخلت السِّيَاسَة في شيء إلَّا أفسدته)[1].

وفي سنة ١٩٠٢م في رده علىٰ فرح أنطوان، بكتابه الإسْلَام والنَّصْرَانِيَّة، قال: (فإن شئت أن تقول: إن السِّيَاسَة تضطهد الفكر أو العلم أو الدِّيْن، فأنا معك من الشَّاهدين، أعوذ بالله من السِّيَاسَة، ومن لفظ السِّيَاسَة، ومن معنىٰ السِّيَاسَة، ومن كل حرف يلفظ من كلمة السِّيَاسَة، ومن كل خيال يخطر ببالي من السِّيَاسَة، ومن كل أرض تذكر فيها السِّيَاسَة، ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يجن أو يعقل في السِّيَاسَة، ومن ساس ويسوس، وسائس ومسوس)[2].

---

(١) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص٨٩١.

(٢) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص٨٩١ نَقْلًا عن الإسْلَام والنَّصْرَانِيَّة ص١١١ من الطَّبْعَة الرابعة. والإسْلَام والنَّصْرَانِيَّة بين العلم والمَدَنِيَّة في: الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه ج٣ ص٣١٦.

وانتقد أُسْتَاذه جمال الدِّيْن سنة ١٣١٥هـ=١٨٩٧م، قائلاً: (إني أعجب لجعل نبهاء المُسْلِمِيْن وجرائدهم كل همهم في السِّيَاسَة، وإهمالهم أمر التربية الذي هو كل شيء، عليه يبنىٰ كل شيء، أن السَّيِّد جمال الدِّيْن كان صاحب اقتدار عجيب، لو صرفه ووجهه للتَّعْلِيْم والتربية لأفاد الإِسْلَام أكبر فائدة)(١).

وفاؤه لأُستاذه:

ومع أنه سلك غير طريق أُسْتَاذه جمال الدِّيْن فقد ظل وفياً له.

وذهب الرَّافِعِيّ إلىٰ أن عدم مراسلة الشَّيْخ للسَّيِّد في محنته ومنفاه بالآستانة دليل علىٰ تراخي العلاقة بينهما، لٰكِن هٰذَا تسرع في الحكم، لأن الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه كان يخشىٰ علىٰ السَّيِّد جمال الدِّيْن من أن يناله أذى أو خطر، يظهر هٰذَا في جواب أرسله السَّيِّد إليه من الآستانة، قائلاً: (تكتب لي ولا تمضي، وتعقد الألغاز...، من أعدائي؟ وما الكلاب كثرت أو قَلَّتْ؟... فكن فيلسوفاً يرىٰ العالم أُلعوبة، ولا تكن صبياً هلوعاً). وأجاب عن رِسَالَة أُخْرَىٰ: (إن الرِّسَالَة ما وصلت، ولا بينت لنا موضوعها وجلاً منك، قوىٰ الله قلبك)(٢).

وأمسك الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه بعدها عن الكتابة، لأن الرَّسَائِل لا تصل في بعض الأَحْيَان، والذي يصل مراقب من الشرطة، فلم تفد الألغاز، والسَّيِّد علىٰ ما عرف من جرأة كان يعد ذٰلِكَ من الهلع الصِّبْيَانِيّ فيؤنبه عليه.

ويكفي أن يقول الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه لما بلغه نبأ موت أُسْتَاذه جمال الدِّيْن الأَفْغَانِيّ

(١) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإِمَام ج١ ص٨٩٤. وحَدِيْث عن السِّيَاسَة بين الأُسْتَاذ الإِمَام والشَّيْخ رَشِيْد رِضَا، في: الأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه ج١ ص٦٨٢. وفيهما أَيْضاً انتقاده للأَمِيْرة نازلي لاشتغالها بالسِّيَاسَة.

(٢) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإِمَام ج١ ص٨٩٧.

في ٩ مارس (آذار) ١٨٩٧م = ١٣١٤هـ، راثياً بكلمة أبلغ من صفحات طوال وخطب عريضة: (والدي أعطاني حياة يشاركني فيها عَلِيّ ومحروس (وهما أخواه)، والسَّيِّد جمال الدِّيْن أعطاني حياة أُشارك بها مُحَمَّداً وإِبْرَاهِيْم ومُوسَىٰ وعِيسَىٰ صلىٰ الله عليهم وسلم والأَوْلِيَاء والقديسين، ما رثيته بالشعر لأني لست بشاعر، ما رثيته بالنثر لأنني لست الآن بناثر، رثيته بالوجدان والشعور، لأنني إنسان أشعر وأُفكر)[1].

الشَّيْخ في مناصب الحكومة:

وحين عفي عن الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه كان الخِدَيْو توفيق يخشىٰ أن ينشر أَفْكَاره في التدريس، فعينه قَاضِياً في المحاكم الأهلية في محكمة بنها سنة ١٨٨٩م، ثم في محكمة الزقازيق، ثم في محكمة عَابِدِيْن بالقَاهِرَة، ثم عَيْن مستشاراً في محكمة الاستئناف سنة ١٨٩١م. فكان قَاضِي العَدْل والإِنْصَاف، حتىٰ وشىٰ به بعض الحساد بتَقْرِيْر قدمه إلىٰ وزارة الحقانية، فسأله المستشار القضائي (مستر سكوت)، وأطلعه علىٰ التَّقْرِيْر، فأجابه الشَّيْخ: هل العَدْل وضع لأجل القَانُوْن، أم القَانُوْن وضع لأجل العَدْل؟ فقال المستشار: بل القَانُوْن وضع لأجل العَدْل، وشرع الشَّيْخ يشرح له القضايا، فاقتنع المستر سكوت، وسُرَّ به كَثِيْراً.

ولما مات الخِدَيْو توفيق سنة ١٣٠٩هـ=١٨٩١م، جاء الخِدَيْو عَبَّاس باشا حلمي، فنال لديه حظوة، فقال له: إن لدىٰ أفندينا هٰذِهِ المصالح الثلاث العَظِيْمَة، هي: الأَزْهَر، والمحاكم الشَّرْعِيَّة، والأوقاف، فيمكنه أن يصلح الأُمَّة كلها بإِصْلَاحها، وقد تركها الإنجليز له، لأنها دينية، فهم لا ينازعونه بها الآن[2]، وسعىٰ معه إلىٰ وجوه عديدة في

---

(١) مُحَمَّد عَبْدُه للعقاد ص١٤٢-١٤٣. ورثاء الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه في: تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإِمَام ج١ ص ط.

(٢) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإِمَام ج١ ص٤٢٠-٤٢٧.

وانظر: الأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه، المُقَدِّمَة، بطاقة حياة، ج١ ص٢٩.

الإِصْلَاح.

لٰكِن اجتمعت عدة أُمُور أدت إلىٰ غضب الخِدَيْوِي عَبَّاس علىٰ الشَّيْخ، منها:

١. سَمَاع الخِدَيْو من المتزلفين إليه: أن دعوىٰ الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه لإِصْلَاح الأَزْهَر وغيره مبالغ فيها.

٢. الأمر المهم هو معارضته بتَأْثِيْر تدينه وورعه لما يراه غير حق مما يريده الخِدَيْو من أموال الأوقاف، حتىٰ أن خَلِيْل باشا حَمادة الذي تولىٰ إدارة الأوقاف العامة بمِصْر، ثم وزارة الأوقاف في الآستانة قال للشَّيْخ: اترك له الأوقاف ونحن نضمن لك أن يطلق يدك في إِصْلَاح الأَزْهَر. لٰكِن الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه قال: أنا أعلم هٰذَا، ولٰكِن وجداني ومراقبتي لله لا تمكنني من إقرار ما لا يبيحه الشَّرْع، والباطل لا يكون وسيلة إلىٰ الحق.

٣. حسن العلاقة بين الشَّيْخ وبين اللورد كرومر الذي كان يستشيره في بعض المَسَائِل الحكومية المهمة، ويتحامىٰ أن يهيج وجدانه. وصورت هٰذِهِ العلاقة للخِدَيْو بأنها تأييد للاحتلال البريطاني[1].

وقد أدىٰ غضب الخِدَيْو إلىٰ إحباط المشاريع الإِصْلَاحِيَّة التي بدأها الشَّيْخ أو نواها.

وفي ٢٤/ محرم/ ١٣١٧هـ = ١٨٩٩م، عينه الخِدَيْو عَبَّاس في منصب مفتي الديار المِصْرِيَّة، مع رجائه قبوله، فاكتأب الشَّيْخ قائلاً: إنها وظيفة ليس فيها عمل. ومع ذٰلِكَ قدم خدمات جَلِيْلَة[2].

وتبعاً لمنصب الإفتاء أصبح عضواً في مجلس الأوقاف الأعلىٰ.

---

(١) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإِمَام ج١ ص٥٧٠-٥٧٥.

(٢) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإِمَام ج١ ص٦٠٢.

وفي ١٨/ صفر/ ١٣١٧هـ = ١٨٩٩م، عَيْن عضواً في مجلس شُورَىٰ القوانين، وفي هٰذِهِ الفترة سافر إلىٰ الشَّام وأُوربا أكثر من مرة، فزار الجَامِعَات وكبار الفَلَاسِفَة كسبنسر وغيره، وأشهر رحلاته رحلته إلىٰ أُوربا سنة ١٣٢١هـ=١٩٠٣م، ومنها رحل إلىٰ تُونُس والجَزَائِر ثم صِقِلِّيَّة وإيطاليا. كما سافر إلىٰ السُّودَان سنة ١٩٠٥م(١).

وفي محرم سنة ١٣٢٢هـ=١٩٠٥م، استقال من مجلس إدارة الأَزْهَر، محتجاً علىٰ الخِدَيْوِي لأنه حال بينه وبين الإِصْلَاح(٢).

أَخْلَاقه وشَمَائِله:

تميز الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه بصفات بوأته المكانة الرفيعة بين الناس، منها:

١- **عزة نفسه وعُلُوّ همته**: ولما رآه السَّيِّد جمال الدِّيْن، وهو مجاور في الأَزْهَر، راعه أن يكون بهٰذِهِ العزة والإباء وحفظ الكَرَامَة، في بلاد يسوسها الظلم، فقال له مراراً: (قل لي بالله أي أبناء الملوك أنت؟). ولعزته تلك كان الخِدَيْوِي عَبَّاس يقول: (إنه يدخل عَلِيّ كأنه فرعون).

٢- **مهابته ولطفه في المعاشرة**: كان مهيب الطلعة، وقور المجلس، متواضعاً، يخدم الفَقِيْر والمسكين. ومن عاشره عرف ظرفه وأدبه وفكاهته، وآنس محاضرته ولذة محاورته، وكان يتحامىٰ صيغة الطلب الجازم في مخاطبة أصدقائه ومُحِبِّيْه وتلاميذه، فيستبدل بالأمر الاستفهام والتخيير، ويوسع للمخاطب العذر قبل احتياجه إلىٰ الاعتذار.

٣- **سَلَامَة صدره وصفاء قلبه**: فما انتقم من مسيء، ولا سعىٰ في ضرر أحد قط، بل كان يحسن إلىٰ من أساء إليه، ومَوَاقِفه في ذٰلِكَ مشهورة.

٤- **تغليبه لحسن الظن وتغابيه عن الشر**: مع ذكائه وصدق فراسته، عملاً بقوله

(١) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإِمَام ج١ ص٦٠٢ و٦٣٠ و٧١٩ و٨٦٥-٨٧٦.

(٢) الأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه، المُقَدِّمَة، بطاقة حياة، ج١ ص٣٢.

تعالىٰ: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ - المُؤْمِنُوْن: ٩٦، وفُصِّلَت: ٣٤. وكان يعجبه قول أفلاطون: (اسْتِصْلَاح العدو أحزم من استهلاكه).

٥- **إيثاره المصلحة العامة علىٰ الخاصة:** فكان يرجح أصحاب الكِفَايَة والاستعداد علىٰ المُحِبِّيْن له والمُتَّصِلِيْن به.

٦- **وفاؤه لإخوانه وأصدقائه:** يهتم بشأنهم في السر والجهر، والبعد والقرب. ومن وفائه لأصدقائه حِفَاظه علىٰ مودة أبنائهم وأحفادهم من بعدهم، ومساعدته إياهم، وأصدقاؤه يفخرون بهٰذَا.

٧- **ثقته بالله دون الخلق:** فكان لا يخاف في طريق الإصْلَاح عدواً مبيناً، ولا يتكل فيه علىٰ الصديق وإن كان ناصحاً أميناً، وإنما كان مستقلاً برأيه مع الاستشارة، واثقاً بأن الله سُبْحَانَهُ يؤيده ويسخر له الناس، لإخلاصه لله تعالىٰ والناس.

وكان يرىٰ أن الإيمان الصَّحِيْح ما ظهر أثره في الأَخْلَاق والأَعْمَال، حتىٰ أنه لم يكن يتصور أن يجتمع تَوْحِيْد الله تعالىٰ مع الذل والصَّغَار وإقرار الباطل والخوف من الاعتصام بالحق في نفس وَاحِدَة.

لذٰلِكَ كانت أكثر أَعْمَاله عِبَادَة، فساعات نهاره مقسومة علىٰ الأَعْمَال النَّافِعَة إلَّا في شهر رَمَضَان، فكان يقول فيه: (إن هٰذَا شهر لا يتسع لغير العِبَادَة المحضة كالذكر والصلاة والتلاوة). وكان مواظباً علىٰ التهجد في كل ليلة، لا يتركه في سفر ولا حضر مهما طال سهره.

٨- **صدقه وشَجَاعَته:** فنادىٰ بمقاومة الاستبداد، قال: (جهرنا بهٰذَا القول والاستبداد في عنفوانه، والظلم قَابِض علىٰ صولجانه، ويد الظالم من حديد، والناس كلهم عبيد له أي عبيد)[1]، وحافظ علىٰ رأيه واعْتِقَاده وإن خالف العُلَمَاء و الحُكَّام،

(١) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص١٢.

وجابه الخِدَيْوِي ووَزِيْر الحقانية وهو رئيسه بما لا يحب علىٰ سمع من كبار العُلَمَاء.

٩- **إنْصَافه في الرأي والعلم والحكم:** فكان بعيداً عن المكابرة في المُذَاكَرَة والمُنَاظَرَة، رجاعاً إلىٰ الحق، محترماً رأي غيره تلميذاً كان أو عالماً.

١٠- **جوده وسخاؤه:** وعرف الناس ذٰلِكَ منه علىٰ تكتمه، وكان بَاسِطاً يده كل حين، وكان يعطي أُولي الحاجة من أهل المروءة والستر رواتب شهرية فرضها علىٰ نفسه، منهم: الشَّنْقِيْطِيّ، والشاعر عَبْد المُحْسِن الكاظمي.

١١- **غيرته علىٰ الملة والأُمَّة:** وهٰذَا لا يحتاج إلىٰ بَيَان بعد قِرَاءَة الفصل الذي كتبه في رِسَالَة التَّوْحِيْد عن: (انتشار الإسْلَام بسرعة لم يعهد لها نظير في التَّارِيْخ) بعد الأرق الشديد في إحدىٰ ليالي رَمَضَان سنة ١٣١٥هـ، من وراء تفكيره في حال المُسْلِمِيْن، وما وصلوا من فساد في الأَخْلَاق، وما كتبه في تَفْسِيْره ومَقَالَاته من هٰذَا خير دليل علىٰ تلك الغيرة.

١٢- **مروءته ونجدته:** فما كان يخيب رجاء أحد فيه، وإن كان مسيئاً إليه، إلَّا أن يكون مبطلاً أو ظالماً.

١٣- **ثباته علىٰ الحق واستقامته:** لذٰلِكَ كان السَّيِّد جمال الدِّيْن يقول فيه: (هو كالفلك لا يتغير)، قال هٰذَا بعدما غاب غيبته في بلاد المشرق، ثم عاد إلىٰ أُوربا، ورأىٰ فيها جَمَاعَة ممن كان يعرف من المِصْرِيِّيْن قد تغيروا.

١٤- **بساطة عيشه:** كان يحب المشي علىٰ قدميه، أو يركب عَرَبات الأُجرة، في حين أن كُلًّا من شَيْخ الأَزْهَر والمفتي إذا عَيْن في هٰذَا المنصب بادر إلىٰ شراء عَرَبَة.

أما طعامه فلم يكن مهتماً فيه، بل كان يقول: (إن من ضعف الإنسان ونقصه حاجته إلىٰ الطعام كل يوم، ولوددت لو أمكنني الاستغناء عنه).

وفراشه في الدار من الوسط، ولٰكِنه في أعلىٰ درجات النظافة، وكانت زوجته الشَّامِيَّة متنطعة في النظافة إلىٰ درجة الوسوسة.

١٥- **توقيره للرَّسُوْل مُحَمَّد ﷺ** وتَكْرِيْمه وتَعْظِيْمه وعِرْفَانه لقدره وجَلَالته لا توصف. وكان تَأْثِيْر سيرته ﷺ عليه كَبِيْراً جداً.

قال السَّيِّد رَشِيْد رِضَا: (دخلت عليه مرة بدون استئذان، وكان وحده في حجرة مُقَابَلَة الناس، فإذا بيده كتاب ينظر فيه، وإذا بدموعه تتحادر من مآقيه، تشرق بها وجنته، وتنطف بها لحيته، فلما رآني وضع الكتاب ومسح وجهه بيديه. قلت: ما هٰذَا الكتاب؟ قال: سِيْرَة النَّبِيّ ﷺ).

وما كتبه في رِسَالَة التَّوْحِيْد، وما قاله في مجالسه، عن عظمة الرَّسُوْل الأعظم ﷺ خير الأَدِلَّة علىٰ ما ذكرنا.

وجُمْلَة القول:

إن كل من عرفه وعاشره من أهل دينه وغيرهم من وطني وأجنبي شهدوا له بكَمَال التقوىٰ والورع والعفة والاستقامة، حتىٰ وصفه بعض الإفرنج بالقداسة أَيْضاً[١].

آثاره:

نسبت للشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه مؤلفات رُجِّحَ أنها لأُسْتَاذه السَّيِّد جمال الدِّيْن، منها:

١. رِسَالَة الواردات في سر التجليات في علم الكلام علىٰ طريقة الصُّوْفِيَّة. وهو أول تأليفه.

٢. التَّعْلِيْقَات علىٰ شرح الدَّوَّانِيّ للعَقَائِد العَضُدِيَّة.

٣. بحث العلم وتَأْثِيْره في الإرادة والاخْتِيَار.

٤. مقال المَسْأَلَة الهِنْدِيَّة، وهو دراسة متخصصة للهِنْد والأَفْغَان.

---

(١) انظر الكلام المُفَصّل عن شَمَائِله وأَخْلَاقه في: تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص٩٥٠-٩٧٣ و١٠٣٥-١٠٤٣.

٥. رِسَالَة المدبر الإنساني والمدبر العقلي الروحاني، موضوعها فلسفي، يدور حول عُنْصُرَي الروح والجسد. ورُجِّحَ أنها مترجمة من قبل عَلِيّ مُبَارَك باشا، أعطاها للشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه، ليصوغها بأُسْلُوْب فصيح[1].

لٰكِن المُتَّفَق عليه أن آثاره هي:

١. **تَارِيْخ إسْمَاعِيْل باشا:** قال السَّيِّد رَشِيْد رِضَا: أَخْبَرَنِي بهٰذَا الكتاب أحد تلاميذه الأولين، وقال: إن السَّيِّد عَبْد الله النديم كان أخذ من الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه نسخته في أثناء الثورة العُرَابِيَّة، ونشر منه فُصُوْلاً في جريدة الطائف بتصرف أو بغير تصرف.

٢. **رِسَالَة في وحدة الوجود:** بَيَّنَ فيها مراتب الوجود، وتعددها من وجه، ونظامها العام، ووحدتها من وجه آخر. قال السَّيِّد رَشِيْد: لم أطلع عليها، وهو الذي أَخْبَرَنِي عنها.

٣. **فلسفة الاجتماع والتَّارِيْخ:** أَلَّفَهُ أيام تدريسه مُقَدِّمَة ابن خَلْدُوْن في مدرسة دار العُلُوْم، لٰكِنه فقد عندما عزله توفيق باشا من المدرسة، ونفي السَّيِّد جمال الدِّيْن. وكان يقول: أَتَمَنَّىٰ لو يحفظ هٰذَا الكتاب من وقع في يده، ويدعيه لنفسه، ولو بعد موتي، لينتفع به الناس.

٤. **شرح نهج البَلَاغَة:** وقد طبع في بَيْرُوْت وطَرَابُلُس ومِصْر مراراً. وكان سبب شرحه له حمل طلبة المدارس علىٰ مَطَالِعته، لأجل تَحْصِيْل ملكة البَلَاغَة من كتاب مملوء بالتَّوْحِيْد وعظمة الإسْلَام.

٥. **شرح مقامات بَدِيْع الزَّمَان الهَمَذَانِيّ:** وهو مطبوع في بَيْرُوْت.

---

(١) انظر هٰذَا التَّرْجِيْح في: الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، المُقَدِّمَة، تَحْقِيْق هٰذِهِ الأَعْمَال، ج١ ص٢٠٦ وما بعدها.

٦. **شرح البَصَائِر النُّصَيْرِيَّة في المنطق**: وهو شرح وَجِيْز أُطلق عليه لفظ التَّعْلِيْقَات، وهو من أحسن ما كتب المُسْلِمُوْن في المنطق، ولم يسبق لأحد قبله كتابة عليه فيما نعلم، كما ذكر الشَّيْخ رَشِيْد رِضَا، وقد قرأه درساً في الأَزْهَر، وحضرناه عليه، وقرر أَخِيْراً مجلس إدارة الأَزْهَر تدريسها فيه رسمياً.

٧. **نظام التربية والتَّعْلِيْم بمِصْر**: وهي رِسَالَة في الطريقة المثلىٰ لتربية المِصْرِيِّيْن وتَعْلِيْمهم، وهي علىٰ إيجازها من أحسن ما كتب وأنفعه.

٨. **رِسَالَة التَّوْحِيْد**: وقد قرأها درساً في الأَزْهَر، وكان لها وقع عَظِيْم في أنفس أهل العقل والعلم من المُسْلِمِيْن والنَّصَارَىٰ معاً، وقَرَّضَهَا كثير من عُلَمَاء الفريقين، وطبعت مراراً، وترجمت إلىٰ الفرنسية.

٩. **تَقْرِيْر المحاكم الشَّرْعِيَّة.**

١٠. **الإِسْلَام والنَّصْرَانِيَّة مع العلم والمَدَنِيَّة**: وهو مَقَالَات في مَجَلَّة المَنَار، جردت منها وطبعت مستقلة بإذنه مراراً. كتبها رداً علىٰ فرح أنطوان، كما سيأتي.

١١. **تَفْسِيْر القُرْآن الكَرِيْم**: بدأ فيه من أول القُرْآن ووصل إلىٰ الآية ١٢٥ من سورة النساء، وقد ضمنه الشَّيْخ رَشِيْد في تَفْسِيْره (المَنَار).

وقد طبع له إضافة إلىٰ ما تقدم:

تَفْسِيْر سورة العَصْر: وهو دروس متعددة ألقاها في الجَزَائِر، ثم كتبها لينشرها في مَجَلَّة المَنَار.

تَفْسِيْر جزء عَمَّ: كتبه ليُقْرَأ في مدارس الجمعية الخَيْرِيَّة الإِسْلَامِيَّة، وجعل طبعه حقاً للجمعية، وقد كتبه في بعض أسفاره الصيفية إلىٰ أُوربا، وأتمه في مَدِيْنَة جنيف في صيف ١٣٢١هـ=١٩٠٣م، وطبع مراراً(١).

---

(١) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإِمَام ج١ ص٧٧٧-٧٨٨.

الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه وكتاب تَحْرِيْر المرأة لقَاسِم أمين[١]:

صدر كتاب (تَحْرِيْر المرأة) سنة ١٨٩٩م، فأحدث في المجتمع المِصْرِيّ خاصةً والمجتمع الشرقي عامةً، معركة فكرية فريدة، هزت المجتمعات من الأعماق. حتىٰ قال فيه الشَّيْخ عَلِيّ يُوْسُف صاحب (المُؤَيِّد): (إننا نظن أن يكون ظهور هٰذَا الكتاب مصدر تغير عَظِيْم في أَفْكَار الأُمَّة، ينشأ عنه فيما بعد تغير أعظم في أَخْلَاقها). فصار يلقب مُحَرِّر المرأة، ولوثر الشرق... إلخ[٢].

والنَّاظِر في هٰذَا الكتاب يجد أن قَاسِم أمين يوضح فيه:

١- بطلان القول بأن الغربي الذي يحب أن ينسب كل شيء حسن إلىٰ دينه، يعتقد

(١) **قَاسِم أمين**: هو قَاسِم بن مُحَمَّد أمين المِصْرِيّ. حقوقي وباحث اجتماعي. كان أبوه من أولاد أُمَرَاء الأكراد، أخذته الدولة العُثْمَانِيَّة رهينة، فأفلت منها، وجاء مِصْر، ودخل في الجيش، ورُقِّيَ إلىٰ رتبة أَمِيرلاي. وقَاسِم بِكْر أبيه، وأُمّه مِصْرِيَّة.

ولد سنة ١٢٨٢هـ=١٨٦٥م، ببلدة طرة من ضواحي القَاهِرَة، وتثقف في مدارس الحكومة، وأُرسل إلىٰ فرنسا لدراسة الحقوق، ثم عاد إلىٰ مِصْر، فعُيِّنَ وَكِيْلاً للنائب العمومي في المحكمة المختلطة، فمستشاراً لمحكمة الاستئناف الأهلية.

بحث في حال البيوت بمِصْر، وقرأ ما كتبه الإفرنج عن شأن النساء، وانتهىٰ به البَحْث إلىٰ تأليف كتابه (تَحْرِيْر المرأة)، الذي هز مِصْر هزةً شديدةً، وشغل جرائدها في نقده. فعُرِفَ اسمه في الشرق والغرب، وعُدَّ من المصلحين الاجتماعيين.

من آثاره: تَحْرِيْر المرأة، والمرأة الجديدة، وكلمات في الأَخْلَاق.

توفي بالقَاهِرَة في سنة ١٣٢٦هـ=١٩٠٨م.

مُعْجَم المُؤَلِّفِيْن ج٢ ص٦٤٩ طَبْعَة الرِّسَالَة، وذكر في هامشه: (وفي الأَعْلَام للزِّرِكْلِيّ: ولد سنة ١٢٧٩هـ).

(٢) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، المُقَدِّمَة، ج١ ص٢٤٥.

أن المرأة الغربية تَرَقَّت، لأن دينها المَسِيْحِيّ ساعدها علىٰ نيل حريتها.

قال قَاسِم أمين: هٰذَا الاعْتِقَاد باطل، فإن الدِّيْن المَسِيْحِيّ لم يتعرض لوضع نظام يكفل حرية المرأة، ولم يبين حقوقها بأَحْكَام خاصة أو عامة، ولم يرسم للناس في هٰذَا الموضوع مبادئ يهتدون بها...[1].

٢- أن الشَّرْع الإِسْلَامِيّ سبق كل شريعة سواه في تَقْرِيْر مساواة المرأة للرجل، فأعلن حريتها واستقلالها يوم كانت في حضيض الانحطاط عند جميع الأُمَم، وخَوَّلَهَا كل حقوق الإنسان، واعتبر لها كفاءة شَرْعِيَّة لا تنقص عن كفاءة الرجل في جميع الأحوال المَدَنِيَّة من بيع وشراء وهبة ووصية، من غير أن يتوقف تصرفها علىٰ إذن أبيها أو زوجها...[2].

٣- شريعتنا الإِسْلَامِيَّة بالغت في الرفق بالمرأة، فوضعت عنها أعمال المعيشة، ولم تلزمها بالاشتراك في نفقة المنزل وتربية الأولاد، خلافاً لبعض الشرائع الغربية التي سَوَّت بين الرجل والمرأة في الواجبات فقط، وميزت الرجل في الحقوق.

وقال أَيْضاً:

ولم أَرَ إِلَّا مَسْأَلَة وَاحِدَة مَيَّزَ الشَّرْع فيها الرِّجَال علىٰ النساء، وهي تعدد الزوجات. والسبب في ذٰلِكَ واضح يتعلق بمَسْأَلَة النسب، التي لا يقوم للزواج حياة بدونها.

وبالجُمْلَة فليس في أَحْكَام الديانة الإِسْلَامِيَّة، ولا فيما ترمي إليه من مَقَاصِدها ما يمكن أن يُنْسَب إليه انحطاط المرأة المسلمة، بل بالعكس، فإنها أكسبتها مقاماً رفيعاً في الهيئة الاجتماعية.

لٰكِن وا أسفاه، قد تغلبت علىٰ هٰذَا الدِّيْن الجميل أَخْلَاق سيئة، ورثناها عن الأُمَم

---

(١) تَحْرِيْر المرأة: قَاسِم أمين ص١٢.

(٢) تَحْرِيْر المرأة ص١٢.

التي انتشر فيها الإسْلَام، ودخلت فيه حَامِلَة لما كانت عليه من عوائد وأوهام[١].

٤- وقال: المرأة مُحْتَاجة إلىٰ التَّعْلِيْم، لتكون إنساناً يعقل ويريد.

فالبنت التي فقدت أقرباءها ولم تتزوج، والمرأة المطلقة، والأرملة التي توفي زوجها، والوالدة التي ليس لها أولاد ذكور أو لها أولاد قصر، كل هٰذِهِ المذكورات يحتجن إلىٰ التَّعْلِيْم، ليمكنهن القيام بما يسد حاجتهن.

أما تجردهن عن العلم فيلجئهن إلىٰ طلب الرزق، بالوَسَائِل المخالفة للآداب[٢].

وقال أَيْضاً:

نرىٰ النساء يضعن أَخْتَامهن علىٰ حساب، أو مستند، أو عقد يجهلن موضوعه، فتُجَرَّد الوَاحِدَة منهن عن حقوقها الثَّابِتَة بتزوير أو غش أو اختلاس يرتكبه زوجها أو أحد أقاربها أو وَكِيْلها، فهل كان يقع ذٰلِكَ لو كانت المرأة متعلمة؟[٣].

وقال:

ولست ممن يطلب المساواة بين المرأة والرجل في التَّعْلِيْم، فذٰلِكَ غير ضروري، وإنما أطلبه الآن، ولا أتردد في الطلب، أن توجد هٰذِهِ المساواة في التَّعْلِيْم الابتدائي علىٰ الأقل[٤].

ودفع اعتراضاً، لا يمكن السكوت عنه، كما يقول: وهو الخوف من أن تَعْلِيْم المرأة يفسد أَخْلَاقها، بل لم يزدها إلَّا براعة في الاحتيال والخدعة.

قال: والحقيقة أن طهارة القلب في الغرائز والطبائع، فإن كانت المرأة صالحة زادها

---

(١) تَحْرِيْر المرأة ص١٣.
(٢) تَحْرِيْر المرأة ص١٩.
(٣) تَحْرِيْر المرأة ص٢٠.
(٤) تَحْرِيْر المرأة ص٣٢.

علمها صَلَاحاً وتقوىٰ، وهٰكَذَا الحال في الرِّجَال. والمرأة المتعلمة تخشىٰ عواقب الأُمُور أكثر مما تخشَاه الجاهلة(١).

٥- الاهتمام بالتربية، حيث قال:

أود أن كل مِصْرِيّ يرىٰ أن مَسْأَلَة التربية عندنا هي أُمّ سائر المَسَائِل، وأن كل مَسْأَلَة غيرها مهما كانت أهميتها داخلة فيها(٢).

وآن الوقت لتربية نفوسنا تربية صَحِيْحَة مَتِيْنَة عِلْمِيَّة، تربية تنشئ رِجَالاً أُولي علم، وأصالة رأي، يجمعون بين المَعَارِف والأَخْلَاق، والعلم والعَمَل، تربية تنقذنا من جميع العيوب التي يقذفنا بها الأجنبي في كل يوم وبكل لِسَان. وكلها ترجع إلىٰ سبب وَاحِد، هو النقص في تربية نفوسنا. وقد اتفق جميع أهل النَّظَر في مِصْر علىٰ أن التربية هي الدواء الوحيد لذٰلِكَ الداء(٣).

٦- الحجاب. قال:

ربما يتوهم ناظر، أنني أرىٰ الآن رفع الحجاب بالمَرَّة، لٰكِن الحقيقة غير ذٰلِكَ، فإنني لا أزال أُدافع عن الحجاب، وأعتبره أَصْلاً من أُصُوْل الأدب التي يلزم التمسك بها.

غير أني أطلب أن يكون منطبقاً علىٰ ما جاء في الشَّرِيْعَة الإسْلَامِيَّة.

وهو علىٰ ما في تلك الشَّرِيْعَة يخالف ما تعارفه الناس عندنا.

والذي أراه أن الغربيين قد غلوا في إباحة التكشف للنساء، وقد تغالينا نحن في طلب التحجب والتحرج من ظهور النساء لأعين الرِّجَال، حتىٰ صيرنا المرأة متاعاً من

---

(١) تَحْرِيْر المرأة ص٣٤.

(٢) تَحْرِيْر المرأة ص٣١.

(٣) تَحْرِيْر المرأة ص٣١.

المقتنيات، وحرمناها من كل المزايا العقلية والأدبية التي أُعِدَّت لها بمُقْتَضَىٰ الفطرة الإنسانية[(١)].

وذكر:

أن الحجاب معروف عند اليُوْنَان والأُمَم الشَّرْقِيَّة والدِّيْن المَسِيْحِيّ، فكن يغطين رُؤُوْسهن إذا خرجن في الطريق، وفي وقت الصلاة، وكانت النساء تستعمل الخمار في القرون الوسطىٰ خصوصاً في القرن التاسع، فكان الخمار يحيط بأكتاف المرأة، ويجر علىٰ الأرض تَقْرِيْباً. واستمر كذٰلِكَ إلىٰ القرن الثالث عشر، حيث صارت النساء تخفف منه، ولٰكِن بقي بعد ذٰلِكَ بزمن في أسبانيا وفي بلاد أمريكا التي كانت تابعة لها، فكان عادة عند كل الأُمَم تَقْرِيْباً، ثم تلاشت جرياً علىٰ سنة التقدم والرُّقِيّ. فالمُسْلِمُوْن لم يستحدثوه، ولم يكن خاصاً بهم[(٢)].

وقال أَيْضاً:

إذا وقفت المرأة في بعض مَوَاقِف القَضَاء خصماً أو شَاهداً، كيف أن يسوغ لها ستر وجهها؟

والقُضَاة متساهلون في رعاية الواجب فيها، فهم يقبلون أن تحضر المرأة أمامهم مستترة الوجه، وهي مدعية أو مدعىٰ عليها أو شَاهدة، وذٰلِكَ منهم اسْتِسْلَاماً للعوائد. وليس بخافٍ ما في هٰذَا التسامح من الضرر، لعدم الثِّقَة بمَعْرِفَة الشخص المستتر، ولما في ذٰلِكَ من سهولة الغش.

بل أقول: إن أول واجب علىٰ القَاضِي أن يتعرف وجه الشَّاهد والخصم خصوصاً في الجنايات، وإلَّا فأي معنى لما أوجبه الشَّرْع والقَانُوْن من السؤال عن اسم الشخص وسِنِّهِ وصناعته ومولده؟ وماذا تفيد مَعْرِفَة هٰذِهِ الأُمُور كلها إذا لم يكن معروفاً بشخصه؟

---

(١) تَحْرِيْر المرأة ص٣٧.

(٢) تَحْرِيْر المرأة ص٣٨.

والحكمة في أن الشَّرِيْعَة الغراء كلفت المرأة بكشف وجهها عند تأدية الشهادة، ظَاهِرَة، وهي تمكن القَاضِي من التفرس في الحَرَكَات التي تبدو علىٰ الوجه، فيقدر الشهادة بذٰلِكَ قدرها.

لا ريب أن ما ذكرنا من مضار التحجب يندرج في حكمة إباحة الشَّرْع الإِسْلَامِيّ لكشف المرأة وجهها وكفيها، ونحن لا نريد أكثر من ذٰلِكَ.

واتفق أَئِمَّة المَذَاهِب أَيْضاً علىٰ أنه يجوز للخاطب أن ينظر إلىٰ المرأة التي يريد أن يتزوجها، بل قالوا بندبه، لقوله ﷺ لأحد الأَنْصَار، وكان قد خطب امرأة: (انظر إليها، فإنه أحرىٰ أن يُؤْدَمَ بينكما).

ونُصُوْص القُرْآن وروايات الأَحَادِيْث وأقوال أَئِمَّة الفِقْه كلها واضحة جلية في أن الله تعالىٰ أباح للمرأة كشف وجهها وكفيها[1].

وتضمن كتاب تَحْرِيْر المرأة موضوعات أُخْرَىٰ فِقْهِيَّة.

وتعددت الأقوال في من أمر بتأليف الكتاب، هل هو اللورد كرومر؟ لأنه استاء من قَاسِم أمين عندما دافع عن حجاب المرأة المِصْرِيَّة، ومحافظتها علىٰ التقاليد، في رده الذي كتبه بالفرنسية علىٰ الكاتب الفرنسي دوق داركور، صاحب كتاب (مِصْر والمِصْرِيُّون).

وقيل: الذي أمر بتأليفه هي الأَمِيْرة نازلي هانم فاضل، حَفِيْدَة إِبْرَاهِيْم باشا، وابنة فاضل باشا.

وعلىٰ أية حال:

فإن الكتاب تناول الرد علىٰ مطاعن الكاتب الفرنسي دوق داركور، ورفع من شأن الحجاب، وعَدَّهُ دليلاً علىٰ كَمَال المرأة، وندد بالداعيات إلىٰ السفور، واشتراك المرأة في

---

(١) تَحْرِيْر المرأة ص٤١-٤٢.

الأَعْمَال العامة[١].

وذهب الأُسْتَاذ مُحَمَّد عُمَارَة محقق الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه: إلىٰ أن كتاب تَحْرِيْر المرأة جاء ثمرة عمل مشترك بين كل من الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه وقَاسِم أمين، وأن في هٰذَا الكتاب عدة فُصُوْل قد كتبها الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه وعدة فُصُوْل أُخْرَىٰ كتبها قَاسِم أمين.

ثم صاغ الأُسْتَاذ الإمَام الكتاب صياغته النهائية.

وأورد جُمْلَة من الأَدِلَّة علىٰ رأيه، منها:

١- في كتاب (تطور النهضة النسائية في مِصْر) الذي وضعته الدكتورة درية بنت أَحْمَد شفيق باشا، بالاشتراك مع الدكتور إبْرَاهِيْم عَبْدُه، تصريح بأن الذي شارك قَاسِم أمين في كتابه تَحْرِيْر المرأة هو الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه، حيث ورد فيه: (أما الأُمُور التي عالجها الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه من الناحية الدِّيْنِيَّة، فيما يختص بحقوق المرأة، فقد تناولها قَاسِم أمين بالبَحْث من الناحية الاجتماعية. وقد وجدت آراء قَاسِم أمين تأييداً تاماً عند الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه)[٢].

٢- الفُصُوْل الوَارِدَة في (تَحْرِيْر المرأة) وهي:

حجاب النساء من الجهة الدِّيْنِيَّة ص٣٩-٤٦

والمرأة في صدر الإسْلَام ص٧١-٧٢

والزواج ص٧٣-٧٨

وتعدد الزوجات ص٧٨-٨٢

والطلاق................................. ص٨٢-٩٥

---

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، المُقَدِّمَة، ج١ ص٢٤٧ وما بعدها.

(٢) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، المُقَدِّمَة، ج١ ص٢٥٢-٢٥٣.

هٰذِهِ الفُصُوْل فكر خالص وصياغة خالصة للأُسْتَاذ الإِمَام، لأن فيها آراء فِقْهِيَّة ومناقشات لا يستطيع أن يبحثها كاتب مثل قَاسِم أمين.

كقوله:

(ولم أَرَ إِلَّا مَسْأَلَة وَاحِدَة مَيَّزَ الشَّرْع فيها الرِّجَال علىٰ النساء...).

وقوله:

(واتفق أَئِمَّة المَذَاهِب علىٰ أنه يجوز للخاطب أن ينظر إلىٰ المرأة التي يريد أن يتزوجها).

وقوله:

(ولا يوجد اختلاف في جميع كتب الفِقْه من أي مَذْهَب كانت، ولا في كتب التفاسير...).

وأقوال أُخْرَىٰ لا يمكن أن يكتبها إِلَّا فقيه استقصىٰ آراء أَئِمَّة المَذَاهِب وكتب التَّفْسِيْر والحَدِيْث. وهٰذَا لا يتصور من قَاسِم أمين، إنما من الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه.

ثم إن في هٰذِهِ الفُصُوْل اقتباسات من أُمَّهَات كتب الفِقْه الإِسْلَامِيّ، فينقل عن الإِمَام الغَزَالِيّ، والرَّوْض في المَذْهَب الشَّافِعِيّ.

وعن ابن عَابِدِيْن، وتبيين الحَقَائِق للزَّيْلَعِيّ، وهٰذَان في المَذْهَب الحَنَفِيّ. وغيرها، مما يَدُلّ علىٰ أن كاتبها الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه الفَقِيْه المفسر، ولا يمكن صدورها من قَاسِم أمين، لأنه مهتم بالفكر الغربي أولاً، وثانياً أن ثقافته الشَّرْعِيَّة لم تبلغ مَعْرِفَة هٰذِهِ المؤلفات ومؤلفيها والاقتباس عنها والتوثيق منها[١].

٣- أيد الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه ما في هٰذَا الكتاب (تَحْرِيْر المرأة)، ودافع عنه بطريقة

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه، المُقَدِّمَة، ج١ ص٢٥٨-٢٦٠.

غير مباشرة، وامتنع عن التَّعْلِيْق عليه، أو المشاركة بشكل مباشر في المعارك التي دارت من حوله، وبالذات عندما أراد خصومه إحراجه، وطلبوا منه أن يفتي بحكم منصبه الرسمي في الموضوع.

ودفاعه غير المباشر عن الكتاب يتمثل في وقوف الشَّيْخ رَشِيْد رِضَا، ومجلته (المَنَار) إلىٰ جانب الكتاب. فلقد تناولت (المَنَار) الكتاب بالمدح والتقريظ في أكثر من مرة، واعتبرته مع (رِسَالَة التَّوْحِيْد) للأُسْتَاذ الإمَام و(سر تقدم الإنجليز السكسونيين) الذي ترجمه فتحي زَغْلُوْل، أهم الأَعْمَال الفكرية في ذٰلِكَ العَصْر[1].

بعد هٰذَا يمكن القول:

بأن ما تقدم من مضامين هٰذَا الكتاب، وهٰذِهِ القرائن ونحوها، دليل علىٰ أن هٰذَا الكتاب ليس فيه ما يخالف الشَّرِيْعَة الإسْلَامِيَّة، خاصةً وأن الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه وتلميذه رَشِيْد رِضَا كانا راضيين عنه.

وإنما أحدث ضجة فكرية، لأنه هاجم العادات والتقاليد التي مضىٰ عليها الناس، واعتقدوها ديناً لا ينبغي الخروج عليه.

فتاواه:

قام الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه بمهمة الإفتاء ست سنوات كَامِلَة، من: ٢٤/ محرم/ ١٣١٧هـ = ٣/ يونيو/ ١٨٩٩م، إلىٰ وفاته في: ٧/ جمادىٰ الأُوْلَىٰ/ ١٣٢٣هـ = ١١/ يوليو/ ١٩٠٥م.

وأول فتوىٰ أصدرها كان تَارِيْخها في: ٢/ صفر/ ١٣١٧هـ، أي: بعد أُسْبُوع من توليه هٰذَا المنصب.

---

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، المُقَدِّمَة، ج١ ص٢٥٥.

وآخر فتوىٰ أصدرها كان تَارِيْخها في: ٤/ رَبِيْع الثاني/ ١٣٢٣هـ، أي: قبل وفاته بشهر وثلاثة أيام، وهي مدة اشتداد مرضه الذي توفي فيه.

وكان مجموع الفَتَاوَىٰ التي دونت في مضبطة دار الإفتاء قد بلغ عددها ٩٤٤ فتوىٰ(١).

ونجد في هٰذِهِ الفَتَاوَىٰ:

١- صورة المجتمع في ذٰلِكَ الوقت، والثغرات في النظام الاجتماعي والاقْتِصَادِيّ، ومُعْضِلَاته، ومشاكله، والظلم الواقع علىٰ الناس.

فأغنىٰ وأَوْسع الأراضي الوقفية في مِصْر كانت بأَسْمَاء نساء القصر من الجواري الحَبَشِيّات والجراكسة، السود والبيض، وأولادهم، وأولاد أولادهم، وجواريهم وعتقائهم.

ويتضح ذٰلِكَ في فَتَاوَىٰ الشَّيْخ الخاصة بالأوقاف، جواباً علىٰ الأسئلة الوَارِدَة إليه، التي تضمنتها سجلات دار الإفتاء.

٢- بروز شخصية الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه، حيث كان مرجع المُسْلِمِيْن في الفتوىٰ بمِصْر، ومرجع الطوائف الأُخْرَىٰ، فيسأله الأقباط، وأبناء الجاليات الأُوربية، وبطركخانة الرُّوْم، بل وحاخامات اليَهُوْد في مِصْر وعَكَّا، عن مشاكلهم المالية والأُسرية فيفتيهم.

وهٰذَا يؤكد سعة أُفْقَه واستنارته وموضوعيته(٢).

٣- بَيَان موقفه من البدع والخرافات التي تراكمت علىٰ معتقدات الناس

---

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، المُقَدِّمَة، ج١ ص٢٣٧-٢٣٨.

(٢) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه ج٦ ص٢٤٠.

وسُلُوْكهم، فحسبوها جهلاً من الإِسْلَام[١].

٤- دعوته إلىٰ تعاون المُسْلِمِيْن مع غيرهم من أصحاب الديانات الأُخْرَىٰ والنِّحَل والأَهْوَاء المُخْتَلِفَة، إذا كان يحقق هدف بناء البلاد، وتحصينها من كل الأوبئة والشرور التي تحيط بهم[٢].

٥- دعوته إلىٰ حفظ حقوق المرأة في استقلالها المالي والاقْتِصَادِيّ، فأبرز تفوق الإِسْلَام علىٰ القوانين الغربية[٣].

واشتهرت فَتَاوَىٰ الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه، وتميزت كلها بالميل إلىٰ التسامح، واستقلال الرأي، والبعد عن التقليد، والملاءمة بين روح الإِسْلَام ومَطَالِب المَدَنِيَّة الحَدِيْثَة[٤].

ومما اشتهر من فتاواه:

١- الفتوىٰ الهِنْدِيَّة:

وكانت جواباً عن سؤال ورد من الهِنْد، بشأن استعانة المُسْلِمِيْن بالكفار وأهل البدع والأَهْوَاء، لنصرة الملة وحفظ حوزة الأُمَّة.

وبعد استعراض الشَّيْخ الآيات الكَرِيْمَة في علاقة المُسْلِمِيْن بغيرهم، وآيات النهي عن: موالاة غير المُؤْمِنِيْن، أو مُوَادَّة الفاسقين، أو اتخاذ بطانة من غير المُؤْمِنِيْن، الذين يبذلون وسعهم في سَبِيْل خذلان المُسْلِمِيْن وإيقاع الضرر بهم، ذهب الشَّيْخ إلىٰ عدم جواز استعانة المُسْلِمِيْن بهؤُلَاءِ الأعداء، ما داموا معادين للإِسْلَام وأهله.

أما إذا أُمِنَ الضرر، وغلب الظن بالمنفعة، ولم يكن في المُوَادَّة معونة علىٰ تعدي

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه ج٦ ص٢٤١.
(٢) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه ج٦ ص٢٤١.
(٣) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه ج٦ ص٢٤٢.
(٤) مُحَمَّد عَبْدُه: عُثْمَان أمين ص١١٤، وفيه قول تشارلز في فَتَاوَىٰ الشَّيْخ.

حدود الله ومخالفة شرعه، جازت الاستعانة بمن لم يكن من المُسْلِمِيْن، أو بأهل الأَهْوَاء، علىٰ ما فيه خير ومنفعة للمُسْلِمِيْن.

وأورد عدداً من الآيات الكَرِيْمَة والأَحَادِيْث الشَّرِيْفَة وأقوال الفُقَهَاء، لتأكيد ما ذهب إليه[1].

٢- فتوىٰ التأمين علىٰ الحياة:

سأل مدير شركة «قمبانية» (متوال ليف) الأمريكانية، في:

رجل اتفق مع جَمَاعَة (قومبانية) علىٰ أن يعطيهم مبلغاً مَعْلُوْماً، في مدة مَعْلُوْمَة، علىٰ أقساط معينة، للاتجار به فيما يبدو لهم فيه الحظ والمصلحة. وأنه إذا مضت المدة المذكورة، وكان حياً، يأخذ هٰذَا المبلغ منهم مع ما ربحه من التجارة في تلك المدة.

وإن مات في خلالها تأخذ ورثته أو من يطلق له حال حياته وِلَايَة الأخذ المبلغ المذكور مع الربح الذي نتج مما دفعه.

فهل ذٰلِكَ يوافق شرعاً؟ أفيدوا الجواب.

فأجاب الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه بما يأتي:

اتفاق هٰذَا الرجل مع هٰؤُلَاءِ الجَمَاعَة علىٰ دفع ذٰلِكَ المبلغ علىٰ وجه ما ذكر، يكون من قبيل شركة المُضَارَبَة، وهي جائزة.

ولا مَانِع للرجل من أخذ ماله مع ما أنتجه من الربح بعد العَمَل فيه بالتجارة.

وإذا مات الرجل في أثناء المدة، وكان الجَمَاعَة قد عملوا فيما دفعه، وقاموا بما

---

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه ج١ ص٧٠٨-٧١٥.

وهي أَيْضاً في: الأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه ج٦ ص٢٣٦. وفيها تَارِيْخ هٰذِهِ الفتوىٰ في: ٩/ محرم/ ١٣٢٢هـ، رقم ١.

التزموه من دفع المبلغ كله لورثته، أو لمن يكون له حق التصرف بدل المُتَوَفَّىٰ بعد موته جاز للورثة أو من يكون له حق التصرف في المال أن يأخذ المبلغ جميعه مع ما ربحه المدفوع منه بالتجارة علىٰ الوجه المذكور. والله أعلم(١).

وللعُلَمَاء والباحثين المُحْدَثِيْن ثلاثة أقوال في التأمين:

القول الأول: الإباحة مطلقاً.

وممن قال به: الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه في فتواه هٰذِهِ، والشَّيْخ عَبْد الوَهَّاب خَلَّاف، والشَّيْخ عَلِيّ الخفيف، والأُسْتَاذ مُصْطَفَىٰ الزرقا، والشَّيْخ الأُسْتَاذ مُحَمَّد سَلَّام مَدْكُوْر.

القول الثاني: المنع مطلقاً.

وممن قال به: العلامة ابن عَابِدِيْن، والشَّيْخ عَبْد الرَّحْمٰن قراعة، والشَّيْخ أَحْمَد إبْرَاهِيْم، والشَّيْخ أمجد الزهاوي.

القول الثالث: التفصيل.

وممن قال به: الشَّيْخ عَبْد الرَّحْمٰن عِيسَىٰ، والشَّيْخ أَحْمَد الشرباصي، والأُسْتَاذ مُحَمَّد يُوْسُف مُوسَىٰ، والشَّيْخ مُحَمَّد أبو زُهْرَة.

ولهم في ذٰلِكَ أَدِلَّة ومناقشات يطول ذكرها.

---

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه ج٦ ص٢٥١. وفيها تَارِيْخ هٰذِهِ الفتوىٰ في: ١٠/ صفر/ ١٣١٩هـ، رقم ٣.

ومثلها: الفتوىٰ المُؤَرَّخة في: ٣/ ذي الحِجَّة/ ١٣٢٠هـ، رقم ٤، في: الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه ج٦ ص٢٥١.

ومثلها: الفتوىٰ المُؤَرَّخة في: ٤/ صفر/ ١٣٢١هـ، رقم ٥، في: الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه ج٦ ص٢٥٢.

والفتوىٰ رقم ٥ وردت أَيْضاً في: الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه ج١ ص٦٨٠.

٣- فتوىٰ صندوق التوفير في إدارة البريد:

في سنة ١٩٠٣م أَلَّفَت الحكومة لجنةً من عُلَمَاء الأَزْهَر، لدراسة موقف الشَّرْع من التوفير في صندوق توفير البريد، ووضع نتيجة لهٰذِهِ الدراسة نظام جديد لهٰذَا النمط من أنماط الادخار والاسْتِثْمَار.

ثم عرض هٰذَا المشروع علىٰ الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه بصفته مفتي الديار المِصْرِيَّة فوافق عليه[1].

سئل الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه:

ما هو رأي سيادتكم في صندوق التوفير بعد تعديله الأَخِيْر؟

وهل يجوز الادخار فيه، وأخذ أَرْبَاحه شرعاً؟

فأجاب:

إن التَّعْدِيْل الذي تعنونه قد كان برأي لجنة من عُلَمَاء الأَزْهَر، جمعها أَمِيْر البلاد، لأجل تَطْبِيْق إيداع النقود في الصندوق علىٰ قَوَاعِد الفِقْه المعروفة.

وقد كتبوا في ذٰلِكَ ما ظهر لهم، وأرسل إلىٰ الحكومة، فعرضته علىٰ المفتي. وبعد تَصْدِيْقه عليه، أمرت بالعَمَل به.

والذي يفهم سبب تحريمه من قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ﴾ - آل عِمْرَان: ١٢٠، أنه كان في المَدِيْنَة وغيرها من اليَهُوْد والمُشْرِكِيْن من يقرض المُحْتَاج بالربا الفاحش، كما نعهد من اليَهُوْد والخواجات في هٰذِهِ البلاد، وفي ذٰلِكَ من خراب البيوت ما فيه.

فالحكمة في تحريم الربا إزالة نحو هٰذَا الظلم، والمحافظة علىٰ فضيلة التراحم

---

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه، تدخل الدولة في الحياة الاقْتِصَادِيَّة، صندوق التوفير في إدارة البريد، ج١ ص٦٧٦.

والتعاون، أو فقل: أن لا يستغل الغَنِيّ حاجة أخيه الفَقِيْر إليه.

وهٰــذَا هو المُــرَاد بقوله تعالىٰ: ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ - البقرة: ٢٧٩.

ولا يخفىٰ أن المُعَامَلَة التي ينتفع ويرحم فيها الآخذ والمعطي، والتي لولاها لفاتتهما المنفعة معاً لا تدخل في هٰذَا التَّعْلِيْل: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾، لأنها ضده.

علىٰ أن المُعَامَلَة التي يقصد بها البيع والاتجار، لا القرض للحاجة، هي من قسم البيع لا من قسم استغلال حاجة المُحْتَاج.

ولا يخفىٰ أن إدارة البريد هي مصلحة غنية من مصالح الحكومة، وأنها تستغل المال الذي يودع في صندوق التوفير، فينتفع المودع والعُمَّال المستخدمون في المصلحة والحكومة، فلا يظلم أحدهم الآخر.

فالأرجح أن ما قالوه (أي: العُلَمَاء) ليس من الحيل الشَّرْعِيَّة، وإنما هو من قبيل الشركة الصَّحِيْحَة، من قومٍ المالُ، ومن آخرين الاستغلالُ، فلا مَانِع إذن في رأينا من العَمَل بتعديلهم.

والحاصل: أن المَسْأَلَة قد أحلوها من طريق الفِقْه الظَّاهِر، والباحث في الفِقْه الحقيقي، وهو حكمة الشَّرْع وسره، لا يرىٰ ما ينافي حلها بناءً علىٰ ما تقدم. والتضييق في التعامل يفقر الأُمَّة، ويضعفها، ويجعلها مسودة للأُمَم. والله أعلم وأحكم(١).

وفي فتوىٰ أُخْرَىٰ عن ربح صندوق التوفير، سأل أبو الأشبال الشَّيْخَ مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا قائلاً:

---

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، تدخل الدولة في الحياة الاقْتِصَادِيَّة، صندوق التوفير في إدارة البريد، ج١ ص٦٧٦-٦٧٧.

ونشرت هٰذِهِ الفتوىٰ في: غرة المحرم/ ١٣٢٢هـ = ٣/ مارس/ ١٩٠٤م.

إنا كَثِيْراً ما سمعنا من الناس إباحة وضع الأموال في صناديق التوفير بالبريد، وأخذ الفَوَائِد منها.

وذٰلِكَ مما لا نشك أنه الربا المحرم بإجماع المُسْلِمِيْن، لا نعلم بينهم خلافاً.

ثم إذا ناظرناهم فيه استندوا إلىٰ أن الأُسْتَاذ الإمَام مُحَمَّد عَبْدُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغفر له، أفتىٰ بجوازه في فتوىٰ رسمية.

ولما كنا لم نَرَ هٰذِهِ الفتوىٰ، ولم نعلم وجهها، وكنتم أخص الناس بالإمَام، وأعلمهم بأقواله وفَتَاوِيه، لجأنا إليكم لتبينوا لنا فتوىٰ الإمَام أولاً، وهل هي لا تعارض الكِتَاب والسُّنَّة ثانياً؟

خصوصاً وأن المجالس الحسبية قررت وضع أموال القاصرين في هٰذِهِ الصناديق، بناءً علىٰ هٰذِهِ الفتوىٰ المزعومة، كما يقولون.

فأجاب الشَّيْخ مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا بما يأتي:

إن كان للأُسْتَاذ الإمَام فتوىٰ رسمية في مَسْأَلَة صندوق التوفير، فهي توجد في مجموعة فَتَاوِيه بوزارة الحقانية، ومنها تطلب، وأنا لم أَرَ له فتوىٰ في ذٰلِكَ، ولٰكِنني سمعتُ منه في سياق حَدِيْث عن مقاومة الخِدَيْو له، ما حاصله:

إن الحكومة أنشأت صندوق التوفير في مصلحة البريد بدكريتو خِدَيْوِي (أمر عال)، ليتيسر للفُقَرَاء حفظ ما زاد من دخلهم عن نفقاتهم وتثميره لهم.

وقد تبين لها أن زهاء ثلاثة آلاف فَقِيْر من واضعي الأموال في صندوق التوفير لم يقبلوا أخذ الربح الذي استحقوه بمُقْتَضَىٰ الدكريتو.

فسألتني الحكومة:

هل توجد طريقة شَرْعِيَّة لجعل هٰذَا الربح حلالاً، حتىٰ لا يتأثم الفُقَرَاء من المُسْلِمِيْن من الانتفاع به؟

فأجبتها مشافهة:

بإمكان ذٰلِكَ، بمراعاة أَحْكَام شركة المُضَارَبَة في استغلال النقود المودعة في الصندوق(١).

لٰكِن هٰذِهِ الفتوىٰ كانت محل اعتراض من قبل غالب العُلَمَاء، باعتبار أنها من الربا المحرم، كما ورد في سؤال أبي الأشبال عن هٰذِهِ القضية، الذي جاء هٰذَا الجواب عليه.

٤- الفتوىٰ الترنسفالية(٢):

أ. فتوىٰ القبعة:

سأل الحاجُّ مُصْطَفَىٰ الترنسفالي الشَّيْخَ مُحَمَّد عَبْدُه ما يأتي:

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه، تدخل الدولة في الحياة الاقْتِصَادِيَّة، ربح صندوق التوفير، ج١ ص٦٧٨-٦٧٩.

ونشرت هٰذِهِ الفتوىٰ بتَارِيْخ: ٣٠/ رَبِيْع الآخر/ ١٣٣٥هـ = ٢٢/ فبراير/ ١٩١٧م.

(٢) **الترنسفال**: مقاطعة سابقة كانت تقع في شمال شرق جنوب إفْرِيْقِيًّا، بين نهر ليمبوبو من الشمال والغرب (الذي يمثل الحدود بين زمبابوي وبوتسوانا)، ونهر فال من الجنوب، وفي شرقها تقع موزمبيق وسوازيلاند. سكنها الأفارقة ذوو البشرة السَّمْرَاء الناطقون بلُغَة بانتو في حدود العام ١٨٠٠م، ثم احتلت بواسطة فلاحي بوير الذي حولوها إلىٰ دولة مستقلة، وأطلقوا عليها اسم (الجُمْهُوْرِيَّة الإفْرِيْقِيَّة الجنوبية) في عام ١٨٥٦م. وفي عام ١٨٧٧م احتلت بريطانيا المنطقة، ولٰكِن اكتشاف الذَّهَب والماس في عام ١٨٨٦م أدىٰ إلىٰ قدوم المستوطنين، وتوتر العلاقات بين بوير وبريطانيا، إضافةً إلىٰ تشكل ترانسفال كمُسْتَعْمَرَة تاجية في عام ١٩٠٠م بعد حَرْب بوير ١٨٩٩-١٩٠٢م. وفي عام ١٩١٠م أصبحت ترانسفال جزءاً من جنوب إفْرِيْقِيًّا، واعتبرت كمقاطعة حتىٰ عام ١٩١٤م. ولا وجود حالياً للمقاطعة. كانت مَدِيْنَة بريتوريا عاصة المقاطعة، وجوهانسبرغ أكبر مدنها.

ويكيبيديا المَوْسُوْعَة الحرة، (الترنسفال).

يوجد أفراد في بلاد الترنسفال يلبسون البَرَانِيط[١]، لقَضَاء مصالحهم، وعود الفَوَائِد عليهم، فهل يجوز ذٰلِكَ؟

فأجاب الشَّيْخ:

لبس البُرْنِيْطَة، إذا لم يقصد فاعله الخروج من الإسْلَام، والدخول في دين غيره، فلا يعد مُكَفِّراً.

وإذا كان اللبس لحاجة، من حَجْب شمس، أو دفع مضرة، أو دفع مكروه، أو تَيْسِيْر مصلحة، لم يكره كذٰلِكَ، لزوال معنىٰ التشبه بالمرة[٢].

واعتُرِضَت هٰذِهِ الفتوىٰ بأنها تَشَبُّهٌ بالكفار، فلا يجوز لبسها.

ب. فتوىٰ التذكية:

سأل بعض مسلمي الترنسفال الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه ما يأتي:

إن البقر في بلاد الترنسفال يضرب علىٰ رأسه بالبلطة، حتىٰ تضعف مقاومته، ثم يذبح قبل أن يموت، بدون تسمية الله عليه، فهل يجوز أكل لحمه؟

فأجاب الشَّيْخ:

نعم، إن الموقوذة هي ما ضربت بشيء غير محدد، كالحجارة والخشب حتىٰ ماتت. وهٰذِهِ ذبحت قبل موتها[٣].

---

(١) **البُرْنِيْطَة**: لباس الرأس عند الفَرَنْج. جمعه: بَرَانِيْط.

المُعْجَم الوَسِيْط، مادة البرنيطة، ص٨٦.

(٢) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، زي الكتابيين وذبائحهم، ج٦ ص٢٥٥. وفيها تَارِيْخ هٰذِهِ الفتوىٰ في: ٦/ شَعْبَان/ ١٣٢١هـ، رقم ٧.

والأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، فتوىٰ القبعة، ج٣ ص٥١٥.

(٣) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، فتوىٰ التذكية، ج٣ ص٥١٤.

قال الشَّيْخ:

والذي أراه أن يأخذ المُسْلِمُوْن في تلك البلاد بنص كتاب الله تعالىٰ في قوله: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ - المائدة: ٥، وأن يعولوا علىٰ ما قاله الإمَام الجَلِيْل أبو بَكْر بن العَرَبِيّ المَالِكِيّ، من أن المدار علىٰ أن يكون ما يذبح مأكول أهل الكتاب، قسيسهم وعامتهم، ويعد طعاماً لهم كافةً. فمتىٰ كانت العادة عندهم إزهاق روح الحيوان بأي طريقة كانت، وكان يأكل منه، بعد الذبح، رؤساء دينهم، ساغ للمسلم أكله، لأنه يقال له: طعام أهل الكتاب...[1].

واعترض علىٰ هٰذِهِ الفتوىٰ بأنها من الموقوذة المحرمة.

وللشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه فَتَاوَىٰ ومَقَالَات وأبحاث كثيرة، نشر بعضها السَّيِّد رَشِيْد رِضَا في كتابه الكَبِيْر تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام، خصص الجزء الثاني منه للمنشآت، ونشر في الجزء الأول بعضاً منها.

وأَخِيْراً، جمع الدكتور مُحَمَّد عُمَارَة كتبه، ومَقَالَاته، وخطبه، وكلماته، وما أُثِرَ عنه في الجرائد والمجلات والكتب، وفتاواه، في كتاب سَمَّاه: (الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه) في ستة أجزاء.

جعل الجزء الأول: للكتابات السياسية، وفي أوله دراسة معمقة إلىٰ ص٢٦٧ منه، كتبها الجَامِع لهٰذِهِ الأَعْمَال المُحَقِّق الأُسْتَاذ الدكتور مُحَمَّد عُمَارَة.

والجزء الثاني: للكتابات الاجتماعية.

والجزء الثالث: لكتابات الإصْلَاح الفكري والتربوي والإلٰهِيَّات.

والرابع والخامس: لتَفْسِيْر القُرْآن الكَرِيْم.

---

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، زي الكتابيين وذبائحهم، ج٦ ص٢٥٥-٢٥٦. وفيها تَارِيْخ هٰذِهِ الفتوىٰ في: ٦/ شَعْبَان/ ١٣٢١هـ، رقم ٧.

والجزء السادس: جعل القسم الأول منه فَهَارِس عامة للأجزاء الخمسة الأُوْلَىٰ، وجعل القسم الثاني منه للفَتَاوَىٰ التي برزت فيها شخصيته.

وفاته:

في الساعة الخامسة بعد الزوال من يوم الثلاثاء ثامن جمادىٰ الأُوْلَىٰ سنة ١٣٢٣هـ = ١١/ يوليو (تموز)/ ١٩٠٥م، توفي الإمَام مُحَمَّد عَبْدُه بالإسْكَنْدَرِيَّة عن سبعة وخمسين عاماً، فنقل إلىٰ القَاهِرَة، وصُلِّيَ عليه في الجَامِع الأَزْهَر، ودفن في قَرَافَة المجاورين[1].

(١) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص١٠٤٦، ١٠٤٩.

المَبْحَث الثاني

آراء الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه

قال الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه فيما كتبه عن سيرته:

وارتفع صوتي بالدعوة إلىٰ أمرين عَظِيْمَيْن:

الأمر الأول: تَحْرِيْر الفكر من قيد التقليد، وفهم الدِّيْن علىٰ طريقة سَلَف الأُمَّة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب مَعَارِفه إلىٰ ينابيعها الأُوْلَىٰ... وأنه علىٰ هٰذَا الوجه يعد صديقاً للعلم، بَاعِثاً علىٰ البَحْث في أَسْرَار الكون، داعياً إلىٰ احترام الحَقَائِق الثَّابِتَة، مَطَالِباً بالتعويل عليها في أدب النفس وإصْلَاح العَمَل... .

وقد خالفت في الدعوة إليه رأي الفئتين العَظِيْمَتَيْن اللتين يتركب منها جسم الأُمَّة: طُلَّاب عُلُوْم الدِّيْن ومن علىٰ شاكلتهم، وطُلَّاب فُنُوْن هٰذَا العَصْر ومن هو في ناحيتهم(١).

فدعا إلىٰ نبذ التقليد لما جرىٰ عليه الناس من نمط الحياة وما دخل الدِّيْن من بدع. فحين وجهت وزارة الأوقاف إلىٰ شَيْخ الأَزْهَر سؤالاً متعلقاً بضرب الطبل عند ذكر الله بمسجد الحُسَيْن في القَاهِرَة، وأفاد بأن ذٰلِكَ الضرب ونحوه في المساجد مما لا يسوغ شرعاً، ودعا الأوقاف أن تتخذ من الأساليب الكفيلة لمنعه وصيانة المساجد عن كل فعل يوجب تشويشاً علىٰ المصلين، أو إخلالاً بحرمة المسجد...، أكد الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه

(١) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص١١.

وهو في: الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، سيرتي، غَايَة في ثلاثة أهداف، ج٢ ص٣١٨.

ذٰلِكَ وقال: ولا يخرج من حكم المنع أَيْضاً ما يفعل من نحو ذٰلِكَ بأضرحة الأَوْلِيَاء...، وكذا الازدحامات التي تكون بالمساجد الشهيرة في أيام «الحَضْرَات» بمسجد السَّيِّدة زَيْنَب... إلخ(١).

وتناول كَثِيْراً من البدع بالنقد والمعالجة(٢).

ودعا الفُقَهَاء إلىٰ مواكبة الحياة وتطورها، فاقترح تكوين (جمعيات يتذَاكَرون فيها ويتفقون علىٰ الراجح الذي ينبغي أن يكون عليه العَمَل، وإذا كان بعض المَسَائِل رجح لأسباب خاصة بمكان أو زَمَان ينبغي لهم التَّنْبِيْه علىٰ ذٰلِكَ، وأن هٰذَا الحكم ليس عاماً وإنما سببه كذا، لا أنهم يجعلون كل ما قيل عن فقيه واجب الاتباع في كل زَمَان ومكان)(٣).

ودعا في التَّفْسِيْر إلىٰ الوقوف عند الصَّحِيْح المَعْقُوْل من الآراء في تَفْسِيْر الآيات القُرْآنِيَّة الكَرِيْمَة، وترك الضعيف والمبذول، والاعتبار بما قاسىٰ النَّبِيّ ﷺ وأصحابه من الجهد والعناء لنصر دين الله...(٤).

---

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه، مقالته: إبطال البدع من نظارة الأوقاف العمومية سنة ١٢٩٧هـ=١٨٨٠م، ج٢ ص٢٣.

(٢) انظر: الأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه، بطلان الدوسة، ج٢ ص٥٣و٥٦.

والأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه، عوائد الأفراح، ج٢ ص١٠٠.

والأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه، الصياح خلف الجَنَائِز، ج٢ ص١٤١.

والأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه، عادات المآتم، ج٢ ص١٤٣.

والأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه، الخرافات، ج٢ ص١٥٩.

(٣) الأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه، الأَزْهَر الشَّرِيْف والغرض من إصْلَاح طرق التَّعْلِيْم فيه سنة ١٩٠٤م، ج٣ ص١٩٧.

(٤) الأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه، (رِسَالَة سياسية) بعثها إلىٰ أحد أعضاء جمعية العُرْوَة الوثقىٰ، ج١ ص٥٨٩.

الأمر الثاني: إصْلَاح أساليب اللُّغَة العَرَبِيَّة في التَّحْرِيْر، سواء كان في المخاطبات الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها، أو فيما تنشره الجرائد على الكافة منشأً أو مترجماً من لُغَات أُخْرَىٰ، أو في المراسلات بين الناس. وكانت أساليب الكتابة في مِصْر تنحصر في نوعين: كلاهما يمجه الذوق، وتنكره لُغَة العَرَب:

الأول: ما كان مستعملاً في مصالح الحكومة وما يشبهها، وهو ضرب من ضروب التأليف بين الكلمات، رث خبيث غير مفهوم، ولا يمكن رده إلىٰ لُغَة من لُغَات العالم، لا في صورته ولا في مادته... .

الثاني: ما كان يستعمله الأُدَبَاء والمتخرجون من الجَامِع الأَزْهَر، وهو ما كان يراعىٰ فيه السجع وإن كان بارداً. وتلاحظ فيه الفواصل وأنواع الجناس وإن كان رديئاً في الذوق، بعيداً عن الفهم، ثقيلاً علىٰ السمع، غير مُؤَدٍّ للمعنىٰ المقصود، ولا منطبق علىٰ آداب اللُّغَة العَرَبِيَّة، وهو وإن كان يمكن رده إلىٰ أُصُوْل اللُّغَة العَرَبِيَّة في صورته، لٰكِنه لا يعد من أساليبها المرضية عند أهلها)[١].

ووصف لُغَة الصحافة بقوله: (ثم ظهرت جرائد كثيرة في هٰذِهِ البلاد لم يدع أربابها إلىٰ نشرها إلَّا الحاجة إلىٰ الكسب...، أما ما هو من ناحية ألفاظها وأساليبها فذٰلِكَ مما يحمد في قليل منها، ولٰكِنه يسوء أهل الذوق ويخيف أهل الغيرة علىٰ اللُّغَة في الكثير الأغلب، فإنك ترىٰ أُوْلٰئِكَ العجزة الضعفاء يخترعون ألفاظاً من عند أنفسهم فيما يشاؤون من المعاني، ويهشمون بها اللُّغَة تهشيماً، فلا يبالون بما يقدمون أو يؤخرون، لا يرجعون في ذٰلِكَ إلىٰ مُعْجَم، ولا يجرون علىٰ قاعدة، فيَزِيْدُوْن اللُّغَة ضعفاً علىٰ ضعفها، ويصكون وجه الفصاحة، ويصفعون قفا البَلَاغَة، وما ظنك بأُمَّة تهان فيها ملكة العُلُوْم وهي البَلَاغَة؟)[٢].

---

(١) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإِمَام ج١ ص١١.

(٢) الأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه، مَقَالَة: النهضة الأدبية في الشرق سنة ١٩٠٢م، ج٣

لذٰلِكَ نرىٰ الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه قد هجر السجع والجناس إلَّا ما جاء منه عفو الخاطر، وجرىٰ في ذٰلِكَ مجرىٰ السَّيِّد جمال الدِّيْن، فكان أُسْلُوْبه مع اهتمامه بالمضمون لا يقاس بأُسْلُوْب عَصْره، سَلَامَة، وجزالة، ودقة في التزام قَوَاعِد العَرَبِيَّة.

ودعا إلىٰ تأليف المَجَامِع لوضع المَعَاجِم اللُّغَوِيَّة وتَارِيْخ تطور اللُّغَة وما دخل فيها من اصْطِلَاح ومُعْرَب وغيره، والمَعَاجِم العِلْمِيَّة، وفلسفة البَيَان والانتقاد وغير ذٰلِكَ.

الأمر الثالث: قال: (وهناك أمر آخر كنت من دعاته، والناس جميعاً في عمى عنه، وبعدٍ عن تعقله، ولٰكِنه هو الرُّكْن الذين تقوم عليه حياتهم الاجتماعية، وما أصابهم الوهن والضعف والذل إلَّا بخلوّ مجتمعهم منه، وذٰلِكَ هو:

التَّمْيِيْز بين ما للحكومة من حق الطاعة علىٰ الشعب، وما للشعب من حق العدالة علىٰ الحكومة. نعم كنت فيمن دعا الأُمَّة المِصْرِيَّة إلىٰ مَعْرِفَة حقها علىٰ حاكمها...، دعوناها إلىٰ الاعْتِقَاد بأن الحَاكِم وإن وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون، وتغلبهم شهواتهم، وأنه لا يرده عن خطئه، ولا يوقف طغيان شهوته، إلَّا نصح الأُمَّة له بالقول والفعل، جهرنا بهٰذَا القول والاستبداد في عنفوانه، والظلم قَابِض علىٰ صوجانه، ويد الظالم من حديد، والناس كلهم عبيد له أي عبيد... .

ولا أبرح أدعو إلىٰ عقيدتي في الدِّيْن، وأُطالب بإتمام الإصْلَاح في اللُّغَة وقد قارب، أما أمر الحكومة والمحكوم فتركته للقَدَر يقدره، ولِيَدِ الله بعد ذٰلِكَ تدبره، لأنني قد

ص١٢٥-١٢٦. وفي هٰذِهِ المَقَالَة أَسْمَاء بعض الجرائد التي عناها بكلامه.

وانظر أَيْضاً كلامه في: الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، تقديم نهج البَلَاغَة، ج٢ ص٤١٧.

ودعوته إلىٰ تأليف المَجَامِع المذكورة في رسالته إلىٰ السَّيِّد رَشِيْد رِضَا (الإصْلَاح اللُّغَوِيّ) في: الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه ج٣ ص١٧٤.

عرفت أنه ثمرة تجنيها الأُمَم من غراس تغرسه، وتقوم علىٰ تنميته السنين الطوال، فهٰذَا الغراس هو الذي ينبغي أن يعنىٰ به الآن...)[(١)].

ولذٰلِكَ دعا إلىٰ بناء الأُسرة بناءً سَلِيْماً، لأن في صَلَاحها صَلَاح الأُمَّة، (عاطفة التراحم وداعية التعاون إنما تكونان علىٰ أشدهما وأَكْمَلهما في الفطرة بين الوَالِدَيْن والأولاد، ثم بين سائر الأقربين، فمن فسدت فطرته حتىٰ لا خير فيه لأهله، فأي خير يرجىٰ منه للبعداء والأبعدين؟ ومن لا خير فيه للناس لا يصلح أن يكون جزءاً من بنية أُمَّة[(٢)].

وأوضح أن تفكك البيوت بفقد الروابط الضرورية للجَامِعَة الكُبْرَىٰ الوطنية قائلاً: (لقد استنتجت بالاسْتِقْرَاء منذ كنت قَاضِياً في إحدىٰ المحاكم الجزئية أن نحو ٧٥٪ من القضايا بين الأقارب بعضهم مع بعض، بما لم يحمل عليه غير التباغض وحب الوقيعة والنِّكَايَة، فهل من المَعْقُوْل أن يكون الفساد في العلائق الطبيعية إلىٰ هٰذَا الحد من التصرم، ونتساءل عن تصرم العلائق الوطنية؟ هل يمكن بعد أن نفقد الروابط الضرورية بين العائلات أن نبحث عن الروابط للجَامِعَة الكُبْرَىٰ؟ أو ليس هٰذَا كمن يطلب الثمر من أغصان الشجر بعدما جذ أُصُوْلها وجذورها، وقطع أوصال عروقها، وغادرها قطع أَخْشَاب يابسة؟)[(٣)].

واستدعىٰ اهتمامه بالأُسرة أن يهتم بالمرأة، وبَيَّنَ أنها في جهل مطبق، لا تعلم من أَحْكَام الدِّيْن شَيْئاً، وحشو ذهنها الخرافات إلَّا القليل النادر[(٤)].

فدعا إلىٰ تعلم المرأة وتمنىٰ أن تتكون جمعية نسائية من المتعلمات تُقِيم المدارس

(١) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص١٢.
(٢) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، من تَفْسِيْر الآية ٨٣ من البقرة، ج٤ ص٢٢٥.
(٣) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، من خطاب التربية، ج٣ ص١٥٩.
(٤) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، في الرد علىٰ هانوتو، ج٣ ص٢٢٩.

لتَعْلِيْم البنات بدلاً من الاشتغال بالسِّيَاسَة واستقبال القوم في الصالونات، قال: (وهٰذِهِ الأَمِيْرة – نازلي هانم فاضل – قَادِرة علىٰ تأسيس عمل يفيد في تَهْذِيْب البنات، فإن من حولها من الأَمِيْرات ينفقن نفقات كَبِيْرَة إسرافاً وتبذيراً، ولو أنها حملتهن وأمثالهن من النساء الغَنِيَّات علىٰ إنشاء مدرسة لتربية البنات وتَعْلِيْمهن، واستحضرت لهن معلمات من الآستانة أو سُوْرِيَّة لكان خير عمل تعمله، وما كن ليخالفنها، فإذا لم يأتِ بالفائدة المطلوبة كان غرساً أو بذراً تجني ثمرته ولو بعد حين...)(١).

وأكد علىٰ وجوب الاقتصار علىٰ الزوجة الوَاحِدَة، إن لم يستطع الزوج العَدْل المطلق، قال: (أباحت الشَّرِيْعَة المُحَمَّدِيَّة للرجل الاقتران بأربع من النسوة، إن علم من نفسه القدرة علىٰ العَدْل بينهن، وإلَّا فلا يجوز الاقتران بغير وَاحِدَة، قال تعالىٰ: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً ﴾ – النساء: ٣(٢).

وحين وضع قَانُوْن المحاكم الشَّرْعِيَّة اختار منه الأَحْكَام التي تتناسب مع وضع المجتمع المِصْرِيّ وتلبي مصالحه، لأن الشَّرِيْعَة مبنية علىٰ المصالح.

كما دعا إلىٰ الوحدة الوطنية، التي تتوفر بها راحة البلاد وسعادتها، فقال: (لا بد لذوي الحياة السياسية من وحدة يرجعون إليها، ويجتمعون عليها، اجتماع دَقَائِق الرمل حجراً صلداً، وإن خير أوجه الوحدة الوطن، لامتناع الخلاف والنزاع فيه... أن في الوطن من موجبات الحب والحرص والغيرة ثلاثة، تشبه أن تكون حدوداً:

الأول: إنه السكن الذي فيه الغذاء والوقاء والأهل والولد.

والثاني: إنه مكان الحقوق والواجبات التي هي مدار الحياة السياسية، وهما حسيان ظَاهِران.

---

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه، حَدِيْث عن السِّيَاسَة، ج١ ص٦٨٣.

(٢) الأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه، حكم الشَّرِيْعَة في تعدد الزوجات، ج٢ ص٧٨.

وانظر: الأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه، المُقَدِّمَة، الأُسرة والمرأة، ج١ ص١٧٥.

والثالث: إنه موضع النسبة التي يعلو بها الإنسان ويعز، أو يسفل ويذل. وهو معنوي محض[١].

ودعا الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه أَيْضاً إلىٰ الجَامِعَة الإِسْلَامِيَّة التي دعا إليها أُسْتَاذه جمال الدِّيْن الأَفْغَانِيّ، والتي كان الغرض منها إرْشَاد المُسْلِمِيْن بالقُرْآن، ونشأة الإِسْلَام الأُوْلَىٰ إلىٰ وحدته، وسِيْرَة النَّبِيّ ﷺ وخلفائه الراشدين في إقامته وتأسيس حكومته، وسِيْرَة السَّلَف الصَّالِحِيْن في هدايته...، وتَوْجِيْه الشعوب إلىٰ الاستقلال والتعاون علىٰ إحياء مجده.

وليس المُرَاد من الجَامِعَة الإِسْلَامِيَّة أن يكون مَالِك الأمر في الجميع شخصاً وَاحِداً، فإن هٰذَا ربما يكون عسيراً، لٰكِن أن يكون سُلْطَان جميعهم القُرْآن، ووجهة وحدتهم الدِّيْن، وكل ذي ملك علىٰ ملكه، يسعىٰ بجهده لحفظ الآخر ما استطاع، فإن حياته بحياته، وبَقَاءه ببقائه، إلَّا أن هٰذَا يعد كونه أَسَاساً لدينهم، تقضي به الضرورة، وتحكم به الحاجة في هٰذِهِ الأوقات[٢].

وأوضح أن سلطة رئيس الدولة في الإِسْلَام ليست دينية بالمعنىٰ الذي يعرف عند البابا، تمنح صكوك الغفران، وتضع القوانين الإلٰهيَّة، بل هو منفذ لأَحْكَام الله، آمر بالمعروف، ناهٍ عن المُنْكر، والأُمَّة تراقب أَعْمَاله[٣].

وذٰلِكَ ما أوضحه أبو بَكْر الصِّدِّيْق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في أول خُطْبَة له عند توليه الخِلَافَة: (إني قد وُلِّيْتُ عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني علىٰ حق فأعينوني، وإن رأيتموني

---

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، الحياة السياسية، ج١ ص٣٤٣-٣٤٤.

(٢) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص٣٠٦-٣٠٧.

(٣) انظر رده علىٰ هانوتو، في: الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه ج٣ ص٢٣٣.

والرد علىٰ فرح أنطوان (الاضطهاد في النَّصْرَانِيَّة والإِسْلَام)، في: الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه ج٣ ص٢٨٥-٢٨٩.

علىٰ باطل فسددوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم، ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتىٰ آخذ الحق له، وأضعفكم عندي القَوِيّ حتىٰ آخذ الحق منه)[1].

وبَيَّنَ أن الشُّوْرَىٰ واجبة بقوله تعالىٰ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ - آل عِمْرَان: ١٥٩، وهي واجبة علىٰ الحَاكِم والمحكوم.

ومما يَدُلّ علىٰ وجوب التشاور علىٰ الحَاكِم، طلب عُمَر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ تَقْوِيْم اعوجاجه، حين قال في خطبته: (يا أيها الناس من رأىٰ منكم فِيَّ اعوجاجاً فَلْيُقَوِّمْهُ).

ومما يَدُلّ علىٰ وجوبه علىٰ المحكوم، هو إجابة الصَّحَابِي بقوله: (والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لَقَوَّمْنَاهُ بسيوفنا)، فإنه لا يجوز اسْتِعْمَال القوة إلَّا بعد الإعذار بالإرْشَاد والهُدَىٰ[2].

وإذا وجبت الشُّوْرَىٰ علىٰ الحَاكِم والمحكوم، فإن وظيفة الحكومة بعد ذٰلِكَ في الأُمَّة تَمْكِيْن الأفراد من العَمَل في حرية، وبالوسيلة الصَّحِيْحَة لخير أنفسهم وجماعتهم. قال: (إن أية حكومة قيل إنها عادلة حرة، لم يكن لها إلَّا أنها أباحت للناس أن يدخلوا في أي باب من أبواب المَنَافِع، ويطلبوا الخير الحقيقي بكل وسيلة صَحِيْحَة)[3].

وبَيَّنَ أنه يجب أن تلاحظ الصِّلَة بين ما يشرح من قوانين وبين أحوال البلاد القائمة. قال: (فإن البلاد تختلف باختلاف المَوَاقِع وتباين أحوال التجارة والزراعة،

---

(١) جَمْهَرَة خُطَب العَرَب ج١ ص١٨٠ عن العقد الفريد وغيره.

(٢) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام، مقالته: الشُّوْرَىٰ، ج٢ ص١٩٩.

وانظر: الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، مقالته: في الشُّوْرَىٰ والاستبداد، ج١ ص٣٥٤.

(٣) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، ما هو الفقر الحقيقي في البلاد، ج٣ ص٤٨.

وانظر: الفكر الإسْلَامِيّ الحَدِيْث ص١١٢.

وكذٰلِكَ سكانها يختلفون في العوائد والأَخْلَاق والمعتقدات إلىٰ غير ذٰلِكَ، فرب قَانُوْن يلائم مصالح قوم ولا يلائم مصالح آخرين...، وحينئذٍ لا يسوغ لأرباب الشُّوْرَىٰ أن يجاروا غير بلادهم في سن القوانين)[١].

وأوضح (إن القوانين لم توضع في جميع العالم إلَّا للشواذ والهَفَوَات والسقطات، وأما القوانين العامة المصلحة فهي نواميس التربية الملية لكل أُمَّة)[٢].

مُحَمَّد عَبْدُه رجل الإصْلَاح:

تجلت جوانب تفكيره الإسْلَامِيّ فيما يأتي:

أولاً: انتقاده وتَوْجِيْهه من خلال عمله بالجريدة الرسمية:

في أواسط سنة ١٢٩٧هـ=١٨٨٠م اتجهت عِنَايَة رياض باشا إلىٰ تَحْسِيْن كتابة الجريدة الرسمية، فاستشار حُسَيْناً المَرْصَفِيّ ومَحْمُوْد باشا سَامِي البارودي كلًّا علىٰ حدة، فأشاروا برأي وَاحِد عليه، أن يعين مُحَمَّد عَبْدُه مُحَرِّراً فيها، فعين مُحَرِّراً ثالثاً فيها، وبرز في ما كتب.

وحين عجز مُحَرِّرُو الجريدة عن كتابة مَقَالَة في مالية مِصْر طلبها رياض باشا كلفوا مُحَمَّد عَبْدُه، فكتبها بمجلسه ونشرت، فأُعجب بها رياض باشا كَثِيْراً.

وفي أواخر هٰذَا العام طلبه رياض باشا، وسأله عن رأيه في إصْلَاح الجريدة، فبين له ذٰلِكَ في تَقْرِيْر ضافٍ، فأمر بتأليف لجنة للنَّظَر في التَّقْرِيْر من وَكِيْل الداخلية ومدير المطبوعات وكاتب التَّقْرِيْر، وأن توضع لائحة لقلم المطبوعات، فعين الشَّيْخ رئيساً لقلم التَّحْرِيْر، واختار لها من المُحَرِّرِيْن المَهَرَة: الشَّيْخ عَبْد الكَرِيْم سَلْمَان، وسَعْد زَغْلُوْل... وآخرين.

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، الشُّوْرَىٰ والقَانُوْن، ج١ ص٣٦٥.
(٢) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام، من خطابه في احتفال الجمعية الخَيْرِيَّة الإسْلَامِيَّة، ج٢ ص٤٧٠.

وهٰكَذَا أَشْرَف الشَّيْخ علىٰ أَعْمَال رِجَال الحكومة مباشرة، فوَجَّهَ وانتقد وأرشد، فبدؤوا يتحرون الحق والعَدْل، ويجتهدون في إصْلَاح المديريات، لا سِيَّمَا نظارة المَعَارِف التي انتقدها كَثِيْراً، فاقتنع رياض باشا بما ذكره في شأنها، فعرض عليه حينئذٍ أن يكون للمَعَارِف مجلس أعلىٰ، له الحكم الفصل في إدارة المَعَارِف العمومية، ويكون النَّاظِر منفذاً لما يقرره. فصدر الأمر العالي بتشكيل المجلس في ٢٨ رَبِيْع الآخر ١٢٩٨هـ=١٨٨١م، وكان الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه عضواً فيه.

وكانت له الاقْتِرَاحات النَّافِعَة فيه، لولا كثرة الأعضاء فيه من الأجانب الذين كانوا يعارضون المشروعات النَّافِعَة، وحدوث الثورة العُرَابِيَّة في البلاد[١].

ثانياً: التربية والتَّعْلِيْم:

بَيَّنَ الشَّيْخ أن فقر البلاد ليس بقلة الخزائن، وإنما بقلة الراشدين فيها، قال: (إن أرضنا... غنية مثرية لا تفنىٰ كنوزها، ولا تفرغ خزائنها، وأنها بما تأتي من الثمرات لقَادِرة علىٰ حفظ ناموسها وتَقْوِيَة شوكتها، بل أن تكون سلطتها مَبْسُوْطَة إلىٰ أقطار أُخَر، ولٰكِن ليس كل هٰذَا الذي ذكرته بكاف وحده في الغنىٰ والثروة، والعزة والشَّوْكَة، وإن كان من كُلِّيَّات أسبابها، بل لا بد أن ينضم إليه حسن اسْتِعْمَال هٰذِهِ الأسباب الجَلِيْلَة... فما فقر البلاد إلَّا قلة الراشدين فيها، وما غناها الحقيقي إلَّا كثرة المهتدين[٢].

فدعا الأغنياء والحكومة إلىٰ بذل المال لفَتْح المدارس حتىٰ تعم التربية، فقال: (علىٰ الأغنياء منا الذين يخافون من تغلب الغير عليهم، وتطاول الأيدي الظالمة إليهم أكثر من الفُقَرَاء، أن يتآلفوا ويتحدوا، ويبذلوا من أموالهم في سَبِيْل افتتاح المدارس والمكاتب واتساع دوائر التَّعْلِيْم، حتىٰ تعم التربية، وتثبت في البلاد جراثيم العقل

(١) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإِمَام ج١ ص١٣٧-١٤١.

(٢) الأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه، مقالته: ما هو الفقر الحقيقي في البلاد؟ سنة ١٨٨١م، ج٣ ص٤٢.

والإدراك، وتنمو روح الحق والصَّلَاح، وتتهذب النفوس، ويشتد الإحساس بالمَنَافِع والمضار، فيوجد من أبناء البلاد من يضارع بني غيرها من الأُمَم، فتكون عند ذٰلِكَ معهم في رتبة المساواة، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وعلىٰ الحكومة في جميع ذٰلِكَ أن تسن قوانين التَّعْلِيْم، وتلاحظ أحوال المُعَلِّمِيْن والمُتَعَلِّمِيْن)[١].

ودعا أن يكون خط التربية والتَّعْلِيْم هو البديل لخط السِّيَاسَة، فأنكر علىٰ السَّيِّد جمال الدِّيْن الأَفْغَانِيّ، بعد مفارقته، توجهه السياسي كما تقدم.

هٰذَا الرأي الذي استولىٰ عليه، هو الذي دعاه إلىٰ تَحَيُّن كل فرصة للدعوة إليه، فحين كان ببَيْرُوْت منفياً، وعرف بصدور إرادة السُّلْطَان إلىٰ شَيْخ الإِسْلَام بأن يؤلف لجنة تحت رياسته لإصْلَاح جداول الدروس في المدارس الإِسْلَامِيَّة، لتكفل تَعْلِيْم أولاد المُسْلِمِيْن ضروريات الدِّيْن الإِسْلَامِيّ، وتربيتهم بالآداب والأَخْلَاق الإِسْلَامِيَّة، اغتنم الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه الفرصة، فكتب لائحة رفعها إلىٰ شَيْخ الإِسْلَام بالآستانة في ٢٦ جمادىٰ الثانية ١٣٠٤هـ=١٨٨٧م، بعد أن وقع عليها معه بعض وجهاء المُسْلِمِيْن ومثقفيهم في الشَّام، أسماها: **(لائحة إصْلَاح التَّعْلِيْم العُثْمَانِيّ)**.

بَيَّنَ بها لشَيْخ الإِسْلَام ولجنته سوء حال المُسْلِمِيْن في ذٰلِكَ العَصْر، وما استحوذ عليهم من الفساد والجهل، وبَيَّنَ لهم أن الضعف الدِّيْنِيّ قد نهج لشياطين الأجانب سُبُل الدخول إلىٰ قلوب كثير من المُسْلِمِيْن... فلا ترىٰ بقعة من البِقَاع إلَّا بها مدرسة للأمريكانيين أو اليسوعيين أو العزارية أو الفرير أو لجمعية أُخْرَىٰ من الجمعيات الدِّيْنِيَّة الأُوربية، والمُسْلِمُوْن لا يستنكفون من إرسال أولادهم إلىٰ تلك المدارس، فيدخلونها في سن السذاجة، ولا يسمعون إلَّا ما يناقض عَقَائِد الدِّيْن الإِسْلَامِيّ... ولا يطرق أَسْمَاعهم إلَّا ما يَزْرِي علىٰ دينهم وعَقَائِد آبائهم... ويقع ذٰلِكَ من نفوسهم موقع

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، مقالته: ما هو الفقر الحقيقي في البلاد؟ سنة ١٨٨١م، ج٣ ص٤٧.

القبول، لأنه من أساتذتهم القوام علىٰ تربيتهم بإذن آبائهم، فيصبحون فيما بعد كفاراً تحت حجاب اسم الإسْلَام، وتعقد قلوبهم علىٰ محبة الأجانب، ويكونون طوعاً لهم فيما يريدون، فيكونون ويلاً علىٰ الأُمَّة.

وبَيَّنَ أن المكاتب والمدارس الإسْلَامِيَّة إما خالية من التَّعْلِيْم الدِّيْنِيّ جُمْلَة، وإما مشتملة علىٰ شيء قليل منه لا يتجاوز أَحْكَام العِبَادَات علىٰ وجه مُخْتَصر. وبالجُمْلَة فإن ضعف العَقِيْدَة والجهل بالدِّيْن قد شمل المُسْلِمِيْن علىٰ اختلاف طَبَقَاتهم، إلَّا من معهم الله، وهم قليلون. وواضح أنه عند اسْتِقْرَاء أحوال المُسْلِمِيْن للبَحْث عن أسباب خذلانهم لا يوجد إلَّا سبب وَاحِد، وهو القصور في التَّعْلِيْم الدِّيْنِيّ، إما بإهماله جُمْلَة، وإما بالسُّلُوْك إليه من غير طريقه القَوِيْمَة.

وذكر أن العُلُوْم العَمَلِيَّة إذا لم تُبْنَ علىٰ عَقَائِد صَحِيْحَة، وإيمان صَادِق، لا تلبث أن تضمحل، ولئن ثبتت فإنما تسوق إلىٰ أَعْمَال خالية عن النيات، وخاوية من سر الإخلاص، فتكون أشبه شيء بالباطلة، في عدم ترتب الأثر المطلوب عليها.

- وقَسَّمَ الناس إلىٰ ثلاث طَبَقَات، وبَيَّنَ ما يجب أن يعطىٰ لكل طبقة من العُلُوْم المناسبة لهم.

الطبقة الأُوْلَىٰ: هم أولاد المُسْلِمِيْن الذين يوقف بهم عند مبادئ الكتابة والقِرَاءَة وشيء من الحساب، يُعَلَّمُون ذٰلِكَ إلىٰ درجة محدودة، ينتفعون بها في معاملاتهم، ثم ينصرفون إلىٰ أَعْمَالهم الصِّنَاعِيَّة والتجارية والزراعية وما يشبهها، وأُوْلٰئِكَ كتلامذة المكاتب الرشدية والعَسْكَرِيَّة والملكية والمكاتب الخَيْرِيَّة الأهلية. واقترح أن تكون لهم كتب هي:

١. كتاب مُخْتَصر في العَقَائِد الإسْلَامِيَّة المُتَّفَق عليها.

٢. كتاب مُخْتَصر في الحلال والحرام من الأَعْمَال، وبَيَان الأَخْلَاق الخبيثة، والصفات الطَّيِّبَة.

٣. كتاب في التَّارِيْخ مُخْتَصر يبين سِيْرَة النَّبِيّ ﷺ وسِيْرَة أصحابه من وجه ما يتعلق بالأَخْلَاق الكَرِيْمَة والأَعْمَال العَظِيْمَة كفِدَاء الدِّيْن بالأرواح والأموال.

الطبقة الثانية: هم أبناء المُسْلِمِيْن الذين ينتظمون في المدارس السُّلْطَانِيَّة والشَّرْعِيَّة والملكية والعَسْكَرِيَّة والطبية...، والذي يهم الدولة منهم أن يكونوا أُمناء لها، حُفَّاظاً لما استحفظوا عليه من شؤونها. هٰذِهِ الطبقة تشارك الطبقة السَّابِقَة في مبدأ التَّعْلِيْم الدِّيْنِيّ، ويزاد لها:

١. كتاب يكون مُقَدِّمَة للعُلُوْم، يحوي المهم من علم المنطق، وأُصُوْل النَّظَر، وشيء من آداب الجدل.

٢. كتاب في العَقَائِد، يلتزم التوسط، ويجانب الخلاف في المَذَاهِب الإِسْلَامِيَّة.

٣. كتاب يفصل فيه الحلال والحرام، وأبواب الفَضَائِل والرذائل، ببَيَان أَكْمَل مما في البِدَايَة.

٤. كتاب تَارِيْخ ديني يفصل سِيْرَة النَّبِيّ ﷺ وسِيْرَة أصحابه، والفُتُوْحَات العَظِيْمَة، وما جاء به الخُلَفَاء العُثْمَانِيُّوْن من ذٰلِكَ...، كل ذٰلِكَ من وجه ديني محض.

الطبقة الثالثة: أبناء المُسْلِمِيْن الذين عقلوا ما تقدم من كتب الطبقتين السَّابِقتين، وكشف الامتحان امتيازهم في فهمها، وتخلقهم بالصفات المقصودة بوضعها. فهٰؤُلَاءِ يزاد لهم من الكتب، ليكونوا هداة الأُمَّة وعرفاءها، فيناط بهم التَّعْلِيْم الدِّيْنِيّ في المدارس العَالِيَة والإعدادية. والفُنُوْن التي تدرس لهم هي:

١. تَفْسِيْر القُرْآن الكَرِيْم، لأن القُرْآن سر نجاح المُسْلِمِيْن، وأَوْلَىٰ التفاسير مُطَالَعَة تَفْسِيْر الكَشَّاف والنَّيْسَابُوْرِيّ ومن أخذ طريقهما.

٢. فُنُوْن اللُّغَة العَرَبِيَّة، كالنَّحْو والصرف والمعاني والبَيَان والتَّارِيْخ الجاهلي وما يتبعه.

٣. فن الحَدِيْث، مع ترك الأَحَادِيْث الضعيفة.

٤. فن الأَخْلَاق والآداب الدِّيْنِيَّة، بتفصيل تام علىٰ نحو ما سلك الغَزَالِيّ في الإحياء.

٥. أُصُوْل الفِقْه، ليَصِحّ الاستدلال بالنُّصُوْص الشَّرْعِيَّة، وأَوْلَىٰ كتبه الموافقات للشَّاطِبِيّ.

٦. فن التَّارِيْخ القديم والحَدِيْث، ويدخل فيه: السِّيْرَة النَّبَوِيَّة، وتَارِيْخ الانْقِلَابَات في المَمَالِك الإِسْلَامِيَّة، وتَارِيْخ الدولة العُثْمَانِيَّة، مع بَيَان أسباب ما وصلت إليه الملة هٰذِهِ الأيام، ليتبين أنه لا سبب لذٰلِكَ إِلَّا الجهل بالدِّيْن، والانحراف عن أَحْكَامه، وانشقاق عصا الأُمَّة بالخلاف الذي لا طائل له.

٧. فن الإِقْنَاع والخطابة وأُصُوْل الجدل، لتَقْرِيْر المعاني في الأذهان، وتثبيت العَقَائِد في النفوس.

٨. فن الكلام، والنَّظَر في العَقَائِد، وأدلتها. ولا بأس بقِرَاءَة بعض الكتب الحِكْمِيَّة الإِسْلَامِيَّة.

وهٰذِهِ الطبقة الأَخِيْرَة ينبغي أن تكون تحت نظر شَيْخ الإِسْلَام خاصةً، وينتخب لها المدرسين المُتَبَصِّرِيْن من أي مكان، وينتخب أَيْضاً لها الطلبة الأذكياء.

● ثم تحدث عن الدعاة المُرْشِدِيْن، فذكر:

أن المكاتب والمدارس في المَمَالِك العُثْمَانِيَّة إن لم تكن قليلة بالنسبة للرعايا العُثْمَانِيِّيْن، فالداخل إليها قليل بالنسبة إلىٰ عدد الأهالي، والجُمْهُوْر الأعظم من سكان القرىٰ والأعراب لا يرون ضرورة التَّعْلِيْم لأولادهم، فإِصْلَاح جداول التَّعْلِيْم في المدارس لا تصيبهم فائدة، فمن الواجب الالتفات إليهم بإِصْلَاح أرواحهم لتستفيد منهم الدولة، وذٰلِكَ لا يكون إِلَّا بدعوة تنبههم إلىٰ الواجب عليهم من تَعْلِيْم أبنائهم،

ولا بد أن يكون من وظائف الدعاة تحريض الأغنياء علىٰ إنشاء المكاتب بأموالهم، ومن وظائفهم الوعظ العام في المساجد والمَجَامِع.

وهٰـؤُلَاءِ الـمُرْشِـدُون يجب أن يكونوا علىٰ الأوصـاف التي مر ذكرها في الطبقة الثالثة علماً وعملاً. فتلزم المبادرة إلىٰ إصْلَاح الخُطْبَة في مساجد الجمعة، وتوليتها قوماً يحسنونها، ويبينون الصالح من الفاسد.

وأبدىٰ الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه استعداده لوضع الكتب للطبقتين الأُوْلَـىٰ والثانية، وذكر أن المُعَلِّمِيْن والمُرْشِدِيْن إن تعسر وجودهم في بلد وَاحِد فالبَحْث في أطراف بلاد المُسْلِمِيْن يهدي إلىٰ الكِفَايَة منهم لبِدَايَة المشروع.

وأوضح أنه إذا حسنت البِدَايَة وتبعها الاجْتِهَاد مع الإخلاص في العَمَل وصل الأمر بتوفيق الله إلىٰ الكَمَال المطلوب، والصَّادِقُون في خدمة الدِّيْن لا يدركهم اليأس من إصْلَاحه[١].

ولا أرىٰ أن التقسيم الذي ذكره الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه من طبقية التَّعْلِيْم، كما قيل، بل كان بحكم الاختصاص، فإن التَّعْلِيْم الذي يلقىٰ إلىٰ التَّاجر والزارع والعامل يختلف في نوعه عن تَعْلِيْم القَانُوْنِيّ، وهٰذَان يختلفان عن تَعْلِيْم العَسْكَرِيّ أو المرشد والمربي.

وبعد اللائحة الأُوْلَىٰ قدم الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه لائحة ثانية إلىٰ الوالي التُّرْكِيّ علىٰ بَيْرُوْت، وموضوعها: (**إصْلَاح القطر السُّوْرِيّ**)، فبدأها ببَيَان حالة أهالي جبل لُبْنَان وطوائفه من الموارنة، والدروز، ثم المُسْلِمُوْن السنيون، والشِّيْعَة، ثم بَيَّنَ حال أهالي ولايتي بَيْرُوْت وسُوْرِيَّة، فتكلم علىٰ النَّصَارَىٰ وميولهم إلىٰ الدول الأُوربية، وعن طائفة النُّصَيْرِيَّة، فالشِّيْعَة الإمَامِيَّة، فدروز حوران، فالمُسْلِمُوْن من أَهْل السُّنَّة، فأهالي البادية من الأعراب المتنقلة، وبَيَّنَ علاقة كل منهم بالدولة العُثْمَانِيَّة، وما يجب من الإصْلَاح المبني علىٰ أَسَاس التَّعْلِيْم الدِّيْنِيّ، الذي تستقر به سلطتها في البلاد،

---

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، لائحة إصْلَاح التَّعْلِيْم العُثْمَانِيّ، ج٣ ص٧١-٨٧.

وتتقي غوائل التَّعْلِيْم الأجنبي وما يتبعه من النفوذ السياسي[١].

وكان من رأيه أن التَّعْلِيْم هو الذي يذيب الطائفية المَقِيْتَة، وهٰذَا هو لو وقف الناس عند حدود المنطق والتفكير السَّلِيْم. لٰكِن الطائفية تذكي نارها الأَهْوَاء والأحقاد والجوانب الاقْتِصَادِيَّة والاجتماعية واستغلال المنتفعين لظروفها.

وقدم مشروع (**إصْلَاح التربية في مِصْر**) بعد عودته من منفاه (بَيْرُوْت) إلىٰ اللورد كرومر بالقَاهِرَة، لأنه كان يدرك أن الود مفقود بينه وبين الخِدَيْو، وسيظل مفقوداً، وهو يريد أن يقدم عملاً يخدم به الإسْلَام وبلاده، فلم يجد مناصاً من أن يقدمه إلىٰ كرومر، مع علمه بأن الإنكليز أعداء أَلِدَّاء لمِصْر، وقد تقدم رأيه فيهم، وذٰلِكَ ليضمن سير عمله قدر الإمكان.

فبدأ لائحته بأن الناس إذا كانوا في حاجة إلىٰ صَلَاح الحَاكِم، فما حاجة الحَاكِم إلىٰ صَلَاحهم بأخف من حاجته إلىٰ صَلَاحه، فإن السلطة سلطتان: جيدة، ورديئة.

فالجيدة: ما كانت علىٰ المحكومين للمحكومين، ومنزلتها من المحكومين منزلة الروح من الجسد.

والسلطة الرديئة: ما أُخِذَ بها المحكومون لغَايَة الحَاكِم وقَضَاء غرضه الثَّابِت، ومنزلتها منهم منزلة الصانع من آلته، فصاحب السلطة صانع، والمحكوم آلته في الصنع.

وتحدث عن طبيعة مِصْر والمِصْرِيِّيْن، وأنهم قوم سَرِيْعو التقليد، أذكياء الأذهان، شديدو الانفعال بما يلقىٰ إليهم، لينو الطباع، وأنفسهم أُشربت الانقياد إلىٰ الدِّيْن حتىٰ صار طبعاً فيها، وقال: (فكل من طلب إصْلَاحها من غير طريق الدِّيْن فقد بذر بذراً غير صالح للتربة التي أودعه فيها، فلا ينبت، ويضيع تعبه).

---

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، لائحة إصْلَاح القطر السُّوْرِيّ، ج٣ ص٩١-١٠١.

- ثم ذكر المدارس المُخْتَلِفَة في مِصْر مبيناً طرق إصْلَاحها، علىٰ النَّحْو الآتي:

المدارس الأَمِيْرِيَّة:

وبَيَّنَ أنه أنشأها مُحَمَّد عَلِيّ باشا بإشارة بعض الفرنسيين لتَعْلِيْم بعض أولاد الأَرْنَؤُوْط والأتراك والمورلية، ليكون منهم رِجَال، عندهم إلمام ببعض الفُنُوْن المُحْتَاج إليها في نظام الحكومة التي أسسها، كالهَنْدَسَة والطب والترجمة...، أما التربية علىٰ أَخْلَاق سَلِيْمَة فلم تخطر له ولا لمن تولىٰ إدارة هٰذِهِ المدارس علىٰ بال...، وكان دخولها أشبه في ثقله علىٰ المِصْرِيِّيْن بدخول العَسْكَرِيَّة.

وأهمل النَّظَر فيها زمن عَبَّاس وسَعِيْد، حتىٰ جاء إسْمَاعِيْل فزاد فيها من المَعَارِف ما له دخل في الإدارة والقَضَاء، ورغب الناس فيها، ليكون في يد الطَّالِب شهادة تبيح له التوظف.

أما تكوينه بالتَّعْلِيْم والتربية رجلاً صالحاً في نفسه، يحسن القيام بالعَمَل الذي يفوض إليه في الحكومة أو في غيره، فذٰلِكَ لم يخالط عُقُوْل المُعَلِّمِيْن ولا من وَلَّاهُم أمر التَّعْلِيْم...، ولهٰذَا لا يكون تلامذتها في آخر الأمر إلَّا صُنَّاعاً أو ناطقين ببعض الألسنة، فلا يؤول ذٰلِكَ بالمِصْرِيِّيْن إلىٰ أن يكونوا رعية صالحة لأن تكون بدناً لرأس أو آلة صانع.

المدارس الأجنبية:

بعد أن بَيَّنَ عدم رغبة المِصْرِيِّيْن في التَّعْلِيْم بها، قال: وقد غلط من زعم أن لتلك المدارس الأجنبية أثراً سياسياً أو أدبياً في مِصْر، بل قد أحدثت بعض النفرة في قلوب المُسْلِمِيْن من رؤساء تلك المدارس وأُمَمهم، ولذٰلِكَ تَارِيْخ في البلاد معروف، فهي ضَارَّة بالأُلفة، مبعدة للمحبة، رغماً عما يزعمه أربابها مما يخالف ذٰلِكَ، فلا يَصِحّ الاكتفاء بها في التربية عن المدارس الأهلية علىٰ اختلافها.

الجَامِع الأَزْهَر:

بَيَّنَ أن الناس يأتون إليه إما رغبةً في تعلم عُلُوْم الدِّيْن رجاء ثواب الآخِرَة، وإما طمعاً في بعض الامتيازات لطُلَّاب العلم فيه.

ثم بَيَّنَ بعض المساوئ في نظام التَّعْلِيْم والتربية بالأَزْهَر، وأوضح أن إصْلَاحه لا بد أن يكون في تغيير نظام الدروس وإلزام الطُّلَّاب بالحضور، وكل أُسْتَاذ يسأل عن طلبته، ويكلف بتعهد أَخْلَاق الطلبة...، وغير ذٰلِكَ من الاقْتِرَاحات التي تفصل في لائحة مخصوصة.

وإصْلَاحه يَسِيْرٌ إذا كان تدريجياً.

وينسب فشل محاولة الإصْلَاح في عهد الخِدَيْوِي إسْمَاعِيْل إلىٰ أنها لم تأخذ التَّدْرِيْب اللائق. واستعد لتنفيذ بَرْنَامَج الإصْلَاح إذا عهد إليه.

الكتاتيب الأهلية:

أوضح أن إصْلَاح الكتاتيب الأهلية المنتشرة في القرىٰ والمدن يؤدي إلىٰ إصْلَاح المدارس الأَمِيْرِيَّة والأَزْهَر، لأنها روافد لها. ووصف حالة تَعْلِيْمها ومُعَلِّمِيّها بأنهم لا يعرفون شَيْئاً سوىٰ حفظ القُرْآن الكَرِيْم لفظاً بغير معنى، وإذا كان في أذهانهم شيء باسم الدِّيْن فما هو إلَّا الزائد الضَّارّ، دون الأصل النَّافِع.

وذكر أن العِنَايَة لو توجهت إليهم لأمكن إصْلَاحهم وإصْلَاح طرق تَعْلِيْمهم بالتدريج في بضع سنين، وعن طريق المَعَارِف والأوقاف، لأن غالبهم خُطَبَاء في المساجد، واقترح تَقْرِيْر بعض المَعْلُوْمَات التي لا يستغني عنها مِصْرِيّ، مما يزاد علىٰ تَعْلِيْمه القُرْآن في تلك الكتاتيب.

المكاتب الرسمية الابتدائية:

بَيَّنَ أن تلامذة هٰذِهِ المكاتب من الأطفال الذي يقصد كفلاؤهم بتَعْلِيْمهم التوصل

بهم إلىٰ خدمة الحكومة، لٰكِنهم في الغالب لا يستطيعون أن يذهبوا بهم إلىٰ نِهَايَة التَّعْلِيْم المعد لذٰلِكَ، فيكون التلميذ زِيَادَة في أمراض البلاد، بدل أن يكون عضواً نَافِعاً لها. فيقترح إدخال مبادئ العُلُوْم من وجهها العَمَلِيّ الذي ينطبق علىٰ المعاملات الجارية في البلاد، كالحساب والهَنْدَسَة.

ويقترح تعويد الطَّالِب علىٰ بعض الأَعْمَال الزراعية أو الصِّنَاعِيَّة، ليعلم كفلاء التلامذة أن للتَّعْلِيْم غَايَة سوىٰ خدمة الحكومة. كما يضاف تدريس مبادئ العَقَائِد، وأُصُوْل الآداب الدِّيْنِيَّة، وشيء من تَارِيْخ البلاد.

المدارس التجهيزية، والمدارس العَالِيَة:

تكلم فيما يتعلق بالتربية وتَهْذِيْب الفكر وغرس مبدأ الصَّلَاح في نفوس التلامذة، ليحسنوا في اسْتِعْمَال ما تعلموا، لأن التربية مفقودة في تلك المدارس، فالذي يجب لتأسيس التربية فيها تَعْلِيْم العَقَائِد الدِّيْنِيَّة وتَعْلِيْم الآداب الدِّيْنِيَّة علىٰ الطريق الصالحة، وإلزام التلامذة في تصرفهم بموافقة ما تعلموا، وتَعْلِيْمهم الإجادة في الكتابة، حتىٰ إذا بلغ التلميذ نِهَايَة التَّعْلِيْم أمكنت الثِّقَة به.

المعلمون والمربون ومدرسة دار العُلُوْم:

ذكر أن إيجاد المُعَلِّمِيْن في مِصْر غير عسير، وذكر تَارِيْخ دار العُلُوْم وبَرْنَامَجها في التَّعْلِيْم، وبَيَّنَ أن شرط تلامذتها أن يكونوا من طلبة الأَزْهَر الذين حصلوا من العُلُوْم المقررة فيه مبلغاً يكاد يؤهلهم للتدريس، وأُضيف إلىٰ بَرْنَامَجها دراسة الطبيعة والكيمياء والحساب والهَنْدَسَة والجغرافية والتَّارِيْخ، فيتخرج أُسْتَاذاً في العُلُوْم العَرَبِيَّة والدِّيْنِيَّة في المكاتب والمدارس الرسمية.

وبَيَّنَ الأدوار التي مرت بها دار العُلُوْم، وكيف عَيْن نظار لها جاهلون بالدِّيْن واللُّغَة العَرَبِيَّة، بل إن بعضهم لا يعتقدون بالدِّيْن. ثم قال: هٰذِهِ المدرسة تصلح أن تكون ينبوعاً للتَّهْذِيْب النفسي والفكري والدِّيْنِيّ والخلقي، ويمكن أن ينتهي أمرها إلىٰ

أن تحل محل الأَزْهَر، وعند ذاك يتم تَوْحِيْد التربية في مِصْر، ولٰكِن يلزم لذٰلِكَ أُمُور، هي:

١. إصْلَاح المناهج، وحذف بعض العُلُوْم التي اشتغل بها التلامذة في الأَزْهَر، والاكتفاء بتمرينهم علىٰ العَمَل بها، وزِيَادَة بعض عُلُوْم ليست فيها، منها: عُلُوْم الآداب الدِّيْنِيَّة، وفن أُصُوْل النظام مع تعلقه بالدِّيْن.

٢. تغيير طريقة تدريس تَفْسِيْر القُرْآن الكَرِيْم، وتعلم الأَحَادِيْث النَّبَوِيَّة.

٣. تعيين ناظر للمدرسة قد ملأ قلبه وغمر فكره الميل إلىٰ المقصد الذي وضعت له المدرسة، عالماً بالدِّيْن ولغته، موثوقاً به عند العامة.

٤. وهو أهم ما يجب: أن يكونوا تحت نظام شديد في التَّهْذِيْب، وملازمة العَمَل بما يعلمون... إلخ.

وختم هٰذِهِ اللائحة بدفع شبهة العجز عن تنفيذ هٰذَا المشروع(١).

هٰذِهِ اللوائح الثلاث تبين لنا اعْتِقَاده الجازم بأهمية التربية والتَّعْلِيْم في الإِصْلَاح.

● ويرىٰ الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه أن التربية يجب أن تكون مستندة إلىٰ الدِّيْن، نابعة من تعاليمه، يقول: (لا معقد للثِّقَة، ولا موقد للحمية في قلوب المُسْلِمِيْن، إِلَّا ما أتاهم من قبل الدِّيْن، ومن ظن أن اسم الوطن ومصلحة البلاد وما شاكل ذٰلِكَ من الألفاظ الطنانة يقوم مقام الدِّيْن في إنهاض الهمم وسوقها إلىٰ الغايات المطلوبة منها فقد ضل

---

(١) انظر مشروع إصْلَاح التربية في مِصْر، في: الأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه ج٣ ص١٠٥-١٢٢.

ويبدو من بعض نُصُوْصها أن الشَّيْخ كتبها في بَيْرُوْت بمنفاه، فيكون قد أعد اللوائح الثلاث في بَيْرُوْت، لٰكِن من المحتمل أن يكون قد أجرىٰ تعديلات أو إضافات علىٰ اللائحة الثالثة حين عاد إلىٰ القَاهِرَة وقدمها إلىٰ كرومر.

سواء السَّبِيْل)[1].

وقال مبيناً أن التقصير في التربية الإسْلَامِيَّة هو سبب الضياع والخذلان: (وإذا استقرينا أحوال المُسْلِمِيْن للبَحْث عن أسباب هٰذَا الخذلان، لا نجد إلَّا سبباً وَاحِداً، وهو القصور في التَّعْلِيْم الدِّيْنِيّ، إما بإهماله جُمْلَة كما هو في بعض البلاد، وإما بالسُّلُوْك إليه من غير طريقه القَوِيْمَة كما في بعض آخر)[2].

ذٰلِكَ لأن التَّأْثِيْر الدِّيْنِيّ علىٰ النفوس عَظِيْم، شديد الرسوخ، عميق الجذور، فالأخذ به وُصُوْل إلىٰ الحق المنشود[3].

وبَيَّنَ دور الدِّيْن في النهضة، فقال: (أما العلم الذي نحس بحاجتنا إليه فيظن قوم أنه علم الصِّنَاعَة، وما به إصْلَاح مادة العَمَل في الزراعة والتجارة مثلاً، وهٰذَا ظن باطل، فإنا لو رجعنا إلىٰ ما يشكوه كل منا نجد أمراً وراء الجهل بالصناعات وما يتبعها، إن الصِّنَاعَة لو وجدت بأيدينا نجد فينا عجزاً عن حفظها، وإن المنفعة قد تتهيأ لنا، ثم تنفلت منا لشيء في نفوسنا، فنحن نشكو ضعف الهمم، وتخاذل الأيدي، وتفرق الأَهْوَاء، والغفلة عن المصلحة الثَّابِتَة، وعُلُوْم الصناعات لا تفيدنا دفعاً لما نشتكيه، فمطلوبنا علم وراء هٰذِهِ العُلُوْم، ألا وهو العلم الذي يمس النفس، وهو علم الحياة البشرية، والعلم المُحْيِي للنفوس هو علم أدب النفس، وكل أدب لها فهو في الدِّيْن، فما فقدناه هو التبحر في آداب الدِّيْن، وما نحس من أنفسنا طلبه هو التَّفَقُّه في الدِّيْن، ولا أُريد أن نطلب علماً محفوظاً، ولٰكِن نطلب علماً مَرْعِيّاً ملحوظاً، وما أودعته الديانة من الآداب النفسية والكَمَالات الروحية لم يختلف في صحته أحد من البشر، حتىٰ من يظن نفسه غير آخذ

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، من لائحة إصْلَاح التَّعْلِيْم العُثْمَانِيّ، ج٣ ص٧٢.

(٢) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، من لائحة إصْلَاح التَّعْلِيْم العُثْمَانِيّ، ج٣ ص٧٤.

(٣) انظر كلامه علىٰ تَأْثِيْر الدِّيْن في المِصْرِيِّيْن في مشروع إصْلَاح التربية في مِصْر، في: الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه ج٣ ص١٠٩.

بالدِّيْن. فإذا استكملت النفس بآدابها عرفت مقامها من الوجود، وأدركت منزلة الحق في صَلَاح العالم، فانتصبت لنصره)[١].

وخُلَاصَة رأيه في التربية والتَّعْلِيْم: أن يكون المُرَاد منهما تجديد تكوين الأُمَّة الذي انحل منذ قرون كثيرة، بحيث تكون الأُمَّة عَزِيْزة مُتَّحِدَة متعاونة متكافلة، ليصدق عليها تمثيل النَّبِيّ ﷺ المُؤْمِنِيْن بالبنيان يشد بعضه بعضاً، وبالجسد الوَاحِد إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمىٰ.

ويقين الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه بأهمية التربية والتَّعْلِيْم دفعه للجِهَاد الكَبِيْر في سَبِيْل تَحْقِيْق الإصْلَاح، سواء كان في الأَزْهَر أم بغيره.

ثالثاً: إصْلَاح الأزْهَر:

بعد انتشار التَّعْلِيْم النِّظَامِيّ في مِصْر في عهد الخِدَيْوِي إسْمَاعِيْل، وبعد رجوع البعثة العِلْمِيَّة التي أرسلها مُحَمَّد عَلِيّ إلىٰ أُوربا، تحول التَّعْلِيْم إلىٰ سَبِيْل جديد يغاير طريقة الأَزْهَر في نوعية الدروس وطريقة التدريس، فكان نزاعاً بين القديم والجديد.

وكان الأَزْهَر علىٰ ما وصفه بعض عُلَمَاء الفرنجة: (ولئن كانت أنماط التَّعْلِيْم والبَحْث في الأَزْهَر تختلف عما هو مستعمل في الغرب الآن اختلافاً أَسَاسِيّاً، فهي لا تختلف في شيء من الأنماط التي كانت عندنا قديماً)[٢].

ولهٰذَا كان الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه يتطلع إلىٰ إصْلَاح الأَزْهَر ليواكب الحياة، فلا ينفصل عن المجتمع، لأنه إن صلح صلحت به الأُمَّة، وإن فسد فسدت الأُمَّة.

بدأ الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه عمله في الأَزْهَر عند جلوس عَبَّاس باشا حلمي علىٰ

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، من مَقَالَة مراسلات، سنة ١٨٨٦م، ج١ ص٦٤٩-٦٥٠.

(٢) الأُسْتَاذ الإمَام: مُصْطَفَىٰ عَبْد الرازق ص٢٧.

كرسي الخِدَيْوِيَّة، فذكر له كُلِّيَّات الإصْلَاح، حتىٰ توصل إلىٰ إنشاء قَانُوْن تَمْهِيْدِيّ للإصْلَاح، يديره مجلس مؤلف من أكابر عُلَمَاء المَذَاهِب في الأَزْهَر ينتخبون انتخاباً. وقد جعل هو وصديقه الشَّيْخ عَبْد الكَرِيْم سَلْمَان من أعضائه علىٰ أنهما من قبل الحكومة، لا رأي لشَيْخ الأَزْهَر ولا للمجلس في انتخابهما، ولا في استبدال غيرهما بهما. وصدر الأمر العالي بتشكيل مجلس إدارة الأَزْهَر في ٦ رَجَب ١٣١٢هـ.

وسعىٰ الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه إلىٰ إصدار قَانُوْن المرتبات في الأَزْهَر، ليكون لكل عالم حق مَعْلُوْم يتناوله في وقته، من غير تزلف إلىٰ شَيْخ الجَامِع أو غيره.

وصدر بعده أَيْضاً قَانُوْن كساوىٰ التَّشْرِيْف ومرتباتها التي كان الرأي في إعطائها لشَيْخ الجَامِع، فسر بذٰلِكَ الشُّيُوْخ كَثِيْراً، وتحسنت حالتهم التي كان يرثىٰ لها.

واستطاع أن يلحق التَّعْلِيْم في الجَامِع الأَحْمَدِيّ، في طنطا، بالأَزْهَر في ١٦ شَوَّال ١٣١٢هـ، ويلحق التَّعْلِيْم في المسجد الدُّسُوْقِيّ ودِمْيَاط بالأَزْهَر في ٦ محرم ١٣١٣هـ تَوْحِيْداً لطرق التَّعْلِيْم وتعميماً للإصْلَاح(١).

ووجه الشَّيْخ عنايته في مجلس إدارة الأَزْهَر إلىٰ نظام التدريس والامتحان، فوضع لذٰلِكَ مشروع قَانُوْن عام ضمنه:

خصائص الإدارة العمومية، وما لمجلس الإدارة، وما لشَيْخ الجَامِع من الأَعْمَال، وشروط الانتظام في مسلك طلبة الأَزْهَر، ومدة طلب العلم والمسامحات، والعُلُوْم التي تدرس في الأَزْهَر، و بَيَان المَقَاصِد منها، وهي عُلُوْم التَّوْحِيْد والتَّفْسِيْر والحَدِيْث والفِقْه وأُصُوْله والأَخْلَاق الدِّيْنِيَّة، وعُلُوْم الوَسَائِل، وهي: المنطق والنَّحْو والصرف وعُلُوْم البَلَاغَة ومُصْطَلَح الحَدِيْث والحساب والجبر. ثم الامتحان لنيل شهادة الأهلية، والامتحان لنيل شهادة العالمية، ثم أَحْكَام الضبط والربط والعُقُوبَات، وتناول

(١) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص٤٢٥-٤٣٩. وانظر وصف الأَزْهَر وحال الشُّيُوْخ فيه ومرتباتهم قبل هٰذِهِ الأنظمة.

العُلُوْم الأُخْرَىٰ التي تستوجب لمحصلها التفضيل في التوظف والمرتبات، وهي: تَارِيْخ الإِسْلَام، وصِنَاعَة الإنشاء، ومتن اللُّغَة وآدابها، وتَقْوِيْم البُلْدَان، ومبادئ الهَنْدَسَة، وهٰذِهِ لا يلزم بها الطَّالِب إِلَّا إذا رغب الامتحان بها.

وجعل نظام التدريس واخْتِيَار كتب العُلُوْم برأي كبار الشُّيُوْخ ليسهل تنفيذه بالرغبة، فاقترح تأليف لجنة من كبار الشُّيُوْخ للبَحْث بها وإقرار ما يرونه نَافِعاً، فأُلِّفَت من أكثر من ثلاثين عالماً، وجعل الشَّيْخ سَلِيْم البِشْرِيّ رئيساً لها.

وبعد مُذَاكَرَات طَوِيْلَة صدر أمر العَمَل بالقَانُوْن في ٢٠ محرم ١٣١٤هـ، وفي أول السنة الدراسية من سنة ١٣١٤هـ الداخلة في سنة ١٣١٥هـ شرع في تنفيذه.

ونجح الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه في سعيه لإنشاء دار الكتب الأَزْهَرِيَّة التي صانت الكتب من الضياع والتلف، وجمعتها بعد العناء الشديد من المساجد والبيوت، كما نجح في وضع نظام توزيع الجرايات بالعَدْل.

ومن إِصْلَاحاته في الأَزْهَر: تعيين طبيب له سنة ١٨٩٨م، وإنشاء صيدلية خاصة به في نفس الجَامِع، وإنارة المسجد بالغاز البُخَارِيّ، وإنشاء الميضأة علىٰ الأُصُوْل الصحية، وتجديد مبانٍ صحية في الأروقة، بعد أن كان مجتمع أَوْساخ تتقزز منها النفوس وبؤرة أمراض، فانتقل بالأَزْهَر من خلل عام إلىٰ شيء من النظام[١].

كان الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه قد رسم خطة المناهج لتَخْرِيْج الدعاة والمُؤَلِّفِيْن والعُلَمَاء الباحثين، ونفذ هٰذِهِ الخطة في دروسه، وتواليفه للخاصة والجُمْهُوْر، وفي إحيائه للتُّرَاث القديم[٢].

---

(١) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص٤٢٨، ٤٤٠-٤٤١، ٤٤٥، ٤٥٢، ٤٥٥، ٤٥٨.

وانظر الكلام عن حالة الأَزْهَر الصحية في: تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص٤٨٠-٤٨٣.

(٢) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص٤٥٥. والفكر الإِسْلَامِيّ الحَدِيْث ص١٥٩.

لٰكِن كل ما كان مجلس الإدارة قد شرع فيه، أوقف بما فيه مشروع إصْلَاح التدريس، حين انحرف الخِدَيْو عن تأييد الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه.

وكان بإمكان الشَّيْخ تنفيذه رسمياً من البِدَايَة، لٰكِن لم يحب أن يكون للحكومة تصرف في الأَزْهَر[١].

ورأىٰ الشَّيْخ رَشِيْد رِضَا: أن الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه قد أخطأ في اعتماده علىٰ إقْنَاع عُلَمَاء الأَزْهَر بالإصْلَاح، وكان يجب عليه التنفيذ بقوة القَانُوْن، ولو أفضىٰ إلىٰ تدخل الحكومة[٢].

وكان الإصْلَاح الحقيقي هو ما كان يلقيه من دروس التَّوْحِيْد والتَّفْسِيْر والبَلَاغَة والمنطق التي حولت نفوساً كثيرة عن السُّبُل المتفرقة إلىٰ سَبِيْل الله المُسْتَقِيْم[٣].

الأَزْهَر ومدرسة القَضَاء الشَّرْعِيّ:

كان في نية الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه إنشاء قسم قضائي، فيه يرشح طُلَّابه لمنصب القَضَاء، وزاده حرصاً عليه المستشار القضائي الأول بإصْلَاح المحاكم الشَّرْعِيَّة، وجواز جعل المتخرجين في مدرسة الحقوق الخِدَيْوِيَّة قُضَاة شَرْعِيِّيْن.

وكان الشَّيْخ مهتماً كَثِيْراً بجعل الحكومة علىٰ جعل متخرجي الحقوق قُضَاة للشَّرْع، وكان يقول: (إذا نفذ هٰذَا المشروع قضي علىٰ الأَزْهَر)، وقد نجح سعيه، فلم ينفذ.

وانتهىٰ الأمر أَخِيْراً إلىٰ أن عهدت إليه بوضع مشروع إنشاء مدرسة قضائية، يتولىٰ هو بنفسه أمرها، وكان هٰذَا المشروع آخر عمل إصْلَاحِيّ له، إذ تم في أوائل مرض الموت

(١) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص٤٢٩.
(٢) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص٥٥٧.
(٣) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص٤٢٩.

وبعد استقالته من إدارة الأَزْهَر.

وما كان يؤلمه من هٰذَا المشروع إلَّا انفصاله عن الأَزْهَر، وقصارىٰ ما أمكنه من وصله به جعله تحت نظر مفتي الديار المِصْرِيَّة دائماً.

وقام أَخِيْراً بتنفيذ المشروع وجعله أشد صِلَة بالأَزْهَر سَعْد زَغْلُوْل، تلميذ الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه، حين صار ناظر المَعَارِف[1].

رابعاً: إصْلَاح المحاكم الشَّرْعِيَّة:

أول عمل عهدت به الحكومة إلىٰ الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه بعد تقليده الإفتاء تفتيش المحاكم الشَّرْعِيَّة، وبَيَان رأيه في إصْلَاحها، لأنها كانت في خلل عام، حتىٰ ارتأىٰ بعض الباحثين وجوب إلغائها وتحويل اختصاصها إلىٰ المحاكم الأهلية.

فطاف الشَّيْخ أكثر محاكم الوجه البَحْرِيّ، وصحب معه الأُسْتَاذ الشَّيْخ أَحْمَد إدْرِيْس من أعضاء محكمة مِصْر الشَّرْعِيَّة، ففتشها تفتيشاً دقيقاً، ووضع تَقْرِيْره في ما رآه من دواء لعِلَلها، وبَيَّنَ فيه:

الحاجة إلىٰ هٰذِهِ المحاكم ووظائفها، وأماكنها وتقصير الحكومة فيها مع إشادتها لأماكن المحاكم الأهلية، وتحدث عن الكَتَبَة، والقُضَاة، والحُجَّاب، والأَعْمَال الكتابية، وما يكفل السرعة في العَمَل، والدفاتر، والعُقُوْد التي ترد علىٰ المحاكم الشَّرْعِيَّة من المحاكم المختلطة، وخزائن الدفاتر المحفوظة، والأَعْمَال الحسابية، واختصاص المحاكم الشَّرْعِيَّة، والمُرَافَعَات، والشهادات، والتنفيذ، والتفتيش، والمحامين، والمأذونين... إلخ. وبَيَّنَ هٰذِهِ المَسَائِل وغيرها في ٨٣ صفحة، وقال في آخرها: إنها إجمالية يفصلها لوَزِيْر الحقانية بالمُذَاكَرَة الشفاهية.

وقدم لتلك المذكرة مُقَدِّمَة بَيَّنَ فيها موضع المحاكم الشَّرْعِيَّة من بناء الحكومة

(١) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص٥٥٦-٥٥٧.

المِصْرِيَّة ومنزلتها من مصالح الأُمَّة الإسْلَامِيَّة، لأن منزلتها من نظام الأُسَر تلي منزلة المحبة وروابط القرابة.

ومن أهم ما طلب في التَّقْرِيْر أمران، يتعلقان بمحاكم مِصْر أشد التعلق، وأمر يعتبر إصْلَاحاً إسْلَامِيّاً تاماً:

١. توسيع دائرة اختصاص المحاكم الشَّرْعِيَّة، وفي هٰذَا مخرج للحكومة من كثرة شكاوىٰ المحاكم الأهلية الجزئية من كثرة القضايا. حتىٰ إن الحكومة اضطرت إلىٰ تخويل عُمَد البلاد الحكم في بعض القضايا المَدَنِيَّة، مع أن مَعَارِفهم لا تمكنهم لإقامة العَدْل فيها.

٢. عدم حصر منصب القَضَاء الشَّرْعِيّ في الحَنَفِيَّة، لأن فِقْه المَذَاهِب الأربعة متقارب، واختلافهم مذكور في أغلب كتبهم، لأن من برع في فِقْه الشَّافِعِيَّة مثلاً يمكنه أن يفهم فِقْه الحَنَفِيَّة بسهولة.

٣. أن تؤلف لجنة من العُلَمَاء لاسْتِخْرَاج كتاب في أَحْكَام المعاملات الشَّرْعِيَّة من جميع المَذَاهِب الإسْلَامِيَّة المعتبرة، ينطبق علىٰ مصالح الناس في هٰذَا العَصْر، ولا سِيَّمَا الأَحْكَام التي هي من خصائص المحاكم الشَّرْعِيَّة، يكون سهل العبارة لا خلاف فيه.

ولما وصل تَقْرِيْره هٰذَا إلىٰ الحكومة أَحَلَّتْهُ من الاهتمام بشأنه المحل اللائق به، وشكلت في نظارة الحقانية لجنة للبَحْث فيه، وتَقْرِيْر ما يمكن تَقْرِيْره مما فيه من أوجه الإصْلَاح.

واجتمعت الجمعية العمومية المؤلفة من نظار الحكومة وأعضاء شُوْرَىٰ القوانين ومندوبي البلاد المِصْرِيَّة، واقترح غير وَاحِد من أعضائها مُطَالَبَة الحكومة بإصْلَاح المحاكم الشَّرْعِيَّة، فأُحيل الطلب علىٰ مجلس شُوْرَىٰ القوانين، واستطاع الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه أن يحصل علىٰ تأييد المجلس عموماً.

وذكر أن الإصْلَاح ينحصر في خمسة أُمُور، هي:

١. تَقْوِيم طريقة التَّعْلِيْم لعُمَّال المحاكم الشَّرْعِيَّة من قُضَاة وكَتَبَةٍ، وإضافة ما تحتاج إليه وظائف القَضَاء الشَّرْعِيّ وما يتعلق بها من المَعْلُوْمَات إلىٰ ما يتعلمون الآن، وذٰلِكَ يكون بإنشاء فرقة خاصة بهٰذَا الغرض من طلبة الجَامِع الأَزْهَر بالجَامِع الأَزْهَر، ثم تكميل قاعدة انتخابهم بما يكفل التَّحَقُّق من كفاءتهم.

٢. تعديل لوائح المحاكم الشَّرْعِيَّة علىٰ وجه يكفل انتظام سيرها، وسرعة الفصل في قضاياها، وإزالة كل ما يشتكىٰ منه، بشرط المحافظة علىٰ الشَّرْع.

٣. الاتفاق مع جَمَاعَة من شُيُوْخ الحَنَفِيَّة علىٰ إيجاد طريقة لتَقْرِيْب فهم الأَحْكَام الشَّرْعِيَّة التي يتقاضىٰ الناس علىٰ حسبها، حتىٰ يمكن للخصوم أن يعرفوا إلىٰ أية قاعدة شَرْعِيَّة يرجع الحكم فيما يتخاصمون فيه، ويسهل علىٰ القُضَاة أنفسهم خصوصاً في بَدْء أمرهم بالرجوع إلىٰ ما يحكمون بمقتضاه، ويكون ذٰلِكَ شاملاً لجميع أبواب المعاملات من الفِقْه.

٤. وضع قاعدة لتنفيذ الأَحْكَام الشَّرْعِيَّة تكفل انتفاع المحكوم له بالحكم ضد أي شخص كان بما لا يخالف الشَّرْع.

٥. تَرْقِيَة مرتبات عُمَّال المحاكم الشَّرْعِيَّة، وإلحاقهم ببَاقِي موظفي الحكومة[١].

خامساً: إصْلَاح المساجد:

لما صار الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه عضواً في مجلس الأوقاف الأعلىٰ، تبعاً لمنصب الإفتاء، دخلت الأوقاف في طور جديد من الإصْلَاح المالي والإداري والشَّرْعِيّ.

وكان أَئِمَّة المساجد وخطباؤها أقل الموظفين شأناً في مِصْر في الأوقاف وغيرها،

(١) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص٦٠٥-٦٢٨.

وكذٰلِكَ خَدَمَة المساجد من مؤذنين وملاحظين ومرتلين، وهٰذَا يؤدي إلىٰ جهل مطبق بالإسْلَام، واستحواذ الأَفْكَار الفاسدة.

فَفَكَّر الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه بوضع نظام يقرر رسمياً، أَسَاسه:

أن تجعل لها في مصلحة الأوقاف العامة إدارة خاصة تسمىٰ: (إدارة المساجد)، وأن يكون خطباؤها وأئمتها من العُلَمَاء المُرْشِدِيْن، وأن تقام بها الدروس والمَوَاعِظ للعامة، فتكون وسيلة للإرْشَاد العام في القطر كله، ومدارس لهٰؤُلَاءِ العوام الذين هم السواد الأعظم من الأُمَّة، لا سِيَّمَا خُطْبَة الجمعة الدرس العام للمُسْلِمِيْن.

فوضع مشروع إصْلَاح المساجد بما هو أَوْسع أبواب الإصْلَاح الدِّيْنِيّ في الأُمَّة، وفيه العِنَايَة بالعُلَمَاء المُرْشِدِيْن ودروسهم في المساجد، لا سِيَّمَا خُطْبَة الجمعة.

لٰكِنه عرض علىٰ مجلس الأوقاف الأعلىٰ في الوقت الذي عرضت فيه مشكلة استبدال أراضي الأوقاف في الجِيْزَة بمَزْرَعَة الأَمِيْر التي سببت الجفاء بين الشَّيْخ والخِدَيْو، فعارض الخِدَيْو مشروع إصْلَاح المساجد، لأن واضعه مُحَمَّد عَبْدُه.

ويقال: إن سبب معارضته: أن البعض وسوس له بأن الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه إذا نجح في المشروع فإن حزبه الدِّيْنِيّ يتجاوز بعض عُلَمَاء الأَزْهَر والناهين من طُلَّابه إلىٰ أَئِمَّة المساجد وخطبائها في مِصْر كلها.

فاكتفىٰ الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه من مشروعه بالتَّمْهِيْد له في لائحة سَمَّاهَا: (**لائحة تَرْتِيْب المساجد**) عرضها علىٰ المجلس في خريف ١٩٠٣م، وكانت موادها قد بلغت ثلاثاً وعشرين في أربعة أبواب:

الباب الأول: في تَرْتِيْب الخدمة والإمَامَة.

والثاني: في المرتبات.

والثالث: في شروط التوظيف، وفيها مادتان ملحقتان: في أَحْكَام عمومية تتعلقان بالموظفين ومرتباتهم والزِّيَادَة في عددهم. وما زال المجلس يرجئ النَّظَر فيها إلىٰ أن

أثمر بعضها في ٨ فبراير ١٩٠٤م، وشرع في تنفيذه في العَاصِمَة في أوائل هٰذِهِ السنة. ولٰكِن صدر أمر الخِدَيْوِي في ٣١ مايو بإيقاف تنفيذه إلىٰ أن ينظر فيها من جانبه، وكان قد اعترض عليها قَاضِي مِصْر بإيجازه. ونوقشت بمجلس الشُّوْرَىٰ حتىٰ انتهىٰ ذٰلِكَ بعرضها علىٰ عميد الاحتلال، الذي أَجَّلَ النَّظَر فيها إلىٰ ما بعد عودته من الاصطياف.

وبعد أن عاد كان عزم الخِدَيْوِي متجهاً إلىٰ إخْرَاج الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه من الإفتاء نفسه ومن الأَزْهَر، وتلاه مرض الشَّيْخ ووفاته، فلم يعد للبَحْث فيها فائدة، لذهاب الإرادة المُصِرَّة علىٰ تنفيذها بالرغم من إرادة الخِدَيْوِي[١].

والرابع: في توزيع العلاوات.

سادساً: عمله في مجلس شُوْرَىٰ القوانين:

صدر الأمر العالي يتعيين الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه عضواً في مجلس شُوْرَىٰ القوانين في ١٨ صفر ١٣١٧هـ = ٢٥ يونيو ١٨٩٩م. وكان بين هٰذَا المجلس والحكومة جفاء، فلم تكن الحكومة تحفل برأيه، ولٰكِن حين دخل الشَّيْخ عضواً فيه عظمت ثِقَة الأُمَّة بهم، واستطاع أن يزيل الخلاف بين الطرفين.

ولما سُئِلَ الشَّيْخ عن عمله في المجلس أجاب: (إن الغرض الأول من العَمَل في المجلس هو التعاون مع الأعضاء علىٰ الجد والاهتمام بالبَحْث في الأُمُور العامة ومصالح البلاد، وتربية الرأي العام في الأُمَّة، ليكون ذٰلِكَ إعداداً لنفوس طائفة منا للفصل في الأَحْكَام بالشُّوْرَىٰ، أي: الحكومة النيابية التي بث فكرتها أُسْتَاذه الأَفْغَانِيّ، فإذا ارتقت هٰذِهِ الملكة في الهيئة الحاضرة للمجلس، فإنها تنتقل منها إلىٰ الهيئة التي تخلفها، ويكون ذٰلِكَ جرثومة من جراثيم الإصْلَاح في البلاد).

---

(١) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص٦٣٠-٦٤٢.

وهٰذَا شأنه دائماً لا يترك مَذْهَبه في الإصْلَاح في عمل من الأَعْمَال[١].

سابعاً: عمله في الجمعية الخَيْرِيَّة الإسْلَامِيَّة:

كان سبب إنشاء هٰذِهِ الجمعية، أن مشعوذاً رُوسِيّاً جاء مِصْر، وربح بألعابه الغَرِيْبَة أُلوفاً من الجنيهات، فخصص دخل آخر ليلة لها لإعانة فُقَرَاء البلد، كما هي عادته في كل بلد، فأعطاها لمحافظ القَاهِرَة، ليوزعها علىٰ الفُقَرَاء. فاستشار المحافظ كبار العقلاء، فاقترحوا تأليف (الجمعية الخَيْرِيَّة الإسْلَامِيَّة)، وجعلوا ذٰلِكَ المبلغ رأس مال لها، فأُسست الجمعية سنة ١٣١٠هـ=١٨٩٢م. وانتخب الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه رئيساً لها سنة ١٣١٨هـ=١٩٠٠م، فازداد إيرادها في المال، وصارت مدارسها سبعاً، وكانت أربعاً في أسيوط وطنطا والإسْكَنْدَرِيَّة والقَاهِرَة.

وكان يرىٰ أن الفائدة الأُوْلَىٰ المقصودة بالذات من الجمعية هي تعويد المُسْلِمِيْن الاجتماع للخير والتعاون علىٰ البر والخدمة العامة، وإشعار قلوب الأغنياء عاطفة الرحمة والإحْسَان بالفُقَرَاء، وفيها يتم التعاون علىٰ تربية أولاد الفُقَرَاء من المُسْلِمِيْن التربية الإسْلَامِيَّة الصَّحِيْحَة وإعانة العَاجِزِيْن منهم علىٰ الكسب علىٰ شقاء الحياة.

ومما انفرد به الشَّيْخ في خدمتها دعوة الأُمَرَاء والوجهاء والأغنياء إلىٰ الاشتراك فيها ومساعدتها. وبعد وفاة الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه ووفاة صنوه في الإصْلَاح حسن باشا عَاصِم عضو الجمعية صار التَّعْلِيْم فيها مادياً صورياً كتَعْلِيْم المدارس الأَمِيْرِيَّة الأهلية[٢].

ثامناً: عمله في جمعية إحياء الكتب العَرَبِيَّة:

كان الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه يعيب علىٰ كتب المتأخرين التي أُلِّفَت في عهود الركود من تَأْثِيْرها علىٰ التَّوْجِيْه، قال: (وما دمنا مقيدين بعبارات هٰذِهِ الكتب المتداولة، ولا

---

(١) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص٧١٩-٧٢٢.

(٢) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص٧٢٦-٧٢٧ و٧٣٤ و٧٥١.

نعرف الدِّيْن والعلم إلَّا منها، فلا نزداد إلَّا جهلاً، هٰذَا الشَّوْكَانِيّ لما كسر قيود التقليد الأعمىٰ، حيث كان وهابياً معتدلاً، صار عالماً وفقيهاً. ولذٰلِكَ اضطر العوام والحُكَّام إلىٰ ترك الأَحْكَام الشَّرْعِيَّة... والفُقَهَاء هم المسؤولون عند الله عن هٰذَا وعن كل ما عليه الناس من مخالفة الشَّرِيْعَة، لأنه كان يجب عليهم أن يعرفوا حالة العَصْر والزَّمَان، ويطبقوا عليه الأَحْكَام، بصورة يمكن للناس اتباعها...).

ودعا إلىٰ تكوين جمعيات للفُقَهَاء يتذَاكَرون فيها، ويتفقون علىٰ الراجح الذي ينبغي أن يكون عليه العَمَل... لا أنهم يجعلون كل ما قيل عن فقيه واجب الاتباع في كل زَمَان ومكان[1].

وكان الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه يرىٰ أن لا بد للإصْلَاح من إحياء كتب أئمتنا وكبار علمائنا، فسعىٰ إلىٰ طِبَاعَة كِتَابَي أَسْرَار البَلَاغَة، ودلائل الإعجاز. ولولا تَصْحِيْح الشَّيْخ لهما، واسْتِحْضَاره نسخهما من الأقطار النائية، لما تيسر طبعهما.

وفي سنة ١٣١٨هـ، أُسست في مِصْر جمعية خاصة لهٰذِهِ الخدمة تحت رئاسته، سُمِّيَت: (**جمعية إحياء العُلُوْم العَرَبِيَّة**) كانت فاتحة أَعْمَالها طبع كتاب المخصص لابن سِيْدَه، ومُدَوَّنَة الإمَام مَالِك[2].

تلك بعض أَعْمَاله الإصْلَاحِيَّة التي يَدُلّ اندفاعه لتنفيذها، كي تؤتي ثِمَارَهَا، علىٰ إخلاصه ونيته الحقيقية في الإصْلَاح، لا تَحْقِيْق المصالح الخاصة، لأنه عاش فَقِيْراً، ولو أراد لَحَصَّلَ المال الكثير.

دعوته إلى ضرورة إعادة توزيع الثروة في الأُمَّة:

يقرر الشَّيْخ أن روح الإسْلَام ضد الفلسفة المادية التي يقوم عليها النظام الرأسمالي.

---

(١) الفكر الإسْلَامِيّ الحَدِيْث ص١٥٣-١٥٤. وتَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص٩٤٣-٩٤٥.

(٢) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص٧٥٣-٧٥٤.

فروح الدِّيْن توجب علىٰ الحكومة التدخل في الشؤون الاقْتِصَادِيَّة لمصلحة جماهير المحكومين، سواء أكان ذٰلِكَ بإقامة الصناعات بما يرفع الحرج عن الناس، أم بتحريم الاحتِكَار، أم باتخاذ السُّبُل التي تكفل النفع، أم بإنْصَاف العُمَّال أو إجْبَارهم علىٰ العَمَل(١).

وعاب الإسراف والمسرفين وبَيَّنَ فضل الاقْتِصَاد قائلاً: فإذا جمع الشخص بين الإمساك عما لا يلزمه، والبذل فيما هو أحوج إليه، فقد حاز فضيلة الاقْتِصَاد التي قال فيها نبينا مُحَمَّد ﷺ: (الاقْتِصَاد نصف المعيشة)(٢).

وكان يحارب الطبقية في المجتمع، ويرىٰ أن المال سَبِيْل الانحراف حين يستخدم لإضعاف النفوس، يقول: (في كثير من البلاد التي لا عِنَايَة لها بشأن الفَضَائِل... لا ينزل الوَاحِد فيها منازل الشَّرَف إلَّا إذا كانت له من أبيه أو من متبوعه جهة الشَّرَف... فالفُقَرَاء يبقون علىٰ فقرهم، والأغنياء يدومون علىٰ غناهم، وقليل أن يصير الفَقِيْر غنياً، ويلزم لذٰلِكَ تمكن الاستبداد والظلم في نفوس الطَّبَقَات العليا، وثُبُوْت جرثومة العبودية والذل في قلوب الطَّبَقَات الوسطىٰ.

وكان الشَّيْخ يرىٰ: أن من نال من الفُقَرَاء رفعة مقام فبوَسَائِل التذلل والمداجاة وإظهار العبودية لمن فوقه، أو بأن ينتصب لجلب مَنَافِعهم الخاصة، (فبهٰذِهِ الوَسَائِل تنحرف القلوب... فتنعدم الرغبات في الفَضَائِل)(٣).

وكان يحارب البطالة، لأنها تنغص لذة العيش، فيقول: (وإن حب الراحة يوقعهم

---

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عبد، تدخل الدولة في الحياة الاقْتِصَادِيَّة، ج١ ص٦٧٤.

(٢) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، مَقَالَة: عدنا والعود أَحْمَد إلىٰ موضوع حب الفقر أو سفه الفلاح، ج٢ ص١٣.

(٣) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، مَقَالَة: نيل المعالي بالفضيلة، ج١ ص٣٢٥.

في تعب لا نِهَايَة له، وهو تعب البطالة والكسل أو العَمَل الاضطراري)[١].

ونراه يدعو إلىٰ: التكافل الاجتماعي، فالغَنِيّ لا يكون غنياً إلَّا بالناس ومنهم، فإذا عجز بعضهم عن الكسب لآفة في فكره ونفسه أو عِلَّة في بدنه، فيجب علىٰ الآخرين الأخذ بيده، وأن يكونوا عوناً له، حفظاً للمجموع الذي ترتبط مصالح بعضه بمصالح البعض الآخر[٢].

وعليه، فإن ظلم الباخل بفضل ماله أقسىٰ أنواع الظلم، ويقول: (لو وزنتم جميع أنواع الظلم الذي يصدر من الإنسان، لوجدتم أرجحها ظلم الباخل بفضل ماله علىٰ ملهوف يغيثه، ومضطر يكشف ضرورته، أو علىٰ المصالح العامة التي تَقِي أُمته مصارع الهلكات، أو ترفعها علىٰ غيرها درجات، أو تسد الخروق التي حدثت في بناء الدِّيْن، أو تزيل السدود والعقبات من طريق المُسْلِمِيْن، فإن هٰذَا النوع من الظلم هو الذي لا يعذر صاحبه بوجه من وجوه العذر التي يتعطل بها سواه من ظالمي أنفسهم).

ويقول أَيْضاً مكفراً الأغنياء الذين لم يلقوا بالاً إلىٰ مجتمعهم وما يعانيه من ويلات: (ترىٰ كَثِيْراً من أغنياء المُسْلِمِيْن عَارِفِيْن بما عليه أُمتهم من الجهل بأُمُور الدِّيْن، ومصالح الدنيا، وفساد الأَخْلَاق، وتقطع الروابط، وتراخي الأواخي، وما نشأ عن ذٰلِكَ من هضم حقوقها وانتزاع مَنَافِعها من أيدي أبنائها، ويعلمون أن إصْلَاحهم يتوقف علىٰ بذل شيء من أموالهم، ينفق علىٰ التربية والتَّعْلِيْم ونحوهما من المَنَافِع العامة، ثم هم يُدْعَون إلىٰ بذل قليل من كثير ما خزنوه في صناديق الحديد، وما ينفقونه في شهواتهم ولذاتهم وتأييد أهوائهم وحظوظهم، فيبخلون بذٰلِكَ، ويرونه مغرماً ثقيلاً، ولا يحفلون بوعد الله للمنفقين في سَبِيْله، ولا وعيده للباخلين بفضله. وأمثال هٰؤُلَاءِ لا يستحقون أن يكونوا من المُسْلِمِيْن، لأنه لا يوجد في نفس الوَاحِد منهم عرق ينبض في التألم لمصائب

---

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، من تَفْسِيْر الآية ٢٧ من البقرة، ج٤ ص١٢٣.
(٢) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، من تَفْسِيْر الآية ٤٣ من البقرة، ج٤ ص١٦٣.

الإسْلَام وأهله، فمن كان يرىٰ أن ماله أفضل من دينه في الوجدان والعَمَل، وهواه أرجح من رضوان الله، فهو كافر حقيقة وإن سَمَّىٰ نفسه مُؤْمِناً، فما إيمانه إلَّا كإيمان من نزل فيهم: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ - البقرة: ٨)[١].

وكان الشَّيْخ يرىٰ: وجوب بذل المال للمُحْتَاج، لأن المال مال الجميع. قال في تَفْسِيْر قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ - النساء: ٢٩: (أضاف الأموال إلىٰ الجميع، فلم يقل لا يأكل بعضكم مال بعض، للتَّنْبِيْه علىٰ ما قررناه مراراً من تكافل الأُمَّة في حقوقها ومصالحها، كأنه يقول: إن مال كل وَاحِد منكم هو مال أُمتكم، فإذا استباح أحدكم أن يأكل مال الآخر بالباطل كان كأنه أباح لغيره أكل ماله وهضم حقوقه، لأن المرء يدان كما يدين، وأن في هٰذِهِ الإضافة تَنْبِيْهاً إلىٰ مَسْأَلَة أُخْرَىٰ، وهي: أن صاحب المال الحائز له يجب عليه بذله للمُحْتَاج، فكما لا يجوز للمُحْتَاج أن يأخذ شَيْئاً من مال غيره بالباطل كالسرقة والغصب، لا يجوز لصاحب المال أن يبخل عليه بما يحتاج إليه)[٢].

ويرىٰ الشَّيْخ أن توزيع المال بالشكل العادل هو سبب سَعَادَة الأُمَّة، قال: (إن أغنىٰ البلاد وأَسْعَدها هي البلاد التي توزعت ثروتها علىٰ غالب أهاليها)[٣].

وكان يرىٰ أن اتخاذ المال وسيلة لكسب المال باستغلال حاجة المُحْتَاجين عن طريق الربا، يؤدي إلىٰ نمو المال في أيدي القلة، ويخزن في الصناديق والبيوت المالية المعروفة بالبنوك، وإلىٰ بخس العَامِلِيْن قيم أَعْمَالهم، لأن الربح يكون معظمه من المال نفسه، وبذٰلِكَ يهلك الفُقَرَاء وتحل القسوة محل الرحمة[٤]. ويزداد الضرر إذا وقعت

---

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، تَفْسِيْر الآية ٢٥٤ من البقرة، ج٤ ص٧٢٧.

(٢) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، تَفْسِيْر الآية ٢٩ من النساء، ج٥ ص٢٠١.

(٣) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، من مَقَالَة: عدنا والعود أَحْمَد إلىٰ موضوع حب الفُقَرَاء أو سفه الفلاح، ج٢ ص١٦.

(٤) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، تَفْسِيْر الآية ٢٧٥ من سورة البقرة، ج٤ ص٧٥٩.

الأَمْلَاك والمبيعات في أيدي الغرباء والأجانب، الذين لا يسرنا أن نراهم واضعي أيديهم من غالب الأَمْلَاك العَظِيْمَة والأراضي الوَاسِعَة التي كانت في أيدي أبناء البلاد، بل هٰذَا أمر يحزن كل ذي عقل وإدراك، ولا يغفل عنه إلَّا غبي دنيء، محب للفقر والفاقة[١].

وكان الشَّيْخ ينبه إلىٰ خطر هٰذَا، وما كتبه فَلَاسِفَة العالم وعلماؤه من أمثال تولستوي، محذرين شره[٢].

موقفه من الحَضَارَة الحَدِيْثَة:

أوضح الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه أن العلم الذي تمس إليه حاجة المُسْلِمِيْن هو علم أدب النفس، وكل أدب لها فهو في الدِّيْن، ولا يحتاج معه إلىٰ غيره.

وخَطَّأَ من ظن أنه علم الصِّنَاعَة وما به إصْلَاح مادة العَمَل في الزراعة والتجارة مثلاً، قال: (إن الصِّنَاعَة لو وجدت بأيدينا نجد فينا عجزاً عن حفظها... فنحن نشكو ضعف الهمم، وتخاذل الأيدي، وتفرق الأَهْوَاء، والغفلة عن المصلحة الثَّابِتَة. وعُلُوْم الصناعات لا تفيدنا دفعاً لما نشتكيه، فمطلوبنا علم وراء هٰذِهِ العُلُوْم، ألا وهو العلم الذي يمس النفس، وهو علم الحياة البشرية... وما أودعته الديانة من الآداب النفسية والكَمَالات الروحية لم يختلف في صحته أحد من البشر... وإننا في تَحْصِيْل هٰذَا العلم الحيوي لا نحتاج إلىٰ الاستفادة من البعداء عنا، بل يكفينا فيه الرجوع لما تركنا، وتخليص ما خلطنا، فهٰذِهِ كتبنا الدِّيْنِيَّة والأدبية حاوية لما فوق الكِفَايَة مما نطلب، وليس في كتب غيرنا ما يَزِيْد عنها إلَّا بما لا حاجة بنا إليه، وكما وصل إلينا وجودنا بالتناسل عن آبائنا، فلتصل إلينا حياة نفوسنا بما أورثونا من عُلُوْمهم وآدابهم).

وبَيَّنَ أن الحاجة إلىٰ اللُّغَة الفرنسية وغيرها من اللُّغَات خاصةً، والاشتغال بها،

---

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه، من مَقَالَة: عدنا والعود أَحْمَد، ج٢ ص١٦.
(٢) الأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه، تَفْسِيْر الآية ٢٧٥ من البقرة، ج٤ ص٧٥٩-٧٦٠.

ولا بد أن يكون منحصراً في طَبَقَات من الناس، إما عالم يطلب ترجمة ما فيها من العُلُوْم الطبيعية مثلاً إلىٰ لغته، وإما مُتَهَيِّئ لأن يخدم دولته في مُعَامَلَة سياسية بينها وبين الدول الأجنبية، وإما تاجر يحتاج إلىٰ مُعَامَلَة أُناس من غير جنسه وما شابه ذٰلِكَ. وليس بمَحْمُوْد في نظر العقلاء أن نطلب اللُّغَات الأجنبية لذاتها، فإن اللُّغَة طريق إلىٰ ما أُودع فيها، وليس في علمها نفسها أدنىٰ فضيلة(١).

ودعا إلىٰ الأخذ بالسُّبُل التي اتخذتها الدول لرفع شأنها، قال: (فعلينا أن ننظر إلىٰ أحوال جيراننا من المِلَل والدول، وما الذي نقلهم عن حالهم الأول، وأدىٰ بهم إلىٰ أن صاروا أغنياء أَقْوِيَاء، حتىٰ كادوا أن يتسلطوا علينا بأموالهم ورِجَالهم الأول، إن لم نقل قد تسلطوا بالفعل، فإذا حققنا السبب وجب علينا أن نسارع إليه حتىٰ نتدارك ما فات، ونستعد لخيرنا فيما هو آت. وها نحن بعد النَّظَر لا نجد سبباً لترقيهم في الثروة والقوة إلَّا ارتقاء المَعَارِف والعُلُوْم فيما بينهم... وقد ولت أزمنة كان التحارب فيها بالأَخْشَاب، والنبال، والسهام، وخزف الجبال، وما أشبه ذٰلِكَ مما كان يمكن استحصاله بزهيد القيم، وحَضَرَنَا زَمَان نضطر فيه إلىٰ المراكب المدرعة ومدافع المتراليوز والمكروب وبنادق الإبرة، وغير ذٰلِكَ من الأسلحة التي تجددت، وستجدد فيما بعد... وكيف نتمكن من حفظ ملتنا ودولتنا وديننا من شرر هٰذِهِ النيران بدون أن يكون عندنا ما يماثلها، إن لم نقل ما يَزِيْد عليها... لا بد من أن تُؤْتَىٰ البيوت من أبوابها، وتطلب المسببات من أسبابها، فلا بد من البَحْث عن وجوه الاكتساب من وجه الصواب، والاستضاءة بنور المَعْرِفَة...(٢).

وأثنىٰ علىٰ أُوْلَئِكَ الذين وقفوا بوجه من تطاولت ألسنتهم بالفخار علىٰ لِسَاننا، وباهت رِجَالهم في السياسات والأَفْكَار رِجَالنا، وبَيَّنَ أنه قام في أبناء الأُمَّة العَرَبِيَّة قائم

---

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، من مقالته: مراسلات، ج١ ص٦٤٩-٦٥١.

(٢) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، من مَقَالَة: العُلُوْم الكلامية والدعوة إلىٰ العُلُوْم المِصْرِيَّة، ج٣ ص٢٠-٢١.

الغيرة والحمية، وآلوا علىٰ أنفسهم أن لا يألوا جهداً في استرجاع ما فقدوه... فنشأ فيهم من بذل الهمة في استحصال العُلُوْم واللُّغَات، وبرعوا في ذٰلِكَ، وترجموا إلىٰ لغتهم العَرَبِيَّة الكتب من جميع الفُنُوْن كالطبيعة والكيمياء والطب والجيولوجيا وغير ذٰلِكَ من الفُنُوْن المُفِيْدة، فتجلت لغتنا في حليتها، وبدت ترفل في ثياب زَيْنتها[(١)].

وتحدث عن جمود المُسْلِمِيْن وأسبابه ونتائجه وأنواعه، وأوضح أنه عِلَّة تزول، وبَيَّنَ أن الإِسْلَام لا يعارض المَدَنِيَّة، قال: (إن الإِسْلَام لن يقف عثرة في سَبِيْل المَدَنِيَّة أَبداً، لٰكِنه سيهذبها وينقيها من أوضارها، وستكون المَدَنِيَّة من أقوىٰ أَنْصَاره متىٰ عرفته وعرفها أهله، وهٰذَا الجمود سيزول، وأقوىٰ دليل علىٰ زواله بَقَاء الكتاب شَاهداً عليه بسوء حاله، ولطف الله بتقييض أُناس للكتاب ينصرونه، ويدعون إليه ويؤيدونه...)[(٢)].

التَّفْسِيْر ومَنْهَجه فيه:

بعد إلحاح طَوِيْل متواصل من السَّيِّد رَشِيْد رِضَا علىٰ الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه، اقتنع الشَّيْخ بِقِرَاءَة التَّفْسِيْر في الأَزْهَر، وبدأ بالدرس في غرة المحرم ١٣١٧هـ = ١٨١٩م، وانتهىٰ منه في منتصف المحرم ١٣٢٣هـ عند تَفْسِيْر قوله تعالىٰ: (﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا﴾ - الآية ١٢٦ من سورة النساء)، فقرأ زهاء خمسة أجزاء في ست سنين، إذ توفي لثمان خلون من جمادىٰ الأُوْلَىٰ منها. وكان يتوكأ في ذٰلِكَ علىٰ عبارة تَفْسِيْر الجَلَالَيْن الذي هو أوجز التفاسير، فكان يقرأ عبارته فيقرها أو ينتقد ما يراه منتقداً، ويتكلم في الآية أو الآيات المنزلة في معنى وَاحِد بما فتح الله عليه مما فيه هِدَايَة وعِبْرَة.

وكان الشَّيْخ رَشِيْد رِضَا يكتب مذكرات أثناء إلقاء الدرس، ويضمنها أهم ما قاله، وينشرها بعد اطلاع الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه عليها في مَجَلَّة المَنَار في أول المحرم سنة

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه، من مَقَالَة: التُّحْفَة الأدبية، ج٣ ص٢٣-٢٤.

(٢) الأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه، الجمود عِلَّة تزول: الرد علىٰ فرح أنطون (الاضطهاد في النَّصْرَانِيَّة والإِسْلَام)، ج٣ ص٣٣١.

١٣١٨هـ، وذٰلِكَ في المجلد الثالث من مَجَلَّة المَنَار.

ودرس التَّفْسِيْر في الأَزْهَـر كان أحفل الـدروس وأنفسها في الـدِّيْـن والاجتماع والسِّيَاسَة والأدب والبَلَاغَة، وكان يحضره كثير من عُلَمَاء الأَزْهَر وأساتذة المدارس الثانوية والعَالِيَة وكبار رِجَال القَضَاء الأهلي وفضلاء الوجهاء ورِجَال الحكومة، ومنهم من حضر مختبراً فعاد معجباً[1].

وللشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه تَفْسِيْر جزء عم مستقل، وتَفْسِيْر بعض الآيات يرد فيه علىٰ كثير من الأَخْبَار الواهية والروايات الإسرائيلية.

وللشَّيْخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مَنْهَج معين سلكه في التَّفْسِيْر، اتخذ من بعده مدرسة لها مَعَالِمها وسماتها، وهٰذَا المَنْهَج يرتكز علىٰ الأُسس الآتية:

١- السورة الـقُـرْآنِـيَّـة وحدة متناسقة:

رفض آراء بعض المُفَسِّرِيْن التي لا تحقق التناسب بين الآيات، والتي قضت علىٰ بَلَاغَة القُرْآن وتَرْتِيْب أَفْكَاره، فاقتدىٰ به أكابر عُلَمَاء العَصْر، كالشَّيْخ مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا، والشَّيْخ مُحَمَّد مُصْطَفَىٰ المَرَاغِيّ، والشَّيْخ مَحْمُوْد شَلْتُوْت، والدكتور مُحَمَّد عَبْد الله دراز.

يقول في تَفْسِيْره سورة الفجر: (كثر خلاف المُفَسِّرِيْن والرُّوَاة في معنىٰ كل من الفجر وليالٍ عشر إلىٰ آخر ما أقسم به. وقد يفسر الوَاحِد منهم الفجر بمعنى، ثم يأتي في الليالي العشر بما لا يلائمه، وغالب ذٰلِكَ يجري علىٰ خلاف ما عودنا الله في نسق كتابه الكَرِيْم، وقد جرت سنة الكتاب بأنه إذا أُريد تعيين يوم أو وقت ذكره بعينه: كيوم القيامة في: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ - القيامة: ١، وكاليوم الموعود في سورة والسماء ذات البروج، وكليلة القدر في سورتها، فإذا أُطلق الزمن ولم يقيد كان المُرَاد ما يعمه معنىٰ

(١) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص٧٦٥-٧٧٠.

الاسم، كما سبق في قوله: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ ﴾ - التكوير، فالفجر هٰهُنَا - علىٰ هٰذَا - هو جنس ذٰلِكَ الوقت المعروف الذي يظهر فيه بياض النهار في جلد الليل الأسود، ويَنْبَعِث الضِّيَاء لمطاردة الظلام... والمُرَاد، والله أعلم، من ليال عشر ليال يتشابه حالها مع حال الفجر، وهي ما يكون ضَوْء القمر فيها مطارداً لظلام الليل إلىٰ أن تغلبه الظلمة، فكأنه وضع التناسب علىٰ شيء من التقابل)[(١)].

٢- الكشف عن بَلَاغَة القُرْآن وإعجازه:

نهج بالتَّفْسِيْر مَنْهَجاً أدبياً، أوضح معانيه ومَرَاميه وبلاغته وإعجازه، وتعرض لبَيَان معاني كلمات الآيات وبعض المَسَائِل النَّحْوِيَّة والبلاغية بالقدر الذي يحتمله المعنىٰ، وبالوجه الذي يليق بفصاحة القُرْآن دون أن يتجاوز مقدار الحاجة[(٢)].

لذٰلِكَ لم يتفق مع من توسع في ضروب المعاني ووجوه النَّحْو وخلافات الفِقْه وغير ذٰلِكَ من المَقَاصِد، لأنه يرىٰ أن الإكثار فيها يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الإلٰهِيّ، ويذهب بهم في مَذَاهِب تنسيهم معناه الحقيقي[(٣)].

٣- شرح مباني الإسْلَام:

اتخذ التَّفْسِيْر وسيلة لشرح مبادئ الإسْلَام الصَّافِي الخالي من الشوائب، ليحببه إلىٰ النفوس، فيكون سهلاً للإصْلَاح.

فإذا عرض لآيات العَقِيْدَة شرحها شرحاً وافياً مبيناً ما دخل علىٰ المُسْلِمِيْن من فساد ودخيل، لأن القُرْآن الكَرِيْم هو المِيْزَان الذي توزن به العَقَائِد، لتعرف قيمتها، قال: (أُريد أنه يجب أن يكون القُرْآن أَصْلاً تحمل عليه المَذَاهِب والآراء في الدِّيْن، لا

---

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، من تَفْسِيْر سورة الفجر، ج٥ ص٤٠٠.

(٢) انظر من أمثلة ذٰلِكَ: الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، مواضع متعددة من تَفْسِيْره، منها: ج٤ ص٤٠٥، ٤١٨، ٤٢٧. وج٥ ص٢٠، ٣٦، ١١٧، ٢٣٢.

(٣) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، من مُقَدِّمَة تَفْسِيْره، ج٤ ص١١.

أن تكون المَذَاهِب أَصْلاً والقُرْآن هو الذي يحمل عليها، ويرجع بالتَّأْوِيْل أو التحريف إليها، كما جرىٰ عليه المخذولون، وتاه فيه الضالون)[١].

وإذا اتَّصَلت الآية بالنظام الروحي (العِبَادَات) شرع يبين الحكمة من تَشْرِيْعها في تَهْذِيْب الروح وتربية الضمير وتَقْوِيْم الخلق[٢].

وإذا اتَّصَلت الآية بالنظام الاجتماعي تحدث عن ذٰلِكَ التَّشْرِيْع وأثره في حياة الأُمَم مسترشداً بالواقع[٣].

---

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه، أواخر تَفْسِيْره سورة الفاتحة، ج٤ ص٥١-٥٢.

وانظر من ذٰلِكَ: الأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه، كلامه عن التَّوْحِيْد في تَفْسِيْره سورة الإخلاص، ج٥ ص٥٥٩-٥٦٣.

(٢) انظر لذٰلِكَ أمثلة من كلامه علىٰ أثر الصلاة والإنفاق في: الأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه: تَفْسِيْره أول سورة البقرة، ج٤ ص٦٢-٦٣. وتَفْسِيْره سورة الماعون، ج٥ ص٥٣٦. وتَفْسِيْره آيات الصيام، ج٤ ص٤٥٩.

(٣) انظر لذٰلِكَ مثلًا من كلامه علىٰ النكاح في: الأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه:

تَفْسِيْره الآية: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ - البقرة: ٢٢١، ج٤ ص٦٠٤ وما بعدها.

والآية: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ - البقرة: ٢٢٨، ج٤ ص٦٢٥.

والآية: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ - البقرة: ٢٢٨، ج٤ ص٦٣٠.

وتعدد الزوجات عند تَفْسِيْره الآيات الأُوْلَىٰ من سورة النساء، ج٥ ص١٦٨.

وآيات الميراث في أوائل سورة النساء، ج٥ ص١٧٧.

وتَفْسِيْره آية: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ - النساء: ٣٤.

وآية: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ - النساء: ٣٥، ج٥ ص٢٠٨.

وإذا اتَّصَلت الآية بالنظام الأَخْلَاقِيّ تحدث عن آثار الأَخْلَاق في تربية الأُمَم(١).

وإذا اتَّصَلت بالنظام السياسي أوضح ذٰلِكَ الجانب، سواء كان في السِّيَاسَة أم في نظام الجِهَاد والدفاع عن الإِسْلَام، مقرراً الشخصية الإِسْلَامِيَّة في المجتمعات(٢).

وإذا اتَّصَلت الآية بالنظام الاقْتِصَادِيّ، بَيَّنَ أهمية الاقْتِصَاد، ونصح بعدم الإسراف وبمحاربة الترف، وأوضح نظرة الإِسْلَام إلىٰ المال(٣).

وآيات الربا في البقرة ٢٧٥-٢٨١، ج٤ ص٧٥٧.

وآية الخمر والميسر ٢١٩ من البقرة، ج٤ ص٥٨٤.

وآية العِنَايَة بالوَالِدَيْن والأقربين والجار، النساء: ٣٦، ج٥ ص٢١٤.

والنهي عن أكل الأموال بالباطل، النساء: ٢٩، ج٥ ص٢٠١.

(١) انظر كلامه علىٰ أداب السُّلُوك في: الأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه:

آخر سورة الفجر، ج٥ ص٤٠٧.

ومن سورة الشمس: ٨: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾، ج٥ ص٤٢٠.

وفي الآيات الأُوْلَىٰ من سورة البقرة عن المُتَّقِيْن والكافرين والمنافقين، ج٤ ص٥٨ وما بعدها.

وآية: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ - البقرة: ٨٣، ج٤ ص٢٢٦.

(٢) انظر كلامه علىٰ حقوق الأُمَّة في: الأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه: آية:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ - آل عِمْرَان: ١٠٤، ج٥ ص٥٨.

وآية الشُّوْرَىٰ في آل عِمْرَان: ١٥٩، ج٥ ص١٢٤.

وآية: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ في النساء ٦٥، ج٥ ص٢٤٤.

وآية: ﴿ خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ - النساء: ٧١ وما بعدها مما يخص آيات القتال والجِهَاد، ج٥ ص٢٤٧ وما بعدها.

(٣) انظر كلامه علىٰ حفظ المال وعدم تبذيره وأكله بالباطل في: الأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد

فلم يترك فرصة لتَوْضِيْح مَعَالِم الإسْلَام ومبادئه إلَّا واستغلها مبيناً لها ومدافعاً عنها، لأن القُرْآن مصدر هِدَايَة للعالمين.

فدعا إلىٰ تكوين الدعاة إلىٰ الإسْلَام، ليعرضوه علىٰ الناس، فيقبلوا إليه[1].

ولذٰلِكَ وقف يدافع عنه أمام المُفْتَرِين عليه، يرد شبهاتهم، ويفند أقاويلهم، وتعرض لذكر البدع التي شاعت بين الناس، ورَدَّهَا[2].

٤- اطِّرَاح المبذول من الآراء في التَّفْسِيْر:

فيدعو أحد أعضاء جمعية العُرْوَة الوثقىٰ إلىٰ وجوب ذٰلِكَ، فيقول له: (داوم علىٰ قِرَاءَة القُرْآن، وتفهم أوامره ونواهيه ومَوَاعِظه وعبره، كما كان يتلىٰ علىٰ المُؤْمِنِيْن والكافرين أيام الوحي، وحاذر النَّظَر إلىٰ وجوه التفاسير إلَّا لفهم لفظ مفرد غاب عنك مُرَاد العَرَب منه، أو ارتباط مفرد بآخر خفي عليك مُتَّصِله، ثم اذهب إلىٰ ما يشخصك القُرْآن إليه، واحمَل بنفسك علىٰ ما يحمل عليه، وضم إلىٰ ذٰلِكَ مُطَالَعَة السِّيْرَة النَّبَوِيَّة، واقفاً عند الصَّحِيْح المَعْقُوْل، حاجزاً عينيك عن الضعيف والمبذول)[3].

عَبْدُه:

تَفْسِيْره آية: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ - النساء: ٢٩، ج٥ ص٢٠١.

وتَفْسِيْره آية: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ - النساء: ٥، ج٥ ص١٧٢.

(١) انظر: الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، تَفْسِيْره الآية: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ...﴾ - آل عِمْرَان: ١٠٤، ج٥ ص٥٨.

(٢) انظر من ذٰلِكَ كلامه علىٰ بدع الموالد في: الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، تَفْسِيْره قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ...﴾ - البقرة: ١٦٥، ج٤ ص٣٩٦.

وعلىٰ بدعة الذبح عند السَّيِّد البَدَوِيّ في: الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، تَفْسِيْره الآية: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ - البقرة: ١٧٣، ج٤ ص٤١٧.

(٣) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه ج١ ص٥٨٩.

ولذٰلِكَ كان ينفر من الخوض في المبهمات، لاعْتِقَاده أن الله تعالىٰ لم يكلفنا بالبَحْث عن الجزئيات والتفصيلات لما جاء به مبهماً في كتابه، ولو أراد منا ذٰلِكَ لدلنا عليه في كتابه أو علىٰ لِسَان نبيه. فهو يقف عند النقل القطعي لا يتعداه، ويثبت أن الفائدة لا تتوقف علىٰ سواه.

ولذا رد علىٰ الإسرائيليات والروايات المكذوبة الخرافية، ولم يجاوز تَفْسِيْر الآية ما يحتمله مضمون النَّصّ، فهو يقول في تَفْسِيْره قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ - البقرة: ٥٨-٥٩: (ونحن نسكت عن تعيين القَرْيَة كما سكت القُرْآن...، ومنشأ هٰذِهِ الأقوال الروايات الإسرائيلية، ولليَهُوْد في هٰذَا المقام كلام كثير، وتَأْوِيْلَات خدع بها المُفَسِّرُوْن، ولا نجيز حشوها في تَفْسِيْر كلام الله تعالىٰ...، ونسكت عن تعيين نوع ذٰلِكَ الرجز كما هو شأننا في كل ما أبهمه القُرْآن...، وحسبنا ما جاء في القُرْآن عِبْرَة وتَبْصِرَة، فنعين ما عينه، ونبهم ما أبهمه)(١).

وفي تَفْسِيْره قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ... ﴾ - البقرة: ٦٠، قال بعد كلامه عن الحجر وما أورد فيه المُفَسِّرُوْن: (ولو علم الله تعالىٰ أن لنا فائدة في أكثر مما دل عليه هٰذَا الخطاب من التعيين لما تركه)(٢).

وفي تَفْسِيْره الآية: (إرم ذات العِمَاد) من سورة الفجر، قال: (وقد يَرْوِي المُفَسِّرُوْن هنا حكايات في تصوير إرم ذات العِمَاد كان يجب أن ينزه عنها كتاب الله، فإذا وقع إليك شيء من كتبهم، ونظرت في هٰذَا الموضع منها، فَتَخَطَّ ببصرك ما تجده في

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه ج ٤ ص١٩٠-١٩١.
(٢) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه ج ٤ ص١٩٢.

وصف إرَم، وإياك أن تنظر فيه)[١].

وفي تَفْسِيْره الآية: (أصحاب الأُخدود) من سورة البروج، قال: (أما تعيين أصحاب الأُخدود وأَنَّىٰ كانوا، ومن هم أُوْلَٰئِكَ المُؤْمِنُوْن، وأين كان منزلهم من الأرض؟ فقد كثرت فيه الروايات. والأشهر أن المُؤْمِنِيْن كانوا نَصَارَىٰ نَجْرَان عندما كان دينهم دين تَوْحِيْد، ليس فيه حدث ولا بدعة، وأن الكافرين كانوا أُمَرَاء اليَمَن، أو اليَهُوْد الذين لا يبعدون عن هٰؤُلَاءِ في حقيقة الوثنية. غير أن المُؤْمِن لا يحتاج في الاعتبار وإشعار المَوْعِظَة قلبه إلىٰ أن يعرف القوم والجهة، وخاصة الدِّيْن الذي كان عليه أُوْلَٰئِكَ أو هٰؤُلَاءِ، حتىٰ يطير وراء القصص المشحونة بالمُبَالَغَات، والأساطير المحشوة بالخرافات. وإنما الذي عليه: هو أن يعرف من القصة ما ذكرناه أولاً. ولو علم الله خَيْراً في أكثر من ذٰلِكَ لتفضل علينا به)[٢].

٥- محاربة التقليد:

فلم يترك الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه آية تذم اتباع الآباء من غير تفكير، كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ - البقرة: ١٧٠، إلَّا ويسمي التقليد بغير علم بالسوء، قال: (ولو كان للمقلدين قلوب يفقهون بها، لكانت هٰذِهِ الحكاية كافية بأُسْلُوْبها لتنفيرهم من التقليد، فإنهم في كل ملة وجيل يرغبون عن اتباع ما أنزل الله، استئناساً بما ألفوه مما ألفوا آباءهم عليه، وحسبك بهٰذَا شناعة، إذ العاقل لا يؤثر علىٰ ما أنزل الله تقليد أحد من الناس، وإن كبر عقله وحسن سيره، إذ ما من عاقل إلَّا وهو عرضة للخطأ في فكره، وما من مهتدٍ إلَّا ويحتمل أن يضل في بعض سيره، فلا ثِقَة في الدِّيْن إلَّا بما أنزل الله، ولا معصوم إلَّا من عصم الله، فكيف يرغب العاقل عما أنزل الله إلىٰ اتباع الآباء مع

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه ج٥ ص٤٠٢.
(٢) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه ج٥ ص٣٧٦.

دعواه الإيمان بالتنزيل؟ علىٰ أنه لو لم يكن مُؤْمِناً بالوحي لوجب أن ينفره عن التقليد قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ - البقرة: ١٧٠، فإن هٰذَا حُجَّة عقلية لا تنقص[(١)].

فدعا إلىٰ الاجْتِهَاد لأنه هو الوسيلة العِلْمِيَّة والنَّظَرِيَّة المشروعة الملائمة بين أحداث الحياة المتجددة وتعاليم الإسْلَام العامة[(٢)].

ولهٰذَا نراه يأتي بأقوال الفُقَهَاء، ويوازن بينها، ويرجح متبعاً الدليل[(٣)].

٦- تَحْكِيْم العقل:

اتخذ الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه العقل أداة يقرب الإسْلَام وأَفْكَاره من أهل العَصْر الذين لا يؤمنون إلَّا بما تدركه عُقُوْلهم، قال: (والذي علينا اعْتِقَاده: أن الدِّيْن الإسْلَامِيّ دين تَوْحِيْد في العَقَائِد، لا دين تفريق في القَوَاعِد، العقل من أشد أعوانه، والنقل من أقوىٰ أركانه، وما وراء ذٰلِكَ فنزغات شياطين أو شهوات سَلَاطِيْن)[(٤)].

لذٰلِكَ فسر بعض الآيات علىٰ أَسَاس النَّظَرِيَّات العِلْمِيَّة الحَدِيْثَة، ليوفق بين معاني القُرْآن التي قد تبدو مستبعدة في نظر بعض الناس، وبين ما هو مُسَلَّم عندهم من مَعْلُوْمَات. يقول في تَفْسِيْره الآية: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ - الانشقاق: ١، (انشقاق السماء مثل انفطارها الذي مر تَفْسِيْره في سورة ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، وهو فساد تَرْكِيْبها، واختلال نظامها، عندما يريد الله خراب هٰذَا العالم الذي نحن فيه، وهو يكون بحادثة

---

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه ج٤ ص٤١١.

(٢) الفكر الإسْلَامِيّ الحَدِيْث ص١٤٩.

(٣) انظر مثلًا مَسْأَلَة المهر في: الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، تَفْسِيْره الآية: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ - النساء: ٢٥، ج٥ ص١٩٩.

(٤) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، رِسَالَة التَّوْحِيْد، ج٣ ص٣٦٥.

من الحوادث التي قد ينجر إليها سير العالم، كأن يمر كَوْكَب في سيره بالقرب من آخر، فيتجاذبا فيتصادما، فَيَضْطَرِب نظام الشمس بأسره، ويحدث من ذٰلِكَ غمام وأي غمام، يظهر في مواضع متفرقة من الجو والفضاء الوَاسِع، فتكون السماء قد تشققت بالغمام، واختل نظامها حال ظهوره)(١).

ومن تَفْسِيْره سورة الفيل، بعد أن جاء ببعض الروايات: إن الذي أصاب جيش أَبْرَهَة داء الجُدَرِيّ والحَصْبَة، قال: (وقد بينت لنا هٰذِهِ السورة الكَرِيْمَة أن ذٰلِكَ الجُدَرِيّ أو تلك الحَصْبَة نشأت من حجارة يابسة، سقطت علىٰ أفراد الجيش بواسطة فرق عَظِيْمَة من الطير، مما يرسله الله مع الريح. فيجوز لك أن تعتقد أن هٰذَا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض، وأن تكون هٰذِهِ الحجارة من الطين المسموم اليابس، الذي تحمله الرياح، فيعلق بأرجل هٰذِهِ الحيوانات، فإذا اتَّصَل بجسد دخل في مسامه، فأثار فيه تلك القروح، التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه. وإن كَثِيْراً من هٰذِهِ الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر. وإن هٰذَا الحيوان الصَّغِيْر - الذي يسمونه الآن بالمكروب - لا يخرج عنها، وهو فرق وجماعات لا يُحصي عددها إلَّا بَارِئها. ولا يتوقف ظهور أثر قدرة الله تعالىٰ في قهر الطاغين، علىٰ أن يكون الطير في ضخامة رُؤُوْس الجبال...، فلله جند من كل شيء.

فهٰذَا الطاغية الذي أراد أن يهدم البيت، أرسل الله عليه من الطير ما يوصل إليه مادة الجُدَرِيّ أو الحَصْبَة، فأهلكته وأهلكت قومه قبل أن يدخل مَكَّة...)(٢).

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه ج٥ ص٣٦٥-٣٦٦.

(٢) الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه ج٥ ص٥٢٩.

وانظر مَنْهَجه في التَّفْسِيْر في: التَّفْسِيْر والمُفَسِّرُوْن: مُحَمَّد حُسَيْن الذَّهَبِيّ ج٣ ص٢١٨-٢٤١. ومَنْهَج الإمَام مُحَمَّد عَبْدُه في التَّفْسِيْر: د. عَبْد الله شحاتة، وقادة الفكر الإسْلَامِيّ عبر القرون ص٢٩٩-٣٠٤.

رده على الغزو الثقافي والفكري:

من أهداف الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه تهيئة من يقوم بخدمة الدِّيْن ونشره في بلاد المُسْلِمِيْن وخارجها.

والإسْلَام تعرض بعد اتصال الغرب بالشرق لهجمات شديدة وافتراءات بينة، أُريد بها النيل منه، فوقف لها العُلَمَاء يردون ويناقشون، وممن برز منهم الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه، فكانت ردوده علىٰ هانوتو وفرح أنطون تمثل مَوَاقِف جديرة باهتمام المُسْلِمِيْن بها، حتىٰ قال: د. تشارلز آدمز: إن رده عليهما كان (قَوِيّاً مفحماً أذاع شهرته في العالم الإسْلَامِيّ، وجعله أقدر المُحْدَثِيْن في الدفاع عن الإسْلَام)[1].

١- رده علىٰ هانوتو:

كتب هانوتو وَزِيْر خارجية فرنسا في جريدة (الجرنال) الباريسية مقالاً في الإسْلَام والمَسْأَلَة الإسْلَامِيَّة، ترجمته جريدة المُؤَيَّد بمِصْر، ونشرته بالعَرَبِيَّة سنة ١٣١٧هـ في عددين منها.

فشرع الشَّيْخ بكتابة الرد في تلك الليلة، وأرسله إلىٰ جريدة المُؤَيَّد صباحاً لنشره فيها بثلاث مَقَالَات.

فدافع عن هانوتو صاحب جريدة الأهرام بشارة باشا تقلا زاعماً أن في المقال تحريفاً، لٰكِن شَهِدَ الكثيرون بصحة الترجمة.

ولما اطلع هانوتو علىٰ كتابة (الأهرام) الفرنسية، كتب مَقَالَة أُخْرَىٰ في جريدة (الجرنال) موضوعها: الإسْلَام أَيْضاً: فترجمتها جريدة (المُؤَيَّد) ونشرتها في ٢٢ محرم ١٣١٨هـ = ١٩٠٠م، اعتذر فيها عما رمي به من ناحية السِّيَاسَة التي تغري دولته

(١) مُحَمَّد عَبْدُه: عُثْمَان أمين ص١٢٦-١٢٧.

بالمُسْلِمِيْن، ولم يستطع الجواب عما خطأه الإمَام مُحَمَّد عَبْدُه من المَسَائِل الاعْتِقَادِيَّة والتَّارِيْخِيَّة. ثم زاره صاحب جريدة الأهرام، ودار بينهما حَدِيْث في هٰذَا الموضوع، نشر في ١٦ تموز ١٩٠٠م.

فرد الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه بمَقَالَات ثلاث أُخْرَىٰ علىٰ ذٰلِكَ الحَدِيْث[١]، فكان رد الشَّيْخ علىٰ هانوتو في ست مَقَالَات، وإليك مضمون ذٰلِكَ الرد:

يريد هانوتو أن يدعو قومه إلىٰ التبصر في وضع قاعدة لمُعَامَلَة المُسْلِمِيْن الذين يدخلون تحت ولايتهم أو يجاورونهم في مَمَالِكهم. وذٰلِكَ لا يتم، علىٰ مَذْهَبه، إلَّا بالبَحْث في طبيعة الأمر الذي صار به المُسْلِمُوْن غَيْرَ المَسِيْحِيِّيْن، وبه يُفَضِّلُ المُسْلِمُوْن سلطة إسْلَامِيَّة علىٰ سلطة فرنساوية. فإن أمكن تَلْقِيْح ما عليه المُسْلِمُوْن بالولاء الفرنساوي، وسَهُلَ الجمع بين ما وقر في نفوسهم وبين الخضوع الأعمىٰ لسُلْطَان فرنسا... صح للدولة الفرنساوية أن تَمُنَّ علىٰ المُسْلِمِيْن بالبَقَاء في الأرض، وإلَّا وجب عليها أن تحمل عليهم، فتبيدهم من البَسِيْطَة، أو تجليهم إلىٰ قارة أُخْرَىٰ.

وكانت غايته من البَحْث، كما يرىٰ الشَّيْخ، هي تحريك نيران العداوة في قلوب الفرنسيين وإثارة عزائمهم لحَرْب المُسْلِمِيْن.

رد الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه علىٰ هانوتو حين أكثر من ذكر التَّمَدُّن الآرِيّ والتَّمَدُّن السَّامِيّ والتفريق بينهما، وأن أحدهما قهر الآخر، وأن التَّمَدُّن الآرِيّ هو الذي ظفر بقُرْنَة التَّمَدُّن السَّامِيّ. فمما قاله في رده عليه:

هل يظن مسيو هانوتو أن التَّمَدُّن الذي وصل إليه الأوربيون حُمِلَ إلىٰ أوربا مع المُهَاجِرِيْن الأولين الذين رحلوا من البلاد الشَّرْقِيَّة الآرِيَّة إلىٰ الأقطار الغربية؟ ألم تخطر بباله تلك العظائم التي انتفخ بها بطن التَّارِيْخ، وما كانت عليه أوربا من الآرِيَّة الهمجية، وأن العلم والمَدَنِيَّة لم يَنْبُعا من معينها، وإنما جاءاها بمخالطة الأُمَم السَّامِيَّة

(١) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج٢ ص٤٠٠، ٤١٤، ٤٣٢-٤٣٣، ٤٣٩.

كما يعلمه المطلع علىٰ تَارِيْخ اليُوْنَان الأقدمين، وهم أساتذة الأوربيين الآخرين، كما يزعم هانوتو؟

إن أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين فطارت بها إلىٰ المَدَنِيَّة الحاضرة كانت من تلك الشُّعْلَة الموقدة التي كان يسطع ضوؤها من بلاد الأَنْدَلُس علىٰ ما جاورها، وعمل رِجَال الدِّيْن المَسِيْحِيّ علىٰ إطفائها مدة قرون، فما استطاعوا إلىٰ ذٰلِكَ سَبِيْلاً، واليوم يرعىٰ أهل أوربا ما نبت في أرضهم بعدما سقيت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدي أهل دينهم في سَبِيْل مطاردة العلم والحرية وطَوَالِع المَدَنِيَّة الحاضرة.

ومن السَّامِيِّيْن الفينيقيون، وهم أساتذة القوم في الصِّنَاعَة والتجارة، بل والقِرَاءَة والكتابة، ومنهم الآراميون، ومَدَنِيّتهم لا تنكر أيام الرُّوْمَانِيِّيْن.

ومبادئ الصِّنَاعَة والعَمَل عند جميع الأقوام المُرْتَقِيَة في سلم الإنسانية وَاحِدَة، وإنما يختلف قوم عن قوم بما تحدثه في نفوسهم ضرورات المعيشة، وما تجلبه عليهم عاصفات الحوادث، وما تطبعه فيهم طبائع الأقاليم، وما زالت الأُمَم يأخذ بعضها عن بعض في المَدَنِيَّة، لا فرق عندهم بين آرِيّ وسَامِيّ، متىٰ مست الحاجة إلىٰ تناول عمل أو مادة أو ضرب من ضروب العِرْفَان، لدفع ضرورة من ضرورات الحياة أو اسْتِكْمَال شأن من شؤونها.

وقد أخذ الغرب الآرِيّ عن الشرق السَّامِيّ أكثر مما يأخذه الآن الشرق المضمحل عن الغرب المستقل، فلم يَبْقَ من معنى للمَدَنِيَّة يريده الكاتب إلَّا الدِّيْن، وقد ظهر في كلامه أن الدِّيْن السَّامِيّ يراد منه التَّوْحِيْد، والدِّيْن الآرِيّ يعني به ما يقابله.

وإني أُقرر لهٰذَا الوَزِيْر الشهير حقيقة بديهية يعرفها صِبْيَان المكاتب، وهي أن دين التَّوْحِيْد ليس ديناً سَامِيّاً، بل هو دين عِبْرَانِيّ فقط، عرف به إِبْرَاهِيْم عَلَيْهِ السَّلَامُ وبنوه، ومنهم عِيسَىٰ من جهة أُمّه وأصحابه وأَنْصَاره الأولون.

أما بقية السَّامِيِّيْن من عَرَب وفينيقيين وآراميين وغيرهم من الأُمَم المذكورة في

الكتاب المقدس، وهو يعرفها، فقد كانوا وثنيين مشبهين، ولم يخالفوا في ذٰلِكَ بني عمهم أو أعداءهم الآرِيِّيْن.

ورد الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه علىٰ قول هانوتو في مسألتي: القَدَر، والتَّوْحِيْد. حين ذهب هانوتو إلىٰ أن رأي الجبر يحط الإنسان إلىٰ حضيض الضعف، وقد وصله بمَذْهَب البوذيين القائلين بفناء الموجودات في الوجود الأزلي، وإن رأي الاخْتِيَار يرفع الإنسان إلىٰ ذروة القوة، وقد وصله بمَذَاهِب اليُوْنَانِيِّيْن القدماء، الذين يدينون بتشبيه الإلٰه بالإنسان في أوصافه المادية.

وأن الديانتين المَسِيْحِيَّة والإِسْلَامِيَّة تمثلان ذينك المَذْهَبَيْن، أي: مَذْهَبَي الناس في القَدَر، وأن الديانة الأُوْلَىٰ رَبَّانِيَّة تورثت ما ترك الآرِيُّون، والثانية بشرية أخذت ما ترك السَّامِيُّون. وأن الأُوْلَىٰ ترقىٰ بالإنسان إلىٰ المقام الإلٰهِيّ، والأُخْرَىٰ تنزل به إلىٰ أسفل دَرْك حيواني.

ويظهر ميل كل من الديانتين ظهوراً بَيِّناً في الأصل الذي بني عليه كل منهما. فأصل الأُوْلَىٰ: هو إيجاد الإلٰه الأب للإلٰه الابن، حتىٰ كان إلٰهاً بشراً، واتصال الإلٰهَيْن بروح القُدُس. وأصل الثانية: تنزيه الإلٰه عن البشرية وتَقْدِيْسه إلىٰ حد تنقطع فيه النسبة بينه وبين الإنسان.

فكان مما قاله الشَّيْخ رَدّاً علىٰ مزاعم هانوتو هٰذِهِ:

إنه لم يختص الكلام في القَدَر بملة من المِلَل مشبهين أو منزهين، ولا دخل للتشبيه والتنزيه في شيء من ذٰلِكَ. وقد عظم الخلاف في المَسْأَلَة بين المَسِيْحِيِّيْن أنفسهم، وبدأ النزاع بينهم قبل الإِسْلَام، واستمر إلىٰ هٰذِهِ الأيام، ولعل هانوتو اطلع علىٰ مَذْهَب التوميين - أتباع القديس توما الأكويني - أو الدومينيكيين، وهم جَبْرِيَّة، وأشياع لوايولا، وهم قَدَرِيَّة اخْتِيَارِيَّة، ولكلٍّ من المَذْهَبَيْن شِيْعَة بين أهل الملة المَسِيْحِيَّة، وليس هٰذَا بمَذْهَب سَامِيّ كما يزعم، بل لم تنبت أُصُوْله ولم تتشعب فُرُوْعه إلَّا بين

الآرِيِّيْن، ثم انتقلت عدواه إلىٰ غيرهم.

هل سمعت بيَهُوْدِيّ استلقىٰ علىٰ قفاه، وترك العَمَل اتكالاً علىٰ القَدَر؟ هل سمعت بأحد من الفينيقيين، وقد وصلوا بزوارقهم ذات المجاذيف إلىٰ جَزَائِر بريطانيا، أنه كان ينام ويتلذذ بالأحلام اعتماداً علىٰ ما يسوقه إليه الغَيْب؟

لٰكِن سمعنا بذٰلِكَ في الأديرة وبين الرهبان، وعرفنا أَخْبَار ذٰلِكَ الجيش العرمرم من المتكلين الذين كانوا يَعِيْشون عالةً علىٰ الناس، حتىٰ ضجت منهم أوربا في زمن من الأزَمَان، وطلبت الخلاص منهم بالسَّيْف البتار.

وأوضح الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه أن القُرْآن الكَرِيْم أثبت الكسب والاخْتِيَار في نحو أربع وستين آية، وما جاء به مما يتوهم النَّاظِر فيه ما يخالف ذٰلِكَ، فإنما جاء في تَقْرِيْر السُّنَن الإلٰهِيَّة العامة، المعروفة بنواميس الكون.

وتحدث عن طائفة الجَبْرِيَّة التي انقرضت بعد ظهورها بقليل، والتي ظهرت بعد أن جاء الموالي من عجم الفرس والرُّوْمَان، وهم من الآرِيِّيْن، ولبسوا لباس الإسْلَام، وحملوا إليه ما كان عندهم من شقاق ونفاق، وأحدثوا في الدِّيْن بدعة الجدل في العَقَائِد.

وحمل علىٰ من فسد من المُتَصَوِّفَة، الذين ظهروا بتَأْثِيْر الفرس والهنود بما بقي فيهم من عَقَائِدهم الأُوْلَىٰ، وهٰؤُلَاءِ هم الذين ضل بهم هانوتو وأمثاله، ولو رجع المُسْلِمُوْن إلىٰ حقيقة دينهم لأدّوا غرضهم، واستنبتوا أرضهم، واستغزروا من الثروة، وأعدوا لفرنسا ما استطاعوا من قوة.

ثم تحدث عن التشبيه عند الأُمَم، وانقسام أهله إلىٰ قسمين:

أحدهما: من يعتقد الأُلوهية في بعض الموجودات المشهورة، ويقف عندما يعتقد منها.

والآخر: يعتقد بأن بَارِئ الكون يظهر في بعضها.

ويقرب من هٰؤُلَاءِ قسم ثالث ليس بخير من القسمين الآخرين، وهم المعتقدون بالوسائط، ما قدروا الله حق قدره، فقاسوه علىٰ الكبراء وأهل السمو منهم، فظنوا أنه يصطفي لنفسه مديرين من خلقه، فرفعوا الوَاحِد منهم إلىٰ منزلة الاصطفاء، للتصرف في الكون، ثم عُبِدَ أَخِيْراً ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ - الزُّمَر: ٣.

وذكر مفاسد الوثنية وما جاورها، وأثر دعوة الإِسْلَام إلىٰ التَّوْحِيْد.

وبَيَّنَ أن ما دخل علىٰ المُسْلِمِيْن من عَقَائِد التشبيه فهو من البدع التي لو رجع المُسْلِمُوْن إلىٰ كتابهم لسلمت نفوسهم من عيوبها. وقال:

يرىٰ (كيمون)[(١)] أن يخلي وجه الأرض من الإِسْلَام والمُسْلِمِيْن، ويستحسن رأيه هانوتو لولا ما يقف في طريق ذٰلِكَ من كثرة عدد المُسْلِمِيْن. أما فليعلما وكل من يخدع نفسه بمثل حلمهما، أن الإِسْلَام إن طالت به غيبة فله أوبة، وإن صدعته النوائب فله نوبة، وقد يقول فيه المُنْصِفُوْن من الإنكليز مثل إِسْحَاق طيلر، وهو قَسّ شهير ورئيس في كنيسة: إنه يمتد في إِفْرِيْقِيًّا ومعه تسير الفَضَائِل حيث سار، فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره، والشَّجَاعَة والإقدام من أَنْصَاره.

والإِسْلَام لا يزال ينتشر في الصين وغيره من أطراف آسيا، وسترشد الحوادث إلىٰ طريق الرجوع إلىٰ طهارته.

إن العَدْل ورعاية الحقوق واحترام المعتقدات بعد مَعْرِفَة أُصُوْلها هي التي تخفف

---

(١) **مسيو كيمون**: صاحب كتاب (باثولوجا الإِسْلَام) وصف الإِسْلَام بأنه مرض وشلل وجنون وجُذَام، ووصف المُسْلِمِيْن بأنهم وحوش ضارية، وطالب بإبادة خمسهم، والحكم علىٰ الأربعة أخماس البَاقِيَة بالأشغال الشاقة، وتدمير الكَعْبَة، ووضع قبر الرَّسُوْل ﷺ في متحف اللوفر... إلخ.

تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمام ج٢ ص٤٠٩.

وانظر: الأَعْمَال الكَامِلَة للإمام مُحَمَّد عَبْدُه ج٣ ص٢١٨ بالهامش.

علىٰ المغلوب سلطة الغالب. ولٰكِن هانوتو وأضرابه من ساسة الفرنساويين لا يعرفون شَيْئاً من هٰذِهِ الأركان الثلاثة، ولا يزالون يهرفون بما لا يعرفون.

وبَيَّنَ الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه أن علىٰ المُسْلِمِيْن أن ينتفعوا بما جاء في كلام هانوتو، فقد أرشدهم إلىٰ عيوب فيهم لا يسعهم إنكارها، وهداهم إلىٰ مَقَاصِد لطُلَّاب الاستعمار في ديارهم، قد شهدوا بالعيان آثارها، وصرح لهم بأن الاعتماد علىٰ العدالة في مُعَامَلَة الدول ضرب من الخيال، وما علىٰ المهتم بحماية ذماره، وطالب الطهر من عاره، إلَّا أن يدرك مُدْرَكَهُم، ويعمل عملهم، ليبلغ من الحول حولهم، فيفوقهم في القوة، أو أن يكون مثلهم فيتعارض في المَنَافِع معهم مُعَارَضَة المَالِك، لا أن يتسلىٰ بالأعاليل...، وهي نصيحة يجب علىٰ المسلم قبولها من أجنبي عنه، وكان يجب عليه من قبل أن يقبلها من أبي بَكْر الصِّدِّيْق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد قال لخَالِد بن الوَلِيْد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حين أرسله لحَرْب اليَمَامَة: (حاربهم بمثل ما يحاربونك به، السَّيْف بالسَّيْف، والرمح بالرمح).

وبَيَّنَ أَيْضاً انحراف المُسْلِمِيْن عن دينهم، حيث عرضت البدع في العَقَائِد والأَعْمَال، وحلت محل الاعْتِقَاد الصَّحِيْح، موضحاً أهمية العلم الذي لم يبق باب من أبوابه إلَّا دخله الإسْلَام بما يسمح به الزَّمَان.

وأوضح خطأ المسلم في فهم معنىٰ التوكل والقَدَر، فمال إلىٰ الكسل، وخَطَأَهُ في فهم ما ورد في دينه من أن المُسْلِمِيْن خير الأُمَم، وأن العزة والقوة مقرونتان بدينهم أبد الدهر، وخَطَأَهُ في فهم معنىٰ الطاعة لأُولي الأمر، والانقياد لأوامرهم، فألقىٰ مقاليده إلىٰ الحَاكِم، ثم أدبر عنه، وخَطَأَ المسلم الحَاكِم الذي لم يفهم من معنىٰ الحكم إلَّا تَسْخِيْر الأَبْدَان لأهوائه، وإذلال النفوس لخشونة سُلْطَانه، وابتزاز الأموال لإنفاقها إرضاءً لشهواته، لا يرعىٰ في ذٰلِكَ عدلاً، ولا يستشير كتاباً، ولا يتبع سُنَّة.

لذٰلِكَ ظهرت في الناس البدع في العَقَائِد والسُّلُوْك، وأكبرها بدعة اليأس من أنفسهم ودينهم، فهزلت الهمم، وتضعضعت العزائم، فلم يعد أحد منهم يسعىٰ في تَوْحِيْد كلمة المُسْلِمِيْن.

يكثر بعض أرباب الأقلام من المُسْلِمِيْن في حكمة الحج، فيقول: إنه صِلَة بين المُسْلِمِيْن في جميع أقطار الأرض، ومن أفضل الوَسَائِل للتعارف فيما بينهم، وهٰذَا حق، لٰكِن يجب أن يفهم علىٰ وجهه، فإن الغرض منه أن يذكر المُسْلِمُوْن ما بينهم من جَامِعَة الدِّيْن، حتىٰ يستعين بعضهم ببعض علىٰ إصْلَاح ما فسد من عَقَائِدهم، وفي مدافعة ما ينزل بهم من قحط أو ظلم.

ويكثر المُسْلِمُوْن اليوم من ذكر الدولة العُثْمَانِيَّة والسُّلْطَان عَبْد الحَمِيْد، ويعلقون آمالهم بهمته، وهٰذَا أمر لا ينبغي أن يدهش أحداً، فإن هٰذِهِ الدولة هي أكبر دُوَل الإسْلَام اليوم، سُلْطَانها أفخم سَلَاطِيْنهم، ومنه يرتجىٰ إنقاذ ما بين يديه من المُسْلِمِيْن مما حل بهم. فأي شيء في هٰذَا يزعج أوربا حتىٰ تتحد علىٰ هضم حقوق المُسْلِمِيْن، إذا حدثت مثل هٰذِهِ الحوادث الماضية، كما يقول مسيو هانوتو.

ورد الشَّيْخ علىٰ قول هانوتو: (إن أوربا لم تتقدم إلَّا بعد أن فُصلت السلطة الدِّيْنِيَّة عن المَدَنِيَّة).

فقال: لم يعرف المُسْلِمُوْن في عَصْر من الأعَصْر تلك السلطة الدِّيْنِيَّة التي كانت للبَابا عند الأُمَم المَسِيْحِيَّة، عندما كان يعزل الملوك، ويحرم الأُمَرَاء، ويقرر الضرائب علىٰ المَمَالِك، ويضع لها القوانين الإلٰهِيَّة. وقد قررت الشَّرِيْعَة الإسْلَامِيَّة الحقوق للحَاكِم الأعلىٰ، وهو الخَلِيْفَة أو السُّلْطَان. فالسُّلْطَان مدير البلاد بالسِّيَاسَة الداخلية، والمدافع عنها بالحَرْب أو بالسِّيَاسَة الخارجية، وأهل الدِّيْن قائمون بوظائفهم، وليس له عليهم إلَّا التولية والعزل، ولا لهم عليه إلَّا تنفيذ الأَحْكَام بعد الحكم ورفع المظالم.

ورد الشَّيْخ علىٰ قول هانوتو: (سوء ظن المُسْلِمِيْن بسِيَاسَة أوربا كلها، وعدم ثِقَة سياسييهم بدولة من الدول، واعْتِقَاد المُسْلِمِيْن بأن مصلحة أوربا المَسِيْحِيَّة تخالف مصلحتهم الإسْلَامِيَّة، وعدم اطمئنانهم إلىٰ سِيَاسَة الدول المَسِيْحِيَّة، حتىٰ أدىٰ بهم فقدان الثِّقَة بالمَسِيْحِيِّيْن إلىٰ أن لا يأتمنوا مَسِيْحِيّاً عُثْمَانِيّاً، ولو أخلص لهم الخدمة وصدق معهم).

فقال الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه: سمع بذٰلِكَ كله مسيو هانوتو من صاحب الجريدة المعروفة، أي: بشارة نَقْلاً صاحب الأهرام، ومن بعض العُثْمَانِيِّيْن في الآستانة وباريس. ثم أخذ يبرهن أن سِيَاسَة أوربا اقْتِصَادِيَّة ملكية، لا دينية لاهوتية.

وبَيَّنَ الشَّيْخ: أن المَسِيْحِيِّيْن في مِصْر يشاركون في العَمَل مواطنيهم من الأقباط في جميع مصالح الحكومة ما عدا المحاكم الشَّرْعِيَّة الخاصة بالمُسْلِمِيْن، وهم معهم علىٰ غَايَة الوفاق... .

وتساءل: هل طرد أحد من الخدمة لأنه مَسِيْحِيّ وعُثْمَانِيّ؟ هل حرم أحد حق المحاماة وإنشاء الجرائد أو المطابع أو إقامة المصانع أو تأسيس البيوت التجارية لأنه مَسِيْحِيّ وعُثْمَانِيّ؟ فليأت صاحبنا بشَاهِدٍ وَاحِد. وإذا ارتقينا إلىٰ الدولة وسُلْطَانها - أيده الله - وجدنا أن نظام الدولة ماضٍ باسْتِعْمَال المَسِيْحِيِّيْن في إدارتها ومحاكمها في كل بلد فيه مَسِيْحِيُّون، والمَأْمُوْرون من المَسِيْحِيِّيْن ينالون من النياشين والرتب ما يناله المُسْلِمُوْن علىٰ نسبة عددهم أو فوق ذٰلِكَ، وكثير من المَسِيْحِيِّيْن نالوا من الامتيازات والمَنَافِع في الدولة ما لم ينله مُسْلِم.

وصاحب الجريدة التي نقلت الحَدِيْث أمثل شَاهد علىٰ مثل ذٰلِكَ، فبعد أن كان علىٰ المُسْلِمِيْن في أثناء الحَرْب الروسية العُثْمَانِيَّة، وبعد أن أتىٰ ما أتىٰ عقب الحوادث العُرَابِيَّة. وجَاهَرَ زمناً ليس بالقصير بما لا ترضىٰ الدولة بمثله ولا بأقل منه من مُسْلِم، شَهِدَ المُسْلِمُوْن بأنه صديقهم، كما افتخر بذٰلِكَ مراراً في جريدته، ثم سهل عليه وهو مَسِيْحِيّ أن يكون موضع ثِقَة للجناب السُّلْطَانِيّ، ووالىٰ عليه إحْسَانه بالرتب والنياشين وغيرها، فما هي الثِّقَة إن كان هٰذَا فقدانها؟

وإن سِيَاسَة الدولة العُثْمَانِيَّة مع الدول الأُوربية ليست بسِيَاسَة دينية من يوم نشأتها إلىٰ اليوم، يجيء الأُمَرَاء المَسِيْحِيُّون من الأُوربيين إلىٰ الآستانة، فيلاقون من الاحتفال ما يلاقونه في بلاد مَسِيْحِيَّة، وكان يمكن للسُّلْطَان أن يكتفي بالرسميات ولا يَزِيْد عليها، ولٰكِن عُهِدَ في معاملته ما يفوق الرسمي بدرجات. فلا يليق بكاتب

مثل صاحب تلك الجريدة أن يَرْوِي عن المُسْلِمِيْن كافة مثل ما رواه، فإن ذٰلِكَ يحزن المُسْلِمِيْن والمَسِيْحِيِّيْن جمعاء.

وعلىٰ مسيو هانوتو أن يحقق الأمر بنفسه إن كان يهمه أن يتكلم فيه[١].

وكان الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه قد تعرض لرأي رينان أَيْضاً، حين كان رينان وهانوتو يقابلان بين الإِسْلَام والمَسِيْحِيَّة، ليقابلا بين المُسْلِمِيْن والمَسِيْحِيِّيْن الأوربيين خاصةً، ويقابلا بعد ذٰلِكَ بين دعوىٰ الغالب ودعوىٰ المغلوب.

ولم ينزل الشَّيْخ إلىٰ مضطرهم إلَّا ليدفع عن عَقِيْدَة الإِسْلام، دون أن يقدح في عَقِيْدَة المَسِيْحِيَّة، بل كان دفاعه عن الإِسْلَام في وجه الأوربيين المصطبغين بالصبغة المَسِيْحِيَّة، وهم أبعد ما يكونون عن المَسِيْحِيَّة، كما يعرفها الأُسْتَاذ الإِمَام[٢].

قال السَّيِّد رَشِيْد رِضَا:

إن الغرض الذي رمىٰ إليه الأُسْتَاذ في الرد علىٰ مسيو هانوتو هو تَنْبِيْه المُسْلِمِيْن وإِرْشَادهم إلىٰ النَّظَر في عيوبهم، والبَحْث عن الأسباب التي أفسدت عليهم أمر دينهم ودنياهم، وعمت ملوكهم وحُكَّامهم، وسوقتهم ودهماءهم، والجمع بين بَيَان أسباب الفساد وبَيَان المخرج منها[٣].

٢- رده علىٰ فرح أنطون:

كتب فرح أنطون في مجلته: (الجَامِعَة العُثْمَانِيَّة) الصادرة في القَاهِرَة عن فلسفة ابن رُشْد، فحكم بأُمُور ستأتي بعد قليل.

---

(١) الأَعْمَال الكَامِلَة للإِمَام مُحَمَّد عَبْدُه، مَقَالَاته في الرد علىٰ هانوتو، ج٣ ص٢٠١-٢٤٠. وتَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج٢ ص٤٠٠-٤٦٨.

(٢) مُحَمَّد عَبْدُه: العقاد ص٢٥٨.

(٣) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج٢ ص٤٦٨.

وكان الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه في الإسْكَنْدَرِيَّة مشتغلاً بجمع الإعانات لمنكوبي الحريق في ميت غمر سنة ١٩٠٢م، فكتب رده الذي طبع في كتاب مستقل مراراً بعُنْوَان: (الإسْلَام والنَّصْرَانِيَّة مع العلم والمَدَنِيَّة)، وهو مطبوع ضمن الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه(١).

والأُمُور التي ذكرتها (الجَامِعَة) أربعة، هي:

الأمر الأول: إن المُسْلِمِيْن قد تسامحوا لأهل النَّظَر منهم، ولم يتسامحوا لمثلهم من أرباب الأديان الأُخْرَىٰ.

ورد الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه علىٰ هٰذِهِ الفرية مستدلاً بكتب المؤرخين والفَلَاسِفَة المَسِيْحِيِّيْن، غير المُسْلِمِيْن، حين ذكروا جَمَاعَة من المَسِيْحِيِّيْن واليَهُوْد بلغوا من الحظوة عند الخُلَفَاء وعامة المُسْلِمِيْن وخاصتهم ما لم يبلغه غيرهم. وكان من أمثال هٰؤُلَاءِ بختيشوع الطبيب، وجِبْرِيْل ولده، ويوحنا بن ماسويه النَّصْرَانِيّ السُّرْيَانِيّ الذي وَلَّاهُ الرَّشِيْد ترجمة الكتب القديمة، طبية وغيرها. ويوحنا البطريق مَوْلَىٰ المأمون أقامه أميناً علىٰ ترجمة الكتب الطبية والفلسفية، ووَلَّىٰ سابور بن سهل بيمَارَسْتَان جُنْدَيْسَابُور...، وغيرهم كثير.

ونال الدرجات العَالِيَة أَيْضاً الفَلَاسِفَة الإسْلَامِيُّوْن والأطباء والعُلَمَاء في مختلف الفُنُوْن عند الخُلَفَاء، وذكر نماذج عديدة منهم، وقد أَوْسع الإسْلَام صدره للغَرِيْب كما يوسعه للقريب بمِيْزَان وَاحِد.

الأمر الثاني: إن من الطوائف الإسْلَامِيَّة طوائف قد اقتتلت بسبب الاعْتِقَادَات الدِّيْنِيَّة.

---

(١) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص٨٠٥-٨١٦.

وانظر الرد علىٰ فرح أنطون في: الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه ج٣ ص٢٤٣-٣٥٠، ورجعتُ أَيْضاً إلىٰ الكتاب المستقل المطبوع سنة ١٩٥٤م.

وَرد الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه علىٰ هٰذَا:

بأنه لم يسمع في تَارِيْخ المُسْلِمِيْن بقتال وقع بين السَّلَفِيِّين والأَشَاعِرَة، ولا بين هٰذَيْنِ الفريقين من أَهْل السُّنَّة والمُعْتَزِلَة مع شدة الاختلاف بينهما. كما لم يسمع بوقوع حَرْب بين الفَلَاسِفَة الإِسْلَامِيِّيْن وبين غيرهم. نعم سمع بحروب الخَوَارِج والقَرَامِطَة، ولٰكِن لم يكن سببها الخلاف في العَقَائِد وإنما هي السِّيَاسَة، وما كان من حَرْب بين الأُمَوِيِّيْن والهَاشِمِيِّيْن فهو حَرْب علىٰ الخِلَافَة، وهٰكَذَا في سائر الحروب الأُخْرَىٰ.

وذَكَّرَ صاحبَ (الجَامِعَة) بما كان يقع في القُسْطَنْطِيْنِيَّة من سفك الدماء بين الأرثوذكس والكاثوليك علىٰ عهد القياصرة الرُّوْمَانِيِّيْن، وبحادثة «برتلمي سنتهلير» التي سفك فيها الكاثوليك دماء إخوانهم البروتستانت، وأخذوهم من بيوتهم علىٰ غرة، وقتلوهم نساء ورِجَالاً وأطفالاً. وأمثال هٰذِهِ الوقائع الكثيرة.

الأمر الثالث: إن طبيعة الدِّيْن الإِسْلَامِيّ تأبىٰ التسامح مع العلم، وطبيعة الدِّيْن المَسِيْحِيّ تيسر لأهله التسامح مع العلم.

وَرد الشَّيْخ علىٰ هٰذَا القول:

بأن (الجَامِعَة) قد ظنت بأن الدِّيْن المَسِيْحِيّ فصل بين السلطة الدِّيْنِيَّة والسلطة المَدَنِيَّة، فكان في طبيعته التسامح، أما الدِّيْن الإِسْلَامِيّ فمن أُصُوْله أن السُّلْطَان ملك وخَلِيْفَة ديني، وذٰلِكَ مما يصعب معه التسامح في رأيها.

وبَيَّنَ أن هٰذَا ليس بكافٍ في بَيَان استعداد كل دين للتسامح مع العلم أو مع أية عَقِيْدَة تخالفها، بل لا بد من بَيَان أركان الدِّيْن، وأهم أُصُوْله التي ترجع إليها جميع الفُرُوْع، وعنها تصدر الآثار الحقيقية، فشرع ببَيَان أُصُوْل الدِّيْن المَسِيْحِيّ، التي وردت في الأناجيل المعروفة الآن في أيدي المَسِيْحِيِّيْن، وهي:

الأصل الأول: الخوارق: فلا تجد للمَسِيْح عَلَيْهِ السَّلَامُ دليلاً علىٰ صدقه في الأناجيل

إِلَّا ما كان يصنع من خوارق العادات.

الأصل الثاني: سلطة الرؤساء: وهي السلطة الدِّيْنِيَّة التي منحت للرؤساء علىٰ المَرْؤُوْسِيْن في عَقَائِدهم وما تكنه ضمائرهم.

الأصل الثالث: ترك الدنيا: وهو التجرد من الدنيا والانقطاع إلىٰ الآخِرَة.

الأصل الرابع: الإيمان بغير المَعْقُوْل: فالإيمان مِنْحَة لا دخل للعقل فيها. وإن من الدِّيْن ما هو فوق العقل، بمعنىٰ ما يناقض أَحْكَام العقل، وهو مع ذٰلِكَ مما يجب الإيمان به.

الأصل الخامس: الكتب المقدسة حاوية كل ما يحتاج إليه البشر في المعاش والمعاد.

الأصل السادس: التفريق بين المَسِيْحِيِّيْن وغيرهم حتىٰ الأقربين.

فكان من نتائج هٰذِهِ الأُصُوْل إعراض المَسِيْحِيِّيْن الأوائل عن شواغل الكون، إظهاراً للغنىٰ بالإيمان والعِبَادَة عن كل شيء سواهما. وأحرقت كتب البطالسة والمِصْرِيِّيْن بالإِسْكَنْدَرِيَّة علىٰ عهد (جول قيصر). وما من عَقِيْدَة ظهرت في المَسِيْحِيَّة وأُريد تَقْرِيْرها من فريق ونازع بها فريق إِلَّا وقد سالت لها الدماء، وأورد الشَّيْخ أمثلة لذٰلِكَ. وظهرت مُرَاقَبَة المطبوعات ومحكمة التفتيش. وقرر مَجْمَع لاتران سنة ١٥٠٢م أن يلعن كل من ينظر في فلسفة ابن رُشْد.

وأوضح الشَّيْخ كيف اضطهدت المَسِيْحِيَّة المُسْلِمِيْن واليَهُوْد والعُلَمَاء عامة. وأشار إلىٰ الحوادث بعد القول بكُرَوِيَّة الأرض الذي قال به المُسْلِمُوْن في أول خِلَافَة بني العَبَّاس، وبَيَّنَ أن مَجْمَع سَلَامانك حكم علىٰ رِحْلَة كريستوف كولومبس في المُحِيْط بأنها مخالفة أُصُوْل الدِّيْن، مع أن كولومبس قال: إن الذي أوحىٰ إليه هٰذَا القصد النَّبِيْل هي كتب ابن رُشْد.

وبَيَّنَ أَيْضاً كيف قاومت الكنيسة العُلَمَاء كغاليلو، والحقن تحت الجلد، وتَسْهِيْل الولادة، والجمعيات العِلْمِيَّة. وأن الكردينال أكسينيس أحرق في غَرْنَاطَة ثَمَانِيَة آلاف

كتاب بخط القلم، ثم بَيَّنَ أن ذٰلِكَ هو أَسَاس الفصل بين السلطتين في المَسِيْحِيَّة.

وتحدث الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه بعدها عن طبيعة الإسْلَام مع العلم بمُقْتَضَىٰ أُصُوْله. وشرع في بَيَان أُصُوْل الإسْلَام علىٰ النَّحْو الآتي:

الأصل الأول: النَّظَر العقلي لتَحْصِيْل الإيمان: فهو وسيلة الإيمان الصَّحِيْح، حتىٰ بلغ ببعض العُلَمَاء من أَهْل السُّنَّة أن يقول: إن الذي يستقصي جهده في الوُصُوْل إلىٰ الحق، ثم لم يصل إليه، ومات طالباً غير واقف عند الظن، فهو ناج. فأي سعة لا ينظر إليها الحرج أَكْمَل من هٰذِهِ السعة؟ وهٰذَا الأصل ضد الأصل الرابع للنَّصْرَانِيَّة (الإيمان بغير المَعْقُوْل).

الأصل الثاني: تقديم العقل علىٰ ظَاهِر الشَّرْع عند التعارض: وعليه اتفق المُسْلِمُوْن إلَّا قليلاً ممن لا ينظر إليه علىٰ: أنه إذا تعارض العقل والنقل، أي: إذا تعارض الدليل العقلي القطعي مع ظَاهِر النقل غير القطعي الرِّوَايَة والدلالة، أخذ بما دل عليه العقل.

وبقي في النقل طريقان: طريق التَّسْلِيْم بصحة المَنْقُوْل مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، وتفويض الأمر إلىٰ الله في علمه.

والطريق الثانية: تَأْوِيْل النقل مع المحافظة علىٰ قوانين اللُّغَة، حتىٰ يتفق معناه مع ما أثبته العقل. وبهٰذَا مُهِّدَت بين يدي العقل كل سَبِيْل.

الأصل الثالث: البعد عن التكفير: فإذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مئة وجه، ويحتمل الإيمان من وجه وَاحِد حمل علىٰ الإيمان. فهل رأيت تسامحاً مع أقوال الفَلَاسِفَة والحكماء أَوْسع من هٰذَا؟

الأصل الرابع: الاعتبار بسُنَن الله في الخلق: فلا يعول بعد الأنبياء في الدعوة إلىٰ الحق علىٰ غير الدليل، وأن لا ينظر إلىٰ العجائب والغرائب وخوارق العادات. وهٰذَا الأصل ضد الأصل الأول للنَّصْرَانِيَّة (الخوارق).

الأصل الخامس: قلب السلطة الدِّيْنِيَّة والإتيان عليها من أَسَاسها: فلم يدع الإسْلَام لأحد بعد الله ورَسُوْله سُلْطَاناً علىٰ عَقِيْدَة أحد، والرَّسُوْل ﷺ كان مبلغاً ومذكراً لا مسيطراً. فليس لمُسْلِم مهما علا كَعْبه في الإسْلَام، علىٰ آخر مهما انحطت منزلته فيه، إلَّا حق النصيحة والإرْشَاد. وهٰذَا الاصل ضد الاصل الثاني للنَّصْرَانِيَّة (سلطة الرؤساء).

الأصل السادس: حماية الدعوة لمنع الفتنة: فالقتال في الإسْلَام لرد اعتداء المعتدين علىٰ الحق وأهله، لا للإكراه علىٰ الدِّيْن، ولا للانتقام من المخالفين. ولهٰذَا لم تقع حروب إسْلَامِيَّة بقصد الإبادة، كما وقع كثير من الحروب بهٰذَا القصد بأيدي المَسِيْحِيِّيْن.

الأصل السابع: مودة المخالفين في العَقِيْدَة: فأباح الإسْلَام للمسلم التزوج بالكتابية نَصْرَانِيَّة أو يَهُوْدِيَّة، ولو بقيت علىٰ دينها، مع رعاية حقوقها الكَامِلَة كزوجة، وهٰذَا الأصل ضد الاصل السادس للنَّصْرَانِيَّة وهو (التفريق بين المَسِيْحِيِّيْن وغيرهم حتىٰ الأقربين).

الأصل الثامن: الجمع بين مصالح الدنيا والآخِرَة: فاهتم بالصحة، ورخص في الأَحْكَام كإباحة الإفطار في حال المرض والسفر، و التَّيَمُّم عند عدم القدرة علىٰ اسْتِعْمَال الماء، وأباح التجمل بأنواع الزِّيْنَة، والتوسع في التمتع بالمشتهيات، ووضع قَانُوْن الإنفاق وحفظ المال، كل ذٰلِكَ مع النهي عن المغالاة في الدِّيْن. وهٰذَا الأصل ضد الأصل الثالث للنَّصْرَانِيَّة (ترك الدنيا).

وبَيَّنَ الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه نتائج هٰذِهِ الأُصُوْل عند المُسْلِمِيْن، حيث خالطوا أهل فَارِس وسُوْرِيَّة وسواد العِرَاق، فاحتكت الأَفْكَار بالأَفْكَار، فدرسوا العُلُوْم والفُنُوْن والصَّنَائِع، فاشتغلوا بالعُلُوْم الأدبية ثم العقلية والعُلُوْم الكونية، وأنشؤوا دور الكتب العامة والخاصة والمدارس المُخْتَلِفَة، وأنفقوا عليها بسخاء، فترجموا وألفوا واكتشفوا الشيء الكثير، وضرب الشَّيْخ لذٰلِكَ أمثلة مما شَهِدَ به المستشرقون، فأخذ الخُلَفَاء والأُمَرَاء بيد العُلَمَاء، وأغدقوا عليهم العَطَاء، وأنزلوهم منازلهم الكَبِيْرَة من الاحترام والتبجيل.

ثم رد الاحتجاج علىٰ الإِسْلَام بحال المُسْلِمِيْن اليوم، وبَيَّنَ أن حال المُسْلِمِيْن هٰذِهِ عارض عرض لهم، ومرض أُصيبوا به، وطبيعة الإِسْلَام تأباه.

وشرع يتكلم عن الجمود وسببه الأكبر سِيَاسَة الظلمة التي روجت ما أدخل علىٰ الدِّيْن مما لا يعرفه، وسلبت من المسلم أملاً كان يخترق به أطباق السماوات، قال: (فَجُلُّ ما تراه الآن مما تسميه العامة إِسْلَاماً فهو ليس بإِسْلَام، وإنما حفظ من أَعْمَال الإِسْلَام صورة الصلاة والصوم والحج، ومن الأقوال قليلاً منها حرفت عن معانيها. ووصل الناس بما عرض لدينهم من البدع والخرافات إلىٰ الجمود الذي ذكرته وعدوه ديناً).

ثم أوضح مفاسد هٰذَا الجمود ونتائجه، فالدِّيْن لما وقف، وقعد طُلَّاب اليقين، وقف العلم، وسكنت ريحه. وبَيَّنَ الشَّيْخ جناية الجمود علىٰ اللُّغَة والجمود علىٰ النظام والاجتماع وأثره في تَمْزِيْق نظام الأُمَّة، والجمود علىٰ الشَّرِيْعَة وأهلها، حيث لا يتصور من جاهلِ العَمَل بأَحْكَامها فوقع الانحراف عنها، وسقط احترامها. وجناية الجمود علىٰ العَقِيْدَة، فنسوا ما جاء في الكتاب، وأيدته السُّنَّة، من أن الإيمان يعتمد اليقين لا الظن، وأن العقل هو ينبوع اليقين في الإيمان بالله وعلمه وقدرته والتَّصْدِيْق بالرِّسَالَة.

وكل ما تراه من البدع المتجددة فمنشؤه سوء الاعْتِقَاد، الذي نشأ من رداءة التقليد.

ثم أوضح الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه أن الجمود عِلَّة تزول بالرجوع إلىٰ كتاب الله، وأقوىٰ دليل علىٰ زواله بَقَاء الكتاب شَاهداً عليه بسوء حاله، ولطف الله بتقييض أُناس للكتاب ينصرونه، ويدعون إليه، ويؤيدونه.

والإِسْلَام لم يقف عثرة في سَبِيْل المَدَنِيَّة أَبداً، لٰكِنه سيهذبها وينقيها من أوضارها، وستكون المَدَنِيَّة من أقوىٰ أَنْصَاره متىٰ عرفته وعرفها أهله.

الأمر الرابع: إن إيناع ثمرة المَدَنِيَّة الحَدِيْثَة إنما تمتع به الأوربيون ببركة التسامح الدِّيْنِيّ المَسِيْحِيّ.

فبَيَّنَ الشَّيْخ في رده علىٰ هٰذَا القول طرق اقتباس مَدَنِيَّة أوربا من الإِسْلَام،

وأسباب ظهورها العام، وهي:

السبب الأول: الجمعيات: حيث كان الجِلَاد بين العلم والدِّيْن في أوربا، وتألفت لنصرة العلم جمعيات وأحزاب تعمل سراً وجهراً، حتىٰ إذا أشرقت الأَنْوار المُحَمَّدِيَّة في الأَنْدَلُس، وسطعت في الشرق، استضاءت بها النفوس في السَّبِيْل المؤدي إلىٰ المَدَنِيَّة.

السبب الثاني: الضغط الدِّيْنِيّ: فشدة الحاجة وغلو الرؤساء كانا يوقدان الغيرة في قلوب طُلَّاب العُلُوْم، فلم تفتر لهم همة، فعظم أمرهم، وتنبهت العُقُوْل للأخذ بما يهتدون إليه، وصارت الحَرْب بينهم وبين رؤساء الدِّيْن سجالاً، التي انتهت أَخِيْراً بأن تمنح كل طائفة الأُخْرَىٰ من الحرية ما لا تستغني عنه وَاحِدَة منهما.

السبب الثالث: الثورة: والواقف علىٰ الثورة الفرنسية وكيف كانت قيامتها علىٰ الدِّيْن ورؤسائه، يعلم أن الدِّيْن المَسِيْحِيّ في أوربا لم يحتمل العلم فضلاً وكرماً، وإنما قَوِيَت عليه أحزاب العلم، فساموه استكانة وخضوعاً.

السبب الرابع: ترك المَسِيْحِيَّة: فرؤساء الدِّيْن المَسِيْحِيّ أشد الناس حرصاً علىٰ تَقْوِيْم أركانه ودفع الشبه عنه، ولم يزدهم العلم الجديد إلَّا وَسَائِل وسُبُلاً لتَرْوِيج عَقَائِده وآدابه، ومع ذٰلِكَ فإن رِجَال العلم وحماة المَدَنِيَّة يتسللون منه، والعامة من الشعوب في تخاذل عنه. وضرب الشَّيْخ لذٰلِكَ أمثلة.

وعاد بعد ذٰلِكَ إلىٰ بَيَان سماحة الإسْلَام، وكيف أن الخُلَفَاء والأُمَرَاء أخذوا بأيدي العُلَمَاء والفُقَهَاء والمتكلمين والأُدَبَاء والأطباء، موضحاً الملازمة بين العلم والدِّيْن.

ونحا باللائمة علىٰ المُسْلِمِيْن في إهمالهم الكتب، ودعا إلىٰ جمع مخطوطاتها من المكتبات المُخْتَلِفَة في العالم الإسْلَامِيّ، والاستفادة منها، وقال: (وهل يليق بأُمَّة تدعي أنها علىٰ دين، وأن لها فيه سلفاً، أن تهجر آثار سلفها، وتدع ما كتبوا طعمة للعُثّ وفراشاً للتراب؟).

وأوضح الشَّيْخ الصِّلَة بين الإسْلَام والعلم ومباينته لسواه، فقال: (الحق أقول،

والحس يؤيدني: ما عادوا العلم، والا العلم عاداهم، إلَّا من يوم انحرافهم عن دينهم، وأخذهم في الصد عن علمه، فكلما بَعُدَ عنهم علم الدِّيْن، بَعُدَ عنهم علم الدنيا، وحرموا ثِمَار العقل، وكانوا كلما توسعوا في العُلُوْم الدِّيْنِيَّة توسعوا في العُلُوْم الكونية، وضربوا الزَّمَان بسوط من العزة. وأما غيرهم فكلما اتَّصَلوا بالدِّيْن وَجَدُّوا في المحافظة عليه أنكرهم العلم وتجهمهم، واكْفَهَرَّ وَجْهُهُ للقائهم، وكلما بعدوا من الدِّيْن سالمهم العلم وبَشَّ في وجوههم، ولذٰلِكَ يصرحون بأن العلم من ثِمَار العقل، والعقل لا يَصِحّ أن يكون له في الدِّيْن عمل...، والدِّيْن من وجدانات القلب، ولا علاقة بين ما يجد القلب وما يكسب العقل، فالفصل تام بين العقل والدِّيْن).

ثم تحدث عن المسلم المُقَلِّد غَيْرَهُ، حيث يكون أحط حالاً وأخسّ منزلة من المُقَلَّد، لأنهم خلطوا في التقليد، وأضافوا إلىٰ دينهم ما لا يتفق معه، فصار المُسْلِمُوْن في مثل حال المتخبط الذي تتنازعه عدة قوىٰ يذهب كل منها آنا، ثم ينتهي أمره بعد الخيبة بالتعب الشديد، فيستلقي إلىٰ أن يستريح، فينهض إلىٰ العَمَل علىٰ هُدَىٰ أو يموت.

لما كان المُسْلِمُوْن عُلَمَاء كانت لهم عينان: عَيْن تنظر إلىٰ الدنيا، والأُخْرَىٰ تنظر إلىٰ الآخِرَة. فلما طفقوا يقلدون أغمضوا إحدىٰ العَيْنَيْن، وأقذوا الأُخْرَىٰ بما هو أجنبي عنهم، ففقدوا المطلبين، ولن يجدوهما إلَّا بفتح ما أغمضوا، وتطهير ما أقذوا.

الفصل الثالث

السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا

وُلِدَ سنة ١٢٨٢هـ=١٨٦٥م

وتُوُفِّيَ سنة ١٣٥٣هـ=١٩٣٥م

وفيه مَبْحَثَان:

المَبْحَث الأول: شخصية السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا.

المَبْحَث الثاني: آراء السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا.

المَبْحَث الأول

شخصية السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا

اسمه ومولده وأُسرته:

هو مُحَمَّد رَشِيْد بن عَلِيّ رِضَا بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عَلِيّ القَلَمُوْنِيّ، البَغْدَادِيّ الأصل، الحُسَيْنِيّ(١).

ولد السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا في ٢٧ جمادىٰ الأُوْلَىٰ ١٢٨٢هـ(٢)، يوم الأربعاء الموافق ١٨ تشرين الأول ١٨٦٥م(٣).

ونشأ في قَرْيَة القَلَمُوْن بالشَّام(٤) في بيت يمتاز أهله بالكرم والضيافة والعلم والإرْشَاد والرياسة، ويلقبون بالمشايخ للتَّمْيِيْز.

كان والده سيد الأُسرة، وعمه السَّيِّد الشَّيْخ أَحْمَد كَبِيْر الأُسرة سناً، مُنْقَطِعاً للعِبَادَة، لا يقابل من الضيوف إلَّا العُلَمَاء والأصدقاء في وقت معين بين صلاتي المَغْرِب والعشاء، ومجلسه كان مجلس أدب ووقار.

---

(١) مُعْجَم المُؤَلِّفِيْن ج٣ ص٢٩٣.

(٢) السَّيِّد رَشِيْد رِضَا أو إخاء أَرْبَعِيْن سنة: شَكِيْب أَرْسْلَان ص٥.

(٣) مُقَدِّمَة فَتَاوىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا: د. صَلَاح الدِّيْن المُنَجِّد ج١ ص٩.

(٤) تقع مَدِيْنَة القَلَمُوْن علىٰ شاطئ البَحْر الأبيض المتوسط من جبل لُبْنَان، تبعد عن مَدِيْنَة طَرَابُلُس الشَّام زهاء ثلاثة أميال.

السَّيِّد رَشِيْد رِضَا أو إخاء أَرْبَعِيْن سنة: شَكِيْب أَرْسْلَان ص٢٣ نَقْلاً من حَدِيْث السَّيِّد رَشِيْد عن نفسه في كتابه (المَنَار والأَزْهَر) المطبوع سنة ١٣٥٣هـ.

وكان لهم خِزَانَة كتب موروثة، فيها عدة كتب نادرة في العُلُوْم جميعها، وقد سرق أكثرها زمن الثورة المِصْرِيَّة.

وبهٰذَا يعلم أن له عرفاً وراثياً في حب العلم والإرْشَاد والاستعداد لهما.

نشأ قليل الرغبة في اللعب، شديد الحياء، فنفعه حياؤه من ناحية الأدب وصيانة العرض واللِّسَان، فلم ينطق بشيء من كلام المجون والفحش، ولم يجهر بقِرَاءَة شيء مما في الكتب منه، ولقد تحدىٰ الأديب الشَّيْخ عَبْد القَادِر المَغْرِبِيّ عضو المَجْمَع العِلْمِيّ العَرَبِيّ بدِمَشْق، وهو تِرْبُهُ ورفيقه في التعلم، بأنه إذا حفظ عليه كذبة وَاحِدَة، كان له حكمه عليه فيها. قال: (وإنما كان هٰذَا التحدي لأجعله رَقِيْباً عَلَيَّ في تربيتي لنفسي، وكنت وما زلت أُكلف كل من أُعاشره أن يكاشفني بما ينتقده علىٰ أَخْلَاقِي وآرائي، كما أُطالب قُرَّاء المَنَار في كل عام بانتقاده).

ذكاؤه:

ولم يختلف اثنان في ندور ذكائه، كما وصفه زَمِيْله شَكِيْب أَرْسْلَان، وإنه ما بلغ تلك الدرجة القصوىٰ من العُلُوْم إلَّا وهو من سَلَاطِيْن الأذكياء.

ولما شرع في طلب العلم كان الطلبة يكتبون تَعْرِيْفَات لكل علم يحفظونها بحروفها لأجل الامتحان، ولم يكن يُعْنَىٰ معهم بذٰلِكَ، وإنما كان يُعْنَىٰ بفهمها حق الفهم، وبالقدرة علىٰ التعبير عما يفهمه، وافق اللفظ المكتوب أو خالفه، إلَّا ما لا بد من حفظه بلفظه بأمر المدرسة كالأَلْفِيَّة، ومتن السُّلَّم في المنطق، وجَوْهَرَة التَّوْحِيْد، وبعض مقامات الحَرِيْرِيّ.

كان قَوِيّ الذَّاكِرَة والاسْتِحْضَار لما يقرأ ويسمع، ولٰكِنه كان ضعيف الاستعداد لحفظ الجزئيات كالأَعْلَام والأرقام والحوادث التي لا تضبطها قاعدة كُلِّيَّة أو غرض عام، وكذٰلِكَ حوادث التَّارِيْخ الجزئية، إلَّا أنه كان يُعْنَىٰ بفلسفتها وأسبابها ونتائجها العامة.

قال السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَـا: (زار طَرَابُلُس مرةً طالبُ علم مِصْرِيّ، اسمه الشَّيْخ مَرْعِي، كان لَطِيْف المعاشرة والمُذَاكَرَة، رأيتُهُ مع إخواننا الطلبة يتكلمون في مَسْأَلَة من المنطق، غير واقفين عليها، فذكرتُ لهم ما أفهمه، فقال الشَّيْخ مَرْعِي متعجباً: الله، إنه يحفظ حَاشِيَة الحَفْنِيّ علىٰ شرح السُّلَّم باللفظ والمعنىٰ. علىٰ أنني لم أحفظ حروف الجر في غير الأَلْفِيَّة إلَّا بتكرارها مراراً).

نشأته العِلْمِيَّة:

تعلم في كُتَّاب قَرْيَة القَلَمُوْن قِرَاءَة القُرْآن والخط وقَوَاعِد الحساب، ثم دخل المدرسة الرشدية في طَرَابُلُس الشَّام، وهي مدرسة ابتدائية للدولة، يدرس فيها الصرف والنَّحْو والحساب ومبادئ الجغرافية وعلم الحال (العَقَائِد والعِبَادَات)، واللُّغَة التُّرْكِيَّة والعَرَبِيَّة، ولٰكِن جميع التدريس فيها باللُّغَة التُّرْكِيَّة، فأقام فيها سَنَةً، ثم لم يعد إليها.

ثم دخل المدرسة الوطنية الإسْلَامِيَّة، وهي أرقىٰ من المدرسة الرشدية، وجميع التَّعْلِيْم فيها باللُّغَة العَرَبِيَّة إلَّا اللغتين التُّرْكِيَّة والفرنسية، وهو وإن حفظ كل ما فرض عليه من دروسها، لٰكِنه لم يُعْنَ بها، فندم علىٰ الثانية بعد أن علم أن لها فَوَائِد في خدمة الإسْلَام.

وتدرس فيها العُلُوْم العَرَبِيَّة والشَّرْعِيَّة والمنطق والرِّيَاضيات والفلسفة الطبيعية. وكان العلامة الشَّيْخ حُسَيْن الجسر الأَزْهَرِيّ هو المدير لها، بعد أن كان هو الذي سعىٰ لتأسيسها، لأن رأيه أن الأُمَّة الإسْلَامِيَّة لا تصلح وترقىٰ إلَّا بالجمع بين عُلُوْم الدِّيْن وعُلُوْم الدنيا، علىٰ الطريقة العَصْرِيَّة الأوربية، مع التربية الإسْلَامِيَّة الوطنية تجاه التربية الأجنبية في مدارس الدول الأوربية والأميركانية. ولٰكِن الحكومة العُثْمَانِيَّة لم تقبل أن تعدها من المدارس الدِّيْنِيَّة التي يعفىٰ طُلَّابها من الخدمة العَسْكَرِيَّة، فكان ذٰلِكَ سبباً لإلغائها، فحرمت طَرَابُلُس وملحقاتها من فَوَائِدها.

وكان من قبل طلب العلم شديد العِنَايَة بمُطَالَعَة كتب الأدب وكتب التَّصَوُّف،

وكان أعجب كتب التَّصَوُّف إليه إحياء عُلُوْم الدِّيْن للغَزَالِيّ، فطالعه كُلَّهُ، وأكثر من مراجعته، وقرأه للناس، وكان له أكبر التَّأْثِيْر في دينه وأَخْلَاقه وعلمه وعمله، ورجع عما كان فيه من خطأ عِلْمِيّ بالتدريج بعد اشتغاله بعلم الحَدِيْث، ولا سِيَّمَا عَقِيْدَة الجبر والتَّأْوِيْلَات الأَشْعَرِيَّة والصُّوْفِيَّة والغُلُوّ في الزهد وبعض العِبَادَات المبتدعة. وأما تَأْثِيْره الوجداني في الزهد واحتقاره الدنيا والمتكالبين عليها ووظائف الحكومة، فلم يستطع الاعْتِدَال فيه.

وكان يعجبه من كتب الشَّعْرَانِيّ اليَوَاقِيْت والجَوَاهِر، لقلة الخرافات فيه.

ولم يكن له مرشد في ذٰلِكَ إِلَّا الاستعداد الفطري، فكان من أول النشأة صُوْفِيّاً، عِبَادَة وتَخَلُّقاً، مع ميل شديد إلىٰ الأدب ونظم الشعر قبل قِرَاءَة العُلُوْم العَرَبِيَّة، وكان له من سَلِيْقَة اللُّغَة أنه قلما كان يَلْحَنُ في قِرَاءَتها.

وتخرج في العُلُوْم العَرَبِيَّة والشَّرْعِيَّة والعقلية علىٰ الشَّيْخ حُسَيْن الجسر، الذي كان له إلمام وَاسِع بالعُلُوْم العَصْرِيَّة، ويتحرىٰ في التَّعْلِيْم السهولة في البَيَان، ويتجنب المناقشات اللفظية واستطرادات الحواشي، والذي لم يقم في الأَزْهَر إِلَّا بضع سنين، لقي في أثنائها الشَّيْخ حُسَيْناً المَرْصَفِيّ الأديب الشهير، وكان معجباً بأدبه وأَفْكَاره.

وأخذ الحَدِيْث وفِقْه الشَّافِعِيَّة عن شَيْخ الشُّيُوْخ مَحْمُوْد نشَّابة، الذي أقام في الأَزْهَر متعلماً ومعلماً ثلاثين سنة، حمل شهاداته بثَمَانِيَة عشر علماً، منها الجبر والمُقَابَلَة.

وحضر علىٰ العلامة الشَّيْخ عَبْد الغَنِيّ الرَّافِعِيّ قليلاً من كتاب نَيْل الأَوْطَار، واستفاد كَثِيْراً من معاشرته في العلم والأدب والتَّصَوُّف.

وتلقىٰ عن العالم المُحَدِّث الشَّيْخ مُحَمَّد القاوقْجي الكَبِيْر كتابه في الأَحَادِيْث المُسَلْسَلة، وبعض كتابه المُعْجَم الوَجِيْز.

وإنما فتح له باب الاشتغال بعُلُوْم الحَدِيْث شرح الأحياء، لما فيه من تَخْرِيْج أَحَادِيْث الكتاب، فصار بعد الاطلاع عليه لا يحتج بحَدِيْث ولا يكتبه إِلَّا مع بَيَان

تَخْرِيْجه.

ثم لم يكتف بتَصْحِيْح أي كتاب للحَدِيْث الذي فيه شبهة عنده حتىٰ يراجع سنده، وما قاله عُلَمَاء الجَرْح والتَّعْدِيْل فيه. وكان أول من استحضر كتاب مِيْزَان الاعْتِدَال من الهِنْد إلىٰ طَرَابُلُس.

وللإمَام الغَزَالِيّ فضل كَبِيْر عليه، فقد عَلَّق بنفسه من كلامه في شرح عجائب القلب ما ضربه من المثل للفرق بين العلم الذي يصل إلىٰ القلب أو النفس من طريق الحواس، والعلم الذي يتفجر منه بتطهيره من الصفات المذمومة والأَفْكَار الرديئة حتىٰ يكون كالمِرْآة الصقيلة، بأن مَثَلَ الأول كالماء الذي يجري في السواقي المحفورة إلىٰ حفرة أو بئر، يجتمع فيه ما يحمله في طريقه من الغُثَاء والوَحَل، ومَثَلَ الثاني كماء اليَنْبُوع الذي يتفجر من الصَّخْر النظيف.

قال السَّيِّد رَشِيْد: (فقد كنتُ أتحرىٰ أن يكون قلبي طاهراً، ونفسي زَكِيَّة، لأكون مستعداً للعلم الإلْهَامي، ولتكون مِرْآة نفسي صقيلةً، ينطبع فيها ما تتوجه إليه من المَعْلُوْمَات الكسبية علىٰ اختلاف أنواعها).

تصوفه:

نشأ في حجر العِبَادَة، فكان في سن المراهقة يذهب إلىٰ المسجد في السَّحَر، ولا يعود إلىٰ البيت إلَّا بعد ارتفاع الشمس، حتىٰ قالت والدته: (إنني منذ كبر رَشِيْد ما رأيته نائماً، فإنه ينام بعدنا، ويقوم قبلنا).

وكانت صلاة التهجد تلذ له تحت الأشجار في بساتينهم الخالية، ويفكر في صدق من قال: (أهل الليل في ليلهم أنعم من أهل اللهو في لهوهم) ومن قال: (لو يعلم الملوك ما نحن فيه لقاتلونا عليه بالسيوف).

وكان كَبِيْر أُسرتهم الشَّيْخ أَحْمَد أبو الكَمَال يدارس أولاد الأُسرة القُرْآن في

رَمَضَان، لأجل تجويده، وكان يقرأ ورد السحر في غير رَمَضَان وحده، وفي رَمَضَان جَمَاعَة.

وحبب إلىٰ السَّيِّد رَشِيْد التَّصَوُّفَ كتابُ إحياء عُلُوْم الدِّيْن للغَزَالِيّ، فكان يجاهد نفسه علىٰ طريق الصُّوْفِيَّة بترك أطايب الطعام ونحوه.

وترك أوراداً كان قد استمر عليها، حين رأىٰ عدم ثُبُوْتها في السُّنَّة النَّبَوِيَّة.

وقطع الغرور عن نفسه، فلم يلتفت إلىٰ اعْتِقَاد الناس بصَلَاحه وكَرَامَاته(١).

وكان يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المُنْكر، لا يخاف في الله لومة لائم، لا سِيَّمَا بعد قِرَاءَته هٰذَا الباب في كتاب إحياء عُلُوْم الدِّيْن. فكان ينكر علىٰ أهل الطريق(٢) ما يظهر أنه يخالف السُّنَّة النَّبَوِيَّة.

ولما ذهب إلىٰ مِصْر ورأىٰ فيها من البدع، أنكر عليهم بمَقَالَات ضافية في مَجَلَّة المَنَار، وله في إنكاره علىٰ الحُكَّام وقائع مشهورة(٣).

تَعْلِيْمه العوام، ووعظهم:

كان يقرأ للرِّجَال دروساً في مسجدهم، ويذهب معهم إلىٰ المقهىٰ، وكان يستتيب تاركي الصلاة، ويلزمهم بما له من النفوذ الدِّيْنِيّ والوراثي بالمحافظة عليها. وكتب لهم عَقِيْدَة سهلة الفهم والعبارة، حفظها الكثيرون. وقرأ لهم في الفِقْه قسم العِبَادَات من نِهَايَة المُحْتَاج في شرح المِنْهَاج للرَّمْلِيّ، وكلهم شَافِعِيَّة، فصار كثير منهم أَفْقَه من

---

(١) انظر كلامه عن الرؤىٰ الصالحة، ومكاشفاته، واستجابة دعائه، وشفاء المريض برقياه، واعْتِقَاد الناس بولايته وكَرَامَاته، في: السَّيِّد رَشِيْد رِضَا أو إخاء أَرْبَعِيْن سنة: شَكِيْب أَرْسْلَان ص٧٠-٨٩.

(٢) انظر قصته مع المَوْلَوِيَّة في: السَّيِّد رَشِيْد رِضَا أو إخاء أَرْبَعِيْن سنة: شَكِيْب أَرْسْلَان ص٩٥.

(٣) انظر من ذٰلِكَ: السَّيِّد رَشِيْد رِضَا أو إخاء أَرْبَعِيْن سنة: شَكِيْب أَرْسْلَان ص٩٨-١٠٢.

طلبة العلم الرسميين.

وألقىٰ دروساً علىٰ نساء القَرْيَة الخاصة بهن في داره القديمة في العَقَائِد وأَحْكَام الطهارة والعِبَادَات، بعبارة عامية سهلة بدون كتاب، وألزمهن تغيير زيهن في اللباس بما هو أستر وأطهر، فصرن يصلين، وحسنت حالتهن في النظافة ومعاشرة أزواجهن.

وكان يلقي المَوَاعِظ، معتمداً فيها علىٰ القُرْآن، مستحضراً الآيات الكثيرة في الموضوع الوَاحِد، وعلىٰ كتاب الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حَجَر الهَيْتَمِيّ. ومنه عرف بدع البناء علىٰ القبور، وتَشْرِيْفها، ووضع السُّرُج عليها، وأنها ضلالة لعن النَّبِيّ ﷺ فاعليها.

وكان يمنع ذٰلِكَ التَّعْظِيْم بنفسه، أو بمن يحضر دروسه.

وبعد ذٰلِكَ اطلع علىٰ كتب ابن تَيْمِيَّة وابن القَيِّم، وإنْصَاف الآلُوْسِيّ لهما في كتابه محاكمة الأَحْمَدَيْن، وعلىٰ الوَهَّابِيَّة.

شعره ونثره:

كان له استعداد لنظم الشعر في السنة الأُوْلَىٰ من دخوله المدرسة الوطنية سنة ١٢٩٩هـ، وله مراثٍ عديدةٍ، وكان يكره المدائح والتهاني الشعرية.

وآخر ما نظم (المقصورة الرَّشِيْدِيَّة)، عارض بها مقصورة ابن دُرَيْد، هَنَّأَ بها صديقه الشَّيْخ عَبْد القَادِر المَغْرِبِيّ في زفافه، بلغت ١٢٩ بيتاً، أودع فيها معاني كثيرة من فلسفة العَصْر وفُنُوْن الأدب والاجتماع، ولا سِيَّمَا الإِصْلَاح الإِسْلَامِيّ. وحين هاجر إلىٰ مِصْر زادها إلىٰ أكثر من ٤٠٠ بيت، أُعجب بها مَحْمُوْد سَامِي البارودي وحافظ إِبْرَاهِيْم.

وكان يكره المتكلف من الشعر والمجون ووصف الشهوات، ويستهجنه.

وكان يكره السجع في الإنشاء.

واشتهر بجودة الكتابة، وكان للروح الذي نفحته العُرْوَة الوثقىٰ في نفسه أقوىٰ تَأْثِيْر في أُسْلُوْب كتابته.

وكان يرىٰ أن أُسْلُوْب المقامات ليس أُسْلُوْباً عَرَبِيّاً في التعبير عن المَقَاصِد، وإنما هو أُسْلُوْب مصنوع، جُلّ فائدته حفظ الكثير من مُفْرَدَات اللُّغَة.

سفره إلى القَاهِرَة:

ذٰلِكَ ما انتهت إليه حياته من تربية وتَعْلِيْم في بلده، لٰكِنه شعر بأنه مستعد للاستزادة من العلم والاختبار لا يجدهما في وطنه، وأنه قَادِر علىٰ خدمة دينه وأُمَّته بما لا تبيحه سِيَاسَة الحكومة في بلده. فعزم علىٰ الاتصال بالسَّيِّد جمال الدِّيْن بالآستانة، لتكميل نفسه بالحكمة والجِهَاد، إلَّا أنه توفي قبل تَحْقِيْق أُمنيته، فقرر السفر إلىٰ القَاهِرَة، لما فيها من حرية العَمَل واللِّسَان والقلم، وليقف علىٰ ما استفاده الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه من الحكمة والخبرة وخطة الإِصْلَاح التي استفادها من صحبة جمال الدِّيْن والعَمَل معه وبإِرْشَاده.

وفي أوائل رَجَب سنة ١٣١٥هـ=١٨٩٧م ركب الباخرة إلىٰ مِصْر، واتَّصَل بالأُسْتَاذ الإِمَام الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه من أول يوم طلعت عليه فيه شمس القَاهِرَة، وكانت استفادته منه ومن غيره ومن مَعْرِفَة الأَزْهَر بنفسه مادة عَظِيْمَة لما يقصده من إنشاء المَنَار[1].

بين السَّيِّد رَشِيْد والشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه:

في سنة ١٣١٠هـ وحين كان يطلب السَّيِّد رَشِيْد العلم بطَرَابُلُس، اطلع علىٰ جريدة

---

(١) هٰذِهِ المَعْلُوْمَات مما كتبه السَّيِّد رَشِيْد بنفسه في كتابه (المَنَار والأَزْهَر)، نقلها الأَمِيْر شَكِيْب أَرْسْلَان في كتابه: السَّيِّد رَشِيْد رِضَا أو إخاء أَرْبَعِيْن سنة ص٢٣-١٣١.

العُرْوَة الوثقىٰ، فأثرت في نفسه تَأْثِيْراً بالغاً، مما جعله يحرص علىٰ الالتقاء بالحَكِيْمين.

وكان لقاؤه أول مرة بالأُسْتَاذ مُحَمَّد عَبْدُه في طَرَابُلُس الشَّام بعد عودته من أوربا ساعة من الزَّمَان، زادته إعجاباً بكلامه وإكباراً له.

ولقيه مرة ثانية في طَرَابُلُس، إذ كان قد جاء سُوْرِيَّة مصطافاً، وكان يَصْحَبه أَحْمَد فتحي بك زَغْلُوْل، وقبل التقائه بالشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه ذكر الأُسْتَاذ الشَّيْخ خير الدِّيْن الميقاتي للأُسْتَاذ أَحْمَد فتحي حُبَّ السَّيِّد رَشِيْد للشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه والسَّيِّد جمال الدِّيْن، وكان مما قال له: أنه أبلغ كاتب عندنا، ولا يعدله أُسْتَاذا في الإنشاء إلَّا الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه، وهو لم يلقه. فقال له أَحْمَد فتحي بك، كذٰلِكَ عندنا الكتاب المُجِيْدُون في مِصْر، كلهم يعترفون بأنه لا أُسْتَاذ لهم في الإنشاء إلَّا الأُسْتَاذ أو السَّيِّد جمال الدِّيْن، وبعدها التقىٰ بالشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه، وذكر لقاءه الأول به في تلك السويعة، وكان يلازمه مدة وجوده في طَرَابُلُس من أول النهار إلىٰ وقت النوم.

ولما توفي الأُسْتَاذ جمال الدِّيْن في الآستانة سنة ١٣١٤هـ=١٨٩٦م، قرر السَّيِّد رَشِيْد السفر إلىٰ مِصْر، للاتصال بالشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه، وكان قد نال من شُيُوْخه شهادة التدريس (العَالِمِيَّة)، فوصل القَاهِرَة السبت ٢٣ رَجَب ١٣١٥هـ=١٨٩٧م، وفي ضحىٰ الأحد زار الإمَام مُحَمَّد عَبْدُه بداره في النَّاصِرِيَّة، فكان لقاء حاراً، وطفق يسأله عن طَرَابُلُس وشُيُوْخها. وقال له السَّيِّد رَشِيْد: إن الغرض الأول من الهِجْرَة تلقي الحكمة عنه.

وأخذ يختلف إلىٰ داره بإذنه، فيقابله في حجرة النوم والمُطَالَعَة كما يقابل خواص أصحابه، وكان يكتب خُلَاصَة ما يدور بينهما من المُذَاكَرَة، وكله في المَسَائِل الإصْلَاحِيَّة التي هاجر لأجل الاشتغال بها، والوقوف علىٰ مُنْتَهَىٰ علمه ورأيه فيها، قال: (ولم نكن نختلف إلَّا في مَسَائِل قليلة، ينتهي البَحْث فيها بالاتفاق، كمَسْأَلَة البَابِيَّة والبَهَائِيَّة).

وحدثت فكرة إصدار جريدة (المَنَار) التي سيأتي الحَدِيْث عنها.

ولم تكن العلاقة بينهما علاقة مادية، بل كانا يَعِيْشان عيش الكفاف، ولو شاءا لَفُتِحَ بابُ الثراء لهما علىٰ مِصْرَاعَيْه.

وذكر السَّيِّد رَشِيْد أن له إيراداً من كتابة الحجج الشَّرْعِيَّة والعُقُوْد، وله قطعة أرض لم يحتج إلىٰ بيعها.

كان السَّيِّد رَشِيْد عَزِيْز النفس أَبِيّاً، فرفض عرض بشارة باشا تقلا كتابة مَقَالَات بمقابل نصف ليرة لكل مَقَالَة، وإن كثرت وقصرت، ورفض قبول صرة جنيهات، قدمها له السُّلْطَان حُسَيْن كَامِل، حين علم أنه يريد الحج سنة ١٣٣٤هـ، ورَدَّ مُسَاعَدَة الخِدَيْو عند إرادة الحَملَة عليه في الفتوىٰ الترنسفالية، ورَدَّ مُسَاعَدَة الشَّيْخ قَاسِم بن ثاني حاكم قطر، والشَّيْخ مُحَمَّد عَبْد الوَهَّاب شَيْخ دارين في سواحل نجد الجنوبية.

كانت علاقته بالأُسْتَاذ الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه روحية إصْلَاحِيَّة محضة، فكان قلبه مفعماً بحبه وحب السَّيِّد جمال الدِّيْن، يلهج بذكرهما كل حين.

وكان السَّيِّد رَشِيْد هو الذي حمل الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه علىٰ قِرَاءَة التَّفْسِيْر في الأَزْهَر، وأنه هو الذي جاءه بكتاب أَسْرَار البَلَاغَة من طَرَابُلُس، وحمله علىٰ تَصْحِيْحه وتدريسه في الأَزْهَر، لإحياء البَلَاغَة العَرَبِيَّة، وأنه ينشر في مَنَاره ما يقتبسه من دروسه ومجالسه بعبارة صَحِيْحَة فصيحة.

لذٰلِكَ حين سافر الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه إلىٰ تُوْنُس والجَزَائِر رأىٰ له مريدين من أرقىٰ الطَّبَقَات، لا يعرفون عنه شَيْئاً إلَّا من المَنَار ومن مطبوعات المَنَار.

كانا يكثران من الاجتماع في الدار والأَزْهَر، لا ينفك أحدهما عن الآخر، وكان إذا عاقه شيء عن الدرس من شكاة أو غيرها خرج من الدرس إلىٰ رؤيته في إدارة المَنَار.

قال السَّيِّد رَشِيْد مبيناً صلته بالشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه: (وأما حياتنا المعنوية فكنا كروح وَاحِدَة في جسدين، كان يكاشفني بجميع أَفْكَاره وأَسْرَاره، في علاقته بالحكومة والخِدَيْو واللورد كرومر ورئيس النُّظَّار، وفي أَعْمَاله في الأَزْهَر ومجلس الشُّوْرَىٰ

ومجلس الأوقاف الأعلىٰ، ويعهد إِلَيَّ بكتابة بعض المَقَالَات في الجرائد، لتأييد رأيه، وتفنيد آراء مخالفيه...، وأَحيَاناً كان يرسل إِلَيَّ إحدىٰ الجرائد، وعليها إشارة منه إلىٰ شيء، لأجل الرد عليه، وقد يكتب بجانبه أو علىٰ ورقة أُخْرَىٰ موضوع الرد والإيماء إلىٰ الروح الذي يبرز فيه من شدة أو لطف أو تهكم أو تجهيل... .

وكان يعهد إِلَيَّ في بعض الأوقات بكتابة المكتوبات الشخصية لأصدقائه... وتارةً كان يطلب مني أن أكتب له بعض النُّصُوْص أو الأَحَادِيْث في بعض المَسَائِل).

وقال أَيْضاً: (كانت الصحبة بيننا كأُولي القربىٰ الأبرار في البيت الوَاحِد، ليس فيها أدنىٰ تكلف).

وقال: (كنتُ معه كما قال هو للأُسْتَاذ الشَّيْخ مُحَمَّد شَاكِر «ترجمان أَفْكَاره»، وكنت مستودع أَسْرَاره، والداعية له، والمدافع عنه في كل معركة من معارك جِهَاده، أكتب بشأنها في المَنَار ما يليق بعلاقتي به، وفي الجرائد اليومية ما يكتبه من لا يعنيه إِلَّا إظهار الحق والمصلحة، وفوق ذٰلِكَ إننا كنا علىٰ اتفاق في العَقِيْدَة والرأي في جميع ما ينشره في المَنَار إِلَّا مَسَائِل الدولة العُثْمَانِيَّة وسُلْطَانها فإنها من السِّيَاسَة التي كان يبغضها...، حتىٰ قال الأُسْتَاذ أبو شادي بك: إننا رجل وَاحِد... . ولقد قال له صديقه القديم مَحْمُوْد سَامِي باشا البارودي في أول تلاقيهما بعد عَوْدَة الباشا من منفاه في جَزِيْرَة سيلان الهِنْدِيَّة: إن السَّيِّد جمال الدِّيْن قد تركك لنا، فقمت بالإِصْلَاح بعده خير قيام، وإني لخائف من أن تنقطع السلسلة بعدك، فبشرني هل عندك أحد ترجو أن يتصل به سير الإِصْلَاح؟ قال: نعم، عندي شاب سُوْرِيّ يقوم بذٰلِكَ، وسأُرسله إليك، لتتعارفا.

أَخْبَرَنِي بذٰلِكَ الأُسْتَاذ الإِمَام نفسه، وأرسلني إِلىٰ الباشا للتعارف، فتعارفنا وتآلفنا)[1].

لذٰلِكَ قال الكثير، وكتب بعضهم في الصحف: (لولا صاحب المَنَار لضاع أكثر

---

(١) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإِمَام ج١ ص٩٩٥-١٠١٦.

علم الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه وحكمته، وجهل إصْلَاحه وتَارِيْخه)[(١)].

وما كان التزام السَّيِّد رَشِيْد لشَيْخه مُحَمَّد عَبْدُه إلَّا لأنه يراه قد وصل إلىٰ مقام الزعامة في هٰذِهِ الأُمَّة، ومرتبة أَهْل الحَلّ والعَقْد في الأُمُور الدِّيْنِيَّة والدنيوية من سِيَاسَة وغيرها، بل قارب أن يكون زعيم الأُمَّة الإسْلَامِيَّة كلها، ولٰكِن بالقوة لا بالفعل، لأن الأُمَّة لم تكن قد تكونت تكوناً يؤهلها للسير في الخطة التي يختطها لها، ولذٰلِكَ كان الشَّيْخ يقول: يا ويح الرجل الذي ليس له أُمَّة. وقد كان أَمِيْر البلاد ينهىٰ عنه وينأىٰ عنه، علىٰ أنه كان يرجع في المهمات وحل المشكلات إليه[(٢)].

مَجلَّة المَنَار:

اقترن مع الغرض الأول من هِجْرَة السَّيِّد رَشِيْد إلىٰ مِصْر، وهو صحبة الإمَام الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه، بَاعِثٌ آخر وهو إنشاء صحيفة إسْلَامِيَّة.

وكان الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه قد ذم جرائد مِصْر أمام السَّيِّد رَشِيْد، وقال: إنها قليلة الفائدة، لعدم وجود أحزاب تنطق بلِسَانها، وتكون هي داعية لها.

وفي إحدىٰ زياراته له في ٦ شَعْبَان ١٣١٥هـ دار بينهما حَدِيْث عن الجرائد بمِصْر، ثم تحدثا في موضوع مرض الأُمَّة وضعفها، وأن أنفع الوَسَائِل في معالجتها التربية والتَّعْلِيْم ونشر الأَفْكَار الصَّحِيْحَة لمقاومة الجهل والأَفْكَار الفاسدة التي فشت فيها. فقال السَّيِّد رَشِيْد: إن هٰذَا هو البَاعِث لي علىٰ إنشاء هٰذِهِ الجريدة، وإنني أسمح أن أُنْفِقَ عليها سنة أو سنتين من غير أن أكسب شَيْئاً.

فقال له الشَّيْخ: إن كان هٰكَذَا فهو حسن، وهٰذَا أَشْرَف الأَعْمَال وأفضلها، وأنا إذا كنتُ علىٰ ثِقَة من مشرب هٰذِهِ الجريدة، فإني أُساعدها بكل جهدي.

---

(١) السَّيِّد رَشِيْد رِضَا أو إخاء أَرْبَعِيْن سنة: شَكِيْب أَرْسْلَان ص١٤٢.

(٢) الخِلَافَة أو الإمَامَة العظمىٰ ص٥٩.

فأجابه السَّيِّد رَشِيْد: إني أُعاهدكم علىٰ أن أكون معكم كالمريد مع أُسْتَاذه علىٰ نحو مما يقول الصُّوْفِيَّة، ولٰكِنني أحفظ لنفسي شَيْئاً وَاحِداً أُخالفهم فيه، وهو: أن أسأل عن حكمة ما لا أعقله، ولا أقبل إلَّا ما أفهمه، ولا أفعل إلَّا ما أعتقد فائدته.

قال: هٰذَا ضروري لا بد منه.

وأشار الشَّيْخ عليه بثلاثة أُمُور، فقال:

١. أن لا نَتَحَيَّزَ لحزب من الأحزاب.

٢. أن لا نَرُدَّ علىٰ جريدة من الجرائد التي تتعرض لنا بذم أو انتقاد.

٣. أن لا نَخْدُمَ أَفْكَار أحد من الكبراء الذي يشغلون الوظائف الكَبِيْرَة.

وتحدثا عن مكان طبع الجريدة.

ثم تكلم الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه عن حرية الجرائد وقال: (أنتم تسمعون أن في مِصْر حرية، هٰذِهِ الحرية ليست للمُسْلِمِيْن، المُسْلِمُوْن أشد المُرَاقَبَة عليهم، وأبعد الناس عن الحرية، لا حرية لهم فيما ينفعهم أَصْلاً، ولٰكِن لهم الحرية المطلقة في كل ما يضرهم).

وشاور السَّيِّد رَشِيْد شَيْخه مُحَمَّد عَبْدُه في من ترسل إليهم الجريدة، لأجل الاشتراك فيها، فكتب إلىٰ صاحب جريدة الرائد المِصْرِيّ ليعطي عناوين مُشْتَرِكِي جريدته للسَّيِّد رَشِيْد، فلبىٰ الطلب كما أراد.

واستشاره في اسم الجريدة، فذكر له الشَّيْخ اسم المَنَار وأَسْمَاء أُخْرَىٰ، ليختار منها أو غيرها، فاختار السَّيِّد اسم المَنَار، وكان أحبها إليه لفظاً ومعنى.

فكتب فاتحة العدد الأول في جَامِع الإِسْمَاعِيْلِيّ المجاور لدار الشَّيْخ بالنَّاصِرِيَّة، وذهب بها إلىٰ داره فأعجبته جداً.

كان الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه يروِّج المَنَار عند زواره من العُلَمَاء والفضلاء، ويهب منها لمن يشاء، وكان يثني عليها، وقد صار المَنَار كأنه له، حتىٰ ظن بعض الناس أنه هو

الذي يكتب مَقَالَاته المهمة، حتىٰ اضطر الشَّيْخ رَشِيْد إلىٰ التصريح في المجلد الرابع بأن كل ما ينشر فيه غير مُعِزّو إلىٰ أَحَد فهو لمنشئه.

فقوبل المَنَار بالاحترام من أعلىٰ الطَّبَقَات الاجتماعية في مِصْر، حتىٰ استشهد بكلامه أَحْمَد فتحي بك زَغْلُوْل رئيس محكمة مِصْر الأهلية في مُقَدِّمَة الكتاب الذي ترجمه وطبعه (الإسْلَام خواطر وسوانح) للكونت دي كاستري، وكان هٰذَا مدعاة لاشتراك كثير من المحامين والقُضَاة[1].

كان المَنَار منذ ظهوره لِسَان حال المصلح الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه، وكان الشَّيْخ بكثرة شواغله المتعددة والمتنوعة لا يقدر أن يتولىٰ بنفسه إبراز جميع أَفْكَاره إلىٰ القُرَّاء، فكان السَّيِّد رَشِيْد هو الترجمان الأول لأَفْكَاره، لا يسمع منه نَغْيَةً إلَّا أودعها مَنَاره، ببَيَان أنيق وأُسْلُوْب رشيق، فكان السَّيِّد رَشِيْد - علىٰ ما قاله شَكِيْب أَرْسَلَان - متمماً للشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه، يكمل ذٰلِكَ ما فات هٰذَا، وكأنهما روح وَاحِدَة.

حتىٰ أن الشَّيْخ عَبْد الكَرِيْم سَلْمَان حين حسد السَّيِّد رَشِيْد مكانه عند الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه، بعث الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه من يقول له: إما أن تكف عن السَّيِّد رَشِيْد، وإما أن أستغني أنا عن صحبة أَرْبَعِيْن سنة.

وما كان هٰذَا إلَّا من اعْتِقَاد الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه بفائدة السَّيِّد رَشِيْد لهٰذِهِ الأُمَّة[2].

صدر المَنَار في ٢٢ شَوَّال ١٣١٥هـ الموافق لـ ١٧ مارس ١٨٩٨م، وبين السَّيِّد رَشِيْد غرضه من إنشائه في فاتحة العدد الأول من الجريدة، وهو مَسَائِل كثيرة يجمعها: الإِصْلَاح الدِّيْنِيّ والاجتماعي لأُمَّتنا الإسْلَامِيَّة، هي ومن يَعِيْش معها، وتتصل مصالحه بمصالحها، وبَيَان اتفاق الإسْلَام مع العلم والعقل، وموافقته لمصالح البشر في كل قطر

(١) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص١٠٠٠-١٠٠٧.

(٢) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص١٠١٩. والسَّيِّد رَشِيْد رِضَا أو إخاء أَرْبَعِيْن سنة: شَكِيْب أَرْسَلَان ص١٤٦-١٤٧.

وكل عَصْر، وإبطال ما يورد من الشبهات عليه، وتفنيد ما يعزىٰ من الخرافات إليه[١].

فكان الصحيفة الدَّوْرِيَّة الوَحِيْدَة التي عنيت بالدعوة إلىٰ إصْلَاح الأَزْهَر، وتجديد العلم، وهِدَايَة الدِّيْن فيه[٢].

قال السَّيِّد رَشِيْد: إنني لم أُنشئ المَنَار ابتغاء ثروة أَتَأَثَّلُهَا، ولا رتبة من أَمِيْر أو سُلْطَان أتجمل بها، ولا جاه عند العامة أو الخاصة أُباهي به الأقران، وأُباري به أعلياء الشأن، بل لأنه فرض من الفروض، يُرجَىٰ النفع من إقامته، وتأثم الأُمَّة كلها بتركه، فلم أكن أُبالي بشيء إلَّا قول الحق والدعوة إلىٰ الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المُنْكر، فكنتُ إن أصبتُ هٰذَا بحسب عِلْمِي واجْتِهَادِي فسِيَّان، رضي الناس أم سخطوا، مدحوا أم ذموا، قبلوا المَنَار أم رفضوا... .

كان المَنَار في السنة الأُوْلَىٰ من عُمْره جريدة أُسْبُوعية ذات ثَمَانِي صفحات كَبِيْرَة، وكانت تنشر فيه برقيات الأُسْبُوع وبعض الأَخْبَار التي ليست كلها ذات فائدة تحفظ وتدخر، وإن لم تخل من فائدة في وقت نشرها لبعض القُرَّاء.

وقد أُعيد طبعه بشكل المَجَلَّة التي هي منذ السنة الثانية، ولم تحذف منه إلَّا البرقيات وبعض الأَخْبَار التي لا فائدة في تدوينها وحفظها. فجاء المجلد الأول في حجم المجلدات الأَخِيْرَة، يناهز الألف صفحة.

المَنَار في سنته الأُوْلَىٰ وفي سنيه الأَخِيْرَة شرع، لا فصل بين أوله وآخره في موضوعه وغايته ومَسَائِله، كان يكثر في السنة الأُوْلَىٰ من الخَطَابِيَّات، لتَنْبِيْه الأذهان وإعدادها لما هو آت، ويكتفي في أكثر المَسَائِل بالإجمال، لتتهيأ النفوس لطلب التفصيل اقتباساً من أُسْلُوْب القُرْآن الكَرِيْم، فإن أكثر السور المَكِّيَّة المنزلة في أوائل البعثة قوارع تَصُخُّ الجَنَان، وتصدع الوجدان، وتفزع القلوب إلىٰ استشعار الخوف، وتدع العُقُوْل

(١) مُقَدِّمَة مَجَلَّة المَنَار، المجلد الأول ص١-٢ الطَّبْعَة الثانية.

(٢) السَّيِّد رَشِيْد رِضَا أو إخاء أَرْبَعِيْن سنة: شَكِيْب أَرْسْلَان ص١٤٠.

إلىٰ إطالة الفكر[١].

إلَّا أن الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه كان ينتقد علىٰ المَنَار أُمُوراً هي:

١- الصراحة التامة والشدة في إظهار الحق، وكان يخاطب السَّيِّد رَشِيْد قائلاً: إنك كَثِيْراً ما تبرز الحق عرياناً، وليس عليه حلة، ولا حلي يزينه للنَّاظِرين، ويهون قبوله علىٰ المبطلين، فينبغي أن تتذكر أن الحق ثقيل، وقلما يكون للداعي إليه صديق، وأنه لا بد من مراعاة شعور من يعرض عليهم، كيلا يزداد إعراضهم عنه.

ولذٰلِكَ حين أنكر عليه شَيْخه حُسَيْن الجسر لما أنكر السَّيِّد رَشِيْد علىٰ بدع الطريق، قال له السَّيِّد: (هل الله تعالىٰ يحاسبني يوم القيامة بما أعتقد وأعلم، أم بِمَ تعتقد أنت وتعلم؟ أقنعني بما تقول بالدليل، ليصير عَقِيْدَة لي أرجع إلىٰ قولك، فأجابه: أنت أهل علم وصاحب حُجَّة وليس عندي لك غير ما قلته).

٢- لُغَة المَنَار، فكان يرىٰ أن يتحرىٰ من سهولة العبارة وقلة غَرِيْب اللُّغَة فيها ما يقربه من أفهام جميع القارئين حتىٰ العوام.

٣- الخوض في سِيَاسَة الدولة العُثْمَانِيَّة في بعض الأَحْيَان[٢].

وكان آخر عدد طبع من المَجَلَّة هو أكثر الجزء الثاني من المجلد الخامس والثلاثين في ٢٩/ رَبِيْع الثاني/ ١٣٥٤هـ = ١٩٣٥م ووزع الجزء الثاني بعد وفاة السَّيِّد رَشِيْد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣].

---

(١) مُقَدِّمَة مَجَلَّة المَنَار، المجلد الأول ص٢-٦.

(٢) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص١٠٢٢.

وانظر إنكار الشَّيْخ الجسر وتفاصيله في: السَّيِّد رَشِيْد رِضَا أو إخاء أَرْبَعِيْن سنة: شَكِيْب أَرْسْلَان سنة ص٩٧-٩٨.

(٣) السَّيِّد رَشِيْد رِضَا أو إخاء أَرْبَعِيْن سنة: شَكِيْب أَرْسْلَان ص٩. ورَشِيْد رِضَا الإمَام المُجَاهِد: د. العَدَوِيّ ص٢٦٩.

تَأْثِيْر المَنَار في العالم الإِسْلَامِيّ:

لقد شَهِدَ أُولو البَصِيْرَة من الإفرنج كما شَهِدَ خواص المُسْلِمِيْن بما كان للمَنَار من التَّأْثِيْر الإِصْلَاحِيّ والانْقِلَاب العَظِيْم في العالم الإِسْلَامِيّ.

وفي كتاب (وجهة الإِسْلَام) الذي كتبه جَمَاعَة من مستشرقي الدول المُسْتَعْمِرَة شهادات لهم في تَأْثِيْر كثير من رِجَال الإِسْلَام في أُمَّتهم تَأْثِيْراً مختلفاً في النفع والضر... وتَأْثِيْر المَنَار في العالم الإِسْلَامِيّ كله، وفي بلاد شمالي افريقيا الفرنسية، وإندونيسيا. ومنها قول أَحَد المستشرقين من هولندا عن تَأْثِيْر المَنَار في جَزَائِر الهِنْد الشَّرْقِيَّة الخاضعة لدولته، قال: (ولم يشرق «مَنَار» القَاهِرَة علىٰ المِصْرِيِّيْن وحدهم، ولٰكِنه أشرق علىٰ العَرَب في بلادهم وفي خارجها وعلىٰ مسلمي أرخبيل الملايو الذين درسوا في الجَامِعَة الأَزْهَرِيَّة أو في مَكَّة، وعلىٰ الإندونيسي المنعزل الذي ظل محافظاً علىٰ علاقاته بقلب العالم الإِسْلَامِيّ بعد عودته لبلاده النائية علىٰ حدود دار الإِسْلَام، هٰؤُلَاءِ جميعاً رأوا الإِسْلَام علىٰ نور جديد لم يروا فيه مثالاً للتشدد والجمود، ورأوه لا يزال الدِّيْن المُخْتَار بين الأديان، وحَامِل المثل العليا لكل زَمَان مضىٰ، والمثل الجديدة لكل زَمَان آت، وهو شاب متجدد الشباب حَامِل لواء كل ما تقدم، شديد في تسامح ورفق، وأصبح الذين اقتبسوا من نور «المَنَار» في مِصْر «مَنَارات» صُغْرَىٰ في إندونيسيا، بعد أن عادوا إليها)[1].

مع السِّيَاسَة:

بعد أن نبذ الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه السِّيَاسَة، كان تلميذه السَّيِّد رَشِيْد كُلَّمَا هَمَّ

(١) السَّيِّد رَشِيْد رِضَا أو إخاء أَرْبَعِيْن سنة: شَكِيْب أَرْسَلَان ص١٤١، ١٤٣.
وانظر عن مَجَلَّة المَنَار أَيْضاً: الإِسْلَام والتجديد في مِصْر ص١٧٢ وما بعدها.

بكتابة عن السِّيَاسَة في مجلته نهاه الشَّيْخ[(١)]، وكان يمتثل له لٰكِن علىٰ مَضَض. وكل ما استطاع عمله في ذٰلِكَ الوقت للتنفيس عن نفسه هو أن نشر في مَجَلَّة المَنَار ابتداءً من السنة الخامسة كتاباً لعَبْد الرَّحْمٰن الكواكبي، الذي أطلق لنفسه العِنَانَ في مهاجمة الدولة العُثْمَانِيَّة، والموسوم (سجل أُمّ القرىٰ)، بَيَّنَ فيه أسباب ضعف المُسْلِمِيْن.

وحين شرع بنشر رِسَالَة في مالية الدولة العُثْمَانِيَّة في العام السادس من المَنَار، طلب منه الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه ألا يتابع العَمَل، فامتثل لرأيه، ولٰكِن عبر رَشِيْد عن شعوره قائلاً: (ولٰكِن ضقتُ ذرعاً بسوء حالنا السياسية، فصرتُ أُكثر في تَفْسِيْر القُرْآن الكَرِيْم من السِّيَاسَة).

وكان صدىٰ ما نشر في المَنَار أن نهبت أموال أُسرته في طَرَابُلُس، واعتدي علىٰ بعض أفراد أُسرته من قبل رِجَال السلطة العُثْمَانِيَّة.

ولما توفي الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه سنة ١٣٢٣هـ=١٩٠٥م دخل السَّيِّد رَشِيْد معترك السِّيَاسَة صراحةً، وتشكلت جمعية الشُّوْرَىٰ العُثْمَانِيَّة في مِصْر فتولىٰ رئاستها، وبدأت نشاطها بإرسال منشورات سرية.

وحين عرض عليه مندوب جمعية الاتحاد والترقي التي تأسست في أوربا دمج الجمعيتين أيام السُّلْطَان عَبْد الحَمِيْد رفض، لأنه رأىٰ اقتصار هٰذِهِ الجمعية علىٰ الشباب العُثْمَانِيِّيْن فقط دون سائر العناصر الأُخْرَىٰ، وخاصةً العَرَب.

وبعد أن قامت حَرَكَة جمعية الاتحاد والترقي سنة ١٩٠٨م، وذهب السَّيِّد رَشِيْد إلىٰ الآستانة سنة ١٩٠٩م، رأىٰ فيهم روح التعصب للجنسية التُّرْكِيَّة، وإهمال شأن العَرَب خاصةً، ووأد كل حَرَكَة للنهضة أو اليقظة بين الشعوب التابعة لهم. فكتب عدة مَقَالَات بعُنْوَان (بين العَرَب والترك)، نشرها في جريدة (إقدام) التُّرْكِيَّة لِسَان حال جمعية الاتحاد والترقي، بَيَّنَ فيها أن أسباب الجفوة بين العَرَب والأتراك، وقعت كلها من

---

(١) نقل الدكتور المُنَجِّد في مُقَدِّمَة فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج١ ص١٥ من أقواله في هٰذَا.

جانب الاتحاد والترقي، منها:

الإسراف في عزل أبناء العَرَب عن وظائفهم.

والتمثيل النيابي في مجلس الأَعْيَان والمبعوثين لم تراعَ فيه المساواة.

وإجراءات إبعاد اللُّغَة العَرَبِيَّة من المدارس والمحاكم.

وأوضح تفوق اللُّغَة العَرَبِيَّة علىٰ التُّرْكِيَّة.

وبَيَّنَ أَيْضاً الفائدة العائدة علىٰ الدولة العُثْمَانِيَّة نتيجة وفاقها مع العَرَب.

وبعد عام كَامِل أدرك أن حُكَّام الاتحاد والترقي تنطوي نفوسهم علىٰ المكر والخديعة وسوء النية بالعَرَب، ويقولون له غير ما يضمرون، ويفعلون غير ما يعلنون.

فعاد إلىٰ مِصْر يوضح بثاقب نظره الأخطار المحدقة بالدولة العُثْمَانِيَّة التي كانت تترصد لها الدول الاستعمارية لتقتسم ممتلكاتها. وإذا بالأحداث تظهر ما توقعه السَّيِّد رَشِيْد، فاعتدت إيطاليا علىٰ طَرَابُلُس الغرب، سنة ١٩١٢م، ولم تبال بالسلطة العُثْمَانِيَّة، فكتب السَّيِّد رَشِيْد عشر مَقَالَات في المَنَار بعُنْوَان (المَسْأَلَة الشَّرْقِيَّة)، أظهر فيها الخطر الذي يهدد العالمين العَرَبِيّ والإسْلَامِيّ[١].

ثم كَفَّرَ بعد ذٰلِكَ مُصْطَفَىٰ كَمَال المُتَوَفَّىٰ سنة ١٩٣٨م، لمَوَاقِفه من الإسْلَام والمُسْلِمِيْن، قال: (ومما لا شك فيه أن أمر ذٰلِكَ الزعيم المشهور، إنما هو كفر محض، وارتداد عن الإسْلَام لا شبهة فيه)[٢].

وطبع كتابه (الخِلَافَة) سنة ١٣٤١هـ، وكان قد نشر مباحثه في المجلدين ٢٣و٢٤ من مَجَلَّة المَنَار، وقدمه إلىٰ الشعب التُّرْكِيّ الباسل وحزب الإصْلَاح في البلاد العَرَبِيَّة والهِنْدِيَّة وسائر الشعوب الإسْلَامِيَّة، طالباً النهوض بتجديد حكومة الخِلَافَة

---

(١) رَشِيْد رِضَا الإمَام المُجَاهِد ص٢١٦-٢٣٦.

(٢) الإسْلَام والتجديد في مِصْر ص١٧٦-١٧٧ عن مَجَلَّة المَنَار ج٢٨ سنة ١٩٢٧-١٩٢٨م، ص٥٨١.

الإِسْلَامِيَّة، بقصد الجمع بين هِدَايَة الدِّيْن والحَضَارَة، وتأسيس المجد الإنساني الخَالِد[١].

وأيد الملك ابن السُّعُوْد، وذكر أن إمارته قد عظم شأنها الدِّيْنِيّ والدنيوي بالإِصْلَاح الذي دعا إليه الشَّيْخ مُحَمَّد بن عَبْد الوَهَّاب، فنهضوا به نهضة أشبهت نهضة العَرَب في صدر الإِسْلَام، حتىٰ توقع المؤرخون وأهل الرأي في الشرق والغرب بأن يسود بها عهد الخُلَفَاء الأولين قوةً ومجداً وإِصْلَاحاً وحَضَارَة[٢]، وأنه بأخذه مَذْهَب الوَهَّابِيَّة رفض كل الدجل والبدع ونصر السُّنَّة[٣].

وقد مر جِهَاد السَّيِّد رَشِيْد بمراحل ثلاث:

١. قبل قيام الحَرْب العالمية الأُوْلَىٰ، وأهم ما مر فيه هو عدوان إيطاليا بموافقة الدول الاستعمارية.

٢. قيام الحَرْب العالمية الأُوْلَىٰ، ودسائس الاستعمار الأوربي أثناءها، لكسب مُسَاعَدَة العَرَب دون الإخلاص في احترام وحدة هٰذَا الشعب.

٣. خرق الدول الأوربية علناً الاتفاق مع العَرَب، والعَمَل علىٰ تَمْزِيْق وحدتهم مادياً ومعنوياً.

وفي هٰذِهِ الأدوار الثلاثة جاهد السَّيِّد رَشِيْد جِهَاد الأبطال، لم يبتغِ إِلَّا سَلَامَة مواطنيه وحفظ كرامتهم وعزهم[٤].

كان السَّيِّد رَشِيْد مَتِيْناً بإخلاصه، وأنه لا يمكن أن يواطيء علىٰ الإِسْلَام في كثير ولا قليل، وأنه مع كراهيته للأتراك في آخر الأمر كان يفضلهم علىٰ الإنكليز من جهة

---

(١) من مُقَدِّمَة كتاب الخِلَافَة ص٨.

(٢) الوَهَّابِيُّوْن والحِجَاز ص٧٦.

(٣) الوَهَّابِيُّوْن والحِجَاز ص٦ ومواضع عديدة منه.

(٤) رَشِيْد رِضَا الإِمَام المُجَاهِد ص٢٣٦.

كونهم مُسْلِمِيْن[١].

وبين أن حكم الإسْلَام في عمل الإنكليز واليَهُوْد الصهيونيين في فِلَسْطِيْن حكم قوم من أهل الحَرْب، أغاروا علىٰ وطن من دار الإسْلَام، فاستولوا عليه بالقوة.

وأفتىٰ أن الذي يبيع أرضه لليَهُوْد الصهيونيين في فِلَسْطِيْن والذي يسعىٰ في شراء أرض غيره لهم من سمسار وغيره، كالذي يساعد أي قوم من الأجانب علىٰ قومه فيما يحاولون من فتح بلادهم بالسَّيْف والنار وامتلاك أوطانهم...، وفَقْدُ فِلَسْطِيْن خطر علىٰ بلاد أُمَّتنا المجاورة لهٰذَا الوطن منها، فقد صار من المَعْلُوْم بالضرورة لأهل فِلَسْطِيْن والمجاورين لهم، ولكل العَارِفِيْن بما يجري فيها من عزم اليَهُوْد علىٰ تأسيس الوطن القومي الإسرائيلي، واستعادة ملك سُلَيْمَان بقوة المال الذي هم أقطاب دولته الاقْتِصَادِيَّة، وبقوة الدولة البريطانية الحَرْبِيَّة، إن هٰذَا الخطر سيسري إلىٰ شرق الأُرْدُنّ وسُوْرِيّا والحِجَاز والعِرَاق، بل هو خطر سينتقل من سَيْنَاء إلىٰ مِصْر.

وجُمْلَة القول أن الصهيونية البريطانية خطر علىٰ الأُمَّة العَرَبِيَّة في جميع أوطانها الآسيوية وفي دينها ودنياها، فلا يعقل أن يساعدهم عليه عَرَبِيّ غير خائن لقومه ووطنه، ولا مُسْلِم يؤمن بالله تعالىٰ وبكتابه العَزِيْز وبرَسُوْله مُحَمَّد خاتم النَّبِيِّيْن صلوات الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه...، ومن المقرر في الشَّرْع أنهم إن أخذوها وجب علىٰ المُسْلِمِيْن في جملتهم بذل أموالهم وأنفسهم في سَبِيْل استعادتها...، ولا عذر لأحد بالفقر والحاجة إلىٰ المال للنفقة علىٰ العيال، فإذا كان الشَّرْع يبيح السؤال المحرم عند الحاجة الشديدة، ويبيح أكل الميتة والدم ولحم الخنزير للاضطرار، وقد يبيح الغصب والسرقة للرغيف الذي يسد الرمق، ويقي الجائع من الموت بنية التعويض، فإن هٰذَا الشَّرْع لا يبيح لمُسْلِم بيع بلاده، وخيانة وطنه وملته، لأجل النفقة علىٰ العيال ولو

(١) السَّيِّد رَشِيْد رِضَا أو إخاء أَرْبَعِيْن سنة: شَكِيْب أَرْسْلَان ص١٥٥.

وصل إلىٰ درجة الاضطرار[١].

وحين قبض الإنكليز علىٰ كتب منه تتضمن التحذير منهم، قبضوا عليه، وفكروا في نفيه إلىٰ مالطة في جُمْلَة من نفوهم، وكادوا يفعلون، إلَّا أنهم عادوا ففكروا أن نفي مثل الشَّيْخ رَشِيْد قد يقربه من الأتراك، ويَزِيْد الضرر بسياستهم، فتركوه في مِصْر، ولٰكِن تحت المُرَاقَبَة الشديدة.

ولبث السَّيِّد رَشِيْد إلىٰ نِهَايَة الحَرْب تحت مُرَاقَبَة الإنكليز، ولم يكن كغيره من أعداء الأتراك محلاً لثِقَة الحكومة الإنكليزية، ولا ممن كانوا آلات في أيدي الإنكليز يحركونهم كيف شاءوا:

ولما انتهت الحَرْب العامة جاء السَّيِّد رَشِيْد إلىٰ طَرَابُلُس الشَّام، وزار بلدته القَلَمُوْن، ومنها جاء إلىٰ بَيْرُوْت، وذهب إلىٰ دِمَشْق.

وفي أثناء تأسيس الحكومة السُّوْرِيَّة العَرَبِيَّة التي كان أَمِيْرها الملك فيصل بن الحُسَيْن انتخب السَّيِّد رَشِيْد رئيساً للمؤتمر السُّوْرِيّ، الذي كان هو مجلس الأُمَّة السُّوْرِيَّة.

كما أنه كان من جُمْلَة اعتماد المؤتمر السُّوْرِيّ، الذي انعقد في مَكَّة المُكَرَّمَة، ثم انتخب من جُمْلَة أعضاء اللجنة التنفيذية بأعظم مؤتمر إسْلَامِيّ، وهو مؤتمر القُدْس.

ولما دخل الجيش الفرنسي دِمَشْق، وقضىٰ علىٰ الحكومة السُّوْرِيَّة، بعد اتفاق انعقد بين فرنسا وإنكلترا، نقضت فيه إنكلترا عهدها مع العَرَب نقضاً جديداً، وأباحت لفرنسا الاستيلاء علىٰ سُوْرِيّا الداخلية، بمُقَابَلَة ترك فرنسا دعواها علىٰ وِلَايَة المَوْصِل، رجع الشَّيْخ رَشِيْد من الشَّام إلىٰ مِصْر، وكان ذٰلِكَ في سنة ١٩٢٠م.

---

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٦ ص٢٤٣٨-٢٤٤٠ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٣٣ سنة ١٩٣٢م، ص٢٧٣-٢٧٥.

وانتخب نائباً أول لرئيس المؤتمر السُّوْرِيّ الفِلَسْطِيْنِيّ الذي انعقد في جنيف سنة ١٩٢١م، احتجاجاً علىٰ احتلال الفرنسيين لسُوْرِيَّا، والإنكليز لفِلَسْطِيْن[١].

وأقام بمِصْر مدةً ثم رحل إلىٰ الهِنْد والعِرَاق والحِجَاز وأوربا، وعاد واستقر بمِصْر إلىٰ أن توفي، وانتخب عضواً بالمَجْمَع العِلْمِيّ العَرَبِيّ بدِمَشْق[٢].

وهٰكَذَا قضىٰ السَّيِّد رَشِيْد عُمْره مُجَاهِداً في سَبِيْل إعْلَاء كلمة الله تعالىٰ وجمع كلمة المُسْلِمِيْن، مقتفياً بذٰلِكَ أثر أُسْتَاذيه جمال الدِّيْن ومُحَمَّد عَبْدُه.

السَّيِّد الكاتب:

السَّيِّد رَشِيْد كما بَيَّنَّا في ميدان التربية والتَّعْلِيْم، المربي والمعلم والنِّطَاسِيّ الحاذق، وفي ميدان السِّيَاسَة العَلَم الذي يُشار إليه، وفي ميدان القلم العالم الجَلِيْل والكاتب الذي لا يُبَارَىٰ، حتىٰ قال فيه صاحبه ورفيقه الأَمِيْر شَكِيْب أَرْسْلَان، وموازناً بينه وبين شَيْخيه:

وكان الذي يُدْهِشُ في الشَّيْخ رَشِيْد رسوخ قدمه في مختلف العُلُوْم، حتىٰ إذا نظرت إليه في علم منها، وعلمت مبلغ إحاطته فيه، ظننته متخصصاً في ذٰلِكَ العلم وحده، كأنه إنما انفرد به.

والحال أن له في سائر العُلُوْم الملكة نفسها، فكان إذا أمسك القلم تدفق نحواً وصرفاً ولُغَة وبَيَاناً وبَدِيْعاً وفِقْهاً وحَدِيْثاً وتَفْسِيْراً وتَوْحِيْداً وفُرُوْعاً وأُصُوْلاً، وكل ذٰلِكَ في نسق وَاحِد.

وهو وإن كان لا يُسَامِي جمال الدِّيْن ومُحَمَّد عَبْدُه في العُلُوْم العقلية علىٰ قوته

(١) السَّيِّد رَشِيْد رِضَا أو إخاء أَرْبَعِيْن سنة: شَكِيْب أَرْسْلَان ص١٥٦-١٥٨.

(٢) مُعْجَم المُؤَلِّفِيْن ج٩ ص٣١٠. والأَعْلَام ج٦ ص١٢٦.

وانظر: رحلات الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا: جمعها وحققها الدكتور يُوْسُف ايبش، وفيها: تصوير مشَاهده فيها، والعظات التي تؤخذ مما رآه.

فيها، فإنه كان يفوقهما في العُلُوْم النقلية ومَعْرِفَة النُّصُوْص والآثار.

فكانت النازلة إذا نزلت أتىٰ عليها جمال الدِّيْن أو مُحَمَّد عَبْدُه بدليل عقلي، وأتىٰ عليها رَشِيْد رِضَا بدليل عقلي وعززه بحَدِيْث أو أثر... .

وقد سبق السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا أُسْتَاذَيْه العَظِيْمَيْن في مَزِيَّة الكتابة وفَيْض القلم، إذ كانا يُؤْثِرَان تَنْبِيْه العُقُوْل وإيْقَاظ الهمم من طريق الخطابة والمحادثة.

وكانت مجالس جمال الدِّيْن لا يمر منها مجلس إلَّا كان أشبه بمحادثة تَارِيْخِيَّة تسجل ألفاظها، وتُحفظ جَوَامِع كَلِمِهَا.

وكانت مجالس مُحَمَّد عَبْدُه يقدر سامعها أن يكتبها بأسرها، لا يَزِيْد منها حرفاً من شدة إحْكَامها... .

فأما السَّيِّد رَشِيْد فانصرف بكليته إلىٰ إعْمَال القلم، وصار يكتب في الساعات ما لا يقدر أن يسوّده غيره في الأسابيع[1].

ولو وزّعنا ما كتبه بقلمه، وبخط بنانه في حياته، علىٰ خمسين كاتباً، لأصاب كلاً منهم قسط يجدر بأن يجعله في صف المُؤَلِّفِيْن العَامِلِيْن[2].

وكم سمعتُ من أفواه العُلَمَاء والعقلاء: أنه متىٰ مات الأُسْتَاذ لا يسد مسده أحد اليوم[3].

وفاته:

توفي السَّيِّد رَشِيْد في حوالي الساعة الثانية بعد ظهر الخميس ٢٣ جمادىٰ الأُوْلَىٰ

(١) السَّيِّد رَشِيْد رِضَا أو إخاء أَرْبَعِيْن سنة: شَكِيْب أَرْسْلَان ص٢٥٥-٢٥٦.
(٢) السَّيِّد رَشِيْد رِضَا أو إخاء أَرْبَعِيْن سنة: شَكِيْب أَرْسْلَان ص١٦٢.
(٣) السَّيِّد رَشِيْد رِضَا أو إخاء أَرْبَعِيْن سنة: شَكِيْب أَرْسْلَان ص٢٦٠.

١٣٥٣هـ الموافق ٢٢ آب ١٩٣٥م، وهو عائد في السيارة من السُّوَيْس إلىٰ القَاهِرَة بعد وداعه الأَمِيْر سُعُوْد، ودفن في قَرَافَة المُجَاوِرِيْن، بجوار الشَّيْخ الإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، وقد رثاه الكثيرون شعراً ونثراً[1].

آثاره:

خَلَّفَ لنا السَّيِّد رَشِيْد آثاراً كثيرةً، تدل علىٰ براعته في الكتابة، وسرعة تأليفه، وعبقريته الفذة، هي:

١. تَفْسِيْر القُرْآن الكَرِيْم، المشهور بتَفْسِيْر المَنَار في ١٢ مجلداً ولم يكمله.

٢. مَجَلَّة المَنَار في ٣٤ مجلداً، وهو الكَنْز الذي احتوىٰ ثِمَار تَجَارِبه وآراءه في الإصْلَاح الدِّيْنِيّ والسياسي. وتعتبر المؤلفات الأُخْرَىٰ التي وضعها فُرُوْعاً لدوحة المَنَار، أو شرحاً لآراء سبق أن أشار إليها في المَنَار، أو دراسات جمعها من المَنَار.

٣. تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه في ٣ مجلدات.

٤. نداء للجنس اللَّطِيْف (حقوق النساء في الإسْلَام).

٥. الوحي المُحَمَّدِيّ، ثُبُوْت النُّبُوَّة بالقُرْآن، ودعوة شعوب المَدَنِيَّة إلىٰ الإسْلَام، دين الأُخُوَّة الإنْسَانِيَّة والسَّلَام.

٦. يُسْرُ الإسْلَام وأُصُوْل التَّشْرِيْع العام.

٧. الخِلَافَة أو الإمَامَة العظمىٰ.

٨. الوَهَّابِيُّوْن والحِجَاز. وهو طائفة من مَقَالَات نشرت في المَنَار والأهرام.

---

(١) السَّيِّد رَشِيْد رِضَا أو إخاء أَرْبَعِيْن سنة: شَكِيْب أَرْسَلَان ص٢٧٧. ورَشِيْد رِضَا الإمَام المُجَاهِد ص٢٨١-٢٨٢.

٩. محاورات المصلح والمقلد.

١٠. ذكرىٰ المولد النَّبَوِيّ.

١١. شبهات النَّصَارَىٰ وحجج الإِسْلَام.

١٢. المَنَار والأَزْهَر.

١٣. السُّنَّة والشِّيْعَة.

١٤. الربا والمعاملات في الإِسْلَام.

١٥. الحكمة الشَّرْعِيَّة في محاكمة القَادِرِيَّة والرِّفَاعِيَّة. رَدَّ به علىٰ أبي الهُدَىٰ الصَّيَّادِيّ، الذي تعرض للشَّيْخ عَبْد القَادِر الجِيْلَانِيّ بدفاعه عن السَّيِّد أَحْمَد الرِّفَاعِيّ. وهو أول ما كتب.

١٦. المقصورة الرَّشِيْدِيَّة.

١٧. مناسك الحج، أَحْكَامه وحكمه.

١٨. المُسْلِمُوْن والقِبْط.

١٩. رِسَالَة الصَّلْب والفِدَاء.

وله آثار أُخْرَىٰ كلها مطبوعة[١].

(١) رجعتُ إلىٰ بعض هٰذِهِ الكتب التي تَيَسَّرَت لي في هٰذَا البَحْث، لأن بعضها نادر الوجود.

وانظر أَيْضاً: السَّيِّد رَشِيْد رِضَا أو إخاء أَرْبَعِيْن سنة: شَكِيْب أَرْسْلَان ص٨. ورَشِيْد رِضَا الإِمَام المُجَاهِد ص٢٦٩-٢٧٠. والأَعْلَام للزِّرِكْلِيّ ج٦ ص١٢٦. ومُعْجَم المُؤَلِّفِيْن ج٩ ص٣١٠. وحَاضِر العَالَم الإِسْلَامِيّ ج١ ص٢٨٤-٢٨٦.

والسَّيِّد رَشِيْد يحيل في أبحاثه في المَجَلَّة وفي كتبه علىٰ بعضها في كثير من المناسبات.

المَبْحَث الثاني

آراء السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا

السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا رجل الإصْلَاح:

كان عمل السَّيِّد رَشِيْد في الإصْلَاح والتجديد متمماً لعَمَل أُسْتَاذه الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه، كما كان عمل الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه متمماً لعَمَل أُسْتَاذه السَّيِّد جمال الدِّيْن من الوجهة الدِّيْنِيَّة والمَدَنِيَّة.

وكان عمل سَعْد باشا زَغْلُوْل في جمع كلمة الشعب المِصْرِيّ متمماً لعَمَلهما من بعض نواحيها السياسية(١).

كان السَّيِّد رَشِيْد يرىٰ أن الإصْلَاح لا يقوم إلَّا بالتربية والتَّعْلِيْم كَشَيْخه مُحَمَّد عَبْدُه، فهو يقول: (سَعَادَة الأُمَم بأَعْمَالها، وكَمَالُ أَعْمَالها منوطٌ بانتشار العُلُوْم والمَعَارِف فيها، فكل أُمَّة ترغب عن العلم فمآلها إلىٰ الشقاء، شقاء الاسْتِعْبَاد. وفقد الاستقلال، لا يعصمها منه اتساع مساحة بلادها، ولا كثرة أفرادها، ولا عظمة حُكَّامها، ولا صحة دينها، ولا شرف أسلافها، ولا شيء مما يتعلل به المسترسلون مع الأوهام، المنقادون بأزمة الغرور.

وكل أُمَّة نشطت لاقتباس العُلُوْم والاستضاءة بنور الأَعْمَال النَّافِعَة، فأقامت أَسَاس مَدَنِيّتها علىٰ هُدَى، فبشرها بالسَّعَادَة سَعَادَة المَدِيْنَة الفاضلة والحرية الشَّاملة والسيادة الكَامِلَة، لا يمنعها من هٰذَا قلة أفرادها، ولا احتلال الأجانب لبلادها، ولا

(١) تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام ج١ ص٩٩٥.

استبسال حُكَّامها، ولا اختلال نظامها، ولا فساد عَقَائِدها، ولا قبح عوائدها، إذ العلم يصلح كل خلل، ويشفي من جميع العِلَل، يشهد بجميع ما قلته العيان، وينطق بصحته البُرْهَان...)[(١)].

وأوضح أهمية التَّعْلِيم في بناء الأُمَّة، ثم قال بعدئذٍ: (افتتاح المدارس أفضل من افتتاح البلاد)[(٢)].

وحين رأىٰ خطر المبشرين المستعمرين في أرجاء العالم الإسْلَامِيّ، الذين أنشؤوا المدارس الخاصة والمستشفيات، وأتقنوا اللُّغَة العَرَبِيَّة، وتسللوا في البلاد الإسْلَامِيَّة، ليبثوا سمومهم بقصد تشكيك المُسْلِمِيْن بدينهم، كتب عدة مَقَالَات في المَنَار اقترح فيها إنشاء مدرسة إسْلَامِيَّة، هدفها: إصْلَاح الدِّيْن، وتخليص أتباعه مما علق بأذهانهم من الخرافات والبدع، وتَخْرِيْج دعاة للإسْلَام يقاومون خطر التبشير.

وكانت فكرة إنشاء هٰذِهِ المدرسة في ذهن السَّيِّد رَشِيْد منذ أن كان طالباً في طَرَابُلُس، حين رأىٰ مَكْتَبَة المبشرين الأمريكان بتلك المَدِيْنَة.

لا سِيَّمَا وأن الاستغاثة من مختلف أنحاء العالم الإسْلَامِيّ كانت تتوارد باستمرار إلىٰ مَجَلَّة المَنَار بهٰذَا الخصوص.

فاتجه السَّيِّد بعد الانْقِلَاب العُثْمَانِيّ سنة ١٩٠٩م إلىٰ الآستانة، لكسب مُسَاعَدَة رِجَالها في إخْرَاج مشروع إنشاء جمعية الدعوة والإرْشَاد، التي تشرف علىٰ مدرسة تحمل اسم الجمعية، وتهدف إلىٰ تَحْقِيْق الإصْلَاح في ميدان التربية والتَّعْلِيم.

وبقي هناك سنة كَامِلَة، عاد صفر اليدين إلىٰ مِصْر، وأيقن أن حكومة الاتحاد والترقي لا يرجىٰ منها شيء من الخير للعَرَب، وصار عدواً لها ينتقد سياستها في كل

(١) مَجَلَّة المَنَار ج١ سنة ١٣١٦هـ، ص٢٥٦ فاتحة العدد ١٥، من مقاله: المدارس الوطنية في الديار المِصْرِيَّة.

(٢) المصدر السَّابِق ص٢٦٣.

فرصة.

فرأىٰ أن السَّبِيْل الأمثل هو الاعتماد علىٰ تبرعات الأهالي، والابتعاد عن رِجَال الحكومة بسبب خضوعها للاستعمار.

وفي ليلة الاحتفال بالمولد النَّبَوِيّ ١٢ رَبِيْع الأول ١٣٣٠هـ = ١٩١٢م، افتتحت مدرسة الدعوة والإرْشَاد في جَزِيْرَة الرَّوْضَة بالقَاهِرَة، وصدر النظام الأَسَاسِيّ لها، ومما جاء في مشروعها:

يُعْتَنَىٰ بتَدْرِيْب الطُّلَّاب علىٰ آداب الإسْلَام وأَخْلَاقه وعِبَادَاته، بحيث يطرد من المدرسة من يثبت عليه الكذب، أو إظهار العَصَبِيَّة الجنسية أو المَذْهَبِيَّة، أو ارتكاب شيء من المعاصي.

يعلمون كل ما يحتاج إليه الدعاة من العُلُوْم الدِّيْنِيَّة كالعَقَائِد والتَّفْسِيْر والحَدِيْث والأَحْكَام علىٰ الوجه المؤدي إلىٰ القدرة علىٰ إقامة الحُجَّة ودحض الشبهة وما يحتاجون إليه من العُلُوْم الرِّيَاضية واللُّغَات.

لأجل ذٰلِكَ يرسل الدعاة والمُرْشِدُون الذين يتخرجون في المدرسة إلىٰ أشد البلاد الإسْلَامِيَّة حاجة إليهم كجاوة والصين، ثم إلىٰ الشعوب الوثنية، ثم إلىٰ أمريكا.

ووصف السَّيِّد رَشِيْد هٰذِهِ المدرسة بقوله: إنها (مُنْتَهَىٰ رجائي في خدمة الإسْلَام، وغَايَة سعيي في إصْلَاح التربية والتَّعْلِيْم، وأقر الله عيني برؤيتها، والبَدْء بإلقاء الدروس فيها).

وأنجبت المدرسة نفراً لا بأس به من خيرة المثقفين في البلاد، ولٰكِن المدرسة تعطلت عند نشوب الحَرْب العالمية الأُوْلَىٰ، ولم تفتح أبوابها مرة أُخْرَىٰ[١]. وأُوقفت المساعدات التي كان تأتيها من الحكومة المِصْرِيَّة. فاضطرت أن تكتفي بمن فيها من الطلبة، وأغلقت أبوابها نهائياً سنة ١٩١٦م[٢].

(١) رَشِيْد رِضَا الإمَام المُجَاهِد ص١٨٠-١٨٨.

(٢) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا، المُقَدِّمَة ج١ ص١٩.

وقد حفلت مَجَلَّة المَنَار بمَقَالَات كتبها الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه في إصْلَاح الأَزْهَر، وكتب بها السَّيِّد رَشِيْد مَقَالَات عديدة أيد بها شَيْخه في ذٰلِكَ الإصْلَاح الذي يعم التَّعْلِيْم وغيره.

وحين ساءت العلاقات بين الخِدَيْو عَبَّاس وبين الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه امتد غضبه بالتبعية علىٰ السَّيِّد رَشِيْد الذي بقي يؤيد في المَنَار ما رآه الشَّيْخ من طرق الإصْلَاح، وآراءه في استبدال الوقف الذي سبب الجفوة وغير ذٰلِكَ من الفَتَاوَىٰ، ومهاجمة الإنكليز حين تخلىٰ الخِدَيْو عن حزمه معهم.

ولقي السَّيِّد رَشِيْد كَثِيْراً من الأذىٰ، ورماه خصومه بالحق والباطل، فاضطر إلىٰ تأليف كتابه (المَنَار والأَزْهَر)، وصدر سنة ١٣٥٢هـ. شرح فيه آراءه وخُلَاصَة تَجَارِبه في الإصْلَاح الإسْلَامِيّ العام وإصْلَاح الأَزْهَر خاصة، مع تَارِيْخ مُفَصّل لهٰذَا المعهد من حيث نشأته ورسالته وما اعترضه من تطور وجمود[١].

واقترح علىٰ مقام الخِلَافَة الإسْلَامِيَّة في مقاله (الإصْلَاح الدِّيْنِيّ) مشروع الجمعية الإسْلَامِيَّة، قال: (أهم ما جاء به الإسْلَام هو التَّوْحِيْد في العَقَائِد الدِّيْنِيَّة والتعاليم الأدبية والأَحْكَام القضائية والمَدَنِيَّة، فأهم أركان الإصْلَاح الإسْلَامِيّ: جمع المُسْلِمِيْن علىٰ عَقِيْدَة وَاحِدَة، وأُصُوْل أدبية وَاحِدَة، وقَانُوْن شَرْعِيّ وَاحِد، لا يحكم عليهم غيره في أي نوع من أنواع الأَحْكَام، ولُغَة وَاحِدَة. ويتوقف هٰذَا الإصْلَاح علىٰ تأليف جمعية إسْلَامِيَّة تحت حماية الخَلِيْفَة، يكون لها شُعَب في كل قطر إسْلَامِيّ، وتكون عظمىٰ شُعَبِهَا في مَكَّة المُكَرَّمَة التي يؤمها المُسْلِمُوْن من جميع أقطار الأرض، ويتآخون في مَوَاقِفها ومعاهدها المقدسة، ويكون أهم اجتماعات هٰذِهِ الشُّعْبَة في موسم الحج الشَّرِيْف).

(١) رَشِيْد رِضَا الإمَام المُجَاهِد ص١٩٨-١٩٩، ٢٠٧.

أسباب تَرْجِيْح كون الجمعية الإِسْلَامِيَّة في مَكَّة المُكَرَّمَة:

وذكر السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا أن أسباب تَرْجِيْح كونها في مَكَّة المُكَرَّمَة لا في دار الخِلَافَة، هي:

١. لا بد أن يوجد أعضاء من بقية الشعب التي في سائر الأقطار يأتون الحج، فيحملون إلىٰ شعبهم من المجتمع العام ما يستقر عليه الرأي من التعاليم السرية والجهرية.

٢. للبعد عن دسائس الأجانب ووساوسهم.

٣. إن لشرف المكان ولحالة قَاصِديه الدِّيْنِيَّة أثراً عَظِيْماً في الإخلاص والتنزه عن الهوىٰ فضلاً عن الغش والخيانة.

ورأىٰ أن يكون للجمعية الكُبْرَىٰ جريدة عِلْمِيَّة دينية تطبع في مَكَّة أَيْضاً، وأية شُعْبَة استطاعت إنشاء جريدة تنشئها.

وتحدث في هذ المقال عن تَوْحِيْد العَقَائِد والآداب والأَحْكَام واللُّغَة وأثر ذٰلِكَ في صيانة وحدة الأُمَّة(١).

أهم ما يناط بالجمعية الإِسْلَامِيَّة:

وذكر السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا في المقال الآخر أهم ما يناط بالجمعية الإِسْلَامِيَّة وشعبها من الأَعْمَال، وهي ثلاثة:

١. تلافي البدع والتعاليم الفاسدة قبل انتشارها.

٢. إِصْلَاح الخطابة.

٣. الدعوة إلىٰ الدِّيْن.

---

(١) مَجَلَّة المَنَار، فاتحة العدد ٣٩ ج١ ص٧٦٥، ٣ شَعْبَان ١٣١٦هـ=١٨٩٨م.

وتحدث عن هٰـذِهِ الأَعْـمَـال بشيء من التفصيل، ثـم قـال: (فـإذا تحققت الآمـال، ونجحت هٰذِهِ الأَعْمَال، فلا ريب أن الحكومات الإِسْلَامِيَّة يتقرب بعضها من بعض، وتظهر فيهم الأُخُـوَّة الإِسْـلَامِيَّـة، ويتحدون علىٰ صد هجمات أوربا عنهم وإيقاف مطامعها)[١].

كانت دعوة السَّيِّد رَشِيْد إلىٰ هٰذِهِ الإِصْلَاحات نابعة من إيمانه العميق بأن تخلف المُسْلِمِيْن عن ركب الحَضَارَة كان بسبب انحرافهم عن الإِسْلَام، لأن طبيعة الإِسْلَام تقتضي التقدم لا التأخر[٢]. فدعا إلىٰ أن يفهم الإِسْلَام فهمًا صَحِيْحاً علىٰ أَسَاس أنه نظام حياة، قال: (هنا مَسْأَلَة يسوء الأوربيين ذكرها في الجرائد، علىٰ أن ذكرها وعدمه سِيَّان، لأنها مَعْلُوْمَة بالضرورة لكل مُسْلِم، وهي: أن الدِّيْن الإِسْلَامِيّ دين سلطة وسِيَاسَة، لا دين تعبد وتحنث فقط، فمن أُصُوْله أن يسعىٰ أربابه بأن تكون لهم السلطة علىٰ العالم كله لا علىٰ المُسْلِمِيْن وحدهم كما يظن البعض، ولٰكِن هٰذَا الأمر من وظائف الخُلَفَاء والأُمَرَاء، لا من وظائف العامة، فترشدها إليه الجرائد والخُطَبَاء، وتؤلف لأجله الجمعيات. وإننا نعتقد أن الله تعالىٰ ما كلفنا بنشر ديننا في جميع العالم، ورفع لواء سلطتنا علىٰ رُؤُوْس جميع الشعوب، لأجل الأُبهة والفخفخة وتمتع الملوك والأُمَرَاء بالسلطة المطلقة واسْتِعْبَاد الناس وإذلالهم، وإنما أمرنا اللهُ عَزَّ وجَلَّ باستعمار الأرض وإِصْلَاح الناس)[٣].

---

(١) مَجَلَّة المَنَار، فاتحة العدد ٤٠ ج١ ص٧٨٨، ١٠ شَعْبَان ١٣١٦هـ=١٨٩٨م.

(٢) مَجَلَّة المَنَار ج٣ سنة ١٣١٨هـ=١٩٠٠م العدد ١٥ ص٣٤٤، من مقاله: هانوتو والإِصْلَاح الإِسْلَامِيّ.

(٣) مَجَلَّة المَنَار ج٣ سنة ١٣١٨هـ=١٩٠٠م، ص٢٤٢-٢٤٣ فاتحة العدد ١١، من مقاله: أوربا والإِصْلَاح الإِسْلَامِيّ.

دعوته إلى التمسك بمَذْهَب السَّلَف في العَقِيْدَة:

أوضح السَّيِّد رَشِيْد أن رأيه وقوله واعْتِقَاده في الصفات الإلٰهِيَّة هو ما كان عليه السَّلَف الصالح.

والمُرَاد بمَذْهَب السَّلَف: أنهم يصفون الله تعالىٰ بما وصف به نفسه وبما وصفه به رَسُوْله ﷺ، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، فالمُعَطِّل يعبد عدماً، والمُمَثِّل يعبد صنماً، والمسلم يعبد إلٰه الأرض والسماء(١).

مَذْهَب المُسْلِمِيْن في النُّصُوْص المُوْهِمَة للمُشَابَهَة:

وردت في القُرْآن الكَرِيْم والأَحَادِيْث الشَّرِيْفَة نُصُوْص تُضيف إلىٰ الله عَزَّ وجَلَّ صفات خبرية، توهم التشبيه، كالاستواء والعلو والمجيء والنُّزُوْل... .

واختلف فيها العُلَمَاء علىٰ ثلاثة أقوال مع اتفاقهم علىٰ تنزيه الله تعالىٰ عما لا يليق به، وهي:

١- التوقف الكَامِل من غير جُنُوْح إلىٰ التَّأْوِيْل، أو سقوط في التشبيه، وهو مَذْهَب السَّلَف، فهٰؤُلَاءِ آمنوا بهٰذِهِ الصفات الخبرية، وأجروها علىٰ ظَاهِرها، ولم يتعرضوا لمعناها ببحث ولا تَأْوِيْل، مع تغليبهم أَدِلَّة التنزيه، لكثرتها ووضوح دلالتها، وعلمهم باستحالة التشبيه، لذا قال كثير منهم: (اقرؤها كما جاءت)، أي: آمنوا بأنها من عند الله، ولا تتعرضوا لتَأْوِيْلها ولا لتَفْسِيْرها، لأن التَّأْوِيْل أمر ظني بالاتفاق يحتمل الخطأ، لا يمكن أن تُفَسَّر به صفات الباري عَزَّ وجَلَّ، والقول في صفات الباري عَزَّ وجَلَّ بالظن غير جائز، احترازاً من الوقوع في الزيغ، لذٰلِكَ نفوض معانيها إلىٰ الله تعالىٰ.

وفي ذٰلِكَ يقول ابن رُشْد: إن الصدر الأول إنما صار إلىٰ الفضيلة الكَامِلَة والتقوىٰ

---

(١) لَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج١ ص٢٤-٢٥ عن ابن تَيْمِيَّة.

باسْتِعْمَال هٰذِهِ الأقاويل، دون تَأْوِيْلَات فيها.

٢- التوغل في التشبيه. وهو قول المُشَبِّهَة.

فمنهم من شَبَّهَ في الذات، باعْتِقَاد اليد والقَدَم والوجه، فوقعوا في التجسيم الصريح ومخالفة آي التنزيه المطلق.

ومنهم من شَبَّهَ في الصفات، كإثبات الجهة والاستواء والنُّزُوْل والصوت والحرف وأمثال ذٰلِكَ، فآل قولهم إلىٰ التجسيم، وذٰلِكَ تمسكاً بالتَّفْسِيْر الحرفي للآيات والأَحَادِيْث الموهمة للتشبيه والتجسيم.

٣- التَّأْوِيْل، وهو ما ذهب إليه المُعْتَزِلَة، وأخذ به، مع تعديلات طفيفة، عامة المُسْلِمِيْن من شِيْعَة وأهل سُنَّة: مَاتُرِيْدِيَّة وأَشَاعِرَة، وبه قال الإبَاضِيَّة، وذٰلِكَ لأنه ثبت عندهم بالدليل العقلي، أن الله تعالىٰ منزه عن الجسمية والجهة، ولا سَبِيْل للقَضَاء علىٰ التشبيه إلَّا إذا أُوِّلَت الصفات الخبرية الوَارِدَة بالنُّصُوْص.

وحين رأىٰ العُلَمَاء أن فتح باب التَّأْوِيْل له أضراره الجسيمة، وضعوا له القَوَاعِد، حتىٰ لا يؤدي إلىٰ التلاعب بالنُّصُوْص وَفْق الهوىٰ، دون الالتفات إلىٰ أُصُوْل الشَّرِيْعَة ومَقَاصِدها.

ومن أمثلة تَأْوِيْل هٰؤُلَاءِ للنُّصُوْص المتشابهة بما يتفق وتنزيه الله تعالىٰ عما لا يليق به:

أ. قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ - طه: ٥، فأَوَّلُوا الاستواء بالاستيلاء والمُلْك، كقول الشاعر:

قد استوىٰ بِشْرٌ علىٰ العِرَاقِ ... من غير سَيْفٍ أو دَمٍ مُهْرَاقِ

ب. قوله تعالىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ - فاطر: ١٠، أي: يرتضيه، لأن الكلم عرض يمتنع عليه الانتقال.

ج. قوله تعالىٰ: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ - الفجر: ٢٢، أي: وجاء أمر ربك الشَّامل للعذاب، أو عذاب ربك.

د. قوله تعالىٰ: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ - الفَتْح: ١٠، اليد، أي: القدرة[١]... إلخ.

والسَّيِّد رَشِيْد نَصرَ مَذْهَب السَّلَف، وأوضح ذٰلِكَ بقوله:

رأينا وقولنا واعْتِقَادنا هو ما كان عليه سلفنا الصالح من وصف الله تعالىٰ بما وصف به نفسه ووصفه به رَسُوْله ﷺ.

وإنما أَوَّلَ أكثر الخَلَف الآيات والأَحَادِيْث في مثل هٰذِهِ المَسْأَلَة هرباً من لوازمها، التي هي لوازم الأجسام، فقالوا: إذا قلنا بأنه تعالىٰ مستوٍ علىٰ العرش، أو فوق عِبَاده أو في السماء كما ورد، لزم من ذٰلِكَ أنه جسم محدود له طول وعرض، وأنه متحيز تحصره الجهات، وكل هٰـذَا محال علىٰ الله تعالىٰ بالبُرْهَان العقلي. وظنوا أن وصفه بالعلم والإرادة والقدرة وغيرها من صفات المعاني التي يذكرونها في كتبهم الكلامية لا يستلزم شَيْئاً من لوازم المخلوقات.

والصواب: أن جميع الألفاظ التي يوصف بها الخَالِق عَزَّ وجَلَّ قد وضعت للمخلوقات، وعَقِيْدَة التنزيه تنفي مشابهته تعالىٰ لشيء من خلقه، فالمسلم المُؤْمِن بما جاء به مُحَمَّد ﷺ هو الذي يجمع بين آيات التنزيه وآيات الصفات، فيؤمن بالمعنىٰ الشَّرِيْف الذي وصف الله به نفسه، وبالآيات التي نزه بها نفسه عن مشابهة خلقه.

قال تعالىٰ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ - الشُّوْرَىٰ: ١١، وكُلٌّ من لفظ السَّمِيْع والبَصِيْر قد وضع لمعنى له مثل، فنقول: إنه سَمِيْع بَصِيْر، ولٰكِن سمعه وبصره ليس كسمع أحدنا وبصره، بل هو أعلىٰ من ذٰلِكَ، كما يليق بكَمَال ربنا وتنزيهه.

وقال تعالىٰ: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ - الإسراء: ٤٣، فكلمة

---

(١) كتابي: العَقِيْدَة الإِسْلَامِيَّة ومَذَاهِبها ص٣٥٣-٣٦٢، وفيه المصادر.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تدل علىٰ التنزيه، وكلمة ﴿عُلُوًّا﴾ يلزم منها التشبيه، فنؤمن بكل منهما، علىٰ أن التنزيه ينفي اللازم لكلمة التشبيه، فنقول: إن علوه تعالىٰ ليس كعلو سقف البيت علىٰ أرضه، بل هو عُلُوّ يليق بكَمَال ربنا وتنزيهه، ولو لم يطلق عليه سُبْحَانَهُ الكلم الذي استعمله الناس الذين بعث الله رسله لهدايتهم، لما أمكن التعبير عن مقام الأُلوهية بشيء، إذ لا يخاطب الرسل الناس إلَّا بما يعرفون. ولهٰذَا ذهب بعضُ المدققين كالغَزَالِيّ إلىٰ أن لفظ القدرة إذا أُطلق علىٰ صفة الله تعالىٰ التي بها يوجد ويعدم يكون استعارة، إذ لا يوجد في اللُّغَة كلمة تدل علىٰ كنه تلك الصفة، لأنه معنى لم تلمحه عَيْن أحد من واضعي اللُّغَات، فيضعوا له لفظاً يَدُلّ علىٰ كنهه، ومثل هٰذَا يقال في جميع صفات الله تعالىٰ.

ولذٰلِكَ دعا إلىٰ اعتناق هٰذِهِ العَقِيْدَة، فقال:

فعليك بعَقِيْدَة السَّلَف، ولا يصدنك عنها شِقْشِقَةُ مُقَلِّدَةِ الخَلَف، وإن غالىٰ بعضُهم فتجرأ علىٰ تكفير من يصف الله تعالىٰ بالعلو والفوقية والاستواء علىٰ العرش، كأنه يكفر كل مُؤْمِن بالقُرْآن، ويدعي أنه ينصر بذٰلِكَ الإسْلَام، ويقيم دَعَائِم الإيمان الذي اعتمد فيه علىٰ نَظَرِيَّات فلسفة اليُوْنَان، علىٰ أنه يذكر اسم الجَلَالَة فيقرنه بكلمة ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾، وهي من الكلمات الموهمة، فما له يجيز بعض هٰذَا الكلم، ويحرم بعضه بالهوىٰ؟[1].

---

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٣ ص١١٤٥-١١٤٦ عن مَجَلَّة المَنَار ج١٥ سنة ١٩١٢م، ص٩٠٦-٩٠٧.

وانظر أَيْضاً: فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٥ ص١٩٣٧ عن مَجَلَّة المَنَار ج٢٨ سنة ١٩٢٧م، ص٢٦١-٢٧١. والسُّنَّة والشِّيْعَة ج١ ص٧٥ وما بعدها.

وتَفْسِيْر المَنَار ج١ ص٢١١ في تَفْسِيْر الآية ٣٠ من سورة البقرة، قال فيه بعد أن أوضح طريقة السَّلَف في المتشابهات وهي التنزيه، وطريقة الخَلَف وهي التَّأْوِيْل: (وأقول أنا مؤلف هٰذَا التَّفْسِيْر: إنني ولله الحمد علىٰ طريقة السَّلَف وهديهم، عليها أحيا، وعليها أموت).

وقد شَهِدَ علىٰ نفسه أنه لم يطمئن قلبه لمَذْهَب السَّلَف إلَّا بقِرَاءَة كتب شَيْخَي الإسْلَام ابن تَيْمِيَّة وابن القَيِّم[١]، وهما اللذان نصرا هٰذَا المَذْهَب بالحُجَّة والبُرْهَان، ولذٰلِكَ دافع عن ابن تَيْمِيَّة دفاعاً عريضاً طَوِيْلاً، ورَدَّ التُّهَم التي أُلصقت به[٢].

ورأىٰ أن قول من قال: إن وصف كلام الله تعالىٰ بالقديم من الألفاظ المبتدعة صَحِيْح، ومثله قول الآخر: إن كلام الله تعالىٰ حادث الآحاد قديم النوع، كلاهما لم يرد في كتاب الله تعالىٰ ولا في أقوال رَسُوْله ﷺ، ولا في أقوال الصَّحَابَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم.

ولٰكِن ليس كل من يستعمل لفظاً مُحْدَثاً يكون من أهل البدع المخالفين لأَهْل السُّنَّة والجَمَاعَة، فجميع أَئِمَّة الأَمْصَار من مدوني عُلُوْم الشَّرْع في الأُصُوْل والفُرُوْع قد استعملوا ألفاظاً اصْطِلَاحِيَّة لم تستعمل في القُرْآن ولا في أقوال النَّبِيّ ﷺ وأصحابه، والذين تصدّوا من أَهْل السُّنَّة للرد علىٰ المبتدعة لم يسلموا من اسْتِعْمَال بعض الألفاظ الاصْطِلَاحِيَّة المبتدعة، ومنها قولهم: إن كلامه تعالىٰ قديم بقدم ذاته. وهٰذَا من أسباب وقوع الخلاف بين المُسْلِمِيْن في مَسْأَلَة كلام الله تعالىٰ، وكذا غيرها من صفاته.

وقد اشتهر ما وقع من الخلاف في ذٰلِكَ بين البُخَارِيّ والذُّهْلِيّ من أئمتهم، بل أتباع إمَام الأَئِمَّة أَحْمَد بن حَنْبَل المنسوبين إلىٰ مَذْهَبه في العَقَائِد والفُرُوْع، وقد وقع بينهم الخلاف في هٰذِهِ المَسْأَلَة، فلا يَصِحّ أن يقال في كل من استعمل لفظاً مُحْدَثاً في

وانظر في هٰذَا كلاماً طَوِيْلاً في مواضع متعددة من تَفْسِيْر المَنَار، منها: ج٣ ص١٦٢ في تَفْسِيْر الآية ٧ من سورة آل عِمْرَان.

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٦ ص٢٤٨٥ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٣٣ سنة ١٩٣٤م، ص٦٧٩-٦٨٢.

(٢) السُّنَّة والشِّيْعَة ج١ ص٧٣ وما بعدها.

وانظر: فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٥ ص١٩٤٩ نَقْلاً عن مَجَلَّة المَنَار ج٢٨ سنة ١٩٢٧م، ص٤٢٣-٤٢٤. وفَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٦ ص٢٥٢٩ نَقْلاً عن مَجَلَّة المَنَار ج٣٤ سنة ١٩٣٤م، ص٢٧٧.

ذٰلِكَ، ولا كل من خالف أَحْمَد أو جُمْهُوْر السَّلَف في مَسْأَلَة من دَقَائِق هٰذِهِ المَسَائِل، أنه من المبتدعة المخالفين لأَهْل السُّنَّة والجَمَاعَة.

وقد ذكر الحافظ ابن حَجَر في شرح كتاب التَّوْحِيْد من صَحِيْح البُخَارِيّ بعض أقوال أَهْل السُّنَّة من المُحَدِّثِيْن، وأتباع المَذَاهِب الأربعة، وأقوال المبتدعة في مَسْأَلَة القُرْآن في مواضع، وقال بعدها كلمة كررها بعد ذكر الخلاف بينهم، وهي: (والمحفوظ عن جُمْهُوْر السَّلَف ترك الخوض في ذٰلِكَ والتعمق فيه والاقتصار علىٰ القول بأن القُرْآن كلام الله، وأنه غير مخلوق، ثم السكوت عما وراء ذٰلِكَ).

قال السَّيِّد رَشِيْد: وهٰذَا الذي ينبغي لكل مُسْلِم. ثم أحال علىٰ كتب شَيْخ الإِسْلَام ابن تَيْمِيَّة[1].

لذٰلِكَ:

رأىٰ في عَقِيْدَة الوَهَّابِيَّة أنها عَقِيْدَة أَهْل السُّنَّة والجَمَاعَة، التي كان عليها سَلَف الأُمَّة الصالح من الصَّحَابَة والتَّابِعِيْن وحُفَّاظ السُّنَّة، التي كان أكبر المدافعين عنها عند ظهور البدع، وتأييد الدولة العَبَّاسِيَّة لها إمَام أَئِمَّة السُّنَّة أَحْمَد بن حَنْبَل رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

فإن صح عن أَحَد منهم خلاف لشيء مما كان عليه أَحْمَد وجُمْهُوْر السَّلَف، فإنما يكون ذٰلِكَ عن جهل منه بالمَسْأَلَة التي خالف فيها، فلا يتخذ دليلاً علىٰ أنه مَذْهَبه ومَذْهَب قومه، كما نرىٰ كَثِيْراً من أتباع سائر المَذَاهِب في الأُصُوْل والفُرُوْع يخالفون

---

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٦ ص٢٢٨٣-٢٢٨٤ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٣١ سنة ١٩٣٠م، ص١٢١-١٢٢.

وانظر أَيْضاً: فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٤ ص١٤٢٨ وما بعدها نَقْلاً عن مَجَلَّة المَنَار ج٢١ سنة ١٩٢٠م، ص٤٦٩. وتَفْسِيْر المَنَار ج٩ ص١٥٤ في تَفْسِيْر الآيات ١٤٣-١٤٤ من سورة الأعراف.

أئمتهم عن جهل في الغالب[١].

وأصحاب عَقِيْدَة أَهْل السُّنَّة والجَمَاعَة هم الفرقة الناجية.

أما حَدِيْث:

(إن أهل الكتاب افترقوا في دينهم علىٰ اثنتين وسبعين ملة، وإن هٰذِهِ الأُمَّة ستفترق علىٰ ثلاث وسبعين ملة، كلها في النار إلَّا وَاحِدَة، وهي الجَمَاعَة).

فبعد أن أورد السَّيِّد طرقاً وألفاظاً متعددة له، قال:

وجُمْلَة القول أن تعدد طرق هٰذَا الحَدِيْث يُقَوِّي بعضها بعضاً علىٰ طريقتهم المتبعة في ذٰلِكَ، وأظن أنه لا تسلم رِوَايَة منها عن طعن أو مقال كما قال ابن شِهَاب... .

وأما معنىٰ الحَدِيْث بصرف النَّظَر عن سنده، فهو أن الفرقة الناجية هي الفرقة التي تتبع السُّنَّة، التي كان عليها النَّبِيّ ﷺ وأصحابه، أي: سُنَّة السَّلَف الصالح قبل ظهور البدع، وهٰؤُلَاءِ هم الجَمَاعَة قَلّوا أم كثروا، وهم لا ينحصرون في هٰذَا الزَّمَان بأهل مَذْهَب معين من المَذَاهِب المعروفة، علىٰ أن أهل الأثر والحَنَابِلَة أقرب من غيرهم إلىٰ السُّنَّة وأبعد عن البدعة.

وذٰلِكَ أن المَسَائِل التي اختلف فيها أهل المَذَاهِب لا ينحصر الحق فيها في مَذْهَب دون غيره، فتارةً يكون الصواب مع الأَشْعَرِيَّة وتارةً مع المَاتُرِيْدِيَّة... .

فالظَّاهِر أن الناجين في كل زَمَان هم أهل الاتباع، الذي يتقون الابتداع، ولا يخلو

---

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٦ ص٢٣٤٧ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٣١ سنة ١٩٣٠م، ص٧٣٥.

وانظر أَيْضاً: السُّنَّة والشِّيْعَة ج١ ص٦٩ وما بعدها.

وللسَّيِّد رَشِيْد كتاب فَصَّلَ به القول عن الوَهَّابِيِّين، وتَارِيْخهم، ومَذْهَبهم، وشهادة المؤرخين لهم، سماه: (الوَهَّابِيُّوْن والحِجَاز).

المتسبون إلىٰ مَذْهَب من المَذَاهِب المعتد بها في الإسْلَام عن طائفة أو أفراد منهم يؤثرون السُّنَّة علىٰ كل بدعة، ومجموعهم طائفة وَاحِدَة يجمعهم الاعتصام بالكِتَاب والسُّنَّة ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ - الواقعة ١٣-١٤[1].

دعوته إلى نبذ التعصب وإعادة النَّظَر في الفِقْه الإسْلَامِيّ:

الفِقْه الإسْلَامِيّ مَعِيْنٌ ثَرٌّ، يلبي حاجات المجتمع الإسْلَامِيّ كل حين، والمَذَاهِب الإسْلَامِيَّة هي في حقيقتها مدارس، تبين طريقة استنباط الأَحْكَام من النُّصُوْص، وليست سَبِيْلاً للتفريق بين المُسْلِمِيْن.

وقد اشتهر بين الناس من هٰذِهِ المَذَاهِب أربعة، هي: الحَنَفِيَّة، والمَالِكِيَّة، والشَّافِعِيَّة، والحَنَابِلَة، مع أنه توجد مَذَاهِب إسْلَامِيَّة أُخْرَىٰ كثيرة.

التقليد:

رأىٰ السَّيِّد رَشِيْد أن سبب ما اشتهر به مقلدة الآخرين من وجوب حصر التقليد في مَذَاهِب الفُقَهَاء الأربعة هو أنها قد دُوِّنَت، واتسع فيها التَّخْرِيْج والتفريع، فصارت كافية للناس.

ورأىٰ أن ليس في هٰذَا غَضٌّ من مقام عُلَمَاء الصَّحَابَة والتَّابِعِيْن ومن بعدهم من المجتهدين: كاللَّيْث بن سَعْد، ودَاوُد الظَّاهِرِيّ، وسُفْيَان الثَّوْرِيّ، وإسْحَاق بن رَاهَوَيْه، والطَّبَرِيّ، وسُفْيَان بن عُيَيْنَة، والإبَاضِيَّة، وأهل البيت الذين يسند إليهم فِقْه الزَّيْدِيَّة والإمَامِيَّة.

فلا يمنع الأخذ بقول سائر العُلَمَاء بشرطه الذي يجوز به الأخذ بقول أَحَد الأَئِمَّة

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٣ ص٩٤٨-٩٤٩ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج١٣ سنة ١٩١٠م، ص٨٩٧-٩٠٦.

الأربعة(١).

وذٰلِكَ لأن الله تعالىٰ ذم التقليد، ووبخ أهله، بآيات منها: قوله تعالىٰ بعد الاحتجاج علىٰ المُشْرِكِيْن، وبَيَان أنه لا حُجَّة لهم: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾- الزخرف: ٢٢-٢٤.

فقد احتج علىٰ المقلدين بأنه يجب عليهم النَّظَر واتباع ما هو أَهْدَىٰ، ولم يعذرهم بالتقليد، فدل علىٰ أنه غير مقبول عنده، ولو كان التقليد عذراً لأَحَد لكان جميع الكفار والمُشْرِكِيْن معذورين عند الله تعالىٰ في عدم اتباع الحق، بحُجَّة أنهم ليس لهم نظر يميزون به بينه وبين الباطل(٢).

وحين استدل القائلون بالتقليد علىٰ أصل وجوب التقليد بقوله تعالىٰ: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾- النَّحل: ٤٣، والأنبياء: ٧، فأوجب الله التقليد علىٰ من لم يعلم، ويترتب عليه الأخذ بقول العالم وذٰلِكَ تقليد له.

أجاب السَّيِّد رَشِيْد: بأن هٰذَا الاستدلال ظَاهِر البطلان، فإن من لا يعلم حكم الله تعالىٰ في مَسْأَلَة يجب أن يسأل عن النَّصّ فيها من كتاب الله تعالىٰ أو سُنَّة رَسُوْله ﷺ لا عن رأي أَحَد الأربعة أو غيرهم. والاجْتِهَاد ظن في المَسْأَلَة الذي أداه إليه بذل الجهد في البَحْث عنها، وهو ساقط الاعتبار مع وجود النَّصّ بغير خلاف، ولا يجب علىٰ أحد من خلق الله أن يدين الله بظن غيره.

ولا مَانِع من أن يقال: إن الجاهل يسأل عن نص الشارع الذي كلف أتباعه، فإن لم

---

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٤ ص١٥٣٦ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٢٣ سنة ١٩٢٢م، ص٩٩-١٠١.

(٢) مَجَلَّة المَنَار ج٤ سنة ١٣١٩هـ=١٩٠١م، ص١٦٧، محاورات المصلح والمقلد.

يوجد سأل المجتهد عن ظنه وعن الدليل الذي استنبطه منه، فإذا اقتنع قلبه أخذ به وإلَّا فلا، بدليل:

ما رَوَىٰ أَحْمَد من حَدِيْث أبي ثَعْلَبَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعاً: (البِرُّ ما سكنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما تسكن إليه النفس، ولم يطمئن إليه القلب، وإن أفتاك المفتون) - حَدِيْث حسن، وأورد الشَّيْخ رَشِيْد ألفاظاً أُخْرَىٰ للحَدِيْث من رِوَايَة أَحْمَد والبُخَارِيّ في التَّارِيْخ وغيرهما... ثم قال بعدها: المُرَاد من اطمئنان القلب هنا ما يعبر عنه في هٰذَا العَصْر بالوجدان وراحة الضمير، وعليه المُعَوَّل في المُشْتَبِهات بين الحلال والحرام، دون البَيِّن منها... .

وإن من الجاهلين من يقترف المعصية، أو يُطَلِّق امرأته، ثم يستفتي أَحَد العُلَمَاء، ويحرف له القول، ليفتيه بما يوافق هواه. فإن أفتاه بما يحلل له المعصية كأكل مال غيره بالباطل أو معاشرة الأزواج فعل، وإن كان قلبه غير مطمئن للفتوىٰ، ظاناً أن الله يعذره بفتوىٰ المفتي، كما يفعل الحُكَّام في الدنيا. ألا فليعلم كل مُسْلِم أن المفتي ليس شارعاً للدِّيْن، وإن كان مجتهداً، وإنما وظيفته بَيَان حكم الله الذي أنزله في كتابه أو بَيَّنَهُ علىٰ لِسَان رَسُوْله ﷺ، فإذا لم يكن في المَسْأَلَة نص عنهما فليس له أن يحمل الناس علىٰ أن يدينوا الله ويعبدوه بمُقْتَضَىٰ رأيه واجْتِهَاده، الذي هو ظن من ظنونه، فضلاً عن حمله إياهم علىٰ العَمَل برأي غيره مما يقرؤه في الكتب.

ولم يكن أَحَد من الأَئِمَّة المجتهدين بحق ولا سِيَّمَا الأربعة، يأمر الناس بالعَمَل باجْتِهَاده وتقليده في رأيه وفهمه، وإنما كانوا يبينون للناس ما يفهمون من نُصُوْص الشارع بطرق الدلالة المعروفة عندهم. فمن وافق فهمه فهم أَحَد منهم، فعمل به كان عاملاً بما اعتقد أن الله شرعه له، ومن لم يُوَافِقه تركه وعدَّه كأن لم يكن، وليس له أن يدين الله تعالىٰ به. والنُّصُوْص عنهم في ذٰلِكَ مشهورة.

قال تعالىٰ: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ﴾ - الأعراف: ٣.

وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾- الشُّوْرَىٰ: ٢١.

وقال في أهل الكتاب: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾- التوبة: ٣١، فقال عَدِيّ بن حَاتِم لما سمعها، وكان نَصْرَانِيّاً فأسلم، يا رَسُوْل الله إنهم لم يكونوا يعبدونهم، فبين له ﷺ: أن المُرَاد بها أنهم كانوا يُحِلُّون لهم ويُحَرِّمُون عليهم فيتبعونهم، فاعترف بذٰلِكَ.

وما كان يفعله عُلَمَاء اليَهُوْد والنَّصَارَىٰ من التحليل والتحريم والقول في دين الله برأيهم وفهمهم للتوراة والإنجيل من غير أن يكون نصاً ظَاهِراً في الحكم، فَعَلَهُ كثير من عُلَمَاء المُسْلِمِيْن المقلدين، فاتبعهم العوام فيه، حتىٰ صارت الجرأة علىٰ التحليل والتحريم موضع العجب والاستغراب عند العقلاء المستقلين، بل صار العوام يحلون ويحرمون، وليس لأحد حق في التحليل والتحريم علىٰ العِبَاد إلَّا ربهم تبارك وتعالىٰ، ولٰكِن كان ذٰلِكَ وهو مصداق ما صح عنه ﷺ من اتباع هٰذِهِ الأُمَّة سُنَن من قبلها، شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتىٰ أنهم حرموا كَثِيْراً من العُلُوْم والفُنُوْن والصناعات التي تعتز بها الأُمَم وتقوىٰ... .

هٰذَا وإن ما ورد في الكِتَاب والسُّنَّة من أُمُور الدِّيْن المحضة، كالعَقَائِد والعِبَادَات والحلال والحرام، قسمان:

قسم قطعي الرِّوَايَة والدلالة، وهو التَّشْرِيْع العام الذي يجب علىٰ كل مُسْلِم الأخذ به، ويجب علىٰ أَئِمَّة العَدْل إلزام الناس إياه.

وقسم ليس كذٰلِكَ، وهو محل الاجْتِهَاد، فمن فهم منه حكماً، اعتقد أنه مُرَاد الله تعالىٰ ولو بواسطة بَيَان غيره من العُلَمَاء له، وجب عليه العَمَل به، دون من لم يفهم ذٰلِكَ، ولم يعتقده استقلالاً ولا تبعاً، وليس للأَئِمَّة أن يجعلوه تَشْرِيْعاً عاماً.

فكان النَّبِيّ ﷺ وأصحابه يلقنون الأَعْرَابِي دينه، وما يجب عليه في مجلس وَاحِد،

فكان ما يحتاج العامي إلىٰ سؤال العُلَمَاء عنه قليل. وكان الناس يسألون العُلَمَاء من السَّلَف عن حكم الله، لا عن آرائهم واجْتِهَادَاتهم. ولم يكن أَحَد يلتزم عالماً بعينه، وكان عُلَمَاء السَّلَف... يجيبون كل سَائِل بما يعلمون من كتاب الله وسُنَّة رَسُوْله ﷺ، ثم صاروا في عَصْر التَّابِعِيْن يذكرون ما كان عليه الصَّحَابَة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ في المَسْأَلَة، أو علماؤهم المشهورون، إذا كان فيها خلاف.

ثم إن بعض عُلَمَاء القرون الوسطىٰ الذين زعموا وجوب تقليد وَاحِد من الأَئِمَّة الأربعة دون غيره لم يُوَافِقهم جميع أقرانهم في زمنهم ولا فيما بعده.

وانتهىٰ السَّيِّد رَشِيْد بعد كلام طَوِيْل إلىٰ أن التقليد باطل بنص القُرْآن، والعَمَل به مفضٍ إلىٰ إضاعة الدِّيْن[١].

المَذَاهِب ووحدة الأُمَّة:

الأصل في الدِّيْن الوحدة والاتفاق، وأضر ما في تعدد المَذَاهِب الاختلاف والافتراق، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ - آل عِمْرَان: ١٠٥[٢].

ذٰلِكَ لأن الإِسْلَام دين التَّوْحِيْد وما أُمِرَ المُسْلِمُوْن إلَّا ليعبدوا إلٰهاً وَاحِداً، ويتبعوا ديناً وَاحِداً، ويقيموا لهم إمَاماً وَاحِداً، ويكونوا أُمَّة وَاحِدَة لا يفرقهم نسب ولا لُغَة ولا وطن.

ولٰكِن الفرق في المَذَاهِب بهٰذَا العَصْر قد ضعف بقلة المَذَاهِب، وجهل المنتسبين

---

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٥ ص١٩٥٢-١٩٥٨ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٢٨ سنة ١٩٢٧م، ص٤٢٤-٤٣١.

وانظر: مُقَدِّمَة كتاب المُغْنِي والشَّرْح الكَبِيْر التي كتبها السَّيِّد رَشِيْد رِضَا.

(٢) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ص١٩٥٨.

إليها بها وقلة انتفاعهم بعَصَبيَّتِهَا، وتَوَجُّه كثيرين منهم إلىٰ عُلُوْم وآداب أُخْرَىٰ غَرِيْبَة عنها، فلم يبقَ أمامنا فِرَقٌ كَبِيْرَة يذكرون بلقب مَذْهَبِيّ، إلَّا الإمَامِيَّة والزَّيْدِيَّة من الشِّيْعَة والإبَاضِيَّة من الخَوَارِج والوَهَّابِيَّة من فرق أَهْل السُّنَّة... وقد تلاشىٰ لقب أَشْعَرِيّ ومَاتُرِيْدِيّ من غير الكتب.

وأما الخلاف في الفُرُوْع فألقاب المَذَاهِب فيه محفوظة، ولا يعرف الجماهير من المَذَاهِب التي ينتسبون إليها إلَّا قليلاً من المَسَائِل التي يخالفون فيها غيرهم كقنوت الشَّافِعِيَّة في الصبح، وسدل المَالِكِيَّة أيديهم في الصلاة. وقد بقي لكل مَذْهَب في الأُصُوْل والفُرُوْع طائفة من المُنْقَطِعين إلىٰ تعلمها وتَعْلِيْمها، يتعصبون لها، لأنها مورد معيشتهم ومصدر جاههم، فهم الآن دعاة التفريق. ولٰكِن حوادث الزَّمَان ستمحق هٰؤُلَاءِ بإظهار دواعي الأُلفة والوحدة ومضرات التفرق، فيكون المُؤْمِنُوْن إخوة متحابين، لا يمنعهم من ذٰلِكَ الاختلاف في بعض المَسَائِل الدِّيْنِيَّة، بل يكون كالخلاف في المَسَائِل العِلْمِيَّة والعادية.

وأما التفرق باختلاف اللُّغَة والوطن والجنس فله في العَصْر دعاة من المتفرنجين هم أشد آفة وفتنة من دعاة التفرق بالمَذَاهِب، لأنهم يتغلبون علىٰ المناصب وأَعْمَال الحكومة ومصالحها بميل الحكومات إلىٰ تقليد الإفرنج في كل شيء، حتىٰ صار في مسلمي مِصْر من يفتخر بالفراعنة، وإن كان فيهم من لعنه الله، وكلهم في الوثنية واسْتِعْبَاد البشر سواء، ومن الفرس من يفتخر بسلفه من المَجُوْس... .

فيجب علىٰ عُلَمَاء الإسْلَام الأَعْلَام أن يتحدوا ويتعاونوا في جميع البلاد الإسْلَامِيَّة، لكبح شر هٰؤُلَاءِ وتَحْقِيْق الوحدة الإسْلَامِيَّة التي جعلت المُسْلِمِيْن كلهم إخوة[1].

---

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٣ ص٩٥٢-٩٥٤ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج١٣ سنة ١٩١٠م، ص٨٩٧-٩٠٦.

وانظر من كلامه علىٰ وجوب تعاون المُسْلِمِيْن علىٰ دول الاستعمار، وأنا لا نخاف من

ورأىٰ السَّيِّد رَشِيْد أن الوحدة الإسْلَامِيَّة الدِّيْنِيَّة الأدبية التي ينشدها المصلحون تتوقف علىٰ تعميم لُغَة الإسْلَام بين جميع الشعوب الإسْلَامِيَّة، إذ لا تآلف بغير تعارف، ولا تعارف بغير تفاهم، ولا يسهل التفاهم بين المُسْلِمِيْن إلَّا بلُغَة دينهم المشتركة، وهي اللُّغَة العَرَبِيَّة، التي لم تعد خاصة بالعنصر العَرَبِيّ بالنسب، كما أن الإسْلَام ليس خاصاً به، وعلىٰ تعارف عُلَمَاء المُسْلِمِيْن وتعاونهم يكون بالجمعيات العِلْمِيَّة الأدبية والجرائد علىٰ تَوْحِيْد طريقة التَّعْلِيْم الدِّيْنِيّ والاجتماعي، وقد أنشؤوا يشعرون بهٰذِهِ الحاجة لحياتهم(١).

ورأىٰ أن الوحدة الدِّيْنِيَّة التي توجهت إليها نفوس عقلاء المُسْلِمِيْن من جميع المَذَاهِب في جميع الأقطار لا يرجىٰ حصولها في وقت قريب إلَّا إذا أيد الإصْلَاحَ الدِّيْنِيَّ دولةٌ أو إمارة إسْلَامِيَّة.

علىٰ أن الأُمَّة لا بد أن تنبذ كل خلاف، وتصير إلىٰ الوحدة، ولو بعد جيل أو أجيال(٢).

ترجمة القُرْآن الكَرِيْم ووحدة الأُمَّة:

لذٰلِكَ رأىٰ أن ترجمة القُرْآن الكَرِيْم إلىٰ أي لُغَة من لُغَات العالم حرام، فيجب أن يبقىٰ لهم إمَاماً بلغته العَرَبِيَّة، كما أنزله الله تعالىٰ، وذٰلِكَ:

عدونا كما نخاف من عداوتنا بيننا نحن المُسْلِمِيْن، في: فَتَاوَىٰ الإمَام مُحمَّد رَشِيْد رِضَا ج٥ ص١٨٨٠ نَقْلاً عن مَجَلَّة المَنَار ج٢٧ سنة ١٩٢٦م، ص٥٠٤.

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحمَّد رَشِيْد رِضَا ج٣ ص٩٥٤-٩٥٥.

وانظر عن اهتمامه بنشر اللُّغَة العَرَبِيَّة لُغَة القُرْآن والدِّيْن، في: فَتَاوَىٰ الإمَام مُحمَّد رَشِيْد رِضَا ج٣ ص٨٤٦ نَقْلاً عن مَجَلَّة المَنَار ج١٢ سنة ١٩٠٩م، ص٩٠٤-٩٠٩.

(٢) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحمَّد رَشِيْد رِضَا ج٤ ص١٢٧٩-١٢٨٠ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج١٧ سنة ١٩١٤م، ص٥٠١-٥٠٣.

لأن الترجمة الحرفية متعذرة، فترجمة المترجم هي فهمه للنَّصّ من كلام المُفَسِّرِيْن، وقد يخطئ أو يصيب.

ولأن القُرْآن الكَرِيْم يَنْبُوع الهِدَايَة، تتجدد هدايته، فتفيض للقارئ علىٰ حسب استعداده وحكمته، فربما ظهر للمتأخر من حكمه وأَسْرَاره ما لم يظهر لمن قبله، تَصْدِيْقاً لعموم حَدِيْث: (فرب مبلغ أوعىٰ من سامع).

ولأن في القُرْآن الكَرِيْم من الألفاظ المشتركة قد لا تكون في اللُّغَة التي ينقل إليها.

ثم إن لنظم القُرْآن الكَرِيْم وأُسْلُوْبه تَأْثِيْراً خاصاً علىٰ السامع لا يمكن نقله بالترجمة... وغير ذٰلِكَ من الوجوه التي رآها مَانِعَة من نقله إلىٰ لُغَة أُخْرَىٰ.

أما فهمه فسهل، ويكون ذٰلِكَ بترجمة تَفْسِيْره لهم بلغتهم، مع بقائه إمَاماً لهم، حِفَاظاً علىٰ الوحدة الإسْلَامِيَّة.

وقال: إن من زلزال المُسْلِمِيْن في دينهم أن يتفرقوا إلىٰ أُمَم، تكون رَابِطَة كل أُمَّة منها جنسية نَسبية أو لُغَوِيَّة أو قَانُوْنِيَّة، ويهجروا القُرْآن الكَرِيْم المنزل... هٰذَا الزلزال أثر من آثار جِهَاد أوربا السياسي والمَدَنِيّ للمُسْلِمِيْن، زَيَّنَ لنا أن نتفرق، وننقسم إلىٰ أجناس، ظاناً كل جنس منا أن في ذٰلِكَ حياته، وما ذٰلِكَ إلَّا موت للجميع... .

فالواجب علىٰ دعاة الإصْلَاح في الإسْلَام الآن أن يجتهدوا في إعادة الوحدة الإسْلَامِيَّة إلىٰ ما كانت عليه في الصدر الأول خير قرون الإسْلَام، ويجعلوا تعلم العَرَبِيَّة إجْبَارياً في جميع مدارس المُسْلِمِيْن[1].

---

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٢ ص٦٤٣-٦٥٠ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج١١ سنة ١٩٠٨م، ص٢٦٨-٢٧٤.

وانظر كلاماً مُفَصّلاً عن ترجمة القُرْآن في: تَفْسِيْر المَنَار ج٩ ص٢٦٨ وما بعدها، في تَفْسِيْر الآية ١٥٨ من سورة الأعراف.

نبذ التفرقة والتعصب:

ونرىٰ السَّيِّد رَشِيْد رِضَا ينبذ كل ما يدعو إلىٰ التفرقة.

فحين سأله عَبْد الحُسَيْن نور الدِّيْن من عُلَمَاء الشِّيْعَة في جبل عامل عن عدالة الصَّحَابَة. أجاب: بأن أكثر أَهْل السُّنَّة علىٰ أن الصَّحَابَة كلهم عدول في الرِّوَايَة. قال: والذي أراد أن القول بعدالة جميع الصَّحَابَة علىٰ اصْطِلَاح من لا يشترط في الصحة طول العشرة وتلقي العلم والتربية النَّبَوِيَّة إفراطٌ، يقابله في الطرف المقابل له تفريط الشِّيْعَة في تعديل نفر قليل منهم ولا سِيَّمَا السَّائِل.

وطَعْنُهُ علىٰ السواد الأعظم من جَمَاعَة نزل فيهم قوله تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ - آل عِمْرَان: ١١٠، وقوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ - التوبة: ١٠٠، وغير ذٰلِكَ من الآيات.

وورد من الأَحَادِيْث النَّبَوِيَّة في تعديلهم، والثناء عليهم، والنهي عن سبهم، وحظر بغضهم ما لا محل لذكر شيء منه في هٰذَا الجواب الوَجِيْز.

ثم كان من سيرتهم المتواترة في نشر الإِسْلَام في العالم، وإِصْلَاح البشر به، ما هو أكبر حُجَّة عِلْمِيَّة تَارِيْخِيَّة علىٰ تفضيل أصحاب مُحَمَّد ﷺ علىٰ جميع أصحاب الأنبياء والمُرْسَلين، وتفضيل أُمَّتِهِ علىٰ جميع الأُمَم.

وهٰـذَا لا يمنع ارتكاب أفراد منهم لبعض الكبائر، أو الإصرار علىٰ بعض الصغائر...، وهٰذَا لا يبيح هتك حرمة أُوْلَئِكَ الأخيار في جملتهم... .

وقال: والظَّاهِر أن السَّائِل يريد فتح باب هٰذِهِ الفتنة بهٰذِهِ الأسئلة الآن...، فأُقسم عليك يا عَبْد الحُسَيْن بالله عَزَّ وجَلَّ وبحق رَسُوْله الأعظم ﷺ وآله (ع م) عليك من الاتباع والأُسوة الحَسَنَة أن تكف عن إثارة الشقاق بين عِبَاد الله من هٰذِهِ الأُمَّة، فكفاها

ما هي مبتلاة به من مهاجة المستعمرين والملحدين لها في دينها ودنياها[١].

ودعا إلىٰ الوفاق بين السُّنَّة والشِّيْعَة، فقال:

وأما رأيي في الاتفاق فهو قاعدة المَنَار الذَّهَبِيَّة التي بَيَّنَّاهَا مراراً، وهي **أن نتعاون علىٰ ما نتفق عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما نختلف فيه.**

فأَهْل السُّنَّة متفقون مع الشِّيْعَة علىٰ أركان الإسْلام الخمسة، وعلىٰ تحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وعلىٰ محبة آل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وتَعْظِيْمهم، وعلىٰ جميع المصالح الوطنية من سياسية واقْتِصَادِيَّة، وفي البلاد العَرَبِيَّة علىٰ إعْلَاء شأن الأُمَّة العَرَبِيَّة ولغتها...، واستغلال بلادها وعِمْرَانها. فيجب أن يتعاونوا علىٰ ذٰلِكَ كله.

وهم يختلفون في مَسْأَلَة الإمَامَة، وقد مضىٰ وانقضىٰ الزمن الذي كان فيه هٰذَا الخلاف عَمَلِيّاً.

وفي المفاضلة بين الخُلَفَاء الراشدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وفي عصمة الأَئِمَّة الاثْنَي عَشَر، مع مَسَائِل أُخْرَىٰ تتعلق بصفات الله تعالىٰ، وفيما دون ذٰلِكَ من الفُرُوْع العَمَلِيَّة، فلكل من الفريقين أن يعتقد ما يطمئن إليه، ويعمل بما يقوم عنده الدليل علىٰ تَرْجِيْحه، أو يقلد فيه من يثق به من العُلَمَاء... .

فيجب علىٰ مُحِبِّي الاتفاق أن يقنعوهم بِقَاعدتنا، ويؤلفوا جمعية أو حزباً من الطائفتين، للعَمَل بمقتضاها، بالرغم من زعم مَجَلَّة المشرق اليسوعية أن الاتفاق متعذر...[٢].

---

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٦ ص٢٥١٨-٢٥١٩ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٣٤ سنة ١٩٣٤م، ص١١٧-١١٨.

(٢) السُّنَّة والشِّيْعَة ج٢ ص١١٧-١١٨.

وانظر كلامه علىٰ وجوب السعي لجمع كلمة المُسْلِمِيْن، والتأليف بين فرقهم، والاستعانة علىٰ ذٰلِكَ بالسِّيَاسَة، وهي من قَوَاعِد الإصْلَاح التي وضعها السَّيِّد جمال الدِّيْن الأَفْغَانِيّ في: السُّنَّة والشِّيْعَة ج١ ص١٤.

وحين سُئِلَ عن مَذَاهِب الشِّيْعَة والزَّيْدِيَّة والوَهَّابِيَّة والجَبْرِيَّة، أجاب:

بأن هٰؤُلَاءِ مُسْلِمُوْن، وأصل الدِّيْن عندهم كتاب الله تعالىٰ، ويقرون بوَحْدَانِيَّة الله تعالىٰ، وبرِسَالَة خاتم النَّبِيِّيْن، وكون ما جاء به حقاً، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويصومون رَمَضَان، ويحجون البيت الحرام، ولٰكِنهم يختلفون في تَأْوِيْل بعض الآيات...، وفي رِوَايَة الحَدِيْث، وسِيْرَة السَّلَف، اختلافاً قريباً أو بعيداً من الحق...، ولم يسلم المُسْلِمُوْن مما جرىٰ لمن قبلهم من الأُمَم، باختلاف التَّأْوِيْل والروايات الأُحادية وأَهْوَاء الرؤساء والتعصب للمُرْشِدِيْن.

ونرجو أن يعودوا بتربية الزَّمَان إلىٰ الوفاق بالعود إلىٰ الأصل المُجْمَع عليه، وهو الكِتَاب والسُّنَّة العَمَلِيَّة المُتَّفَق عليها[١].

وفي معرض كلامه علىٰ أثر (اختلاف أُمَّتِي رحمة)، قال: استكبر بعضُ العُلَمَاء أن يجعل الاختلاف في الدِّيْن أو في الإمارة والسُّلْطَان رحمة، وقد ثبت بالشَّرْع والعقل والتَّجْرِبَة أنه نقمة لا تَزِيْد عليها نقمة، ولذٰلِكَ قالوا: إن المُرَاد بالحَدِيْث، أي: علىٰ فرض صحته، الاختلاف في الحرف والصناعات.

قال: ولهم أن يستكبروا ذٰلِكَ، فإن القُرْآن ما شدد في شيء كما شدد في الشرك وفي الاختلاف والتفرق، والآيات في ذٰلِكَ كثيرة.

كان أهون الاختلاف اختلاف الصَّحَابَة وغيرهم من السَّلَف في فهم الأَحْكَام مع عذر كل منهم لمخالفه، بحيث لم يكونوا شيعاً تتفرق في الدِّيْن... فإن مثل هٰذَا الاختلاف طبيعي في البشر لا يمكن اتقاؤه... ولٰكِن لما جاء دور التقليد والتعصب للمَذَاهِب حلت النقمة، وتفرقت الكلمة، وذهبت الريح والشَّوْكَة، إلىٰ أن وصلنا إلىٰ هٰذِهِ الدرجة من الضعف، ذهب ملكنا، وصارت المَمْلَكَة الكَبِيْرَة من مَمَالكنا تقع في قبضة الأجانب،

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج١ ص١١١-١١٢ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٧ سنة ١٩٠٤م، ص١٨٢.

فلا يبالي بهم سائر المُسْلِمِيْن، فأين الوحدة والأُخوة والتواد والتراحم وتمثيل مجموعهم بالجسد الوَاحِد؟ كل ذٰلِكَ قد زال، وكان مبدأ زواله ذٰلِكَ الاختلاف[١].

الاجْتِهَاد:

ورأىٰ السَّيِّد رَشِيْد أن القُرْآن الكَرِيْم أوجب الاجْتِهَاد، والاستقلال في فهم الدِّيْن، والاستدلال الذي ينتج اليقين في كل زمن وكل عَصْر، وأن الحاجة إلىٰ هٰذِهِ الهِدَايَة في هٰذَا العَصْر أشد، لانتشار التَّعْلِيْم الاستقلالي وحرية الفكر فيه[٢].

والمحققون يعلمون أن منشأ غلق باب الاجْتِهَاد هو السِّيَاسَة، فالسَّلَاطِيْن والأُمَرَاء المستبدون لا يخافون إلَّا من العلم، ولا علم إلَّا بالاجْتِهَاد. فقد نقل الحافظ ابن عَبْد البَرّ وغيره الإجماع علىٰ أن المقلد ليس بعالم، ونقله عنه ابن القَيِّم في إعْلَام المُوَقِّعِيْن.

زعموا أنه أُقْفِلَ بعد القرن الخامس، ولٰكِن كَثِيْراً من العُلَمَاء اجتهدوا بعد ذٰلِكَ...، ولا نعرف في ترك الاجْتِهَاد منفعة ما، وأما مضاره فكثيرة، وكلها ترجع إلىٰ إهمال العقل، وقطع طريق العلم، والحرمان من استقلال الفكر، وقد أهمل المُسْلِمُوْن كل علم بترك الاجْتِهَاد فصاروا إلىٰ ما نرىٰ[٣].

---

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٣ ص١٠٢٠-١٠٢١ نَقْلًا عن مَجلَّة المَنَار ج١٤ سنة ١٩١١م، ص٣٤٣-٣٤٤.

وانظر كلامه عن الشقاق وترك العداوات الجنسية في: فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٣ ص٨٤٦ نَقْلاً عن مَجلَّة المَنَار ج١٢ سنة ١٩٠٩م، ص٩٠٤.

(٢) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٥ ص١٧٦٦ نَقْلًا عن مَجلَّة المَنَار ج٢٥ سنة ١٩٢٤م، ص١٩١-١٩٢.

(٣) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج١ ص١٦٦-١٦٧ نَقْلًا عن مَجلَّة المَنَار ج٧ سنة ١٩٠٤م، ص٣٧١-٣٨٠.

التلفيق:

رأىٰ السَّيِّد رَشِيْد أن جمع الأقوال الملفقة من المَذَاهِب المُخْتَلِفَة للعَمَل بها تقليداً لأهلها عبث بالدِّيْن واتباع للهوىٰ. ولٰكِن الذي يتبع قوة الدليل إذا وافق استدلاله بعض الأَئِمَّة في بعض الأقوال، ومن يخالفه منهم في قول آخر، ولو في موضوع وَاحِد، لا يعد ملفقاً ولا مقلداً(١).

قال: إن من وجد نصاً من الكتاب أو السُّنَّة، يرجح قول بعض العُلَمَاء المختلفين علىٰ بعض، وجب عليه اتباعه حتماً، ولا يجوز له تركه إلىٰ اجْتِهَاد أَحَد، وإلَّا أخذ بقول من ترجح عنده دليله إذا اطلع علىٰ تعارض أدلتهم.

ومن لم يكن أهلاً لذٰلِكَ، يستفتي فيما يعرض له ويشكل عليه، من يثق بعمله ودينه، سواء كان قد تلقىٰ الفِقْه علىٰ مَذْهَب زَيْد من الأَئِمَّة أو مَذْهَب عَمْرو.

فجميع الأَئِمَّة المشهورين كالأَئِمَّة الأربعة، ودَاوُد الظَّاهِرِيّ، وأبي ثَوْر، وسُفْيَان الثَّوْرِيّ، وإبْرَاهِيْم النَّخَعِيّ، وابن أبي لَيْلَىٰ، والأَصَمّ، والأَوْزَاعِيّ، وإسْحَاق بن رَاهَوَيْه، وحَمَّاد بن أبي سُلَيْمَان، وابن المُبَارَك، واللَّيْث، والحسن بن صالح، والزُّهْرِيّ، وزُفَر، والطَّبَرِيّ، وأَئِمَّة البيت النَّبَوِيّ، والصَّحَابَة، والتَّابِعِيْن... علىٰ هُدَى من ربهم في تحري الحق باجْتِهَادهم، ولا يضره اختلاف مَذَاهِب المفتين والمُفِيْدين. وإن أدىٰ في بعض المَسَائِل إلىٰ التلفيق الذي اختلف المقلدون في جوازه، فإن التلفيق بهٰذِهِ الصفة كان شائعاً في عامة السَّلَف، إذ لم يكن أَحَدٌ من عوامهم يلتزم العَمَل باجْتِهَاد فقيه معين ولا بروايته.

علىٰ أن للتلفيق صورة لا يفتي بها عالم، وهي التي أطلق بعضهم منع جواز التلفيق

---

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٥ ص٢١٤١ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٣٠ سنة ١٩٢٩م، ص١٨٤-١٨٩.

لأجلها، لأنها ضرب من التلاعب بالدِّيْن اتباعاً للهوىٰ، أو تتبعاً للرخص، وهي أن يأتي المقلد بعملٍ لا دليل عليه من كتاب ولا سُنَّة ولا إجماع ولا قياس صَحِيْح، ولم يقل به أَحَد من الأَئِمَّة المجتهدين، بل رَكَّبَهُ هٰذَا المتلاعب من عدة أقوال اجْتِهَادِيَّة...، وقد مثل له بعضهم بمن يتزوج بامرأة بالتعاقد معها بغير ولي اتباعاً لأبي حَنِيْفَة، وغير شهود تقليداً لمَالِك، مع عدم إشهار الزواج وإعْلَانه الذي يستغني به مَالِك عن الشهود[1].

تتبع الرخص:

أوضح السَّيِّد أن الأصل في أَحْكَام الدِّيْن العزائم، وقد شرع الله الرخص كما شرع العزائم، وهو يجب أن تؤتىٰ رخصه كما يجب أن تؤتىٰ عزائمه.

وبعض الرخص مقيد بأحوال محدودة لا يتعداها كالمجاعة المبيحة لمحرمات الطعام والسفر والمرض المبيحين لترك الصيام والتَّيَمُّم. وبعضها مقيد بأحوال غير محدودة، بل تحتاج إلىٰ اجْتِهَاد المكلف كالجمع بين الصلاتين علىٰ التَّحْقِيْق فيه، كما بينه شَيْخ الإِسْلَام في رِسَالَة القصر والجمع، فقد فعله رَسُوْل الله ﷺ في المَدِيْنَة، كما رواه الشَّافِعِيّ ومُسْلِم وغيرهما من حَدِيْث ابن عَبَّاس، وعلله بقوله: لئلا يحرج أُمَّتَهُ.

فلا يجوز لمُسْلِم أن يلتزمها دائماً، فيجعل أوقات الصلوات الخمس المَعْلُوْمَة من الدِّيْن بالضرورة ثلاثاً. ولا يحظر عليه أن يحرج نفسه إذا تعسر عليه أداء الظهر أو المَغْرِب في وقتها لشغل ضروري عارض، فيمتنع من تَأْخِيْرها إلىٰ ما بعدها، ليجمعها معها. ومن كان مقلداً لمَذْهَب يتأول فِقْهاؤه حَدِيْث الجمع في الإقامة فَلْيَقْبَل هٰذِهِ

(١) فَتَاوَىٰ الإِمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٤ ص١٥٣٥-١٥٣٦ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٢٣ سنة ١٩٢٢م، ص٩٩-١٠١.

وانظر عن التلفيق في: فَتَاوَىٰ الإِمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٦ ص٢٥٧٣ عن مَجَلَّة المَنَار ج٣٤ سنة ١٩٣٥م، ص٧٥٩.

المَسْأَلَة بِعَدِّهَا من باب المثال.

هٰذَا ما يقال في رخص الشَّرْع الثَّابِتَة بِالنُّصُوْص.

وأما رخص المَذَاهِب الاجْتِهَادِيَّة، فتتبعها وتقليد أصحابها فيها تلاعب بالدِّيْن، لا يفعله إلَّا جاهل متهاون.

وإذا كان التقليد المحض بدون بينة ولا بَصِيْرَة باطلاً في عزائم الشَّرِيْعَة، فكيف يكون صَحِيْحاً في العبث والتلاعب؟(١).

الفِقْه الإسْلَامِيّ وتلبية مصالح الناس:

لما كان السَّيِّد رَشِيْد مدافعاً عن الشَّرِيْعَة في كل حين، وهو الفَقِيْه العَلَم، رأىٰ أن يربي الناس علىٰ حب الشَّرِيْعَة، فيتعلمون أَحْكَام دينهم كما مر سَابِقاً.

ولما كان المُسْلِمُوْن في حياتهم اليومية يسألون عن الأَحْكَام الشَّرْعِيَّة في العِبَادَات والمعاملات من فُرُوْع الشَّرِيْعَة، مما كان أو ابتدع، أوجد فيها من المَسَائِل من مختلف أنحاء العالم الإسْلَامِيّ، وخاصة بعد دخول الحَضَارَة الغربية إلىٰ الشرق، فتح في مَجَلَّة المَنَار باب الفَتَاوَىٰ، ابتداءً من العدد ١٧ الصادر في ٢٠ تشرين الثاني من المجلد السادس لسنة ١٩٠٣م، وبقي هٰذَا الباب مفْتُوْحاً إلىٰ آخر عدد صدر من المَجَلَّة(٢)، معتمداً علىٰ القُرْآن الكَرِيْم، والسُّنَّة النَّبَوِيَّة أولاً، ثم الوقوف علىٰ أَدِلَّة أَئِمَّة المَذَاهِب وتَرْجِيْح ما يراه راجحاً، وانطلاقاً من باب الاجْتِهَاد الذي عده أَسَاس التقدم والحَضَارَة والسيادة.

وكان البعض من العُلَمَاء يفتي الناس بدافع الحرص علىٰ الدِّيْن أو غيره بتحريم

---

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٥ ص١٩٥٩-١٩٦٠ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٢٨ سنة ١٩٢٧م، ص٤٣١-٤٣٢.

(٢) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج١ ص٢٣-٢٤. وقد جمع هٰذِهِ الفَتَاوَىٰ في ستة مجلدات الدكتور صَلَاح الدِّيْن المُنَجِّد ويُوْسُف ق. خوري.

أُمُور وفدت إلىٰ البلاد الإِسْلَامِيَّة مما جاءت بها الحَضَارَة الغربية.

لٰكِن السَّيِّد رَشِيْد كان يرىٰ الإقدام علىٰ التحريم ليس بالأمر السهل، لأنه تَشْرِيْع جديد، بخلاف القول بالحل، لأن الأصل في الأشياء الإباحة، والنيات في القلوب[١].

فلا بد من عرض تلك الأُمُور علىٰ الكِتَاب والسُّنَّة والنَّظَر في آراء الفُقَهَاء وأدلتهم وقَوَاعِد الشَّرِيْعَة العامة، للوقوف علىٰ الحكم الشَّرْعِيّ للمَسْأَلَة.

فنراه يعالج هٰذِهِ المَسَائِل المستحدثة وغيرها، مدعماً قوله بالدليل، علىٰ صفحات المَنَار، مثل:

اسْتِعْمَال القُرْآن في الفونوغراف:

حين اختلف المفتون بين الحل والتحريم في حكم اسْتِعْمَال القُرْآن في الفونوغراف الذي انتشر في ذٰلِكَ الوقت، وهل يُعَدُّ قُرْآناً؟

أجاب: بأن اسْتِعْمَال هٰذِهِ الآلة في التلاوة لا يُحَرَّم إلَّا إذا كان فيه إخلال بالأدب الواجب في الاسْتِعْمَال والسَّمَاع، والعهدة في ذٰلِكَ النية والعرف. وقد يكون مستحباً إذا كان فيه عظة أو ضبط للقِرَاءَة، وربما كان واجباً، كأن يتوقف عليه ضبط وحفظ ما تجب تلاوته في الصلاة كالفاتحة[٢].

---

(١) فَتَاوَىٰ الإِمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٣ ص٩٥٦ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج١٣ سنة ١٩١٠م، ص٩٠٦-٩٠٨.

(٢) فَتَاوَىٰ الإِمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٣ ص٩٥٦.

وانظر أَيْضاً ذٰلِكَ في: فَتَاوَىٰ الإِمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٢ ص٦٠٩ نَقْلاً عن مَجَلَّة المَنَار ج١٠ سنة ١٩٠٧م، ص٤٣٩.

وفَتَاوَىٰ الإِمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٥ ص١٩١٦ نَقْلاً عن مَجَلَّة المَنَار ج٢٨ سنة

ويترتب علىٰ ما ذكر كل ما يتعلق به من وجوب احترام الألواح، التي تُنقش فيها آيات القُرْآن وسجود التلاوة وغير ذٰلِكَ.

ثم قال: هٰذَا وإنني لا تطيب نفسي لاسْتِعْمَال الفونوغراف في تلاوة القُرْآن، ولٰكِن تحريمه علىٰ من يمكن أن يتعظ به ويستفيد ليس بالأمر السهل[١].

استقبال المصلي القِبْلَة في المراكب والقطارات الحديدية:

رأىٰ السَّيِّد رَشِيْد رِضَا أن استقبال القِبْلَة في الصلاة فرض، وشرط لصحتها، يسقط بتعذره، (والميسور لا يسقط بالمعسور). فعلىٰ المسافر في البر أو البَحْر أن يتحرىٰ القِبْلَة ويستقبلها إذا أمكن، وهٰذَا متيسر في سفن البَحْر الكَبِيْرَة المعدة للسفر في هٰذَا العَصْر، وقلما تتحول السفينة تحولاً سَرِيْعاً ينحرف به المصلي عن القِبْلَة...، فإذا فرضنا أنها تحولت وعلم بتحولها، يتحول هو إلىٰ القِبْلَة أَيْضاً.

وأما القطارات الحديدية فلا يتيسر فيها استقبال القِبْلَة كما يتيسر في البواخر والسفن الشراعية الكَبِيْرَة. فالأَوْلَىٰ للمسافر فيها أن ينتظر وقوفها، ويصلي صلاته تامةً، ولو بالجمع بين الصلاتين. فإن خاف أن تفوته صلاة تحرىٰ القِبْلَة، وصلىٰ كيفما تيسر له، كما يصلي في السفينة الصَّغِيْرَة قائماً أو قاعداً مستقبلاً يتحول بتحولها، ويستدير باستدارتها إذا أمكن، وإلَّا بقي علىٰ حاله[٢].

١٩٢٧م، ص١٢٠.

وفَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٦ ص٢٤٥٨ نَقْلاً عن مَجَلَّة المَنَار ج٣٣ سنة ١٩٣٣م، ص٤٣٠-٤٣١.

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٥ ص١٩١٦.

(٢) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٣ ص١١٨٢ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج١٦ سنة ١٩١٣م، ص٣٤١.

رخص المسافر في سكك الحديد:

وأفتىٰ السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا بأن للمسافر في السكك الحديدية من الرخص، كقَصْر الصلاة والتَّيَمُّم والفطر في السفر، ما للمسافر في غيرها، بحُجَّة أن الشارع لم يشترط في السفر الذي تباح فيه الرخص ما يخرج المسافر في هٰذِهِ السكك منه(١).

والعِبْرَة عند العُلَمَاء بسير الأثقال المعتدلة، فمن قطع المسافة المقدرة بأقل من الزمن الذي تقطع فيه بسير الأثقال، كان له أن يترخص بلا خلاف. فلا فرق إذن بين قطعها في السكة الحديدية بقوة البخار وقطعها علىٰ فَرَسٍ سابق(٢).

التصوير:

حين حرم البعض التصوير ذهب السَّيِّد رَشِيْد إلىٰ إباحته، ورأىٰ أنه لا فرق بين تصوير اليد والتصوير الشمسي في الحكم، لا في اتخاذ الصور ولا في صنعتها، لأن عِلَّة ما ورد في ذٰلِكَ من الأَحَادِيْث أمر ديني محض يتعلق بصيانة العَقِيْدَة من لوازم الشرك وشعائره، إذ لم يكن يُعْهَد في صدر الإِسْلَام وقبله اتخاذ العَرَب للصور والتماثيل إلَّا للعِبَادَة، كالذي كان من ذٰلِكَ علىٰ الكَعْبَة الشَّرِيْفَة، فأزاله النَّبِيّ ﷺ يوم الفَتْح.

فعليه يحرم ما كان فيه قصد التَّعْظِيْم الدِّيْنِيّ، وما كان شعاراً دينياً للكفار إذا قُصِدَ التشبه بهم، أو كان بحيث يظن أنه منهم، أو يذكر بعِبَادتهم وشعائرهم.

ويَدُلّ عليه: أمر النَّبِيّ ﷺ عَائِشَة بهتك الستار الذي كان فيه الصور، لأن المُشْرِكِيْن كانوا يعلقون الصور وينصبونها بتلك الهيئة، فلما جُعلت منه وسادة استعملها النَّبِيّ ﷺ،

(١) فَتَاوىٰ الإِمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٢ ص٥٣٥ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٩ سنة ١٩٠٦م، ص٥٤٤.

(٢) فَتَاوىٰ الإِمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج١ ص١٨٠-١٨١ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٧ سنة ١٩٠٤م، ص٤١٦-٤١٧.

ولم يبالِ بالصور التي فيها، لأنها غير ممنوعة لذاتها، ولا لأنها محاكاة لخلق الله تعالىٰ.

ومن يقول إن عِلَّة تحريم التصوير واتخاذ الصور هو محاكاة خلق الله تعالىٰ يلزمه تحريم تصوير الشجر، ولم يحرموه. ولو صح هٰذَا التَّعْلِيْل لكان التصوير الشمسي غير محرم مطلقاً، لأن صاحب الآلة يظهر للناس شَيْئاً من النظام والسُّنَن في خلق الله، وهو لا يحاكي بعمله ما أخذ بصورته.

فمثله كمثل مدير الآلة التي تحكي أصوات الناس (الفونوغراف)، كل منهما يمثل أو يحكي نوعاً من أنواع المخلوقات. ولٰكِن الآلة التي تمثل الصور والهيئات أنفع من التي تحكي الأصوات، فإن للتصوير الشمسي وكذا غير الشمسي مَنَافِع في هٰذَا الزَّمَان كثيرة في العُلُوْم كالطب والتشريح والتَّارِيْخ الطبيعي وفي الصناعات وفي السِّيَاسَة والإدارة والحَرْب وفي اللُّغَة، فإن كَثِيْراً من أَسْمَاء النبات والحيوان لا تُعرف مسمياتها في اللُّغَة العَرَبِيَّة لعدم تصويرها...، فالتصوير رُكْن من أركان الحَضَارَة تَرْتَقِي به العُلُوْم والفُنُوْن والصناعات والسِّيَاسَة...»(١).

الكحول والعطور:

ذهب السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا إلىٰ أن السبيرتو (الكحول) ليس بخمر، وإن كان يوجد فيها وفي غيرها، مما أجمع المُسْلِمُوْن علىٰ حله وطهارته كالعجين المختمر، وهو الآن لا يُستخرج من الخمر لرخصه وغلائها.

---

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٣ ص١١٤٢-١١٤٣ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج١٥ سنة ١٩١٢م، ص٩٠٣-٩٠٦.

وللسَّيِّد رَشِيْد بحث ممتع طَوِيْل استعرض فيه الأَحَادِيْث الكثيرة وأقوال الفُقَهَاء، وناقشها ليخرج بالنتيجة المتقدمة، في: فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٤ ص١٣٩٣-١٤١٨ نَقْلاً عن مَجَلَّة المَنَار ج٢٠ سنة ١٩١٧م، ص٢٢٠-٢٣٥ وص٢٧٠-٢٧٦.

وأن الخمر غير نجسة نجاسة حسية علىٰ التَّحْقِيْق... .

وعليه، فإن طلاء الخشب وسائر ما يعالج، أو يحضر بالسبيرتو من الأدوية والأعطار والأدهان والأطلية (البوية) طاهر، ولو لم تعم به البلوىٰ، فكيف وقد ثبت عمومها في جميع بلاد الحَضَارَة؟[١].

البيرا:

رأىٰ السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا أن البيرا، وهي الشراب المأخوذ من ماء الشَّعِيْر، لا شك في كونها من المسكرات.

وإذا قيل أن القليل منها لا يسكر، لا سِيَّمَا بعد الاعتياد، فالصَّحِيْح المُخْتَار عند جماهير المُسْلِمِيْن أن ما أسكر كثيره فقليله حرام، وهي ليست من الأدوية، ولٰكِنها تفيد في تحليل البول، وفي الحلال ما يغني عنها في ذٰلِكَ كالبقدونس[٢].

التَّلْقِيْح للجُدَرِيّ والطاعون والهَيْضَة:

رأىٰ السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا أن ذٰلِكَ من ضروب الوقاية الثَّابِتَة بالتَّجْرِبَة

---

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٥ ص١٧٤٨ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٢٤ سنة ١٩٢٣م، ص٧٣٨-٧٥٢.

وقد أفاض السَّيِّد رَشِيْد الكلام في هٰذَا الموضوع عرضاً ومناقشةً واستدلالاً، في: فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٤ ص١٦٠٩-١٦٣٤ نَقْلاً عن مَجَلَّة المَنَار ج٢٣ سنة ١٩٢٢م، ص٦٥٧-٦٧٩.

(٢) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٢ ص٥٦٠ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج١٠ سنة ١٩٠٧م، ص٤٦-٤٧.

وانظر: فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٤ ص١٦٠٣ نَقْلاً عن مَجَلَّة المَنَار ج١٣ سنة ١٩٢٢م، ص٥٨٨.

الصَّحِيْحَة المتواترة، وتَوَقِّي المضار واجب شرعاً بالإجماع، فما تَعَيَّنَ سبباً للوقاية وَجَبَ الأخذ به عن ظن التعرّض للضرر، وما جاز أن يكون سبباً تجوز تجربته إذا لم يكن في التَّجْرِبَة محظور آخر كضرر محقق أو مظنون، إذ لا يجوز ارتكاب الضرر لتوهّم المنفعة.

وهٰذِهِ المَسَائِل ترجع إلىٰ قاعدة وجوب دفع المضار وجلب المَنَافِع، وقاعدة تعارض المَعْلُوْم والموهوم، وقاعدة ارتكاب أخف الضررين.

وعُلَمَاء هٰذِهِ الديار متفقون علىٰ جواز التَّلْقِيْح لأجل الوقاية من الجُدَرِيّ، وحتىٰ أنه لا يُقْبَلُ في الجَامِع الأَزْهَر تلميذ إلَّا إذا لُقِّحَ بلقاح الجُدَرِيّ(١).

شرب الدخان:

حين قال البعض بتحريم التدخين، رأىٰ السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا أنه لم يقم دليل علىٰ تحريم التدخين تحريماً عاماً، إلَّا إذا ثبت أنه ضار ضرراً شديداً بكل من يستعمله، وهٰذَا لم يثبت.

ولٰكِن الأطباء متفقون علىٰ أن فيه مادة سامة، يسمونها (نيكوتين)، وأن اسْتِعْمَاله يضر بعض الناس وينفع بعضاً في الجُمْلَة، وأن أكثر الذين يتعوّدونه بالتدريج لا يضرهم ضرراً ظَاهِراً.

وعلىٰ هٰذَا، يختلف حكمه باختلاف مستعمله، فمن ثبت عنده أنه يضره بالتَّجْرِبَة أو بقوله طبيبه، فعليه أن يتركه، لأنه يكون محرماً عليه.

وقد اختلفت فيه أقوال فُقَهَاء المَذَاهِب، فكان أكثرهم يحرمه، عقب ظهوره كعادتهم في كل شيء جديد. وبعد أن فشا واعتيد صار أكثرهم يبيحه، وبعضهم يكرهه، كعادتهم في مثل ذٰلِكَ.

وقد أفتىٰ شَيْخ الأَزْهَر أبو الفَضْل الجِيْزَاوِيّ ومفتي الديار المِصْرِيَّة بأن ثالث

(١) فَتَاوَىٰ الإِمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج١ ص٢٢٧ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٧ سنة ١٩٠٤م، ص٥٧٤-٥٧٥.

أقوال العُلَمَاء فيه، وهو الكراهة، هو الوسط الراجح[(١)].

وحين سُئِلَ عن شرب الدخان، هل يفطر الصائم؟

أجاب مستغرباً: بأنه لا شك في أن مادة الدخان تدخل في الجوف، وأنه تؤثر في شاربه تَأْثِيْراً ينافي الصيام وحكمته، ولذٰلِكَ اتفق جميع الناس علىٰ تسمية التدخين شراباً، فشرب الدخان مبطل للصيام قطعاً[(٢)].

أوراق اليانصيب:

رأىٰ السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا أن اليانصيب ضرب من ضروب الميسر التي كثرت في هٰذَا الزَّمَان، ولا خلاف في تحريمه بين عُلَمَاء المَذَاهِب الإِسْلَامِيَّة كلها.

أما ربحه من حكومة غير إِسْلَامِيَّة في دار الكفر التي لا تُنَفَّذ فيها شريعة الإِسْلَام فمباح، إذ لا يمكن التزام أَحْكَامها واشتراط عُقُوْدها في تلك الدار، بل يكفي في حل أموال أهلها وحكومتها رضاؤهم وعدم كونه سرقةً أو خيانةً لهم[(٣)].

(١) فَتَاوَىٰ الإِمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٦ ص٢٤٠٣ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٣٢ سنة ١٩٣١م، ص٢٧٤.

وانظر أَيْضاً: فَتَاوَىٰ الإِمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٤ ص١٥٤٦ نَقْلاً عن مَجَلَّة المَنَار ج٢٣ سنة ١٩٢٢م، ص١٩١-١٩٢.

وفَتَاوَىٰ الإِمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٢ ص٥٦٧ نَقْلاً عن مَجَلَّة المَنَار ج١٠ سنة ١٩٠٧م، ص١١٨-١١٩.

(٢) فَتَاوَىٰ الإِمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٦ ص٢٣٠٠ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٣١ سنة ١٩٣٠م، ص١٩٢.

(٣) فَتَاوَىٰ الإِمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٤ ص١٦٠٢ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٢٣ سنة ١٩٢٢م، ص٥٨٨.

وانظر أَيْضاً: فَتَاوَىٰ الإِمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٢ ص٧٠٧ نَقْلاً عن مَجَلَّة المَنَار ج١٢

وكون اليانصيب لا يظهر فيه ما في سائر أنواع الميسر من ضرر العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله وعن الصلاة، فلأن دافعي المال فيه لا يجتمعون عند السحب، وقد يكونون في بلاد أو أقطار بعيدة عن موضعه، ولا يعملون له عملاً آخر فيشغلهم عن الصلاة أو ذكر الله تعالىٰ كقمار الموائد المشهورة، ولا يُعْرَف الخاسر منهم فرداً أو أفراداً أكلوا ماله فيبغضهم ويعاديهم، كميسر العَرَب وقمار الموائد ونحوه.

وكَثِيْراً ما يُجعل اليانصيب لمصلحة عامة كإنشاء المستشفيات والمدارس الخَيْرِيَّة وإعانة الفُقَرَاء أو مصلحة دولية ولا سِيَّمَا الإعانات الحَرْبِيَّة.

والحكومات التي تُحَرِّم القمار تبيح اليانصيب الخاص بالأَعْمَال الخَيْرِيَّة العامة أو الدولية، ولٰكِن فيه مضار القمار الأُخْرَىٰ، وأظهرها أنه طريق لأكل أموال الناس بالباطل، أي: بغير عِوَضٍ حقيقي من عَيْن أو منفعة، وهٰذَا محرم بنص القُرْآن.

وقد يقال:

إن المال الذي يُبنىٰ به مستشفىٰ لمعالجة المرضىٰ، أو مدرسة لتَعَلُّم أولاد الفُقَرَاء، أو ملجأً لتربية اللقطاء، لا يظهر فيه معنىٰ أكل أموال الناس بالباطل إلَّا في آخذي ربح النمر الرابحة، دون آخذي بقية المال من جمعية أو حكومة.

وهو علىٰ كل حال ليس فيه عداوة ولا بغضاء لأحد معين، كالذي كان يغرم ثمن الجَزُوْر عند العَرَب، وليس فيه صَدٌّ عن ذكر الله وعن الصلاة(١).

سنة ١٩٠٩م، ص٩١-٩٢.

وفَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٢ ص٥٦١ نَقْلاً عن مَجَلَّة المَنَار ج١٠ سنة ١٩٠٧م، ص٤٧.

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٦ ص٢٥٥٢-٢٥٥٣ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٣٤ سنة ١٩٣٤م، ص٤٤٥-٤٤٦ مَعْزُوّاً إلىٰ: تَفْسِيْر المَنَار ج٢ ص٢٦٢-٢٦٣ طَبْعَة الهيئة المِصْرِيَّة في تَفْسِيْر الآية: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ

فإن كان فيه إثم وضرر، فلا ريب في أن نفعه أكبر من إثمه وضرره، فلا يظهر وجه لتحريمه في هٰذَا النوع خاصةً بخلاف غيره[١].

أَرْبَاح صندوق التوفير:

وحين كَثُرَ الكلام عن أَرْبَاح صندوق التوفير أوضح السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا أن الخِدَيْوِي لما أراد إنشاء هٰذِهِ الصناديق في البريد، لِيَتَيَسَّرَ للفُقَرَاء حفظ ما زاد من دخلهم عن نفقاتهم وتثميره لهم، وتَبَيَّنَ أن زهاء ثلاثة آلاف فَقِيْر من واضعي الأموال في صندوق البريد لم يقبلوا أخذ الربح الذي استحقوه، فسألت الحكومة الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه: هل توجد طريقة شَرْعِيَّة لجعل هٰذَا الربح حلالاً، حتىٰ لا يتأَثَّم فُقَرَاء المُسْلِمِيْن من الانتفاع به؟

فأجاب مشافهةً بإمكان ذٰلِكَ بمراعاة أَحْكَام شركة المُضَارَبَة في استغلال النقود المودعة في الصندوق.

فذَاكَرَ الخِدَيْوِي رئيسَ النُّظَّار بذٰلِكَ، مظهراً الارتياح للحل الشَّرْعِيّ.

ثم أَلَّفَ لجنة من عُلَمَاء الأَزْهَر من المَذَاهِب الأربعة أو الثلاثة، ليضعوا طريقة شَرْعِيَّة لصندوق التوفير، فوضعوها علىٰ أَسَاس شركة المُضَارَبَة.

قال السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا: ومهما تكن صفة الطريقة التي وضعها العُلَمَاء لاستغلال أموال التوفير فلا يظهر عدها من الربا المُجْمَع علىٰ تحريمه، وهو ربا النسيئة

لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ - البقرة: ٢١٩.

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٦ ص٢٥٥٨ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٣٤ سنة ١٩٣٤م، ص٤٤٨-٤٥٠.

الذي كان في الجاهلية[1].

الربا:

وبعد أن عرض السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا آراء العُلَمَاء في الربا، رأىٰ أن الربا المحرم هو ربا النسيئة، أما ربا الفَضْل فتحريمه سد لذَرِيْعَة ربا النسيئة، فذكر:

أن هٰؤُلَاءِ العُلَمَاء الأَعْلَام من محققي المُفَسِّرِيْن والمُحَدِّثِيْن والأُصُوْلِيِّيْن والفُقَهَاء قد صرحوا بأن الربا الذي حرمه الله تعالىٰ بنص كتابه العَزِيْز، وتوعّد آكليه أشد التوعّد، هو الربا الذي كان فاشياً في الجاهلية، ومعروفاً عند المخاطبين في زمن التنزيل، وهو أخذ مالٍ في مُقَابَلَة تأجيل دين مستحق في الذِّمَّة من قَبْلُ، وهو المسمىٰ ربا النسيئة...، وهو قول الحبر ابن عَبَّاس في تَفْسِيْر آيات البقرة، وتدل عليه نُصُوْص الآيات بإباحة ما سَلَف منه، وإيجاب الاكتفاء برأس المال علىٰ من تاب، كما تقدم عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويؤيد هٰذَا أمران:

أحدهما: الاسْتِعْمَال اللُّغَوِيّ، ووجهه: أن هٰذَا اللفظ كان مستعملاً عند عَرَب الجاهلية من المُشْرِكِيْن وأهل الكتاب وغيرهم، وذُكِرَ في بعض السور المَكِّيَّة. فهو ليس من الألفاظ التي وُضعت وضعاً جديداً في الشَّرِيْعَة، فكانت مُجْمَلة، ثم فُسِّرَت بعد ذٰلِكَ بالأَحَادِيْث عند الحاجة إليها في التَّشْرِيْع العَمَلِيّ، بل اللام في الربا للعهد، كما صَرَّحَ به بعضهم.

---

(١) فَتَاوَىٰ الإِمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٤ ص١٣٤١-١٣٤٢ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج١٩ سنة ١٩١٦م، ص٥٢٧-٥٢٩.

وانظر: فَتَاوَىٰ الإِمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج١ ص٨٤-٨٦ نَقْلاً عن مَجَلَّة المَنَار ج٧ سنة ١٩٠٤م، ص٢٨.

ثانيهما: إن الله توعّد علىٰ أكل الربا بضروب من الوعيد لم تُعهد في التنزيل ولا في السُّنَّة ولا ما يماثلها، إلَّا في التَّرْهِيْب والزجر مما عَظُمَ إثمه، وفَحُشَ ضرره من الكبائر، ويؤكده الوعيد الوارد في الأَحَادِيْث النَّبَوِيَّة... .

وجُمْلَة القول أن هٰذَا الوعيد الشديد كله لا يمكن أن يكون علىٰ ربا الفَضْل الوارد في حَدِيْث عُبَادَة وأبي سَعِيْد وغيرهما، لأنه لا ضرر فيه. ولذٰلِكَ اضطر بعض الفُقَهَاء إلىٰ القول بأن تحريمه تعبدي لا يُعْقَلُ معناه.

وبيع الأجناس الستة بعضها ببعض مع التفاضل المعتاد بالتراضي، أو بيع جنس بآخر مع تَأْخِيْر القبض، ليس من الضرر والفساد ما يستحق فاعله شَيْئاً من أنواع ذٰلِكَ الوعيد، فلا يُفْهَمُ له عِلَّة إلَّا سد ذَرِيْعَة ربا النسيئة الذي نهىٰ عنه، فهو كنهيه ﷺ عن خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية، وعن سفرها إلَّا مع ذي محرم، وعن الإنباذ في الأواني التي يُسْرِعُ فيها اختمار النَّقِيْع المنبوذ فيها من تمر أو زَبِيْب، وعن الجلوس علىٰ مائدة يُشْرَبُ فيها الخمر... .

وأبلغ من هٰذَا في النهي لسد الذَّرِيْعَة نهي الله عَزَّ وجَلَّ للمُؤْمِنِيْن عن سَبّ آلهة المُشْرِكِيْن وأصنامهم مع تَعْلِيْله الدال علىٰ ذٰلِكَ، وهو قوله سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ - الأنعام: ١٠٨.

وأما تسمية ذٰلِكَ ربا في بعض الروايات، فمن باب المجاز المُرْسَل، كقوله تعالىٰ حكاية عن أحد صاحبي يُوْسُف في السجن: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ - يُوْسُف: ٣٦.

وقد صرح النَّبِيّ ﷺ بما يَدُلّ علىٰ هٰذَا في بعض روايات هٰذِهِ الأَحَادِيْث، كحَدِيْث ابن عُمَر، عند الإمَام أَحْمَد والطَّبَرَانِيّ: (لا تبيعوا الدِّيْنَار بالدِّيْنَارَيْن، ولا الدرهم بالدرهمين، ولا الصاع بالصاعين، فإني أخاف عليكم الربا).

وقد ورد في روايات متعددة إطلاق لفظ الربا أو أشد الربا علىٰ استطالة الرجل في عرض أخيه، يعني: بالغِيْبَة، وإطلاق لفظ الزنا علىٰ مُقَدّماته في حَدِيْث مرفوع

معروف...[١].

القراطيس المالية:

وأفتىٰ السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا بأن القراطيس المالية (بنك نوط وأنواط) من قبيل النقود الذَّهَبِيَّة لا من عروض التجارة، وتجب فيها الزكاة، والربا يحصل بها.

ولو قيل: إن الزكاة لا تجب في هٰذِهِ القراطيس لَأَمكن للغَنِيّ الذي يملك أُلوف الأُلوف من الذَّهَب أن لا يؤدي زكاةً قَطُّ، ولأُبيح الربا بسهولة في أكثر معاملات المصارف (البنوك)[٢].

التأمين:

أوضح السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا أن التأمين الذي تقوم به شركة التأمين، حين تضمن للتجار ما يهلك من بضائعهم، من قبيل الإجارة، كأن التَّاجر يستأجر صاحب الباخرة للنقل، وصاحب التأمين للحفظ، فما يأخذانه من المال علىٰ ذٰلِكَ يُعَدُّ أُجرة عملهما.

فعلىٰ هٰذَا: يجوز للتَّاجر أن يُسَوْكِر بضاعته، ثم هي إذا تلفت بتقصير في الحفظ جاز له أخذ الضمان عنها. وأما إذا تلفت بدون تقصير في حفظها، فلا يجوز عند الفُقَهَاء أخذ الضمان، لأنه لا يلزم الأجير وإن التزمه.

ونَبَّهَ إلىٰ أن ما يشترطه الفُقَهَاء باجْتِهَادهم من شروط صحة العُقُوْد وفسادها، ولزوم ما يلتزم فيها وعدمه، ونفوذ إثمهم بها وعدم نفوذه، ليس من الأُمُور التعبدية

---

(١) الربا والمعاملات في الإِسْلَام ص٧٥-٧٧.

(٢) فَتَاوَىٰ الإِمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٢ ص٧١٧ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج١٢ سنة ١٩٠٩م، ص٩٩-١٠٠.

التي يتقرب بها إلىٰ الله تعالىٰ، بحيث يكون العقد الفاسد معصيةً من المتعاقدين، وإن كان برضاهما واخْتِيَارهما بلا غش ولا تغرير.

إن هٰذِهِ المَسَائِل وُضعت لأجل ضبط الأَحْكَام، وحفظ الحقوق، وتَسْهِيْل الحكم بالعَدْل علىٰ القُضَاة، فهي لا تسلب الناس حرية التصرف في أموالهم بما يرونه نَافِعاً لهم في حفظها أو تنميتها مع التزام حدود الله الثَّابِتَة في كتابه العَزِيْز وسُنَّة رَسُوْله ﷺ، كتحريم الغش والتغرير والخداع والغصب ونحو ذٰلِكَ.

فالعاقل الرَّشِيْد له أن يتصرف في ماله ما لم يرتكب محرماً، والمحرم فيه ضرر بالفاعل أو بغيره، فإذا ثبت بالاختبار أن هٰذِهِ (السوكرة) نَافِعَة غير ضَارَّة، فهي جائزة، إذا لم يرد نص من الشارع في تحريمها، ومدار الاجْتِهَاد في أَحْكَام المعاملات علىٰ دفع الضرر وجلب المنفعة وحفظ المصالح، وإذا ثبت بالاختبار أنها ضَارَّة ومضيعة للمال بغير فائدة كانت محرمة[١].

وأيد فتوىٰ الإمَام مُحَمَّد عَبْدُه المبيحة للتأمين[٢].

هجومه على البدع:

تَفَشَّت في العالم الإسْلَامِيّ بدع كثيرة لم تكن علىٰ عهد رَسُوْل الله ﷺ، ظهرت في العِبَادَات وغيرها.

وقد حرص بعضُ العُلَمَاء علىٰ رد هٰذِهِ البدع وبَيَان حقيقتها للناس، لأنها تؤدي إلىٰ تحريف الدِّين، والخروج به إلىٰ غير طريقته التي رسمها الله تعالىٰ، ومنهم الشَّيْخ

---

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٢ ص٤٠٩ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٨ سنة ١٩٠٥م، ص٥٨٨-٥٩٢.

(٢) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٥ ص١٨٥٦ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٢٧ سنة ١٩٢٦م، ص٣٤٤-٣٤٦.

مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا، فإنه لم يألُ جهداً في ردها، لا سِيَّمَا بعد إصداره مَجَلَّة المَنَار، وتخصيصه باب الفَتَاوَىٰ بها.

حقيقة البدعة:

بَيَّنَ السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا أن البدعة في اللُّغَة: هي الفِعْلَة، أو الحالة المبتدعة المستحدثة[1] وهي نوعان: شَرْعِيَّة دينية، ولُغَوِيَّة.

١- البدعة الشَّرْعِيَّة الدِّيْنِيَّة:

بمعنىٰ ما لم يكن في عَصْر النَّبِيّ ﷺ، ولم يجئ به من أمر الدِّيْن كالعَقَائِد والعِبَادَات، وهي التي ورد بها حَدِيْث: (أما بعد، فإن أصدق الحَدِيْث كتاب الله، وإن أفضل الهدي هدي مُحَمَّد، وشر الأُمُور مُحْدَثَاتُهَا، وكل مُحْدَثَةٍ بدعة، وكل بدعة ضلالة) - رواه أَحْمَد ومُسْلِم وغيرهما[2].

وكما قال الإمَام مَالِك: (كل ما لم يكن في عهد النَّبِيّ ﷺ دِيْناً فلا يكون بعده دِيْناً).

والبدعة في الدِّيْن شرع لم يأذن به الله، وافتراء علىٰ الله[3] فلا تكون إلَّا ضلالة، لأن الله تعالىٰ قد أَكْمَل دينه، وأتم به النعمة علىٰ خلقه، فليس لأَحَد بعد النَّبِيّ ﷺ، أن يَزِيْد في الدِّيْن عَقِيْدَة ولا عِبَادَة ولا شعاراً دينياً، ولا أن ينقص منه، ولا أن يغير صفته كجعل الصلاة الجهرية سرية وعكسه، ولا يجعل المطلق مقيداً بزَمَان أو مكان أو اجتماع أو انفراد لم يرد عن الشارع، ولا أن يحرم علىٰ أَحَد شَيْئاً تحريماً دينيا تعبدياً.

وأما قول ابن مَسْعُوْد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما رآه المُسْلِمُوْن حسناً فهو عند الله حسن فلا

---

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٦ ص٢٤٠١ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٣٢ سنة ١٩٣١م، ص٢٧٣-٢٧٤.

(٢) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٥ ص١٨٨٤ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٢٧ سنة ١٩٢٦م، ص٦٥٩-٦٦١. وفَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٦ ص٢٤٠٢.

(٣) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٦ ص٢٤٠١.

حُجَّة فيه، لا لكونه غير مرفوع إلىٰ النَّبِيّ ﷺ فقط، بل لأنه في معنىٰ الإجماع، وهو لا يكون إلَّا عن دليل. وليس معناه أن الابتداع في الدِّيْن مشروع لكل أَحَد أو لكل جَمَاعَة[1].

٢- البدعة اللُّغَوِيَّة:

وهي غير الدِّيْنِيَّة المحضة، بمعنىٰ الشيء الجديد الذي لم يسبق له مثل[2].

وهٰذِهِ البدعة منها: حسن، وهو النَّافِع الذي لا مفسدة فيه.

ومنها سَيِّئ، وهو الضَّارّ وما يترتب عليه فساد مثلاً.

وكل منهما درجات، فتعتريها الأَحْكَام الخمسة، أي: الوجوب، والتحريم، والندب، والكراهة، والإباحة.

بدليل حَدِيْث مُسْلِم: (من سن في الإِسْلَام سُنَّةً حَسَنَة فله أجرها وأجر من عمل بها...)، فقوله: (في الإِسْلَام)، معناه: في عهد الإِسْلَام، والمقابل لعهد الجاهلية[3]. والسُّنَّة الحَسَنَة والسيئة تشمل كل ما يخترعه الناس من طرق المَنَافِع والمرافق الدنيوية أو طرق المضار والشرور. فمن اخترع طريقة نَافِعَة كان مأجوراً عند الله تعالىٰ ما عمل الناس بسُنَّته، وله مثل أجر كل عامل به، لأنه السبب فيه.

وكذا حكم مخترعي طرائق الشرور والمضار، كالضرائب والغرامات والفواحش، عليهم وزرها، ما عمل الناس بها.

وقولهم بدعة حَسَنَة وبدعة سيئة، يَصِحّ في البدعة اللُّغَوِيَّة أو الدنيوية.

ومن قال من العُلَمَاء: إن البدعة لا تكون إلَّا سيئة، أراد البدعة الشَّرْعِيَّة، أي:

---

(١) فَتَاوَىٰ الإِمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٥ ص١٨٨٤.

(٢) فَتَاوَىٰ الإِمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٥ ص١٨٨٤.

(٣) فَتَاوَىٰ الإِمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٦ ص٢٤٠٢.

الابتداع في الدِّين. وقد ذكر نحو هٰذَا ابن حَجَر في الفَتَاوَىٰ الحَدِيْثِيَّة[١].

وقول عُمَر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في المُوَطَّأ، حين جمع الناس علىٰ إمَام وَاحِد في صلاة التراويح: نعمت البدعة هي، أراد به البدعة اللُّغَوِيَّة، وهو ما فعل علىٰ غير مثال، كما قال تعالىٰ: ﴿مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ - الأحقاف: ٩، وليست بدعاً شرعاً.

وذٰلِكَ أن النَّبِيّ ﷺ صلىٰ بعض ليالي رَمَضَان صلاة القيام (التراويح)، واقتدىٰ به بعضُ الصَّحَابَة، ولم يستمر علىٰ ذٰلِكَ، لئلا تفرض أو تُعَدُّ فرضاً، ثم صار الناس بعده يعقدون لها جماعات، حتىٰ جمعهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ علىٰ إمَام وَاحِد، كراهة التفرق المذموم شرعاً، فجماعتها مَأْثُوْرَة عن النَّبِيّ ﷺ، لا بدعة شَرْعِيَّة.

وقد فصل الشَّاطِبِيّ الكلام بها بما يدحض شُبَه المبتدعة، فيراجع في كتابه الاعتصام، وهو أَوْسع الكتب في هٰذَا الشأن[٢].

- ومن هٰذِهِ الأُمُور التي عالجها السَّيِّد رَشِيْد ما يأتي:

الدعاء بغير ما ورد:

ذهب السَّيِّد رَشِيْد إلىٰ أن الدعاء بغير ما ورد لا يعد بدعة إلَّا إذا كان مخالفاً لما ورد، أو كان معه بدعة أُخْرَىٰ، كاتخاذه شعاراً دينياً، والتزامه في مَوَاقِيْت معينة[٣].

السَّلَام خلف الأذان، والقُرْآن خلف الجنازة:

رد السَّيِّد رَشِيْد علىٰ الزُّرْقَانِيّ الذي نقل في شرح المُوَطَّأ عن ابن عَبْد السَّلَام

---

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج١ ص٩٣ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٧ سنة ١٩٠٤م، ص٥٨.

(٢) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٥ ص١٨٨٥-١٨٨٦ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٢٧ سنة ١٩٢٦م، ص٦٥٩-٦٦١.

(٣) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج١ ص٩٢.

جعل السَّلَام خلف الأذان، والقُرْآن خلف الجنازة، من المباح، فقال:

الأذان عِبَادَة من شعائر الإسْلَام، ورد بألفاظ مَعْدُوْدَة جرىٰ عليها العَمَل في عَصْر النَّبِيّ ﷺ وخلفائه الراشدين، فلو جاز أن يزاد فيه سَلَام لجاز أن يزاد فيه غيره من الأذكار كسُبْحَانَ الله والحمد لله وبعض آيات القُرْآن. ومُقْتَضَىٰ هٰذَا: أنه لا يجوز لكل أَحَد أن يغير شعائر الإسْلَام بما استحسن من زِيَادَة أو نقصان. ولم يقل بجواز هٰذَا أَحَد من أَئِمَّة المُسْلِمِيْن المجتهدين. ولو جرىٰ المُسْلِمُوْن علىٰ هٰذِهِ البدعة فعلاً لما بقي من شعائر الإسْلَام... ولصرنا في أديان جديدة، كل طائفة أو جَمَاعَة أو فرد يخالف فيها سائر المُسْلِمِيْن.

ولو جاز أن يزاد في عِبَادَة الأذان لجاز أن يزاد في غيرها، كجعل الصلاة الثلاثية رباعية، والرباعية خماسية، وجعل الركوع في ركعة مرتين أو أكثر، والسجود ثلاثاً أو أكثر، وهلم جراً... .

وهل يوجد أَحَد شم رائحة العلم الدِّيْنيّ والعقل يجيز هٰذِهِ الفوضىٰ والتصرف في دين الله؟[1].

وذكر أن هٰذِهِ البدعة وأمثالها إنما فشت في أَمْصَار المُسْلِمِيْن بسبب جهل بعض أدعياء العلم بالسُّنَّة، وما ترتب عليه من عدم إنكارهم علىٰ منتحلي البدع[2].

وأوضح أن ما يفعله المؤذنون في كثير من البلاد من الأذكار وغيرها قبل أذان الصبح وأذان الجمعة علىٰ المَنَارَة كله بدع، وكذٰلِكَ الصلاة علىٰ النَّبِيّ ﷺ بعد الأذان مُتَّصِلاً به مع رفع الصوت. ولا يدخل ذٰلِكَ في عموم الذكر والصلاة عليه ﷺ الوَارِدَة

---

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٥ ص١٨٨٤-١٨٨٥ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٢٧ سنة ١٩٢٦م، ص٦٥٩-٦٦١.

(٢) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٦ ص٢٤٠١ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٣٢ سنة ١٩٣١م، ص٢٧٢-٢٧٣.

في الأَحَادِيْث المطلقة، لأنه يجب علينا التزام ما كان عليه المُسْلِمُوْن في الصدر الأول... وكذٰلِكَ المدائح الشعرية التي يتغنىٰ بها المؤذنون يوم الجمعة قبل الأذان بدعة، ومنهم من كان يفعلها قبل الخُطْبَة أَيْضاً.

قال: وقد كثر في عَصْرنا من أنكرها من أَنْصَار السُّنَّة في ديار مِصْر والشَّام، فتُرِكَت في كثير من المساجد، وستترك في بَاقِيها إن شاء الله تعالىٰ'[١].

بدع الصُّوْفِيَّة:

أنكر السَّيِّد رَشِيْد البدع التي دخلت في الطرق الصُّوْفِيَّة.

فأوضح أن ما اعتاده بعض أهل الطرق وغيرهم من الذكر في حال تشييع الجنازة برفع الصوت، وزِيَادَة بعضهم قِرَاءَة أبيات من البُرْدَة، كله بدع.

وقد ورد النهي عن رفع الصوت في الجنازة مرفوعاً وفي عمل الصَّحَابَة، قال ابن مُفْلِح في الفُرُوْع: ويُسَنُّ الذكر والقِرَاءَة سراً، وإلَّا الصمت. ويكره رفع الصوت ولو بالقِرَاءَة اتفاقاً، قاله شَيْخنا. وحرمه جَمَاعَة من الحَنَفِيَّة وغيرهم[٢].

وبَيَّنَ أن من بدعهم أَيْضاً: رفع الصوت الشديد بالذكر والدعاء المشروعين، لأنه لم يرد عن رَسُوْل الله ﷺ ولا عن السَّلَف الصالح. وفعله في المساجد شر من فعله في غيرها، لأنه يشغل المصلين، وقد يمنعهم من الصلاة.

وللإمَام الشَّاطِبيّ في الاعتصام بحث طَوِيْل في الإنكار علىٰ أذكار الصُّوْفِيَّة والبدعية[٣].

---

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٦ ص٢٢٧٩-٢٢٨٠ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٣١ سنة ١٩٣٠م، ص٥٧.

(٢) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٦ ص٢٢٨٠-٢٢٨١ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٣١ سنة ١٩٣٠م، ص٥٨.

(٣) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٦ ص٢٤٠٥-٢٤٠٦ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٣٢ سنة

وبَيَّنَ أن الذكر والتثني والتَّوَاجُد والصياح مبتدع، وفيه عدة مُنْكَرَات، بَيَّنَهَا كثير من العُلَمَاء، وقد عذر بعضهم ما يغلبه حاله فيصدر منه بعض هٰذِهِ المُنْكَرَات بغير اخْتِيَار، ولٰكِنهم لم يعذروا من يتعمدون الاجتماع لذٰلِكَ، ومن يأتونه مُخْتَارين تعبداً به. وأحال تفصيل الكلام علىٰ كتابه (الحكمة الشَّرْعِيَّة)، حيث ذكر فيه أقوال المُؤَلِّفِيْن المنتسبين إلىٰ المَذَاهِب المُخْتَلِفَة، ولم يقل أَحَد من العُلَمَاء بأن ذٰلِكَ من الدِّيْن، وإنما أباحه بعض المتساهلين.

ومن الفَتَاوَىٰ في ذٰلِكَ ما في تَنْقِيْح الحَامِدِيَّة لابن عَابِدِيْن: (والحق الذي هو أحق أن يتبع، وأحرىٰ أن يدان له ويستمع، إن ذٰلِكَ كله من سيئات البدع، حيث لم ينقل فعله عن السَّلَف الصَّالِحِيْن، ولم يقل بحله أَحَد من الأَئِمَّة المجتهدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين)، وأورد ما نقله ابن عَابِدِيْن في هٰذَا المعنىٰ كلام السُّهْرَوَرْدِيّ في عوارف المَعَارِف[1].

بدعة الموالد:

بَيَّنَ السَّيِّد رَشِيْد أن الاحتفال بالمولد النَّبَوِيّ، ومولد الدَّيْبَعي، بدعة بلا نزاع. وذكر أن أول من ابتدع الاجتماع لقِرَاءَة قصة المولد النَّبَوِيّ أَحَد ملوك الشراكسة بمِصْر، قال: ولم نطلع علىٰ قصة من قصص المولد النَّبَوِيّ الشَّرِيْف إلَّا ورأينا فيها كَثِيْراً من الأَخْبَار الموضوعة، حتىٰ جمع صديقنا عالم الشَّام الشَّيْخ جمال الدِّيْن القَاسِمِيّ من كتب الصِّحَاح والسُّنَن أصح وأمثل ما ورد في ذٰلِكَ، وسماه: (شذرة من السِّيْرَة النَّبَوِيَّة)، وصار محبو السُّنَّة ومبغضو البدعة يستغنون به عن تلك القصص المشحونة بالموضوعات والأكاذيب التي يؤثرها الجهال، زعماً منهم أنها أكثر تَعْظِيْماً للنَّبِيّ ﷺ[2].

١٩٣١م، ص٢٧٦.

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٣ ص١٠٢٣-١٠٢٤ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج١٤ سنة ١٩١١م، ص٣٤٦-٣٤٧.

(٢) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٤ ص١٢٤٣ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج١٧ سنة ١٩١٤م، ص١١١.

وذكر أن القيام عند ذكر وضع أُمّه له ﷺ، وإنشاد بعض الشعر والأغاني في ذٰلِكَ، هو من جُمْلَة البدع، كما صرح به ابن حَجَر المَكِّيّ الشَّافِعِيّ. وأشار إلىٰ تَحْقِيْق هٰذَا البَحْث في كتابه (ذكرىٰ المولد النَّبَوِيّ)(١).

وأوضح أن نصب العمود أو السَّارِية، ليجتمع عندها الناس في احتفالات الموالد، بدعة(٢).

بدعة زيارة القبور:

حين كثرت البدع والمُنْكَرَات عند زيارة القبور، أوضح: أن النهي عن زيارة القبور في أول الإِسْلَام كان مقصوداً به إبعاد المُسْلِمِيْن عن مظنة تَعْظِيْم قبور الصَّالِحِيْن، ولما أذن النَّبِيّ ﷺ بعد ذٰلِكَ بالزيارة للرِّجَال، وعَلَّلَ بأنها تذكر بالموت أو بالآخِرَة، ظل ينهىٰ عن تَشْرِيْف القبور، وبناء المساجد عليها، وعن الصلاة بالقرب منها، وعن إيقاد السِّرَاج عليها، وكان يلعن فاعلي ذٰلِكَ، بأَحَادِيْث كثيرة، يؤخذ منها:

أن زيارة قبور الصَّالِحِيْن هي مظنة الفتنة وتَعْظِيْم ما لم يأذن الله بتَعْظِيْمه، لا سِيَّمَا إذا كانت القبور محاطة بالبدع كبناء المساجد عليها وإيقاد الشموع عندها... والتمسح بأحجارها... .

تلك البدع تجعل زيارة قبور الصَّالِحِيْن دون زيارة سائر القبور التي تقل عندها المُنْكَرَات، إلَّا إذا كان من يحضر عند تلك القباب والمساجد يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المُنْكر.

وغَايَة ما في الحَدِيْث أن النَّبِيّ ﷺ أذن بعد النهي، والأمر الوارد علىٰ منهيٍّ عنه

(١) فَتَاوَىٰ الإِمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٥ ص٢١١٣-٢١١٤ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٢٩ سنة ١٩٢٨م، ص٦٦٤-٦٦٨.

(٢) فَتَاوَىٰ الإِمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٣ ص١٠٢٣ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج١٤ سنة ١٩١١م، ص٣٤٦.

يفيد الإباحة، وأكثر ما فيه أن يقال: هو مستحب إذا خلا من كل مُنْكر.

علىٰ أننا مع العلم بهٰـذَا كله، قد اهتدينا لحكمة ومنفعة خاصة لزيارة قبور الصَّالِحِيْن، وهي تذكر تَارِيْخهم وسيرتهم الحَسَنَة، وما يبعث في النفس حب التأسي بهم في طاعة الله وخدمة الحق وخذلان الباطل. وهٰذَا المعنىٰ هو المُرَاد من قول بعض العُلَمَاء: إن في زيارة قبور العُلَمَاء العَامِلِيْن والصَّالِحِيْن بركة.

ويستحب للزائر أن يسلم ويدعو للمزور كما ورد. فيقف متأملاً معتبراً داعياً مستعبراً، فهٰذِهِ هي الزيارة المَحْمُوْدة. والأَحَادِيْث في أن الرخصة في زيارة القبور خاصة بالرِّجَال، فلا تجوز للنساء(١).

ورد علىٰ استدلال ابن كَمَال باشا في الاستعانة بالقبور بحَدِيْث (إذا تحيرتم في الأُمُور فعليكم بأصحاب القبور)، قائلاً:

الحَدِيْث لا أصل له، ولم يروه المُحَدِّثُوْن، ولٰكِن ورد في حَدِيْث أَنَس عند البَيْهَقِيّ: أن رجلاً جاء إلىٰ النَّبِيّ ﷺ فشكا إليه قسوة القلب، فقال: اطلع في القبور، واعتبر في النشور. وقال البَيْهَقِيّ: متن هٰذَا الحَدِيْث مُنْكر، وراويه مَكِّيّ بن نمير مجهول.

وأوضح السَّيِّد رَشِيْد: أن ابن كَمَال من الفُقَهَاء الذين لا يعنون بالحَدِيْث، ولا يعرفون صَحِيْحه وضعيفه، وموضوعه ومعروفه ومُنْكره... .

ثم إن عبارة الحَدِيْث تدل علىٰ وضعه لمن ذاق طعم الأساليب العَرَبِيَّة الفصيحة، فلعل واضعه من المتأخرين، وناهيك بنكارة متنه، ومخالفته لظَاهِر أُصُوْل الدِّيْن، لا سِيَّمَا إذا حمل علىٰ ما ذكرتم. وإذا فرضنا أن الحَدِيْث صح، وكان معناه ما ذكرتم، دون ما أَوَّلْنَا به، فإننا نرجح عليه ما يعارضه مما هو أقوىٰ منه، كحَدِيْث الطَّبَرَانِيّ مرفوعاً: (إنه لا يستغاث به، إنما يستغاث بالله تعالىٰ). وحَدِيْث ابن عَبَّاس مرفوعاً: (وإذا استعنت

---

(١) فَتَاوَىٰ الإِمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج١ ص٩٤-٩٥ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٧ سنة ١٩٠٤م، ص٥٩.

فاستعن بالله).

بل عندنا القطعي كقوله تعالىٰ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ - الفاتحة: ٥، فإنها نص في عدم جواز الاستعانة بغير الله تعالىٰ، كما أن قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ - الفاتحة: ٥، نص في عدم جواز عِبَادَة غيره، لمكان الحصر في تقديم المفعول[1].

الاستمداد من الصَّالِحِيْن:

وتحدث عن الاستمداد من الصَّالِحِيْن في الحياة وبعد المهات، فذكر أنها مَسْأَلَة مُشْتَبِهة، لا يتجلىٰ الحق فيها إلَّا ببَيَان حقيقة الاستمداد. والاستمداد طلب المدد، وهو ما يمد الشيء، أي: يَزِيْد في مادته الحسية أو المعنوية. فمن طلب من مخلوق مدداً حسياً كالزِّيَادَة في ماله ورزقه بغير الأسباب التي جعلها الله شرعاً بين خلقه، فقد طلب منه ما لا يطلب إلَّا من الله تعالىٰ، وهٰذَا ينافي التَّوْحِيْد، لأنه عِبَادَة لغير الله تعالىٰ.

ومن طلب من المخلوق مدداً معنوياً، فهو علىٰ نوعين:

١. نوع يعد شركاً، كطلب الزِّيَادَة في العُمْر، هٰذَا لا يطلب إلَّا من الله تعالىٰ، فمن طلبه من غيره فقد أشركه معه.

٢. ونوع لا يعد شركاً، لأنه داخل في دائرة الأسباب، وهو ما يطلبه المتصوفون من أهل العلم بزيارة الصَّالِحِيْن، أو ذكر مَنَاقِبهم وسيرتهم، وتصور أحوالهم من الزِّيَادَة في حب الخير والصَّلَاح والتقوىٰ، ويعبرون عن هٰذِهِ الزِّيَادَة التي يجدونها في نفوسهم بالبركة والمدد، ولٰكِنهم لا يدعونهم من دون الله، ولا يفعلون ما لم يفعله السَّلَف.

وإنما كان هٰذَا مما لا بأس فيه... لأنه مُنْتَظم في سلك الأسباب، فإن الإنسان يتأثر

(١) فَتَاوَىٰ الإِمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج١ ص٢٩٩-٣٠٠ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٧ سنة ١٩٠٤م، ص٩٣٦.

بأحوال غيره... فإن كانت تلك الأحوال حَسَنَة صالحة ازداد رغبة في الصَّلَاح، وإن كانت بالضد زاد ميله إلىٰ مثلها...»[١].

وتحدث السَّيِّد رَشِيْد عن **بدع عديدة**، مثل:

تلطيخ جدران المساجد بالسواد وغيره، وإلصاق الخِرَقِ عليها[٢].

وإقامة صلاة الظهر جَمَاعَة بعد صلاة الجمعة[٣].

وتقبيل أحجار القبور[٤].

والبناء علىٰ القبور[٥].

وبدع ليلة النصف من شَعْبَان، وأول السنة[٦].

---

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٣ ص١٠١٢-١٠١٣ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج١٤ سنة ١٩١١م، ص٢٦٢-٢٦٤.

وانظر عن الاستغاثة بالمخلوق أَيْضاً في: فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٥ ص١٧٩٩ نَقْلاً عن مَجَلَّة المَنَار ج٢٥ سنة ١٩٢٤م، ص٦٦١-٦٦٤.

(٢) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٢ ص٤٢٥ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٨ سنة ١٩٠٥م، ص٦٦٢-٦٦٤.

(٣) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٦ ص٢٥٢١ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٣٤ سنة ١٩٣٤م، ص١٢٠-١٢٢.

(٤) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٢ ص٤٢٨ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٨ سنة ١٩٠٥م، ص٦٦٥.

(٥) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٥ ص١٩٠٦ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٢٨ سنة ١٩٢٧م، ص٣٩-٤٠.

(٦) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٢ ص٤٢٩ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٨ سنة ١٩٠٥م، ص٦٦٥-٦٦٦.

والزار في مِصْر والسُّوْدَان، وهو الحفلة التي يزعم البعض أنها تطرد الشياطين والوساوس(١).

واستحداث علم لسيدنا الحُسَيْن رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، والاحتفال به في شوارع المَدِيْنَة(٢).

والمَحْمِل المِصْرِيّ، وهو هيكل خشبي مكسو بالدِّيْبَاج الموضون بالذَّهَب، يحمل من مِصْر، ويُطَاف به في الكَعْبَة، ويتبرك الناس به في مَكَّة ومِصْر(٣).

وقِرَاءَة البُخَارِيّ لطلب النَّصْر في الحَرْب(٤).

والتزام قِرَاءَة سورة الكهف في المسجد بصوت مرتفع قبل صلاة الجمعة(٥).

وتحكم مشايخ الطرق بأتباعهم في دينهم ودنياهم(٦).

وغير ذٰلِكَ كثير. وقد تتكرر الفتوىٰ عدة مرات(٧).

---

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٤ ص١٣٣٢ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج١٩ سنة ١٩١٦م، ص٣٤٩-٣٥٢.

(٢) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٥ ص٢٠٩٩ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٢٩ سنة ١٩٢٨م، ص٥٩٠-٥٩٢.

(٣) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٥ ص١٨٧٧ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٢٧ سنة ١٩٢٦م، ص٥٠٢-٥٠٤.

(٤) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٤ ص١٢٤٤ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج١٧ سنة ١٩١٤م، ص١١٢.

(٥) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٦ ص٢٥٢٦ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٣٤ سنة ١٩٣٤م، ص١٢٤.

(٦) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٤ ص١٥٩٣ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٢٣ سنة ١٩٢٢م، ص٤٩٧-٥٠٠.

(٧) انظر فِهْرِس فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا، ففيه الإحالة علىٰ المواضع المتعددة لهٰذِهِ المَسَائِل حين تكررها.

إرْشَاده إلىٰ طرق رد البدع:

أوضح السَّيِّد رَشِيْد علىٰ صفحات المَنَار وفي مجالسه وخطبه آثار البدع الوبيلة، وكان حريصاً علىٰ سُلُوْك أي طريقة يرد بها تلك البدع، ومن ذٰلِكَ إرْشَاده الحُكَّام والعُلَمَاء والناس إلىٰ سُبُل ردها.

وبَيَّنَ أن لشَيْخ الأَزْهَر من الوَسَائِل ما يبطل بها الكثير من البدع، فيسهل عليه، وهو رئيس العُلَمَاء، أن يؤلف لجنة من كبار عُلَمَاء المَذَاهِب الأربعة في الأَزْهَر، ويأمرها بإحصاء البدع الفاشية في المساجد والأضرحة والموالد وغيرها، وتأليف رَسَائِل في التنفير منها تطبع، ويذكر فيها أَسْمَاء عشرات من العُلَمَاء الذين ألفوها وأقروها، وأن يعهد إلىٰ عُلَمَاء جميع المعاهد الدِّيْنِيَّة وطُلَّابها بنشرها وقِرَاءَتها علىٰ الناس في المساجد بنظام متبع، وكذا في غير المساجد، بشرط أن يكونوا أول العَامِلِيْن بها، والمُنْكِرِين علىٰ كل من يخالفها.

ويمكن طبع الآلاف من هٰذِهِ الرَّسَائِل علىٰ نفقة الأوقاف الخَيْرِيَّة المطلقة وتوزيعها بغير ثمن.

وأن يعهد إلىٰ بعض المنشئين المُجِيْدِيْن بإنشاء خطب في ذٰلِكَ، توزعها وزارة الأوقاف علىٰ خُطَبَاء جميع المساجد، ليخطبوا بها.

وأن يُقْتَرَح علىٰ الشعراء المُجِيْدِيْن أن ينظموا ذٰلِكَ في قصائد وموشحات تزجر الناس عن تلك البدع.

ويسهل عليه أَيْضاً أن يتوسل بالحكومة إلىٰ إبطال كثير من تلك البدع، ولا سِيَّمَا بدع المواسم والاحتفالات التي للحكومة يد فيها(١).

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٤ ص١٣٧٨-١٣٧٩ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٢٠ سنة ١٩١٧م، ص١٠٤-١٠٥.

ونصح الدعاة إلىٰ سُلُوْك طريق اللين واللطف في الأمر بالمعروف والنهي عن المُنْكر فيما يقلد فيها الجُمْهُوْر عُلَمَاءهم، ظانين أنها من بقايا الدِّيْن واتباع السَّلَف الصَّالِحِيْن ومَذَاهِب الأَئِمَّة المجتهدين، فإن الغلظة في الأمر والنهي تَزِيْد المقلد جموداً علىٰ التقليد... قال تعالىٰ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ - آل عِمْرَان: ١٥٩. وقال سُبْحَانَهُ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ - النَّحْل: ١٢٥. وقال ﷺ: (يسروا ولا تعسروا) - مُتَّفَق عليه.

ويذكر الدعاة للناس بأن هٰؤُلَاءِ النَّاصِرِيْن للبدع، لا يدعون إليها إلَّا لأجل أكل أموالهم بالباطل، وأن هٰذَا الداعي إلىٰ نبذ البدع يدعو إلىٰ ما جاء في كتاب الله وسُنَّة رَسُوْله، وهي الحُجَّة العَمَلِيَّة التي لا تحتمل التحريف والتَّأْوِيْل[١].

وقوفه بوجه الأَفْكَار الدخيلة:

وقف السَّيِّد رَشِيْد بوجه كل صيحة أرادت هدم الإسْلَام وتفريق شمل أهله.

الإلحاد:

فهو يوضح خطورة الإلحاد في كل مناسبة، ويرد علىٰ أهله، ويفند شبهات المبشرين وزيغ الماديين، ويبين في مُقَابَلَة هٰذَا الكفر والضلال ما جاء به الإسْلَام من الهِدَايَة.

أسبابه:

ولخص أسباب فشو الإلحاد بأمرين:

أهمهما: عدم التَّعْلِيْم الإسْلَامِيّ الصَّحِيْح، الذي يقتضيه حال هٰذَا العَصْر، وعدم

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٦ ص٢٥٢٦-٢٥٢٧ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٣٤ سنة ١٩٣٤م، ص١٢٣-١٢٤.

التربية الملية الوجدانية علىٰ هدايته.

والثاني: فشو الأَفْكَار المادية والشبهات العِلْمِيَّة علىٰ الدِّيْن في المدارس العَصْرِيَّة من أجنبية وأَمِيْرِيَّة، وتولي المتخرجين فيها لأُمُور الحكومات وسائر المصالح العامة.

مقاومته:

وأما ما يجب علىٰ العُلَمَاء من مقاومة ذٰلِكَ وصد تياره، فالقول فيه كالقول في مَسْأَلَة مقاومة البدع والمُنْكَرَات. أكثر العُلَمَاء الرسميين المقلدين يعجزون عن مقاومة شبهات الإلحاد، إما لأنهم لا يفهمونها، ولا يفهمون الدِّيْن كما يجب أن يفهمه من يقوم بذٰلِكَ بالحُجَّة والبُرْهَان، وإما لضعفهم في البَيَان أو في الغيرة علىٰ الدِّيْن، علىٰ أنه قد وجد فيهم وفي غيرهم أفراد يقومون بهٰذَا الواجب علىٰ قوة أو ضعف.

قال: ولو تم للأُسْتَاذ الإمَام مُحَمَّد عَبْدُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ما كان يحاوله من إصْلَاح الأَزْهَر، ولم يصده عنه الجمود والاستبداد، أو لو تم لنا ما قمنا به بعده من إنشاء جمعية ومدرسة للدعوة والإرْشَاد، ولم يقض عليها نفوذ الاستعمار وفشو الإلحاد، لما خطر هٰذَا الكلام ببال(١).

البَابِيَّة والبَهَائِيَّة:

أوضح السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا أن البَابِيَّة فرقة من البَاطِنِيَّة، والبَهَائِيَّة منهم.

وأَسَاس دين البَهَائِيَّة وثني مادي، وهو أن أصحابه يعبدون والد زعيمهم عَبَّاس أفندي، المُلَقَّب بعَبْد البهاء، ولهم شريعة ملفقة من الأديان المُخْتَلِفَة، وفلسفتها هي عَيْن فلسفة سلفهم من فرق البَاطِنِيَّة الذين حاربوا الإسْلَام بالدسائس التي اخترعتها لهم جمعيات المَجُوْس السرية، لإفساد أمر المُسْلِمِيْن وإزالة ملكهم، انتقاماً للمَجُوْسِيَّة

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٦ ص٢٢٠٧ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٣٠ سنة ١٩٢٩م، ص٥٠٩-٥١٠.

التي أبطلها الإِسْلَام.

وأن مرزا حُسَيْن المُلَقَّب بالبهاء هو وولده عَبَّاس أفندي قد جعلا دينهما الجديد تَنْقِيْحاً لما دعا إليه الأبله الثرثار مرزا مُحَمَّد عَلِيّ، الذي اشتهر بلقب (الباب).

ودين البَهَائِيَّة دين مخترع... وهو أضر علىٰ الإِسْلَام من كل دين في الأرض، لأن أهله يخادعون عوام المُسْلِمِيْن، ويوهمونهم أنهم يصلحون لهم دينهم، ويحتجون بالشبهات التي يحرفون بها القُرْآن والأَحَادِيْث بالتَّأْوِيْلَات البعيدة(١).

الماسونية:

بَيَّنَ السَّيِّد رَشِيْد أن الجمعية الماسونية أُسست لأجل هدم الحكومة الدِّيْنِيَّة البابوية أولاً وبالذات، ثم هدم كل حكومة دينية، وإقامة حكومة لا دينية مقامها، وحيثما تم لهم ذٰلِكَ فإن الجمعية تكون رَابِطَة أدبية وصِلَة تعارف وتعاون بين أهلها المُؤَلِّفِيْن من أهل المِلَل المُخْتَلِفَة. وأكثرهم لا يعرفون منها الآن أكثر من ذٰلِكَ.

والواضعون لأَسَاسها الأول هم اليَهُوْد، وغرضهم الأَسَاسِيّ فيها إعادة ملك سُلَيْمَان الدِّيْنِيّ إلىٰ شعبهم في القُدْس، وإعادة هيكله إلىٰ ما وضع له وهو المسجد الأقصىٰ، فأعظم كيد لهم وُجِدَ في الأرض أنهم هدموا الحكومات المَسِيْحِيَّة الدِّيْنِيَّة من أوربا غربيها فشرقيها، والحكومة الإِسْلَامِيَّة التُّرْكِيَّة، والنَّصْرَانِيَّة الروسية.

وبعد هٰذَا كله:

ظهرت جمعيتهم الصهيونية تستغل خدمتهم للإنجليز في الحَرْب بالتوسل بها إلىٰ

---

(١) فَتَاوَىٰ الإِمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٤ ص١٢٤٦ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج١٧ سنة ١٩١٤م، ص١٧٨-١٨٠.

وانظر أَيْضاً: فَتَاوَىٰ الإِمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٣ ص١١٢٨ نَقْلاً عن مَجَلَّة المَنَار ج١٥ سنة ١٩١٢م، ص٧٣١-٧٣٢، وأحال علىٰ مجلدات المَنَار الماضية.

إقامة حكومة دينية يَهُوْدِيَّة في فِلَسْطِيْن[١].

وقد نشرها الإفرنج وأعوانهم المتفرنجون في مِصْر والمدن العُثْمَانِيَّة منذ عشرات من السنين، فلم يكن لها ثمرة إلَّا إعداد النفوس لفصل السِّيَاسَة والحكومة عن الدِّيْن، والاستغناء عن الشَّرْع بالقوانين، والمؤاخاة بين المُسْلِمِيْن وغيرهم، وموالاتهم لهم[٢].

الطُّوْرَانِيَّة:

وفي صدد كلامه عن الطُّوْرَانِيَّة وجَمَاعَة الاتحاد والترقي، وحين قيل له: إن باكورة أَعْمَال الطُّوْرَانِيِّيْن قتل العَرَب وتبديل القُرْآن، قال:

إن سبب طعن بعض العَرَب في الترك في هٰذِهِ السنين الأَخِيْرَة هو السِّيَاسَة. وإن الذي أثار هٰذِهِ الفتنة جمعية الاتحاد والترقي التي فتنت بالعَصَبِيَّة الجنسية الطُّوْرَانِيَّة أشد فتنة.

ولا شك عندي في أن بعض زعمائها من الملاحدة، ولا شك في أنهم حاربوا الإسْلَام، وأرادوا إضعاف سُلْطَانه الروحي، تَمْهِيْداً لإزالة سُلْطَانه السياسي، ولا في أنهم هم الذين نشروا تلك الكتب الكثيرة المشتملة علىٰ الطعن فيه، وصد الترك عنه. وأن في متفرنجي الترك كَثِيْراً من المُرْتَدِّين الذين راجت هٰذِهِ الدعوة فيهم.

وقد بينا هٰذَا من قبل لإنكار المُنْكر، والأمر بالمعروف، والتحذير من عواقب هٰذِهِ الفتنة، لئلا تكون هي القَاضِيَة علىٰ الدولة، التي هي علىٰ ضعفها أقوىٰ سياج لهٰذِهِ الملة

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٥ ص٢٠٦٢ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٢٩ سنة ١٩٢٨م، ص٢٧١-٢٧٢.

(٢) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٣ ص١١٢٢ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج١٥ سنة ١٩١٢م، ص٣٢.

وانظر أَيْضاً: فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٣ ص٩٧٩ نَقْلاً عن مَجَلَّة المَنَار ج١٤ سنة ١٩١١م، ص١٧٩-١٨١.

(الإِسْلَامِيَّة).

وقد وقع ما توقعناه من شرها، وحذرنا الترك منه: مشافهةً لكبرائهم في الآستانة، وكتابةً في جرائدها وفي المَنَار.

ولولا هٰذِهِ الفتنة التي اصطلىٰ بنارها ألوف من شبان العَرَب وكهولهم في الآستانة ثم في غيرها، وما كان من فظائع جمال باشا في سُوْرِيَّة بسببها، لما وقعت الثورة الحِجَازِيَّة، وكانت أحد أسباب ما وقع من المصائب علىٰ الأُمَّة الإِسْلَامِيَّة، التي كان ضررها علىٰ العَرَب أشد من ضررها علىٰ الترك.

ثم أخبرك مع هٰذَا بأن في شبان العَرَب الذين ناهضوا الترك وعادوهم ملاحدة، كمن ذكرنا من الترك، لأنهم تعلموا وتربوا في مدارس وَاحِدَة[1].

ردوده على المستشرقين:

نبه السَّيِّد رَشِيْد إلىٰ الآثار الوبيلة لغزو أوربا العَسْكَرِيّ بعض البلاد الإِسْلَامِيَّة، وتضييق الخناق علىٰ البعض الآخر، فنبه كَثِيْراً في مجلته ومجالسه ورحلاته إلىٰ ذٰلِكَ الخطر الجسيم.

ورأىٰ بجانبه الخطر البالغ الآخر، وهو أمضىٰ أثراً من الأول، الذي هو خطر الغزو الفكري. حيث وضعت الدوائر الاستشراقية في خدمة مصالح الاستعمار، وظهرت أبحاث الكثير من المستشرقين حول الإِسْلَام، تستهدف أولاً تشكيك المُسْلِمِيْن في دينهم، ليعتقدوا أن الإِسْلَام هو سبب تأخرهم في ركب الحَضَارَة، وأنه لا يصلح أن يكون مَنْهَج حياة أو سَبِيْل التقدم.

لذٰلِكَ كرس السَّيِّد رَشِيْد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ جهوداً جَبَّارَة في كتبه ومجلته وتَفْسِيْره

---

(١) فَتَاوَىٰ الإِمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٤ ص١٥٨٥-١٥٨٦ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٢٣ سنة ١٩٢٢م، ص٤٣١-٤٣٥.

للرد علىٰ مزاعم هٰؤُلَاءِ.

فحين ظهرت أبحاث بعض المستشرقين تنال من مُحَمَّد ﷺ، وتدعي أن الوحي نابع من استعداد النفس العَالِيَة، وليس أمراً زائداً علىٰ الطبيعة البشرية، بَيَّنَ السَّيِّد رَشِيْد في كتابه (الوحي المُحَمَّدِيّ) الدلائل القطعية علىٰ أن القُرْآن الكَرِيْم وحي من الله تعالىٰ، وأن الإِسْلَام هو دين الهِدَايَة الحقة إلىٰ ما يصلح حال الإنسان في الحياة.

وأوضح أن المَانِع من مَعْرِفَة بعض عقلاء أوربا حقيقة دين القُرْآن ثلاثة حجب، هي:

١- الكنيسة التي عادته منذ بلغتها دعوته، بعد أن رأته قد قضىٰ علىٰ الوثنية والمَجُوْسِيَّة، وكاد يقضي علىٰ النَّصْرَانِيَّة في الشرق، ثم امتد نوره إلىٰ الغرب. لذٰلِكَ طفقت تُصَوِّرُهُ بصور مُشَوَّهَة باطلة كذباً وبهتاناً، وأَلَّفَتْ في ذٰلِكَ من الكتب والرَّسَائِل والأغاني والأناشيد الشيء الكثير.

٢- رِجَال السِّيَاسَة الأوربية الذين تلقوا مُفْتَرَيَات الكنيسة بالقبول، وهم الطامعون في اسْتِعْبَاد شعوبه واستعمار مَمَالِكهم، وقاعدتهم المشهورة (الغَايَة تبرر الواسطة) سياسية لا إِنْجِيْلِيَّة، فما كان لدينٍ أن يبيح الجرائم والرذائل باتخاذها وسيلة لمنفعة أهله، وإن دينية.

٣- سوء حال المُسْلِمِيْن في هٰذِهِ القرون الأَخِيْرَة، ففسدت حكوماتهم وشعوبهم، واستحوذ عليهم الجهل بحقيقة دينهم ومصالح دنياهم، حتىٰ صاروا حُجَّة لأعدائهم. وأمكن هٰؤُلَاءِ الأعداء أن يفتنوا بهٰذِهِ الحُجَّة الداحضة أكثر من يتخرج في مدارسهم السياسية الإلحادية والدِّيْنِيَّة التنصرية من أبناء ملتهم أو جلدتهم ومن غيرهم، حتىٰ نابتة المُسْلِمِيْن أنفسهم أَيْضاً. وهم يختارون من هٰذِهِ النابتة الأفراد التي تتولىٰ أَعْمَال الحكومة والتَّعْلِيْم في مدارسها في كل قطر خاضع لنفوذ دولهم الفعلي بأي اسم من أسمائه، من فتح وامتلاك وحماية واحتلال وانتداب أو لنفوذهم السياسي والتَّعْلِيْمِيّ،

كما فعلوا في بلاد الترك وإيران، لتساعدهم علىٰ هدم كل شيء إسْلَامِيّ منها من اعْتِقَاد وأدب وتَشْرِيْع.

وقد كان السَّيِّد جمال الدِّيْن الأَفْغَانِيّ حَكِيْم الإسْلَام وموقظ الشرق يرىٰ أن هٰذَا الحجاب هو أكثف الحجب الحائلة بين شعوب أوربا الحرة والإسْلَام.

قال السَّيِّد رَشِيْد: ونقل لي الثِّقَة عنه، أنه قال: إذا أَرَدْنَا أن ندعو أحرار أوربا إلىٰ ديننا، فيجب علينا أن نقنعهم أولاً أننا لسنا مُسْلِمِيْن.

فإنهم ينظرون إلينا من خلال القُرْآن هٰكَذَا، ورفع كفيه وفَرَّجَ بين أصابعهما، فيرون وراءه أقواماً فشا فيهم الجهل والتخاذل والتواكل، فيقولون: لو كان هٰذَا الكتاب حقاً مصلحاً لما كان أتباعه كما نرىٰ[(١)].

وأوضح السَّيِّد رَشِيْد أن وراء تلك الحجب العامة أربعة أسباب عائقة عن فهم الأجانب للقُرْآن، هي:

١- جهل بَلَاغَة القُرْآن الكَرِيْم، التي بلغت ذروة الإعجاز في أُسْلُوْبه ونظمه وتَأْثِيْره في أنفس المُؤْمِنِيْن والكافرين به جميعاً، حتىٰ جعل ذٰلِكَ أكثر عُلَمَاء المُسْلِمِيْن وجه الإعجاز، دون غيره من الوجوه.

٢- قصور ترجمات القُرْآن وضعفها. قال: ومن الثَّابِت عندنا أن بعضهم تعمدوا تحريف كَلِمِهِ عن موضعه، علىٰ أنه قلما يكون فهمهم تاماً صَحِيْحاً. وقد اعترف لي ولغيري بهٰذَا مستر (مُحَمَّد) ماردماد يوك بكتل، الذي ترجمه بالإنجليزية، وجاء مِصْر منذ ثلاث سنوات، فعرض علىٰ بعض عُلَمَاء العَرَبِيَّة المتقنين الإنجليزية يسألهم، وصحح بمساعدتهم ما ذَاكَرَهُم فيه. واعترف بذٰلِكَ قبله الدكتور ماردیس المستشرق الفرنسي.

---

(١) الوحي المُحَمَّدِيّ ص١٩-٢٠.

٣- أُسْلُوْب القُرْآن المخالف لجميع أساليب الكلام العَرَبِيّ وغيره، وطريقته في مزج العَقَائِد والمَوَاعِظ والحكم والأَحْكَام والآداب في الآيات المتفرقة في السور، وله حكمة، كان حائلاً دون جمع كبار عُلَمَاء المُسْلِمِيْن لكل نوع من أنواع عُلُوْمه ومَقَاصِده في باب خاص به، كما فعلوا في آيات الأَحْكَام العَمَلِيَّة من العِبَادَات والمعاملات...، وقد عني بعض الإفرنج (المسيو جول لابوم) بوضع كتاب باللُّغَة الفرنسية، جمع فيه آيات القُرْآن بحسب معانيها، ووضع كلاً منها في أبواب خاصة، بقدر فهمه، ولٰكِنه أخطأ في كثير من هٰذِهِ المعاني، وقَصَّرَ في بعض مما علمه. وما جهله منها عَظِيْم.

٤- الإِسْلَام ليس له دولة تُقِيْم القُرْآن وسُنَّة الرَّسُوْل ﷺ بالحكم، وتتولىٰ نشره بالعلم، ولا جماعات دينية تتولىٰ بحمايتها الدعوة إليه بالحُجَّة. وليس لأهله مَجْمَع ديني عِلْمِيّ يرجع إليه في بَيَان معاني القُرْآن وهدايته في سِيَاسَة البشر ومصالحهم العامة التي تتجدد لهم بتجدد الحوادث(١).

ثم إن فشو الجهل في شعوب المُسْلِمِيْن، والانحلال في حكوماتهم، قد اتخذ حُجَّة علىٰ دينهم، فصاروا مُنَفِّرِيْن عن الإِسْلَام، وصَادِّيْن عنه.

واتخذ الشَّيْخ رَشِيْد رِضَا هٰذِهِ المُقَدّمات، لينتهي إلىٰ كتابه **(الوحي المُحَمَّدِيّ)** الذي أقام به الحُجَّة علىٰ المخالفين، داعياً فيه شعوب الحَضَارَة المادية من الإفرنج واليابان إلىٰ الإِسْلَام، لأنه كما قال أَمِيْر البَيَان شَكِيْب أَرْسْلَان: لم يوجد في هٰذَا العَصْر (أي: قبل كتاب الوحي المُحَمَّدِيّ) كتاب يصلح لدعوة الإفرنج إلىٰ الإِسْلَام(٢).

وصدرت طبعته الأُوْلَىٰ يوم ذكرىٰ مولد النَّبِيّ ﷺ من عام ١٣٥٢هـ، ثم صدرت طبعته الثانية مَزِيْدة في العام نفسه يوم عَرَفَة، ثم صدرت طبعته الثالثة مصححة سنة

(١) الوحي المُحَمَّدِيّ ص٢٠-٢٣.
(٢) الوحي المُحَمَّدِيّ.

١٤٠٦هـ[١]. وتتابعت طبعاته بعد ذٰلِكَ.

وقد نال هٰذَا الكتاب قبولاً كَبِيْراً من أَوْساط عِلْمِيَّة مُخْتَلِفَة، وقَرَّظَهُ عُلَمَاء أجلاء، أورد منها في أول الكتاب تقاريظ: إمَام الزَّيْدِيَّة ملك اليَمَن يَحْيَىٰ بن حميد الدِّيْن، وملك المَمْلَكَة العَرَبِيَّة السُّعُوْدِيَّة عَبْد العَزِيْز بن عَبْد الرَّحْمٰن الفيصل، وشَيْخ الأَزْهَر مُحَمَّد مُصْطَفَىٰ المَرَاغِيّ، والشَّيْخ مُحَمَّد أَحْمَد العَدَوِيّ الأَزْهَرِيّ، والشَّيْخ مُحَمَّد بَهْجَة البيطار، والشَّيْخ مُحَمَّد ظَبْيان الكيلاني، والشَّيْخ مُحَمَّد مُسْلِم الغُنَيْمِيّ المَيْدَانِيّ، والطبيب والعالم سَعْد عيد عُرَابِي، والشَّيْخ مُحَمَّد رَشِيْد ميقاتي مفتي طَرَابُلُس الشَّام، والشَّيْخ مُحَمَّد تَقِيّ الدِّيْن الهِلَالِيّ، والأُسْتَاذ عَبَّاس مَحْمُوْد العقاد، والأُسْتَاذ مُحَمَّد لطفي جمعة، وأَمِيْر البَيَان شَكِيْب أَرْسْلَان...، وغيرهم[٢].

وكلماتهم تُجْمِعُ علىٰ أن كتاب الوحي المُحَمَّدِيّ بلغ الغَايَة في إثبات رِسَالَة النَّبِيّ مُحَمَّد ﷺ، وأن شريعته كفلت صَلَاح البشر، وضمنت رقي المجتمع الإنساني إلىٰ المنزلة التي تخيلها الحكماء ودعاة الإصْلَاح.

وهٰذَا هو الحق الذي يبدو لأول وهلة عند قِرَاءَة الكتاب في عرضه لمزايا الإسْلَام، ودفاعه عنه، ورده علىٰ أعدائه من المستشرقين وغيرهم.

وتُرْجِمَ هٰذَا الكتاب إلىٰ عدة لُغَات منها: اللُّغَة الإنجليزية، والأُوردية، والتُّرْكِيَّة، والفَارِسِيَّة، والصينية[٣]، وذٰلِكَ لما يمتاز به من بساطة الأُسْلُوْب وحسن التعبير عن الأَفْكَار التي طرحها في حَالَي العرض والدفاع، لا سِيَّمَا وأنه من الكتب الحَدِيْثَة الأُوْلَىٰ التي يفهمها ذوو الثقافات المُخْتَلِفَة، والتي تباين المصادر الأُوْلَىٰ التي تحتاج إلىٰ كد الأذهان.

وتحدث عن هِدَايَة الوحي، وما أورده المستشرقون من شبهات علىٰ الإسْلَام، منها:

---

(١) الوحي المُحَمَّدِيّ.

(٢) انظر تقاريظ هٰؤُلَاءِ وغيرهم في كتابه الوحي المُحَمَّدِيّ.

(٣) الوحي المُحَمَّدِيّ.

إن الوحي إلْهَام كان يفيض من نفس النَّبِيّ الموحىٰ إليه لا من الخارج، ذٰلِكَ أن منازع نفسه العَالِيَة، وسريرته الطاهرة، وقوة إيمانه بالله، يكون لها في جملتها من التَّأْثِيْر الذي يتصور معه أن ما يعتقد هو إرْشَاد إلٰهِيّ.

ويضربون لذٰلِكَ المثل بجان دارك، التي قررت الكنيسة الفرنسية قداستها بعد موتها بزمن. ذٰلِكَ أن فرنسا كانت في القرن الخامس عشر المِيْلَادِيّ مقهورةً للإنجليز، وكانت جان دارك، وهي بنت فرنسية، من أجمل الناس سِيْرَة، وأسلمهن نية، قد اعتقدت، وهي في بيت أهلها بعيدة عن التكاليف السياسية، أنها مُرْسَلَة من عند الله لدفع العدو عن بلدها، وصارت تسمع صوت الوحي، فأخلصت في الدعوة إلىٰ القتال، فترأست جيشاً صَغِيْراً، وغلبت العدو، لٰكِن خذلها قومها، فوقعت في يد العدو، فألقوها في النار حَيَّةً، فمَجَّدَهَا قومها بعد ذٰلِكَ، وقررت الكنيسة الكاثوليكية قداستها بعد ذٰلِكَ.

وأجاب السَّيِّد رَشِيْد علىٰ هٰذِهِ الشبهة:

بأن جان دارك التي اشتبه عليه أمرها بوحي الأنبياء، لم تقم بدعوة إلىٰ دين، تدّعي أن فيه سَعَادَة البشر في الحياة وبعد الموت، كما هو شأن جميع الرسل، ولم تأتِ بآية كونية ولا عِلْمِيَّة، أي: بمعجزة، لا يُعْهَد مثلها من كسب البشر، تتحدىٰ بها الناس ليؤمنوا بها.

فهي فتاة ذات وجدان شَرِيْف هاجه شعور الدِّيْن، وصادف مُسَاعَدَة من الحكومة، واستعداداً من الأُمَّة للخروج من الذل الذي كانت فيه، فكان الحماس الذي حركته هو سبب الانتصار.

إن الأُمَم التي ارتقت بإرْشَاد الوحي إنما ارتقت بذٰلِكَ التَّعْلِيْم وتَأْثِيْره، وإن فرنسا لم ترتقِ بإرْشَاد جان دارك وتَعْلِيْمها، فمثلها كقائد انتصر بشَجَاعَتِهِ في موقعة فَاصِلَة، واستولت أُمَّتُهُ بعُلُوْم علمائها، ولم يكن القائد يعرف من ذٰلِكَ شَيْئاً، ولم يرشد إليه، فلا يُقَال إن ذٰلِكَ القائد هو مصلح تلك البلاد.

فأين هي من مُحَمَّد ﷺ الأُمِّيّ الذي أصلح أديان البشر، عَقَائِدها وآدابها

وشرائعها، وقلب نظام الأرض، فدخلت بتَعْلِيْمه في طور جديد؟[١].

ومن شبهاتهم أَيْضاً:

١- إن الرَّسُوْل ﷺ أخذ عن بَحِيْرا الراهب.

نقل السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا عن إميل درمنغام هٰذِهِ الشبهة التي أجملها مونتيه، حيث قال: إن مُحَمَّداً لقي بَحِيْرا الراهب في مَدِيْنَة بُصْرَىٰ الشَّام، وهو نسطوري من أتباع آريوس في التَّوْحِيْد، وينكر أُلوهية المَسِيْح وعَقِيْدَة التثليث.

وبَحِيْرا عالم فلكي مُنَجّم وحاسب وساحر، وكان يعتقد أن الله ظهر له، وأنبأه بأنه سيكون هَادِياً لآل إسْمَاعِيْل إلىٰ الدِّيْن المَسِيْحِيّ. وسمع من بعض الرهبان أنه كان معلماً لمُحَمَّد ومصاحباً له بعد رسالته، وأن مُحَمَّداً ما حرم الخمر إلَّا لأنه قتل أُسْتَاذه بَحِيْرا، وهو سكران. وأسرفوا في هٰذَا الافتراء والبهتان.

وأجاب السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا عنها:

بأن ما في روايات السُّنَّة النَّبَوِيَّة هو أن النَّبِيّ ﷺ حين خرج إلىٰ الشَّام مع عمه أبي طَالِب، ورأىٰ بَحِيْرا، كان عُمْره ٩ سنوات، وقيل ١٢ سنة، رآه هٰذَا الراهب مع قُرَيْش، ورأىٰ سحابة تظلله من الشمس، وذكر لعمه أنه سيكون له شأن، وحذره عليه من اليَهُوْد.

وليس في شيء من تلك الروايات أنه ﷺ سمع من بَحِيْرا شَيْئاً من عقيدته أو دينه.

٢- أنه ﷺ أخذ من ورقة بن نَوْفَل، وهو من متنصرة العَرَب، وعالم بالنَّصْرَانِيَّة.

وأجاب السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا عنها:

إن الذي صح من خبر ورقة هٰذَا هو ما رواه الشَّيْخَان في الصَّحِيْحَيْن وغيرهما،

---

(١) الوحي المُحَمَّدِيّ ص٦٦-٧٠.

من أن خديجة أخذته ﷺ عقب إخباره إياها بما رآه في غار حِرَاء إلىٰ ورقة، وأخبرته خبره، وكان شَيْخاً قد عَمِيَ، ولم يلبث بعد ذٰلِكَ أن توفي.

ولم يُنْقَل أن النَّبِيّ ﷺ رآه قبل ذٰلِكَ، وقد استقصىٰ المُحَدِّثُوْن والمؤرخون كل ما عُرِفَ عن ورقة، مما صح سنده وما لم يَصِحّ، كدأبهم في كل ما له علاقة بالنَّبِيّ ﷺ والإسْلَام، فلم يذكر أحد منهم أنه عُرِفَ عنه دعوة إلىٰ النَّصْرَانِيَّة أو كتابة فيها... .

٣- دعوىٰ انتشار اليَهُوْدِيَّة والنَّصْرَانِيَّة في بلاد العَرَب قبل الإسْلَام.

فذكروا من تنصر من بعض فصحاء العَرَب وشعرائهم، كقُسّ بن سَاعِدَة الإيَادِيّ، وأُمَيَّة بن أبي الصَّلْت الثَّقَفِيّ، وإشادتهم بما كانوا يسمعون من عُلَمَاء أهل الكتاب عن قرب ظهور النَّبِيّ الذي بشر به مُوسَىٰ وعِيسَىٰ وغيرهما من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وأجاب السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا:

بأن قُسّاً مات قبل البعثة، ورُوِيَ أن النَّبِيّ ﷺ رآه قبل البعثة بزمن طَوِيْل يخطب الناس في عُكَاظ قائلاً: (إن لله ديناً خيراً من دينكم الذي أنتم عليه، ونبياً قد أظلكم زَمَانه، وأدرككم أوانه، فطوبىٰ لمن أدركه فاتبعه، وويل لمن خالفه)، والروايات في هٰذَا ضعيفة، بل بعضها موضوع، وبعضها مُنْقَطِع.

وتعددها قد يَدُلّ علىٰ أن لها أَصْلاً، ولو حفظ من كلامه شيء بسند صَحِيْح لبينوه قطعاً.

أما أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت فهو شاعر مشهور نظر في الكتب، ولبس المسوح تعبداً، وكان يذكر إبْرَاهِيْم وإسْمَاعِيْل والحَنِيْفِيَّة، وحرم الخمر، وتجنب الأوثان، وطمع في النُّبُوَّة، لأنه قرأ في الكتب أن نبياً يُبْعَث بالحِجَاز، فرجا أن يكون هو. فلما بُعِثَ النَّبِيّ ﷺ حسده، فلم يسلم، ورثىٰ قتلىٰ بَدْر المُشْرِكِيْن، لأن فيهم ابنَي خاله، وعاد إلىٰ الطائف، ومات بها. والمعروف أنه كان حنيفياً علىٰ ملة إبْرَاهِيْم، ولم يتنصر، ولم يلقَ النَّبِيّ ﷺ قبل النُّبُوَّة ولا بعدها.

٤- التقاؤهم بالنَّصَارَىٰ في رِحْلَة الشتاء باليَمَن، والصيف بالشَّام، كلما مروا بدير أو صومعة، وكان هٰؤُلَاءِ النَّصَارَىٰ يتحدثون بقرب ظهور نَبِيّ من العَرَب.

٥- زعم درمنغام أنه كان بمَكَّة نفسها أُناس من اليَهُوْد والنَّصَارَىٰ عبيد وخدم، يسكنون أطراف مَكَّة، ويتحدثون بقصص عن دينهم لا تصل إلىٰ مسامع رؤساء قُرَيْش.

٦- قال درمنغام في كفالة أبي طَالِب لمُحَمَّد بعد وفاة جده: (إنه لم يكن غنياً، فلم يُتَح له تَعْلِيْم الصبي الذي بقي أُمِّيّاً طول حياته. يوهم القارئ أن أولاد الموسرين بمَكَّة كانوا يتعلمون بمدارس بالأُجور، ولٰكِن كان يَسْتَصْحِبُهُ وإياه في التجارة، فيسير والقوافل خلال الصحراء يقطع هٰذِهِ الأبعاد المتنائية، وتحدق عيناه الجميلتان بمَدْيَن ووادي القرىٰ وديار ثَمُود، وتستمع أُذُنَاهُ المرهفتان إلىٰ حَدِيْث العَرَب والبادية عن هٰذِهِ المنازل وحَدِيْثها...).

فأجاب السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا:

بأن هٰذَا من مخترعات خياله ومبتدعات رأيه، ألبسه حُلَّة من طراز البَيَان الفرنسي. فمُحَمَّد ﷺ لم يذهب مع عمه إلىٰ التجارة في الشَّام إلَّا وهو طفل، وقد أعاده إلىٰ مَكَّة قبل إتمام رحلته، ثم سافر إليها في تجارة خديجة، وهو شاب، مرة وَاحِدَة، ولم يتجاوز سوق مَدِيْنَة بُصْرَىٰ في المرتين. والقوافل التي تذهب إلىٰ الشَّام لم تكن تمر بمَدْيَن وهي في أرض سَيْنَاء، ولم تكن هٰذِهِ القوافل تضيع شَيْئاً من وقتها للبَحْث مع العَرَب أو الأعراب في طريقها من أبنائها والتَّارِيْخ القديم لبلادها، ولم يُعْرَف عن تجارها أنهم كانوا يعنون بلقاء أحبار النَّصَارَىٰ ومباحثتهم في دينهم وكتبهم...، وإنما اخترع هٰذَا، لأنه لا يستطيع تَعْلِيْل ما جاء في القُرْآن من قصص الرسل إلَّا به.

٧- ثم ذكر درمنغام أن العَرَب ولا سِيَّمَا أهل مَكَّة، كانوا يصرفون معظم أوقاتهم بعد التجارة أو الحَرْب في الاستمتاع باللذات من السكر والتسري...، ومُحَمَّد كان يراهم، ولم يشاركهم في ذٰلِكَ، لا لفقره وضيق ذات يده، بل لكونه شغوفاً بأن يرىٰ

ويسمع ويعرف. وكأن حرمانه من التَّعْلِيْم الذي كان يعلمه أنداده جعله أشد للمَعْرِفَة شوقاً... .

فأجاب السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا:

بأن هٰذَا الخبر من مخترعات خياله، فمُحَمَّد لم يكن شغوفاً بأن يرىٰ ما يفعله فُسَّاق قومه من فجور، وقد ثبت عنه أنه لم يحضر سمرهم إلَّا مرتين، ألقىٰ الله عليه النوم في كل منهما حتىٰ طلعت الشمس، فلم يَرَ ولم يسمع شَيْئاً.

٨- شك درمنغام في وجود أبناء النَّبِيّ ﷺ القَاسِم والطَّيِّب والطاهر. وإن صح أنهم ولدوا فقد ماتوا في المهد.

وبنىٰ علىٰ ذٰلِكَ حكماً هو: أن مُحَمَّداً تبنىٰ زَيْد بن حَارِثَة، لأنه لم يطق علىٰ الحرمان من البنين صبراً، ووفاة أبنائه جديرة بأن تستوقف تفكيره، وأن تصرفه كل وَاحِدَة منها إلىٰ ما كانت خديجة تتقرب به إلىٰ أصنام الكَعْبَة، وتنحر لهُبَل واللَّات والعُزَّىٰ ومَنَاة الثالثة الأُخْـرَىٰ، تريد أن تفتدي نفسها من أَلَـم الثُّكْل، فلا تفيد القربان، ولا تجدي النحور.

وذكر أن عِبَادَة الأصنام قد بدأت تتزعزع في النفوس تحت ضغط النَّصْرَانِيَّة الآتية من الشَّام واليَمَن.

فأجاب السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا:

بأن هٰذَا اختلاق مركب. فالحق أنه ما تبنىٰ زيداً إلَّا لأنه آثر أنه يكون عبداً له علىٰ أن يكون حراً مع والده وعمه، عندما جاءا مَكَّة لافتدائه بالمال. وحين رأىٰ رَسُوْل الله ﷺ ذٰلِكَ أَخْرَجَهُ إلىٰ الحجر، فقال: اشهدوا أن زيداً ابني يرثني وأرثه.

فلما رأىٰ ذٰلِكَ أبوه وعمه طابت أنفسهما، فدُعِيَ: زَيْد بن مُحَمَّد. حتىٰ جاء الله بالإِسْلَام، كما رواه ابن سَعْد وابن إِسْحَاق.

ثم إن مُحَمَّداً كان أصبر الصابرين، فلم يجزع عند موت ولده ولا غيره، ولم تيأس خديجة بموت القَاسِم من الله بأن يَمُنَّ عليها بولد آخر، ولم تنحر للأصنام شَيْئاً.

وضعف الوثنية العائد إلىٰ انتشار النَّصْرَانِيَّة، علىٰ حد قول درمنغام، كان جديراً بأن يمنع خديجة من الذهاب إلىٰ الأصنام تقرباً إليها لترزقها غلاماً. مع أن قُرَيْشاً لم تكن تعتقد أن الأصنام تخلق ولا تضر ولا تنفع، ولٰكِنهم كانوا يقولون: إنها تشفع لهم عند الله، لٰكِن اتباع الهوىٰ يُنْسِي صاحبه ما لم يكن لينساه لولاه.

وانهىٰ درمنغام من هٰذِهِ المُقَدّمات إلىٰ: أن مُحَمَّداً عند ذٰلِكَ الغار تحدثه نفسه عن مشَاهد نجوم الليل وشمس النهار، ورأىٰ أن حياة القُرَشِيِّيْن ليست حقاً، وربا المرابين، ونهب البدو، ولهو الخلعاء، والأصنام المُحِيْطَة بالكَعْبَة، ليس حقاً.

فلما كانت سنة ٦١٠م أو نحوها، كانت الحالة النفسية التي يعانيها مُحَمَّد علىٰ أشدها، فإن أمراً جَوْهَرِيّاً ينقصه وينقص قومه، وأن الناس نسوا هٰذَا الأمر الجَوْهَرِيّ. وتشبث كل بصنم قومه، وعرف أن المَسِيْحِيِّيْن في الشَّام ومَكَّة لهم دين أُوحي به، وأن أقواماً غيرهم نزلت عليهم كلمة الله، وأنهم عرفوا الحق ووعوه، أن جاءهم علم من أنبياء أُوحي إليهم به.

ووجد في وحدة غار حِرَاء مَسَرَّةً، وروحه تزداد بالصوم والسهر والإدمان علىٰ تقليب فكرته حِدَّةً، وفي الليل والنهار والحلم واليقظة، وجعل يقضي الساعات الطوال جاثياً في الغار، أو مستلقياً في الشمس، أو سائراً بخطوات وَاسِعَة في طرق الصحراء الحَجَرِيَّة، وكأنه يسمع الأصوات تخرج من خلال أحجارها، تناديه مُؤْمِنَة برسالته. وقضىٰ ستة أشهر في هٰذِهِ الحال حتىٰ خشي علىٰ نفسه عَاقِبَة أمره، فأَسَرَّ بمخاوفه إلىٰ خديجة فطمأنته.

قال السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا:

من أين علم أن مُحَمَّداً نسي الليل والنهار، والحلم واليقظة، وأنه كان يقضي

الساعات الطوال جاثياً في الغار أو مستلقياً في الشمس...، وأنه قضىٰ ستة أشهر في هٰذِهِ الحال...؟

قد افترىٰ في الأَخْبَار ما ليس له أصل في السِّيْرَة، كما أنه لم يعرف الصَّحِيْح من الضعيف منها، ليستنبط منها أنه ﷺ صار مغلوباً علىٰ عقله، غائباً عن حسه، غارقاً في بحر لجي من خياله، أثمر له انبثاق الوحي العالي من نفسه وتجليه لسمعه وبصره.

ثم نقل حَدِيْث البُخَارِيّ في باب كيف كان بَدْء الوحي إلىٰ رَسُوْل الله ﷺ[1].

● وذكر السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ما استنبطه بعض المستشرقين من أقاويل متهافتة، وأجاب عنها. وهي:

١- أن عقل مُحَمَّد الهيولاني (العقل البَاطِن) أدرك بنوره الذاتي بطلان ما كان عليه قومه من عِبَادَة الأصنام، كما أدرك ذٰلِكَ آخرون.

ونقول: آمنا وصدقنا.

٢- إن فطرته الزَّكِيَّة قد احتقرت ما كانوا يتنافسون فيه من جمع الأموال بالربا والقمار.

ونقول: آمنا وصدقنا.

٣- إن فقره وفقر عمه أبي طَالِب الذي كفله صَغِيْراً قد حال دون انغماسه في ما كانوا يسرفون فيه من الاستمتاع بالشهوات من السكر والتسري وعزف القيان.

ونقول: الصَّحِيْح أنه ترك ذٰلِكَ احتقاراً له، لا عجزاً عنه.

٤- إنه طال تفكره في إنقاذهم من ذٰلِكَ الشرك القبيح، وتطهيرهم من تلك الفواحش والمُنْكَرَات.

---

(١) الوحي المُحَمَّدِيّ ص٧٢-٨٣.

ونقول: لا مَانِع من ذٰلِكَ.

٥- إنه استفاد من أسفاره، ومن لقيه فيها وفي مَكَّة نفسها من النَّصَارَىٰ، كَثِيْراً من المَعْلُوْمَات عن النَّبِيِّيْن والمُرْسَلين الذين بعثهم الله في بني إسرائيل وغيرهم، فأخرجوهم من الظلمات إلىٰ النُّوْر.

ونقول: إن هٰذَا لم يَصِحّ عندنا، ولا يضرنا.

٦- إن تلك المَعْلُوْمَات لم تكن كلها مقبولة في عقله، لما عرض للنَّصْرَانِيَّة من الوثنية بألوهية المَسِيْح وأُمِّهِ وغير ذٰلِكَ، وبما حدث فيها من البدع.

ونقول: هٰذَا مبني علىٰ ما قبله، فهو مَعْقُوْل غير مَنْقُوْل.

٧- إنه كان قد سمع أن الله سيبعث نبياً مثل أُوْلٰئِكَ الأنبياء من العَرَب في الحِجَاز، قد بَشَّرَ به عِيسَىٰ وغيره من الأنبياء، وأن هٰذَا علق بنفسه، فتعلق رجاؤه بأن يكون هو ذٰلِكَ النَّبِيّ.

ونقول: إن هٰذَا استنباط لهم مما قبله غير صَحِيْح. وسيأتي ما فيه.

٨- وهو نتيجة ما تقدم: إنه توسل إلىٰ ذٰلِكَ بالانقطاع إلىٰ عِبَادَة الله تعالىٰ والتوجه إليه في خلوته بغار حِرَاء، فقَوِيَ هنالك إيمانه، وسما وجدانه، فاتسع مُحِيْط تفكره، وتضاعف نور بَصِيْرته، فاهتدىٰ عقله الكَبِيْر إلىٰ الآيات البينات في ملكوت السماوات والأرض علىٰ وَحْدَانِيَّة مُبْدِع الوجود...، وما زال يفكر ويتأمل وينفعل ويتقلب بين الآلام والآمال حتىٰ أيقن أنه هو النَّبِيّ المنتظر، المبعوث لهِدَايَة البشر، فتجلىٰ له هٰذَا الاعْتِقَاد في الرؤىٰ المنامية، ثم قَوِيَ حتىٰ صار يتمثل له المَلَك، يلقنه الوحي في اليقظة. أما مَعْلُوْمَات هٰذَا الوحي فهي مستمدة من تلك الينابيع المذكورة، ومما هداه إليه عقله... .

وفَنَّدَ السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ذٰلِكَ بما يأتي:

أ. إن أكثر المُقَدّمات التي أخذوا منها هٰذِهِ النتيجة هي آراء متخيلة، أو دعاوىٰ باطلة، لا قضايا تَارِيْخِيَّة ثَابِتَة، وإذا بطلت المُقَدّمات بطل لزوم النتيجة لها.

مثال ذٰلِكَ: زعمهم أن مُحَمَّداً ﷺ سمع من نَصَارَىٰ الشَّام خبر غَلْبِ الفرس وظهورهم علىٰ الرُّوْم، ليوهموا الناس أن ما جاء في أول سورة الرُّوْم مستمد مما سمعه ﷺ من نَصَارَىٰ الشَّام.

وهٰذَا مردود بدلائل التَّارِيْخ والعقل.

أما التَّارِيْخ: فإنه يُحَدِّثُنَا بأن ظهور الفرس علىٰ الرُّوْم كان سنة ٦١٠م بعد رِحْلَة مُحَمَّد ﷺ إلىٰ الشَّام بأربع عشرة سنة، وقبل بَدْء الوحي بسنة.

ثم إن التَّارِيْخ أنبأنا أن دولة الرُّوْم كانت مختلة، بحيث لم يرجُ أحد أن تغلب الفرس، حتىٰ أن أهل مَكَّة هزئوا بالخبر، وراهن أبو بَكْر علىٰ ذٰلِكَ، وأجازه ﷺ، فربح الرهان.

ثم إن العقل يحكم بأن مُحَمَّداً في سمو إدراكه لا يمكن أن يجزم بأن الغَلْبَ سيعود للرُّوْم علىٰ الفرس، في مدة بضع سنين. وقد تحقق فعلاً ما جاء في القُرْآن الكَرِيْم.

ب. لو كان النَّبِيّ ﷺ تلقىٰ عن عُلَمَاء النَّصَارَىٰ في الشَّام شَيْئاً أو عاشرهم، لَنَقَلَ ذٰلِكَ أتباعه الذين لم يتركوا شَيْئاً عُلِمَ عنه أو قيل فيه، ولو لم يثبت، إلَّا ودونوه، ووَكَلُوا أمر صحته أو عدمها إلىٰ إسناده، وما عُلِمَ من سِيْرَة رواته.

ج. لو وقع ما ذُكِرَ لاتخذ أعداؤه من كبار المُشْرِكِيْن شبهة يحتجون بها علىٰ أن ما يدعيه من الوحي قد تعلمه في الشَّام من النَّصَارَىٰ، فإنهم كان يوردون عليه ما هو أضعف وأسخف من هٰذِهِ الشبهة، وهو أنه كان في مَكَّة قَيْن (حَدَّاد) رُوْمِـيّ يصنع السيوف وغيرها، فكان النَّبِيّ ﷺ يقف عنده أَحيَاناً يشَاهد صنعته، فاتهموه بأنه يتعلم منه. فرد الله عليهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ - النَّحل: ١٠٣.

د. نُصُوْص القُرْآن الكَرِيْم صريحة في أنه ﷺ لم يعرف شَيْئاً من أَخْبَار الرسل

وقصصهم قبل الوحي، وهم متفقون معنا على أنه ﷺ لم يكن يكذب على أَحَدٍ فضلاً عن الكذب على الله عَزَّ وجَلَّ. كما اعترف بذٰلِكَ أعدى أعدائه أبو جهل.

ومن الشواهد على ذٰلِكَ قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾ - القصص.

هـ. إنه لم يرد في الأَخْبَار الصَّحِيْحَة والمرفوعة أن مُحَمَّداً ﷺ كان يرجو أن يكون هو النَّبِيّ المنتظر الذي كان يتحدث عنه بعض عُلَمَاء اليَهُوْد والنَّصَارَىٰ قبل بعثته، ولو رُوِيَ عنه مثل ذٰلِكَ لدوّنه المُحَدِّثُوْن، كما رووا عن أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت.

ثم إن القُرْآن نفى عنه ذٰلِكَ بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ - القصص: ٨٦، أي: لٰكِن أُلْقِيَ إليك رحمة من ربك بك وبالناس كلهم، لا كسب لك فيه بعلم ولا عمل، ولا رجاء ولا أمل.

و. إن حَدِيْث بَدْء الوحي الذي أثبته الشَّيْخَان في الصَّحِيْحَيْن وغيرهما من المُحَدِّثِيْن صريح في أنه ﷺ خاف على نفسه لما رأى المَلَك أول مرة، ولم تجد زوجته خديجة بنت خويلد العاقلة المفكرة وسيلة يطمئن بها على نفسه وتطمئن هي عليه إلَّا استفتاء أعلم العَرَب بهٰذَا الشأن، وهو ابن عمها ورقة بن نَوْفَل.

ز. لو كانت النُّبُوَّة أمراً كان يرجوه مُحَمَّد ويتوقعه، وكان قد تم استعداده له باختلائه وتَعَبُّدِهِ في الغار، لَظَهَرَ عقب ذٰلِكَ كل ما تنطوي عليه نفسه الوثابة وفكرته الوقادة في سورة أو سور من أبلغ سور القُرْآن الكَرِيْم في بَيَان أُصُوْل الإيمان وتَوْحِيْد الدَّيَّان، واجتثاث شَجَرَة الشرك وعِبَادَة الأوثان...، ولٰكِنه ظل ثلاث سنين لم يَتْلُ فيها على الناس سورة، ولم يدعهم إلى شيء، ولا تحدث إلى أهل بيته ولا أصدقائه بمَسْأَلَة من مَسَائِل الإِصْلَاح الدِّيْنِيّ الذي توجهت إليه بزعمهم نفسه، ولا من ذم خرافات الشرك، إذ لو تحدث بذٰلِكَ لنقلوه عنه، وناهيك بألصق الناس به خديجة وعَلِيّ وزَيْد بن

حَارِثَة في بيته، وأبي بَكْر الذي عاشره طول عُمْره.

فهٰذَا السكوت وحده في فترة الوحي بُرْهَان قاطع علىٰ بطلان ما صوّروا به استعداده للوحي الذاتي الذي زعموه.

ح. إن ما نُقِلَ من تَرْتِيْب نُزُوْل الوحي بعد هٰذِهِ الفترة الطَّوِيْلَة جاء موافقاً لما كان يتجدد من الوقائع والحوادث الطارئة، دون ما زعموه.

ط. إن القُرْآن الكَرِيْم لأَعْلَىٰ وأَوْسع وأَكْمَل من كل ما كان يعرفه بَحِيْرا ونسطور وكل نَصَارَىٰ الشَّام ويَهُوْدها والأعراب جميعاً.

ي. إن ما في القُرْآن ما هو مخالف للعهدين العَتِيْق والجديد، وهو مما لا يُعْلَم إلىٰ الآن، أن أَحَداً من اليَهُوْد والنَّصَارَىٰ قال به، كمخالفة سفر الخروج في من تبنت مُوسَىٰ، ففيه: إنها ابنة فرعون، وفي القُرْآن إنها امرأته.

ثم أورد السَّيِّد رَشِيْد شبهة قال بها أَحَد ملاحدة المِصْرِيِّيْن، وهي:

أن سولون الحَكِيْم اليُوْنَانِيّ وضع قَانُوْناً وشريعة لقومه، فليس بدعاً في العقل أن يضع مُحَمَّد شريعة.

وأجاب عنها:

بأن تشبيه سيدنا مُحَمَّد ﷺ بسولون بعيد كل البعد، فإن مُحَمَّداً عليه الصلاة والسَّلَام أُمِّيٌّ نشأ بين أُمِّيِّيْن، بخلاف سولون الفيلسوف القائد الذي نشأ في أُمَّة الحكمة والتَّشْرِيْع والدولة والسِّيَاسَة.

ثم إن سولون من رِجَال المال والحَرْب، في القرن السابع قبل المِيْلَاد، ووالدته من أَنْسَباء بستراتوس آخر ملوك أثينا، وقد تولىٰ سولون قيادة الجيش، وانتُخب سنة ٥٩٤ ق. م رئيساً علىٰ الأُمَّة، وقلدوه سلطة مطلقة لتغيير نظمها وقَانُوْنها الذي وضعه (زراكوت) قبله، فكان منقحاً ومجدداً لقَانُوْن أكبر أُمَّة حَضَارِيَّة، فوضع لهم نظاماً اتخذوه

دُسْتُوْراً متبعاً عشر سنين.

فهل هٰذَا يُقَاس بمُحَمَّد ﷺ الأُمِّيّ الذي لا يقرأ ولا يكتب، ولم يَتَوَلَّ عملاً إدارياً أو سياسياً؟

ثم إن الشَّرْع الذي جاء به ما كان منقحاً لشَرْع سابق عليه. فأين هٰذَا من ذٰلِكَ؟(١).

وبعد أن رد السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا هٰذِهِ الشبه، بَيَّنَ استعداد النَّبِيّ ﷺ للنُّبُوَّة والوحي في خلقه كَامِل الفطرة، واستعرض جوانبها وأمثلتها، ثم قال:

(فيا موسيو درمنغام: إنك قد أبصرت قبساً من هٰذَا النُّوْر الوهاج، فلا تحسبن أن مُحَمَّداً اقتبسه من أعراب مَدْين، ويَهُوْد يَثْرِب، ونَصَارَىٰ الشَّام، أو استوراه من تفكره في أُمُور الكون والناس، فالأمر أعظم من ذٰلِكَ، فنور الكهرباء أعظم من أن يكون مقتبساً من نار حطب البادية العَرَبِيَّة، وقناديل الكنائس اليَهُوْدِيَّة والنَّصْرَانِيَّة، أو من نور ما بقي عندهم من كتب أنبيائهم الأصلية، إنما هو فائض من نور الله الأعظم...)(٢).

ثم انتقل ليؤكد صحة رِسَالَة مُحَمَّد ﷺ، وأنها من الله تعالىٰ، إلىٰ بَيَان إعجاز القُرْآن الكَرِيْم بأُسْلُوْبه وبلاغته وتَأْثِيْره وثورته.

- ثم بَيَّنَ **مَقَاصِد القُرْآن الكَرِيْم** في تربية نوع الإنسان، وهي عشرة:

١. أركان الدِّيْن الثلاثة: الإيمان بالله تعالىٰ، عَقِيْدَة البعث والجزاء، العَمَل الصالح. وبَيَّنَ فيه سُنَّة القُرْآن في تَهْذِيْب الأَخْلَاق، والإرْشَاد إلىٰ العِبَادَات.

٢. ما جهل البشر من أُمُور النُّبُوَّة والرِّسَالَة ووظائف الرسل.

وبَيَّنَ فيه بعثة الرسل في جميع الأُمَم ووظائفهم، والإيمان بهم جميعاً، ومعجزاتهم، وختم النُّبُوَّة، والإيمان بالقَدَر.

---

(١) الوحي المُحَمَّدِيّ.

(٢) الوحي المُحَمَّدِيّ ص٨٩-١٠١.

٣. الإِسْلَام دين الفطرة السَّلِيْمَة، والعقل والفكر، والعلم والحكمة، والبُرْهَان والحُجَّة، والضمير والوجدان، والحرية والاستقلال.

٤. الإِصْلَاح الإنساني الاجتماعي السياسي الوطني: وبَيَّنَ فيه وحدة الأُمَّة والإنسانية، والدِّيْن والتَّشْرِيْع، بالمساواة في العَدْل، ووحدة الأُخُوَّة الروحية في التعبد، ووحدة الجنسية السياسية، والقَضَاء واللُّغَة.

٥. مزايا الإِسْلَام العامة في التكاليف الواجبة والمحظورة.

٦. حكم الإِسْلَام السياسي الدولي: نوعه وأَسَاسه وأُصُوْله العامة.

٧. الإِصْلَاح المالي.

٨. إِصْلَاح نظام الحَرْب ودفع مفاسدها، وفلسفتها.

٩. إِعْطَاء النساء جميع الحقوق الإنسانية والدِّيْنِيَّة والمَدَنِيَّة.

١٠. هِدَايَة الإِسْلَام في تَحْرِيْر الرَّقِيْق.

وانتهىٰ أَخِيْراً إلىٰ أن هدف القُرْآن الكَرِيْم بمَقَاصِده العشرة السَّابِقَة هو إِصْلَاح البشر، وتكميل نوع الإنسان من جميع نواحي التَّشْرِيْع منها والأدبي والاجتماعي والمالي والسياسي، مما اشتدت إليه حاجة الشعوب والدول في هٰذَا العَصْر. وأن موضوع القُرْآن الكَرِيْم وإعجازه، مع أُمِّيَّة الرَّسُوْل ﷺ، يضطر العقل إلىٰ الجزم بأن هٰذَا كله فوق استعداد بشر أُمِّيّ أو متعلم، وأنه لا يُعْقَل إلَّا أنه وحي من الله تعالىٰ.

وإذ قد ثبت هٰذَا فالواجب علىٰ كل من بلغه من البشر أن يتبعه ويهتدي به، لتكميل إنسانيته وإعدادها لسَعَادَة الدنيا والآخِرَة[1].

وهٰذِهِ الأبحاث التي بدأ يوضح مَسَائِلها الشَّيْخ مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا فتحت

---

(١) الوحي المُحَمَّدِيّ.

الأذهان، فدارت بعده كتابات عن هٰذِهِ الأبحاث مُعَزِّزَةً ومُؤَيِّدَةً، فأوردوا مجموعة من الأَدِلَّة والاستنباطات التي أثبتت أن الوحي ليس من قبيل الوحي النفسي، الذي هو حَدِيْث النفس وإِلْهَامها، الفائض من استعداد النفس العَالِيَة والسريرة الطاهرة، بل إن الوحي كما يقول القَسْطَلَّانِيّ: (أمر طارئ، زائد علىٰ الطباع البشرية)(١).

فهو خارجي عن النفس والبَاطِن لا يخضع لأي تَأْثِيْر عليهما، يتلقاه النَّبِيّ ﷺ من الذات الإِلٰهِيَّة، بواسطة المَلَك جِبْرِيْل الموكل بذٰلِكَ(٢).

وهٰذَا التيقن هو الذي دفعه لتَحَمُّل الأعباء الشديدة مع إغراء المُشْرِكِيْن له بالمال والمُلْك إذا ترك دعوته، وقاسىٰ هو وأصحابه الآلام، وعادىٰ أهله وقبيلته، فنصره الله تعالىٰ علىٰ أعدائه، وأظهر رِسَالَة الإِسْلَام في الأرض.

وهٰكَذَا فتح الشَّيْخ مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا أبواب البَحْث علىٰ مصاريعها في موضوع الوحي خاصةً، فكان كتابه (الوحي المُحَمَّدِيّ) الذي استوحاه من تَفْسِيْره ومجلته المَنَار مَنَاراً يهتدي به الباحثون المُسْلِمُوْن وغير المُسْلِمِيْن إلىٰ الحقيقة النَّبَوِيَّة.

وأوضح حكمة ما فيه من التكرار في الهِدَايَة، مبيناً ما يتميز به الإِسْلَام في عقيدته ونظمه في العِبَادَة والاجتماع والاقْتِصَاد والسِّيَاسَة... فيلبي مصالح البشر في كل زَمَان ومكان(٣).

---

(١) إِرْشَاد السَّارِي إلىٰ صَحِيْح البُخَارِيّ ج١ ص٦٠.

(٢) انظر شرحاً مُفَصّلًا عن تلقي الرَّسُوْل ﷺ الوحي تلقياً خارجياً (من الله) في: كتابي: العَقِيْدَة الإِسْلَامِيَّة ومَذَاهِبها ص٤٨٦ وما بعدها.

وأشرتُ فيه إلىٰ عدة كتب: مناهل العِرْفَان للزُّرْقَانِيّ، والنبأ العَظِيْم لمُحَمَّد عَبْد الله دراز، والظَّاهِرَة القُرْآنِيَّة لمَالِك بن نَبِيّ، ومباحث في عُلُوْم القُرْآن لصبحي الصالح، وكُبْرَىٰ اليقينيات الكونية لمُحَمَّد سَعِيْد رَمَضَان البُوْطِيّ، والرَّسُوْل لسَعِيْد حَوَّىٰ.

(٣) تفصيل القول فيه في: الوحي المُحَمَّدِيّ من ص١٠٣ إلىٰ نِهَايَة الكتاب ص٢٧٣.

● وردَّ السَّيِّد رَشِيْد بالأدِلَّة الكثيرة علىٰ **دعوىٰ القائلين من المستشرقين والمُسْلِمِيْن بأن الإسْلَام قد انتشر بالسَّيْف.**

فذكر أن الأصل في هٰذِهِ المَسْأَلَة هو:

قوله تعالىٰ: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ - البقرة: ٢٥٦ وهي مَدَنِيَّة.

وقوله سُبْحَانَهُ: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ - يُوْنُس: ٩٩.

وقوله سُبْحَانَهُ: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ - الغاشية.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ - ق: ٤٥.

وكذٰلِكَ تَقْيِيْد آيات القتال بجعله دفاعاً، والنهي عن الاعتداء، كالآية ١٩٠ من سورة البقرة: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾.

والراجح في علم الأُصُوْل أن المطلق يحمل عليه المقيد، وعليه الشَّافِعِيَّة.

والسُّنَّة العَمَلِيَّة تؤيد هٰذِهِ النُّصُوْص الواضحة، فإن النَّبِيّ ﷺ لم يأذن أَحَداً من المُسْلِمِيْن له بحَرْب أَبَداً، وإنما كانت غزواته كلها دفاعاً، فكان المُشْرِكُوْن قبل فتح مَكَّة حَرْباً له وللمُؤْمِنِيْن... فلما رضوا منه بالصلح عشر سنين فرح بذٰلِكَ، ورضي منهم بأشد الشرائط وأثقلها علىٰ المُؤْمِنِيْن، وهو في قوة ومنعة... .

وقد بلغ من تَقْرِيْر الإسْلَام للسَّلَام أن شدد في المحافظة علىٰ عهوده إلىٰ درجةٍ ليس وراءها غَايَة، وهي أن المُشْرِكِيْن الذين عاهدوا المُسْلِمِيْن المُهَاجِرِيْن إذا وقع قتال بينهم وبين المُسْلِمِيْن الذين لم يهاجروا، وطلب هٰؤُلَاءِ المُسْلِمُوْن من إخوانهم المُهَاجِرِيْن أن يعينوهم علىٰ المُشْرِكِيْن المعاهدين لهم، فإنه يحرم نقض عهدهم

بمُسَاعَدَة المُسْلِمِيْن عليهم. قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ﴾ - الأنفال: ٧٢.

وإنما كان سبب الحَرْب بين الخُلَفَاء الراشدين وبين الرُّوْم والفرس، اعتداء الرُّوْم والفرس لا اعتداء الصَّحَابَة العَامِلِيْن بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ - البقرة: ١٩٠ والمائدة: ٨٧، والذين صاروا بمُقْتَضَىٰ هٰذِهِ الآية وأمثالها يكرهون القتال، وإن فرض عليهم لضرورة المدافعة عن أنفسهم ودينهم وتأمين دعوته، كما شَهِدَ الله لهم بذٰلِكَ بقوله سُبْحَانَهُ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ﴾ - البقرة: ٢١٦.

ثم استشهد بكلام الشَّيْخ الإمَام مُحَمَّد عَبْدُه في رِسَالَة التَّوْحِيْد، حيث قرر قيام الإسْلَام بالدعوة والحُجَّة وانتشاره السَّرِيْع بموافقته الفطرة، ولم ينتشر بالإكراه أو السَّيْف[1].

هٰذِهِ نماذج من دفاع السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا عن الإسْلَام أمام المستشرقين وغيرهم، وهي غَيْضٌ من فَيْضٍ، إذ لا يخلو كتاب من كتبه إلَّا ويتعرض لأقاويلهم ويردها. ولذٰلِكَ لفت أَنْظَارهم مما دعاهم إلىٰ الإشارة إليه دائماً.

قال شَكِيْب أَرْسْلَان: (كان المستشرقون يشيرون دائماً إليه، وينوهون بآرائه، عندما يدور الكلام علىٰ الإسْلَام العَصْرِيّ، ويحصل الأخذ والرد في منزع التجديد ضمن

---

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٣ ص٨٩٢-٨٩٧ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج١٣ سنة ١٩١٠م، ص٣٣٨-٣٤٤.

وانظر أَيْضاً: فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٢ ص٥٧٥-٥٧٦ نَقْلاً عن مَجَلَّة المَنَار ج١٠ سنة ١٩٠٧م، ص٢٨٧-٢٨٨.

وتَفْسِيْر المَنَار ج٣ ص٣٠ في تَفْسِيْر الآية: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ - البقرة: ٢٥٦.

دائرة العَقِيْدَة)[١].

وشَهِدَ بذٰلِكَ الشَّيْخ مُحَمَّد مُصْطَفَىٰ المَرَاغِيّ حيث قال في رثائه: وقد كان بلا شبهة أكبر المدافعين عن قَوَاعِد الإسْلَام، وأشدهم غيرة عليها، فَنِيَ في خدمة دينه، وجاهد في الله حق جِهَاده، وأُوذي في سَبِيْل مبادئه، وصبر، إلىٰ أن توفي رحمة الله تعالىٰ عليه[٢].

موقفه من الحَضَارَة الغربية:

بعد دخول الدول الاستعمارية الأوربية بلاد المُسْلِمِيْن دخلت معهم عاداتهم وأَفْكَارهم وحَضَارَتهم بما فيها من نفع وضرر، فكان الناس بين مُؤَيِّد لكل ما ورد فيها، وإن كان ضاراً في حقيقته، وبين مبغضٍ لكل ما جاءت به، وإن كان نَافِعاً في حقيقته، وبين متوسط في الأمر ينشد الحكمة من أي وعاء خرجت.

كان السَّيِّد رَشِيْد متوسطاً بين جمود التقاليد وبين طموح التفرنج.

ففي حَدِيْثه عن إقامة الخِلَافَة في بلاد الترك وموانعها ومرجحاتها، قال: (إن الترك الآن في موقف وسط بين جمود التقاليد وطموح التفرنج: جمود عَرَب الجَزِيْرَة الذي جعل الدِّيْن مَانِعاً من العُلُوْم والفُنُوْن التي ترقىٰ بها حَضَارَة الأُمَّة وثروتها وعزة الدولة وقوتها، وطموح التفرنج الذي يراد به انتزاع مقومات الأُمَّة الإسْلَامِيَّة الدِّيْنِيَّة والتَّارِيْخِيَّة ومشخصاتها، واستبدال مقومات أُمَّة أُخْرَىٰ ومشخصاتها بها.

وحَضَارَة الإسْلَام وحكومة الخِلَافَة هي وسط بين الجمود وبين حَضَارَة الإفرنج المادية التي تفتك بها ميكروبات الفساد وأوبئة الهلاك، فهي عرضة للزوال، فكيف حال

---

(١) السَّيِّد رَشِيْد رِضَا أو إخاء أَرْبَعِيْن سنة: شَكِيْب أَرْسْلَان ص٢٥٥.

(٢) قادة الفكر الإسْلَامِيّ عبر القرون ص٣٢٠.

من يقلدها تقليداً تأباه طبيعة أُمَّته وعَقَائِدها)[١].

كان السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا يريد أن تبقىٰ الأُمَّة الإسْلَامِيَّة محافظة علىٰ شخصيتها في خضم هٰذِهِ الحَضَارَة الوافدة، لا تنحدر في زوبعة التقليد، لئلا تزول مقوماتها الذاتية التي تميزها عن غيرها. فكان يرىٰ أن الحكمة ضالة المُؤْمِن، فلا مَانِع من أن نأخذ من تلك الحَضَارَة ما ينفعنا، لا بقصد التشبيه، بل بقصد النفع، كاقتباسه ﷺ حفر الخَنْدَق من الفرس، لٰكِن نتجنب ما يضرنا، ونتجنب ما لا يضر ولا ينفع، وما كان ضرره أكبر من نفعه.

تشبه المُسْلِمِيْن بغيرهم ومخالفتهم لهم:

ومن هنا قال في الأزياء والملابس وغيرها من المستحدثات الدنيوية، التي كَثِيْراً ما يشتريها المُسْلِمُوْن سلفاً وخلفاً من أهل الكتاب:

إن الإسْلَام لم يفرض علىٰ المُسْلِمِيْن زياً مخصوصاً لذاته، ولا حرم عليهم زياً مخصوصاً لذاته، وأنه ثبت في السُّنَّة الصَّحِيْحَة أن النَّبِيّ ﷺ لبس الجبة الرُّوْمِيَّة والطيالسة الكِسْرَوِيَّة، ولم يثبت عنه ولا عن خلفائه أنهم كانوا يأمرون من يدخلون في الإسْلَام من اليَهُوْد والنَّصَارَىٰ والمَجُوْس أن يغيروا أزياءهم، ولٰكِن الذين كانوا يدخلون في الإسْلَام كانوا يتبعون المُسْلِمِيْن حتىٰ في أزيائهم وعاداتهم.

أما مَسْأَلَة تشبه المُسْلِمِيْن بغيرهم، فإن كان في أمر دينهم، أو ما حرمه ديننا وإن لم يُبِحْهُ دينهم، فلا شك ولا خلاف في حظره. بل صرح بعض الفُقَهَاء بأن من تشبه بهم في أمر دينهم وشعائرهم، بحيث يظن أنه منهم، يعد مُرْتَدّاً، ويجري عليه حكم المُرْتَدّ قَضَاء.

وإن كان هٰذَا في أُمُور الدنيا المباحة في نفسها كالأزياء والعادات فهو مكروه، ولٰكِنه

(١) الخِلَافَة ص٧٦.

إذا فعل مثل فعلهم ولبسهم، غير قَاصِد للتشبه بهم، فلا يسمىٰ متشبهاً، ولا يكون منه ذٰلِكَ مكروهاً.

ثبت الهدي النَّبَوِيّ بمخالفة المُسْلِمِيْن لغيرهم فيما يتعلق بأمر الدِّيْن والدنيا، كحَدِيْث: (صوموا عاشوراء، وخالفوا فيه اليَهُوْد، صوموا قبله يوماً وبعده يوماً) - رواه أَحْمَد والبَيْهَقِيّ في سُنَنه بسند صَحِيْح.

وأمره بمخالفتهم بتغيير الشيب، وكانوا لا يخضبون. رواه الشَّيْخَان وغيرهما.

وخالفهم بسدل الشعر، فكان يفرق شعره، كما ثبت في الشَّمَائِل.

وكتب عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ عامله في بلاد العجم عُتْبَة بن فَرْقَد ينهاه ومن معه عن زي الأعاجم.

والحكمة في هٰذِهِ المخالفة أن يكون للأُمَّة الإِسْلَامِيَّة التي كانت تتكون في ذٰلِكَ العهد مقومات ومشخصات ذاتية، تمتاز بها عن سائر الأُمَم، فتجعل نفسها متبوعة لا تابعة، وإمَاماً لا مقلداً، وأن لا تأخذ عن غيرها شَيْئاً، لأن غيرها يفعله، بل تأخذ ما تراه نَافِعاً، أخذ العاقل المستقل الذي يستعمل عقله وعلمه في عمله، ولا يكون إمَّعاً يتبع غيره حذو النعل للنعل (الحكمة ضالة المُؤْمِن). ولو اتبع كل جيش من الصَّحَابَة فتح بلاداً، عادات أهلها وأزياءها لفني فيهم، ولٰكِن المُسْلِمِيْن علىٰ قلتهم كانوا يجذبون الأُمَم باستقلالهم إلىٰ اتباعهم، حتىٰ انتشر الدِّيْن الإِسْلَامِيّ ولغته في العالم سَرِيْعاً.

ثم كان من شؤم التقليد الذي أُصِبْنَا به أن انتقل جماهير المُسْلِمِيْن في هٰذِهِ الأزمنة من التقليد في الدِّيْن والعلم إلىٰ التقليد في العادات، حتىٰ غلبت عليهم عادات الأُمَم الأُخْرَىٰ، فوهت قوتهم، وصاروا عالة علىٰ غيرهم. فأين نحن اليوم من حكمة عُمَر بن الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حين زَيَّنُوا له في الشَّام أن يظهر بمظهر العظمة والزي الرائع لأهل البلاد الذين تعودوا أن يروا حُكَّامهم كذٰلِكَ، إذ قال: إنما جئنا لنعلمهم كيف نحكمهم، لا لنتعلم منهم كيف يحكمون.

نتأمل فيما عند غيرنا من أمثال هٰـذِهِ المستحدثات الدنيوية، فما وجدناه ضاراً بأجسادنا أو بثروتنا أو بآدابنا اجتنبناه البتة، ونتجنب أَيْضاً ما لا يضر ولا ينفع وما كان ضرره أكبر من نفعه.

أما ما وجدناه نَافِعاً نفعاً لا ضرر معه، أو معه ضرر قليل، يَزِيْد عليه ضرر تركه وإهماله، فإننا نقتبسه لا بقصد التشبه والتقليد، بل بقصد النفع الذي ثبت عندنا، كما فعل النَّبِيّ ﷺ في اقتباس حفر الخَنْدَق من الفرس، ونجتهد مع هٰذَا في جعله أحسن مما عليه غيرنا، أو مخالفاً له نوعاً ما من المخالفة التي تكون عُنْوَان استقلالنا وتَمْيِيْزنا، وسدا دون فنائنا في غيرنا من الأُمَم(١).

تقصير المُسْلِمِيْن في استخدام وَسَائِل الاتصال بين البلاد وفي الصناعات:

وتحدث السَّيِّد رَشِيْد عن تقصير المُسْلِمِيْن - في أيامه - في استخدام وَسَائِل الاتصال بين الأقطار النائية كالبواخر وسكك الحديد والمراكب الهوائية (الطيارات والمناطيد)، التي صارت تنقل البريد والناس مسافات ومئات وأُلوف من الأميال في ساعة أو ساعات، ووَسَائِل نقل الأَخْبَار من أول الدنيا إلىٰ آخرها في دَقَائِق مَعْدُوْدَات، التي لو كانت في عَصْر سلفنا لملكوا العالم كله. وهو ما يطمع به بعض الأُمَم اليوم، وهٰذِهِ شعوب الشمال في أوربا قد سادت معظم شعوب الجنوب والشرق، وبين الفريقين مُنْتَهَىٰ أبعاد العِمْرَان في الأرض.

قال: ولٰكِن المُسْلِمِيْن قصروا في هٰذِهِ الوَسَائِل، فبعض بلادهم اليوم محرومة منها كلها، وما يوجد في بعضها فهم عالة فيه علىٰ الإفرنج، مع أن شرعهم يفرضها عليهم

(١) فَتَاوَىٰ الإِمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٣ ص١٠٩٧-١١٠١ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج١٤ سنة ١٩١١م، ص٩٠٧-٩١١.

وانظر أَيْضاً: فَتَاوَىٰ الإِمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٥ ص١٨٢٩-١٨٣٥ نَقْلاً عن مَجَلَّة المَنَار ج٢٦ سنة ١٩٢٥م، ص٤٢١-٤٢٢ و ص٤٩٦-٤٩٩.

فرضاً دينياً من وجوه، أهمها:

أن كَثِيْراً من الفرائض والواجبات تتوقف عليها، أو لا تتم إلَّا بها، كحفظ المَمْلَكَة والدفاع عنها والإعداد لأعدائها ما تستطيع من قوةٍ كما أمرنا كتابنا. وقد صار هٰذَا من الفرائض العَيْنِيَّة علينا لاستيلائهم علىٰ أكثر بلادنا(١).

ومَسْأَلَة تقصير المُسْلِمِيْن في الصناعات وإتْقَان غيرهم لها، له أسباب ترجع إلىٰ: ضعف الحَضَارَة العَرَبِيَّة، فذهابها بذهاب ملك العَرَب بعدوان الترك المَغُوْل عليهم وقضائهم علىٰ الخِلَافَة العَبَّاسِيَّة في الشرق، وسلبهم لكل ما كان للعَرَب فيه من مُلْك، وعدوان الأسبان من الإفرنج علىٰ عَرَب الأَنْدَلُس، والقَضَاء علىٰ ملكهم ودينهم فيها، ولولا هٰذَا وذاك لظلت الحَضَارَة العَرَبِيَّة الإسْلَامِيَّة في نمو وارتقاء، ولوصلت إلىٰ ما وصل إليه الإفرنج الذين ورثوا حَضَارَتهم وفُنُوْنهم.

ومن أسباب هٰذَا الضعف: أنه لم يكن لهم لُغَة تساعدهم علىٰ تلقيها، ولم يجعلوا اللُّغَة العَرَبِيَّة العِلْمِيَّة الغَنِيّة التَّشْرِيْعية لُغَة رسميةً لهم... .

ومن مصائب المُسْلِمِيْن أنهم ابتلوا بزعامة الجاهلين من أدعياء العلم، الذين يزعمون أن العُلُوْم والفُنُوْن التي عليهم مدار جميع الصناعات المعاشية والحَرْبِيَّة محرمة في الإسْلَام، مع أنها من فروض الكفايات(٢).

الاكتفاء الذاتي:

ودعا السَّيِّد رَشِيْد إلىٰ أن تكون الدولة مكتفية ذاتياً ومستغنيةً عن دول الاستعمار، قال: (إن الدولة التُّرْكِيَّة الجديدة هي الدولة الإسْلَامِيَّة التي برعت في فُنُوْن الحَرْب

(١) الخِلَافَة ص٥١.

(٢) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٥ ص٢٠٩٠-٢٠٩١ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٢٩ سنة ١٩٢٨م، ص٥٢٥-٥٢٧.

الحَدِيْثَة، ويرجىٰ إذا نجحت فيما تُعْنَىٰ به من الأخذ بوَسَائِل الثروة والعِمْرَان أن تمكنها مواردها من الاستغناء عن جلب الأسلحة وغيرها من أدوات الحَرْب بصنعها في بلادها، فتزداد قوةً علىٰ حفظ حكومتها وبلادها، وتكون قدوة لجيرانها وأُسْتَاذاً لهم)[١].

الجمعيات السرية:

حين شاعت الجمعيات في المجتمع الغربي، وتحدث المُتَحَدِّثون بها، رأىٰ السَّيِّد رَشِيْد أن المُؤْمِن حر، له أن يدخل في كل مشروع، وكل جمعية عملها مشروع، وإن كان بعض أعضائها أو رئيسها من غير المُسْلِمِيْن. فالعِبْرَة إنما هي بالعَمَل، هل هو جائز شرعاً أم لا؟

فإذا تألفت جمعية خَيْرِيَّة لإسعاف الذين يصابون بالمصائب كالجرح والحريق، كجمعية الإسعاف في مِصْر أو جمعية طبية خَيْرِيَّة...، أو لتَحْسِيْن أحوال العجزة كالعميان، أو تَرْقِيَة بعض العُلُوْم النَّافِعَة كالطب والزراعة، فيجوز للمسلم أن يدخل فيها مع غيره، ولا يضره أن يكون رئيسها غير مُسْلِم، إذ ربما كان غير المسلم أقدر علىٰ النفع فيها من المسلم.

والذي لا يجوز للمسلم هو أن يدخل في جمعية يتحالف مع أهلها، ويتعاهد علىٰ أمر مخالف للشَّرْع، ومنه أن يطيعهم فيما يأمرونه به بقرار الجمعية كائناً ما كان، أي: ولو مخالفاً للشَّرْع كإعْطَاء الشيء إلىٰ غير أهله، وقتل من لا يجوز قتله شرعاً، كما هو شأن بعض الجمعيات السياسية السرية.

ولا ينبغي له أن يدخل في جمعية لا يعرف مقصدها، لأنه ربما كان مقصداً محرماً. فالجمعيات في هٰذَا الزَّمَان كالأحلاف التي كانت في الجاهلية، منها ما هو علىٰ خير، وما هو علىٰ شر.

(١) الخِلَافَة ص٧٧.

فأما ما كان من حلفهم علىٰ الفتن والغارات، فهو كالذي قال فيه ﷺ: (لا حلف في الإِسْلَام) - رواه مُسْلِم.

وأما حلفهم علىٰ التعاضد والتساعد ونصر المظلوم كحلف الفضول، فهو الذي قال فيه ﷺ: شهدت في دار عَبْد الله بن جُدْعَان حلفاً لو دُعِيْتُ إلىٰ مثله في الإِسْلَام لأجبت...[١].

وتحدث عن هٰذِهِ المدارس، فأوضح أن سبب انكباب الناس عليها هو ما يأتي:

١. الشعور العام بأن ما فيها من العُلُوْم والفُنُوْن ضروري للحياة المَدَنِيَّة الراقية في هٰذَا العَصْر.

٢. الجهل بما فيه من الضرر والفساد الدِّيْنِيّ والقومي مع ظهور نتائجه.

٣. عدم وجود حكومة إِسْلَامِيَّة أو جمعيات إِسْلَامِيَّة راقية، تكفل لهم تَحْصِيْل ما يشعرون بأنه لا بد منه من العُلُوْم والفُنُوْن علىٰ الوجه الذي يرجىٰ نفعه ويؤمن ضرره، بإنشاء مدارس راقية في تَعْلِيْمها وتربيتها ونظامها... .

٤. وهو أعم الأسباب، وهو التقليد والتيار الاجتماعي الذي يجرف الجماهير إلىٰ حيث لا يعلمون من المصير[٢].

وبَيَّنَ أن غرض مدارس الجمعيات النَّصْرَانِيَّة إنما تنشئها لنشر دينها وتربية التلاميذ والتلميذات فيها علىٰ عَقَائِده وعِبَادَاته النَّصْرَانِيَّة وآدابه. وأنها تتوخىٰ مع ذٰلِكَ إبعاد المُسْلِمِيْن والمسلمات منهم عن دين الإِسْلَام بأساليب شيطانية تختلف باختلاف حال المُسْلِمِيْن في العلم والجهل.

---

(١) فَتَاوَىٰ الإِمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٣ ص١٠٣٢-١٠٣٣ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج١٤ سنة ١٩١١م، ص٤٢٩-٤٣١.

(٢) فَتَاوَىٰ الإِمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٦ ص٢٢٠٨ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٣٠ سنة ١٩٢٩م، ص٥١٠.

وأن المدارس اللادينية التي تنشئها الجمعيات السياسية والإلحادية، تتوخىٰ بث الإلحاد بل الكفر المطلق بالرسل، وما جاءوا به من الهدي والرَّشَاد.

وقد ثبت بالاختبار أن الإلحاد في الدِّيْن قد فشا في المُتَعَلِّمِيْن في هٰذِهِ المدارس كلها علىٰ درجات تختلف باختلاف أحوالهم[1].

لأن من أضر أَعْمَال المبشرين في مدارسهم أنهم يشككون الطُّلَّاب المُسْلِمِيْن في دينهم، ولا يقنعونهم بالنَّصْرَانِيَّة، فيخرج الكثيرون منهم ملحدين أو منافقين... دع خدمة هٰذِهِ المدارس ومثلها مستشفياتهم لمطامع السِّيَاسَة الاستعمارية، حتىٰ قال اللورد سالسبوري الوَزِيْر الإنكليزي المشهور:

(إن مدارس المبشرين أول خطوة من خطوات الاستعمار، لأن أول تَأْثِيْرها إحداث الشقاق في الأُمَّة التي تنشأ فيها، ينقسم بعضهم علىٰ بعض باختلاف الأَفْكَار والشك في الاعْتِقَاد). أي: فيَتَمَكَّن الأجنبي من ضرب بعضهم ببعض، وينتهي ذٰلِكَ بتَمْكِيْن المستعمرين من نواصيهم وسلب استقلالهم وإذلالهم وسلب ثروتهم[2].

ومن آثار ذٰلِكَ الإلحاد ما نراه من الفوضىٰ في الأُمُور السياسية، الجهل ببعض الأُمُور المَعْلُوْمَة من الإسْلَام بالضرورة، التي أجمع عُلَمَاء المُسْلِمِيْن سلفاً وخلفاً علىٰ كفر جاحدها، وعدم عذر جاهلها، والدعوة إلىٰ مخالفتها في المحاضرات والمُنَاظَرَات والكتابة والخطابة... .

ومن آثار ذٰلِكَ أَيْضاً تَرْجِيْح المتفرنجين وأُولي العَصَبِيَّة الجنسية للُّغَات الأجنبية

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٦ ص٢٣٨٩ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٣٢ سنة ١٩٣١م، ص١٧٨-١٨١.

(٢) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٥ ص١٧٦٣ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٢٥ سنة ١٩٢٤م، ص١٨٨-١٨٩.

علىٰ لُغَة الإسْلَام العَرَبِيَّة[١]، بل يجهلون أن الإسْلَام قد جعل لُغَة العَرَب لكل المُسْلِمِيْن، لتكون عِبَادتهم وَاحِدَة، وشريعتهم وَاحِدَة، وآدابهم وَاحِدَة، ويصدق عليهم قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ - الأنبياء: ٩٢، من كل وجه.

فتعلم أولاد المُسْلِمِيْن في المدارس التبشيرية اللادينية (لاييك) قد جنىٰ عليهم في دينهم ودنياهم وسياستهم وأوطانهم، وسلبهم أكثر ما كانوا نالوه بهِدَايَة دينهم، حتىٰ لم يَبْقَ منه إلَّا القليل، وهو علىٰ وشك الزوال... .

إنهم أسلموا أولادهم وأفلاذ أكبادهم لأعدائهم، لأجل أن يجعلوهم مثلهم، فيما كانت به دولهم عَزِيْزة قَوِيَّة، فقطعوا عليهم الطريق المُسْتَقِيْم الذي يوصلهم إلىٰ ذٰلِكَ، وهم لا يشعرون ولا يعقلون[٢].

تهتك النساء:

ولما فحش تهتك النساء في مِصْر، وتفاقم شره، واستشرىٰ ضرره عاماً بعد عام، حتىٰ صار يخشىٰ منه انفصام عرىٰ الأُسر وانتكاث فتل الأُمَّة، ذكر السَّيِّد رَشِيْد: أن سبب سكوت الحكومة المِصْرِيَّة عليه وإقرارها له، يرجع إلىٰ التفرنج وَسَيْطَرَة الإفرنج علىٰ البلاد بامتيازاتهم، وبمُسَاعَدَة أعوانهم المتفرنجين من رِجَال الحكومة وغيرهم.

والإفرنج المستعمرون يعنون بإفساد دين الأُمَّة وأَخْلَاقها، لتنحل جميع الروابط التي تكون بها أُمَّة لها كون خاص، ومقومات ومشخصات تحيا بها، وتأبىٰ بطبعها أن تكون مستعبدة مُسْتَعْمَرَة لغيرها. وكان بَدْء هٰذَا الفساد الدِّيْنِيّ الأَخْلَاقِيّ في عهد

---

(١) انظر رده علىٰ من دعا الناس إلىٰ استخدام العامية بدلًا من الفصحىٰ في: فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٦ ص٢٤٢٦ نَقْلاً عن مَجَلَّة المَنَار ج٣٢ سنة ١٩٣١م، ص٧٣٨.

(٢) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٦ ص٢٣٨٩-٢٣٩٠ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٣٢ سنة ١٩٣١م، ص١٧٨-١٨١.

إسْمَاعِيْل باشا أي قبل الاحتلال البريطاني، فكان ممهداً لكل ما فعله رِجَاله من مقاومة التَّعْلِيْم الدِّيْنِيّ علىٰ ضعفه في مدارس الحكومة، ومن حرية الفسق والفجور.

وقد صار الأُلوف من رِجَال الحكومة ملاحدة معطلين أو فاسقين، لا يصلون ولا يصومون، ولا يحرمون ما حرم الله ورَسُوْله من السكر والزنا والقمار، بل منهم من يهزؤون بمن يرونه يصلي ويصوم، ويعدونه متأخراً أو رجعياً[1].

مَنْهَجه في تَفْسِيْر القُرْآن الكَرِيْم:

كتب السَّيِّد رَشِيْد رِضَا رَحِمَهُ اللَّهُ تَفْسِيْره المسمىٰ تَفْسِيْر القُرْآن الحَكِيْم، والمشهور بتَفْسِيْر المَنَار.

وابتدأ به بأول القُرْآن الكَرِيْم، وانتهىٰ عند قوله تعالىٰ: ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ - يُوْسُف: ١٠١.

ثم عاجلته المَنِيَّة.

طبع تَفْسِيْره في اثْنَي عَشَر مجلداً كباراً، ينتهي المجلد الثاني عشر عند قوله تعالىٰ في الآية ٥٣ من سورة يُوْسُف: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

---

(١) فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٦ ص٢٢٠٣-٢٢٠٤ نَقْلًا عن مَجَلَّة المَنَار ج٣٠ سنة ١٩٢٩م، ص٥٠٦-٥٠٧.

وانظر كلامه عن تفرنج النساء بالتبرج في: فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٦ ص٢٣٠٨ نَقْلاً عن مَجَلَّة المَنَار ج٣١ سنة ١٩٣٠م، ص٢٧٧.

وكلامه عن شبهة الإباحيين في ترك شعائر الدِّيْن في: فَتَاوَىٰ الإمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ج٦ ص٢٤٢٥ نَقْلاً عن مَجَلَّة المَنَار ج٣٢ سنة ١٩٣١م، ص٧٣٧-٧٣٨.

وأَكْمَل الأُسْتَاذ بَهْجَة البيطار تَفْسِيْر سورة يُوْسُف، وطبع تَفْسِيْر هٰذِهِ السورة بتمامها في كتاب مستقل، يحمل اسم السَّيِّد رَشِيْد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وفسر السَّيِّد رَشِيْد أَيْضاً من السور القِصَار: سورة الكوثر، والكافرون، والإخلاص، والمعوذتين.

قال الأُسْتَاذ الذَّهَبِيّ: ولا نعرف له إنتاجاً في التَّفْسِيْر أكثر من هٰذَا. وهو إنتاج لا بأس به(١).

وكان السَّيِّد رَشِيْد يكتب أثناء إلقاء الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه الدرس مذكراتٍ، يودعها ما يراه أهم ما قاله، ويحفظ ما يكتب، لأجل أن يبيضه ويمده بكل ما يتذكره في وقت الفراغ.

وحين شرع بنشره في مَجَلَّة المَنَار في أول المحرم سنة ١٣١٨هـ في المجلد الثالث، كان أولاً يُطْلِعُ الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه علىٰ ما أعده للطبع، فكان ربما ينقح فيه بزِيَادَة قليلة، أو حذف كلمة أو كلمات، ولم ينقد شَيْئاً مما لم يره قبل الطبع، بل كان راضياً بالمكتوب، بل معجباً به.

وكان إذا انتهىٰ نقل كلام الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه، وشرح بكلام له، قال في بدئه: (أقول)، أو (وأزيد الآن)، أو (وأقول الآن).

ولما استقل بالعَمَل بعد وفاة الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه، خالف مَنْهَجه وذٰلِكَ:

بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السُّنَّة الصَّحِيْحَة، سواء كان تَفْسِيْراً لها أم في حكمها.

وفي تَحْقِيْق بعض المُفْرَدَات أو الجمل اللُّغَوِيَّة والمَسَائِل الخلافية بين العُلَمَاء.

وفي الإكثار من شواهد الآيات في السور المُخْتَلِفَة.

---

(١) التَّفْسِيْر والمُفَسِّرُوْن للذَّهَبِيّ ج٣ ص٢٤٣.

وفي بعض الاستطرادات لتَحْقِيْق مَسَائِل تشتد حاجة المُسْلِمِيْن إلىٰ تَحْقِيْقها، بما يثبتهم بهِدَايَة دينهم في هٰذَا العَصْر، أو يُقَوِّي حجتهم علىٰ خصومه من الكفار والمبتدعة، أو يحل بعض المشكلات التي أعيا حلها بما يطمئن به القلب، وتسكن إليه النفس(١).

والسَّيِّد رَشِيْد وإن اختلف مع شَيْخه مُحَمَّد عَبْدُه في هٰذِهِ الأُمُور، فمَنْهَجه العام في التَّفْسِيْر هو مَنْهَج شَيْخه، فالمصادر هي المصادر، والهدف هو الهدف، والمَنْهَج هو المَنْهَج، والأَفْكَار هي الأَفْكَار(٢).

- وتتضح صورة مَنْهَجه فيما يأتي:

١- السورة القُرْآنِيَّة وحدة متناسقة:

فرفض كَشَيْخه مُحَمَّد عَبْدُه آراء بعض المُفَسِّرِيْن التي لا تحقق التناسب بين الآيات، والتي قضت علىٰ بَلَاغَة القُرْآن الكَرِيْم وتَرْتِيْب مبادئه وأَحْكَامه.

لذٰلِكَ يبدأ بخُلَاصَة السورة وما فيها من دعوة الإِسْلَام وأَحْكَامه وقَوَاعِده، ويُبَيِّن وجه اتصالها بالسورة التي سبقتها.

ويكرر القول: هٰذِهِ الآية مُتَّصِلَة بما قبلها، ووجه المناسبة والاتصال بين هٰذِهِ الآية وما قبلها ظَاهِر علىٰ هٰذَا التَّفْسِيْر...، والصِّلَة بين قوله تعالىٰ... الآية وبين ما قبلها واضحة جلية(٣).

٢- الكشف عن بَلَاغَة القُرْآن الكَرِيْم وإعجازه:

فكان يوضح معاني كلمات القُرْآن الكَرِيْم وبَلَاغَة آياته، ويؤكد علىٰ إعجازه

---

(١) تَفْسِيْر المَنَار، المُقَدِّمَة ج١ ص١٤-١٦.

(٢) التَّفْسِيْر والمُفَسِّرُوْن للذَّهَبِيّ ج٣ ص٢٤٣.

(٣) تَفْسِيْر المَنَار ج١ ص٣٥٨ في تَفْسِيْر الآية ١١٥ من سورة البقرة.

وتَفْسِيْر المَنَار ج١ ص٣٦٧ في تَفْسِيْر الآية ١٢١ من سورة البقرة.

كَثِيْراً. وكان يعرض المَسَائِل النَّحْوِيَّة والبلاغية واللُّغَوِيَّة، ويتوسع في بعضها أَحيَاناً، بَيَاناً وإِيْضَاحاً لجمال أُسْلُوْبه.

وأفرد في بعض الأَحْيَان كلاماً عن إعجاز القُرْآن الكَرِيْم، من حيث: أُسْلُوْبه، ونظمه، وبلاغته، وبما فيه من علم الغَيْب، وسَلَامته من الاختلاف، وبما فيه من العُلُوْم الدِّيْنِيَّة والتَّشْرِيْع، وعجز الزَّمَان عن إبطال شيء منه، وتَحْقِيْق مَسَائِل كانت مجهولة للبشر... كما في تَفْسِيْر آيات سورة البقرة ٢٣-٢٤: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1].

وأوضح طريقة البَلَاغَة وتعريفها[2]، وتوقف فهم القُرْآن عليها[3] في التَّفْسِيْر.

قال في تَفْسِيْر آيات سورة البقرة: ١١٤-١١٧: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾: (إنك لترىٰ فيه فُنُوْناً من الاستدراك والاحتراس قد جاءت في خلال القصص وسياق الأَحْكَام، تقرأ الآية في حكم من الأَحْكَام أو عظة من المَوَاعِظ أو واقعة تَارِيْخِيَّة فيها عِبْرَة من العِبَر، فتراها مستقلة بالبَيَان، ولٰكِن باتصالها بما قبلها قد أزالت وهماً، أو تممت حكماً.

وكان ينبغي لأهل العَرَبِيَّة أن يقتبسوا هٰذِهِ الضروب من البَيَان، ويتوسعوا بها

(١) تَفْسِيْر المَنَار ج١ ص١٦٥.

(٢) تَفْسِيْر المَنَار ج١ ص١٦٨.

(٣) تَفْسِيْر المَنَار ج١ ص١٥٢-١٥٣ في تَفْسِيْر الآية ٢١-٢٢ من سورة البقرة.

في أساليب الكلام، فإن القُرْآن قد أطلق لهم اللُّغَة من عقالها، وعلمهم من الأساليب الرفيعة ما كانت تستحليه أذواقهم، وتنفعل له قلوبهم، وتهتز له نفوسهم، وتتحرك أريحتهم، ولٰكِنهم لم يوفقوا لاقتباس هٰذِهِ الأساليب الجديدة علىٰ أن ملكتهم في حسن البَيَان قد ارتفعت بعد نُزُوْل القُرْآن)[1].

وذٰلِكَ:

لأن القُرْآن هو حُجَّة الله البَالِغَة علىٰ دينه الحق، فلا بَقَاء للإِسْلَام إلَّا بفهم القُرْآن فهماً صَحِيْحاً، ولا بَقَاء لفهمه إلَّا بحياة اللُّغَة العَرَبِيَّة، فإن كان بَاقِياً في بعض بلاد الأعاجم فإنما بقاؤه بوجود بعض العُلَمَاء العَارِفِيْن من التَّفْسِيْر ما يكفي لرد الشبهات عن القُرْآن عندهم، وببَقَاء ثِقَة العامة بهم، وبما يقولونه تقليداً لهم فيه، أو بعدم عروض الشبه لهم، من دعاة الأديان الأُخْرَىٰ مع تَأْثِيْر الوراثة والتقليد[2].

٣- شرح مباني الإِسْلَام:

بَيَّنَ السَّيِّد رَشِيْد أن القُرْآن الكَرِيْم مصدر هِدَايَة. ورأىٰ أن الحاجة شديدة إلىٰ تَفْسِيْرٍ تتوجه العِنَايَة الأُوْلَىٰ فيه إلىٰ هِدَايَة القُرْآن علىٰ الوجه الذي يتفق مع الآيات الكَرِيْمَة المنزلة في وصفه، وما أنزل لأجله من الإنذار والتبشير والهِدَايَة والإِصْلَاح... .

ثم العِنَايَة إلىٰ مُقْتَضَىٰ حال هٰذَا العَصْر في سهولة التعبير، ومراعاة أفهام صنوف القارئين، وكشف شبهات المشتغلين بالفلسفة والعُلُوْم الطبيعية وغيرها[3].

قال: والتَّفْسِيْر الذي نطلبه هو فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلىٰ ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخِرَة، فإن هٰذَا هو المقصد الأعلىٰ منه وما وراء

---

(١) تَفْسِيْر المَنَار ج١ ص٣٥٩.

(٢) تَفْسِيْر المَنَار، المُقَدِّمَة ج١ ص٢٤.

(٣) تَفْسِيْر المَنَار، المُقَدِّمَة ج١ ص١٠-١١.

هٰذَا من المباحث تابع له وأداة أو وسيلة لتَحْصِيْله[١].

ورأىٰ السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا: أن المُسْلِمِيْن ما ضعفوا، وزال ما كان لهم من الملك الوَاسِع إلَّا بإعراضهم عن هِدَايَة القُرْآن، ولا يعود إليهم شيء مما فقدوا من العِزّ والسيادة والكَرَامَة إلَّا بالرجوع إلىٰ هدايته والاعتصام بحبله، كما يرون ذٰلِكَ مبيناً في تَفْسِيْر الآيات الكَرِيْمَة الدالة عليه.

ولا يتم لهم ذٰلِكَ إلَّا بالاتفاق علىٰ إحياء لغته، فالدعاء له دعاء لها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ - الأنفال: ٢٤[٢].

ورأىٰ أن من سوء حظ المُسْلِمِيْن أن أكثر ما في كتب التَّفْسِيْر يشغل قارئه عن هٰذِهِ المَقَاصِد العَالِيَة، والهِدَايَة السَّامِية، فمنها ما يشغله عن القُرْآن بمباحث الإعراب وقَوَاعِد النَّحْو ونكت المعاني ومُصْطَلَحَات البَيَان، ومنها ما يصرفه عنه بجدل المتكلمين وتَخْرِيْجَات الأُصُوْلِيِّيْن، واستنباطات الفُقَهَاء المقلدين، وتَأْوِيْلَات المُتَصَوِّفِيْن، وتعصب الفِرَق والمَذَاهِب بعضها علىٰ بعض...[٣].

لأن التَّفْسِيْر بالمُصْطَلَح يؤدي إلىٰ إخضاع القُرْآن إلىٰ الآراء والمَذَاهِب والفلسفات. وهٰذَا معناه إخضاع كلام الله تعالىٰ إلىٰ العوارض الحياتية المُخْتَلِفَة والأَهْوَاء البشرية المتباينة.

ومن هنا ينفذ الخطأ والباطل والاعوجاج إلىٰ فهم المُسْلِمِيْن لكتابهم، وبالتالي لا تقوم حياتهم كَامِلَة علىٰ المَوَازِيْن الدقيقة التي أرادها الإِسْلَام أن تكون حاكمة لحياتهم.

ولذٰلِكَ انتقد المُفَسِّرِيْن الكلامين المُعْتَزِلَة منهم والأَشَاعِرَة، حتىٰ الرَّازِيّ

---

(١) تَفْسِيْر المَنَار، المُقَدِّمَة ج١ ص١٧.

(٢) تَفْسِيْر المَنَار، المُقَدِّمَة ج١ ص٢٦.

(٣) تَفْسِيْر المَنَار، المُقَدِّمَة ج١ ص٨.

مع اعتباره إمَام النظار. وانتقد المؤولين لبعض المتشابهات في القُرْآن، انطلاقاً من قوله بمَذْهَب السَّلَف. وانتقد أَيْضاً التَّفْسِيْر الإشاري وتَأْوِيْلات الصُّوْفِيَّة والبَاطِنِيَّة[١].

وأوضح أن الإسْلَام قد قام وانتشر بالهِدَايَة لا بالسَّيْف[٢] لموافقته لمصالح البشر في كل زَمَان ومكان.

وانطلق مما تقدم إلىٰ بَيَان حقيقة الإسْلَام ومبانيه وأُسسه ونظمه.

فإذا مر بآيات العَقِيْدَة تحدث عنها بوضوح، مبيناً أن مصدرها الأول هو القُرْآن الكَرِيْم، أما ما ورد في كتب الفِرَق والتَّارِيْخ فليس محل اعتماد، فهو يقول: (يجب علىٰ المسلم ألا ينظم الآية في سِمْط أَخْبَار التَّارِيْخ، ولا في سلك علم المِلَل والنِّحَل، أو علم المُنَاظَرَة والجدل، بل يتلوها متذكراً أنها ما أُنزلت إلَّا هِدَايَة وعِبْرَة لمن يؤمن بالقُرْآن، ليتقوا الخلاف في الدِّيْن والتفرق فيه إلىٰ شيع ومَذَاهِب اتباعاً لسُنَن من قبلهم)[٣].

---

(١) موقف صاحب المَنَار من المُفَسِّرِيْن: د. مُحْسِن عَبْد الحَمِيْد، مَجَلَّة كُلِّيَّة الآداب، العدد ١٣ ص٤٦٤-٤٦٥. وانظر بحثه: تَفْسِيْر القُرْآن بالمُصْطَلَحَات، مَجَلَّة كُلِّيَّة الدراسات الإسْلَامِيَّة، العدد ٣.

(٢) تَفْسِيْر المَنَار ج٣ ص٣٠ في تَفْسِيْر الآية: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ - البقرة: ٢٥٦.

(٣) تَفْسِيْر المَنَار ج٣ ص٢١٣ في تَفْسِيْر الآية: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾ - آل عِمْرَان: ١٩.

وانظر مثلاً:

كلامه عن أُصُوْل الدِّيْن الإسْلَامِيّ وأُسسه، في: تَفْسِيْر المَنَار ج١ ص١٥٣ في تَفْسِيْر الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ - البقرة: ٢١.

وعن التَّوْحِيْد والتنزيه والاستعانة به سُبْحَانَهُ، في: تَفْسِيْر المَنَار ج١ ص٣٠و٥٠ في تَفْسِيْر أول سورة الفاتحة.

وإذا فسر آيات العِبَادَة بَيَّنَ الحكمة من تَشْرِيْعها في تَهْذِيْب الأَخْـلَاق وتربية الضمائر[1].

وتَفْسِيْر المَنَار ج١ ص٣٥٤ في تَفْسِيْر الآية ١١٢ من سورة البقرة.

وعن القَضَاء والقَدَر، في: تَفْسِيْر المَنَار ج١ ص٢٥٨ في تَفْسِيْر الآية ٤٩ من سورة البقرة.

وعن الإيمان باليوم الآخر، في: تَفْسِيْر المَنَار ج٢ ص٨٩ في تَفْسِيْر الآية ١٧٧ من سورة البقرة.

وعن الوحي، في: تَفْسِيْر المَنَار ج١ ص١١١ في تَفْسِيْر الآية ٤ من سورة البقرة.

وتَفْسِيْر المَنَار ج١ ص١٨٤ في تَفْسِيْر الآية ٢٣ من سورة البقرة.

وتَفْسِيْر المَنَار ج٦ ص٥٥ في تَفْسِيْر الآية ١٦٣ من سورة النساء.

وكلامه عن الرسل والوحي والبعث والجزاء، في: تَفْسِيْر المَنَار ج٨ ص٢٣٨ وما بعدها، في خُلَاصَة سورة الأنعام.

وتَفْسِيْر المَنَار ج١١ ص١١٨ وما بعدها، في تَفْسِيْر الآيات ١-٢ من سورة يُوْنُس.

وكلامه عن مَسْأَلَة رؤية الله تعالىٰ، وعن كلامه النفسي واللفظي، في: تَفْسِيْر المَنَار ج٩ ص١٠٤ وما بعدها، في تَفْسِيْر الآية: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ - الأعراف: ١٤٣.

(١) انظر مثلًا كلامه عن المُرَاد بالعِبَادَة وحكمتها، في: تَفْسِيْر المَنَار ج١ ص٤٧ في تَفْسِيْر الآية: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ - الفاتحة: ٥.

وانظر أَيْضاً: تَفْسِيْر المَنَار ج٢ ص١١٥ في تَفْسِيْر آيات الصيام في الآية ١٨٣ من سورة البقرة.

وتَفْسِيْر المَنَار ج٢ ص١٧٤ في تَفْسِيْر آيات الحج في الآية ١٩٦ من سورة البقرة.

وانظر أَيْضاً كلامه عن الصلاة والزكاة، في: تَفْسِيْر المَنَار ج١ ص١٠٨ وما بعدها، في تَفْسِيْر أول سورة البقرة.

وتَفْسِيْر المَنَار ج١ ص٢٤٣ وما بعدها، في تَفْسِيْر الآية ٤٣ من سورة البقرة.

وإذا فسر الآيات المُتَّصِلَة بنظام الأَخْلَاق أوضح الجانب الأَخْلَاقِيّ في الإِسْلَام، وأثره في الحياة العامة والخاصة(١).

وإذا اتَّصَلت الآيات بالنظام السياسي، بين ذٰلِكَ الجانب، سواء في السِّيَاسَة أم الجِهَاد، موضحاً أهمية بناء وحدة المُسْلِمِيْن(٢).

وأوضح أن الغُلُوّ في العِبَادَة بتجاوز حدود الشَّرِيْعَة مما يستنكر في الإِسْلَام، في: تَفْسِيْر المَنَار ج٧ ص١٦ في تَفْسِيْر الآية: ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ - المائدة: ٨٧-٨٨.

وانظر حَدِيْثه عن الإلحاد ومعناه، في: تَفْسِيْر المَنَار ج٩ ص٣٦٩ في تَفْسِيْر الآية: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦۚ﴾ - الأعراف: ١٨٠.

(١) انظر مثلًا: تَفْسِيْر المَنَار ج٤ ص١٦٢ في تَفْسِيْر الآية: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ﴾ - آل عِمْرَان: ١٥٩.

وكلامه في تَأْثِير الأَخْلَاق علىٰ الأُمَم وهلاكها بفسادها، في: تَفْسِيْر المَنَار ج٨ ص٣٦٠ في تَفْسِيْر الآية ٣٤ من سورة الأعراف.

وتَفْسِيْر المَنَار ج٩ ص٤٥٦ في تَفْسِيْر الآية ٢٠٠ من سورة الأعراف.

وتَفْسِيْر المَنَار ج١٠ ص٣٤ في تَفْسِيْر الآية ٥٣ من سورة الأنفال.

(٢) انظر مثلًا: كلامه عن الشُّوْرَىٰ، في: تَفْسِيْر المَنَار ج٤ ص١٦٣ في تَفْسِيْر الآية ١٥٩ من سورة آل عِمْرَان.

وعن القتال في الإِسْلَام وتَشْرِيْعه، في: تَفْسِيْر المَنَار ج١ ص٩٨ في أول خُلَاصَة سورة البقرة.

وتَفْسِيْر المَنَار ج٢ ص١٦٨-١٧٤ في تَفْسِيْر الآيات ١٩٠-١٩٤ من سورة البقرة.

وتَفْسِيْر المَنَار ج٥ ص٢٠٩ في تَفْسِيْر الآيات ٧٤-٧٦ من سورة النساء.

وعن الجِهَاد، في: تَفْسِيْر المَنَار ج٤ ص١٢٨ في تَفْسِيْر الآية ١٤٢ من سورة آل عِمْرَان.

وإذا اتَّصلت الآيات بالنظام الاقْتِصَادِيّ، أوضح أهمية الاقْتِصَاد في بناء الشخصية المالية، ونظرة الإسْلَام إلىٰ المال(١).

وإذا مر بآيات النظام الاجتماعي، تحدث عنها بما يشفي الغليل(٢).

وعن الحكم بالعَدْل والتنازع بين أُولي الأمر في الأَحْكَام، في: تَفْسِيْر المَنَار ج٥ ص١٣٦ في تَفْسِيْر الآيات ٥٨-٥٩ من سورة النساء.

وكلامه عن العَدْل، في: تَفْسِيْر المَنَار ج٦ ص٢٢٦ في تَفْسِيْر الآية ٨ من سورة المائدة.

(١) انظر مثلًا: حَدِيْثه عن الربا، وحكمة تحريمه، ومضاره، في: تَفْسِيْر المَنَار ج٣ ص٧٩-٩٨ في تَفْسِيْر آيات الربا ٢٧٥-٢٧٩ من سورة البقرة.

وتَفْسِيْر المَنَار ج٤ ص١٠٠ في تَفْسِيْر الآية: ﴿لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ - آل عِمْرَان: ١٣٠.

وتَفْسِيْر المَنَار ج٤ ص٣٠٩ في تَفْسِيْر الآية: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ - النساء: ٥.

وتَفْسِيْر المَنَار ج١ ص١٠٠ و ج٢ ص١٥٧ في تَفْسِيْر الآية: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ - البقرة: ١٨٨.

وتَفْسِيْر المَنَار ج٣ ص٩٩-١١٣ في تَفْسِيْر آية كتابة الدَّيْن والإشهاد عليه ٢٨٢-٢٨٣ من سورة البقرة.

(٢) انظر مثلًا: كلامه عن التعاون، في: تَفْسِيْر المَنَار ج٦ ص١٠٨-١٠٩ في تَفْسِيْر الآية ٢ من سورة المائدة.

وعن إتيان اليتامىٰ أموالهم، في: تَفْسِيْر المَنَار ج٤ ص٢٧٨ في تَفْسِيْر الآية ٢ من سورة النساء.

وعن تعدد الزوجات، في: تَفْسِيْر المَنَار ج٤ ص٢٨٢ في تَفْسِيْر الآية ٣ من سورة النساء.

وعن قوامة الرجل وأَحْكَام النشوز والشقاق، في: تَفْسِيْر المَنَار ج٥ ص٥٥ في تَفْسِيْر الآيات ٣٤-٣٥ من سورة النساء.

والسَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ما يمر بآية فيها مجال لعرض الإسْلَام ومبادئه إلّا واستغلها، وأفاض الكلام بها موضحاً الحكمة من تَشْرِيْعها.

ولذٰلِكَ دافع عن الإسْلَام دفاعاً لا نظير له أمام المستشرقين والملاحدة في مِصْر وتُرْكِيَّا وغيرهما، فرد علىٰ البدع والمطاعن الموجهة إلىٰ الإسْلَام[1].

٤- اطِّرَاح المبذول من الآراء في التَّفْسِيْر:

ترك السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا في تَفْسِيْره كل رأي مبذول، وقول مرذول لم يَصِحّ.

فالروايات المَأْثُوْرَة عن النَّبِيّ ﷺ وأصحابه وعُلَمَاء التَّابِعِيْن في التَّفْسِيْر، منها ما هو ضروري، لأن ما صح من المرفوع لا يقدم عليه شيء، ويليه ما صح عن عُلَمَاء الصَّحَابَة مما يتعلق بالمعاني اللُّغَوِيَّة أو عمل عَصْرهم، والصَّحِيْح من هٰذَا وذاك قليل.

وعن الوصية بالميراث، في: تَفْسِيْر المَنَار ج٤ ص٣٣٠ في تَفْسِيْر الآيات ١١-١٢ من سورة النساء.

وعن عضل النساء ومعاشرتهن بالمعروف، في: تَفْسِيْر المَنَار ج٤ ص٣٧٢ في تَفْسِيْر الآية ١٩ من سورة النساء.

وعن القصاص وأن فيه الحياة، في: تَفْسِيْر المَنَار ج٢ ص٩٩ في تَفْسِيْر الآيات ١٧٨-١٧٩ من سورة البقرة.

وعن الرَّقِيْق وأَحْكَامه، وما شرع لتَحْرِيْره، والوصية به، في: تَفْسِيْر المَنَار ج١١ ص٢٣٦ في تَفْسِيْر الآيات ١-٢ من سورة يُوْنُس.

(١) انظر مثلًا: رده علىٰ النَّصَارَىٰ الذين شككوا في الإسْلَام، وطعنوا في القُرْآن، في: تَفْسِيْر المَنَار، المُقَدِّمَة ج١ ص٢٥.

وتَفْسِيْر المَنَار ج١ ص٦٥ في تَفْسِيْر سورة الفاتحة.

وتَفْسِيْر المَنَار ج١ ص١٨٨ في تَفْسِيْر الآية ٢٣ من سورة البقرة.

وتَفْسِيْر المَنَار ج٤ ص٢١٧ في تَفْسِيْر الآية ١٨١ من سورة آل عِمْرَان.

وأكثر التَّفْسِيْر المَأْثُوْر قد سرىٰ إلىٰ الرُّوَاة من زنادقة اليَهُوْد والفرس ومسلمة أهل الكتاب، كما قال الحافظ ابن كَثِيْر. وجُلُّ ذٰلِكَ في قصص الرسل مع أقوامهم، وما يتعلق بكتبهم ومعجزاتهم، وفي تَارِيْخ غيرهم كأصحاب الكهف، ومَدِيْنَة إرَم ذات العِمَاد، وسحر بابل، وعوج بن عنق. وفي أُمُور الغَيْب من أشراط الساعة وقيامتها وما يكون فيها وبعدها. وجُلُّ ذٰلِكَ خرافات ومُفْتَرَيَات، صَدَّقَهُم فيها الرُّوَاة، حتىٰ بعض الصَّحَابَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولذٰلِكَ قال الإمَام أَحْمَد: ثلاثة ليس لها أصل: التَّفْسِيْر، والملاحم، والمَغَازِي[1].

وكان الواجب جمع الروايات المُفِيْدة في كتب مستقلة، كبعض كتب الحَدِيْث، وبَيَان قِيْمَة أسانيدها، ثم يذكر التَّفْسِيْر ما يَصِحّ منها بدون سند، كما يذكر الحَدِيْث في كتب الفِقْه، لٰكِن يعزىٰ إلىٰ مُخَرِّجِهِ كما نفعل نحن في تَفْسِيْرنا[2].

ومن هنا أوضح السَّيِّد رَشِيْد أن الإسرائيليات شوهت التَّفْسِيْر[3]، وذٰلِكَ بعد أن نقل قول ابن تَيْمِيَّة بالوقف عن تَصْدِيْق جميع ما عرف أنه من رُوَاة الإسرائيليات ككَعْب الأحبار ووَهْب بن مُنَبِّه، وهو في غير ما يقوم الدليل علىٰ بطلانه في نفسه، قال: (فكيف لو تبين له ما تبين لنا من كذب كَعْب ووَهْب، مع أن قدماء عُلَمَاء الجَرْح والتَّعْدِيْل اغتروا بهما وعدلوهما، وعزوهما إلىٰ التوراة وغيرها من كتب الرسل ما ليس فيها شيء منه ولا حَوَّمَت حوله... وإنما الوقف فيما ينقل نَقْلاً صَحِيْحاً عن كتب الأنبياء كالتوراة والإنجيل التي عندهم، لا نصدقهم فيه لاحتمال أنه مما حرفوا فيها، ولا نكذبهم

(١) لم يقصد أنه لا يوجد في تلك الثلاثة رِوَايَة صَحِيْحَة البتة، وإنما يريد أن أكثرها لا يَصِحّ له سند مُتَّصِل، وما صح سنده إلىٰ بعض الصَّحَابَة يقل فيه المرفوع الذي يحتج به. / تَفْسِيْر المَنَار ج١ ص١٠.

(٢) تَفْسِيْر المَنَار ج١ ص٨-٩.

(٣) انظر مثلًا: تَفْسِيْر المَنَار ج١١ ص٣٨٧ في تَفْسِيْر الآية ٨٨ من سورة يُوْنُس.

وتَفْسِيْر المَنَار ج٦ ص٢٧٤ في تَفْسِيْر الآية ٢٢ من سورة المائدة.

لاحتمال أنه مما حفظوا منها)[١].

وذكر سبب ذٰلِكَ بقوله: (واليَهُوْد كانوا يلقون إلىٰ المُسْلِمِيْن أَخْبَاراً من خرافاتهم أو مخترعاتهم، ليودعوها كتبهم، ويمزجوها بدينهم، ولذٰلِكَ نجد في كتب قومنا من الإسرائيليات الخرافية ما لا أصل له في العهد القديم، ولا يزال يوجد فينا من يقدس كل ما رُوِيَ عن أوائلنا في التَّفْسِيْر وغيره، ويرفعه عن النقد والتمحيص، ولا يتم تمحيص ذٰلِكَ إلَّا لمن اطلع علىٰ كتب بني إسرائيل)[٢].

وكان يرد جميع الروايات الواهية في التَّفْسِيْر، كالتي قيلت في تَفْسِيْر قوله تعالىٰ: ﴿هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ - يُوْسُف: ٢٤[٣]. وكرده علىٰ الاستدلال بالحروف المقطعة في أوائل السور علىٰ عُمْر الدنيا بحساب الجُمَّل[٤].

٥- استقلال الفكر:

كان السَّيِّد رَشِيْد يناقش العُلَمَاء في ما لا يرىٰ ما يرونه، ويدعم رأيه بالدليل، ويرد علىٰ جُمْهُوْر الفُقَهَاء القائلين بأن حكم الآية ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ - البقرة: ١٨٠، منسوخ بآية المواريث، أو حَدِيْث: لا وصية لوَارِث، قائلاً: (وصَفْوَة القول أن الآية غير منسوخة بآية المواريث، لأنها لا تعارضها، بل تؤيدها، ولا دليل علىٰ أنها بعدها، ولا بالحَدِيْث، لأنه لا يصلح لنسخ الكتاب...)[٥].

وحمل علىٰ جُمْهُوْر الفُقَهَاء القائلين: بأن المسافر لا يجوز له التَّيَمُّم مع وجود الماء، بدليل آية التَّيَمُّم: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ

(١) تَفْسِيْر المَنَار ج١ ص٩-١٠.
(٢) تَفْسِيْر المَنَار ج٤ ص٢١٩ في تَفْسِيْر الآية ١٨٣ من سورة آل عِمْرَان.
(٣) تَفْسِيْر المَنَار ج١٢ ص٢٣١.
(٤) تَفْسِيْر المَنَار ج٩ ص٣٩٧ في تَفْسِيْر الآية: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ - الأعراف: ١٨٧.
(٥) تَفْسِيْر المَنَار ج٢ ص١١٤.

ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ - النساء: ٤٣، وقرر أن المسافر يجوز له التَّيَمُّم ولو كان الماء بين يديه، ولا عِلَّة تمنعه من اسْتِعْمَاله إِلَّا كونه مسافراً(١).

وكان يتعقب الآلُوْسِيّ والرَّازِيّ وغيرهما في مواضع كثيرة.

وانتقد كَثِيْراً من المُفَسِّرِيْن الذين لم يعتنوا بمَعْرِفَة المِلَل والنِّحَل وتَارِيْخ أهلها، ودعا إلىٰ عدم الاعتماد علىٰ أمثال الزَّمَخْشَرِيّ والبَيْضَاوِيّ والرَّازِيّ في تَارِيْخ الأديان، لأنهم لم يقرؤوا ما في كتبهم ولم يناظروهم.

وفي هٰذَا مُبَالغَة، إذ إن مَسَائِل الخلاف بين المُسْلِمِيْن والنَّصَارَىٰ كقضية التثليث والصلب وغيرهما معروفة(٢).

٦- محاربة التقليد والدعوة إلىٰ الاجْتِهَاد:

بَيَّنَ السَّيِّد رَشِيْد بطلان التقليد - كما تقدم - وشبهات أهله(٣).

ودعا إلىٰ الاجْتِهَاد، وأوضح أن الذين تواطؤوا علىٰ القول بإِقْفَال بابه حرموا علىٰ أنفسهم الاستقلال والفهم(٤). قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إن حُجَّة الله تعالىٰ بإِكْمَال الله الدِّيْن بالقُرْآن، وختمه النُّبُوَّة بمُحَمَّد ﷺ، وجعل شريعته عامة دائمة، لا تظهر إِلَّا ببناء هٰذَا الدِّيْن علىٰ أَسَاس العقل، وبناء هٰذِهِ الشَّرِيْعَة علىٰ أَسَاس الاجْتِهَاد وطاعة أُولي الأمر، الذين هم جَمَاعَة أَهْل الحَلّ والعَقْد. فمن منع الاجْتِهَاد فقد منع حُجَّة الله تعالىٰ، وأبطل مَزِيَّة هٰذِهِ الشَّرِيْعَة علىٰ غيرها، وجعلها غير صالحة لكل الناس في كل زَمَان. فما أشد جناية هٰؤُلَاءِ الجهال علىٰ الإِسْلَام...)(٥).

---

(١) تَفْسِيْر المَنَار ج٥ ص٩٨. والتَّفْسِيْر والمُفَسِّرُوْن ج٣ ص٢٥٣.

(٢) موقف صاحب المَنَار من المُفَسِّرِيْن ص٤٦٩-٤٧٠ من مَجَلَّة كُلِّيَّة الآداب.

(٣) تَفْسِيْر المَنَار ج٧ ص١٧٢ في تَفْسِيْر الآية ١٠٤ من سورة المائدة.

(٤) تَفْسِيْر المَنَار ج٥ ص٧٧ في تَفْسِيْر الآية ٣٦ من سورة النساء.

(٥) تَفْسِيْر المَنَار ج٦ ص٣٤٧ في تَفْسِيْر الآية ٤٨ من سورة المائدة.

وحارب السَّيِّد رَشِيْد البدع والخرافات، وأشار في كلامه في التَّفْسِيْر إلىٰ الكثير من ذٰلِكَ[(١)].

٧- تَحْكِيْم العقل:

رأىٰ السَّيِّد رَشِيْد أن أُصُوْل الدِّيْن في العَقَائِد وحكمة التَّشْرِيْع مبنية علىٰ إدراك العقل لها، واستبانته لما فيها من الحق والعَدْل ومصالح العِبَاد وسد ذَرَائِع الفساد.

والشَّاهد عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ - البقرة: ١٧٠، وفيه الاستدلال علىٰ تَوْحِيْده بآياته في السموات والأرض وما بينهما، وإبطال التقليد.

وكذٰلِكَ قوله تعالىٰ بعد ذكر طائفة من الأَحْكَام العَمَلِيَّة: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ - البقرة: ٢٤٢[(٢)].

لذٰلِكَ رد حيلة منع الزكاة في تَفْسِيْر قوله تعالىٰ: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ - البقرة: ٢٦٩، قال: (فالآية بإطلاقها رَافِعة لشأن الحكمة بأَوْسع معانيها، هَادِية إلىٰ اسْتِعْمَال العقل في أَشْرَف ما خلق، ومن رُزِئَ بالتقليد كان محروماً من ثمرة العقل وهي الحكمة... وقد يجد في فِقْه الناس أن الله لم يوجب عليه غير الزكاة التي لا تجب إلَّا بعد أن يحول الحول، وهو مَالِك للنصاب، وأنه إذا وهب امرأته ماله قبل انْقِضَاء الحول بيوم أو يومين، ثم استوهبها إياه بعد دخول الحول الجديد بيوم أو يومين لم تجب عليه الزكاة، ويمكن علىٰ هٰذَا أن يملك

---

(١) انظر مثلًا: كلامه علىٰ الزار ومضاره، في: تَفْسِيْر المَنَار ج٨ ص٣٢٨ في تَفْسِيْر الآية ٢٧ من سورة الأعراف.

وعن الموالد والمَحْمِل المِصْرِيّ، في: تَفْسِيْر المَنَار ج١٠ ص٣١٢ في تَفْسِيْر الآية ٣٠ من سورة التوبة.

وتقدم الكلام عن موقفه من البِدَع المُخْتَلِفَة.

(٢) تَفْسِيْر المَنَار ج١ ص١٠١-١٠٢.

أُلوف الأُلوف من الدنانير، وتمر عليه السنون والأحوال، لا ينفق منها شَيْئاً في سَبِيْل الله، ويكون مُؤْمِناً عاملاً بِفِقْه الناس، ولٰكِنه إذا عرض نفسه علىٰ القُرْآن، وفَقِهَ ما أنزل فيه الله من غير تقليد ولا غرور بعظمة شهرة المحتالين المحرفين، فإنه يعلم أنه يكون بهٰذَا المنع عدواً لله ولكتابه، محروماً من الخير الكثير الذي آتاه تعالىٰ لأهله)[1].

وكان يستشهد علىٰ صحة ما يقول بالمكتشفات العِلْمِيَّة الحَدِيْثَة، لئلا يقال: إن القُرْآن بعيد عما استقر عليه العلم الحَدِيْث، قال: (إن إدخال مباحث عُلُوْم الكون في التَّفْسِيْر هو من أهم أركانه والعَمَل بهدي القُرْآن فيه، فهو مملوء بذكر آيات الله في خلق السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما. وكان سلفنا من مفسري السَّلَف والخَلَف يذكرون ما يعلمون من أَسْرَار الخلق، وكذا ما يتلقونه عن أهل الكتاب)[2].

وقد أعطىٰ لعقله الحرية الوَاسِعَة في تَفْسِيْر الآيات اعتداداً بعلمه، وعدم تقيّده ببعض المسلمات عند العُلَمَاء.

ففي تَفْسِيْر الآية ٢٧٥ من البقرة في شأن المرابين، رأىٰ أن صاحب الكَبِيْرَة التي هي في درجة أكل الربا وقتل العمد إذا مات من غير توبة منها يخلد في النار ولا يخرج منها أبداً، وبذٰلِكَ يخالف أَهْل السُّنَّة[3].

(١) تَفْسِيْر المَنَار ج٣ ص٦٤.

(٢) تَفْسِيْر المَنَار ج٩ ص١٥٤ في تَفْسِيْر آية الرؤية ١٤٣ من سورة الأعراف.

وانظر ما ذكره من أقوال الأطباء في ضرر الخمر، في: تَفْسِيْر المَنَار ج٢ ص٢٥٩ في تَفْسِيْر الآية ٢١٩ من سورة البقرة.

وما قاله عُلَمَاء الفلك في خلق السماوات والأرض، في: تَفْسِيْر المَنَار ج٨ ص٣٩٧ في تَفْسِيْر الآية ٥٤ من سورة الأعراف.

وما قاله العُلَمَاء المُحْدَثُوْن في تصرف الأرواح، وفي الرياح، وأسبابها ومَنَافِعها، في: تَفْسِيْر المَنَار ج٨ ص٤١٤ وما بعدها، في تَفْسِيْر الآية ٥٧ من سورة الأعراف.

(٣) تَفْسِيْر المَنَار ج٣ ص٨٢-٨٣. والتَّفْسِيْر والمُفَسِّرُوْن ج٣ ص٢٤٦.

ورأىٰ أن السحر ضرب من التمويه والخداع، وليس له حقيقة، كما يقول جُمْهُوْر أَهْل السُّنَّة[1].

وأنكر تسلط الشياطين علىٰ الناس بالنفع والضر، وأجازه بالإغواء، فقط قال: (والدِّيْن لم يُثْبِت للشياطين ما يزعمه الدجالون، كزعمهم أن الشياطين يمرضون الأجساد ويخطفون الأطفال، ولم يُثْبِت لهم ولا لغيرهم ما يدعونه من التصرف فيهم. وإنما يُثْبِت كتاب الله تعالىٰ للشياطين وسوسة، هي من الأسباب العادية للتَّأْثِيْر في القلوب المستعدة لها، كتَأْثِيْر جنة الهوام في الأجساد المستعدة، وأن مقاومة كل منها في استطاعة الإنسان، وقد أرشده إليه القُرْآن)[2].

ورأىٰ أن آية نُبُوَّة مُحَمَّد ﷺ كتابه المعجز للبشر بهدايته وعُلُوْمه وإعجازه اللفظي والمعنوي، القائمة علىٰ قَوَاعِد العلم والعقل في ثُبُوْتها وفي موضوعها، وهو الفَاصِل بين النُّبُوَّات الخاصة الماضية والنُّبُوَّة العامة البَاقِيَة، بدليل قوله ﷺ: (ما من الأنبياء من نَبِيّ إلَّا وقد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيته وحياً أوحاه الله إلَيَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة) - مُتَّفَق عليه.

وأن المُشْرِكِيْن حين اقترحوا العجائب علىٰ الرَّسُوْل ﷺ احتج عليهم بالقُرْآن في جملته وبما فيه من أَخْبَار الرسل والكتب السَّابِقَة التي لم يكن يعلمها هو ولا قومه، وبهدايته، وبعُلُوْمه، وبإعجازه، وعدم استطاعة أَحَد ولا جَمَاعَة ولا العالم كله علىٰ الاتيان بمثله: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ - الإسراء: ٨٨.

أما ما أكرمه الله تعالىٰ به من الآيات الكونية كنصرهم علىٰ المعتدين في بَدْر

(١) تَفْسِيْر المَنَار ج٧ ص٢٦٠ في تَفْسِيْر الآية ٧ من سورة الأنعام.
وتَفْسِيْر المَنَار ج٩ ص٤٢ في تَفْسِيْر الآية ١٠٧ من سورة الأعراف.
(٢) تَفْسِيْر المَنَار ج٨ ص٣٢٧ في تَفْسِيْر الآية ٢٧ من سورة الأعراف.

والأحزاب وغيرهما وشِفَاء المرضىٰ وإبصار الأعمىٰ... إلخ، فلم يكن لإقامة الحُجَّة علىٰ نبوته ورسالته، بل كان من رحمة الله تعالىٰ وعنايته به وبأصحابه في الشدائد[(١)].

وكان يصرف بعض ألفاظ القُرْآن الكَرِيْم عن ظواهرها، ويعدل بها إلىٰ المجاز والتشبيه. وهو مسلك الزَّمَخْشَرِيّ والشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه.

ففي الآية ٤٧ من النساء: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ ﴾، رأىٰ أن الطمس والرد علىٰ الأدبار معنويان، بعد أن سرد أقوال المُفَسِّرِيْن فيها. وذكر أن هٰذَا الرأي الذي مال إليه هو رأي شَيْخه مُحَمَّد عَبْدُه[(٢)].

لٰكِن تَحْكِيْمه العقل لم يكن سمة تَفْسِيْره العامة. وذٰلِكَ لأن السَّيِّد رَشِيْد قد مزج بين التَّفْسِيْر بالمَأْثُوْر والتَّفْسِيْر بالتَّأْوِيْل.

فتكوين السَّيِّد رَشِيْد الأصلي نقلي أَثَرِيّ علىٰ طريقة المتقدمين. ولٰكِن حين اتَّصَل بالشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه الذي كان يؤثر المَنْهَج العقلي، ولا يهتم بالمَنْهَج الأَثَرِيّ، تأثر بمَنْهَجه كما هو واضح في الأجزاء الخمسة الأُوْلَىٰ، لٰكِنه حين استقل بالعَمَل، وعاد إلىٰ المصادر التي كان يأخذ منها شَيْخه ويدع حسب مَنْهَجه، بدأ هواه الأول للعُلُوْم النقلية الأَثَرِيَّة يعاوده. لذٰلِكَ نراه يجمع بين الطريقتين.

فتتبع رِجَال التَّفْسِيْر بالمَأْثُوْر كالطَّبَرِيّ وابن كَثِيْر، ورِجَال التَّفْسِيْر بالرأي كالزَّمَخْشَرِيّ والرَّازِيّ[(٣)].

(١) تَفْسِيْر المَنَار ج١١ ص١٣١-١٣٢ في تَفْسِيْر الآية ٢ من سورة يُوْنُس.

(٢) تَفْسِيْر المَنَار ج٥ ص١١٨. والتَّفْسِيْر والمُفَسِّرُوْن ج٣ ص٢٤٩.

(٣) التَّفْسِيْر ورِجَاله لابن عاشور ص٢٥٢-٢٥٣. وموقف صاحب المَنَار من المُفَسِّرِيْن ص٤٦٢ من مَجَلَّة كُلِّيَّة الآداب.

٨- الاستشهاد بنُصُوْص التوراة والإنجيل:

كان السَّيِّد رَشِيْد يكثر من الاستدلال علىٰ ما يراه بنُصُوْص ينقلها من التوراة والإنجيل، دعماً لحجته، وإلزاماً للخصم(١).

وأَخِيْراً:

بهٰذَا يتضح لنا أن السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا عَلَمٌ من أَعْلَام الفكر الإسْلَامِيّ الحَدِيْث، قضىٰ عُمْره مُجَاهِداً بهمة لا تعرف الكلل ولا المَلَل، مدافعاً عن الإسْلَام في عَصْر ظهرت فيه بوادر الإلحاد والتفرنج، حريصاً علىٰ أن يظهر نظاماً كَامِلاً للحياة يلبي مصالح البشر في كل زَمَان ومكان.

---

(١) انظر مثلًا: تَفْسِيْر المَنَار ج٦ ص١١ وما بعدها، في تَفْسِيْر الآيات ١٥٣-١٥٩ من سورة النساء.

وتَفْسِيْر المَنَار ج٦ ص٦٧ وما بعدها، في تَفْسِيْر الآيات ١٧١-١٧٣ من سورة النساء.

وتَفْسِيْر المَنَار ج٦ ص٢٣١ في تَفْسِيْر الآيات ١٢-١٤ من سورة المائدة.

الفصل الرابع

الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس

وُلِدَ سنة ١٣٠٨هـ=١٨٨٩م

وتُوُفِّيَ سنة ١٣٥٩هـ=١٩٤٠م

وفيه:

تَمْهِيْد، مُقَدِّمَة تَارِيْخِيَّة.

المَبْحَث الأول: شخصية الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس.

المَبْحَث الثاني: آراء الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس.

٤٢٨

تَمْهِيْد

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ - الأحزاب: ٢٣.

الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس من أُوْلَٰئِكَ النفر الذين نذروا أنفسهم لخدمة هٰذِهِ الأُمَّة ودينها وتُرَاثها، بعد جهود فرنسا المكثفة لطمس تُرَاثها ومحو شخصيتها.

وكان أثره جلياً واضحاً في نهضة هٰذِهِ البلاد من خلال ما وَعَظَ في مسجده ومجالسه، وكتب في مجلته، وكَوَّنَ النُّخْبَة الصالحة من تلاميذه الذين دافعوا عن دين هٰذِهِ الأُمَّة، وحافظوا علىٰ كيانها، وحموا شخصيتها، بما بذلوه من جهود جَبَّارَة طوال حياتهم.

وهٰذَا البَحْث اشتمل علىٰ:

مُقَدِّمَة تَارِيْخِيَّة، فيها بَيَان حال الجَزَائِر في ظل الاحتلال الفرنسي.

وعلىٰ مَبْحَثَيْن:

أولهما: عن شخصية الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس ونشأته.

والمَبْحَث الثاني: عن آراء الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس في إصْلَاح الفرد والأُسرة والمجتمع، وتَوْحِيْد الأُمَّة ضد عدوها، مبيناً سَبِيْله في ذٰلِكَ الإصْلَاح في ميادين التَّعْلِيْم والإرْشَاد والدعوة إلىٰ الله تعالىٰ في دروسه في التَّفْسِيْر والحَدِيْث والفِقْه، وبناء شخصية الجَزَائِرِيّ بالمحافظة علىٰ: دينه الإسْلَام، ولغته العَرَبِيَّة، وحرية الجَزَائِر واستقلالها، والحرص علىٰ الأُخوة بين الشعوب...، وما يتصل بها من أُمُور.

معتمداً في بَيَان آرائه علىٰ أقواله وآثاره العِلْمِيَّة، فإنها أصدق شَاهد وأبين دليل علىٰ ذٰلِكَ.

مُقدِّمَة تَارِيخِيَّة

دخل الإسْلَام الجَزَائِر في النصف الثاني من القرن الأول الهِجْرِيّ. وسكنها العَرَب الفاتحون، وقبلهم الأمازيغ (البربر).

والأمازيغ تعني الأشراف، وهم كما قرر الثِّقَات من الباحثين: (أُمَّة يَمَنِيَّة عاربة قَحْطَانِيُّون، قد نزحوا من الجَزِيْرَة العَرَبِيَّة إلىٰ السُّوْدَان والمَغْرِب والأَنْدَلُس وجَزَائِر البَحْر المتوسط)، وهم يكرهون لقب (البربر) إلىٰ اليوم.

وامتزج الأمازيغ مع الفاتحين وتزاوجوا، ودخلوا الإسْلَام، ودافعوا عنه بإخلاص إلىٰ يومنا هٰذَا.

الاحتلال الفرنسي للجَزَائِر، والثورات ضده:

زعمت فرنسا باحتلالها الجَزَائِر أن الجَزَائِرِيِّيْن من (الغاليين)، قدماء سكان فرنسا، لذا وجب إحياء اللُّغَة الأمازيغية والأعراف الوثنية بدلاً من الشَّرِيْعَة الإسْلَامِيَّة، وحرمت عليهم التَّحَدُّث باللُّغَة العَرَبِيَّة، وحرمت عليه إنشاء المدارس العَرَبِيَّة التي تدرس القُرْآن.

وقد باءت هٰذِهِ المحاولات بالفشل، حين حاربها الأمازيغ أنفسهم، مؤكدين عُرُوْبَة الجَزَائِر وإسْلَامها وشدة اعتزازهم به(١).

وفي ٣٠/ كانون الثاني/ ١٨٣٠م، قررت الحكومة الفرنسية إرسال حَملَة إلىٰ الجَزَائِر، هدفها الأول التوسع، والحصول علىٰ موارد مالية، فنزل الجيش الفرنسي قرب

(١) الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص٢١.

مَدِيْنَة الجَزَائِر في ١٤/ حزيران/ ١٨٣٠م.

وفي ٥/ تموز استسلمت حكومة الجَزَائِر، وعقدت معاهدة مع الفرنسيين سميت باتفاق الجَزَائِر، تخلت الجَزَائِر عن سيادتها مقابل ضمان حرية العَمَل بالدِّيْن الإِسْلَامِيّ، وضمان حرية جميع الطَّبَقَات والأديان والممتلكات والتجارة والصناعات، واحترام المرأة الجَزَائِريَّة، والتقاليد الجَزَائِريَّة، وعدم الإيذان للجنود الفرنسيين بدخول المساجد(1).

بهٰذَا الاتفاق اعتبرت الجَزَائِر بمثابة (أرض أعداء محتلة)، ولم يوضع لها نظام خاص ثَابِت إلَّا في سنة ١٨٣٤م، فكانت في هٰذِهِ الأعوام الأربعة المُسَمَّاة بفترة التردد، في فوضىٰ عامة، مارس الجيش الفرنسي حريته الكَامِلَة في معالجة الوضع الجَزَائِرِيّ.

وكان لسقوط مَدِيْنَة (الجَزَائِر) الأثر السيئ في الجَزَائِرِيِّيْن، فخرج الشعراء والمداحون في الأسواق والمحافل يبكونها، (وينها مزغنا «الجَزَائِر»، سُلْطَانة المدن الجميلة؟).

فشعر الوطنيون الجَزَائِريُّون بالخطر، ورأوا وجوب تنظيم مقاومة المحتلين.

فأَلَّفَ حمدان خوجه (المُتَوَفَّىٰ بإستانبول بين سنتي ١٨٤٠-١٨٤٥م) لجنة المغاربة، ضَامّاً أَعْيَان الجَزَائِر أصحاب الدور الوطني، فكانت حَرَكَة شَعْبِيَّة منظمة ضد فرنسا. وقد سجل حمدان في مذكرته إلىٰ فرنسا المجازر ضد الجَزَائِرِيِّيْن، وشكك بمبادئ الفرنسيين التي ادعوها، وأدان الإدارة الفرنسية في تَجْرِيْدها الجَزَائِرِيِّيْن من أراضيهم، وطالب بإقامة حكومة وطنية جَزَائِرِيَّة، ترتبط بفرنسا بمواثيق في إطار العلاقات الخاصة. ولَاحَقَ الفرنسيون جَمَاعَة حمدان، وطردوا جميعاً إلىٰ خارج الجَزَائِر.

وفي سنة ١٨٣٤م دعا باي قَسَنْطِيْنَة الحاج أَحْمَد في شرق الجَزَائِر إلىٰ مقاومة

---

(١) حَرَكَة عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس ودورها في يقظة الجَزَائِر: د. فهمي سَعْد ص١٥.

وانظر: محاضرات في تَارِيْخ الجَزَائِر الحَدِيْث، بِدَايَة الاحتلال: أ. د. أبو القَاسِم سَعْد الله.

الاحتلال، فبايعته الناحية الشَّرْقِيَّة والعَرَب وبقايا الأتراك، وأيده السُّلْطَان العُثْمَانِيّ، واستمر يقاوم إلىٰ سنة ١٨٤٨م.

وكانت مقاومة الأَمِيْر عَبْد القَادِر الجَزَائِرِيّ في غرب الجَزَائِر أهم أنواع المقاومة التي جابهها جيش الاحتلال وأكبرها خطراً وقوة، وذٰلِكَ أن قبائل هَاشِم وغربة وبني عَامِر قد اجتمعت علىٰ الجِهَاد، فعرضوا القيادة علىٰ الشَّيْخ مُحْيِي الدِّيْن عالم وَهْرَان - صاحب الطريقة القَادِرِيَّة - فاعتذر لكبر سنه، ورشح ابنه عَبْد القَادِر، فتمت له البيعة سنة ١٨٣٤م. ونادىٰ بالجِهَاد مستعملاً القوة مرة والوعظ أُخْرَىٰ، لعزل القبائل النازلة قرب المراكز الفرنسية، ودفعها عن التعامل مع الفرنسيين.

وثارت القبائل سنة ١٨٤٣م بزعامة بو بغلة.

وثارت وَهْرَان بقيادة جمعية الدرقاوة.

وثارت جبهة الظَّاهِرَة ووالي الشلف بزعامة بو معزة.

واشتد الفرنسيون في حَرْبهم ضد هٰذِهِ الثورات، فأحرق بيليسييه كهف الظَّاهِرَة، وقتل ثمانمائة شخص اختناقاً وحرقاً من قبيلة ولد رياح، كانوا قد لجؤوا إلىٰ هٰذَا الكهف.

وفي سنة ١٨٤٨م قاد بو زيان ثورة الأَوْرَاس.

وفيما بين ١٨٥١-١٨٥٧م شنت البطلة فَاطِمَة، التي خلفت بو بغلة، علىٰ الفرنسيين حَرْباً ضارية.

وفي سنة ١٨٥٧م ثارت منطقة القبائل، ساعدتها جمعية الجمانية تحت زعامة فَاطِمَة.

وفي (الأغواط) و(ورغلة) ظهر زعيم يبشر بعَوْدَة الإِسْلَام، وادعىٰ أنه المَهْدِيّ... إلخ[1].

وقامت ثورات أُخْرَىٰ مثل: ثورة جرجرة سنة ١٨٧٠-١٨٧١م.

(١) الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص٤٩.

وأعقبتها ثورة أولاد سَيِّدِي الشَّيْخ.

ثم ثورة بوعمامة سنة ١٨٨٢-١٨٩٩م وغيرها.

ولم تخضع الجَزَائِر إِلَّا بعد حَرْب طَوِيْلَة شرسة لا أَخْلَاقِيَّة، كان حصادها فظيعاً، دمرت فيها البلاد، وتهدم الوضع الاقْتِصَادِيّ بسبب النهب المستمر لقطعان الماشية، وحرق الزروع، وقلع الشجر، حتىٰ أصبح السكان فريسة المجاعات(١).

وفرضت علىٰ الجَزَائِرِيِّيْن قوانين الأهالي (السكان الأصليين - الانديجينا) الرهيبة، منذ سنة ١٨٧٤م، وظلت معمولاً بها إلىٰ سنة ١٩٣٠م، وحلت محلها السلطة المطلقة للوالي الفرنسي علىٰ الجَزَائِر في اعتقال الجَزَائِرِيِّيْن ومعاقبتهم في أي شبهة تحوم حولهم.

وقوانين الانديجينا تنص علىٰ عدة أُمُور منها:

١. سلطة الحَاكِم العام الفرنسي في توقيع العُقُوبَات علىٰ الجَزَائِرِيِّيْن دون محاكمة، من أجل المحافظة علىٰ الأمن العام.

٢. الأخذ بمبدأ المسؤولية الجماعية عند وقوع جناية في حي من الأحياء أو قبيلة من القبائل أو مَدِيْنَة من المدن.

٣. السماح للإدارة بحبس الأشخاص أو مصادرة ممتلكاتهم دون حكم قضائي.

٤. وجوب حمل الجَزَائِرِيِّيْن لترخيص خاص إذا أرادوا التنقل بين أقاليم الجَزَائِر.

٥. تغريم من رفض السخرة، أو العَمَل في المزارع الأوربية، أو تلفظ بعبارات معادية لفرنسا، أو إحداث أي نوع من الشغب... إلخ.

---

(١) حَرَكَة عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس ودورها في يقظة الجَزَائِر: د. فهمي سَعْد ص١٦-٢٦.

وانظر عن حمدان خوجة أَيْضاً: مُقَدِّمَة كتابه: إتْحَاف المُنْصِفِيْن. والأَعْلَام للزِّرِكْلِيّ ج٢ ص٢٧٤.

وإلىٰ جانب هٰذِهِ القوانين عشرات من المراسيم الزجرية، والقوانين التي تستبيح حريات الجَزَائِرِيِّيْن وكرامتهم وأموالهم[١].

سِيَاسَة فرنسا في الجَزَائِر:

منذ أن دخلت فرنسا الجَزَائِر إلىٰ أن خرجت منها سنة ١٩٦٢م اعتمدت أربعة أسس هي:

التَّفْقِيْر، والتجهيل، والتنصير، والفرنسة[٢].

١- سِيَاسَة التَّفْقِيْر:

سيطر المستوطنون الأوربيون علىٰ موارد البلاد كلها، فصادروا الأرض، وكان أخصبها أراضي الأوقاف التي قدرت بمليوني هكتار، أوقفها أصحابها علىٰ المساجد والمدارس والمستشفيات وأوجه الإحْسَان والحَرَمَيْن الشَّرِيْفَيْن، ونتيجة للحروب الكثيرة ضاعت وثائق ملكية الأراضي، وأَعْدَمَ الكثيرَ منها رِجَالُ الإدارة الفرنسية، فتم استيلاؤهم عليها بحُجَّة عدم وجود مَالِكِيْن لها، وصادروا الأراضي الكثيرة كعقاب لمن قام بأَعْمَال عدائية للفرنسيين.

ولما شملت الثورة أنحاء الجَزَائِر كان ذٰلِكَ سبباً في مصادرة مئات الألوف من الهكتارات.

وتلك هي سياستهم أعلنها بيجو في سنة ١٨٤٠م في مجلس النواب الفرنسي بقوله: (حيث وجدت مياه غزيرة، وأراضٍ خصبة، يجب أن يقيمها المُعَمِّرُون، دون الاهتمام بالسؤال عن أصحاب الأرض).

---

(١) الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص٥٠-٥١.

(٢) الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص٤٣.

فأهمل هٰؤُلَاءِ المستوطنون الأوربيون زراعة الحبوب، وهي مصدر غذاء الناس، فصارت الجَزَائِر مستوردة لها، لٰكِنهم زرعوا الكروم، وأقاموا مصانع الخمور، لتصديرها إلىٰ أوروبا، تَحْقِيْقاً للأَرْبَاح الكَبِيْرَة.

وهبط تبعاً لذٰلِكَ عدد الماشية والأغنام، ومَعْلُوْم أن الثروة الزراعية والحيوانية هي الوحَيْدَة في البلاد، لذٰلِكَ عم البؤس والفقر في أرجائها(١).

وأصبح المجتمع الجَزَائِرِيّ بعد الاحتلال قسمين:

أولهما: الرأسماليون المتحكمون في اقْتِصَاد البلد، وأصحاب الأراضي، وموظفو الإدارة الحكومية، وهٰؤُلَاءِ من الأوربيين المستوطنين، وقلة ضئيلة للغَايَة من الجَزَائِرِيِّيْن وهم المستحوذون علىٰ خَيْرَات الجَزَائِر.

الثاني: أبناء الجَزَائِر من صغار الفلاحين والعُمَّال وصغار التجار في المدن، وهم السواد الأعظم والطبقة المعدمة في البلاد.

وقد ذكرت المُنَظَّمَات الدولية بأن مستوىٰ المعيشة في الجَزَائِر يعد أحط مستوىٰ في العالم بأسره، وهٰذَا الاعتراف الرسمي يكذب كل ما يدعيه الفرنسيون عن حَسَنَات الاستعمار الفرنسي في الجَزَائِر(٢).

٢- التجهيل:

كانت المعاهد العِلْمِيَّة قبل الاحتلال قائمة علىٰ الدراسات الدِّيْنِيَّة والأدبية واللُّغَوِيَّة المعروفة، وتلك المعاهد متمثلة في:

---

(١) الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص٨٠-٨٧.

(٢) الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص٢٢-٢٣ وأشار إلىٰ: الوطن الجَزَائِرِيّ لمارسيل اجريتو.

أ. الكتاتيب القُرْآنِيَّة: التي يتعلم فيها الأطفال في المَرْحَلَة الابتدائية، وهي منتشرة بحيث لا يخلو حَيٌّ في المَدِيْنَة ولا قَرْيَة منها، والمدارس الثانوية والعَالِيَة التي بناها ذوو البر والإِحْسَان في مختلف البلاد.

ب. الزوايا: وهي بناء خصص جانب منه للتدريس الابتدائي والثانوي والعالي، وآخر لنُزُوْل المسافرين وسكن للطلبة، وفيها مسجد للصلاة والوعظ، وسميت بهٰذَا الاسم: إما لانزوائها بعيداً عن المدن، أو لأنها في زاوية المَدِيْنَة، وفي رُكْن مُنْزَوٍ منها. وكانت حوالي ٣٤٩ زاوية في أنحاء القطر.

ج. المساجد، وفيها مدارس ملحقة بها: ابتدائية وثانوية وعَالِيَة[(١)].

وكانت مدن بِجَايَة وتِلِمْسَان وقَسَنْطِيْنَة ومازونة والجَزَائِر العَاصِمَة من أكبر المراكز الثقافية في البلاد[(٢)].

أما عند الاحتلال الفرنسي فقد أصاب الفكر والثقافة الدمار الفادح، لأسباب أهمها:

وضع المحتلين يدهم علىٰ الأوقاف الإِسْلَامِيَّة التي كانت المصدر الرئيس للإنفاق علىٰ المعاهد العِلْمِيَّة، واشتغال جميع الأهالي بمحاربة المغيرين علىٰ بلادهم، واستشهاد رِجَال الثقافة، أو هجرتهم إلىٰ البلاد الأُخْرَىٰ[(٣)].

ثم إن سِيَاسَة فرنسا في التَّعْلِيْم ترمي إلىٰ الفرنسة والاندماج والتجنيس.

وأتلف المحتلون عدداً كَبِيْراً من الوثائق، ومراجع كتابة تَارِيْخ الجَزَائِر، وأُحرقت

---

(١) الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص١٢٤-١٢٥.

(٢) الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص٩٠.

(٣) انظر كلمة مُحَمَّد فريد بك الزعيم المِصْرِيّ، قالها إثر جولة قام بها في الجَزَائِر في صيف سنة ١٩٠١م. / الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص٩٣.

المكتبات، وبعضها نُهِبَ ونقل إلىٰ فرنسا. لذٰلِكَ قال النائب الفرنسي طوكفيل سنة ١٨٤٧م منددًا بمخربي المجتمع الجَزَائِرِيّ:

(... لقد انطفأت في الجَزَائِر مشاعل العلم، وأهملنا العُلَمَاء والفُقَهَاء المُسْلِمِيْن، فصاروا قومًا بورًا، وقذفنا بالمُسْلِمِيْن «الجَزَائِرِيِّيْن» في البؤس والجوع، فأصبحوا ينادون ويلًا وثبورًا، ثم رمينا بهم في حالة أكثر همجية مما كانوا عليه، فسخطوا علينا سخطًا كَبِيْرًا)[١].

والتَّعْلِيْم الدِّيْنِيّ لا وجود له تَقْرِيْبًا، ولولا من يتكبد مشقة طلب العلم في جَامِع الأَزْهَر لأصبح نسيًا منسيًا[٢].

واللُّغَة العَرَبِيَّة ليس لها وجود في التَّعْلِيْم الابتدائي، الذي تتكون فيه شخصية المواطن قوميًا، وتَارِيْخ الجَزَائِر وجغرافيتها يدرسان في أقل من ثلاثة أسابيع طوال سنوات الابتدائية، بينما يدرس تَارِيْخ فرنسا وجغرافيتها طوال سنواتها، فيعرف أنهارها ومدنها وتَارِيْخها تفصيلًا، ويجهل تَارِيْخ أُمته وبلاده.

أما في المَرْحَلَة الثانوية فإن تَعْلِيْم اللُّغَة العَرَبِيَّة ممنوع إلَّا علىٰ أَسَاس أنها لُغَة أجنبية واخْتِيَارِيَّة، والطَّالِب يختار منها العامية الحَدِيْثَة أو الفصحىٰ القديمة، وحصصها الأُسْبُوعية ثلاث ساعات[٣].

حتىٰ قال مُحَمَّد بك فريد: ولو استمر الحال علىٰ هٰذَا المنوال لحلت اللُّغَة

---

(١) الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص٩٠-٩١.

(٢) الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص١٤٩ عن بحث (التَّعْلِيْم والمدارس في الجَزَائِر) لمُحَمَّد بك فريد.

(٣) الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص١٣٢و١٤٥-١٥٠.

الفرنساوية محل اللُّغَة العَرَبِيَّة في جميع المعاملات، بل ربما تندرس العَرَبِيَّة بالمرة مع بعض الزمن[(١)].

والتَّعْلِيْم العَرَبِيّ الحر محارَب، ففي سنة ١٩٠٤م صدر قَانُوْن فرنسي في الجَزَائِر يمنع أي جَزَائِرِيّ أن يفتح أو يدير مدرسة عَرَبِيَّة أو كُتَّاباً لتَعْلِيْم القُرْآن الكَرِيْم إلَّا بترخيص من عامل العَمَالَة (المحافظ) في الشمال، أو الحَاكِم العَسْكَرِيّ في الجنوب. وإذا منحت الرخصة فيشترط عليه عدة شروط، منها:

اقتصار التَّعْلِيْم علىٰ حفظ القُرْآن وحده، وعدم التعرض لآيات الجِهَاد أو المُحَرِّمَة للظلم، واستبعاد تَارِيْخ العَرَب والجَزَائِر وجغرافيتهم، واستبعاد دراسة الأدب العَرَبِيّ، والمواد العِلْمِيَّة والرِّيَاضية... إلخ. وتسحب الرخصة من خالف شرطاً منها.

لذٰلِكَ خيم الجهل علىٰ الناس، وعاشوا بعيدين عن أَنْوَار العلم والمَعَارِف[(٢)].

٣- التنصير:

احتل الجَزَائِر الجيش الفرنسي المعبأ بالسلاح، فدمر المساكن والزرع، وأهلك الحرث والنسل، ومعه المبشرون بالنَّصْرَانِيَّة، يحملون الكساء والخبز والدواء في يد، والنَّصْرَانِيَّة في يد، فلا يساعدون أحداً إلَّا بعد تخليه عن الإسْلَام ثم دخوله دينهم.

فأمر قائد الحَملَة بالاستيلاء علىٰ أجمل جَوَامِع العَاصِمَة (جَامِع كيتشاوة)، فَحُوِّلَ إلىٰ كاتدرائية، وقد أعادته حكومة الثورة إلىٰ المُسْلِمِيْن بعد الاستقلال سنة ١٩٦٢م، وأرسل خطاباً للقسيس الذي رافق الحَملَة يقول فيه: (إنكم جئتم معنا إلىٰ هنا، لتفتحوا من جديد أبواب المَسِيْحِيَّة في إفْرِيْقِيَّا).

---

(١) من بحث مُحَمَّد بك فريد السَّابِق.

(٢) الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص١٥١.

وكان الجنرال بيجو أحد قادة الاحتلال، والحَاكِم العام في الجَزَائِر، يجمع أطفال الجَزَائِر اليتامىٰ، ويأتي بهم إلىٰ القسيس، ويقول له: (حاول يا أبتي أن تجعلهم مَسِيْحِيِّيْن، وإذا فعلتَ فلن يعودوا إلىٰ دينهم، ليطلقوا علينا النار).

وأعقاب المجاعات، منها: المجاعة الكُبْرَىٰ في الجَزَائِر عامي ١٨٦٧-١٨٦٨م التي راح ضحيتها ٣٠٠ ألف، كما تقول الإحصاءات الفرنسية، وأضعاف هٰذَا العدد فيما يقدره العارفون، وما بعدها من الأمراض كالكوليرا والتيفوس التي فتكت بالناس، ظهر الكاردينال «لافيجري» أسقف الجَزَائِر، مستغلاً هٰذِهِ الظروف، فجمع طائفة كَبِيْرَة من الأيتام لتربيتهم في ظل الكنيسة، وكان يقول: (علينا أن نجعل من الأرض الجَزَائِرِيَّة مهداً لدولة مَسِيْحِيَّة، تضاء أرجاؤها بنور مَدَنِيَّة، مَنْبَعُ وحيها الإنجيلُ... تلك هي رسالتنا)(١).

وكشف الفرنسيون عن مدىٰ حقدهم الصليبي من خلال الاحتفال بمرور مائة سنة علىٰ احتلالهم للجَزَائِر.

فقال أحدهم: (إن احتفال اليوم ليس احتفالاً بمرور مائة سنة علىٰ احتلالنا الجَزَائِر، ولٰكِنه احتفال بتشييع جنازة الإسْلَام).

وقال آخر: (إننا جئنا إلىٰ الجَزَائِر لندفن القُرْآن، لا ليحيا)(٢).

وحاولت فرنسا قطع صِلَة البربر بالمُسْلِمِيْن، بهدف تنصيرهم وإبعادهم عن سكان الجَزَائِر، فأصدرت القوانين ألغت فيها محاكمهم الشَّرْعِيَّة الإسْلَامِيَّة، ومنعتهم من التكلم بغير الفرنسية والبربرية، وقررت سِيَاسَة تَعْلِيْمِيَّة خاصة بهم، ومنعت العُلَمَاء المُسْلِمِيْن من دخول مناطقهم، وأقاموا المدارس والمستشفيات ومراكز التبشير

(١) الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص٤٢-٤٥ مشيراً إلىٰ ليل الاستعمار لفرحات عَبَّاس، وإلىٰ كتاب الجَزَائِر لأَحْمَد توفيق المَدَنِيّ.

(٢) الإمَام عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، رائد النهضة العِلْمِيَّة والفكرية: الزُّبَيْر بن رحال ص٧١.

فيهم.

وكان من آثار تلك السِّيَاسَة قيام ثورة الشَّيْخ مُحَمَّد الحَدَّاد شَيْخ الطريقة الرَّحْمَانِيَّة، والحاج مُحَمَّد المقراني سنة ١٨٧٠-١٨٧١م، وكادت تلك الثورة تشمل الجَزَائِر كلها(١).

وأكثر المبشرون من كنائسهم في الجَزَائِر فبلغت ٣٢٧ كنيسة، و٤٥ مَعْبَداً لليَهُوْد، مقابل ١٦٦ مسجداً للمُسْلِمِيْن البالغ عددهم ٦ ملايين نسمة(٢).

وأخفقت سِيَاسَة التنصير، ويَدُلّ علىٰ ذٰلِكَ ما قاله غوستاف لوبون:

(فأما ما يختص بالعَرَب، فقد استشهدت بقصة أربعة آلاف يَتِيْم، الذين تولىٰ أمرهم الكاردينال «لافيجري».

فعلىٰ رغم تربية هٰؤُلَاءِ تربية مَسِيْحِيَّة، بعيدة عن كل تَأْثِيْر عَرَبِيّ، رجع أكثرهم إلىٰ الإسْلَام بعد أن بلغوا سن الرشد)(٣).

٤- الـفَـرْنَـسَـة:

وغايتها دمج الأراضِي الجَزَائِرِيَّة بفرنسا، وجعل الجَزَائِرِيِّيْن رعايا لفرنسا، وسلخهم من مقوماتهم الأَسَاسِيَّة: الإسْلَام والعُرُوْبَة.

لذٰلِكَ حارب الفرنسيون اللُّغَة العَرَبِيَّة في الجَزَائِر، بل منعوا التكلم بها في بعض المناطق، ونشطوا في التنصير لإبعاد الجَزَائِرِيِّيْن عن الإسْلَام، واتخذوا التدابير العريضة لانتزاع هويتهم العَرَبِيَّة والإسْلَامِيَّة في المدرسة والكُتَّاب ووَسَائِل الإعْلَام المُخْتَلِفَة.

(١) الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص٤٥-٤٦.

(٢) الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص٤٧.

(٣) الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص٤٨ عن روح السِّيَاسَة للوبون.

يقظة الجَزَائِر وعواملها:

إن سِيَاسَة فرنسا في الجَزَائِر المعتمدة علىٰ الأسس الأربعة المتقدمة قد شلت المجتمع الجَزَائِرِيّ وحركته الثقافية والدِّيْنِيَّة والاقْتِصَادِيَّة فيها.

إلَّا أن بوادر اليقظة قد بدأت في مطلع القرن العشرين، وازدهرت بالعشرينات، وأهم عواملها:

١- الدعوات الإِصْلَاحِيَّة السَّلَفِيَّة من مِصْر، كدعوة الأَفْغَانِيّ ومُحَمَّد عَبْدُه، وآزرتها أَفْكَار الجَزَائِرِيِّيْن الدارسين في فرنسا وأوروبا. وعلىٰ الرغم من حصار فرنسا الكَامِل علىٰ الجَزَائِر، فإن الجرائد والمجلات كانت تتسرب إليها عن طريق تُوْنُس والمَغْرِب، وكان تَأْثِيْرها بالغاً علىٰ الشعب الجَزَائِرِيّ، وأهمها:

جريدة العُرْوَة الوثقىٰ التي أصدرها الأَفْغَانِيّ ومُحَمَّد عَبْدُه، وكان بعضهم ينسخها بيده، ويتداولها المثقفون.

ومَجَلَّة المَنَار التي أصدرها مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا، وكانوا يسمونها (مَدَد الحياة).

وجريدة المُؤَيَّد التي أسسها الشَّيْخ عَلِيّ يُوْسُف في القَاهِرَة سنة ١٨٨٩م.

وجريدة اللواء التي أسسها مُصْطَفَىٰ كَامِل الزعيم المِصْرِيّ سنة ١٩٠٠م.

٢- البعثات العِلْمِيَّة العائدة من الشرق، وكان أفرادها طليعة النهضة في العشرينات، كالشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس المتخرج في جَامِعَة الزَّيْتُوْنَة بتُوْنُس سنة ١٩١٢م، والشَّيْخ البشير الإِبْرَاهِيْمِيّ، والشَّيْخ الطَّيِّب العُقْبِيّ، اللذين تخرجا في الحِجَاز وعادا بعد الحَرْب العالمية الأُوْلَىٰ، والشَّيْخ العَرَبِيّ ابن بلقَاسِم التِّبِسِّيّ المتخرج في الأَزْهَر.

٣- جهود العُلَمَاء الفردية في التدريس بالمدارس والمساجد والتأليف، ومنهم: الشَّيْخ عَبْد القَادِر المجاوي (١٨٤٨-١٩١٣م)، والشَّيْخ أبو القَاسِم الحَفْنَاوِيّ

(١٨٥٢-١٩٤٢م)، والشَّيْخ مُصْطَفَىٰ بن الخوجة (١٨٦٥-١٩١٥م)، والشَّيْخ عَبْد الحَلِيْم بن سماية (١٨٦٦-١٩٣٣م)، والأُسْتَاذ الدكتور مُحَمَّد بن أبي شنب (١٨٦٩-١٩٢٩م)[١].

٤- الصحافة الوطنية. وهٰذِهِ لم تصدر إلَّا ابتداء من سنة ١٩٠٨م.

فأصدر عُمَر راسم، وهو من المُتَأَثِّرِيْن بمدرسة الأَفْغَانِيّ ومُحَمَّد عَبْدُه، جريدة (الجَزَائِر)، وأغلقتها الحكومة بعد صدور عددين منها.

ثم صدرت سنة ١٩١١م جريدة (الحق) في وَهْرَان، وأُغلقت.

وفي سنة ١٩١٣م صدرت جريدة (الفاروق) للشَّيْخ عُمَر بن قدور، من أتباع مدرسة الأَفْغَانِيّ ومُحَمَّد عَبْدُه.

وفي سنة ١٩١٣م أصدر عُمَر راسم صحيفة (ذو الفقار) متخفياً باسم ابن المَنْصُوْر الصُّنْهَاجِيّ، ونشر علىٰ غلاف العدد الثالث صورة الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه، وكتب تحتها (مدير الجريدة الدِّيْنِيّ)، وكانت أول جريدة عَرَبِيَّة نبهت علىٰ الخطر الصهيوني.

ثم صدرت بعد الحَرْب العالمية الأُوْلَىٰ مجموعة من الجرائد العَرَبِيَّة زادت علىٰ العشرين، منها جرائد ابن بَادِيْس، تدافع عن مَطَالِب الشعب، ولاقت إقبالاً مُنْقَطِع النظير.

وكانت الإدارة الفرنسية تلاحقها، وتغلق بقرار بَسِيْط أي وَاحِدَة منها، وكانت كلما تغلق وَاحِدَة قامت أُخْرَىٰ مقامها، رغم الظروف القاسية[٢].

---

(١) الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص٩٨-١٠٦.

(٢) انظر الكلام عن هٰذِهِ الصحف في:

ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٥٥-٦٠. والشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص١٠٨-١١٤.

- فظهرت نتيجة هٰذِهِ اليقظة **حَرَكَات سياسية**، هي:

١- وحدة النواب المُسْلِمِيْن:

كَوَّنَهَا الأَمِيْر خَالِد بن الهَاشِمِيّ بن الحاج الكَبِيْر بن الأَمِيْر عَبْد القَادِر الجَزَائِرِيّ، الذي عمل ضابطاً كَبِيْراً في الجيش الفرنسي أثناء الحَرْب العالمية الأُوْلَىٰ. وذٰلِكَ بعد عودته إلىٰ الجَزَائِر وبعد نِهَايَة الحَرْب، لإبلاغ صوت الجَزَائِر إلىٰ المسؤولين الفرنسيين.

٢- جمعية نَجْم شمال إِفْرِيْقِيَّا:

تكونت في باريس سنة ١٩٢٥م من العُمَّال الجَزَائِرِيِّيْن والمغاربة والتُّوْنُسِيِّيْن، وهناك ركزت أَعْمَالها. وكانت في أول نشوئها هيئة لإغاثة أبناء شمال إِفْرِيْقِيَّا، ثم صارت في سنة ١٩٢٦م جمعية سياسية تطالب بحقوق المَغْرِب العَرَبِيّ واستقلاله. وساهم في تأسيسها، ثم رأسها ابتداء من سنة ١٩٢٦م أَحْمَد مصالي الحاج الجَزَائِرِيّ.

٣- حزب الشعب الجَزَائِرِيّ:

بعد أن حلت جمعية نَجْم شمال إِفْرِيْقِيَّا سنة ١٩٣٧م، أسس أَحْمَد مصالي الحاج في العام نفسه حزب الشعب الجَزَائِرِيّ، الذي لا يفترق عن الجمعية في المبادئ إلَّا بالاسم. وطابعه استقلالي ثَوْرِيّ، لا يؤمن بأنصاف الحُلُوْل.

٤- دعاة الإدماج والتجنيس:

الإدماج في ظَاهِره تَحْقِيْق التماثل بين المُسْتَعْمَرَة ودولة الأصل، فهما بلد وَاحِد في التَّشْرِيْع والنظم والمالية والاقْتِصَاد والجيش والشرطة... .

وحَرَكَة (اتحاد المنتخبين المُسْلِمِيْن) من دعاة الإدماج، ومن زعمائها د. مَحْمُوْد بن جلول، والصيدلي فرحات عَبَّاس، و د. رَبِيْع الزناتي...، وتهدف إلىٰ الحصول تدريجياً علىٰ الحقوق الفرنسية للجَزَائِرِيِّيْن بوصفهم رعايا فرنسيين عن طريق الإدماج، مع

المحافظة علىٰ الشخصية الإسْلَامِيَّة المتمثلة في قَانُوْن الأحوال الشخصية الإسْلَامِيّ في الزواج والطلاق والميراث... .

ونادىٰ بعضهم بالتجنيس الكَامِل بما فيه التنازل عن الشخصية الإسْلَامِيَّة وقَانُوْن الأحوال الشخصية.

لٰكِن هٰذَا الإدماج لم يتحقق عند الفرنسيين، لأنهم وإن كانوا من دعاته ظَاهِراً، فإنهم كانوا يقصدون دمج الأرض الجَزَائِرِيَّة بفرنسا، أما إعطاؤهم حقوق الفرنسيين فلا.

يَدُلّ علىٰ ذٰلِكَ أن للمُسْتَعْمِرِيْن الأوربيين في الجَزَائِر نوابهم في البرلمان الفرنسي منذ سنة ١٨٤٨م، أما الجَزَائِرِيُّون فلم يحصلوا علىٰ هٰذَا الحق إلَّا في سنة ١٩٤٥م، وعلىٰ الرغم من أن عدد المستوطنين ٨٠٠ ألف نسمة، وأن الجَزَائِرِيِّيْن يَزِيْدُوْن علىٰ ١١ مليون نسمة، فإن لكل من الفريقين ١٦ نائباً.

ثم إن الشعب الجَزَائِرِيّ عارض الإدماج، باعتباره مُقَدِّمَة لسلخ الأُمَّة من مقوماتها الأَسَاسِيَّة وهي الإسْلَام والعُرُوْبَة. كما أن المستوطنين الأوربيين حاربوه، باعتباره خطراً يهدد نفوذهم في المستقبل.

وقد انتهت الدعوة إلىٰ الادماج والتجنيس في بِدَايَة الحَرْب العالمية الثانية، لنبذ الحَرَكَات الوطنية الجَزَائِرِيَّة جميعاً أنصاف الحُلُوْل.

٥- جمعية العُلَمَاء المُسْلِمِيْن الجَزَائِرِيِّيْن:

تألفت من كبار العُلَمَاء الجَزَائِرِيِّيْن دعاة مدرسة الإصْلَاح السَّلَفِيَّة وأصحاب المقاومة الكُبْرَىٰ للاحتلال، من أمثال: الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس[1]، والبشير الإبْرَاهِيْمِيّ، والطَّيِّب العُقْبِيّ، والعَرَبِيّ التِّبِسِّيّ، ومُبَارَك المِيْلِيّ.

---

(١) سيأتي مَزِيْد كلام عنها في: (ابن بَادِيْس وجمعية العُلَمَاء المُسْلِمِيْن الجَزَائِرِيِّيْن).

وظهرت جمعيةً رسميةً في سنة ١٩٣١م، إثر احتفال الاستعمار الفرنسي بمرور قرن علىٰ احتلاله الجَزَائِر، وقد انتخب أعضاؤها منذ البِدَايَة الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس رئيساً لها في غيبته بالإجماع، وبقي برئاستها إلىٰ حين وفاته سنة ١٩٤٠م، ثم انتخب بعده نائبه الشَّيْخ البشير الإبْرَاهِيْمِيّ رئيساً بالإجماع، وهو في منفاه بآفلو جنوب الجَزَائِر، وبقي برئاستها إلىٰ أن حلت الجمعية سنة ١٩٥٦م.

وتتلخص أهداف هٰذِهِ الجمعية ومبادئها في: الدفاع عن الإسْلَام، وإحياء اللُّغَة العَرَبِيَّة، وتَحْرِيْر الجَزَائِر، وتَقْوِيَة أواصر الأُخوة بين العَرَب والمُسْلِمِيْن.

وكانت الجمعية رَدَّ فعل لسِيَاسَة التنصير والفرنسة والإدماج، وسَبِيْلها في ذٰلِكَ:

أ. أنها أصدرت فتوىٰ شَرْعِيَّة، قضت بأن التخلي عن قَانُوْن الأحوال الشخصية الإسْلَامِيّ طواعية للحصول علىٰ حقوق المواطن الفرنسي يعتبر ارتداداً عن الإسْلَام.

وقد أفزعت هٰذِهِ الفتوىٰ المتجنسين والاستعمار فزعاً غَرِيْباً.

ب. القيام بنشر الثقافة العَرَبِيَّة الإسْلَامِيَّة في الجَزَائِر، وبث روح الاعتزاز بالتُّرَاث العَرَبِيّ الإسْلَامِيّ، فبنت المدارس العَرَبِيَّة في مختلف أنحاء البلاد، وبلغ عدد تلاميذها أكثر من خمسين ألفاً، وبنت المساجد والنوادي، وأصدرت الصحف للدعوة إلىٰ هٰذِهِ الأَفْكَار، وإلىٰ أن الجَزَائِر مرتبطة تَارِيْخِيّاً وروحياً وحَضَارِيّاً بالعالم العَرَبِيّ والإسْلَامِيّ، لا بفرنسا.

ومع أن الاستعمار كان يلاحقها، فإن نشاط الجمعية العَظِيْم لم يعرف المَلَل والفتور، وكان كفاحها جَبَّاراً لتَحْرِيْر الشعب الجَزَائِرِيّ، وجهودها هائلة لنشر الثقافة العَرَبِيَّة الإسْلَامِيَّة في الجَزَائِر، وإثبات الشخصية الجَزَائِرِيَّة[1].

---

(١) الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابح ص٥٦-٧٨، وفيه الكلام عن هٰذِهِ الحَرَكَات.

٤٤٦

المَبْحَث الأول

شخصية الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس

نسبه ونشأته:

هو عَبْد الحَمِيْد بن مُحَمَّد المُصْطَفَىٰ بن مَكِّيّ بن بَادِيْس الصُّنْهَاجِيّ(١).

ولد في ٤/ ١٢/ ١٨٨٩م=١٣٠٨هـ في قَسَنْطِيْنَة شرق الجَزَائِر(٢)، من عائلة أمازيغية مشهورة بالعلم والثراء والجاه، حكمت بلاد المَغْرِب ما يقرب من ١٨٠ عاماً (٣٦٢-٥٤٣هـ)(٣). وذكر ابن خَلْدُوْن أنه (اجتمع أربعون عمامة من أُسرة بَادِيْس في وقت وَاحِد، في التدريس والإفتاء والوظائف الدِّيْنِيَّة)(٤).

والده من حَملَة القُرْآن الكَرِيْم، مشهور بدفاعه عن مَطَالِب المُسْلِمِيْن بعَمَالَة

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٧٢. وتعريف بالإمَام عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس: توفيق مُحَمَّد شَاهِيْن - تَفْسِيْر ابن بَادِيْس ص٧٠٥. والأَعْلَام للزِّرِكْلِيّ ج٣ ص٢٨٩.

صُنْهَاجَة: قبيلة مشهورة من حِمْيَر بالمَغْرِب، ينسب إليها خلق كثير من الأُمَرَاء والعُلَمَاء بالمَغْرِب.

اللُّبَاب في تَهْذِيْب الأَنْسَاب: ابن الأَثِيْر ج٢ ص٢٤٩.

(٢) الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص١٥٧ عن مُحَمَّد الصالح بن رَمَضَان.

(٣) الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص١٥٨.

(٤) تعريف بالإمَام عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس: توفيق مُحَمَّد شَاهِيْن - تَفْسِيْر ابن بَادِيْس ص٧٠٥.

قَسَنْطِيْنَة خاصةً والجَزَائِر عامةً، باعتباره عضواً بالمجلس الجَزَائِرِيّ الأعلىٰ، والمجلس العُمَّالِيّ لعَمَالَة قَسَنْطِيْنَة.

ووالدته زُهَيْرة بنت عَلِيّ بن جلول، من أُسرة عَبْد الجَلِيْل، المعروفة بالعلم والصَّلَاح والثراء.

- **وأُسرة ابن بَادِيْس** لها دور كَبِيْر في تَارِيْخ المَغْرِب العَرَبِيّ، ونَبَغَ منها:

زِيرِي بن مَنَاد الصِّنْهَاجِيّ، وهو أول من ملك من الصِّنْهَاجِيِّيْن بالمَغْرِب الأَوْسط.

وبُلُكِّين بن زِيرِي بن مَنَاد.

وبَادِيْس الصِّنْهَاجِيّ، والد المُعِزّ، من ملوك الدولة الصِّنْهَاجِيَّة بالقَيْرَوَان، وصاحب إفْرِيْقِيَّا.

والمُعِزّ لدين الله بن بَادِيْس، من ملوك الدولة الصِّنْهَاجِيَّة بإفْرِيْقِيَّا[1]، وهو من الرِّجَال الذين افتخر بهم عَبْد الحَمِيْد، وهو الذي تولىٰ إمارة إفْرِيْقِيَّا والمَغْرِب الأَوْسط من عام ٤٠٦-٤٥٢هـ، وهو الذي فَصَلَ المَغْرِب الإسْلَامِيّ سياسياً ومَذْهَبِيّاً عن الفَاطِمِيِّيْن سنة ٤٤٣هـ، ودعا إلىٰ الخَلِيْفَة العَبَّاسِيّ علىٰ منابر إفْرِيْقِيَّا بدلاً من الخَلِيْفَة الفَاطِمِيّ[2].

وممن نَبَغَ من هٰذِهِ الأُسرة:

تَمِيْم بن المُعِزّ، ملك إفْرِيْقِيَّا وما والاها بعد أبيه المُعِزّ.

وآخرون غيرهم من الأُمَرَاء والقُضَاة والفُقَهَاء... .

وكلهم ذوو سِيْرَة حَسَنَة، محبون للعُلَمَاء وأرباب الفَضَائِل والدِّيْن.

---

(١) الإمَام عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، رائد النهضة العِلْمِيَّة والفكرية: الزُّبَيْر بن رحال ص٣-٤.

(٢) الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص١٥٨.

فالشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد نشأ في بيئة الملوك والأُمَـرَاء، والعز والغنىٰ، وهٰـذَا يفسر تكوين شخصيته المتفردة في الدفاع عن البلاد ضد الاحتلال الفرنسي، ودعوته إلىٰ إصْلَاح الفرد والمجتمع، والتمسك بالإسْلَام.

وأُسرته تنتمي إلىٰ الطريقة القَادِرِيَّة(١).

● أَتَـمَّ ابن بَادِيْس حفظ القُرْآن الكَرِيْم علىٰ الشَّيْخ مُحَمَّد المداسي في السنة الثالثة عشرة من عُمْره، ولسيرته الطَّيِّبَة وذكائه قدمه الشَّيْخ ليصلي بالناس التراويح ثلاث سنوات متتابعة في الجَامِع الكَبِيْر. وفي سنة ١٩٠٣م أسلمه والده إلىٰ الشَّيْخ الصالح المتصوف حمدان الونيسي. فعلمه مبادئ العَرَبِيَّة، ووجهه الوجهة الإسْلَامِيَّة(٢)، يقول الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد: (وإني لأذكر له - أي: للونيسي - وصية أوصاني بها، وعهداً عهد به إلي، وأثر ذٰلِكَ العهد في نفسي ومستقبلي وحياتي وتَارِيْخِي كله، فأجدني مديناً لهٰذَا الرجل بمِنَّةٍ لا يقوم بها الشكر، فقد أوصاني وشدد عَلَيَّ أن لا أقرب الوظيفة، ولا أرضاها ما حييتُ، ولا أتخذ عِلْمِي مطية لها، كما كان يفعله أمثالي في ذٰلِكَ الوقت(٣).

وفي سنة ١٩٠٤م زوجه والده، وأنجب ولداً أسماه عَبْدُه إسْمَاعِيْل، توفي وعُمْره (١٧) عاماً.

وفي سنة ١٩٠٨م سافر إلىٰ تُوْنُس، ودرس في جَامِع الزَّيْتُوْنَة علىٰ أكابر العُلَمَاء منهم: العلامة مُحَمَّد النخلي القَيْرَوَانِيّ المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٤٢هـ=١٩٢٤م، والشَّيْخ مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، وهما زعيما النهضة العِلْمِيَّة الإصْلَاحِيَّة في تُوْنُس، ومن أَنْصَار فكر جمال الدِّيْن الأَفْغَانِيّ ومُحَمَّد عَبْدُه.

ويذكر الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد أن الشُّيُوْخ الجامدين كانوا يُنَفِّرُونَهُ منهما، وبقي بعيداً

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٧٤.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٧٤.

(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص١٣٨ .

عنهما إلىٰ أن أُتيحت له الفرصة بالاتصال بابن عاشور الذي مهد له الاتصال بالنخلي، وذٰلِكَ في المَرْحَلَة الأَخِيْرَة من دراسته العليا، حيث درس علىٰ ابن عاشور ثلاث سنوات، وعلىٰ النخلي سنتين(١).

يقول الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد:

(وإن أَنَس فلا أَنْسَىٰ دروساً قرأتها من ديوان الحماسة علىٰ الأُسْتَاذ ابن عاشور، وكانت أول ما قرأت عليه، فقد حببتني في الأدب والتَّفَقُّه في كلام العَرَب، وبثت فِيَّ روحاً جديداً في فهم المنظوم والمَنْثُوْر، وأحيت مني الشعور بعز العُرُوْبَة والاعتزاز بها كما أعتز بالإِسْلَام)(٢).

ويقول عن النخلي:

(وأذكر له كلمة لا يقل أثرها في ناحيتي العِلْمِيَّة عن أثر تلك الوصية في ناحيتي العَمَلِيَّة، وذٰلِكَ أني كنت متبرماً بأساليب المُفَسِّرِيْن وإدخالهم لتَأْوِيْلَاتهم الجدلية واصْطِلَاحَاتهم المَذْهَبِيَّة في كلام الله، ضَيِّقَ الصدر من اختلافهم فيما لا اختلاف فيه من القُرْآن. وكانت علىٰ ذهني بقية غشاوة من التقليد واحترام آراء الرِّجَال حتىٰ في دين الله وكتاب الله، فذاكرتُ يوماً الشَّيْخ النخلي فيما أجده في نفسي من التبرم والقلق، فقال لي: اجعل ذهنك مصفاة لهٰذِهِ الأساليب المعقدة وهٰذِهِ الأقوال المُخْتَلِفَة وهٰذِهِ الآراء المُضْطَرِبَة، يسقط الساقط، ويبقىٰ الصَّحِيْح وتستريح. فوالله لقد فتح بهٰذِهِ الكلمة القليلة عن ذهني آفاقاً وَاسِعَة لا عهد له بها)(٣).

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٧٦. والشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص١٦١.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٧٥.

(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص١٣٨. وانظر: ج٣ ص٧٥.

ومن الأساتذة الذين تأثر بهم: البشير صفر، وهو من المصلحين المجددين في تُوْنُس، وكان يدرس في جَامِع الزَّيْتُوْنَة ومدرسة الخَلْدُوْنِيَّة، وتقلد عدة مناصب سياسية وعِلْمِيَّة في تُوْنُس[1]. يقول عنه الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد:

(وأنا شخصياً أُصرح بأن كراريس البشير صفر، الصَّغِيْرَة الحجم، الغزيرة العلم، هي التي كان لها الفَضْل في اطلاعي علىٰ تَارِيْخ أُمَّتِي وقومي، والتي زرعت في صدري هٰذِهِ الروح التي انتهت بي اليوم لأن أكون جُنْدِيّاً من جنود الجَزَائِر)[2].

ومن الشُّيُوْخ الذين تأثر بكتاباتهم:

الشَّيْخ طاهر بن صالح الجَزَائِرِيّ، الذي قال عنه الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد (وهو الذي رَبَّىٰ عقلي، وهو الذي حبب إلي هٰذَا الاتجاه الفكري منذ أن كنتُ طفلاً إلىٰ أن صرت رجلاً)[3].

والشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه المُتَوَفَّىٰ سنة ١٩٠٥م، والشَّيْخ مُحَمَّد بخيت المُطِيْعِيّ المُتَوَفَّىٰ سنة ١٩٣٥م تلميذ الأَفْغَانِيّ، والشَّيْخ أبو بَكْر بن العَرَبِيّ المُتَوَفَّىٰ سنة ٥٤٣هـ صاحب كتاب (العواصم من القواصم)، الذي نبهه إليه الشَّيْخ مُحَمَّد النخلي، فطبعه في الجَزَائِر، وتأثر بنهجه في دراسة العَقَائِد الإِسْلَامِيَّة الذي هو نهج القُرْآن الكَرِيْم في الاستدلال، لا مسلك المتكلمين والفَلَاسِفَة[4].

وقد نال شهادة التطويع (العالمية) سنة ١٩١١-١٩١٢م وعُمْره ثلاث وعشرون سنة، وعَلَّمَ سنة وَاحِدَة في جَامِع الزَّيْتُوْنَة علىٰ عادة المتخرجين هناك[5].

---

(١) الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص١٦٤.
(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص٣٢٧.
(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص١٤٨.
(٤) الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص١٦٦.
(٥) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٧٦.

وعاد الشَّيْخ من تُونُس سنة ١٣٣٢هـ=١٩١٣م إلىٰ قَسَنْطِيْنَة، فاحتفلت به أُسرته، وشرع يعلم صغار الصِّبْيَان الذين يقرأون القُرْآن في الكتاتيب، ويلقي دروساً عامة في الجَامِع الكَبِيْر من كتاب (الشفا) للقَاضِي عِيَاض، فحيكت حوله المكائد، وأطفأوا عليه النُّوْر وهو في الدرس[1].

فاستأذن أباه للسفر إلىٰ الحج في ذٰلِكَ العام ١٩١٣م، واتَّصَل في رحلته بجَمَاعَة من العُلَمَاء، وألقىٰ دروساً في الحرم النَّبَوِيّ، ومكث في المَدِيْنَة ثلاثة أشهر، التقىٰ فيها بشَيْخه حمدان لونيسي الذي هاجر من الجَزَائِر فراراً من مضايقة المُسْتَعْمِرِيْن، وعرض عليه أن يهاجر من الجَزَائِر، لٰكِن الشَّيْخ حُسَيْن أَحْمَد الهِنْدِيّ أبىٰ عليه ذٰلِكَ. قال ابن بَادِيْس:

(لما زرت المَدِيْنَة المُنَوَّرَة، واتَّصَلت فيها بشَيْخي الأُسْتَاذ حمدان لونيسي المُهَاجِر الجَزَائِرِيّ وشَيْخي حُسَيْن أَحْمَد الهِنْدِيّ، أشار عَلَيَّ الأول بالهِجْرَة إلىٰ المَدِيْنَة المُنَوَّرَة، وقطع كل علاقة لي بالوطن. وأشار عَلَيَّ الثاني، وكان عالماً حَكِيْماً، بالعَوْدَة إلىٰ الوطن، وخدمة الإسْلَام فيه والعَرَبِيَّة بقدر الجهد. فحقق الله رأي الشَّيْخ الثاني، ورجعنا إلىٰ الوطن بقصد خدمته. فنحن لا نهاجر، نحن حراس الإسْلَام والعَرَبِيَّة والقومية بجميع مدعماتها في هٰذَا الوطن).

وكان الشَّيْخ البشير الإبْرَاهِيْمِيّ يجتمع به كل ليلة طيلة الأشهر الثلاثة، تدبيراً للوَسَائِل التي تنهض بها الجَزَائِر. قال الشَّيْخ البشير: (وأُشهد الله علىٰ أن تلك الليالي من عام ١٩١٣م هي التي وضعتْ فيها الأُسس الأُوْلَىٰ لجمعية العُلَمَاء المُسْلِمِيْن الجَزَائِرِيِّيْن، التي لم تبرز للوجود إلَّا في عام ١٩٣١م).

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٨٠-٨١. والشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص١٦٧.

وعند عودته من الحِجَاز إلىٰ الجَزَائِر زار سُوْرِيًّا ولُبْنَان ومِصْر، ولاقىٰ العُلَمَاء، وخبر أحوال الناس، وعرف طرق التخلص من الاستعمار(١).

ومكث يدرس، ويعظ، ويتعبد، ولا يبالي بالسهر والتعب، ولم يَحِدْ عن مبادئه، ولم يلتفت إلىٰ تدهور صحته، حتىٰ أُصيب بسرطان في الأمعاء، لم يتفرغ لعلاجه، فقضىٰ عليه(٢).

وفاته:

كانت وفاته في مساء الثلاثاء ٨/ رَبِيْع الأول/ ١٣٥٩هـ، الموافق ١٦/ أبريل - نيسان/ ١٩٤٠م.

وكان تشييعه مهيباً مشهوداً، ودفن في مقبرة أُسرته في قَسَنْطِيْنَة. وبكاه الناس والشعراء والكتاب والعُلَمَاء(٣).

---

(١) الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص١٦٨-١٦٩.

وفي كتاب: الإمَام عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، رائد النهضة العِلْمِيَّة والفكرية: الزُّبَيْر بن رحال ص١٣، وَرَدَ قول ابن بَادِيْس: (لما زرتُ المَدِيْنَة المُنَوَّرَة... إلخ) عن (الشِّهَاب) ج٨ المجلد ١٣ ص٣٥٥ عدد أُكتوبر سنة ١٩٣٧م. وفيه أَيْضاً قول الشَّيْخ الإبْرَاهِيْمِيّ.

(٢) الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص١٩٢ عن الإبْرَاهِيْمِيّ.

(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٩٢. والشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص١٩٢.

وانظر حياته أَيْضاً في: الإمَام عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، الزعيم الروحي لحَرْب التَّحْرِيْر الجَزَائِرِيَّة: د. مَحْمُوْد قَاسِم. وابن بَادِيْس وعُرُوْبَة الجَزَائِر: مُحَمَّد المِيْلِيّ.

تكوين شخصية ابن بَادِيس:

تظافرت عوامل عديدة علىٰ تكوين شخصيته، أَجْمَلَهَا في خطابه الذي ألقاه في حفلة تَكْرِيْمه بمناسبة ختمه لتَفْسِيْر القُرْآن الكَرِيْم في قَسَنْطِيْنَة في سنة ١٩٣٨م، وذكر أنه يرجع إليها الفَضْل فيما بلغه من مكانة عِلْمِيَّة واجتماعية وسياسية، مما يَدُلّ علىٰ تواضعه وعِرْفَانه بالجميل، هٰذِهِ العوامل هي:

١- تَوْجِيْه والده الصالح الوجهة الصَّحِيْحَة الصالحة.

قال الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد: (إن الفَضْل يرجع أولاً إلىٰ والدي، الذي رَبَّانِيّ تربية صالحة، ووَجَّهَنِي وجهة صالحة، ورضي لي العلم طريقة أتبعها، ومشرباً أرده، وقاتني وأعاشني وبَرَانِي كالسَّهْم، ورَاشَنِي وحَمَانِي من المكاره صَغِيْراً وكَبِيْراً، وكفاني كلف الحياة)[1].

ووالده ذو الجاه والثراء كفاه كل شيء، حتىٰ قال له منذ أول عهده بالعلم: (يا عَبْد الحَمِيْد أنا أكفيك أمر الدنيا، أُنفق عليك، وأقوم بكل أُمُورك، ما طلبتَ شَيْئاً إلَّا لَبَّيْتُ طلبك كلمح البصر، فاكفني أمر الآخِرَة، كن الولد الصالح العامل العالم الذي ألقىٰ به وجه الله)[2].

٢- أساتذته وشُيُوْخه:

وصفهم الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بقوله: (عَلَّمُونِي العلم، وخَطّوا لي مناهج العَمَل في

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص١٣٨.

(٢) عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس وبناء قاعدة الثورة الجَزَائِرِيَّة: بَسَّام العَسَلِيّ ص٩٥. والإمَام عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، رائد النهضة العِلْمِيَّة والفكرية: الزُّبَيْر بن رحال ص١٠ نَقْلاً عن مذكرات حياة كفاح لأَحْمَد توفيق المَدَنِيّ.

الحياة، ولم يبخسوا استعدادي حقه)[١].

٣- مؤازرة الشُّيُوْخ المُوَازِيْن له في العَمَل منذ فجر النهضة.

قال الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد: (فمن حظ الجَزَائِر السَّعِيْد، ومن مفاخرها التي تتيه بها علىٰ الأقطار، أنه لم يجتمع في بلد من بلدان الإِسْلَام فيما رأينا وسمعنا وقرأنا مجموعة من العُلَمَاء وافرة الحظ من العلم، مُؤْتَلِفَة القصد والاتجاه، مخلصة النية، مَتِيْنَة العزائم، متحابَّة في الحق، مجتمعة القلوب علىٰ الإِسْلَام والعَرَبِيَّة، قد أَلَّفَ بينها العلم والعَمَل، مثل ما اجتمع للجَزَائِر في علمائها الأبرار، فهٰؤُلَاءِ الذين وَرَىٰ بهم زِنَادِي، وتَأَثَّلَ بطارفهم تِلَادِي)[٢].

وقال أَيْضاً:

(إذا كنت أستمد القوة والحياة فإنما أستمدها ممن أولوني شرف الثِّقَة والإخلاص لديني ولأُمَّتِي، وأخص منهم الأُسُود الكبار، وهم إخواني الأَقْوِيَاء من رِجَال العلم، الذين أجدني مهما وقفت موقفاً إلَّا وجدتهم معي كالأُسُود)[٣].

وممن وازوه في العَمَل: البشير الإِبْرَاهِيْمِيّ، والطَّيِّب العُقْبِيّ صاحب جريدة الإِصْلَاح، والشَّيْخ العَرَبِيّ التِّبِسِّيّ الأمين العام لجمعية العُلَمَاء، الذي اختطفه الفرنسيون من منزله سنة ١٩٥٧م ولم يظهر له أثر بعدها، والشَّيْخ مُبَارَك بن مُحَمَّد المِيْلِيّ رئيس تَحْرِيْر جريدة البَصَائِر قبل الحَرْب العالمية الثانية، وغيرهم[٤].

٤- وقوف الأُمَّة الجَزَائِرِيَّة إلىٰ جانبه، وهي - كما وصفها - : (المِعْوَانَة علىٰ

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص١٣٨.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص١٤٠.

(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص١٤٤.

(٤) الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص١٧٤-١٧٥.

الخير، المنطوية علىٰ أُصُوْل الكَمَال، ذات النسب العريق في الفَضَائِل والحسب الطَّوِيْل العريض في المَحَامِد.

وقال: هٰذِهِ الأُمَّة التي ما عملتُ يوماً - علم الله - لإرضائها لذاتها، وإنما عملتُ وما أزال أعمل لإرضاء الله بخدمة دينها ولغتها، ولٰكِن الله سددها في الفهم، وأرشدها إلىٰ صواب الرأي، فتبينتْ قصدي علىٰ وجهه، وأَعْمَالِي علىٰ حقيقتها، فأعانت ونشطت بأقوالها وأموالها وبفِلْذَات أكبادها، فكان لها بذٰلِكَ كله من الفَضْل في تكويني العَمَلِيّ أضعاف ما كان لتلك العناصر في تكويني العِلْمِيّ)[١].

٥- القُرْآن الكَرِيْم. قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(ثم الفَضْل أولاً وأَخِيْراً لله ولكتابه الذي هدانا لفهمه والتَّفَقُّه في أَسْرَاره والتأدب بآدابه، وإن القُرْآن الذي كَوَّنَ رِجَال السَّلَف لا يكثر عليه أن يُكَوِّنَ رِجَالاً في الخَلَف، لو أُحسن فهمه وتدبره، وحُملت الأنفس علىٰ مِنْهَاجه)[٢].

وكان هٰذَا مدعاة لقيامه بتربية الدارسين علىٰ حب القُرْآن، قال: (إننا والحمد لله نربي تلامذتنا علىٰ القُرْآن من أول يوم، ونوجه نفوسهم إلىٰ القُرْآن الكَرِيْم في كل يوم)[٣].

ويضاف إلىٰ العوامل المتقدمة التي ذكرها الشَّيْخ والتي أثرت في تكوين شخصيته:

٦- تأثره بحَرَكَة الإصْلَاح التي قام بها الأَفْغَانِيّ و مُحَمَّد عَبْدُه، وكان معجباً

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص١٤٠.
(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص١٤٢.
(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص١٤٢.

وانظر هٰذِهِ العوامل في: ابن بَادِيْس حياته آثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٧٧-٨٠. والشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابح ص١٧١-١٧٨.

بجريدة المَنَار التي يصدرها الشَّيْخ مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا.

٧- تأثره بفكر ابن تَيْمِيَّة، ويعتبره المجدد والمصلح في شَيْخوخة الفكر الإِسْلَامِيّ.

٨- عُلُوّ همته واستنارة عقله، وسيولة قلمه، وحضور بديهته، ومَعْلُوْمَاته المنظمة الكثيرة[١].

هٰذِهِ العوامل جعلت ابن بَادِيْس شخصية بارزة في مختلف الميادين فكان:

مفسراً، ومُحَدِّثاً، وفقيهاً، وأديباً ذَوَّاقَـةً، ناقداً، وكاتباً ذا أُسْلُوْب ممتع بليغ، لا يتكلم ولا يُدَرِّس إِلَّا بالفصحىٰ، وخَطِيْباً مُفَوَّهاً. وكان صحفياً يختار الموضوع ويصف الدواء، ويقرأ الصحافة المَحَلِّيَّة والأجنبية، ومدرساً ماهراً، ومربياً من الطراز الأول، وكان سياسياً بارعاً، نَاهَضَ الاستعمارَ طول حياته، وكان يحتج باسمه في أحرج الأوقات، وباسم جمعية العُلَمَاء في الأوقات العادية صوناً للجمعية من القلاقل. وكان لا يخشىٰ في الحق لومة لائم.

وسيأتي تفصيل ذٰلِكَ إن شاء الله تعالىٰ.

لذٰلِكَ بلغ ثناء العُلَمَاء عليه حداً لا مَزِيْد عليه. يشير إليه ما تحدث به زَمِيْله في الجِهَاد الشَّيْخ البشير الإِبْرَاهِيْمِيّ في قوله:

(الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس من أعلم عُلَمَاء الشمال الإِفْرِيْقِيّ ولا أُغالي، وباني النهضات العِلْمِيَّة والأدبية والاجتماعية والسياسية بالجَزَائِر...)[٢].

ووصفه مُحَمَّد البشير الإِبْرَاهِيْمِيّ أَيْضاً بأنه: (باني النهضتين العِلْمِيَّة والفكرية بالجَزَائِر، وواضع أُسسها علىٰ صَخْرَة الحق، وقائد زحوفها المُغِيْرَة إلىٰ الغايات

(١) تعريف بالإِمَام عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس: توفيق مُحَمَّد شَاهِيْن - تَفْسِيْر ابن بَادِيْس ص٧٠٧.

(٢) تعريف بالإِمَام عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس: توفيق مُحَمَّد شَاهِيْن - تَفْسِيْر ابن بَادِيْس ص٧٠٧-٧١١.

العليا، وإمَـام الـحَرَكَـة السَّلَفِيَّة، ومنشئ مَجَلَّة الشِّهَاب مِـرْآة الإصْـلَاح وسَيْف المصلحين، ومربي جِيْلَيْن كَامِلَيْن علىٰ الهِدَايَة القُرْآنِيَّة والهدي المُحَمَّدِيّ وعلىٰ التفكير الصَّحِيْح... إلخ)[١].

وقال فيه الشَّيْخ العَرَبِيّ التِّبِسِّي: (إن الرِّجَال لا تُسَجَّل أَنْسَابهم، ولا صورهم، ولا أموالهم، في سجل الإنسانية وشرائعها، وإنما تُسَجَّل عَقَائِد الذين غرسوا عَقَائِدهم في نفوس الناس...، وعَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس جدير بأن تُقِيْم له الأُمَّة الجَزَائِرِيَّة الإسْلَامِيَّة العَرَبِيَّة الذكرىٰ، وجدير بأن يُعَدَّ من أُوْلَئِكَ الذين سَجَّلَ لهم التَّارِيْخ جهوداً تؤهله للحاق بالشخصيات المعترف لها بمزاياها...، لقد كان الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد هو الجَزَائِر، فلتجاهد الجَزَائِر الآن أن تكون هي الشَّيْخ بَادِيْس)[٢].

وقال فيه الشَّيْخ مُحَمَّد بن الحسن الثَّعَالِبِيّ الفَاسِيّ: (عَلَّامَة القطر الجَزَائِرِيّ، وأشهر عالم مفكر فيه، ورئيس علمائه كافةً، الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، المدرس بقَسَنْطِيْنَة، وصاحب مَجَلَّة الشِّهَاب)[٣].

وقال فيه الدكتور مُحَمَّد البَهِيّ وَزِيْر الأوقاف المِصْرِيّ ووَزِيْر شؤون الأَزْهَر السَّابِق: (الإمَام عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس رئيس جمعية العُلَمَاء بالجَزَائِر، وبَاعِث النهضة الإسْلَامِيَّة العَرَبِيَّة فيها، وقائد الثورة ضد الاستعمار الفرنسي في هٰذِهِ البلاد العَزِيْزَة، وَاحِد من العُلَمَاء المصلحين والمفكرين الرواد في الوطن الإسْلَامِيّ العَرَبِيّ...، إن عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس لم يكن شخصاً، وإنما كان قبساً من نور الله، كشف به ظلام الاستعمار في الجَزَائِر، وهَدَىٰ به قوماً كادت تضلهم ظلمته)[٤].

(١) الإمَام عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، رائد النهضة العِلْمِيَّة والفكرية: الزُّبَيْر بن رحال ص١١٠.
(٢) الإمَام عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، رائد النهضة العِلْمِيَّة والفكرية: الزُّبَيْر بن رحال ص١١١.
(٣) الإمَام عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، رائد النهضة العِلْمِيَّة والفكرية: الزُّبَيْر بن رحال ص١٠٩.
(٤) الإمَام عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، رائد النهضة العِلْمِيَّة والفكرية: الزُّبَيْر بن رحال ص١٠٧.

وقال فيه الدكتور روجي جارودي: (إن ابن بَادِيْس والإبْرَاهِيْمِيّ ورِجَال الجمعية حاربوا التَّعْلِيْم الاستعماري الهادف إلىٰ تحطيم مقومات الشخصية، وقطع الطفل الجَزَائِرِيّ عن الثقافة العَرَبِيَّة الإِسْلَامِيَّة، وحاربوا كذٰلِكَ العقلية الخرافية)[1].

آثاره العِلْمِيَّة:

اشتغل ابن بَادِيْس بتأليف الرِّجَال عن تأليف الكتب، ولم يبق مما كتب إلَّا ما نشر في صحفه ومجلاته.

وقد جمع الأُسْتَاذ الدكتور عَمَّار الطَّالِبِيّ آثار ابن بَادِيْس من تلك الجرائد والمجلات، وطبعها في مجلدين بأربعة أجزاء، وقدم لها بمُقَدِّمَة عن حياته وأُسْلُوْبه التربوي.

واشتمل المجلد الأول علىٰ آثاره في التَّفْسِيْر والحَدِيْث.

واشتمل المجلد الثاني علىٰ المَقَالَات الاجتماعية والتربوية والأَخْلَاقِيَّة والدِّيْنِيَّة والسياسية.

وكانت الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ سنة ١٩٦٨م، نشرتها مَكْتَبَة الشركة الجَزَائِرِيَّة.

ثم تولت وزارة الشؤون الدِّيْنِيَّة الجَزَائِرِيَّة جمع وطبع آثاره وذٰلِكَ سنة ١٩٨٢م، وظهر منها خمسة أجزاء.

---

(١) الإمَام عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، رائد النهضة العِلْمِيَّة والفكرية: الزُّبَيْر بن رحال ص١٠٥.
وفي هٰذَا الكتاب كلمات لأساتذة ومفكرين آخرين.

المَبْحَث الثاني
آراء الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس

ابن بَادِيْس وحَرَكَات الإصْلَاح:

لا شك في أن لدعوة السَّيِّد جمال الدِّيْن الأَفْغَانِيّ وتلميذه الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه صدى كَبِيْراً في بلاد المَغْرِب. وكانت زيارة الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه إلىٰ شمال إفْرِيْقِيَّا مشهودة، حيث التَفَّ حوله الطلبة والشُّيُوْخ، ونهلوا من عُلُوْمه، وتأثروا بآرائه، مما جعل جريدة المَنَار التي أصدرها خليفته السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا مَنَاراً يهتدي بها السالكون في طريق الإصْلَاح، وكانوا يسمونها (مَدَد الحياة)، علىٰ ما قدمناه.

والشَّيْخ ابن بَادِيْس في أيام تَحْصِيْله العِلْمِيّ تأثر بشُيُوْخ تأثروا بحَرَكَة الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه كالشَّيْخ النخلي والطاهر بن عاشور[1] في الزَّيْتُوْنَة، فكان لهم الأثر الكَبِيْر في تكوين شخصيته، فكانت أَفْكَاره عموماً موافقة لآراء الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه، وإن لم يتأثر بها مباشرة كتأثر صديقه السَّيِّد رَشِيْد رِضَا، وذٰلِكَ في إنكاره البدع وضلالات الصُّوْفِيَّة والتَّعْلِيْم وطريقته.

فالشَّيْخ ابن بَادِيْس ذكر أنه لما قفل من الحِجَاز، وحَلَّ بقَسَنْطِيْنَة سنة ١٣٣٢هـ، أدخل في برامج دروسه: تَعْلِيْم اللُّغَة وآدابها، والتَّفْسِيْر، والحَدِيْث، والأُصُوْل، ومبادئ التَّارِيْخ والجغرافية والحساب، وغيرها. وقسم المُعَلِّمِيْن إلىٰ طَبَقَات، وغَيَّر في أساليب التَّعْلِيْم، وحث علىٰ تعلم جميع العُلُوْم باللِّسَان العَرَبِيّ والفرنسي. وحبب

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٧٥.

الناس في فهم القُرْآن، ودعا الطلبة إلىٰ الفكر والنَّظَر في الفُرُوْع الفِقْهِيَّة، ورغبهم في مُطَالَعَة كتب الأقدمين والمعاصرين...، وقال: (لما قلنا بهٰذَا وأعلناه قامت علينا وعلىٰ من وافقنا قيامة أهل الجمود والركود، وصاروا يدعوننا للتنفير والحَطّ منا (عبداويون)، دون أن أكون والله يوم جئت قَسَنْطِيْنَة قرأت كتب الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه إلَّا القليل...)[1].

وأنكر ابن بَادِيْس أَيْضاً أن تكون له صِلَة أو مَعْرِفَة بالحَرَكَة الوَهَّابِيَّة، وإن كانت دعوته موافقة لآرائها بحكم تأثر شُيُوْخه بحَرَكَة الإِصْلَاح الإِسْلَامِيّ العام. فذكر أنه لما مضت عشر سنوات في الدرس، وتكون النشء العِلْمِيّ، رأىٰ أن من الواجب عليه أن يقوم بالدعوة العامة إلىٰ الإِسْلَام الخالص والعلم الصَّحِيْح إلىٰ الكِتَاب والسُّنَّة وهُدَىٰ صالح سَلَف الأُمَّة، وطرح البدع والضلالات ومفاسد العادات، فأسس الصحافة ونهض مفكرو القطر بالدعوة، وذكر أن غضبة الباطل هٰذِهِ المرة أشد، وتمالأ أهل البدعة والجمود، وعليها بنيت صروح من الجاه... وأصبحت الجَمَاعَة الداعية إلىٰ الله يُدْعَوْنَ (الوَهَّابِيُّوْن)، قال (ولا والله ما كنت أملك يومئذ كتاباً وَاحِداً لابن عَبْد الوَهَّاب، ولا أعرف من ترجمة حياته إلَّا القليل، ووالله ما اشتريت كتاباً من كتبه إلىٰ اليوم، وإنما هي أُفيكات قوم، يهرفون بما لا يعرفون)[2].

ويبدو أن هٰذَا الكلام الذي رمي به، وهو أنه تابع مُحَمَّد بن عَبْد الوَهَّاب ومُحَمَّد عَبْدُه، نبهه إلىٰ دعوتهما، ودعاه إلىٰ الوقوف علىٰ حقيقة آرائهما في الإِصْلَاح.

فنشر في جريدة الشِّهَاب سنة ١٩٢٩م مَقَالَة ليوبولدوايس الألماني، الذي أسلم وتَسَمَّىٰ بمُحَمَّد أَسَد الله، عن الملك عَبْد العَزِيْز آل سُعُوْد والحَرَكَة الوَهَّابِيَّة وتعاليمها

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٢٧.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٢٨ من مقالته: (عبداويون ثم وَهَّابِيُّوْن ثم ماذا؟ لا ندري والله) سنة ١٣٥١هـ.

وأثرها في الشرق.

وقدم ابن بَادِيْس لها بقوله: (هي صفحة من تَارِيْخ الملك العَرَبِيّ السَّلَفِيّ عَبْد العَزِيْز آل سُعُوْد، الذي شرفه الله بخدمة ذٰلِكَ البيت المعظم في هٰذَا العهد، ومد تعالىٰ بملكه رواق الأمن والعَدْل والتَّهْذِيْب والدِّيْن الخالص علىٰ ربوع الحِجَاز أرض الحَرَمَيْن الشَّرِيْفَيْن، وأن في نهضة هٰذَا الملك العَظِيْم وفي حياته وصفاته لدرساً عميقاً ومجالاً وَاسِعاً للعِبْرَة والتفكير)(١).

وحين رمىٰ ابن غراب جمعية العُلَمَاء المُسْلِمِيْن الجَزَائِرِيِّيْن بأنها تنشر المَذْهَب الوَهَّابِيّ، قال: (أتعدّ الدعوة إلىٰ الكِتَاب والسُّنَّة وما كان عليه سَلَف الأُمَّة، وطرح البدع والضلالات، واجتناب المرديات والمهلكات نشراً للوَهَّابِيَّة؟ أم نشر العلم والتَّهْذِيْب وحرية الضمير وإجْلَال العقل واسْتِعْمَال الفكر واستخدام الجوارح نشر للوَهَّابِيَّة؟

إذن فالعالم المُتَمَدِّن كله وهابي، فأَئِمَّة الإسْلَام كلهم وَهَّابِيُّوْن. ما ضَرَّنَا إذا دعونا إلىٰ ما دعا إليه جميع أَئِمَّة الإسْلَام، وقام عليه نظام التَّمَدُّن في الأُمَم، إن سمانا الجاهلون المُتَحَامِلون بما يشاؤون، فنحن إن شاء الله فوق ما يظنون)(٢).

وشارك ابن بَادِيْس سنة ١٩٣٥م في حفلة الذكرىٰ الثلاثين التي أقامها المِصْرِيُّون للأُسْتَاذ الإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، فنشر صورته هَدِيَّة للقُرَّاء، ونقل بمناسبة ذٰلِكَ عن المجلد ١١ من المَنَار نصيحته التي ورد فيها:

من يعرف الأُسْتَاذ الإمَام يعرف أن كل حَدِيْثه في جميع أوقاته نصح وتَعْلِيْم...، ونصيحته الشَّاملة هي:

١. الجد في تَحْصِيْل العُلُوْم الدِّيْنِيَّة والدنيوية.

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص٢٣٠-٢٤٢.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٢٩١ سنة ١٩٣٣م.

٢. الجد في الكسب وعِمْرَان البلاد من الطرق المشروعة الشَّرِيْفَة، مع الاقْتِصَاد في المعيشة.

٣. مسالمة الحكومة وترك الاشتغال بالسِّيَاسَة، لأن فرنسا والحكومات في جميع الأرض يضيقون علىٰ البلاد التي يستعمرونها ما داموا يعتقدون أن أهلها ساخطون عليهم.

ولٰكِن هٰذَا الإعراض عن السِّيَاسَة لا ينافي مخاطبة الحكومة فيما يرونه ضاراً بهم من القوانين، فإن لم تكشف ظلامتهم كانوا معذورين إذا سخطوا(١).

وذكر ابن بَادِيْس أن أول من نادىٰ بالإصْلَاح الدِّيْنِيّ علماً وعملاً، نداء سمعه العالم الإسْلَامِيّ كله في عَصْرنا هٰذَا، هو الأُسْتَاذ الإمَام الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه، وأول من قام بخدمته بنشرة إسْلَامِيَّة عالمية هو تلميذه حُجَّة الإسْلَام السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا صاحب المَنَار. وجاءت دعوتها الإصْلَاحِيَّة في مِصْر، واصطدمت وثبتت بقوة إيمانها، ومضىٰ ثلث قرن وهي تنقص البدع من أطرافها(٢).

وكان السَّيِّد رَشِيْد رِضَا صِنْوَ الشَّيْخ ابن بَادِيْس، يؤازره في دعوته. فحين أوضح ابن بَادِيْس علىٰ صفحات الشِّهَاب أن العِبَادَة الشَّرْعِيَّة موضوعة علىٰ الرجاء والخوف، وأن الطمع في فضل الله لا ينافي إخلاص العِبَادَة له بالأَدِلَّة من الكِتَاب والسُّنَّة، رداً علىٰ من زعم من غُلَاة الصُّوْفِيَّة أن العِبَادَة تتجرد عن الرجاء والخوف، قال: لما اطلع أخونا في الله شَيْخ الإسْلَام الأُسْتَاذ مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا علىٰ ما دار في المَسْأَلَة بيننا وبين خصومنا كاتبنا بموافقته علىٰ ما قلنا، وذكر لنا ما كان كتبه هو في المَسْأَلَة في تَفْسِيْر

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٥٧.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٦٦ سنة ١٩٣٦م.

المَنَار، ونشر في الشِّهَاب كلام السَّيِّد رَشِيْد المشار إليه(١).

وحين نَعَتْ أَخْبَار مِصْر وفاة السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا، كتب ابن بَادِيْس كلمة بعُنْوَان (رزء الإِسْلَام وفاة مجتهد العَصْر الأُسْتَاذ رَشِيْد رِضَا)، ذكر فيها:

أنه كان نسيج وحده في هٰذَا العَصْر، فِقْهاً في الدِّيْن وعلماً بأَسْرَار التَّشْرِيْع وإحاطة بعُلُوْم الكِتَاب والسُّنَّة، وأشاد بتَفْسِيْره ومجلته وكتابه الوحي المُحَمَّدِيّ، ورجا أن يتم عمله الأُسْتَاذ مُصْطَفَىٰ المَرَاغِيّ.

ثم كتب ترجمة له بثلاث حلقات، معتمداً علىٰ ما كتبه في تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإِمَام، والمَنَار والأَزْهَر، فتحدث عن نشأته وتنسكه وتخلصه من البدع وهجرته واتصاله بالشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه. وذكر: أنه أصبح من الفرسان المُعْلَمِيْن في ميدان الإِصْلَاح الدِّيْنِيّ والاجتماعي، وكان في كليهما يصدر عن إيمان، وكانت غايته السياسية الكُبْرَىٰ إيجاد دولة إِسْلَامِيَّة كُبْرَىٰ مرهوبة الجانب، تكون مركزاً للأُمَم الإِسْلَامِيَّة في العالم بصفة دينية إذا لم تكن بصفة سياسية.

وأوضح أثره في العالم الإِسْلَامِيّ بما نشر من تَفْسِيْر وبما كتب في المَنَار، وهو الذي جَلَّىٰ الإِسْلَام بصفاته الحقيقية، المُسْلِمِيْن وغير المُسْلِمِيْن، ولفت المُسْلِمِيْن إلىٰ هِدَايَة القُرْآن، وهو الذي دحر الخصوم وهتك أستارهم. وذكر أن هٰذِهِ الحَرَكَة الدِّيْنِيَّة الإِسْلَامِيَّة الكُبْرَىٰ اليوم في العالم إِصْلَاحاً وهِدَايَة، بَيَاناً ودفاعاً، كلها من آثاره رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ(٢).

وهٰذَا كله يَدُلّ علىٰ اطلاعه أَخِيْراً علىٰ آراء الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه ورَشِيْد رِضَا، وموافقته علىٰ خطهما في الإِصْلَاح.

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٥٢ سنة ١٩٣٣م.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص١٩٤-٢٠٩ سنة ١٩٣٥م.

الإصْلَاح عند ابن بَادِيس:

وسيكون الكلام فيه عن إصْلَاح الفرد، ثم عن إصْلَاح المجتمع.

أولاً: إصْلَاح الفرد:

يبدأ الإصْلَاح عند ابن بَادِيْس من الفرد، شأنه بذْلِكَ شأن الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه في دوره الأَخِيْر. بخلاف ما ذهب إليه البعض من أن الإصْلَاح يبدأ بالمجتمع.

وصَلَاح الإنسان وفساده يقاسان بصَلَاح النفس وفسادها، قال تعالىٰ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ - الشمس.

والعِنَايَة الشَّرْعِيَّة متوجهة كلها إلىٰ إصْلَاح النفوس، وهو المقصود من إنزال الكتب وإرسال الرسل. وصَلَاح الفرد هو صَلَاح المجموع.

وصَلَاح النفس الذي هو صَلَاح الفرد يكون بأمرين: العَقَائِد الحَقَّة، والأَخْلَاق الفاضلة[(١)].

الأمر الأول: العَقَائِد الحَقَّة:

أفاض الكلام عن العَقَائِد الإسْلَامِيَّة وأثرها في بناء الفرد، وذكر أن أُمَّهَات أُصُوْل العَقَائِد ثلاثة: الإيمان بالله، والإيمان برَسُوْله، والإيمان باليوم الآخر[(٢)].

١- الإيمان بالله تعالىٰ:

إن التَّوْحِيْد أَسَاس الدِّيْن كله، ولا تتقبل الأَعْمَال إلَّا به، فنهىٰ الله سُبْحَانَهُ الناس كلهم عن الإشراك به، فقال تعالىٰ: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾- الإسراء: ٢٢، وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾- الإسراء:

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٢٣٢و٣٣٩.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص٨٤.

.٢٣

والآية تضمنت تَوْحِيْد الربوبية أي من له الخلق والتدبير والملك والإنعام، وتَوْحِيْد الألوهية، فالمنفرد بالأمر والخلق هو المستحق وحده العِبَادَة.

ويلاحظ أن تقسيم التَّوْحِيْد هٰذَا هو الذي ذكره ابن تَيْمِيَّة وتلاميذه، وأكد عليه الشَّيْخ مُحَمَّد بن عَبْد الوَهَّاب الذي حذا حذو ابن تَيْمِيَّة في آرائه.

وذكر ابن بَادِيْس أن هاتين الآيتين تضمنتا التَّوْحِيْد العِلْمِيّ والعَمَلِيّ أَيْضاً، فالأُوْلَىٰ نهت أن تعتقد الألوهية لسواه، وهو يتضمن النهي عن اعْتِقَاد ربوبية سواه، وهٰذَا من باب العلم.

والآية الثانية أوجبت أن تكون عِبَادتك مقصورة عليه تعالىٰ، لأنه هو ربك وحده، وهٰذَا من باب العَمَل.

وانتهىٰ من ذٰلِكَ إلىٰ أن:

من خضع قلبه لمخلوق علىٰ أنه يملك ضره أو نفعه فقد عَبَدَهُ.

ومن شعر بضعفه وافتقاره أمام مخلوق علىٰ أنه يملك إعْطَاءه أو منعه فقد عَبَدَهُ.

ومن ألقىٰ قياده بيد مخلوق يتبعه فيما يأمره وينهاه غير ملتفت إلىٰ أنه من عنده أو من عند الله فقد عَبَدَهُ.

ومن تَوَجَّهَ لمخلوق فدعاه ليكشف عنه السوء أو يدفع عنه الضر فقد عَبَدَهُ(١).

فالسؤال لا يكون إلَّا من الله، كما قال ﷺ لابن عَبَّاس: (وإذا سألتَ فاسأل الله)، فمن المخلوق تسأل الدعاء، ومن الخَالِق تسأل العَطَاء(٢).

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٢١٦-٢١٨.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص٢٨٠.

وذكر أن في الناس طوائف كثيرة وقفت أمام قبور بعض الأموات، تتضرع وتناديهم علىٰ اعْتِقَاد أنهم يقربونها إلىٰ الله، ويتوسطون لها إليه، ويتصرفون لها في قَضَاء الحوائج، ويسوقون لها الأنعام إرضاء لها، وفي الناس من يحلف بالله كاذباً، لٰكِنه يحلف بمن يعظمه من الأحياء أو الأموات فلا يكذب.

قال ابن بَادِيْس: إن هٰـذِهِ الطوائف كلها قد لحقت بالمُشْرِكِيْن، قال ﷺ: (لا تقوم الساعة حتىٰ تلحق قبائل من أُمَّتِي بالمُشْرِكِيْن، وحتىٰ يعبدوا الأوثان) - رواه التِّرْمِذِيّ وصححه[1].

وتكلم ابن بَادِيْس عن التوسل:

فأورد حَدِيْث التِّرْمِذِيّ الذي رواه بسنده عن عُثْمَان بن حُنَيْف: أن رجلاً ضرير البصر أتىٰ النَّبِيّ ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني. قال: إن شئتَ دعوتُ، وإن شئتَ صبرتَ فهو خير لك. قال: فادعه. قال فأمره أن يتوضأ فيحسن وُضُوْءه، ويدعو بهٰذَا الدعاء: (اللهم إني أسألك، وأتوجه إليك بنبيك مُحَمَّد نَبِيّ الرحمة، إني توجهت بك إلىٰ ربي في حاجتي هٰذِهِ لتقضىٰ لي، اللهم فَشَفِّعْهُ فِيَّ). قال: هٰذَا حَدِيْث حسن صَحِيْح غَرِيْب لا نعرفه إلَّا من هٰذَا الوجه.

وذكر ابن بَادِيْس في بَيَان معناه:

أ. أن الأعمىٰ لم يدع النَّبِيّ ﷺ، ولم يسأله أن يشفيه، لأن الدعاء لكشف البلاء وقَضَاء الحوائج هو العِبَادَة، قال ﷺ: (الدعاء هو العِبَادَة) - رواه أَحْمَد وأصحاب السُّنَن، والعِبَادَة لا تكون إلَّا لله، وإنما سأله أن يدعو له الله تعالىٰ أن يعافيه، وهٰذَا جائز، كسؤال أم أَنَس بن مَالِك من النَّبِيّ ﷺ أن يدعو لأَنَس خادمه فدعا له، كما في البُخَارِيّ.

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص٢٣٨.

ب. هل كان توسل الأعمىٰ بذات النَّبِيّ أو بدعائه؟ وجهان:

أولهما: جاز التوسل بذاته ﷺ لمقامه عند ربه، وحكم هٰذَا الدعاء باقٍ بعد وفاته ﷺ كما كان في حياته.

الثاني: كان التوسل بدعائه ﷺ، وحكم هٰذَا الدعاء أنه غير جائز بعد وفاته ﷺ، لأن دعاءه إنما كان في حياته لمن دعا له.

وأجاز ابن بَادِيْس الأول وهو السؤال بذاته، لأن ذٰلِكَ هو ظَاهِر اللفظ ولا موجب للتقدِير. إلَّا أنه مرجوح.

ورجح الثاني، لأن الصَّحَابَة لم يُرْوَ عنهم أنهم توسلوا بذاته، كما في حَدِيْث البُخَارِيّ في صَحِيْحه عن أَنَس: أن عُمَر بن الخَطَّاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كان إذا قحطوا استسقىٰ بالعَبَّاس بن عَبْد المُطَّلِب، فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا ﷺ فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون.

قال ابن بَادِيْس: فالتوسل هنا قطعاً بدعائهما لا بذاتهما.

ولم يرد عن وَاحِد من الصَّحَابَة أنه كان يذهب إلىٰ القبر النَّبَوِيّ ويطلب منه، بل جاء عن ابن عُمَر، وهو من عرف بشدة تحريه، أنه كان يقف فيسلم علىٰ النَّبِيّ ﷺ، ثم علىٰ أبي بَكْر ثم علىٰ عُمَر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، ثم ينصرف لا يَزِيْد شَيْئاً - أَخْرَجَهُ مَالِك في المُوَطَّأ.

أما التوسل بذات غيره من أهل المكانة المحققة عند الله تعالىٰ فجائز، قياساً علىٰ جواز التوسل بذاته ﷺ، لمقامه العَظِيْم عند الله تعالىٰ.

وأما التوسل بذات غيره ممن ليس لنا اليقين القاطع بمقامه فلا وجه له، وطلب الدعاء منه بعد موته بدعة.

ثم قال ابن بَادِيْس: هٰذِهِ الوجوه مَنَّ الله بتَحْرِيْرها بوجه لم أره لغيري، وكنتُ في

تَحْرِيْرها باحثاً منصفاً متجرداً(١).

وفَرَّقَ ابن بَادِيْس بين التوسل بالنَّبِيّ ﷺ ودعائه:

فدعاؤه ﷺ هو طلب قَضَاء الحوائج منه، وهٰذَا ممنوع بالأَدِلَّة الكثيرة، لأن من دعا فقد عبد، فالدعاء هو العِبَادَة، ولا يكون إلَّا لله. قال سُبْحَانَهُ: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾- الأعراف: ٥٥، ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾- الأعراف: ٥٦، و﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾- النمل: ٦٢، و﴿ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾- الجن: ١٨.

وقال ﷺ: (وإذا سألت فاسأل الله) - رواه التِّرْمِذِيّ وحَسَّنَهُ وصححه.

أما التوسل به ﷺ فهو أن تطلب من الله، وتسأله به ﷺ، ومنه التشفع أو الاستشفاع به، كحَدِيْث الأعمىٰ المتقدم(٢).

٢- الإيمان بالنُّبُوَّة:

النُّبُوَّة منزلة من الكَمَال البشري، يهيئ الله لها من يشاء من عِبَاده، فيكون بذٰلِكَ مستعداً لتلقي الوحي والاتصال بعالم الملائكة، ولتَحَمُّل أعباء ما يلقىٰ إليه، وتكاليف تبليغه بالقول والعَمَل، وتحمل كل بلاء يلقاه في سَبِيْل ذٰلِكَ التبليغ(٣).

واستدل علىٰ نُبُوَّة مُحَمَّد ﷺ بما يأتي:

أ. إن القُرْآن الكَرِيْم بما فيه من عُلُوْم وحَقَائِق كونية، ما عرفت إلىٰ العَصْر الأَخِيْر، جاء من رجل أُمِّيّ لم يقرأ ولم يكتب ولا دَارَس العُلَمَاء.

ب. موافقة دعوته ﷺ لدعوة المُرْسَلِيْن، ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾- النساء: ١٦٣.

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص١٨٧-١٩٦.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٣٦.

(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص٩.

ج. جاء بِهٰذَا الدِّيْن الكَامِل الجَامِع لقَوَاعِد الحياة المقامة علىٰ العَدْل والإحْسَان.

د. سُلُوْكه في حياته من مَبْدَئها إلىٰ نهايتها علىٰ الصراط المُسْتَقِيْم وعلىٰ أَكْمَل وجه. وما هٰذَا من شأن البشر لولا عصمة الله إياه[١].

وأكد علىٰ أن اتباع سَبِيْله ﷺ واجب، وذٰلِكَ في القيام بشرائع الإسْلَام في العِبَادَات والمعاملات والفُرُوْع كافة علماً وعملاً[٢].

وتحدث عن معجزاته ﷺ، فذكر أنه أُوتي معجزات كمعجزات الأنبياء السَّابِقِيْن، واشتهرت عند أَئِمَّة الحَدِيْث. غير أن معجزته الكُبْرَىٰ الدائمة كعموم رسالته ودوامها هي القُرْآن العَظِيْم، وهو معجزة عِلْمِيَّة عقلية يخضع لسُلْطَانها كل من يسمعها ويفهمها، ولا يستطيع معارضتها علىٰ ما كان من شدة رغبة العَرَب المُشْرِكِيْن في إبطالها[٣].

وتكلم عن القُرْآن كَثِيْراً، وذكر أنه:

أفضل الأذكار: من طريق الأثر قال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ - الأنبياء: ٥٠، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ - القمر: ١٧ و٢٢ و٣٢ و٤٠، وقال عَزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ - النمل: ٩١-٩٢. فهٰذِهِ البركة، وهٰذَا التَّيْسِيْر، وهٰذَا الأمر بالتلاوة المقرون بالأمر بتَوْحِيْد العِبَادَة وبالإسْلَام علىٰ طريق الحصر لم ترد إلَّا في القُرْآن.

وقوله ﷺ: (من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حَسَنَة، والحَسَنَة بعشر أمثالها، لا أقول الۤم حرف، ولٰكِن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف) - أَخْرَجَهُ التِّرمِذِيّ وحَسَّنَهُ وصححه. وهٰذِهِ مثوبة لم ترد لغير القُرْآن من جميع الأذكار.

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص٦٤-٦٥.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٤٠٤.

(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص٢٢٥.

أما من طريق النَّظَر فإن أَشْرَف حالتي الإنسان، وهي حالة انفراده بربه وخلوص قلبه له، إنما تحصل علىٰ أَكْمَلها لتالي القُرْآن العَظِيْم. فقلبه وهو أفضل ما فيه قائم بأفضل أَعْمَاله، وهو التفكر والتدبر في أفضل المعاني، وهي معاني القُرْآن. ولِسَانه ترجمان القلب قائم بأفضل أَعْمَاله، وهي البَيَان بأفضل كلام وهو القُرْآن، وجوارحه محبوسة علىٰ قيام القلب واللِّسَان بأفضل الأَعْمَال.

لذٰلِكَ ذهب الأَئِمَّة من السَّلَف والخَلَف إلىٰ أن قِرَاءَة القُرْآن أفضل من الذكر[١].

وتحدث عن أُمُور أُخْرَىٰ تتعلق بالقُرْآن الكَرِيْم من مقدار التلاوة[٢]، والتحذير من هجرانه[٣]، وإعجازه ببلاغته وناحيته العِلْمِيَّة[٤]، والاحتجاج به علىٰ المُشْرِكِيْن[٥].

وأوضح: أن لا نجاة لنا من هٰذَا التيه الذي نحن فيه إلَّا بالرجوع إلىٰ القُرْآن وهديه والتَّفَقُّه فيه وبناء العَقَائِد والأَحْكَام والآداب عليه، مع إخلاص القصد، والاعتضاد بأَنْظَار العُلَمَاء الراسخين[٦].

والتالي للقُرْآن والسامع له في حضرة الرب علىٰ بساط القرب، والغفلة في هٰذَا المقام من قلة الأدب، ويستوجب العتب والملامة[٧].

٣- الإيمان باليوم الآخر:

ذكر ابن بَادِيْس بأنه يجب فيما يرد من الأَخْبَار عن اليوم الآخر أن يحمل علىٰ ظَاهِره،

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص١٤٠-١٤٣.
(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص١٤٤.
(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٤١٢.
(٤) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٣٨٦.
(٥) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٤٢٠.
(٦) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٤١٠.
(٧) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص٥٨.

ولو كان غير معتاد في الدنيا، لأن أحوال العالم الآخر لا تقاس علىٰ أحوال هٰذَا العالم(١).

البِدَع:

عَرَّفَ ابن بَادِيْس البِدْعَة: بأنها: كل ما أُحدث علىٰ أنه عِبَادَة وقربة، ولم يثبت عن النَّبِيّ ﷺ فعله(٢).

فهي اختراع المرء أَعْمَالاً من عند نفسه يتقرب بها إلىٰ الله، كاختراع المُشْرِكِيْن عِبَادَة الأوثان بدعائها. وذكر من البدع:

الرقص والزمر، والطواف علىٰ القبور، والنذر لها، والذبح عندها، ونداء أصحابها، وتقبيل أحجارها، وحرق البخور عندها، وبناء القباب علىٰ القبور، والاستغاثة بأهلها، وبدع المآتم، وزخرفة المساجد.

وذكر أن ذٰلِكَ ضلال من أَعْمَال الجاهلية، ومضاهاة لأَعْمَال المُشْرِكِيْن، فهي ليست من سعي الآخِرَة الذي كان يسعاه مُحَمَّد ﷺ وأصحابه من بعده(٣)، والرَّسُوْل ﷺ يقول: (وإياكم ومُحْدَثَات الأُمُور، فإن كل مُحْدَثَة بدعة، وكل بدعة ضلالة)، وحذر منها كَثِيْراً(٤).

ثم ذكر قوله ﷺ في صَحِيْح مُسْلِم: (من سَنَّ في الإِسْلَام سُنَّةً حَسَنَةً فعمل بها بعده، كتب له مثل أجر من عمل بها، ولا ينقص من أُجورهم شيء. ومن سَنَّ في الإِسْلَام سُنَّةً سيئةً فعمل بها بعده، كتب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيء).

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٤٢٣.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص١٣٢.

(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٢٠٧. وانظر: ج٣ ص١٣٣و١٣٧و٥٤٦ وج٢ ص٢٤٦.

(٤) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص١٤٠. وانظر: ج١ ص٤١٠و٤٩٦ و ج٣ ص٤٩و١١٦.

فَبَيَّنَ أن المُرَاد به هو من ابتدأ طريقاً من الخير في أَعْمَال البر والإحْسَان وما ينتفع به الناس من شؤون الحياة.

قال: ولا يشمل ذٰلِكَ ما يحدثه المُبْدِعون من البدع في العِبَادَات من الزِّيَادَات والاختراعات، إذ الزِّيَادَة علىٰ ما وضعه الشَّرْع من العِبَادَات وحدده افتئات عليه، واستنقاص له، وهي البدعة المُرَادَة بالحَدِيْث «وكل بدعة ضلالة»(١).

واستشهد بقول سَعِيْد بن لُبٍّ، كَبِيْر فُقَهَاء غَرْنَاطَة: (إن ذكر الله والصلاة علىٰ رَسُوْله عليه الصلاة والسَّلَام من أفضل الأَعْمَال، وجميعه حسن، لٰكِن للشَّرْع وظائف وَقَّتَهَا، وأذكار عَيَّنَهَا في أوقات وَقَّتَهَا، فوضع وظيفة موضع أُخْرَىٰ بدعة، وإقرار الوظائف في محلها سُنَّة)(٢).

وبَيَّنَ أن فِقْه الإمَام مَالِك واحتياطه مبني علىٰ أصلين:

الأصل الأول:

أن العِبَادَة المقدرة لا يُزَاد عليها ولا يُنْقَص منها، وهو أصل عام في جميع العِبَادَات، فالرَّسُوْل ﷺ نهىٰ أن يتقدم رَمَضَان بصيام يوم أو يومين، وظَاهِر النهي هو الخشية من عَدِّهِ من رَمَضَان. ومَالِك كره صيام الأيام بعد رَمَضَان مُتَّصِلَة بيوم الفطر مخافة أن يلحق أهل الجهالة والجفاء برَمَضَان ما ليس منه، فكان احتياطه في آخر رَمَضَان مطابقاً لاحتياطه ﷺ في أوله.

الأصل الثاني:

ما ورد من العِبَادَة مقيداً بقيد يلتزم قيده، وما ورد مطلقاً يلتزم إطلاقه.

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص٨٨.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٨٣، في معرض رده علىٰ شَيْخه الطاهر بن عاشور.

فمثال ما ورد مقيداً: التسبيح والتحميد والتَّكْبِيْر ثلاثاً وثلاثين مرة، والختم بلا إلٰه إلَّا الله وحده لا شَرِيْك له، له الملك، وله الحمد، وهو علىٰ كل شيء قَدِيْر، مقيد بإيقاعه دبر كل صلاة. فالإتيان بها في غير دبر الصلوات مخالفة للوضع الشَّرْعِيّ.

ومثال ما ورد مطلقاً: (لا إلٰه إلَّا الله وحده لا شَرِيْك له، له الملك وله الحمد، وهو علىٰ كل شيء قَدِيْر) في يوم مئة مرة، و(سُبْحَانَ الله وبحمده) في يوم مئة مرة. فالتزامها في وقت معين من النهار يخرج عن مُقْتَضَىٰ الإطلاق في لفظ يوم من نص الحَدِيْث، فيكون مخالفاً للوضع الشَّرْعِيّ.

فابن بَادِيْس أَصَّلَ ما ذهب إليه من مَذْهَب الإمَام مَالِك، وقال بعد ذٰلِكَ: وهٰذَان الأَصْلَان مُجْمَع عليهما، وأدلتهما في الشَّرِيْعَة كثيرة، ولنحذر كل الحذر من الإخلال بقيود الشَّرْع أو التَّقْيِيْد لمطلقاته، ففي ذٰلِكَ استظهار عليه، وقلة أدب معه، وتبديل لوضعه، واخْتِيَار عليه، وإنما الخير لله ولرَسُوْله لا لأحد من الناس[1].

وحَذَّرَ من تقليد الجاحدين، لأنه سُبْحَانَهُ وتعالىٰ قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ - الزخرف: ٢٣[2].

مع الصُّوْفِيَّة:

التَّصَوُّف السَّلِيْم هو الطريق الحق الذي سلكه الصَّحَابَة والتابعون وأتباعهم. وقد أشاد ابن بَادِيْس بهٰذَا الطريق، وذكر أن أكثر الناس محافظة علىٰ الأدب مع رَسُوْل الله ﷺ وتحريضاً عليه ووصاية به شُيُوْخ الزهد والعلم من أَئِمَّة التَّصَوُّف العَارِفِيْن، كرِجَال الرِّسَالَة القُشَيْرِيَّة، الذين أبقىٰ الله بعَظِيْم فضله علىٰ الإسْلَام كلامهم حُجَّة علىٰ كل من ينتسب إلىٰ طريقتهم.

وذكر قول أبي حَفْص الحَدَّاد: التَّصَوُّف كله أدب، لكل وقت أدب، ولكل حال

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص٢٦٥-٢٦٧.
(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص١٣٧.

أدب، ولكل مقام أدب، فمن لازم الأدب بلغ مبلغ الرِّجَال(١).

وذكر أن الواجب علىٰ كل مُسْلِم في كل زَمَان ومكان أن يعتقد أن دين الله تعالىٰ من عَقَائِد الإيمان وقَوَاعِد الإسْلَام وطرائق الإحْسَان إنما هو في القُرْآن والسُّنَّة الثَّابِتَة الصَّحِيْحَة وعمل السَّلَف الصالح من الصَّحَابَة والتَّابِعِيْن وأتباعهم، وأن كل ما خرج عن هٰذِهِ الأُصُوْل، ولم يحظ لديها بالقبول قولاً كان أو عملاً أو عقداً أو احتمالاً، فإنه باطل من أصله، مردود علىٰ صاحبه، كائناً من كان في كل زَمَان ومكان(٢).

ونقل ابن بَادِيْس تقاريظ العُلَمَاء لمقالته التي رد بها علىٰ المَقَالَة التي فيها سوء الأدب، ومنها تقريظ مُحَمَّد المولود بن الموهوب، وفيه:

قال الأُسْتَاذ البَكْرِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الوصية الجَلِيْلَة: إن أهل الطريق يجب عليهم أن لا يخطوا خطوة ينكرها الشَّرْع عليهم، فإن من خالف الشَّرِيْعَة المُحَمَّدِيَّة تاه، وضل عن الطريقة المرضية، فالشَّرِيْعَة أصل والحقيقة فرعها، فمن لم يحكم بالأصل لا ينتفع بالفرع.

وقال الشَّيْخ عَبْد القَادِر الكيلاني: كل حقيقة رَدَّت شريعة فهي زندقة، وكل ظَاهِر يخالف بَاطِناً فهو باطل.

وقال إبْرَاهِيْم الدُّسُوْقِيّ: طريقنا هٰذَا مضبوط بالكِتَاب والسُّنَّة، فمن أحدث فيه ما ليس في الكِتَاب والسُّنَّة فليس هو منا ولا من إخواننا، ونحن بريئون منه في الدنيا والآخِرَة، ولو انتسب إلينا بدعواه.

وقال أبو زَيْد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لو أن رجلاً بسط مصلاه علىٰ الماء، وتربع في الهواء، فلا تغتروا به حتىٰ تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي(٣).

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص١٥٦. وانظر: ج٤ ص٣١٩.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص١٦٣. من مقالته سنة ١٣٤٠هـ.

(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص١٦٩، من تعقيبه سنة ١٣٤١هـ.

هٰذَا هو منظار ابن بَادِيْس إلىٰ التَّصَوُّف الحقيقي، إلَّا أنه حين رأىٰ من تَزَيَّا بزي الصُّوْفِيَّة قد خرجوا علىٰ هٰذَا الطريق هاجمهم بشدة. فحذر من كل (متريبط) يريد أن يقف بينك وبين ربك، ويسيطر علىٰ عقلك وقلبك وجسمك ومَالِك بقوة يزعم التصرف بها في الكون، فإن الأَوْلِيَاء الصَّالِحِيْن بعيدون عن كل تَظَاهُر ودعوىٰ، متحلون بالزهد والتواضع والتقوىٰ(١).

وحارب الغُلُوّ في الصُّوْفِيَّة الذي يُخْرِجُهُم عن الفهم الصَّحِيْح للآيات الكَرِيْمَة كالقول بوحدة الوجود البرهمية(٢).

ولما رفع صوت الإِصْلَاح في (المنتقد) و(الشِّهَاب) حاربه الطرقيون في الجَزَائِر، فكشف ما أدخلوه علىٰ القلوب من فساد عَقَائِد وتحريف وأوهام ليست من الإِسْلَام في شيء، فكانوا آلة مسخرة في يد نواحٍ اعتادت تَسْخِيْرهم. لذٰلِكَ قال: فكل طُرُقِيٍّ مستقل في نفسه عن التَّسْخِيْر فنحن نمد يدنا له للعَمَل في الصالح العام(٣).

لأن بعض المُتَّجِرِيْن بالدِّيْن وباسم الصُّوْفِيَّة كانوا آلات مسخرة بيد فرنسا(٤).

وحين سئل عن قول العُلَمَاء في رجل يزعم أنه قُطْب الزَّمَان الفرد، ويخاطب النَّبِيّ ﷺ بأبيات كلها سوء أدب، كتب بحثاً بين في مُقَدّمته وجوب الأدب مع النَّبِيّ ﷺ إجماعاً وفي كل حال، حياً كان أو ميتاً.

وبَيَّنَ أن في كلامه تهجماً علىٰ الحضرة النَّبَوِيَّة، وحرمة مثل هٰذَا الخطاب. واستشهد بكلام أبي يَزِيْد البِسْطَامِيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ لبعض أصحابه: قم بنا حتىٰ ننظر إلىٰ هٰذَا

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص١٧٨.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٥٣-٥٤.

(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص٣٦٩.

(٤) الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابح ص٢٣٥ عن الإِبْرَاهِيْمِيّ.

الرجل الذي قد شهر نفسه بالوِلَايَة، وكان رجلاً مقصوداً مشهوراً بالزهد، فمضينا إليه، فلما خرج من بيته، ودخل المسجد، رمىٰ ببصاقه تجاه القِبْلَة. فانصرف أبو يَزِيْد ولم يسلم عليه، وقال: هٰذَا غير مأمون علىٰ أدب من آداب رَسُوْل الله ﷺ، فكيف يكون مأموناً علىٰ ما يدعيه؟(١).

ورأىٰ أن الطرق الصُّوْفِيَّة حيثما كانت تكأة وملجأ البدع والخرافات(٢)، ولذٰلِكَ كان من أُصُوْل دعوة جمعية العُلَمَاء المُسْلِمِيْن الجَزَائِرِيِّيْن: أن الأوضاع الطُّرُقِيَّة بدعة لم يعرفها السَّلَف، ومبناها كلها علىٰ الغُلُوّ في الشَّيْخ والتحيز لأتباع الشَّيْخ... إلىٰ ما هناك من استغلال ومن تجميد للعُقُوْل وإماتة للهمم(٣).

ونقل من إنكار العُلَمَاء المتقدمين علىٰ المبتدعين المتعيشين علىٰ البدع، كصاحب الرِّسَالَة القُشَيْرِيَّة القائل فيهم: (فعدوا قلة المبالاة بالدِّيْن أَوْثَق ذَرِيْعَة، ورفضوا التَّمْيِيْز بين الحلال والحرام، ودانوا بترك الاحترام وطرح الاحتشام، واستخفوا بأداء العِبَادَات، واستهانوا بالصوم والصلاة، وركضوا في ميدان الغفلات، وركنوا إلىٰ اتباع الشهوات وقلة المبالاة بتعاطي المحظورات، والارتفاق بما يأخذونه من السُّوْقَة وأصحاب السُّلْطَان).

ونقل إنكار الإمَام أبي بَكْر الطُّرْطُوْشِيّ وابن حَيَّان الأَنْدَلُسِيّ والشَّاطِبِيّ والقلصاوي والأَخْضَرِيّ والقَسَنْطِيْنِيّ والعروسي...(٤).

فكان من الغرور العَظِيْم والجهل الكَبِيْر والجراءة الكُبْرَىٰ علىٰ الله تعالىٰ قول البعض: (من دخل دار كذا فهو مضمون) و(أنا ضَامِنِّي الشَّيْخ)...، لأن الرَّسُوْل ﷺ

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص١٥٢-١٦٣.
(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٦٦.
(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص١٣٣.
(٤) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٤٢.

ما قاله لأحد، وإنما أرشد إلىٰ العَمَل الصالح، فحين قال رَبِيْعَة الأَسْلَمِيّ لرَسُوْل الله ﷺ: أسألك مرافقتك الجنة، أجابه عليه الصلاة والسَّلَام: (فَأَعِنِّي علىٰ نفسك بكثرة السجود) - رواه مُسْلِم[١].

فالشَّيْخ ابن بَادِيْس لم يحارب التَّصَوُّف لذاته، لأن التَّصَوُّف الصَّحِيْح لباب الإسْلَام، وإنما حارب المبتدعات فيه والجهالات والغُلُوّ وغيره مما لم يكن له أصل في الشَّرِيْعَة، أو مما كان يقصده الاستعمار الفرنسي من إفساد العَقِيْدَة وتَحْقِيْق مَآرِبه.

الأمر الثاني: الأَخْلَاق الفاضلة:

أوضح ابن بَادِيْس أن الله سُبْحَانَهُ يدعونا إلىٰ المُبَالغَة في تَقْوِيْم سُلُوْكنا حتىٰ نكون علىٰ الصراط المُسْتَقِيْم، لذٰلِكَ تحدث بإفاضة عن الأَخْلَاق الإسْلَامِيَّة في الآيات والأَحَادِيْث وقصص الصَّحَابَة وغيرهم بما يربي الشخصية المسلمة علىٰ المثل العَالِيَة. فتحدث عن:

الوفاء بالعهد، والتَّرْهِيْب من الخيانة[٢]، وإيفاء الحقوق عند التعامل وإيفاء الكيل[٣]، والنهي عن الإسراف في الولائم والمآتم[٤]، والقول الحسن[٥]، وتحريم المشي

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص٢٨١.

وانظر رده علىٰ المنتسبين إلىٰ الطريقة التِّيْجَانِيَّة القائلين بأُمُور ليس لها دليل من الشَّرْع في: ج٣ ص١٤٢-١٥١. وكلامه عن الرجل الجَرِيْدِيّ الذي رآه في رحلته في: ج٤ ص٣٠٣.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٢٦٠.

(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٢٦٣.

(٤) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٤٦٦.

(٥) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٢٨٢.

مَرَحاً، وترك العجب[١]، واخْتِيَار الصديق[٢]، والصبر[٣]، وتحريم شهادة الزور[٤]، وتحريم الحسد[٥]، والسخاء[٦]، والصدق وتحريم الكذب[٧]، وضبط اللِّسَان في الجد والهزل[٨]، والحرص علىٰ الخير[٩]، والسماحة[١٠]، والعفو عند المقدرة[١١]... إلخ.

فإذا صحت عَقِيْدَة الفرد، والتزام الأَخْلَاق الإسْلَامِيَّة، فقد هدي إلىٰ صراط مُسْتَقِيْم، وبان صَلَاحه، فتلزمه المُبَالغَة في المُرَاقَبَة، وهي الإحْسَان الذي هو عِبَادتك الله كأنك تراه، وتلزمه أَيْضاً التوبة، وهي الرجوع عن الذنب، والندم، والعزم علىٰ عدم العود، وتدارك ما يمكن تداركه، لأن كثرة الرجوع إلىٰ الله تعالىٰ يقابلها كثرة المغفرة منه[١٢].

● **وقد عني بتربية الشباب** تربية إسْلَامِيَّة صَحِيْحَة. فكان يكتب في جرائده عن الشخصيات الإسْلَامِيَّة من الصَّحَابَة وغيرهم، وما كان لهم من أيادٍ بيضاء في نشر الإسْلَام، فتحدث عن عُبَادَة بن الصَّامِت[١٣] وأبي ذَرّ، وأجلىٰ موقفه مع عُثْمَان

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٢٧٥.
(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٤٠٤.
(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٤٠٠و٥٠٠ وج٤ ص١٠٦.
(٤) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٤٨٢.
(٥) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص١١٩.
(٦) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص٢٦٢.
(٧) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص٢٨٤.
(٨) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص٢٨٧.
(٩) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص٢٩٤.
(١٠) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص١٢١.
(١١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص٢٧٠.
(١٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٢٣٤-٢٣٦.
(١٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص٨٠.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[١]، وبِلَال الحَبَشِيّ[٢]، وابن العَرَبِيّ الفَقِيْه[٣]، وعَبْد العَزِيْز الثَّعَالِبِيّ[٤]، وطاهر الجَزَائِرِيّ[٥]، ومُحَمَّد رَشِيْد رِضَا[٦]، ومُحَمَّد بَخِيْت المُطِيْعِيّ[٧]، والبشير صفر[٨]، ... وغيرهم.

وعني بتأسيس الكَشَّافَة الإسْلَامِيَّة والمُنَظَّمَات، وأنشأ جمعية الشباب للفُنُوْن الجميلة[٩].

وهدفه من العِنَايَة بالشباب هو:

١. حمايته من عوامل الانحراف والفساد الخلقي والاجتماعي والإلحاد... .
٢. استغلال طاقات الشباب فيما يعود بالنفع علىٰ الأُمَّة.
٣. تربيتهم التربية الإسْلَامِيَّة الوطنية السَّلِيْمَة، لئلا يجرفهم تيار الفَرْنَسَة والتَّغْرِيْب[١٠].

ثانياً: إصْلَاح المجتمع:

بعد صَلَاح الفرد يبدأ صَلَاح اللَّبِنَة الأُوْلَىٰ في المجتمع وهو البيت، والبيت هو

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص٨٩.
(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص١٠٥.
(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص١٣٢.
(٤) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص١٤٠.
(٥) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص١٤٨.
(٦) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص١٩٤.
(٧) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص٢١٠.
(٨) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص٣٢٧.
(٩) تعريف بالإمَام عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس: توفيق مُحَمَّد شَاهِيْن – تَفْسِيْر ابن بَادِيْس ص٧١١.
(١٠) الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص٣٧١.

المدرسة الأُوْلَىٰ، والمصنع الأصلي لتكوين الرِّجَال.

وتَدَيُّنُ الأُمّ هو أَسَاس حفظ الدِّيْن والخلق، والضعف الذي نجده من ناحيتهما في رِجَالنا معظمه نشأ من عدم التربية الإسْلَامِيَّة في البيوت، بسبب جهل الأُمَّهَات وقلة تدينهن[1].

ولا بَقَاء لأُمَّة من الأُمَم إلَّا بانتظام أُسَرِهَا وحفظ نسلها، وقد خصص الله المرأة للقيام بهٰذَيْنِ الأمرين العَظِيْمَيْن، وزَوَّدَهَا من الرحمة والشَّفَقَة ما يعينها عليهما، وإنما تقوم بهما إذا جمعت ما بين العفة في نفسها، والاقْتِصَاد في نفقتها، والتفرغ للقيام بأولادها[2].

وتحدث عن المرأة من جوانب مُخْتَلِفَة عديدة:

فتكلم عن وجوب تَعْلِيْمها، وقد ذكرنا ذٰلِكَ عند كلامنا عن التَّعْلِيْم.

وفَرَّقَ بين السفور الإسْلَامِيّ، وهو كشف المرأة وجهها دون شعرها وعنقها عند أمن الفتنة، مع عدم إظهار الزِّيْنَة، غير الوجه والكفين، وعدم إثارة الفتنة بروائح الطِّيْب والحلي.

وبين السفور الإفرنجي الذي فيه كشف الشعر والعنق والأطراف مع التبرج بالزِّيْنَة وما إليها.

وذكر: أن علينا نحن المُسْلِمِيْن أن نوجه قوتنا كلها إلىٰ منع السفور الإفرنجي الذي طغىٰ علىٰ النساء، وأن نحذر كل ما يؤدي إليه، وأن نحافظ علىٰ الوَضْعِيَّة الإسْلَامِيَّة العفيفة الطاهرة بسفورها.

ورأىٰ أن وجه المرأة وإن لم يكن عورة فكشفه جائز عند أمن الفتنة. وأمر الفتنة

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص٢٠١.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص٢٢٢.

يختلف باختلاف الأعصار والأَمْصَار والأشخاص والأحوال، فمن المُسْلِمِيْن اليوم أقوام ألفوا خروج نسائهم سافرات فلا يلفتن أَنْظَارهم، فهٰؤُلَاءِ لا يطالبن بستر الوجوه مع بَقَاء حكم غض البصر وحرمة تجديد النَّظَر. ومن المُسْلِمِيْن أقوام ألفوا ستر وجوه النساء، فكشف المرأة وجهها يلفت الأَنْظَار إليها، ويفتح باباً للقيل والقال، فيجب عليها ستر وجهها اتقاء للشر والفتنة(١).

ورأىٰ ابن بَادِيْس أن كُلًّا من الرجل والمرأة قد أُنيطت به أَعْمَال يستطيع أن يقوم بها دون الأخر، وذكر أن الكَمَال الإنساني متوقف علىٰ: قوة العلم، وقوة الإرادة، وقوة العَمَل، فهي أُسس الخلق الكَرِيْم والسُّلُوْك الحميد اللذين يبلغ بهما أسمىٰ غايات الشَّرَف والكَمَال.

والمرأة لما خلقت لقسم الحياة الداخلي أعطيت من القوىٰ الثلاث القدر الذي تحتاج إليه منها، وهو دون ما يحتاج إليه الرجل الذي خلق للقيام بقسم الحياة الخارجي، فكانت بخلقتها أضعف منه في العلم والإرادة والعَمَل.

وتقسيم الحياة إلىٰ قسميها ضروري لبَقَاء النسل وحفظه. فلو حملت المرأة مثل ما حمل الرجل من أعباء لما صبرت، فاختل النظام، وحصل الفساد، وكذٰلِكَ الرجل، ومَثَّلَ بالمرأة الغربية التي هجرت وظيفتها وأهملتها، وزاحمت الرجل في وظيفته، فأَضَرَّت بالقسم الداخلي من الحياة بإهماله، وبالقسم الخارجي لزحزحة الرجل عن عمله(٢).

لذٰلِكَ هاجم كتاب الطاهر الحَدَّاد (امرأتنا)، لدعوته إلىٰ الذهاب في تيار الغرب بما يخرج المرأة المسلمة عن حدود دينها وأُنوثتها.

وذكر بأننا لا نخشىٰ علىٰ المُسْلِمِيْن من دعوته، لأن جحود شيء من القُرْآن كفر،

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص٢٠٦-٢٠٧.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص٢٠٩-٢١٠.

وإنما نخشىٰ عليه أن يستمر في عقيدته فيكون من الهالكين(١).

وبَيَّنَ واجب المُسْلِمِيْن تجاه المرأة، فذكر أنه علينا:

أن نعلمها كل ما تحتاج إليه للقيام بوظيفتها، وتربيتها علىٰ الأَخْلَاق النسوية، التي تكون بها المرأة امرأة، لا نصف رجل ونصف امرأة.

وعلينا أن نفقهها ونعرفها ما لها وما عليها من أَحْكَام الشَّرِيْعَة.

وعلينا أن نُعَرِّفَ الجَزَائِرِيَّة بدينها ولغتها وقوميتها، لتلد لنا أولاداً منا ولنا، يحفظون أمانة الأجيال الماضية للأجيال الآتية(٢). لذٰلِكَ ضرب لها الأمثال من التَّارِيْخ الإِسْلَامِيّ، فتحدث عن المرأة الغازية (أُمّ حَرَام بنت مِلْحَان)(٣)، والممرضة وساقية الماء للمُجَاهِدِيْن (الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ)(٤)، والمُجَاهِدَة بأولادها (الخَنْسَاء)(٥)، والشَّهِيْدة (سُمَيَّة)(٦)، والمُعَلِّمَة (الشِّفَاء بنت عَبْد الله)(٧).

وذكر: أن علينا وجوب الرفق بهن، والمحافظة علىٰ قلوبهن وعواطفهن، ليدوم الهناء معهن، فهن شديدات الإحساس، يصبرن علىٰ كل شيء من الرجل إلَّا علىٰ كسر قلوبهن(٨).

هٰذَا ونحوه مما جاء به الإِسْلَام بخصوص المرأة يجعل الأُسرة في أسمىٰ الدرجات،

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٤٧٥.
(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٤٦٧.
(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص٨٢.
(٤) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص١١٣.
(٥) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص٢٢٣.
(٦) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص١١٦.
(٧) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص١٢٣.
(٨) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص١٥٠.

وذٰلِكَ بخلاف الأُمَم الغربية اليوم التي تشكو مُرَّ الشكوىٰ من تفكك الأُسرة وانحلال روابط الأَخْلَاق الزوجية(١).

وبعد كلامه عن إِصْلَاح الأُسرة تحدث عن إِصْلَاح المجتمع، فذكر أنه ما أُصيب المُسْلِمُوْن في أعظم ما أُصيبوا به إلَّا بإهمالهم لأمر الاجتماع ونظامه. وعلىٰ أهل العلم، وهم المسؤولون عن المُسْلِمِيْن بما لهم من إرث النُّبُوَّة فيهم، أن ينفخوا في المُسْلِمِيْن روح الاجتماع الشوري في كل ما يهمهم من أمر دينهم ودنياهم(٢).

ودعا المُسْلِمِيْن إلىٰ **التعاون علىٰ البر والتقوىٰ**، لأن الرَّسُوْل ﷺ قال: (المُؤْمِن للمُؤْمِن كالبنيان يشد بعضه بعضاً)، ثم شبك بين أصابعه - رواه البُخَارِيّ. فتشبيههم بالبنيان، والتصريح بالشد والتَّقْوِيَة، والتشبيك بين الأصابع، تأكيد علىٰ لزوم الاتحاد وضرورته، فلا يجوز لأحد كَبِيْراً أو صَغِيْراً، أن يخل بواجبه من ناحيته، فان الخلل من الصَّغِيْر يتطرق إلىٰ الكَبِيْر(٣).

ومن هٰذَا المنطلق أنشأ الميتم الإِسْلَامِيّ جمعية رعاية الأيتام، والجمعيات الخَيْرِيَّة لإنقاذ الأطفال المتشردين من الضياع(٤).

وحَذَّرَ من كل ما يثير عَصَبِيَّة للباطل وحمية للجاهلية، فإن بلاء كَثِيْراً حل بنا، وفتنة كثيرة أصابتنا، من تلك الكلمات المفرقة، قال الرَّسُوْل ﷺ: (دعوها فإنها مُنْتِنَةٌ) - رواه الشَّيْخَان(٥).

ونادىٰ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس الشعب الجَزَائِرِيّ باسم جمعية العُلَمَاء المُسْلِمِيْن

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص٢١٠.
(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٣٧٠-٣٧١.
(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص١٥٦.
(٤) تعريف بالإِمَام عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس: توفيق مُحَمَّد شَاهِيْن - تَفْسِيْر ابن بَادِيْس ص٧١١.
(٥) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص١٦٠.

الجَزَائِرِيِّيْن بقوله: تَقَوَّ بالاتحاد، وتَسَلَّحْ بالإيمان، وتَدَرَّعْ بالصبر، وتَحَصَّنْ بالثبات... فبالاتحاد تبلغ غايتك الشَّرِيْفَة[١].

ومن أُصُوْل دعوة جمعية العُلَمَاء: (عند المصلحة العامة من مصالح الأُمَّة يجب تناسي كل خلاف يفرق الكلمة، ويصدع الوحدة، ويوجد للشر الثغرة، ويتحتم التآزر والتكاتف حتىٰ تنفرج الأزمة، وتزول الشدة بإذن الله، ثم بقوة الحق، وادّراع الصبر وسلاح العلم والعَمَل والحكمة، ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ - يُوْسُف: ١٠٨)[٢].

ودعا إلىٰ **الوحدة تجاه فرنسا وإلىٰ تناسي الحزازات ومحق الشخصية**[٣]، ولأنها حاولت أن تفرق بين العَرَب والأمازيغ في الجَزَائِر، فذكر:

أن أبناء يَعْرُب وأبناء أمازيغ قد جمع بينهم الإسْلَام منذ بضع عشر قرناً، ثم دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشدة والرخاء، وتوحّدهم في السراء والضراء، حتىٰ كونت منهم منذ أحقاب بعيدة عنصراً مسلماً جَزَائِرِيّاً، أُمّه الجَزَائِر وأبوه الإسْلَام، وقد كتب أبناء يَعْرُب وأبناء أمازيغ آيات اتحادهم علىٰ صفحات هٰذِهِ القرون بما أراقوا من دمائهم في ميادين الشَّرَف لإعْلَاء كلمة الله، وما أسالوا من محابرهم في مجالس الدرس لخدمة العلم. فأي قوة بعد هٰذَا تستطيع أن تفرقهم... يا عجباً لم يفترقوا وهم الأَقْوِيَاء، فكيف يفترقون وغيرهم القَوِيّ، بل لا تَزِيْد كل محاولة للتفريق بينهم إلَّا شدة في اتحادهم وقوة لرابطتهم[٤].

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص١١٩. وانظر: ص٥٥ في دعوته إلىٰ تَوْحِيْد الكلمة.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص١٣٤.

(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٣٧١.

(٤) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٤٨٣.

ودعا إلىٰ الاحتفاظ بالذاتية العَرَبِيَّة الإسْلَامِيَّة في الشمال الإفْرِيْقِيّ كله، والإعْلَان بوحدة أقطاره الأربع طَرَابُلُس وتُوْنُس والجَزَائِر ومُرَّاكُش، في الحاضر والمستقبل مثلما كانت في الماضي(١).

والاتحاد الإسْلَامِيّ والوحدة العَرَبِيَّة بالمعنىٰ الروحي والمعنىٰ الأدبي والمعنىٰ الأخوي هما موجودان، تزول الجبال ولا يزولان، بل هما في ازدياد دائم بقدر ما يشَاهد الناس من عمل في الغرب ضد العُرُوْبَة والإسْلَام، وأما بالمعنىٰ السياسي والعَمَلِيّ فلا وجود إلىٰ اليوم لهما(٢).

لذٰلِكَ كان مهتماً بأمر المُسْلِمِيْن عموماً، فلما بدأت أطماع الإنجليز والصهيونية بفِلَسْطِيْن تتكشف، ذكر:

أن رحاب القُدْس مثل رحاب مَكَّة والمَدِيْنَة في قُدْسِيَّتِهِ، فما وقع برحاب المسجد الأقصىٰ كأنه واقع برحاب المسجد الحرام ومسجد طَيْبَة.

وقد تزاوج الاستعمار الإنجليزي الغاشم بالصهيونية الشرهة لهدم الكيان العَرَبِيّ، فأَنْسَىٰ طمع قسم كَبِيْر من اليَهُوْد كل ذٰلِكَ الجميل الذي أَسْدَاه المُسْلِمُوْن لهم تلك القرون الطَّوِيْلَة، فأحالوا فِلَسْطِيْن الآمنة جحيماً، وارتكبوا الاعتداءات الأثيمة ضد العَرَب في حَيْفَا ويَافَا والقُدْس.

وذكر ابن بَادِيْس أننا لم نر ولم نسمع من غير العالم الإسْلَامِيّ والعَرَبِيّ احتجاجاً جِدِّيّاً، حتىٰ الذين يقيمون الدنيا ويقعدونها بصراخهم، ويبذلون مساعداتهم في أوطان أُخْرَىٰ، لم نرهم إزاء فِلَسْطِيْن الشَّهِيْدة إلَّا سكوتاً أو شبه سكوت، إن الدفاع عن القُدْس من واجب كل مُسْلِم(٣).

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٤٤٥.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٣٧٩.

(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٤١٣-٤١٥.

وأرسل برقيات احتجاج وتألم إلىٰ وزارة الخارجية[١]، وندد، وطلب الإغاثة لِفِلَسْطِيْن[٢].

ودعا إلىٰ كل ما يلم الشمل، ويرأب الصدع في المجتمع، مستدلاً بالكِتَاب والسُّنَّة، فأوجب إقامة العَدْل في المجتمع[٣]، وإظهار الحق ونصرته وإزهاق الباطل بالأَدِلَّة والسُّلْطَان[٤].

وحرم العدوان وقتل النفس إلَّا بالحق.

ودعا إلىٰ حفظ النسل ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾ - الإسراء: ٣١، لأن القُرْآن حرم قتل الأولاد خشية الفقر، وحرم الوأد، كما حرمت الشَّرِيْعَة إفساد الحمل بعد التخليق، وحرمت الزنا، لأن ولد الزنا مقطوع النسب والصِّلَة وساقط الحق، فالتسبب في وجوده كقتله[٥].

ودعا إلىٰ حفظ الأموال باحترام الملكية، قال ﷺ: (فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام).

وقربان مال اليَتِيْم حرام إلَّا بالوجه النَّافِع[٦].

وحذر من التبذير، وهو تفريق المال بوجه غير شَرْعِيّ، أو في وجه شَرْعِيّ كالمباح دون تقدِير فَيضُرُّ بوجه آخر، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ

(١) انظر: ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٤٣٣و٤٥٢.
(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٤٩٧.
(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٢٥٧.
(٤) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٣٢٤-٣٢٥.
(٥) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٢٥٢-٢٥٧و٤٦٩.
(٦) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٢٥٩.

ﭐلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴿٢٧﴾ ﴾ - الإسراء: ٢٦-٢٧[١].

وذكر أن أبا ذَرّ الغِفَارِيّ قد أصاب فيما اختاره لنفسه من الزهد وعدم الادخار، لٰكِنه أخطأ فيما أراد من حمل الناس علىٰ حالة فضل لم يوجبها الله عليهم، ولن يستطيعوها.

ولو لم يبادر عُثْمَان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والصَّحَابَة معه في الرأي باستقدام أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الشَّام إلىٰ المَدِيْنَة لاتَّسعَ نطاق الفتنة بالشَّام[٢].

وأسس الجمعيات الاقْتِصَادِيَّة للمحافظة علىٰ الثروة، كجمعية التجار المُسْلِمِيْن، ودعا الناس إلىٰ دخول باب التجارة[٣].

ودعا إلىٰ عدم الحكم علىٰ المجتمع بالشر والفساد، ولو كان الفساد ظَاهِراً فيه، لأنه حكم بدون علم، وظن سوء بمن قد يكون في غمار الناس علىٰ خلاف ما عليه أكثرهم.

ولا يجوز لمن رأىٰ الناس في حالة سيئة أن يقنطهم من رحمة الله، فيقعدوا عن العَمَل، لإمكان تدارك أمرهم وإصْلَاح حالهم، قال ﷺ: (إذا سمعتَ الرجلَ يقول: هلك الناس فهو أهلكهم)[٤].

فنصح المُرْشِدِيْن العَامِلِيْن لإصْلَاح حال المُسْلِمِيْن أن ينظروا إليهم بعين الشَّفَقَة لا بعين الاحتقار، ويداووا بالعلاج النَّافِع، وذٰلِكَ بالعبارات الرَّقِيْقَة في رفق وهوادة دون تثبيط، ويعرفونهم بأنهم وإن ساءت حالتهم فإن فيهم نواحي أُخْرَىٰ ما

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٢٤٢. وانظر: ج٣ ص٧٠، وفيه: أن ذهاب الناس أفواجاً إلىٰ بيوت العائدين من الحج ابْتِهَاجاً بهم، يثقل عليهم، ويكلفهم بما يقارب ما ينفقونه في الحج، ودعا الناس إلىٰ حضور حفل تَكْرِيْمهم بالجَامِع الكَبِيْر.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص٩٩-١٠٠.

(٣) تعريف بالإِمَام عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس: توفيق مُحَمَّد شَاهِيْن - تَفْسِيْر ابن بَادِيْس ص٧١٠.

(٤) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص١٦٥-١٦٦.

تزال صالحة[١].

وحِفَاظاً علىٰ المجتمع من التفكك أكد علىٰ:

أن الهيئة الحَاكِمَة والأفراد المنظمين من ضروريات المجتمع الإنساني، إذ لا بد للناس من وازع - كما قال الحسن البَصْرِيّ - يكف بعضهم عن بعض، وهو الحَاكِم وأعوانه[٢]، يتفقد الرعية[٣]، ويرعىٰ مصالحهم، ويحسن إليهم، ويحملهم علىٰ الخير[٤]، وينصح لهم قولاً وعملاً، ويصرف عنهم ما يؤذيهم وما لا فائدة لهم به، وأن يقيهم من كل ما يعدو عليهم، وإلَّا فقد غش رعيته، قال رَسُوْل الله ﷺ: (ما من عبد يَسْتَرْعِيْهِ اللهُ رَعِيَّةً، يموت يوم يموت، وهو غَاشٌّ لرَعِيَّتِهِ، إلَّا حرم الله عليه الجنة) - رواه مُسْلِم[٥].

ويسمع رأي الناس ويرجع إلىٰ الصواب، فقد سمع ﷺ رأي الحُبَاب بن المُنْذِر، ورجع عما كان يرىٰ إلىٰ رأي الحُبَاب في معركة بَدْر، وذٰلِكَ سبب سَعَادَة الأُمَّة وشعورها بالوحدة بين الرعية ورعاتها[٦].

واستنبط من خُطْبَة أبي بَكْر الصِّدِّيْق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عند مبايعته بالخِلَافَة أُصُوْل الوِلَايَة في الإِسْلَام، ومنها:

لا حق لأحد في وِلَايَة أمر من أُمُور الأُمَّة إلَّا بتولية الأُمَّة ورضاها، فهي صاحبة السلطة في الوِلَايَة والعزل.

ولها الحق في مُرَاقَبَة أُولي الأمر وحملهم علىٰ ما تراه ونصحه وتَقْوِيْم اعوجاجه.

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص١٦٧-١٦٨.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص٢٦.

(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص٣٤و١٥٢.

(٤) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص٢٦٨.

(٥) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص١٥١-١٥٢.

(٦) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص٢٦٢.

والناس أمام القَانُوْن سواء لا فرق بين قَوِيّهم وضعيفهم، وتصان حقوقهم أفراداً وجماعات، فيحفظ التوازن بين طَبَقَات الأُمَّة.

ومتولو أمر الأُمَّة أكفؤها، لا خيرها في سُلُوْكه، فإن اشترك شخصان في الخَيْرِيَّة والكفاءة قدم الأرجح في الكفاءة.

وعلىٰ الراعي والرعية الشعور بالمسؤولية المشتركة بينهما في صَلَاح المجتمع... إلخ(١).

وأكد علىٰ أن المصلحة العامة فوق الشخصية(٢). فلا حياة للشخص إلَّا بحياة قومه، ولا يصلح لقيادة الأُمَّة إلَّا من كان عنده ما يتميز به عن غيره، من بعد النَّظَر، وصدق الحدس، وقوة الإدراك للأُمُور قبل وقوعها، وسرعة الإنذار بما يحس ويتوقع(٣).

وتتعلق بالوِلَايَة والحكم في الإسْلَام مَسْأَلَة فصل الدِّيْن عن السِّيَاسَة التي وردت في كلام ابن بَادِيْس، وأقف عندها قليلاً لأُجْلِيَ موقفه منها.

تصر فرنسا علىٰ فصل الدِّيْن عن السِّيَاسَة، حتىٰ إنها كانت تقف بوجه أي مشروع ديني تَعْلِيْمِيّ أو غيره، بحُجَّة أن ذٰلِكَ من السِّيَاسَة.

لذٰلِكَ كان ابن بَادِيْس يحاول أن ينفي عن عمله الخلط بين الدِّيْن والسِّيَاسَة، أي بالمفهوم الغربي، فحين ذكر أن الحكومة التي تتجاهل دين الشعب تسيء في سياسته... قال:

لا نعني بهٰذَا أن نخلط بين الدِّين والسِّيَاسَة في جميع شؤوننا، ولا أن يتداخل رِجَال الدِّيْن في سياستنا، وإنما نعني اعتبار الدِّيْن قواماً لنا، ومَهْيَعاً شَرْعِيّاً لسُلُوْكنا، ونظاماً

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٤٠١-٤٠٤.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص٢٨٩.

(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص٢٨.

محكماً نعمل عليه في حياتنا، وقوة معنوية نلتجئ إليها في تَهْذِيْب أَخْلَاقنا، وقتل روح الإغارة والفساد منا، وإماتة الجرائم من بيننا. فلهٰذَا لا نألو جهداً في خدمته بنشر مبادئه الحَقَّة العَالِيَة، وتطهيره من كل ما أحدثه فيه المُحْدَثُوْن، والدفاع عنه من أن يمس بسوء من أهله أو من غير أهله[١].

فالدِّيْن حينما يجعله ابن بَادِيْس قواماً لنا ومَهْيَعاً ونظاماً وقوة كان كل شيء في الحياة. فهو بالمفهوم الإسْلَامِيّ طريق حياة ونظام حكم، فلا فصل بين الدِّيْن والسِّيَاسَة، لأن الرَّسُوْل ﷺ كان حاكماً وهَادِياً إلىٰ سواء السَّبِيْل معاً، وهٰكَذَا يجب علىٰ كل حاكم مُسْلِم، فلا يتصرف إلَّا بإطار الكِتَاب والسُّنَّة، لذٰلِكَ نراه يصرح بذٰلِكَ فيقول: (لا بد لنا من الجمع بين السِّيَاسَة والعلم، ولا ينهض العلم والدِّيْن حق النهوض إلَّا إذا نهضت السِّيَاسَة بجد)[٢].

أما بالمفهوم الغربي فلأن رجل الدِّيْن كان يتخذ الدِّيْن ذَرِيْعَة له لتَحْقِيْق مَآرِبه من غير ضابط صارت الدعوة هناك إلىٰ فصل الدِّيْن عن السِّيَاسَة تخلصاً من تسلط الكنيسة علىٰ الملك أو الحَاكِم.

ولذٰلِكَ حين كان ابن بَادِيْس يقول بأننا لا نخلط الدِّيْن بالسِّيَاسَة، يريد أن لا نجعل من رجل الدِّيْن يتصرف بالدِّيْن كتصرف رِجَال الكنيسة، وإنما للدِّيْن ضوابطه ومبادئه لا يملك أحد التلاعب فيه.

ابن بَادِيْس وجمعية العُلَمَاء المُسْلِمِيْن الجَزَائِرِيِّيْن:

لم يكن ابن بَادِيْس رجل كلام وتَوْجِيْه فقط، إنما كان رجلاً عَمَلِيّاً أَيْضاً، فرأىٰ أنه

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٢٧٧-٢٧٨.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص٣٣١ من محاضرته التي ألقاها سنة ١٩٣٧م.

لا بد من جَمَاعَة منظمة في عملها، تُخَطِّط للإِصْلَاح، وتجمع القادة.

فكان من وراء هٰذَا التفكير أن أُسست جمعية العُلَمَاء المُسْلِمِيْن الجَزَائِرِيِّيْن.

كانت اللَّبِنَة الأُوْلَىٰ لتأسيس (جمعية العُلَمَاء المُسْلِمِيْن الجَزَائِرِيِّيْن) سنة ١٩١٣م. وذٰلِكَ عندما كان الإِمَام عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس مقيماً بالمَدِيْنَة المُنَوَّرَة، مع صاحبه العَلَّامَة البشير الإِبْرَاهِيْمِيّ، حينما كانا يقضيان جُلَّ وقتهما في البَحْث عن الوضع المتردي للجَزَائِر، وسَبِيْل النهوض بها من كبوتها.

وفي ذٰلِكَ يقول البشير الإِبْرَاهِيْمِيّ: (وأُشهد اللهَ علىٰ أن تلك الليالي من عام ١٩١٣م، هي التي وُضِعَت فيها الأُسس الأُوْلَىٰ لجمعية العُلَمَاء الجَزَائِرِيِّيْن المُسْلِمِيْن، والتي لم تبرز للوجود إلَّا في عام ١٩٣١م)(١).

وعلىٰ الساعة الثامنة من صباح الثلاثاء ١٧ من ذي الحِجَّة، عام ١٣٤٩هـ = ٥ ماي ١٩٣١م، اجتمع بنادي الترقي بعَاصِمَة الجَزَائِر، اثنان وسبعون من عُلَمَاء القطر الجَزَائِرِيّ، كما حضر الاجتماع طلبة العلم، ودُعِيَ إلىٰ هٰذَا الاجتماع العُلَمَاء ورِجَال الدِّيْن، بغض النَّظَر عن انتماءاتهم السياسية أو الطُّرُقِيَّة أو الإِصْلَاحِيَّة.

وصُوْدِقَ فيه علىٰ مشروع القَانُوْن الأَسَاسِيّ للجمعية.

وفي اليوم التالي الأربعاء، انتخبوا الهيئة الإدارية، وتَشَكَّلَ المجلس الإداري لجمعية العُلَمَاء، وانتخبوا الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس رئيساً له، وكان غائباً عنه.

وقال الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس في شأن الجمعية وأعضائها: (من حظ الجَزَائِر السَّعِيْد، ومن مفاخرها التي تتيه علىٰ الأقطار، أنه لم يجتمع في بلد من بلاد الإِسْلَام فيما رأينا وسمعنا وقرأنا، مجموعة من العُلَمَاء وافرة الحظ من العلم، مُؤْتَلِفَة القصد والاتجاه، مخلصة النية، مَتِيْنَة العزم، متحابة في الحق، مجتمعة القلوب علىٰ الإِسْلَام والعَرَبِيَّة، قد

---

(١) الإِمَام عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، رائد النهضة العِلْمِيَّة والفكرية: الزُّبَيْر بن رحال ص٥١.

أَلَّف بينها العلم والعَمَل، مثل ما اجتمع للجَزَائِر في علمائها الأبرار، فهٰؤُلَاءِ هم الذين وُرِيَ بهم زِنَادِي، وتَأَثَّل بطارفهم تِلَادِي، أطال الله أعمارهم، ورفع أقدارهم)[(١)].

ووصف ابن بَادِيْس خُطَّة جمعية العُلَمَاء بقوله: (صراحة في الرأي، وصلابة في الحق، ورغبة في الخير، نعمل لصَلَاح الأُمَّة في دينها ودنياها، علىٰ نور الكِتَاب والسُّنَّة، وهدي السَّلَف الصالح، فتتمسك الأُمَّة بإسْلَامها وعروبتها، وتحافظ علىٰ قوميتها وتَارِيْخها، وتتناول أسباب الحياة والتقدم من كل جنس وكل لُغَة، وتعمل مع كل عامل لخير البشرية وسَعَادَة الإنسان)[(٢)].

وحين تكلم الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس عن دعوة مُحَمَّد عَبْدُه وتلميذه رَشِيْد رِضَا، قال:

ولٰكِن لم تقم في أُمَّة إسْلَامِيَّة هيئة عِلْمِيَّة منظمة، تعلن الدعوة إعْلَاناً عاماً، وتصمد للمقاومة غير مبالية بما يؤيد البدع والضلالات من سُلْطَان ديني أو دنيوي غير عُلَمَاء الأُمَّة الجَزَائِرِيَّة الأحرار المستقلين الذين لا يَعِيْشون علىٰ الوظيف، وأسسوا أعظم مُؤَسَّسَة دينية، جمعية العُلَمَاء المُسْلِمِيْن الجَزَائِرِيِّيْن، وشادت بنيانها، ودنت ثِمَارها علىٰ الشمال الإفْرِيْقِيّ كله[(٣)].

وأشار الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس إلىٰ رِجَال هٰذِهِ الجمعية، وذكر أنهم أول من رفع صوته بكلمة الحق في الجَزَائِر، وبلزوم الرجوع إلىٰ نهج الإسْلَام الواضح، وبوجوب التماس الهِدَايَة من كتاب الله، وما صح من سُنَّة رَسُوْل الله ﷺ، وما أُثِر عن

---

(١) الإمَام عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، رائد النهضة العِلْمِيَّة والفكرية: الزُّبَيْر بن رحال ص٥٦-٥٩. ونقل قول ابن بَادِيْس عن (الشِّهَاب)، العدد الخاص باحتفال ختم التَّفْسِيْر ج٤، ج٥، م١٤، سنة ١٩٣٨م، ص٢٩٠.

(٢) الإمَام عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، رائد النهضة العِلْمِيَّة والفكرية: الزُّبَيْر بن رحال ص ٦٠ نَقْلًا عن (الشِّهَاب)، افتتاحية المَجَلَّة ج١ م١٤ سنة ١٩٣٨م.

(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٦٧.

سَلَف هٰذِهِ الأُمَّة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، قبل أن تكون الجمعية جمعية[١].

وكان أثر هٰذِهِ الجمعية في الجَزَائِر عَظِيْماً، فإذا ذكرت الجَزَائِر ذكرت الجمعية، فهي الممثلة لها علىٰ ما تقوم به من تربية وتَهْذِيْب، وما كتب كاتب في صحيفة كَبِيْرَة أو صَغِيْرَة عن الجَزَائِر إلَّا كان حَدِيْثه عن الجمعية في طالعة كلامه[٢].

وذكر ابن بَادِيْس ما يلاقي رِجَالها من عَنَتٍ ورقابة شديدة وتحجير في عملهم ببلدهم أو في رحلاتهم، ومع ذٰلِكَ أحيوا نفوساً، وأنعشوا أرواحاً، وفتحوا عُيُوْناً وآذاناً، وبعثوا من الخير آمالاً، وبذروا بذور الرحمة والمحبة بين الناس[٣].

وكتب عن غَايَة الجمعية وهدفها المتمثل: بالدفاع عن الإسْلَام، والدعوة إليه، والعَمَل علىٰ تثبيته وتَقْوِيَة وازعه في النفوس، وإحياء لغته العَرَبِيَّة، وتَحْرِيْر أرض الجَزَائِر، وجمع كلمة المُسْلِمِيْن[٤].

وكتب عن موقفها من الحكومة والأحزاب وأهل الطرق والأُمَّة وخصومها[٥]، ورد علىٰ افتراءات الخصوم وادعاءاتهم[٦].

وكتب عن نشاطها في سَبِيْل نشر الثقافة العَرَبِيَّة الإسْلَامِيَّة، والاعتزاز بتُرَاث العَرَب المُسْلِمِيْن وبنائها المدارس الكثيرة والمساجد والمصانع والملاجئ في مختلف أنحاء البلاد، وإرسالها البعثات إلىٰ الخارج[٧].

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٥٢٤-٥٢٥.
(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٦٠.
(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٥٩-٦١.
(٤) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص١٣١-١٣٤و٥٤٦و٥٥٥-٥٦٥.
(٥) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٥٤٨-٥٥١و٥٥٨-٥٥٩.
(٦) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٢٨٦.
(٧) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٢٦٦.

موقفه من الحَضَارَة الحَدِيْثَة:

دعا ابن بَادِيْس إلىٰ الأخذ بأسباب الحياة والعِمْرَان والتقدم.

وأخذ من قوله تعالىٰ: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ - الإسراء: ٢٠، أن تلك الأسباب مبذولة للخلق علىٰ السواء، فمن تمسك بسبب بلغ بإذن الله إلىٰ مسببه، سواء كان براً أم فاجراً، مُؤْمِناً أم كافراً.

وتَارِيْخ المُسْلِمِيْن قديماً وحَدِيْثاً شَاهد علىٰ ذٰلِكَ، فقد تقدموا حتىٰ سادوا العالم، ورفعوا علم المَدَنِيَّة بالعُلُوْم والصَّنَائِع لما أخذوا بأسبابها كما أمرهم دينهم.

وقد تأخروا حتىٰ كادوا يكونون دون الأُمَم كلها بإهمال تلك الأسباب فخسروا دنياهم، وخالفوا أمر ربهم، وعوقبوا بالذل والانحطاط. ولن يعود إليهم ما كانوا عليه إلَّا إذا عادوا إلىٰ امتثال أمر ربهم في الأخذ بتلك الأسباب[1].

وفي إحدىٰ رحلاته الصيفية كان مما قاله للسوبريفي م ماصلو في دار الحكومة بمستغانم: إننا نريد للمُسْلِمِيْن أن يبلغوا في المَعَارِف والفلاحة والتجارة والصِّنَاعَة إلىٰ مستوىٰ إخوانهم الفرنسويين، ليتعاون الجميع بقوى متكافئة علىٰ خدمة الجَزَائِر[2].

وكان يدعو الجَزَائِرِيِّيْن إلىٰ العَمَل والجد، لأنه يفتح آفاق المستقبل. قال مخاطباً الشعب: أيها الشعب: اعمل ودم علىٰ العَمَل، وحافظ علىٰ النظام، واعلم أن عملك هٰذَا علىٰ جَلَالته ما هو إلَّا خطوة ووثبة، ووراءه خطوات ووثبات، وبعدها إما الحياة وإما المهات[3].

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٢١٢.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص٣١٤ سنة ١٩٣١م.

(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٣٣٢ سنة ١٩٣٦م.

سَبِيْله في الإصْلَاح:

جعل ابن بَادِيْس التَّعْلِيْم والصحافة سلماً له للوُصُوْل إلىٰ أهدافه الإصْلَاحِيَّة:

أولاً: التَّعْلِيْم:

اتخذ ابن بَادِيْس التَّعْلِيْم طريقاً له ليحقق بَرْنَامَجه الإصْلَاحِيّ، كما اتخذه من قَبْلُ الإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، فكتب في جرائده، وركز في محاضراته علىٰ ذٰلِكَ كَثِيْراً.

فأوضح:

أن العلم الصَّحِيْح والخلق المَتِيْن هما الأَصْلَان اللذان ينبني عليهما كَمَال الإنسان، ولما كان العلم أَسَاس الأَخْلَاق قدمت آيته علىٰ آيتها، تقديم الأصل علىٰ الفرع، ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾- الإسراء: ٣٦-٣٧.

والعلم وحده هو الإمَام المتبع في الحياة: في الأقوال والأفعال والاعْتِقَادَات. فنهانا أن نعتقد أو أن نفعل أو أن نقول إلَّا عن علم، فلا بد من النَّظَر والتفكير، فكفىٰ بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع، كما جاء في الصَّحِيْح[1].

وأورد حَدِيْث ابن عَبْد البَرّ في جَامِعه، عن أَنَس بن مَالِك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رَسُوْل الله ﷺ: (اطلبوا العلم ولو بالصين، فإن طلب العلم فريضة علىٰ كل مُسْلِم)، واستنبط منه أمرين:

١- وجوب طلب العلم. وجعله علىٰ وجهين:

أحدهما: الاشتغال بتَحْصِيْل مَسَائِله، والانقطاع إلىٰ تعلم قَوَاعِده، وهو واجب كِفَايَة.

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٢٦٥-٢٧٠.

والثاني: سؤال العُلَمَاء عن حكم ما نزل به من أمر دينه، وهو واجب عَيْناً.

٢- عدم اعتبار المشقة في طلبه مَانِعاً من وجوبه، مهما بلغت تلك المشقة(١).

ورأىٰ أن التَّعْلِيْم هو سَبِيْل الإسْلَام الذاتي، الذي هو إسْلَام من يفهم قَوَاعِد الإسْلَام، ويدرك مَحَاسِنه في عَقَائِده وأَخْلَاقه وآدابه وأَحْكَامه(٢).

لأن تَعْلِيْم الناس ووعظهم وإرْشَادهم في المساجد مما أجمع عليه المُسْلِمُوْن في جميع الأعصار والأَمْصَار وجرىٰ عليه عملهم، وكذا تنظيم حلقاتها وسَدّ فُرَجِهَا كصفوف الصلاة، إذ يجوز التخَطِّيّ لسد الخلل(٣).

وذهب إلىٰ أن العلم قبل العَمَل، ومن دخل في العَمَل بغير علم لا يأمن علىٰ نفسه من الضلال، وربما اغتر به الجهال فسألوه، فاغتر هو بنفسه، فتكلم بما لا يعلم، فَضَلَّ وأَضَلَّ.

وحَذَّرَ من الكلام في دين الله والإفتاء للناس بغير علم، وحَذَّرَ من صرف الناس عن العلم وأهله إذا افتتنوا بذٰلِكَ المتكلم، قال الإمَام مَالِك: (لا يؤخذ العلم عن أربعة... ورجل له فضل وصَلَاح لا يعرف ما يحدث به) - ذكره ابن عَبْد البَرّ في جَامِعه(٤).

وفَصَّلَ الكلام في مسؤولية العُلَمَاء، فذكر أنها عند الله في دينهم لَعَظِيْمَة، وأن حسابهم علىٰ ذٰلِكَ لشديد طَوِيْل، إذا كتموا من دين الله، وخافوا في نصرة الحق سواه،

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص٣١٢-٣١٣.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٢٤٢.

(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص٢٩٤.

وانظر رده علىٰ من فهم أن التَّعْلِيْم هو إلقاء الشَّيْخ درسه وسط حلقة تلاميذه، وذكر أن وعظ عامة الناس وتَصْحِيْح عَقَائِدهم وتَهْذِيْب أَخْلَاقهم هو من صميم التَّعْلِيْم. / ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٢٨٨.

(٤) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص٢٧٥.

وتَارِيْخ المُسْلِمِيْن في سعادتهم وشقائهم يرتبط ارتباطاً مَتِيْناً بقيام العُلَمَاء بواجبهم، أو قعودهم عما فرضه الله، وأخذ به الميثاق عليهم، ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾- آل عِمْرَان: ١٨٧ [(١)].

ولن يَصْلُحَ المُسْلِمُوْن حتىٰ يَصْلُحَ علماؤهم، فالعُلَمَاء من الأُمَّة بمثابة القلب، إذا صَلَحَ صَلَحَ الجسدُ كله، وإذا فسد فسد الجسد كله.

وصَلَاح المُسْلِمِيْن إنما هو بفِقْههم الإسْلَام وعملهم به، وإنما يصل إليهم هٰذَا علىٰ يد علمائهم، فإذا كان علماؤهم أهل جمود في العلم، وابتداع في العَمَل، فكذٰلِكَ يكون المُسْلِمُوْن، فإذا أَرَدْنَا إصْلَاح المُسْلِمِيْن فلنصلح عُلَمَاءهم. ولن يصلح العُلَمَاء إلَّا إذا صح تَعْلِيْمهم.

وأراد بالتَّعْلِيْم الذي يكون به المسلم عالماً من عُلَمَاء الإسْلَام، يأخذ عنه الناس دينهم، ويقتدون به فيه.

ولن يَصْلُحَ هٰذَا التَّعْلِيْم إلَّا إذا رجعنا به للتَّعْلِيْم النَّبَوِيّ في شكله وموضوعه...، فقد رَوَىٰ مُسْلِم: أن رَسُوْل الله ﷺ قال: (إنما بُعِثْتُ مُعَلِّماً)، وكان ﷺ يعلم الناس دينهم[(٢)].

والعُلَمَاء ورثة الأنبياء، وما وَرَّثَ الأنبياءُ دِيْنَاراً ولا درهماً، وإنما وَرَّثُوا العلم، والعلم مستمد من الرِّسَالَة، فعلىٰ أهله واجب التبليغ والنذارة، والصبر علىٰ ما في طريق ذٰلِكَ من الأذىٰ والبلايا، والعطف علىٰ الخلق والرحمة، قال تعالىٰ: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص١١٥.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٢١٧.

﴿ يَحْذَرُونَ ﴾- التوبة:١٢٢[(١)].

وعُلَمَاء الدِّيْن المُرْشِدُون كانوا من قديم الزَّمَان يعانون متاعب الإرْشَاد، وأذىٰ المفسدين، واعتراض أدعياء العلم، إلَّا أن تلك المتاعب لا تسقط عن العالم فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المُنْكر، ولا تنجيه من تبعة الكتمان الثَّابتَة بقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾- البقرة: ١٥٩.

لأن العلم أمانة عند العُلَمَاء، وهم مُكَلَّفُون بأدائها لمستحقيها، وليس العلم مِلْكاً لهم يستغلونه فيكتمونه إن رأوا الكتمان أوفق بمصالحهم الشخصية[(٢)].

والعُلَمَاء يتميزون عن سائر الناس بعلمهم، لذٰلِكَ كان عُلَمَاء السَّلَف يعتزون بعلمهم أمام ذوي القوة والسُّلْطَان، والخُلَفَاء كانوا يستشيرونهم عملاً بأصل الشُّوْرَىٰ.

وذكر ابن بَادِيْس تَقْرِيْر مُحَمَّد بن الحسن الشَّيْبَانِيّ فقيه الحَنَفِيَّة حرية نَصَارَىٰ بني تَغْلِب، وإنقاذهم من بطش الرَّشِيْد، وذٰلِكَ هو التسامح الدِّيْنِيّ في عُلَمَاء المُسْلِمِيْن، الذي تميزوا به في دولتهم عن جميع عُلَمَاء المِلَل، بينما كان أحبار ورهبان الأُمَم الأُخْرَىٰ لا يرون لمخالفيهم إلَّا السَّيْف والنار[(٣)].

وأوضح أن **المسجد والتَّعْلِيْم صِنْوَان في الإسْلَام** من يوم ظهوره، فما بنىٰ النَّبِيّ ﷺ يوم استقر في دار الإسْلَام بيته حتىٰ بنىٰ المسجد، ولما بنىٰ المسجد كان يقيم الصلاة فيه، ويجلس لتَعْلِيْم أصحابه، فارتباط المسجد بالتَّعْلِيْم كارتباطه بالصلاة، لذٰلِكَ ما انقطع عُمْر النَّبِيّ ﷺ عن الصلاة والتَّعْلِيْم في المسجد، ومضىٰ المُسْلِمُوْن علىٰ هٰذِهِ السُّنَّة في أَمْصَار الإسْلَام يوقفون الأوقاف علىٰ المساجد للصلاة والتَّعْلِيْم.

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص٧٠.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص٣١١.

(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص٢٢١.

والتَّعْلِيْم المسجدي هو الفِقْه في الدِّيْن، الذي كان يعلمه النَّبيّ ﷺ لأصحابه كما تقدم، ولن يرجىٰ للمُسْلِمِيْن شيء من السَّعَادَة إلَّا إذا أقبلوا علىٰ التَّعْلِيْم الدِّيْنِيّ فأقاموه في مساجدهم.

ولما كانت الحاجة إليه عامة فوجوب إقامته وجوب عام علىٰ الأُمَّة بجميع طَبَقَاتها، ولا يسقط الوجوب عن أحد إلَّا إذا قام بالتَّعْلِيْم أهله، فكفوا البَاقِيْن.

ومن الواجب علىٰ من تولىٰ أمر الناس أن يبعث فيهم من يعلمهم أمر دينهم، كما كان يفعل النَّبيّ ﷺ، فإذا قَصَّرَ المُتَوَلِّي وجب علىٰ الجَمَاعَة أن تقوم به، فإن قَصَّرَت لحق الإثم كل فرد منها(١).

لأن المساجد إذا خلت من الدروس، كما هو حالنا اليوم غَالِباً، فذٰلِكَ سيؤدي إلىٰ انقطاع علاقة الأُمَّة بالعلم والدِّيْن، فيكون الدِّيْن غَرِيْباً(٢).

لذٰلِكَ احتج علىٰ قرار منع التَّعْلِيْم الدِّيْنِيّ بالمساجد بحُجَّة التشويش علىٰ المصلين، وذكر أنه أثار الخواطر وكدر الصفو. وبَيَّنَ أن وقوع التشويش لا محالة منه إذا منعت الدروس. وقال: إننا نضم صوتنا إلىٰ صوت الصحافة العَرَبِيَّة والفرنسية التي استنكرت هٰذَا القرار، وعَدَّتْهُ تعدياً علىٰ الحقوق الدِّيْنِيَّة العامة للمُسْلِمِيْن في المساجد(٣).

وطالب باسم جمعية العُلَمَاء المُسْلِمِيْن الجَزَائِرِيِّيْن الحكومة ترك الحرية التامة للمُسْلِمِيْن الجَزَائِرِيِّيْن في فتح المكاتب القُرْآنِيَّة والمكاتب العَرَبِيَّة الحرة، وأن تقف إزاء القائمين بهٰذِهِ المشاريع موقف المُؤَيِّد المساعد، لا أنهم يساقون أمام المحاكم كأنهم

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٢٢٥-٢٢٧.
(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص٢٥٢.
(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص١٨٨-١٨٩.

جُنَاة[١].

وكانت جهوده في سَبِيْل التَّعْلِيْم بالمساجد، وحرصه علىٰ الطلبة ودروسهم، ونشره البَيَانات في الجرائد عنهم، مع أنه كان متطوعاً لا يتقاضىٰ فلساً وَاحِداً علىٰ قضائه سحابة نهاره وشطراً من ليله في خدمة العلم الدِّيْنيّ واللِّسَانِيّ ونشره، دليلاً ناصعاً علىٰ نفسه الكَبِيْرَة الحريصة علىٰ مصلحة الأُمَّة الإِسْلَامِيَّة ولغتها[٢].

ورأىٰ الشَّيْخ ابن بَادِيْس أن التَّعْلِيْم لا يؤتي ثِمَاره إلَّا إذا اتَّصَل المعلم بتلاميذه وَاحِداً وَاحِداً. لأن المعلم الذي يريد أن يكون من تلامذته رِجَالاً، عليه أن يشعرهم وَاحِداً وَاحِداً أنه مُتَّصِل بكل وَاحِد منهم خارج الدرس زِيَادَة علىٰ الاتصال العام، وأنه في طور تربية وتَعْلِيْم في كفالة أب روحي، يعطف عليه، ويعنىٰ به مثل أبيه أو أكثر. وضرب المثل بالسَّيِّد رَشِيْد رِضَا حين كان لروح شَيْخه حُسَيْن الجسر الأثر الكَبِيْر في حياته[٣].

وذكر أن **العِلْم بالتَّعَلُّم**، فلن يكون المرء عالماً إلَّا من كان متعلماً، كما لن يصلح معلماً إلَّا من كان متعلماً، ومُحَمَّد ﷺ الذي بعثه الله معلماً كان متعلماً، علمه سُبْحَانَهُ بلِسَان جِبْرِيْل: فكان متعلماً عن رب العالمين، ثم كان معلماً للناس أجمعين.

ومن آداب المتعلم: لزوم الصمت عند السَّمَاع، لأن القِرَاءَة عند السَّمَاع وقبل

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص١٩٧و٤٤٩-٤٥٠.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص١٩٢و١٩٥-٢١٢و٢٢٣و٢٢٩.

قال الأُسْتَاذ توفيق مُحَمَّد شَاهِين: الشَّيْخ بَادِيْس مدرس ماهر، لا يكل ولا يمل، يدرّس من بعد صلاة الفجر إلىٰ صلاة العشاء، مع قسط قليل للراحة والصلاة والغداء. ثم يعظ الناس في مسجده بعد صلاة العشاء إلىٰ ما شاء الله...). / تعريف بالإمَام عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس: توفيق مُحَمَّد شَاهِيْن - تَفْسِيْر ابن بَادِيْس ص٧٠٨.

(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص٢٠٢.

تمام الإلقاء تمنع تمام الوعي، قال سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ - طه: ١١٤، ولا يتم تفرغ القلب للوعي إلَّا بسكون اللِّسَان سراً وجهراً، قال سُبْحَانَهُ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ - القيامة: ١٦.

ومن آدابه: دوام ازدياد التعلم، إذ مهما قضىٰ الإنسان من حياته في التَّعْلِيْم فلن يزال بحاجته إلىٰ العلم، لذٰلِكَ أمر الله تعالىٰ رَسُوْله ﷺ أن يدعوه ليَزِيْده علماً، قال سُبْحَانَهُ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ - طه: ١١٤[١].

وأوضح أن الفُقَهَاء والمُرْشِدِيْن كانوا يبعثون إلىٰ الأَمْصَار لتَعْلِيْم الناس أمر دينهم، فعُمَر بن الخَطَّاب بعث عُبَادَة بن الصَّامِت ومُعَاذاً وأبا الدَّرْدَاء رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ إلىٰ أهل الشَّام يعلمونهم القُرْآن، قال: وهو ما أخذت به جمعية العُلَمَاء المُسْلِمِيْن الجَزَائِرِيِّيْن علىٰ نفسها القيام به[٢]. وقد أمرنا أن نحدث الناس بما يفهمون، وإلَّا كان عليهم فتنة[٣].

وأكد علىٰ وجوب تَعْلِيْم المرأة، لأن النساء شَقَائِق الرِّجَال في التكليف، فلما لم تستطع النساء مُزَاحِمة الرِّجَال في مجالس رَسُوْل الله ﷺ، ولم يَتَمَكَّن من كَمَال السَّمَاع، لجلوسهن آخر صفوف المسجد، أفرد لهن يوماً ووعظهن، كما في صَحِيْح البُخَارِيّ.

وفي حَدِيْث الشِّفَاء بنت عَبْد الله قالت: (دخل عَلَيَّ النَّبِيّ ﷺ وأنا عند حَفْصَة، فقال لي: ألا تُعَلِّمِيْنَ هٰذِهِ رُقْيَة النملة، كما علمتها الكتابة؟) - رواه أبو دَاوُد.

لذا استفاض في تَارِيْخ الأُمَّة العالمات الكاتبات، فأهل العلم مسؤولون عن هٰذِهِ الأُمَّة رِجَالها ونسائها.

ولا يجوز اختلاط الرِّجَال بالنساء في التعلم، فإما أن يفردن بيوم ويكرر عند الحاجة،

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٣٤٦-٣٤٨.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص٨٠.

(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٢٧٠.

أو أن يتأخرن عن صفوف الرِّجَال، كما كان عليه الحال أيام النَّبِيّ ﷺ(١).

والطريق المَوْصِل إلىٰ الرُّقِيّ بالمرأة ونهضتها الصَّحِيْحَة، وجعلها فَاعِلَة في بناء المجتمع، هو تَعْلِيْم البنات تَعْلِيْماً يناسب خلقتهن ودينهن وقوميتهن، تلد أبناء للأُمَّة يعرفونها(٢)، ونشر العلم في أبنائنا وبناتنا ورِجَالنا ونسائنا علىٰ أَسَاس ديننا وقوميتنا إلىٰ أقصىٰ ما يمكن أن نصل إليه، يجعلنا نتبوأ منزلتنا اللائقة بنا بين الأُمَم(٣).

وقال الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس: (البيت هو المدرسة الأُوْلَىٰ، والمصنع الأصلي لتكوين الرِّجَال، وتَدَيُّن الأُمّ هو أَسَاس حفظ الدِّيْن والخُلُق، والضعف الذي نجده من ناحيتها في رِجَالنا معظمه نشأ من عدم التربية الإِسْلَامِيَّة في البيوت، بسبب جهل الأُمَّهَات وقلة تدينهن)(٤).

ولم يقتصر في إيجابه التَّعْلِيْم علىٰ الدِّيْنِيّ فقط، بل تعدىٰ إلىٰ العُلُوْم جميعاً، فمن وصاياه: (احذر، أيها الجَزَائِرِيّ المسلم، كل متعيلم يُزَهِّدُك في علم من العُلُوْم، فإن العُلُوْم كلها أثمرتها العُقُوْل لخدمة الإنسانية، ودعا إليها القُرْآن بالآيات الصريحة)(٥).

هٰذَا الاهتمام من ابن بَادِيْس بالتَّعْلِيْم أعاد للمسجد هيبته، فصار مركزاً للعِبَادَة

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص١٩٨-٢٠٢ وفيه: النملة: قروح في الجنب، ورقيتها كلام كانوا يقولونه، أقره رَسُوْل الله ﷺ.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٤٦٩.

(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص٢٠٣.

(٤) الإِمَام عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، رائد النهضة العِلْمِيَّة والفكرية: الزُّبَيْر بن رحال ص٢٤-٢٥ نَقْلاً عن مَجَلَّة (الشِّهَاب) ج٨ م١٢ ص٤٤٩-٤٥٣ عدد نوفمبر، سنة ١٩٣٥. وفيها أقوال له أُخْرَىٰ.

وتَقَدَّمَت الإشارة إليه في موضوع (إِصْلَاح المجتمع) ص٤٨٢ من كتابنا هٰذَا، نَقْلاً عن ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص٢٠١.

(٥) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص١٧٧. وانظر: ج٣ ص٢٧.

والتَّعْلِيْم والتَّوْجِيْه الروحي للكبار والصغار معاً، فصارت مساجد قَسَنْطِيْنَة التي عَلَّمَ بها، كالجَامِع الكَبِيْر، وسَيِّدِي قموش، وسَيِّدِي عَبْد المُؤْمِن، وسَيِّدِي بو مِعْزَة، والجَامِع الأخضر[1]، مراكز عِلْمِيَّة يؤمها الطلبة من كل مكان.

وفي خلال أقل من ربع قرن شادت جمعية العُلَمَاء المُسْلِمِيْن الجَزَائِرِيِّيْن أكثر من ١٥٠ مدرسة بالفن المعماري الجميل، حوت حوالي ٥٠ ألف طفل من البنين والبنات، وعدداً كَبِيْراً من النوادي الحرة، رغم محاربة فرنسا الظَّاهِرَة والخفية.

وأسست بعثتها التربوية خلال ثلاث سنوات أحد عشر نادياً في أحياء باريس للجَزَائِرِيِّيْن المُهَاجِرِيْن، وغير ذٰلِكَ من الأَعْمَال الجَلِيْلَة[2].

ولشغفه بنشر العلم أنشأ مَطْبَعَة عَرَبِيَّة في قَسَنْطِيْنَة، طبع فيها صحفه ومنشوراته، ونشر الكتب السَّلَفِيَّة القديمة.

وجعل معهده فرعاً لجَامِعَة الزَّيْتُوْنَة، واعترفت له بذٰلِكَ تقدِيراً له. وأرسل طُلَّابه إلىٰ الزَّيْتُوْنَة والأَزْهَر وإلىٰ القَرَوِيِّيْن في المَغْرِب، فعادوا عُلَمَاء الجَزَائِر[3].

ثانياً: الصحافة:

واتخذ ابن بَادِيْس الصحافة سَبِيْلاً من سُبُل التَّعْلِيْم، يبث فيها أَفْكَاره، ويوضح مَنْهَجه في النقد والتَّوْجِيْه والتربية.

---

(١) كانت بِدَايَة تَعْلِيْمه في الجَامِع الأخضر سنة ١٩١٣م، ورابط فيه أكثر من ربع قرن، وختم فيه تَفْسِيْر القُرْآن الكَرِيْم سنة ١٩٣٨م. وختم المُوَطَّأ سنة ١٩٣٩م. / الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص٣٥٧.

(٢) الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص٣٦٥-٣٦٦.

(٣) تعريف بالإمَام عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس: توفيق مُحَمَّد شَاهِيْن - تَفْسِيْر ابن بَادِيْس ص٧١٠-٧١١.

وكانت أول الجرائد التي أصدرها هي جريدة المنتقد سنة ١٩٢٥م، وكانت شديدة اللهجة ضد الإدارة الاستعمارية، فأُوقفت بعد صدور ثَمَانِيَة عشر عدداً. وكان شعارها: (الحق فوق كل أحد، والوطن قبل كل شيء).

ثم أصدر بعدها في العام نفسه ١٩٢٥م جريدة (الشِّهَاب)، وهي أُسْبُوعِيَّة، وتحولت إلىٰ شهرية منذ سنة ١٩٢٩م، واستمرت في الصدور حتىٰ أوقفها ابن بَادِيْس سنة ١٩٣٩م بعد نشوب الحَرْب العالمية الثانية، لئلا ترغمه فرنسا علىٰ كتابة ما يتنافىٰ مع مبادئه.

وكانت الشِّهَاب قد حملت لواء الدفاع عن حقوق الوطن الجَزَائِرِيّ المهضومة، فكانت من حيث المحتوىٰ والعَقِيْدَة والاتجاه الإصْلَاحِيّ والسياسي ثالثة مَجَلَّة في العالم الإسْلَامِيّ بعد (العُرْوَة الوثقىٰ) و (المَنَار).

وكان شعارها (مبدؤنا في الإصْلَاح الدِّيْنِيّ والدنيوي: لا يَصْلُحُ آخِرُ هٰذِهِ الأُمَّة إِلَّا بما صَلَحَ به أَوَّلُهَا).

وكان ابن بَادِيْس يحرر معظم أبواب مَجَلَّة الشِّهَاب، ويكتب مَقَالَاتها الرئيسة.

كما كان يكتب المَقَالَات الرئيسة في جرائد جمعية العُلَمَاء التي كان يتولىٰ رئاستها، وهي: (السُّنَّة) و(الصراط) و(الشَّرِيْعَة) و(البَصَائِر)، بأُسْلُوْبه المفحم اللاذع القَوِيّ.

وكانت جرائده نافذة علىٰ العالم العَرَبِيّ والإسْلَامِيّ، أفسدت خطة فرنسا في عزل الجَزَائِر عن أشقائه.

وكان يطالع معظم الجرائد والمجلات في الجَزَائِر وخارجها، سواء كانت باللُّغَة العَرَبِيَّة أم بالفرنسية التي كان يقرأ بها ولا يتكلمها، ويناقش كُتَّابَهَا أَحيَاناً[١].

---

(١) الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابح ص١٨٦-١٩١.

الدعوة إلى الله تعالى:

لما كان الإسْلَام هو المرتكز الأول في دعوة الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد الإصْلَاحِيَّة أكد علىٰ أن الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ واجبة، بدليل قوله تعالىٰ مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ - النَّحل: ١٢٥.

وأخذ من الآية أركان الدعوة، وهي أربعة:

١. الداعي. وهو النَّبِيّ ﷺ.

٢. المدعو. وهم جميع الناس.

٣. المدعو إليه. وهو سَبِيْل الرب جل جَلَاله.

٤. الدعوة إلىٰ سَبِيْله[1].

وسَبِيْل الله عَزَّ وجَلَّ بَيَان عام للناس، تتضح به المَحَجَّة للمهتدين، وتقوم الحُجَّة علىٰ الهالكين، وهو موضح بقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ - يُوْسُف: ١٠٨.

وأخذ من الآية أن هٰذَا السَّبِيْل مبين بثلاثة أُمُور، هي:

الأول: الدعوة إلىٰ الله علىٰ بَصِيْرَة. وهٰكَذَا دعا رَسُوْل الله ﷺ الناس كلهم إلىٰ عِبَادته تعالىٰ، فالمُسْلِمُوْن أفراداً وجماعات عليهم أن يقوموا بالدعوة إلىٰ الله، وأن تكون دعوتهم علىٰ بَيِّنَةٍ وحُجَّة وإيمانٍ، ووفقاً لدعوته ﷺ، لأنه هو قدوة المُسْلِمِيْن.

ومن الدعوة إلىٰ الله:

أ. دراسة العُلُوْم كالفِقْه والطب وغيرهما.

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص١٨٢، ١٩٠.

ب. بَيَان حجج الإسْلَام، ودفع الشُّبَه عنه، ونشر مَحَاسِنه بين الأجانب عنه.

ج. مجالس الوعظ والتذكير لتعريف المُسْلِمِيْن بدينهم وتَحْبِيْبهم فيه، بِبَيَان ما فيه من خير وسَعَادَة.

د. الأمر بالمعروف والنهي عن المُنْكر.

هـ. بعث البعثات إلىٰ الأُمَم المسلمة ونشر الكتب بألسنتها، وبعث المُرْشِدِيْن لهدايتهم.

الثاني: تنزيه الله تعالىٰ عن الشبيه والشَّرِيْك وما لا يتعلق به.

الثالث: البَرَاءة من المُشْرِكِيْن في عقيدتهم وأقوالهم وأَعْمَال شركهم، والمباينة والتبري من كل كفر وضلال[1].

وأوضح ابن بَادِيْس أنه ليس كل من زعم أنه يدعو إلىٰ الله صَادِقاً في دعواه، فعلامة الصَّادِق أمران، هما:

١. أن لا يتحدث عن نفسه، ولا يجلب لها جاهاً ولا مالاً، ولا يبغي لها من الناس مدحاً ولا رفعة.

٢. أن الصَّادِق يعتمد علىٰ الحُجَّة والبُرْهَان بلا كذب ولا تَلْبِيْس ولا ادعاء مجرد، بخلاف الكاذب. وهٰذَا ما يفيده قوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ - يُوْسُف: ١٠٨، في الآية المتقدمة[2].

وكان ابن بَادِيْس **شديد الغيرة علىٰ الإسْلَام**، متأسياً بالصَّحَابَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ[3].

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص١٧٤-١٨٠.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص١٧٧-١٧٨.

(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص٢١٨.

لذٰلِكَ رد علىٰ بعض الكتاب الأوربيين الذين جهلوا أو تجاهلوا حقيقة الإِسْلَام[1].

وأوضح أن **الحقد الدِّيْنِيّ والتعصب علىٰ المخالف** في الأديان السَّابِقَة جرت أنواعاً من الشرور والبلايا، حتىٰ جاء الإِسْلَام ينشر راية التسامح العام، ويقرر محبة الإِسْلَام في قلوب المُسْلِمِيْن دون أن يحملوا حقداً علىٰ مخالفيهم، أو يكرهوهم علىٰ الدِّيْن، فأقر معابدهم وحريتهم الدِّيْنِيَّة.

واذا كان هناك من تعصب فهو في وقائع نادرة كانت أيام ضعف المُسْلِمِيْن وطغيان غيرهم عليهم، فانتقموا انتقام المظلوم المهان، لا انتقام الحقود المُتَعَصِّب، وأيادي المُسْلِمِيْن علىٰ غيرهم ملأت سجلات الكتب.

وأين هٰـذَا من الصلاة اليومية التي يرددها النَّصَارَىٰ (عن الصدىٰ الكنسي لقَسَنْطِيْنَة وبونة سنة ١٩٣٦م): «يا قلب يسوع الإلٰهِيّ... أُقَدِّم إليك صلواتي بصفة أخص من أجل اتخاذ كل الكاثوليك، ومن أجل محاربة الإِسْلَام».

وذكر أن غَايَة التبشير هي النضال ضد الإِسْلَام، وأورد النَّصّ الفرنسي، وعلق عليه بقوله: فكيف تكون نظرات من يُغَذُّون هٰذِهِ التغذية السَّامِية نحو الإِسْلَام؟[2].

وأوجب علىٰ الداعي إلىٰ الله والمناظر في العلم، أمرين:

الأمر الأول: أن يقصد بدعوته ومُنَاظَرَاته إحقاق الحق، وإبطال الباطل، وإِقْنَاع الخصم بالحق وجلبه اليه.

الأمر الثاني: أن يتجنب ذكر العيوب والمثالب، لأنه خروج عن القصد، وبعد عن الأدب، وتَعَدٍّ علىٰ الخصم، وتنفيره عن الاستماع والقبول، وهما المقصود من الدعوة

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٣٤٢.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٤٩١ من مقالته سنة ١٩٣٦م.

والمُنَاظَرَة[١].

دروسه في التَّفْسِيْر، ومَنْهَجه فيه:

أوضح ابن بَادِيْس أن الجِهَاد بالقُرْآن الكَرِيْم ضد الكافرين واجب، بدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ - الفُرْقَان: ٥٢، وهو نص صريح في أن الجِهَاد في الدعوة إلىٰ الله، وإحقاق الحق من الدِّيْن، وإبطال الباطل من شبه المشبهين وضلالات الضالين وإنكار الجاحدين هو بالقُرْآن العَظِيْم. ففيه بَيَان العَقَائِد وأدلتها ورد الشبه عنها، وفيه بَيَان الأَخْلَاق، وأُصُوْل الأَحْكَام، وكل ما يحتاج إليه المُجَاهِد به في دين الله[٢].

لذٰلِكَ عني بتَفْسِيْر القُرْآن الكَرِيْم كَثِيْراً، ففسره كله في خمس وعشرين سنة، ولم يَبْقَ من تَفْسِيْره سوىٰ ما نشره في مجلته[٣]، والذي يساوي مجلداً وَاحِداً.

وقد أقيم بمناسبة ختمه دروس التَّفْسِيْر احتفال مهيب، حضرته الوفود، وتكلم فيه الخُطَبَاء والشعراء، وذٰلِكَ سنة ١٩٣٨م[٤].

وكان مَنْهَجه في تَفْسِيْره علىٰ النَّحْو الآتي:

١- يفسر الألفاظ بأرجح معانيها اللُّغَوِيَّة، ويحمل التراكيب علىٰ أبلغ أساليبها البَيَانِيَّة، ويربط الآيات بوجوه المناسبات[٥].

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص١٦٦.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٤٢٩.

(٣) تعريف بالإمَام عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس: توفيق مُحَمَّد شَاهِيْن - تَفْسِيْر ابن بَادِيْس ص٧٠٩.

(٤) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص١٤٢.

(٥) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص١٦٢، من خطبته في افتتاح دروس التَّفْسِيْر عام ١٩٢٩م.

لذٰلِكَ يتكلم عن معاني مُفْرَدَات الآية، ومناسبة ورودها[(١)]، وعلىٰ لُغَة الكلمة[(٢)]، والمَسَائِل النَّحْوِيَّة ويربطها بمعنىٰ الآية[(٣)]، ويربط الآية بما قبلها[(٤)]، وأَسْرَارها البلاغية[(٥)].

٢- يجعل عناوين يستعان بها علىٰ فهم معنىٰ الآية. ففي تَفْسِيْره قوله تعالىٰ: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ - النَّحْل: ١٢٥، وضع عناوين: سَبِيْل الرب جل جَلَاله، اهتداء، اقتداء، أركان الدعوة، الحكمة، استدلال واستنتاج، اهتداء واقتداء، المَوْعِظَة الحَسَنَة، الاستدلال، بماذا تكون المَوْعِظَة؟، تفريق بالتمثيل... إلخ[(٦)].

٣- يفسر القُرْآن بالقُرْآن أولاً. ففي قوله تعالىٰ: ﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾ - الفُرْقَان: ٧٥، قال ابن بَادِيْس: وقد بَيَّنَ من يتلقاهم بذٰلِكَ في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ ﴾ - الزُّمَر: ٧٣، فالملائكة هم الذين يتلقونهم...، وما أكثر ما تجد في القُرْآن بَيَان القُرْآن، فاجعله من بالك تهتد إن شاء الله إليه[(٧)].

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ مثلًا ج١ ص٢٦٥و٢٨٧و٣٨٨و٤٠١و٤١٣... إلخ.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ مثلًا ج١ ص١٩٥و٢٧٥.

(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ مثلًا ج١ ص١٩٤ و٢١٠ و٢١٣ و٢١٦ و٢١٨ و٢٢٣ و٢٧٥.

(٤) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ مثلًا ج١ ص٢١٦ و٢٦٥ و٢٧٧ و٣١٩.

(٥) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ مثلًا ج٢ ص١٢٧.

(٦) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ مثلًا ج١ ص١٨١-١٩٢.

(٧) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٥٠١.

٤- يعتمد صَحِيْح المَنْقُوْل وسديد المَعْقُوْل. وعمدته في ذٰلِكَ:

تَفْسِيْر ابن جَرِيْر الطَّبَرِيّ الذي يمتاز بالتفاسير النقلية السَّلَفِيَّة، وبأُسْلُوْبه الترسلي البليغ في بَيَان معنىٰ الآيات القُرْآنِيَّة، وبتَرْجِيْحاته لأَوْلَىٰ الأقوال عنده بالصواب.

وتَفْسِيْر الكَشَّاف الذي يمتاز بذوقه في الأُسْلُوْب القُرْآنِيّ، وتَطْبِيْقه فُنُوْن البَلَاغَة علىٰ آيات الكتاب، والتنظير لها بكلام العَرَب واسْتِعْمَالها في أفانين الكلام.

وتَفْسِيْر أبي حَيَّان الأَنْدَلُسِيّ الذي يمتاز بتَحْقِيْقاته النَّحْوِيَّة واللُّغَوِيَّة وتَوْجِيْهه للقِرَاءَات.

وتَفْسِيْر الرَّازِيّ الذي يمتاز ببحوثه في العُلُوْم الكونية مما يتعلق بالجماد والنبات والحيوان والإنسان، وفي العُلُوْم الكلامية ومَقَالَات الفرق والمُنَاظَرَة في ذٰلِكَ والحِجَاج... .

إلىٰ غير ذٰلِكَ مما لا بد لنا من مراجعته من كتب التَّفْسِيْر والحَدِيْث والأَحْكَام وغيرها مما يقتضيه المقام[١].

٥- يعتمد التَّفْسِيْر العِلْمِيّ للآيات الكونية، فذكر: أن القُرْآن كتاب الدهر ومعجزته الخَالِدَة، فلا يستقل بتَفْسِيْره إلَّا الزمن، وكذٰلِكَ كلام نبينا مُحَمَّد ﷺ المبين له، فكثير من متون الكِتَاب والسُّنَّة الوَارِدَة في مُعْضِلَات الكون ومشكلات الاجتماع لم تفهم أَسْرَارها ومغزاها إلَّا بتعاقب الأزمنة وظهور ما يصدقها من سُنَن الله في الكون، وكم فسرت لنا حوادث الزمن واكتشافات العلم من غرائب آيات القُرْآن ومتون الحَدِيْث، وأظهرت منها للمتأخرين ما لم يظهر للمتقدمين، قال ﷺ (لا تنقضي عجائبه)[٢].

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص١٦٢-١٦٣.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص١١٧.

ومن العناوين التي يضعها لذٰلِكَ: (تَحْقِيْق آية كونية من الآيات القُرْآنِيَّة)[١] في تَفْسِيْر الآية: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾- الذاريات: ٤٧، و (دقيقة كونية في الآية القُرْآنِيَّة)[٢].

٦- يرفض الروايات الإسرائيلية التي لم يرد لها دليل صَحِيْح، فذكر أنه:

رُوِيَت عن عظم ملك سُلَيْمَان روايات كثيرة ليست علىٰ شيء من الصحة، ومعظمها من الإسرائيليات الباطلة التي امتلأت بها كتب التَّفْسِيْر مما تلقىٰ من غير تثبت ولا تمحيص من روايات كَعْب الأحبار ووهب بن مُنَبِّه. ورَوَىٰ شَيْئاً من ذٰلِكَ الحَاكِم في مُسْتَدْرَكه، وصرح الذَّهَبِيّ ببطلانه. ومن هٰذِهِ المُبَالُغَات الباطلة أنه ملك الأرض كلها مَشَارِقها ومغاربها. فهٰذِهِ مَمْلَكَة عَظِيْمَة بسَبَأ كانت مستقلة عنه ومجهولة لديه علىٰ قرب ما بين عَاصِمتها باليَمَن وعَاصِمته بالشَّام[٣].

٧- يتخذ من الآيات القُرْآنِيَّة سَبِيْلاً للكلام عن عَقَائِد الإسْلَام، وأَخْلَاقه، وأنظمته المتعددة، كالنظام الروحي والاجتماعي والاقْتِصَادِيّ والسياسي والعَسْكَرِيّ... إلخ.

ويؤكد علىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المُنْكر والمَوْعِظَة والإرْشَاد.

دروسه في الحَدِيْث الشَّرِيْف:

ونشر دروساً كثيرة في الحَدِيْث النَّبَوِيّ في جرائده.

فيتناول الحَدِيْث أَيْضاً علىٰ غرار تَفْسِيْره للآية القُرْآنِيَّة، فيتحدث عن: معاني

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص٩١.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص٩٣. وانظر: ج٢ ص٩٤، وج٢ ص٥٢-٥٣.

(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص٤٠-٤١، سنة ١٩٣٩م.

ألفاظه، وتراكيبه، والمَسَائِل النَّحْوِيَّة واللُّغَوِيَّة فيه، وسبب وروده(١).

وهو يُخَرِّجُ الحَدِيْث الذي يريد الكلام عنه، ويتحدث أَحيَاناً عن رِجَال سنده، ورتبة الحَدِيْث(٢). وإذا أورد حَدِيْثاً ما خلال تَفْسِيْر آية أو في ثنايا كلامه لا يلتزم بتَخْرِيْجه إلَّا إذا رأىٰ أن تَخْرِيْجه ضروري لدعم حجته.

والشَّيْخ يعرض الأَحْكَام المُسْتَفَادة منه، ويرغب ويرشد، ويحذر وينبه، ويربط الحَدِيْث دائماً بالحياة، وما دخل علىٰ عَقِيْدَة المسلم من أوشاب(٣).

وكان قد شرح مُوَطَّأ مَالِك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كله، ولم يبق من هٰذَا الشَّرْح سوىٰ ما نشره في مجلته، والذي يساوي مجلداً وَاحِداً، مما يشهد له بطول الباع وفهم سُنَّة الرَّسُوْل ﷺ(٤).

فِقْهُهُ:

ابن بَادِيْس مَالِكِيّ المَذْهَب، درس في الزَّيْتُوْنَة، وشُيُوْخه فُقَهَاء المَالِكِيَّة في عَصْرهم. إلَّا أنه ليس بمُتَعَصِّب لمَذْهَبه، لأنه من دعاة الإصْلَاح، ينظر إلىٰ وحدة الكلمة بين المُسْلِمِيْن وإصْلَاح ذات بينهم.

فإذا تعرض لمَسْأَلَة فِقْهِيَّة يعرض أَحيَاناً آراء بعض المَذَاهِب الأُخْرَىٰ كالشَّافِعِيَّة والحَنَفِيَّة والحَنَابِلَة، وإذا رجح المَذْهَب المَالِكِيّ عليها، فإنما كان تَرْجِيْحه بعد الموازنة وبالدليل، لا تعصباً(٥).

---

(١) انظر مثلًا: ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص١٨١و٢٠١.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ مثلا ج٢ ص١٨٨.

(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ مثلا ج٢ ص١٧٤و١٧٨و١٨٧.

(٤) تعريف بالإمَام عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس: توفيق مُحَمَّد شَاهِيْن – تَفْسِيْر ابن بَادِيْس ص٧٠٩.

(٥) انظر تَرْجِيْحه رأي المَالِكِيَّة في صوم الأيام الستة من شَوَّال في: ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص٢٦٤.

وهٰكَذَا نظرته إلىٰ المَذَاهِب الأُخْـرَىٰ، فيقول: كنت ولا زلت أقول في مجالسي ودروسي: إن المَذَاهِب الفِقْهِيَّة غير الأربعة المشهورة هي كالأربعة تتفق وتختلف عن نظر واجْتِهَاد.

ولما شكا المَالِكِيَّة حين منعهم الإبَاضِيَّة من الأذان بغَرْدَايَة، ذكر ابن بَادِيْس أن ذٰلِكَ المنع عن اجْتِهَاد في مَذْهَب الإبَاضِيَّة، لأنهم يرون الاكتفاء في البلد بأذان وَاحِد، ولم يكن ذٰلِكَ من تعصب الإبَاضِيَّة علىٰ المَالِكِيَّة، فرجا الإبَاضِيَّة أن يجاملوا إخوانهم المَالِكِيَّة بالسماح لهم بالأذان في مسجدهم، لروابط الدِّيْن والوطن والمصلحة بينهم وحرصاً علىٰ وحدة الصف[١].

وحين سئل عن جبر البِكْر علىٰ الزواج، أجاب: بأن هٰذِهِ من الفُرُوْع الخلافية التي يسوغ للمُسْلِمِيْن أن يتوسعوا فيها، باتباع ما شاءوا من أئمتهم[٢].

وكانت فتاواه متسمة بالواقعية[٣].

وكان لا يتهاون في حكم ثَابِت شرعاً، فحين سئل عن قوله فيما لو صدر الأمر بمنع تعدد الزوجات؟ أجاب بأن الشَّرِيْعَة كُلٌّ، لا يجوز للمسلم تجزئته، فتقبل كلها أو ترد كلها[٤].

عنايته باللُّغَة العَرَبِيَّة:

ذكر ابن بَادِيْس أن الأُمَّة التي لا تحترم مقوماتها من جنسها، ولغتها، ودينها،

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٥٠٢-٥٠٤.
(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٣٥٧.
(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص٤١١-٤٢٤.
(٤) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٣٥٧.

وتَارِيْخها، لا ينظر إليها بين الأُمَم إلَّا بعين الاحتقار، ومَقْضِيّ عليها بالتقهقر[(١)].

وإذا كانت الأُمَم اللاتينية، علىٰ ما بينها من تزاحم وتناحر، ترتبط برَابِطَة اللاتينية، وتعقد المجتمعات العَظِيْمَة لتَقْوِيَة روحها، فنحن أبناء العَرَبِيَّة، وليس بيننا تلك المفرقات، أحق بأن نفعل مثلهم وأكثر منهم في لغتنا العَرَبِيَّة.

وفوق هٰذَا فإن اللُّغَة اللاتينية ليست لُغَة العلم والأدب المشتركة بينهم، حتىٰ لو قام خَطِيْب باللاتينية لما وجد من يفهمه إلَّا القليل من أهل القلم منهم، أما العَرَبِيَّة فإنها اللُّغَة المشتركة بين أهل الضاد جميعاً، وخُطْبَة العَرَبِيّ ودرسه مفهوم بينهم جميعاً[(٢)].

وبَيَّنَ أن أعداء الجَزَائِر علموا أن لا بَقَاء للإسْلَام إلَّا بتَعْلِيْم عَقَائِده وأَخْلَاقه وآدابه وأَحْكَامه، وأن لا تَعْلِيْم له إلَّا بتَعْلِيْم لغته، فناصبوا تَعْلِيْمها العداء، وتعرضوا لمن يتعاطىٰ تَعْلِيْمها بالمكروه والبلاء، فمضت سنوات في غلق المكاتب القُرْآنِيَّة ومكاتب التَّعْلِيْم الدِّيْنِيّ العَرَبِيّ، والضَّنّ بالرخص واسترجاع بعضها حتىٰ لم يبقوا منها إلَّا علىٰ أقل القليل. ولما رأوا تصميم الأُمَّة علىٰ تعلم قِرَاءَتها ودينها ولُغَة دينها واستبسال كثير من المُعَلِّمِيْن في سَبِيْل القيام بواجبهم نحو الدِّيْن والقُرْآن ولغته رغم التهديد والتغريم، استصدروا قَانُوْن العقاب الرهيب، قَانُوْن ٨ مارس سنة ١٩٣٨م، وفيه: (كُلُّ من يُعَلِّمُ بلا رخصة يُغَرَّمُ ثم يُغَرَّمُ ويسجن).

والمقصود بهٰذَا معلمو القُرْآن والإسْلَام ولغته، لأنهم هم الذين عرفت الأُمَّة كلها ما يلقون من مُعَارَضَة ومحاكمة، بينما غيرهم من مُعَلِّمِيّ اللُّغَات والأديان ومروجي النَّصْرَانِيَّة في السهول والصحاري والجبال بين أبناء الإسْلَام يجدون التأييد بالقوة والمال.

ومعلمو القُرْآن ولغته إذا طلبوا الرُّخَص بكل ما يلزم للطلب أُجيبوا بالسكوت أو الرفض، وإذا أقدموا علىٰ التَّعْلِيْم بلا رخصة كان التغريم الثقيل والسجن الطَّوِيْل

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص٢٢٩.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٥٣٢.

جزاءهم، وإذا أحجموا واستسلموا تم لأعداء الإسْلَام والعَرَبِيَّة مُرادهم، وقضوا علىٰ القُرْآن ولغته[١].

وهاجم قَانُوْن ٨ مارس بعنف، وذكر أنه هز الشعب الجَزَائِرِيّ، ورفعت الأُمَّة بلِسَان نوابها وهيئتها وعلمائها صوتها عالياً بالاحتجاج، ووالت (البَصَائِر) الكتابة، وتضافر النواب المُسْلِمُوْن علىٰ المُطَالَبَة بحرية تَعْلِيْم الدِّيْن ولُغَة الدِّيْن[٢]، وهَبَّت الأُمَّة كلها ضد ذٰلِكَ القرار، وذكر ابن بَادِيْس أن الأُمَّة ما زالت تقول: (إن قرار ٨ مارس المشؤوم ضربة قَاضِيَة علىٰ تعلم الإسْلَام ولُغَة الإسْلَام)[٣].

ومَعْلُوْم أن هٰذَا القرار أصدره وَزِيْر داخلية فرنسا شوطان، اعتبر اللُّغَة العَرَبِيَّة لُغَة أجنبية في الجَزَائِر[٤].

وأعلن لخصوم الإسْلَام والعَرَبِيَّة: أننا عقدنا علىٰ المقاومة المشروعة عزمنا، وسنمضي بعون الله في تَعْلِيْم ديننا ولغتنا رغم كل ما يصيبنا، ولن يصدنا عن ذٰلِكَ شيء. وإننا علىٰ يقين من أن العَاقِبَة، وإن طال البلاء، لنا، وأن النَّصْر سيكون حليفنا، لأننا قد عرفنا إيماناً، وشَاهدنا عياناً، أن الإسْلَام والعَرَبِيَّة قضىٰ الله بخلودهما، ولو اجتمع الخصوم كلهم علىٰ محاربتنا.

فدعا كل معلم مكتب قُرْآنِيّ أو مدرسة طلب الرخصة ولم يجب، أو منع من التَّعْلِيْم، أو من تُعُدِّيَ عليه في مسجده، أن يكاتبه، ليقوم بما يمكنه من مُسَاعَدَةٍ[٥].

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٢٤٣-٢٤٤.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٢٥٨ من مقال: (ودار لقمان علىٰ حالها) سنة ١٩٣٨م.

(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٢٦١ حول قَانُوْن ٨ مارس المشؤوم سنة ١٩٣٩م.

(٤) الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص١٥٤.

(٥) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٢٤٤-٢٤٥.

وعاهد علىٰ أن يقصر حياته علىٰ الإسْلَام والقُرْآن ولُغَة الإسْلَام والقُرْآن، وطالب الجُمْهُوْر أن يموتوا علىٰ الإسْلَام والقُرْآن ولُغَة الإسْلَام والقُرْآن[١].

وذكر أنا إذا كنا نصرف أكثر جهدنا للتَّعْلِيْم العَرَبِيّ، فذٰلِكَ لأن العَرَبِيَّة هي لُغَة الدِّيْن الذي هو أَسَاس حياتنا ومَنْبَع سعادتنا، ولأنها هي التي نحسن تَعْلِيْمها، ولأنها هي اللُّغَة المُهْمَلَة بين أبنائها، المحرومة من مِيْزَانِيَّة بلدها، المطاردة في عقر دارها، المغلقة مدارسها، المحارب القائمون علىٰ نشرها من أبنائها[٢].

إذ لا رَابِطَة تربط ماضينا المَجِيْد بحاضرنا الأغر والمستقبل السَّعِيْد إلَّا هٰذَا الحبل المَتِيْن: اللُّغَة العَرَبِيَّة، لُغَة الدِّيْن والجنس والقومية والوطنية المغروسة، وهي وحدها المقياس الذي نَقِيْس به أرواحنا بأرواح أسلافنا، وبها يَقِيْس من يأتي بعدنا من أبنائنا وأحفادنا الغر الميامين، أرواحهم بأرواحنا، وهي وحدها اللِّسَان الذي نعتز به، الذي خدم الدِّيْن والعلم والإنسان، ونتحدث عن مَحَاسِنه منذ زَمَان، ونعمل لإحيائه منذ سنين[٣].

ودعا إلىٰ تعلم اللُّغَات الأجنبية، فذكر في مقال له: (من السُّنَّة تعلم اللُّغَات المُحْتَاج إليها) حَدِيْث زَيْد بن ثَابِت في التِّرْمِذِيّ قال: أمرني رَسُوْل الله ﷺ أن أتعلم له كتاب يَهُوْد... . وقال: إن كل قوم تربط بينهم المصالح لا بد لهم من التعاون، وهٰذَا لا يتم إلَّا بعد أن يفهم بعضهم لُغَة بعض وخَطِّهِ[٤]، ونص قَانُوْن الجمعية علىٰ تَعْلِيْم العَرَبِيَّة والفرنسية[٥].

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص١٤٤.
(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٢٥٧.
(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٢٦٥.
(٤) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٢ ص٢٣٢.
(٥) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٢٦٦.

وعند ذكره أَحْمَد شوقي قال: إن مما نفعه اطلاعه علىٰ آداب أُمَم أُخْرَىٰ في اللُّغَة الفرنسية، فعلىٰ أُدَبَاء الجَزَائِر وشعرائها أن يدرسوا آدابهم العَرَبِيَّة، وأن يطالعوا الآداب الغربية في اللُّغَة الفرنسية(١).

العَرَب ووحدتهم:

العَرَب هم الأُمَّة الناطقة بالعَرَبِيَّة، وتفكر بها، وتتغذىٰ من تَارِيْخها، وتحمل مقداراً عَظِيْماً من دمها، وقد صهرتها القرون في بوتقة التَّارِيْخ حتىٰ أصبحت أُمَّة وَاحِدَة.

هٰذِهِ الأُمَّة تربط بينها، زِيَادَة علىٰ رَابِطَة اللُّغَة، رَابِطَة الجنس، ورَابِطَة التَّارِيْخ، ورَابِطَة الألم، ورَابِطَة الأَمَل.

فالوحدة القومية والأدبية متحققة بينها ولا محالة.

أما الوحدة السياسية فلا تكون إلَّا بين شعوب تسوس نفسها، لأن الأُمَم المغلوبة علىٰ أمرها لا تستطيع أن تضع لنفسها أمراً. ولا تدافع عن نفسها، ولا تستطيع أن تعتمد علىٰ نفسها. ومن العَرَب دول مستقلة يمكن أن تحقق الوحدة السياسية بينها وتجب، ومنها دول مصابة بالاستعمار لا يتصور قيام الوحدة السياسية بينها ولا مع غيرها. ومن الخير لها أن تعمل كل وَاحِدَة منها بما يناسبها من الطرق المَعْقُوْلة والخُطَط السياسية الممكنة، مع الشعور التام بالوحدة القومية والأدبية. وهو ما دعا إليه شَكِيْب أَرْسْلَان، قال ابن بَادِيْس: لأنه رجل عَمَلِيّ ليس بخيالي، وسياسي خَبِيْر، يفرق بين العَمَل المثمر والقول الفارغ(٢).

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٥٣٥-٥٣٦.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٣٩٨-٣٩٩.

وانظر مَسْأَلَة عَظِيْمَة بين رجلين عَظِيْمين، في: ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٣٨٩.

العَرَب ومنزلتهم:

ذكر ابن بَادِيْس أن الحق علىٰ كل من يدين بالإسْلَام، أن يعتني بتَارِيْخ العَرَب ومَدَنِيّتهم، قبل الإسْلَام وبعده، وذٰلِكَ:

١- لارتباط تَارِيْخهم بتَارِيْخ الإسْلَام، فالله تعالىٰ هيأهم لحمل أعباء الرِّسَالَة العَظِيْمَة، إذ لا يقوم بالعظائم إلَّا العِظَام من الناس.

٢- لعِنَايَة القُرْآن بهم، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ - الزخرف: ٣، والكثير من الآيات القُرْآنِيَّة في مَرَاميها البعيدة كان إصْلَاحاً لحال العَرَب وتطهيراً لمجتمعهم، وإثارة لمعاني العزة والشَّرَف فيهم. وكان من حكمة القُرْآن أن يجلب نافر العَرَب، إذ أنزله بلِسَانهم مع تعدد لهجاتهم، لأن القُرْآن أُنزل علىٰ سبعة أحرف.

وقوله سُبْحَانَهُ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ - الزخرف: ٤٤، إشعار لهم أن عليهم من الواجبات في مُقَابَلَة هٰذَا الشَّرَف الذي أعطوه ما ليس علىٰ غيرهم. ولا شك أن ثمن المجد غال.

٣- لاخْتِيَار الله لهم، لتبليغ دين الإسْلَام إلىٰ أُمَم الأرض، ولهٰذَا كان مَنْبَع الرِّسَالَة بمَكَّة، وهي في وسط الجَزِيْرَة، بعيدة عن كل المؤثرات الخارجية في الطباع والألسنة.

وكما اختارهم الله للنهوض بالعالم اختار لِسَانهم ليكون لِسَان هٰذِهِ الرِّسَالَة. واللِّسَان الذي اتسع للوحي الإلٰهيّ لا يضيق أَبَداً بهٰذِهِ النهضة العالمية(١).

ثم أورد ما ذكره القُرْآن الكَرِيْم عن حَضَارَة العَرَب، فتحدث عن مَدَنِيَّة عاد، وثمود، وسَبَأ، وعمارتهم وفنهم وقوتهم، ثم قال: هٰذِهِ المَدَنِيَّات الضخمة في هٰذِهِ الأُمَّة دلت علىٰ أنها أهل لحمل الرِّسَالَة الإلٰهِيَّة إلىٰ العالم. وأوضح أن القُرْآن وحده هو الذي

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص٥٩-٦٤.

أنصف العَرَب، والتَّارِيْخ يجب أن لا ينظر من جهة وَاحِدَة بل من جهات متعددة، وفي العَرَب نواح تذم وأُخْرَىٰ تمدح، وهٰذِهِ طريقة القُرْآن بعينها[١].

العُرُوْبَة والقومية:

ونادىٰ ابن بَادِيْس بالقومية العَرَبِيَّة والعُرُوْبَة كَثِيْراً، إلَّا أنه لم يرد في ذكره تَجْرِيْدها عن الإسْلَام، وإنما أراد جمع العَرَب، باعتبارهم العَارِفِيْن بلُغَة القُرْآن، تحت راية الإسْلَام، ليقودوا العالم بهُدَىٰ هٰذَا الدِّيْن، ويبلغوا أَحْكَامه إلىٰ الناس كافة، قال سُبْحَانَهُ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾- الأنبياء: ١٠٧.

قال: لنا من هٰذِهِ القومية العَرَبِيَّة الخَالِدَة مثل ما لغيرنا، ولنا من هٰذَا التَّارِيْخ الممتد البعيد مَجْد وملك مثلما لغيرنا وفوق ما لغيرنا، ولقد أعطانا الله من هٰذَا الدِّيْن الإنساني، من هٰذَا الدِّيْن العقلي الروحي، ما يكمل عُقُوْلنا ويهذب أرواحنا، أعطانا منه ما لم يعطه لغيرنا لنكون قادة وسادة... فنحن إذن شعب مَاجِد عَظِيْم، يعتز بدينه، يعتز بلغته، يعتز بوطنه، يعتز بقوميته...، وننصف التَّارِيْخ إذا قلنا: إننا سبقنا الأُمَم في ميادين الحياة، سبقناها بهدايتنا، ونشرنا بينها الشَّرِيْعَة الحَقَّة قبل أن تتكون هٰذِهِ الأُمَم، وسبقنا هٰذِهِ الأُمَم في نشر الحق أيام كانت في ظلمات من الجهل حالكة... ذٰلِكَ ما كنا فيه، وما سنعود إليه إن شاء الله[٢].

وأوضح أن العَرَبِيَّة هي اللِّسَان، فمن تكلم بلِسَان العَرَب فهو عَرَبِيّ، وإن لم ينحدر من سُلَالَة العَرَب، بدليل ما رواه ابن عَسَاكِر عن أبي سَلَمَةَ بن عَبْد الرَّحْمٰن، قال: جاء قَيْس بن مطاطية إلىٰ حلقة فيها سَلْمَان الفَارِسِيّ وصُهَيْب الرُّوْمِيّ وبِلَال الحَبَشِيّ، فقال: هٰذَا الأَوْس والخَزْرَج قد قاموا بنصرة هٰذَا الرجل، يعني: النَّبِيّ ﷺ، فما بال هٰذَا؟، يعني: الفَارِسِيّ والرُّوْمِيّ والحَبَشِيّ، فقام إليه مُعَاذ بن جَبَل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأخذ

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص٦٥-٧٦.
(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٢٦٤-٢٦٥.

بتلابيبه[1]، ثم أتىٰ النَّبيّ ﷺ فأخبره بمقالته، فقام النَّبيّ ﷺ مغضباً يجر رداءه، حتىٰ أتىٰ المسجد، ثم نادىٰ: الصلاة جَامِعَة، وقال ﷺ: (أيها الناس: الرب وَاحِد، والأب وَاحِد، وإن الدِّيْن وَاحِد، وليست العَرَبِيَّة بأحدكم من أب ولا أُمّ، وإنما هي اللِّسَان، فمن تكلم بالعَرَبِيَّة فهو عَرَبِيّ).

وعلل ابن بَادِيْس هٰذَا، بأنه تكاد لا تخلص أُمَّة من الأُمَم لعِرْق وَاحِد، ولو وضعت أخوين شقيقين يتكلم كل وَاحِد منها بلِسَان، وشَاهدت ما بينهما من اختلاف نظر وتباعد تفكير، ثم وضعت شَامِيّاً وجَزَائِرِيّاً مثلاً ينطقان باللِّسَان العَرَبِيّ، ورأيت ما بينهما من اتحاد وتقارب، لأدركت بالمشَاهدة الفرق العَظِيْم بين الدم واللُّغَة في تَوْحِيْد الأُمَم.

والقُرْآن نزل بلُغَة العَرَب، وأَخْرَجَهُم من الظلمات إلىٰ النُّوْر، وهيأهم لهِدَايَة الأُمَم، والأُمَم التي تدين بالإسْلَام ستتكلم بلِسَان الإسْلَام، وهو لِسَان العَرَب، فينمو عدد الأُمَّة العَرَبِيَّة وتهتدي بهُدَىٰ الإسْلَام. فكان اللِّسَان العَرَبِيّ لِسَان الإسْلَام الرسمي.

وحين دعا إلىٰ القومية العَرَبِيَّة نبذ معها العَصَبِيَّة العُنْصُرِيَّة المفرقة الضيقة، لأن الرَّسُوْل ﷺ نبذها، ونَبَّهَ علىٰ تساوي البشر، فربهم وَاحِد، وأبوهم آدم وَاحِد. وذَكَّرَ بأُخُوَّة الإسْلَام بين البشر، والتسامح الإنساني، ووضع للأُمَّة العَرَبِيَّة قَانُوْناً دينياً اجتماعياً طبيعياً، لتتسع دائرتها لجميع الأُمَم، وذٰلِكَ من أعظم ما سهل نشر الهِدَايَة الإسْلَامِيَّة وإنقاذ العالم من سلطة المتسولين باسم الملك أو الدِّيْن.

واستشهد بقول غوستاف لوبون: (لم يعرف التَّارِيْخ فاتحاً أرحم من العَرَب)، نعم لأنهم فتحوا فتح هِدَايَة، لا فتح استعمار، وجاءوا دعاة سَعَادَة، لا طغاة اسْتِعْبَاد[2].

---

(١) **التلابيب**: ما علىٰ النحر من الثياب.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٤ ص١٩-٢١ من مَقَالَة: (مُحَمَّد ﷺ رجل

ولذٰلِكَ كان ينشد:

شَعبُ الجَزَائِر مُسْلِمٌ ... وإلىٰ العُرُوْبَة يَنْتَسِبْ
مَن قال: حاد عن أصله ... أو قال: مات، فقد كَذَبْ
فإذا هلكتُ فصيحتي ... تحيا الجَزَائِرُ والعَرَبْ

ويقول:

قومي هُمُ وبنو الإنسان كُلُّهُمُ ... عشيرتي وهُدَىٰ الإسْلَام مُطَّلَبِي
أدعو إلىٰ الله لا أدعو إلىٰ أحد ... وفي رضىٰ الله ما نرجو من الرَّغَبِ[1]

ولا شك أن في ذٰلِكَ رَدّاً علىٰ محاولات فرنسا لتَغْرِيْب مسلمي الجَزَائِر وإبعادهم عن دائرة الإسْلَام. والتفريق العُنْصُرِيّ بين البربر وغيرهم من عَرَب الجَزَائِر.

بناء الشخصية الجَزَائِرِيَّة:

ذكر ابن بَادِيْس بأننا قوم مُسْلِمُوْن جَزَائِرِيُّون، لهم شخصيتهم البَيِّنَة، والتي تقوم علىٰ ما يأتي:

١- المحافظة علىٰ تقاليد الإسْلَام التي تدعو إلىٰ كل كَمَال إنساني، وفي المحافظة علىٰ هٰذِهِ التقاليد المحافظة علىٰ أهم مقومات قوميتنا، وأعظم أسباب سعادتنا وهنائنا. لأن الناس لا يقدرون العيش بلا دين. والدِّيْن قوة عَظِيْمَة لا يستهان بها، والحكومة التي تتجاهل دين الشعب تسيء في سياسته، وتجلب عليه وعليها الأضرار[2].

فالإسْلَام وحده هو الذي يبنىٰ عليه مستقبل الجَزَائِر، وهو يُحَصِّن الأُمَّة من كل

القومية العَرَبِيَّة) بمناسبة المولد النَّبَوِيّ الشَّرِيْف سنة ١٩٣٦م.

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٥٧١-٥٧٣.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٢٧٧.

محاولة الإدماج والفَرْنَسَة.

وذكر: أننا سنمضي بعون الله في تَعْلِيْم ديننا ولغتنا رغم كل ما يصيبنا، وأننا علىٰ يقين من أن العَاقِبَة، وإن طال البلاء، لنا، لأننا عرفنا إيماناً، وشَاهدنا عياناً، أن الإسْلَام والعَرَبِيَّة قد قضىٰ الله بخلودهما، ولو اجتمع الخصوم كلهم علىٰ محاربتنا[١].

ورفع شعارات في جرائده وخطبه منها:

لمن أعيش؟ للإسْلَام والجَزَائِر[٢]، وبالله، للإسْلَام والعَرَبِيَّة في الجَزَائِر[٣].

٢- العَمَل علىٰ لَمِّ شَعَث الأُمَّة الجَزَائِرِيَّة وتَحْقِيْق حريتها واستقلالها، والعَمَل علىٰ إحياء روح القومية في أبنائها، وترغيبهم في العلم النَّافِع والعَمَل المُفِيْد، حتىٰ ينهضوا كأُمَّة لها حق الحياة[٤].

لذٰلِكَ كان يكتب في جرائده، ويتكلم في دروسه، ويطالب فرنسا وواليها بالجَزَائِر بحقوق الجَزَائِرِيِّيْن. ومن ذٰلِكَ: المَطَالِب التي قدمها إلىٰ الحكومة الشَّعْبِيَّة الفرنسية سنة ١٩٣٦م[٥].

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٢٤٥.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٢٣٣ من محاضرته في جمعية التربية والتَّعْلِيْم الإسْلَامِيَّة سنة ١٩٣٧م. في شرح هاتين الكَلِمَتَيْن.

(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٢٤٣ عُنْوَان مقالته، والتي استنكر فيها صدور قَانُوْن ٨ مارس.

(٤) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٢٧٨.

(٥) ذكر هٰذِهِ المَطَالِب بعُنْوَان: (حقوق الأُمَّة الجَزَائِرِيَّة التي تطلبها من الأُمَّة الفرنسوية)، وجاء فيها: إن الأُمَّة الجَزَائِرِيَّة قد شاركت الأُمَّة الفرنسية في مَوَاقِف الموت، فمن الحق والعَدْل أن تساويها في مَوَاقِف الحياة. والمساواة المطلوبة لا تتحقق إلَّا:

أ. برفع الأوضاع الخاصة، والانديجينة، وأُعطيات الجُنْدِيَّة، وبَرْنَامَج التَّعْلِيْم... إلخ.

فخاطب الشعب الجَزَائِرِيّ مؤكداً حريته بقوله:

أيها الشعب: إنك بعملك العَظِيْم الشَّرِيْف، برهنت علىٰ أنك شعب متعشق للحرية وهائم بها، تلك الحرية التي ما فارقت قلوبنا منذ كنا نحن الحَامِلِيْن للوائها، وسنعرف في المستقبل كيف نعمل لها، وكيف نحيا ونموت لأجلها(١).

وأكد علىٰ أن استقلال الجَزَائِر غَايَة عمله، فقال: وما غايتنا من عملنا إلَّا تَحْقِيْق الاستقلال.

وقال أَيْضاً: إن الاستقلال حق طبيعي لكل أُمَّة من أُمَم الدنيا، وقد استقلت أُمَم كانت دوننا في القوة والعلم، والمنعة والحَضَارَة... .

لذٰلِكَ هم بإِعْلَان الثورة سنة ١٩٤٠م قبل وفاته، إلَّا أنه لم يجد العدد الكافي الذي يُوَافِقه علىٰ ذٰلِكَ(٢).

وقد تنبأ بإِعْلَان الثورة الكُبْرَىٰ علىٰ فرنسا، وأشار إلىٰ جبال أَوْرَاس الحصينة، وقال لطُلَّابه، من هنا تبدأ الثورة.

ب. تسوية نواب الجَزَائِرِيِّيْن بنواب الفرنسيين في جميع المجالس.

ج. اعتبار اللُّغَة العَرَبِيَّة رسمية كالفرنسية.

د. تَسْلِيْم المساجد للمُسْلِمِيْن.

هـ. تأسيس كُلِّيَّة لتَعْلِيْم الدِّيْن ولِسَانه العَرَبِيّ، لتَخْرِيْج الأَئِمَّة والخُطَبَاء والمدرسين.

و. تنظيم القَضَاء الإسْلَامِيّ وإصْلَاحه.

ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٣٢٤-٣٢٦.

وانظر استنكاره ما ينشر في الجرائد في شأن الأُمَّة الجَزَائِرِيَّة ورمي علمائها بما ليس فيهم، في: ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٤٣٨.

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٣٣١.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج١ ص٨٩.

وبايع بعضهم فرداً فرداً، استعداداً لإعْلَان الجِهَاد، لٰكِن المُنْيَة حالت دون تَحْقِيْق ذٰلِكَ[١].

٣- الحرص علىٰ الأُخُوَّة والسَّلَام بين شعوب البشر.

ولما كانت الجَزَائِر من مُسْتَعْمَرَات فرنسا رأىٰ ابن بَادِيْس السعي لربط أواصر المودة وتَحْسِيْن العلائق بين الأُمَّتَيْن المرتبطتين بروابط المصلحة المشتركة والمَنَافِع المتبادلة.

ومع أن الجَزَائِر قامت بواجبها تجاه فرنسا في أيام عسرها ويسرها، لٰكِن مع الأسف لم تنل علىٰ ما يصلح أن يكون جزاءها من فرنسا[٢].

لذٰلِكَ، هاجم ابن بَادِيْس سِيَاسَة الاندماج، الوَارِدَة في قول بعض النواب المَحَلِّيِّيْن والأَعْيَان، الذين ذهبوا إلىٰ أن الأُمَّة الإسْلَامِيَّة الجَزَائِرِيَّة مُجْمِعَة علىٰ اعتبار نفسها أُمَّة فرنسية بحتة، لا وطن لها إلَّا الوطن الفرنسي، ولا غَايَة لها إلَّا الاندماج الفعلي التام في فرنسا، وعلىٰ فرنسا أن تمد يدها بكل سرعة، فتلغي جميع ما يحول دون تَحْقِيْق هٰذَا الاندماج.

بل قال أحد النواب: إنه فتش عن القومية الجَزَائِرِيَّة في بطون التَّارِيْخ والحال الحاضر فلم يجد لها من أثر، وأَخِيْراً صاح: فرنسا هي أنا.

فرَدَّ ابنُ بَادِيْس علىٰ هٰؤُلَاءِ، وذكر: أنهم تكلموا باسم الأُمَّة وهم لا يمثلون إلَّا أنفسهم، أما نحن فنتكلم باسم أغلبية الأُمَّة، ونحن فتشنا في صحف التَّارِيْخ والحالة الحاضرة، فوجدنا للأُمَّة الجَزَائِرِيَّة تَارِيْخها الحافل بجلائل الأَعْمَال، ولها وحدتها الدِّيْنِيَّة واللُّغَوِيَّة، ولها ثقافتها وأَخْلَاقها بما فيها من حسن وقبيح شأن كل أُمَّة في الدنيا.

---

(١) تعريف بالإمَام عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس: توفيق مُحَمَّد شَاهِيْن - تَفْسِيْر ابن بَادِيْس ص٧١٦.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٢٧٧-٢٧٨.

وهٰذِهِ الأُمَّة الجَزَائِرِيَّة ليست هي فرنسا، ولا تريد أن تكون فرنسا، ولا تستطيع أن تكون ولو أرادت، فهي بعيدة كل البعد في لغتها وأَخْلَاقها وعنصرها ودينها، لا تريد أن تندمج.

ولها وطن محدود معين هو الوطن الجَزَائِرِيّ بحدوده الحالية، الذي يشرف علىٰ إدارته المُعَيَّن من فرنسا. وهٰذَا الوطن الجَزَائِرِيّ صديق مخلص لفرنسا، يخلص لها إخلاص الصديق لصديقه، لا التابع لمتبوعه. وهو يطلب من فرنسا أن تحترم دينه ولغته، وتسبغ عليه نِعَم الحرية والعَدْل والمساواة(١).

وطالب فرنسا برفع مستوىٰ الجَزَائِرِيِّيْن العِلْمِيّ والأدبي بتعميم التَّعْلِيْم، وتَشْرِيْكهم في إدارة شؤون وطنهم تَشْرِيْكاً صَحِيْحاً سياسياً واقْتِصَادِيّاً(٢).

وحين تساءل البعض متىٰ استقلت بلاد الجَزَائِر؟ أجاب: بأننا إذا ضربنا صفحاً عن الدُّوَل الإِسْلَامِيَّة المستقلة التي أَزْهَرت بالقطر الجَزَائِرِيّ، وسلمنا بأن القطر الجَزَائِرِيّ لم يكن مستقلاً في وقت من الأوقات، فمتىٰ كانت دولة تشيكوسلوفاكيا مستقلة، وإلىٰ أي عهد يرجع استقلالها؟

وحين تساءل البعض عن وحدة اللُّغَة في الجَزَائِر، قال ابن بَادِيْس: إن الواقع يثبت أنه لا يوجد في أرض الجَزَائِر إِلَّا وَاحِد في المئة من السكان المُسْلِمِيْن لا يتكلم العَرَبِيَّة، لٰكِن هل لا توجد في فرنسا إلىٰ جانب اللُّغَة الرسمية الفرنسية لُغَات أُخْرَىٰ ذات آداب ولها صحف سيارة، يتكلم بها الملايين من الناس، وخاصة بالالزاس، وبجهات الفلاندر، وببلاد ابروتانيا، التي يقوم أهلها بحَملَة تكاد تكون ثَوْرِيّة لإِجْبَار الحكومة علىٰ تَعْلِيْم لغتهم بالمدارس. وهل توجد وحدة اللُّغَة كما توجد في القطر الجَزَائِرِيّ في

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٣٠٨. وكذٰلِكَ ص٣١٨و٣٨٣.
(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٢٧٩.

رومانيا ويوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا إن لم نتكلم إلَّا عن هٰذِهِ البلاد؟[١].

فالواجب إعْطَاء الأُمَّة الجَزَائِرِيَّة جميع الحقوق مع محافظتها علىٰ جميع مقوماتها، وفرنسا والجَزَائِر شَعْبَان اثنان في الواقع وبالطبع كذٰلِكَ. وقال ابن بَادِيْس: إننا عَرَب مئة في المئة، ومُسْلِمُوْن مائة في المئة، لا نتنازل عن شيء من ذٰلِكَ، ونحن مع فرنسا كأخ مع أخيه، لا كَسَيِّدٍ مع عَبْدِهِ[٢].

الوطنية:

وذكر ابن بَادِيْس أن الوطن ينسب إليه أفراده الذين ربطتهم ذكريات الماضي، ومصالح الحاضر، وآمال المستقبل.

والنسبة للوطن توجب علم تَارِيْخه والقيام بواجباته من نهضة عِلْمِيَّة واقْتِصَادِيَّة وعِمْرَانِيَّة والمحافظة علىٰ شرف اسمه وسمعة بنيه، فلا شرف لمن لا يحافظ علىٰ شرف وطنه، ولا سمعة لمن لا سمعة لقومه[٣].

و(الحق فوق كل أحد، والوطن قبل كل شيء) شعار جريدة (المنتقد) كما أسلفنا.

والوطن عند ابن بَادِيْس ثلاثة:

١. الوطن الصَّغِيْر، وهو البيت، فالإنسان يحب بيته وأهله لحاجته إليهم، واستمداد بقائه منهم.

٢. الوطن الكَبِيْر، وهو وطنه الذي عرف فيه ميدان حياته ومن يماثله في ماضيه وحاضره ونظرته إلىٰ المستقبل، ووجد فيهم صورته بلِسَانه ونوازعه وأَخْلَاقه، ومن شعر نحوهم بالحب، ومحبته لهم في العرف العام هي الوطنية.

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٣١٨.

(٢) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٣٥٦-٣٥٧.

(٣) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٣٠٦.

٣. الوطن الأكبر، وهو الأرض كلها، إذ حين يغذىٰ بالعلم الصَّحِيْح شعر بالحب لكل من يجد فيه صورته الإنسانية.

والناس إزاء هٰذَا التَّرْتِيْب الطبيعي أربعة أقسام:

أ. قسم لا يعرفون إلَّا أوطانهم الصَّغِيْرَة، وهم الأنانيون، وليس في هٰؤُلَاءِ خير حتىٰ لأهل بيتهم.

ب. قسم يعرفون وطنهم الكَبِيْر، ويعملون في سَبِيْله كل ما يرونه من خير ولو بإدخال الضرر علىٰ الأوطان الأُخْرَىٰ، وهٰؤُلَاءِ شر علىٰ أُمَمهم وغيرها.

ج. قسم زعموا أنهم لا يعرفون إلَّا الوطن الأكبر، فأنكروا وطنيات الأُمَم وأديانها، وهٰؤُلَاءِ عاكسوا الطبيعة وما عرفته البشرية.

د. قسم اعترف بهٰذِهِ الوطنيات كلها، ونَزَّلَهَا منازلها، غير عادية ولا معدوّ عليها، ورتبها التَّرْتِيْب الطبيعي في تدرجها، كل وَاحِدَة مبينة علىٰ ما قبلها ودعامة لما بعدها.

وهٰذَا الرابع هو الوطنية الإسْلَامِيَّة العادلة، إذ هي التي تحافظ علىٰ الأُسرة بجميع مَكْنُوْناتها وعلىٰ الأُمَّة بجميع مقوماتها، وتحترم الإنسانية في جميع أجناسها وأديانها.

فخاطب الله تعالىٰ البشرية كلها: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ - الإسراء: ٧٠، وخاطبها في جميع أديانها: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ - الكافرون: ٦، وخاطب جميع الأُمَم والأوطان: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾ - الأنفال: ٦١.

قال: وهٰذِهِ هي وطنيتنا معشر المُسْلِمِيْن الجَزَائِرِيِّيْن الأفارقة، ووطنية كل مُسْلِم صَادِق[١].

---

(١) ابن بَادِيْس حياته وآثاره: د. عَمَّار الطَّالِبِيّ ج٣ ص٣٦٦-٣٦٨.

خاتمة:

وأَخِيْراً فإن ابن بَادِيْس منذ أن بدأ حياته العَمَلِيَّة كان حَرْباً شعواء علىٰ فرنسا، التي دمرت الجَزَائِر، واستحوذت علىٰ خَيْرَاتها، وأحالتها قَفْراً يَبَاباً.

ففي سنة ١٩١٣م حين أقام مع الشَّيْخ البشير الإبْرَاهِيْمِيّ بالمَدِيْنَة المُنَوَّرَة ثلاثة أشهر كانت أسمارهما في لياليها، كما قال الشَّيْخ الإبْرَاهِيْمِيّ، تدبيراً للوَسَائِل التي تنهض بها الجَزَائِر، ووضع البرامج المُفَصَّلَة لتلك النهضات الشَّامِلَة[١].

فهو لم يكتف بمناهضة فرنسا والتفكير في حَرْبها عَسْكَرِيّاً، وإنما خَطَّطَ لمحاربتها فكرياً، فاتخذ لذٰلِكَ وسيلتين جَلِيْلَتَيْن، هما:

التَّعْلِيْم الذي ركز عليه في المسجد والمدرسة، والصحافة التي بث فيها أَفْكَاره في أبناء الجَزَائِر خاصة.

وكان يرمي من وراء هاتين الوسيلتين بَيَان الإسْلَام وأَحْكَامه، والحِفَاظ علىٰ اللُّغَة العَرَبِيَّة، والدفاع عن حرية الجَزَائِر، والوقوف بوجه الاستعمار الفرنسي الغاشم، ورفع مستوىٰ المجتمع الجَزَائِرِيّ الثقافي والاجتماعي والاقْتِصَادِيّ.

ورأىٰ أن الإصْلَاح لا بد أن يبدأ بالفرد بإصْلَاح العَقَائِد والأَخْلَاق ومحاربة البدع والخرافات، وهٰذَا سيؤدي إلىٰ إصْلَاح الأُسرة ثم المجتمع كله.

ودعا إلىٰ بناء الشخصية الجَزَائِرِيَّة بالعَوْدَة إلىٰ إسْلَامها، والدعوة إلىٰ الحرية والاستقلال، والحرص علىٰ الوحدة مع الأشقاء العَرَب والمُسْلِمِيْن، وعلىٰ الإخاء مع الشعوب، فالجَزَائِر صديقة فرنسا، لا أن تذوب فيها، أو تساس سِيَاسَة العبيد.

ودعا إلىٰ الأخذ بأسباب الحَضَارَة الحَدِيْثَة، والاستفادة من الغربيين وعُلُوْمهم

(١) الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم: تُرْكِيّ رَابِح ص١٦٩.

التقنية.

وهٰكَذَا استطاع ابن بَادِيْس بعد جِهَاد طَوِيْل مُتَّصِل بنية صَادِقَة، وإنما الأَعْمَال بالنيات، أن يحقق ما عجز عنه الرِّجَال، فأرسىٰ قَوَاعِد الإصْلَاح، وصار الطريق مُعَبَّداً لمن يخلفه.

٥٣٢

الفصل الخامس

السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ

وُلِدَ سنة ١٢٠٢هـ=١٧٨٧م

وتُوُفِّيَ سنة ١٢٧٦هـ=١٨٥٩م

وفيه:

تَمْهِيْد.

المَبْحَث الأول: شخصية السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ.

المَبْحَث الثاني: آراء السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ.

تَمْهِيْد

اتسعت رقعة الدولة العُثْمَانِيَّة، وبلغت أوج عظمتها أيام السُّلْطَان سُلَيْمَان القَانُوْنِيّ الذي دق أبواب فينا بفُتُوْحاته.

لٰكِن دب الضعف في نواحي الدولة المُخْتَلِفَة، في أول القرن التاسع عشر المِيْلَادِيّ.

وتتابع علىٰ البلاد الإسْلَامِيَّة، ومنها بلاد المَغْرِب العَرَبِيّ، ولاةٌ لم يُحسن بعضُهم سِيَاسَة أهلها، لأنه لم يتعرف علىٰ طبيعتهم، لقصر مدة ولايتهم. فطَرَابُلُس الغرب مثلاً تولاها بين سنة ١٨٣٥م، وهي سنة انتهاء حكم القره مانليين، وبين سنة ١٩١١م، وهي سنة هجوم إيطاليا عليها، ثلاثة وثلاثون والياً، حكم ثلاثة منهم مدداً مجموعها ثلاثون سنة، وحكم الباقون بمعدل سنة لكل منهم.

فأدىٰ ذٰلِكَ إلىٰ سوء الأحوال المعيشية فيها، وانتشار الجهل، وظلم الرعية، فقامت ثورتان قادها شُيُوْخ القبائل في طَرَابُلُس، رَدّاً علىٰ تلك السِّيَاسَة.

وقد دعا ضعف البلاد أوروبا إلىٰ تسمية الدولة العُثْمَانِيَّة بالرجل المريض، طمعاً في أراضيها وخَيْرَاتها، فغزا نابليون مِصْر سنة ١٧٩٨م، واحتلت فرنسا الجَزَائِر سنة ١٨٣٠م، واحتلت إنجلترا مَدِيْنَة عَدَن سنة ١٨٣٩م... إلخ[١].

وإحساس المُسْلِمِيْن بسوء أوضاع العالم الإسْلَامِيّ، وتحدي الأوروبيين لهم كان مدعاة لقيام حَرَكَات إصْلَاحِيَّة إسْلَامِيَّة، كان منها الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة، التي أسسها مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ، ذات الأثر الكَبِيْر في نهضة شمال إفْرِيْقِيَّا، التي ستكون

---

(١) الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص٢٠-٢٧.

موضوع بحثنا هٰذَا، والذي تناولتُ فيه ما يأتي:

مؤسس الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: ولادته، ونشأته، ورحلاته، وعَقِبه، وشخصيته والعوامل التي أَثَّرَت فيها، وتلاميذه، وكتبه، وأَفْكَاره.

وعوامل حركته، وعلاقتها بالوَهَّابِيَّة وطريقته في الدعوة، واتخاذ الطريقة الصُّوْفِيَّة والزاوية منطلق عمله، وموقف الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة من الاستعمار الأوروبي والدولة العُثْمَانِيَّة.

وانتهيتُ أَخِيْراً إِلىٰ بَيَان طابع الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة، وماذا تميزت به.

المَبْحَث الأول

شخصية السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ

نسبه:

هو مُحَمَّد بن عَلِيّ بن السَّنُوْسِيّ بن العَرَبِيّ بن مُحَمَّد السَّنُوْسِيّ الخَطَّابِيّ الحَسَنِيّ الإِدْرِيْسِيّ(١).

ولقب (السَّنُوْسِيّ) جاءه من جده (السَّنُوْسِيّ بن العَرَبِيّ) الإمَام حين رحل إلىٰ تِلِمْسَان، ونزل علىٰ قبيلة بني سَنُوْسِيّ، التي نزلت بجبل يسمىٰ (سَنُوْس) بالجَزَائِر(٢).

و(الخَطَّابِيّ) نسبة إلىٰ جده السابع خَطَّاب بن عَلِيّ بن يَحْيَىٰ.

و(الحَسَنِيّ) نسبة إلىٰ الحسن بن عَلِيّ بن أبي طَالِب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٣).

و(الإِدْرِيْسِيّ) نسبة إلىٰ الأدارسة الذين أسس جدهم إِدْرِيْس الأكبر دولة في

---

(١) إِيْقَاظ الوَسْنَان ص٧، واسمه وألقابه الأربعة في صدر عدد من كتبه، ورَسَائِله.

وانظر: الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص٣٥ وفي ص٢٨٩-٢٩٤ بعض رَسَائِله ورَسَائِل المَهْدِيّ. والثِّمَار الزَّكِيَّة للحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة ص٢٠.

(٢) الفكر الإِسْلَامِيّ في تطوره: د. مُحَمَّد البَهِيّ ص٨٥.

وانظر: الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص٣٦ عن الأَنْوَار القُدْسِيَّة لحَفِيْده أَحْمَد الشَّرِيْف.

(٣) إِيْقَاظ الوَسْنَان ص٧. والفكر الإِسْلَامِيّ في تطوره ص٨٥.

وذكر الأَمِيْر شَكِيْب أَرْسْلَان نَسَبَهُ، وقال: إنه اطلع علىٰ نسبه، فوجده ينتهي إلىٰ عَلِيّ وفَاطِمَة. / انظر تَعْلِيْقه علىٰ: حَاضِر العَالَم الإِسْلَامِيّ ج٢ ص١٤٠.

المَغْرِب الأقصىٰ سنة ١١٧٢هـ[١].

ولادته:

ولد السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ في مَحَلَّة الواسطة قرب مستغانم بالجَزَائِر[٢]، من قبيلة مجاهر[٣]، من أُسرة موسرة[٤]، وعائلته لا زالت تعرف بالجَزَائِر حتىٰ الآن بعائلة الأطرش[٥].

وكانت ولادته يوم الإثنين ١٢ رَبِيْع الأول ١٢٠٢هـ، الموافق ٢٢ ديسمبر - كانون الأول ١٧٨٧م.

قال السَّيِّد السَّنُوْسِيّ: (ولذٰلِكَ سَمَّتْنِي أُمِّي مُحَمَّداً)، يريد أن يوم ولادته كان الإثنين ١٢ من رَبِيْع الأول، وهو موافق لمِيْلَاد النَّبِيّ ﷺ.

وتَارِيْخ مِيْلَاده هٰذَا هو الذي اتفق عليه الذين عاصروه، والذين رافقوه من أبناء أُسرته، وهو المعتمد، فلا ينظر إلىٰ ما سواه[٦].

---

(١) الفكر الإسْلَامِيّ في تطوره ص٨٥. والحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص٣٦.

(٢) تَعْلِيْق شَكِيْب أَرْسَلَان علىٰ: الإسْلَام في إفْرِيْقِيَّا: بونه موري - حَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ ج٢ ص٣٩٩. والفكر الإسْلَامِيّ في تطوره ص٨٥. والثِّمَار الزَّكِيَّة للحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة ص٢٠.

(٣) تَعْلِيْق شَكِيْب أَرْسَلَان علىٰ: حَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ ج٢ ص١٤٠.

(٤) مجالي الإسْلَام: بَامَّات ص٤٩٠.

(٥) الفكر الإسْلَامِيّ في تطوره ص٨٥.

(٦) الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص٣٧-٣٨ وفيه من ذكر هٰذَا التَّارِيْخ ومخالفه. وأشار إلىٰ كلام الشَّيْخ الظَّاهِرِيّ في كتاب المَنْهَل العذب، وأَحْمَد الشَّرِيْف في مخطوط الكَوْكَب الزاهر.

وانظر: إيْقَاظ الوَسْنَان ص٧.

نشأته ورحلاته:

عندما توفي والده، وكان صالحاً، كان عُمْر ابنه مُحَمَّد حوالي السنتين، فتولت عمته فَاطِمَة تربيته وتَعْلِيْمه، وكانت عالمة مُنْقَطِعَة للتدريس.

وبعد وفاتها سنة ١٢١٢هـ. كفله ابن عمه (الشارف)، وكان عالماً متصوفاً، ودرس عليه وعلىٰ شُيُوْخ مستغانم ومازونه، كالشَّيْخ عَبْد القَادِر بن عمور، والشَّيْخ مُحَمَّد بن عَبْد القَادِر، والشَّيْخ مُحَمَّد بن القندوز، القُرْآن الكَرِيْم والحَدِيْث الشَّرِيْف والفِقْه والتَّصَوُّف والعَرَبِيَّة.

وأقبل علىٰ العلم بشغف كَبِيْر، وكان للفروسية وركوب الخيل شطر يومه[1].

ثم سافر إلىٰ فاس في حدود سنة ١٢٢٠هـ، لإتمام تَحْصِيْله العِلْمِيّ في جَامِع القَرَوِيِّيْن محط رحال العُلَمَاء، فأخذ عن أكابر عُلَمَاء المَغْرِب، منهم:

سَيِّدِي مُحَمَّد بن الطاهر الفيلالي الشَّرِيْف العَلَوِيّ، مُخْتَصَر السَّعْد، وجَمْع الجَوَامِع، والسُّلَّم، وجُمْلَة من مُخْتَصَر خَلِيْل.

وقرأ علىٰ أبي المَوَاهِب سَيِّدِي أبو بَكْر بن زِيَاد الإدْرِيْسِيّ، الفرائض، والحساب، والجبر، والهَنْدَسَة، والجغرافية، والإصطرلاب... إلخ.

ورَوَىٰ عن الحافظ ابن كيران والعلامة الزروالي وابن الشقرون بأسانيدهم.

ودرس الفِقْه المَالِكِيّ علىٰ كبار العُلَمَاء، مثل: مُحَمَّد المَعْدَانِيّ، ومُحَمَّد النَّاصِرِيّ.

(١) الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص٣٨-٣٩.

وانظر: الفكر الإسْلَامِيّ في تطوره ص٨٥. وإيْقَاظ الوَسْنَان ص٧. والثِّمَار الزَّكِيَّة للحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة ص٢٠.

ودرس مُوَطَّأ مَالِك علىٰ طريقة المغاربة والمَشَارِقَة.

ومن شُيُوْخه في فاس أَيْضاً: سَيِّدِي العَرَبِيّ بن أَحْمَد الدرقاوي من شُيُوْخ الطريقة الشَّاذِلِيَّة، والشَّيْخ إِدْرِيْس بن زيان العِرَاقِيّ... .

وفي فاس تعرف علىٰ الطرق الصُّوْفِيَّة الكثيرة هناك، كالقَادِرِيَّة، والشَّاذِلِيَّة، والدرقاوية.

والتقىٰ بشَيْخ الطريقة التِّيْجَانِيَّة، ومؤسسها أَحْمَد بن مُحَمَّد التِّيْجَانِيّ الذي عاش بين سنتي ١٧٣٧-١٨١٤م، وأخذ عنه الطريقة التي يرجع إليها الفَضْل في نشر الإِسْلَام في إِفْرِيْقِيَّا الغربية، وكان حريصاً علىٰ زيارة الزواية والاجتماع بأهلها.

وحصل علىٰ المَشْيَخَة الكُبْرَىٰ، وعُيِّنَ مُدَرِّساً بالجَامِع الكَبِيْر بفاس، فكان الواعظ والداعية والمعلم. فاستطاع أن يكسب ثِقَة الناس.

وغادر فاس سنة ١٢٣٥هـ متجهاً إِلىٰ مَكَّة المُكَرَّمَة، آخذاً بنصيحة أُسْتَاذه: (إن الارتحال المستمر صعب، فإذا أردت أن تَسْتَزِيْد من العلم، فما عليك إلَّا بالسفر إلىٰ مَكَّة، حيث يَلْتَقِي جميع عُلَمَاء المُسْلِمِيْن)، لا سِيَّمَا وأن شوقه إلىٰ بيت الله كَبِيْر لقَضَاء فريضة الحج.

ولعل تشديد سُلْطَان مُرَّاكُش مولاي سُلَيْمَان في مراقبته، خشية التفاف الناس حوله، كان أحد الدواعي إلىٰ مغادرته فاس.

فعاد إلىٰ مستغانم، وكان فيها زواجه الأول الذي لم يستمر، مع أنه أثمر طفلاً.

وبلغ قَسَنْطِيْنَة، وبنىٰ فيها زاوية، وفي صحراء الجَزَائِر تَعَرَّفَ علىٰ أشهر الزوايا، ودَرَّسَ فيها.

وغادر الجَزَائِر إلىٰ تُوْنُس، ثم إلىٰ طَرَابُلُس، إذ مر بها سنة ١٢٣٨هـ، فبنغازي...، حتىٰ بلغ القَاهِرَة حوالي سنة ١٢٣٩هـ=١٨٢٤م أيام مُحَمَّد عَلِيّ باشا، وشرع يأخذ عن

عُلَمَاء الأَزْهَر كالعَطَّار، والأَمِيْر، والتُّوْنُسِيّ، والصَّاوِيّ، وغيرهم.

ولما اكتفىٰ من أخذ دروسه عنهم قام بالتدريس في الأَزْهَر، لا سِيَّمَا وأنه دَرَّسَ في جَامِع القَرَوِيِّيْن المناظر للأَزْهَر، فلفت الأَنْظَار إليه بتقواه وصُوْفِيَّته وجرأته في معالجة المَسَائِل الفِقْهِيَّة، وكان ذٰلِكَ سبب ما أَثِيْر من مشاكل بينه وبين بعض عُلَمَاء الأَزْهَر[1].

ثم غادر القَاهِرَة بعد أن أقام فيها عاماً وَاحِداً إلىٰ الحِجَاز، فبلغ مَكَّة المُكَرَّمَة سنة ١٢٤٠هـ=١٨٢٥م، وكان إبْرَاهِيْم باشا بن مُحَمَّد عَلِيّ يحكمها عَسْكَرِيّاً بعد قضائه علىٰ الحَرَكَة الوَهَّابِيَّة.

فَتَعَرَّفَ السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ علىٰ أوضاع الحِجَاز، وعلىٰ اتجاهات العُلَمَاء الصُّوْفِيَّة والسَّلَفِيَّة الوَهَّابِيَّة.

وأخذ عن عَبْد الحَفِيْظ العجيمي مفتي مَكَّة وقَاضِيها، وعُمَر العَطَّار، وأخذ عن أَحْمَد بن مُحَمَّد الدَّجَانِيّ عدداً من الطرق الصُّوْفِيَّة.

وكان صاحب الأثر الكَبِيْر عليه شَيْخه أَحْمَد بن إدْرِيْس، المُلَقَّب بأبي العَبَّاس العرائشي، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٢٥٣هـ، الذي جمع بين الاتجاهين السَّلَفِيّ والصُّوْفِيّ، ورَأَسَ الطريقة القَادِرِيَّة والخضيرية ثلاثاً وثلاثين سنة، وأوجد الطريقة الإدْرِيْسِيَّة، وهو من

---

(١) ذكر الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه في معرض كلامه علىٰ الخصومة بين أهل التقليد والاجْتِهَاد، أن الشَّيْخ السَّنُوْسِيّ لما كتب كتاباً في أُصُوْل الفِقْه، وزاد فيه بعض المَسَائِل علىٰ أُصُوْل المَالِكِيَّة، وجاء في كتاب له ما يَدُلّ علىٰ دعواه، أنه ممن يفهم الأَحْكَام عن الكِتَاب والسُّنَّة مباشرة، وقد يرىٰ ما يخالف رأي مجتهد، ثار عليه الشَّيْخ مُحَمَّد عُلَيْش فقيه المَالِكِيَّة بالأَزْهَر، لأنه خرق حرمة الدِّيْن.

الإسْلَام والنَّصْرَانِيَّة: مُحَمَّد عَبْدُه ص٩٥. وفتوىٰ الشَّيْخ عُلَيْش ونحوها فتوىٰ الشَّيْخ مُصْطَفَىٰ البُوْلَاقِيّ في: فَتْح العَلِيّ المَالِك للشَّيْخ عُلَيْش ج١ ص٨٩-١١١.

وعلق شَكِيْب أَرْسَلَان في: حَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ ج٢ ص٣٩٩ علىٰ ذٰلِكَ: بأن الشَّيْخ عُلَيْش بلغته أشياء لم يقف علىٰ حقيقتها، وقيل لما فهم الأمر رجع عنها.

شُيُوْخ الشَّاذِلِيَّة.

وكان ابن إدْرِيْس قد قال لمُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ: أنت نحن، ونحن أنت. وذٰلِكَ في اليوم الخامس عشر من أخذه عنه. وكان يحذر مريديه من كل ما يقطعهم عن صحبته.

وأخذ السَّيِّد السَّنُوْسِيّ عدداً من الطرق الصُّوْفِيَّة عن ابن إدْرِيْس، ودَرَسَ عليه الحَدِيْث، وكان يأخذ الإذن منه لإعْطَاء العهود وتَلْقِيْن الذكر.

فباشر بالدعوة في حياة شَيْخه ابن إدْرِيْس، فبنىٰ أول زاوية له في الحِجَاز علىٰ جبل (أبي قُبَيْس) بمَكَّة المُكَرَّمَة، واجتمع حوله عدد كَبِيْر من أهل طَرَابُلُس الغرب والحِجَاز للدرس والعِبَادَة ودعوة الناس وبناء الزوايا والمساجد.

وزَوَّجَهُ ابن إدْرِيْس من خديجة الحَبَشِيَّة، ولم يعش له أولاد منها، وتنقلت معه، وتوفيت في الجَغْبُوْب بعده سنة ١٢٩٦هـ.

وارتحل أُسْتَاذه ابن إدْرِيْس إلىٰ (صَبْيَا)[١]، ابتعاداً عن السلطة. ورَمْيُ عُلَمَاء مَكَّة له بالابتداع، لتأثره بالدعوة الوَهَّابِيَّة.

وتبع السَّيِّد السَّنُوْسِيّ أُسْتَاذه إلىٰ (صَبْيَا)، وأقام معه إلىٰ حين وفاته.

ثم غادر مَكَّة إلىٰ بلاد المَغْرِب آخر يوم سنة ١٢٥٥هـ لرؤية ولده وزيارة بلده الجَزَائِر، وربما تكون هناك أسباب أُخْرَىٰ تعود إلىٰ عداء الدولة العُثْمَانِيَّة وشُيُوْخ مَكَّة للوَهَّابِيِّيْن. وقد اكتملت له طريقته الصُّوْفِيَّة التي صار يلقنها أصحابه، وله اجْتِهَاده الخاص في الفِقْه المَالِكِيّ، وسلك طريق السَّلَفِيَّة، وأصبح يعتمد الكِتَاب والسُّنَّة، ولا يَتَقَيَّد بالمَذَاهِب مع احترامه لها.

---

(١) صَبْيَا: من قرىٰ عُشَر من ناحية اليَمَن. / مُعْجَم البُلْدَان ليَاقُوْت. وفي الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص٧٢ (صَبْيَا العَسِيْر) نَقْلاً عن: السَّنُوْسِيَّة دين ودولة لشكري.

وصار أكثر أتباع ابن إدْرِيْس بعد وفاته تَابِعِيْه.

فخرج السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ من مَكَّة المُكَرَّمَة إلىٰ المَدِيْنَة المُنَوَّرَة، فنزل يَنْبُع، فأركب بعضَ أصحابه البَحْر إلىٰ قابس، واختار هو وأصحابه الآخرون طريق البر، ليدعو الناس ويتعرف علىٰ أحوالهم، فدخل مِصْر، ثم سيوه، ومكث فيها تسعة أشهر، وضع فيها بذور الدعوة السَّنُوْسِيَّة، ثم طَرَابُلُس، ثم قابس. ثم عاد إلىٰ طَرَابُلُس أوائل سنة ١٢٥٧هـ، لأن الفرنسيين حاولوا الغدر به حين رأوا انتشار دعوته وخطورتها[١].

ورأىٰ القطر الطَّرَابُلُسِيّ أكثر استعداداً من غيره لقبول دعوته، فأسس طريقته في طَرَابُلُس، وانتشرت فيها وفي بَرْقَة[٢].

واتخذ بَرْقَة لأمرين: اجتماعي وسياسي:

أما الاجتماعي: فكان من أثر الضعف في البلاد، وتفشي الجهل بين القبائل، وضياع نفوذ الحكومة فيها، وانصرافها عن الدِّيْن، فلم يهمها شيء سوىٰ السلب والنهب وقطع الطريق، فهم بحاجة إلىٰ مرشد ديني.

وأما السياسي: فإن موقع بَرْقَة المتوسط بين الأقطار ونظامها الدقيق هما وسيلة إنشاء الإمارة[٣].

وكان السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ يعمل ضد الاحتلال الفرنسي، حتىٰ قال دوفرييه: (إن السَّنُوْسِيَّة هي المسؤولة عن جميع أَعْمَال المقاومة التي قامت ضد فرنسا في الجَزَائِر، وإنها السبب في الثورات المُخْتَلِفَة ضد فرنسا، كثورة مُحَمَّد بن عَبْد الله في

---

(١) الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص٤٣-٧٧.

وانظر: الفكر الإسْلَامِيّ في تطوره ص٨٦-٨٨. وإيْقَاظ الوَسْنَان ص٨.

(٢) تَعْلِيْق شَكِيْب أَرْسَلَان علىٰ: حَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ ج٢ ص١٤٠.

(٣) الاجتماع الدِّيْنِيّ: الخَشَّاب ص٣٧٠.

تِلِمْسَان وصحراء الجَزَائِر سنة ١٨٤٨-١٨٦١م، وعصيان مُحَمَّد بن تكوك في الظهرا سنة ١٨٥١م).

ثم ارتحل إلىٰ البيضاء في أعلىٰ الجبل الأخضر، حيث يوجد قبر الصَّحَابِي رَافِع الأَنْصَارِيّ، فَأَسَّسَ أول زاوية له بعد زاوية الحِجَاز، أطلق عليها (أُمّ الزوايا)، وموقعها متميز بسهولة الدفاع عنه وصعوبة الوُصُوْل إليه. وتابع بعدها بناء الزوايا والتعرف علىٰ القبائل.

وفي البيضاء تزوج الشَّيْخ مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ الزوجة الثالثة سنة ١٢٥٩هـ، وجاءه الولد الأول منها سنة ١٢٦٠هـ=١٨٤٤م، وأسماه (مُحَمَّد المَهْدِيّ)، وجاءه الولد الثاني منها سنة ١٢٦٢هـ فأسماه (مُحَمَّد الشَّرِيْف).

ثم غادر بَرْقَة بعد أن أمضىٰ بها ست سنوات قَاصِداً الحِجَاز، وخلف وراءه تلاميذه يدعون القبائل، فأقام بالحِجَاز ثَمَانِي سنوات، وتابع نشر دعوته، وبنىٰ الزوايا في الطَّائِف وجَدَّة ويَنْبُع وغيرها، وطبع بعض الكتب التي ألفها لطلبة الزوايا.

وفي السنة الخامسة من إقامته بالحِجَاز أي سنة ١٢٦٧هـ تزوج زوجته الرابعة والأَخِيْرَة، ورزق بولد مات صَغِيْراً، ولم يفارقها حتىٰ مات.

وفي السنة الأَخِيْرَة من إقامته بالحِجَاز، أي: سنة ١٢٧١هـ، عزم علىٰ الذهاب إلىٰ بَيْت المَقْدِس، ولٰكِن أهل بَرْقَة أصروا علىٰ اصطحابه معهم إلىٰ الجبل الأخضر ببَرْقَة، فترك ولديه بمَكَّة، وسافر إلىٰ مِصْر، وحاول عَبَّاس باشا التقرب منه فأبىٰ، لأنه كان يكره الصِّلَة بالحُكَّام كما ذكر حَفِيْده الملك إدْرِيْس، ثم وصل الجبل الأخضر وأقام في العزيات سنتين، وأَشْرَف علىٰ تنظيم الزوايا(١).

ولما شعر بدنو استيلاء الأجانب علىٰ البلاد، ورغبة منه في نشر دعوته بين وثنيي

(١) الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص٧٩-٩٩.

إفْرِيْقِيًّا، رأىٰ أن يوغل في الصحراء. فتحول إلىٰ الجَغْبُوْب، وهي واحة تبعد ١٦٠ كم عن البَحْر المتوسط، غير مأهولة، تقع في واد تحيط به الجبال، وموقعها حصين، فصار يشرف بنفسه علىٰ بناء المسجد والمدرسة ومسكنه، وأحاط بها مساكن المُعَلِّمِيْن والطُّلَّاب والعُمَّال وغرف الضيوف والمطابخ والأفران والآبار وصهاريج الماء والمعاصر، فتحولت، كما قال أَرْسَلَان، من واحة مالحة يأوي إليها الدُّعَّار واللصوص، ولا تجسر القوافل أن تمر بها من جراء العيث في أنحائها، إلىٰ مهد أمان، ومركز عِبَادَة، ومشرق أَنْوَار، ومَعْلَم هِدَايَة، فغرس فيها الأشجار، ونسق الجِنَان، واستنبط العُيُوْن، وتوسع في البناء، وأَسَّسَ مدرسة لتَخْرِيْج مريدي الطريقة، أجلس للتدريس فيها جلة العُلَمَاء. وغدت جَغْبُوْب بلدة تامة في عظمها واتساعها وعدد سكانها[1].

فكانت زاوية جَغْبُوْب أشهر الزوايا، وأصبحت مركزاً لتَعْلِيْم الطريقة وتَخْرِيْج الدعاة. وبذل الشَّيْخ جهده العَظِيْم في التَّعْلِيْم والإِرْشَاد، فتخرج فيها حُفَّاظ القُرْآن والفُقَهَاء والأساتذة والمُرْشِدُون، استنارت بهم ليبيا كلها.

وأَسَّسَ السَّيِّد فيها مَكْتَبَة عَظِيْمَة، ضمت حوالي ثَمَانِيَة آلاف مجلد بين مخطوط ومطبوع، استجلبها الإمَام من البلاد المُخْتَلِفَة التي نزل فيها.

لٰكِن ضاع جل هٰذِهِ الكتب في الاحتلال الإيطالي[2].

واستقدم السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ ولده مُحَمَّد المَهْدِيّ من الحِجَاز

---

(١) الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص١٠٣-١١٥. وتَعْلِيْق شَكِيْب أَرْسَلَان علىٰ: حَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ ج٢ ص١٤١.

(٢) الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص١١٥-١١٦. وأَعْلَام ليبيا: الزاوي ص٢٨٩.

ويلاحظ أن السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ بنىٰ زاوية جَغْبُوْب سنة ١٢٧٢هـ=١٨٥٦م. / نشأة الحَرَكَة العَرَبِيَّة الحَدِيْثَة: دروزة ص٧٦.

وانتقل إليها في صفر سنة ١٢٧٣هـ. / أَعْلَام ليبيا: الزاوي ص٢٨٩.

حيث كان يتلقىٰ العلم، فوصل الجَغْبُوْب في سنة ١٢٧٤هـ، وكان يعقد عليه آماله في حمل الدعوة بعده، وظهرت في تلك الفترة أقوال في مهدويته، نسب أكثرها إلىٰ السَّيِّد السَّنُوْسِيّ(١)، لٰكِن المَهْدِيّ رفضها(٢).

ثم أرسل السَّيِّد إلىٰ ابنه الثاني مُحَمَّد الشَّرِيْف من الحِجَاز حيث كان مع أخيه، فوصل الجَغْبُوْب سنة ١٢٧٥هـ(٣).

وفي هٰذَا العام ١٢٧٥هـ=١٨٥٨م زَوَّجَ ابنه المَهْدِيَّ بفَاطِمَة بنت عِمْرَان بن بَرَكَة، وأنجبت له عدة أولاد، وتوفيت سنة ١٨٩١م، والمَهْدِيّ لا زال حَيّاً(٤).

وتزوج مُحَمَّد بن الشَّرِيْف بالبنت الثانية لعِمْرَان بن بَرَكَة، فأنجبت المُجَاهِد الإِسْلَامِيّ الكَبِيْر أَحْمَد الشَّرِيْف(٥).

وفاته:

اشتد علىٰ السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ المرض، فتوفي بعد طلوع شمس الأربعاء ٩ صفر ١٢٧٦هـ، ٧ سبتمبر ١٨٥٩م، ودفن في زاوية الجَغْبُوْب.

وقبل دفنه خطب عِمْرَان بن بَرَكَة في المسجد يوم الخميس، فرثىٰ فيها الشَّيْخ،

(١) الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص١٢٠.

(٢) الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص١٨١-١٨٧ وفيها الكلام عن مَهْدِيّته، واعْتِقَاد الناس بها، ورفضه إياها.

(٣) الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص١٢٢-١٢٣.

(٤) الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص١٧٣.

وانظر تفصيل رحلات السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ بإسهاب، في: الثِّمَار الزَّكِيَّة للحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة ص٢١ وما بعدها.

(٥) الثِّمَار الزَّكِيَّة للحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة ص٦٠.

وذكر وصيته بالاشتغال بكتاب الله وسُنَّة رَسُوْله ﷺ وآله وأصحابه، والعَمَل بها في الجَلِيْل والحقير، والقليل والكثير، وملازمة التقوىٰ والديانة، والمثابرة علىٰ العِبَادَة، وحفظ المروءة والصيانة، والإخلاص في كل الأَعْمَال، والتجافي عن اتباع الهوىٰ وسَيِّئ الخصال.

ودعا للسَّيِّد السَّنُوْسِيّ، ودعا أن يجعل الله تعالىٰ تأييد الدِّيْن وتمامه علىٰ لِسَان ويد نجله الطاهر وفرعه الزاهر وَارِثه الماهر السَّيِّد مُحَمَّد المَهْدِيّ، وصِنْوه الشَّرِيْف وشقيقه السَّيِّد مُحَمَّد الشَّرِيْف، ويجبر بهما صدع الدِّيْن، ويلم بهما شعث المُسْلِمِيْن، ويصلح بهما أفئدة الأتباع والمريدين[1].

عَقِبُهُ:

وبويع مُحَمَّد المَهْدِيّ، وعُمْره عند وفاة والده ست عشرة سنة، رئيساً للسَّنُوْسِيِّيْن بالإجماع. وتَوَلَّىٰ تدريسه عِمْرَان بن بَرَكَة وأَحْمَد الريفي، ولهما الدور الواضح في تنشئته وتسيير الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة[2].

واستقر المَهْدِيّ في الجَغْبُوْب حوالي ستاً وثلاثين سنة، من سنة ١٢٧٦هـ=١٨٥٩م إلىٰ سنة ١٣١٢هـ=١٨٩٥م[3]، وجه فيها المَهْدِيّ جل اهتمامه لتعلم الفروسية والرماية والتهيؤ للجِهَاد، وبناء الزوايا، ونشر التَّعْلِيْم، وتربية الأفراد[4].

---

(١) الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص١٢٤-١٢٧. والثِّمَار الزَّكِيَّة للحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة ص١٣١.
وانظر تَارِيْخ وفاته في: إِيْقَاظ الوَسْنَان ص٩. والفكر الإِسْلَامِيّ في تطوره ص٨٥. وأَعْلَام ليبيا: الزاوي ص٢٩٠. وشَجَرَة النّور الزَّكِيَّة ص٤٠٠. وهَدِيَّة العَارِفِيْن ج٢ ص٤٠٠.

(٢) الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص١٧٣-١٧٤.

(٣) الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص١٧٩.

(٤) الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص١٩٣.

ووصلت الدعوة في ظل المَهْدِيّ ذروتها انتشاراً وكثرة أتباع وقوة، فشملت بلاد كوروتيستي ويرنوواندي ودارفور ووادي وكائم وازخر ويغرىٰ والقسم الأكبر من صحراء ليبيا، وصار الحَاكِم الروحي والزمني معاً علىٰ هٰذِهِ البلاد التي سماها بعض الغربيين بالإمبراطورية السَّنُوْسِيَّة(١).

ثم تحول المَهْدِيّ من الجَغْبُوْب في ٢٢ شَوَّال ١٣١٢هـ، الموافق ١٨ أبريل ١٨٩٥م متجهاً إلىٰ الكُفْرَة(٢)، التي تبعد نحو سبعمائة كيلو متر من البَحْر المتوسط إلىٰ الجنوب(٣)، وذٰلِكَ: لاستقرار الإنجليز في مِصْر، ولتوقعه الحَرْب مع الطليان، ولأن مؤامرات الأوربيين للقبض عليه مستمرة، وابتعاداً عن ولاة الدولة العُثْمَانِيَّة، وعن أَنْظَار الدول الاستعمارية، ليَتَمَكَّن من تجهيز قومه وإعدادهم عَسْكَرِيّاً، ونشر دعوته في أقوام الصحراء والوثنيين، وعِمْرَان البلاد، لذٰلِكَ اختار الكُفْرَة، وهي بعيدة وعَزِيْزَة المنال(٤).

لذٰلِكَ نظم حياة الأهالي فيها، ونشر السَّلَام بين قبيلتيها زوية والتبو، وعَمَّرَ الزوايا، ونشط التجارة، وحفر الآبار علىٰ طول خطوط القوافل، فعم الرخاء، وبنىٰ زاويته العَظِيْمَة التي اتخذها مقر عمله، وهي زواية (التَّاج).

وفي هٰذِهِ الفترة توفي أُسْتَاذه عِمْرَان بن بَرَكَة منتصف سنة ١٣١١هـ، ووالدته في آخرها، وتوفي شقيقه وعَضُده مُحَمَّد الشَّرِيْف سنة ١٣١٣هـ.

وأقام المَهْدِيّ بالكُفْرَة أربع سنوات ونصف، انتقل بعدها سنة ١٣١٧هـ إلىٰ قرو في

(١) نشأة الحَرَكَة العَرَبِيَّة الحَدِيْثَة ص٧٦.
(٢) الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص٢١٥.
(٣) الفكر الإِسْلَامِيّ في تطوره ص٨٨.
(٤) تَعْلِيْق شَكِيْب أَرْسْلَان علىٰ: حَاضِر العَالَم الإِسْلَامِيّ ج٢ ص١٤٣. والحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص٢١٥.

الصحراء الإفْرِيْقِيَّة في السُّوْدَان الأَوْسط، فصارت مركزاً لحركته حتىٰ وفاته. واستطاع مقاومة الفرنسيين الزاحفين نحو بُحَيْرَة تشاد، وأحرز السَّنُوْسِيُّون بعض الانتصارات، إِلَّا أن الفرنسيين تغلبوا بأسلحتهم الحَدِيْثَة، وانهزم شَيْخ الزاوية مُحَمَّد البراني في معركة دامية أول سنة ١٩٠٢م.

وأثناء هٰذِهِ الاشتباكات اشتد المرض علىٰ المَهْدِيّ، وتوفي في الأحد ٢٤ صفر ١٣٢٠هـ، الموافق ٢ يونيو ١٩٠٢م في زاوية قرو. واقترح أَحْمَد الريفي نقل جثمانه إلىٰ الكُفْرَة، فدفن في زاوية (التَّاج)، بعد جِهَاد طَوِيْل، مُتَقَيِّداً بخطىٰ أبيه وطريقته.

فصارت رئاسة الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة إلىٰ أَحْمَد الشَّرِيْف ابن أخيه مُحَمَّد الشَّرِيْف، ووجه رِسَالَة إلىٰ شُيُوْخ الزوايا نعىٰ فيه عمه المَهْدِيّ[١].

فقاد الجِهَاد ضد الفرنسيين، ثم الإيطاليين حينما احتلوا ليبيا سنة ١٣٣٠هـ=١٩١٢م[٢]، ولولاه لم يكن أنور باشا ولا غيره من أبطال الدفاع عن بر طَرَابُلُس أن يعملوا شَيْئاً[٣].

ثم تخلىٰ عن الزعامة للسَّيِّد مُحَمَّد إِدْرِيْس ابن عمه المَهْدِيّ حينما رشد، فقاد الجِهَاد ضد الطليان، وأبلىٰ السَّنُوْسِيُّون بلاءً شديداً في جِهَادهم[٤].

وقد قدم الجنرال الإيطالي غرازياني في كتابه عن السَّلَام ببَرْقَة، فكرة عن الإيمان المَتِيْن والثبات اللذين نفخت بهما المنظمة مع المثابرة، في الأهلين الذين استطاعت أن تضمن لنفسها قيادتهم الروحية.

ويَرْوِي هٰذَا الجنرال الذي اشتهر بفظاعته المتناهية كيف حوصر السَّنُوْسِيُّون بقيادة

---

(١) الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص٢٢٠-٢٣٢.
(٢) نشأة الحَرَكَة العَرَبِيَّة الحَدِيْثَة ص٧٧.
(٣) تَعْلِيْق شَكِيْب أَرْسْلَان علىٰ: حَاضِر العَالَم الإِسْلَامِيّ ج٢ ص١٤٤.
(٤) نشأة الحَرَكَة العَرَبِيَّة الحَدِيْثَة ص٧٧.

زعيمهم عُمَر المُخْتَار وكيف أُسِرُوا، حيث جيء بعُمَر أمام الجنرال فسأله: لم حاربت إيطالية بمثل هٰذَا العناد؟ قال: فعلت هٰذَا في سَبِيْل ديني. فقال: أو كنت تأمل طردنا من بَرْقَة بمعركة تخوض غمارها بمثل هٰذَا العدد القليل من الرِّجَال والعتاد؟ فقال عُمَر: كلا. فسأله الجنرال: ولٰكِن ما تأمل أن تنال؟ فقال: لا شيء، وإنما كنت أحارب في سَبِيْل ديني، وهٰذَا يكفيني، وأما ما بقي فأمره بيد الله[1].

فاتَّصَل الإمَام مُحَمَّد إدْرِيْس بالإنجليز، واتفق معهم علىٰ أن يحارب ضد الطليان مقابل اعترافهم باستقلال ليبيا بزعامته بعد الحَرْب.

فأبلىٰ السَّنُوْسِيُّون في الحَرْب بلاءً عَظِيْماً، وانفصل آلاف المجندين في جيش إيطاليا، وانحازوا إلىٰ المُجَاهِدِيْن، فكان ذٰلِكَ من أسباب انهيار مقاومة الإيطاليين والألمان في شمال إفْرِيْقِيَّا.

وبعد توقف الحَرْب طالب الامام بإنجاز الوعد، وناصرتهم الدول العَرَبِيَّة والإسْلَامِيَّة في نطاق هيئة الأُمَم.

ورغم محاولة الإنجليز في إبْقَاء ليبيا تحت استعمارهم، تقرر إعْلَان ليبيا دولة مستقلة

---

(١) مجالي الإسْلَام ص٤٩٤. وتفصيل الكلام عن السَّيِّد مُحَمَّد المَهْدِيّ، وأَحْمَد الشَّرِيْف، ومُحَمَّد إدْرِيْس، وعُمَر المُخْتَار، في: الثِّمَار الزَّكِيَّة للحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة ص١٣٥ وما بعدها.

عُمَر المُخْتَار: هو عُمَر بن مُخْتَار بن عُمَر المِنفِي. ولد سنة ١٢٧٥هـ=١٨٥٨م. أشهر مُجَاهِدِي طَرَابُلُس الغرب في حَرْبهم مع إيطاليا. تعلم في الزاوية السَّنُوْسِيَّة في جَغْبُوْب، وأقامه مُحَمَّد المَهْدِيّ شَيْخاً علىٰ زاوية القصور بالجبل الأخضر، ثم زاوية كلك إلىٰ سنة ١٣٢١هـ، ثم عاد إلىٰ مَشْيَخَة زاوية القصور، فأقام إلىٰ أن احتل الطليان بنغازي سنة ١٣٢٩هـ، وتولىٰ عُمَر المُخْتَار قيادة القبائل بالجبل الأخضر في معارك ضارية، عَدَّدَهَا غرازياني ٢٦٣ معركة خلال عشرين شهراً، عدا ما خاضه المُخْتَار في عشرين سنة قبلها. وأَخِيْراً قُبِضَ عليه، وشُنِقَ في مركز سلوق ببنغازي سنة ١٣٥٠هـ=١٩٣١م.

الأَعْلَام: الزِّرِكْلِيّ ج٥ ص٦٥. وأَعْلَام ليبيا: الزاوي ص٢٣٦.

ذات سيادة آخر سنة ١٩٥١م، ثم أُعلن تتويج مُحَمَّد إدْرِيْس ملكاً.

وظل يعكر هٰذَا الجَوَّ العَرَبِيّ الوجودُ العَسْكَرِيّ الفرنسي والإنجليزي والأمريكي في بعض أنحاء المَمْلَكَة استمراراً له قبل الاستقلال، وأمكن إزالة الوجود الفرنسي مُبَكِّراً.

وفي أيلول سنة ١٩٦٩م أطاح الضباط اللِّيْبِيُّون بحكم الملك، فتم جلاء الإنجليز والأمريكان آخر مارس سنة ١٩٧٠م[١].

شخصيته:

نَعَتَ مؤرخو السَّنُوْسِيَّة السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ بكل ما هو رفيع الشأن، فقال فيه الشَّيْخ مخلوف: (الشهير الذكر، الرفيع القدر، شَيْخ الإسْلَام والمُسْلِمِيْن، وَارِث عُلُوْم سيد الأولين والآخرين، الفَقِيْه الحافظ، العالم العامل، المُحَدِّث الجَامِع، الوَلِيّ المقرب الواصل، شهرته شرقاً وغرباً تغني عن التعريف به، له صيت عَظِيْم في الجهات، وذكر جميل وكَرَامَات، مَتِيْن الدِّيْن)[٢].

وقال مُحَمَّد الطَّيِّب: (كان ذا شخصية قَوِيَّة، لا يتطرق إليها الضعف والوهن، وكان عدواً للجهل، وخصماً للاستكانة، وضداً للأَفْكَار العَقِيْمَة)[٣].

حتىٰ أن الأوربيين اعترفوا بذٰلِكَ.

فتحدث آدمز عن مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ، وختم كلامه قائلاً: (وعلىٰ أية حال، فإن ابن السَّنُوْسِيّ كان يتمتع بقدرة تنظيمية غير عادية، وبحسّ عَمَلِيّ دقيق للأحداث).

ووصفه ستودارد بأنه: (كان رجلاً شديد الهيبة، بعيد الهمة، عَظِيْم الاقتدار علىٰ

(١) نشأة الحَرَكَة العَرَبِيَّة الحَدِيْثَة ص٧٨.

(٢) شَجَرَة النّوْر الزَّكِيَّة ج١ ص٣٩٩.

(٣) الثِّمَار الزَّكِيَّة للحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة ص١١٦.

التنظيم والإصْلَاح)[١].

وقال هاملتون: (والسَّنُوْسِيّ الذي سنحت لي فرصة التَّحَدُّث إليه هو مؤسس أكبر أُخُوَّة دينية في إفْرِيْقِيَا في هٰذَا الوقت... ومن العَدْل أن نقول: إنه رجل ذو مَوَاهِب غير عادية، معتبرين النجاح المتزايد الذي حققه...).

ويقول بريتشارد: إن أحداً لا يستطيع إنكار أن السَّنُوْسِيّ كان رجلاً عَظِيْماً، وأن ما حققه في حياته كان عَظِيْماً، ومما يقال عنه: إنه كان... خَطِيْباً مِصْقَعاً، وذا مظهر متميز ومُعَلِّماً حَكِيْماً، ويمكن تقدِير شخصيته الدِّيْنِيَّة عندما نلاحظ أن عدداً من الجَزَائِرِيِّيْن والتُّوْنُسِيِّيْن والمُرَّاكُشِيِّيْن تأثروا إلىٰ درجة عَظِيْمَة بشخصيته، حتىٰ أنهم غادروا أوطانهم، وتبعوه في رحلاته، وأن بدو الجَزِيْرَة العَرَبِيَّة وليبيا الذين هم أُنَاس غافلون غير مبالين، قبلوه مرشداً لهم في الناحيتين الروحية والزمنية... ثم ذكر قدراته الجسمية وتدريسه وأبحاثه ونشر الدعوة وصبره[٢].

وتحدث عن نجاحه وقدراته آخرون[٣].

ووصف الفرنسيون أتباع الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة بأنهم: (أشد صَلَابَةً من الحَجَر الصَّلْد)[٤].

العوامل التي أَثَّـرَتْ في شخصيته:

وهٰذِهِ العوامل يمكن إجمالها فيما يأتي:

---

(١) الثِّمَار الزَّكِيَّة للحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة ص١١٦.

(٢) الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص٩٤.

(٣) الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص١٦٤-١٦٦، وفيه قول بريتشارد، وزِيَادَة، ورين، وآدمز، وستودارد، وأَحْمَد حلمي التُّرْكِيّ، والأَشْهَب.

وانظر: حَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ ج١ ص٢٩٥.

(٤) الثِّمَار الزَّكِيَّة للحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة ص١١٥.

١. بيته الشَّرِيْف، وشعوره بأنه من بيت النُّبُوَّة، وأجداده الأدارسة حُكَّام المَغْرِب، دعاه إلىٰ التطلع إلىٰ مركز قيادي، ينقذ الأُمَّة به من الضلال.

٢. بيئته العِلْمِيَّة[١]، ودراسته علىٰ أكابر الشُّيُوْخ، ومَوَاهِبه غير العادية، وتصوفه الذي سما به إلىٰ الورع والتقوىٰ والهمة العَالِيَة.

٣. تأمله في أوضاع العالم الاسَلَامي المتدهورة. فحين سئل عن المقاطعات تذهب من أيدي المُسْلِمِيْن في كل وقت وبسرعة البرق، فالإسْلَام في حال التدهور المخيف، ذكر أن هٰذَا ما أفكر به. فلما سألوه وماذا يجب علىٰ المُسْلِمِيْن عمله لتلافي ما ذكرت؟ أجاب: سأجتهد، سأجتهد[٢].

فتأمل حال الجَزَائِر، وسوء إدارة الولاة الأتراك فيها، وثورات القبائل ضدهم، وأطماع الدول الأوربية فيها، والتقدم المَسِيْحِيّ في إفْرِيْقِيًّا.

هٰذِهِ العوامل هي التي صقلت شخصيته، وهيأته لحمل هٰذَا العبء العَظِيْم، وهو إصْلَاح البلاد والعِبَاد.

تلاميذه:

أخذ عن الشَّيْخ مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ أَعْلَام، منهم:

ابنه مُحَمَّد المَهْدِيّ، وحَفِيْده أبو العَبَّاس أَحْمَد، وعَبْد الرَّحِيْم البرقي، وصالح بن حسن الطاهري الحِجَازِيّ مؤلف حسن الوفا، والشَّيْخ أبو مُوسَىٰ عِمْرَان اليزليتني، وأَحْمَد بن الطَّالِب بن سودة[٣]... وكثيرون.

---

(١) الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص٤١-٤٣.

(٢) هٰذَا السؤال وجوابه في: الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص٤١. والاجتماع الدِّيْنِيّ: الخَشَّاب ص٣٦٧.

(٣) شَجَرَة النّوْر الزَّكِيَّة ص٤٠٠.

آثاره العِلْمِيَّة:

اختلف مؤرخو السَّنُوْسِيَّة في عدد مؤلفات السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ، وسببه هو ضياعها عند هجوم الإيطاليين علىٰ الكُفْرَة، واحتراق المَكْتَبَة.

وأوصلها إسْمَاعِيْل باشا في هَدِيَّة العَارِفِيْن إلىٰ خمسة وثلاثين كتاباً، وعَدَّدَ أَسْمَاءها، وطبع منها ثَمَانِيَة كتب، وكان يشير فيها إلىٰ أَسْمَاء ومضامين بعض كتبه الأُخْرَىٰ. والمطبوع من مؤلفاته هو:

١- **إيْقَاظ الوَسْنَان في العَمَل بالحَدِيْث والقُرْآن.**

وقد تضمن: مُقَدِّمَة، وثلاثة أبواب، وخاتمة.

المُقَدِّمَة: في بَيَان جَلالَة مقادير الأَئِمَّة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، واعتصامهم بالكِتَاب والسُّنَّة في جميع أحوالهم، ووجوه إعذارهم فيما يوهم خلافها من أقوالهم، وأَمْرِهِم أَتْبَاعَهُم بالرجوع إليها فيما خالف من آرائهم.

واستفاد نصاً طَوِيْلاً في ذٰلِكَ من كتاب رفع المَلَام عن الأَئِمَّة الأَعْلَام لابن تَيْمِيَّة. وأخذ من غيره أَيْضاً.

والباب الأول: وجوب التمسك بالكِتَاب والسُّنَّة، وبَيَّنَ فيه: أن دلالة الكِتَاب والسُّنَّة وَاحِدَة، وأَدِلَّة وجوب اتباعها، والعَمَل بالحَدِيْث وطرقه.

والباب الثاني: الاجْتِهَاد. وأوضح فيه: حقيقته، وأنواعه، وما يشترط في المجتهد من الشروط، وحرمة الاجْتِهَاد مع النَّصّ في كل ما عَمَّ وخَصَّ، والرد علىٰ من زعم الانقطاع ودعوىٰ أنه إجماع.

والباب الثالث: التقليد. وبَيَّنَ فيه:

ما ورد من الأَدِلَّة الشَّرْعِيَّة، والسر في بطلان الرأي، وإبطال التقليد المذموم، وأقوال

العُلَمَاء في انحصاره بالأَئِمَّة الأربعة، ثم الفرق بين الإتباع والتقليد الذي أوجب جهله النزاع.

وكانت خاتمته في سُنَن أهل الله، وسَبِيْل عملهم إلىٰ الله.

٢- المَسَائِل العشر. المسمىٰ: بُغْيَة المَقَاصِد في خُلَاصَة المَرَاصِد.

وتضمن بَيَان جَلَالَة مقادير السَّلَف، والمُرَاد من المَذْهَب والفتوىٰ والقَضَاء، والتقليد والاجْتِهَاد، وأنواعه، وحقيقته، وشروط المجتهد، وطرق العَمَل بالحَدِيْث. علىٰ النَّحْو الذي ذكره في إِيْقَاظ الوَسْنَان.

ثم بين كيفية صلاة أهل الاصطفاء، وصفة صلاته ﷺ، وكيفية الصلاة وفُرُوْعها وأركانها، ثم ذكر نُصُوْص الأَئِمَّة في المَسَائِل **العشر**، وهي:

حكم رفع اليدين في الصلاة، وحكم القبض، والسكتات الثلاث، والاستعاذة، والبسملة للفاتحة والسورة، والتأمين، والتَّكْبِيْر لقيام الثالثة، والسَّلَام والخروج من الصلاة، والقنوت ورفع اليدين فيه حال الدعاء، وتَطْوِيْل الصلاة وتقصيرها المشروعين.

وجعل خاتمة الكتاب في شيء من أحوال أهل التَّصَوُّف، وأنواع النفوس: الأمارة، واللوامة، والملهمة، والمطمئنة، والراضية، والمرضية، والكَامِلَة.

٣- شِفَاء الصدر بأَرْي المَسَائِل العشر، وطَيّ ما فيها من البسط والنشر.

وهو مُخْتَصر ما ذكره في المَسَائِل العشر من الأقوال والأَدِلَّة، التي أوردها في كتابه السَّابِق (**المَسَائِل العشر**).

٤- المُسَلْسَلات العشرة في الأَحَادِيْث النَّبَوِيَّة.

والحَدِيْث المُسَلْسَل قد يكون في صفة الرَّاوِيَة: كما إذا قال كُلٌّ منهم: سمعت، أو حَدَّثَنَا، أو أَخْبَرَنَا، ونحو ذٰلِكَ.

أو في صفة الرَّاوِي: بأن يقول حالة الرِّوَايَة قولاً قد قاله شَيْخه له، أو يفعل فعلاً

فعل شَيْخه مِثْلَهُ[١].

وفائدة التسلسل: بُعْدُهُ عن التَّدْلِيْس والانقطاع، واشتماله علىٰ مَزِيْد الضبط من الرُّوَاة. ومع هٰذَا قلما يَصِحّ حَدِيْث بطريق مُسَلْسَل، أي يكون الضعف في وصف التسلسل لا في أصل المتن، لأنه قد صحت متون أَحَادِيْث كثيرة، ولم تَصِحّ روايتها بالتسلسل[٢].

وذكر السَّيِّد السَّنُوْسِيّ في مُقَدّمته: أنه وصل إليه من الأَحَادِيْث المُسَلْسَلة ما يناهز المائتين، واقتصر منها في هٰذَا الكتاب علىٰ عشرة منها رَوْماً للاخْتِصَار. وذكر في نهايتها: أن فيها كِفَايَة لمن أراد اتصال الحبل بالنَّبِيّ ﷺ والانتساب إليه وإلىٰ أصحابه والسَّلَف الصالح علىٰ وجه مخصوص، فذٰلِكَ مما يَدُلّ علىٰ حرص صاحبه علىٰ الاقتداء والاتباع علىٰ قدر الإمكان.

٥- مُقَدِّمَة مُوَطَّأ الإمَام مَالِك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وذكر في أولها تدوين علم الحَدِيْث والمُصَنَّفَات فيه، وما للعُلَمَاء في مدح مُوَطَّأ مَالِك، ثم التعريف بالإمَام مَالِك.

ثم بَيَّنَ في الخاتمة نُبْذَة بما يتعلق بعلم مُصْطَلَح الحَدِيْث، والمُرَاد بألفاظ وقعت من الإمَام في الكتاب، واتصاله بهٰذَا الكتاب.

٦- السَّلْسَبِيْل المَعِيْن في الطرائق الأَرْبَعِيْن.

وفيه بَيَان الطرائق الصُّوْفِيَّة الأَرْبَعِيْن التي انتخبها، وأسانيدها، وكيفيتها، وما يتعلق بها، لأن حكم تَلْقِيْن الذِّكْر وأخذ العهد ولبس الخرقة حكم الحَدِيْث الشَّرِيْف،

---

(١) اخْتِصَار عُلُوْم الحَدِيْث لابن كَثِيْر ص١٦٨.

(٢) اخْتِصَار عُلُوْم الحَدِيْث لابن كَثِيْر ص١٦٨. وعليه: البَاعِث الحَثِيْث لأَحْمَد مُحَمَّد شَاكِر.

وانظر: مُقَدِّمَة المُسَلْسَلَات العشرة.

من صَحِيْح وحسن وضعيف. وهي الطريقة المُحَمَّدِيَّة والصِّدِّيْقِيّة والأُوَيْسِيَّة والجُنَيْدِيَّة... إلخ.

٧- المَنْهَل الرَّوِيّ الرَّائِق في أسانيد العُلُوْم وأسانيد الطرائق.

ذكر فيه الكتب التي أجازه بها عُلَمَاء عَصْره، واتصال أسانيدها بمؤلفيها، وتدريسها لتلاميذه، وهي الكتب الستة، وبعض مَشَاهِيْرالسُّنَن العشر، والمَسَانِيْد العشر، والصِّحَاح الزائدة علىٰ الستة، والمَعَاجِم، والجَوَامِع، والمُخْتَصرَات، وكتب الأَحْكَام وما في حكمها، والسِّيَر والشَّمَائِل، والتفاسير الأَثَرِيَّة والتَّأْوِيْلِيَّة... .

واشتملت الخاتمة علىٰ أسانيد أَرْبَعِيْن طريقاً من طرائق الصُّوْفِيَّة.

وعددُ تلك الكتب كَبِيْر جداً يَدُلّ علىٰ باع طَوِيْل في العُلُوْم، واطلاع وَاسِع، وعلم جم.

٨- الدُّرَر السَّنِيَّة في أَخْبَار السُّلَالَة الإِدْرِيْسِيَّة.

ذكر في المُقَدِّمَة أهمية الأَنْسَاب، وحكاية الإِمَام المَاوَرْدِيّ الإجماع علىٰ كون الإِمَام قُرَشِيّاً، لثُبُوْت قوله ﷺ: الأَئِمَّة من قُرَيْش.

واشتمل الكتاب علىٰ بعض أَخْبَار ملوك المَغْرِب، ثم أشبع الكلام علىٰ دولة الأدارسة وفُرُوْعهم، وما جددوه من الدِّيْن فيها.

وذكر في الخاتمة بعض الخُلَفَاء والملوك مبتدئاً بالخُلَفَاء الأربعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ثم نسب الخُلَفَاء العَبَّاسِيِّيْن ودولتهم.

وهٰذِهِ الكتب الثَّمَانِيَة طبعت طبعات متعددة، كان آخرها الطَّبْعَة التي كانت بمَعْرِفَة وزارة الإِعْلَام والثقافة اللِّيْبِيَّة، بإذن من حَفِيْد مؤلفها مُحَمَّد إِدْرِيْس المَهْدِيّ السَّنُوْسِيّ ملك لِيْبِيَا سنة ١٣٨٨هـ=١٩٦٨م، وقد طبعت علىٰ مطابع دار الكتاب اللُّبْنَانِيّ ببَيْرُوْت.

المَبْحَث الثاني

آراء السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ

يمكن إجمال الأَفْكَار التي نادىٰ بها من خلال كتبه علىٰ النَّحْو الآتي:

١- وجوب التمسك بالكِتَاب والسُّنَّة:

ذكر أن جميع المُسْلِمِيْن قد أجمعوا علىٰ مشروعية اتباع الكِتَاب والسُّنَّة، ووجوب العَمَل بهما وجوباً مؤكداً أشد التأكيد، إذ منهما تفرعت جميع الواجبات.

وأوضح أن دلالة الكِتَاب والسُّنَّة وَاحِدَة، فالنَّبِيّ ﷺ هو المعبر عن القُرْآن، الدال علىٰ معانيه بما علمه الله، فكانت أقواله وأفعاله وتَقْرِيْرَاته كلها وَحْياً. ودليل الأقوال قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ - النَّجْم، ودليل الكل: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ - الأنعام: ٥٠، ويُوْنُس: ١٥، والأحقاف: ٩، ففرض عليه بَيَانه، وأمره باتباعه.

وقال ﷺ: (... أَلَا من بلغه عني حَدِيْث فكذب به، فقد كذب الله ورَسُوْله).

وأوضح أن الواجب هو اتباعهما، بدليل قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ - الأنفال: ٢٤، والآيات في الباب كثيرة، والأَحَادِيْث لا يحاط بها كثرة، منها: قوله ﷺ: (تركت فيكم اثنتين لن تضلوا بعدهما، كتاب الله وسنتي).

وبين أن الواجب تقديمها علىٰ رأي كل مجتهد، وأَخْبَار رجوع الصَّحَابَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ عن فَتَاوِيهم وأقضيتهم عند إخبار بعضهم بعضاً بالسُّنَّة كثيرة جداً.

لذٰلِكَ ذهب الصَّحَابَة والتابعون وسائر العُلَمَاء، إلىٰ أن حكم الحَاكِم المجتهد إذا

خالف نص كتاب الله أو سُنَّة رَسُوْله وجب تركه ومنع نفوذه.

ولا يعارض نص الكِتَاب والسُّنَّة بالاحتمالات العقلية[١].

٢- فتح باب الاجْتِهَاد:

والاجْتِهَاد اصْطِلَاحاً بالمعنىٰ الأخص: استفراغ الفَقِيْه الوسع في تَحْصِيْل ظن بحكم شَرْعِيّ بطريقه فيما لم ينقل عن النَّبِيّ ﷺ. وهو حاصل ما قاله ابن الحَاجِب، والأَسْنَوِيّ، والنَّوَوِيّ، وابن السُّبْكِيّ، والبَيْضَاوِيّ.

وتحدث عن أنواع الاجْتِهَاد والمجتهدين: المطلق والمقيد، والمستقل أو المنتسب وغير ذٰلِكَ.

وبَيَّنَ ما يُشْتَرَط في المجتهد[٢]، وأن الاجْتِهَاد حرام مع النَّصّ في كل ما عَمَّ وخَصَّ[٣].

ورَدَّ علىٰ من زعم انقطاع الاجْتِهَاد، وادعىٰ أن العُلَمَاء أجمعوا علىٰ غلق بابه[٤]. وأكد هٰذَا حين اجتهد في المَسَائِل العشر (المتقدمة) التي خرج بها علىٰ مَذْهَب المَالِكِيّ، فكان يقبض في صلاته، ويقنت بعد الركوع، ويقصر الصلاة أثناء السفر... .

وتدليله وعرضه أقوال الفُقَهَاء دليل علىٰ سعة علمه وذهنه الثاقب، وفهمه للأَحْكَام الشَّرْعِيَّة في المَذَاهِب المُخْتَلِفَة.

ولذٰلِكَ تحدث عن التقليد، وما ورد في شأنه من نُصُوْص تذمه في القُرْآن أو الحَدِيْث

---

(١) إيْقَاظ الوَسْنَان ص٣٩-٤٣.

(٢) إيْقَاظ الوَسْنَان ص٦١-٦٢.

وانظر كلامه في: المَسَائِل العشر ص٨٣ وما بعدها.

(٣) إيْقَاظ الوَسْنَان ص٧٦.

(٤) إيْقَاظ الوَسْنَان ص٧٩.

كقوله تعالىٰ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ - التوبة: ٣١.

وقوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣ ﴾ - الأنبياء.

وبَيَّنَ أن التزام مَذْهَب من المَذَاهِب الأربعة ليس بواجب ابتداء، وعليه فانحصار التقليد في المَذَاهِب الأربعة بدعة قبيحة، إذ كيف تموت مَذَاهِب الصَّحَابَة والتَّابِعِيْن وتَابِعِيْهم وسائر أَئِمَّة الإِسْلَام، وبطلت جُمْلَة إِلَّا مَذَاهِب أربع أنفس فقط من بين الأَئِمَّة والفُقَهَاء؟ وهل بذٰلِكَ قال أحد من الأَئِمَّة أو دعا إليه، أو دلت لفظة وَاحِدَة من كلامه عليه؟[1].

وهٰذَا من الأسباب التي دعت الشَّيْخ عُلَيْش وغيره إلىٰ الرد عليه وإنكار قوله، لأن الخروج عن دائرة المَذْهَب في عَصْر التقليد ليس بالأمر الهين.

٣- التَّصَوُّف الموزون بمِيْزَان الشَّرِيْعَة:

لا شك في أن السَّيِّد السَّنُوْسِيّ قد أخذ عدداً وافراً من الطرق الصُّوْفِيَّة علىٰ مشايخ عَصْره، وهو يذكر منها بأسانيدها في السَّلْسَبِيْل المَعِيْن، والمَنْهَل الرَّوِيّ. وتحدث عن طريق القوم، المُتَصَوِّفَة، في نِهَايَة إِيْقَاظ الوَسْنَان... إلخ.

ومن هٰذِهِ الطرق التي أخذها الطريقة المُحَمَّدِيَّة، فذكر أن مبناها علىٰ متابعة السُّنَّة في الأقوال والأفعال والأحوال والاشتغال بالصلاة علىٰ النَّبِيّ ﷺ في عموم الأوقات[2].

ويتعين علىٰ المريد... بعد تَصْحِيْح عقيدته بمِيْزَان اعْتِدَال أَهْل السُّنَّة والجَمَاعَة

---

(١) إِيْقَاظ الوَسْنَان ٩٢-٩٩.

(٢) السَّلْسَبِيْل المَعِيْن ص٧.

أن لا يُقْدِمَ علىٰ فعل شيء حتىٰ يعلم حكم الله فيه، فيتعلم ما يحتاج اليه من المَسَائِل الفِقْهِيَّة...[١].

وذكر قول الجُنَيْد: (الطرق كلها مسدودة إلَّا علىٰ من اقتفىٰ أثر الرَّسُوْل ﷺ).

وسُئِلَ الشِّبْلِيّ عن التَّصَوُّف فقال: هو الاقتداء برَسُوْل الله ﷺ[٢].

وإذا ما صدر عن بعض المُتَصَوِّفَة عمل مخالف للشَّرِيْعَة في الظَّاهِر، فلا ينبغي الإنكار عليهم، وإن كان لا يقتدىٰ به في هٰذَا الأمر فقط، لبعد مَرَاميهم.

نعم إن عاقب الحَاكِم المُتَظَاهِر بهٰذِهِ الأُمُور علىٰ مُقْتَضَىٰ الشَّرِيْعَة لا يأثم ولا حرج عليه من الله في ذٰلِكَ[٣].

فالتَّصَوُّف عنده صاف لا كدر فيه، تزنه بمِيْزَان الكِتَاب والسُّنَّة، وهٰذَا هو المشروع بالإجماع.

٤- العَمَل الدؤوب لتَحْقِيْق الآمال:

فكان نظام الزوايا التَّطْبِيْق العَمَلِيّ لأَفْكَاره، فأنشأ جيلاً استطاع أن يبث الفكرة الإِسْلَامِيَّة في أقاصي البلاد. كما أوضحناه في كلامنا عن الزوايا الآتي.

عوامل الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة:

ويمكن إجمال هٰذِهِ العوامل بما يأتي:

١. مستوىٰ المُسْلِمِيْن الاقْتِصَادِيّ متواضع أو ضعيف، وفهمهم للدِّيْن هو دعوة للتواكل ومَذْهَب إمَام أو طريقة شَيْخ، وجماعتهم مفككة، والعَصَبِيَّة الطائفية

(١) السَّلْسَبِيْل المَعِيْن ص٨.

(٢) إِيْقَاظ الوَسْنَان ص١٣٠، وذكر أقوالًا أُخْرَىٰ مماثلة.

(٣) السَّلْسَبِيْل المَعِيْن ص٦١.

طاغية تأخذ من قدراتهم أكثر من سعيهم للحياة، ويغلب علىٰ سُلُوْكهم عدم رعاية حرمة الآخرين، ووعيهم الإِسْلَامِيّ يكاد ينعدم.

٢. ضعف المركز الرئيس للسلطة الإِسْلَامِيَّة العليا، وهي الخِلَافَة العُثْمَانِيَّة عن مقاومة الضعف الداخلي، وعن حماية البلاد الإِسْلَامِيَّة من العدو الخارجي.

٣. ضغط العالم المَسِيْحِيّ بالحروب الصليبية الجديدة علىٰ المُسْلِمِيْن، وحَرْب فرنسا للجَزَائِر تقوم علىٰ إذلال المُسْلِمِيْن وتَجْرِيْدهم من مقومات شخصيتهم.

٤. نشأة السَّيِّد السَّنُوْسِيّ الإِسْلَامِيَّة النَّظَرِيَّة والعَمَلِيَّة معاً، واتصاله بعُلَمَاء لهم تَارِيْخهم في التضحية كزعماء طرق الدرقاوية والشَّاذِلِيَّة والتِّيْجَانِيَّة، وانتماؤه إلىٰ الأدارسة القُرَشِيِّيْن.

هٰذِهِ العوامل هي نفسها أحاطت بابن تَيْمِيَّة وابن عَبْد الوَهَّاب، فالحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة هي رد فعل لعوامل وَاحِدَة، وعلاج لحال متشابهة[1]، وإن تميزت عنهما بصُوْفِيّتها.

الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة والحَرَكَة الوَهَّابِيَّة:

ذهب بعض الباحثين إلىٰ أن الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة هي صورة من الحَرَكَة الوَهَّابِيَّة[2]،

(١) الفكر الإِسْلَامِيّ في تطوره ص٨٩-٩٠.

(٢) الفكر الإِسْلَامِيّ في تطوره ص١٠١.

وذكر تأثر السَّيِّد السَّنُوْسِيّ بالحَرَكَة الوَهَّابِيَّة في: مجالي الإِسْلَام ص٤٨٩. وحَاضِر العَالَم الإِسْلَامِيّ ج١ ص٢٩٥. وانتشار الإِسْلَام في القارة الإِفْرِيْقِيَّة ص٤٧. ونشأة الحَرَكَة العَرَبِيَّة الحَدِيْثَة ص٧٥.

وانظر: الإِسْلَام في إِفْرِيْقِيًا: بونه موري - حَاضِر العَالَم الإِسْلَامِيّ ج٢ ص٣٩٩.

وذٰلِكَ لأن مؤسسها السَّنُوْسِيّ درس تعاليم الوَهَّابِيَّة وأُصُوْلها أثناء إقامته الطَّوِيْلَة بمَكَّة المُكَرَّمَة(١)، فزاد علمه، وأتقدت روح الإصْلَاح فيه، فلم يزايل مَكَّة حتىٰ وضع خطة للإصْلَاح(٢)، فدعا إلىٰ إحياء الإسْلَام الصَّحِيْح ومحاربة البدع(٣).

إلَّا أن من الباحثين من ذهب إلىٰ أن بينهما فُرُوْقاً جَوْهَرِيَّة هي:

١. الوَهَّابِيَّة تمسكت بمَذْهَب الإمَام أَحْمَد، بينما السَّنُوْسِيَّة مَالِكِيَّة عموماً.

٢. والوَهَّابِيَّة اختارت طريق الشدة، واختارت السَّنُوْسِيَّة طريق اللين.

٣. والوَهَّابِيَّة تركزت في مدن نجد، وتركزت السَّنُوْسِيَّة في البادية.

٤. والوَهَّابِيَّة هاجمت الطرق الصُّوْفِيَّة بشدة، بينما السَّنُوْسِيَّة هي طريقة صُوْفِيَّة خاصة(٤).

والحق أن الفُرُوْق الثلاثة الأُوْلَىٰ المذكورة ليست فُرُوْقاً حقيقيةً، لأنها مُتَعَلِّقَة بالمَذْهَب الفِقْهِيّ، وهو من الفُرُوْع المُقَابِلَة للأُصُوْل، أو بطريقة تَحْقِيْقها الفكرة، أو بمكان تركزها، وهي أُمُوْر يمكن أن يكون أحدها للحَرَكَة الأُخْرَىٰ، دون أن يمس بجَوْهَرها.

ولم يَبْقَ إلَّا الفرق الأَخِيْر، وهو الحد الفَاصِل فيما أرىٰ بين الحركتين.

نظام الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة، وطريقته في الدعوة:

دعا السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ إلىٰ نظامه بالحكمة والمَوْعِظَة الحَسَنَة.

---

(١) الفكر الإسْلَامِيّ في تطوره ص١٠١.

(٢) الإسْلَام في إفْرِيْقِيَا: بونه موري – حَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ ج٢ ص٣٩٩، وتَعْلِيْقَات شَكِيْب أَرْسْلَان عليه.

(٣) نشأة الحَرَكَة العَرَبِيَّة الحَدِيْثَة ص٧٥.

(٤) الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص٢٥٧.

فلم تقترن دعوته بعمل من أَعْمَال العنف والحَرْب، ولم يستخدم في خدمته الدِّيْن إِلَّا كل وَسَائِل السَّلَام والتَّرْغِيْب، ونشر الإِسْلَام دون أن يريق الدماء(١).

فخالف ابن تَيْمِيَّة وابن عَبْد الوَهَّاب في طريقتهما، كما أشرنا إِلىٰ ذٰلِكَ آنِفاً. فابن تَيْمِيَّة اشتد وقسا في تَحْقِيْق آرائه، وأراد أن يحققها دفعة وَاحِـدَة، فخاصم الجميع وحاربهم، ورموه بحق أو بغير حق بالخروج علىٰ المُسْلِمِيْن علىٰ نحو ما رمي به خصومه.

وابن عَبْد الوَهَّاب اتبع الأُسْلُوْب نفسه، ولحقته النتائج نفسها.

أما السَّيِّد السَّنُوْسِيّ فآثر المهادنة، مهادنة السلطة المركزية الإِسْلَامِيَّة، ومهادنة الصُّوْفِيَّة، فاختار من طرقها وَاحِدَة خاصة به(٢)، ومهادنة العُلَمَاء، فلم يهاجم أَحَداً منهم، علىٰ الرغم من مهاجمة البعض له.

هدف النظام السَّنُوْسِيّ، وسُبُل تَحْقِيْقِه:

استهدف النظام السَّنُوْسِيّ إِصْلَاح الفرد المسلم، ليتكون المجتمع الإِسْلَامِيّ، ونشر الإِسْلَام في البلاد.

وسَبِيْل تَحْقِيْق هٰذَا الهدف هو أمران هما: الطريقة الصُّوْفِيَّة، والزاوية(٣).

الأمر الأول: الطريقة الصُّوْفِيَّة:

تعرف السَّنُوْسِيّ علىٰ كثير من الطرق الصُّوْفِيَّة، فقال في مُقَدِّمَة كتابه: (السَّلْسَبِيْل المَعِيْن في الطرائق الأَرْبَعِيْن): فقد حصل لنا ولله الحمد، التئام بأَئِمَّة أَعْلَام، وجهابذة

---

(١) الدعوة إلىٰ الإِسْلَام ص٣٧٠-٣٧١.

(٢) الفكر الإِسْلَامِيّ في تطوره ص٩١.

(٣) الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص٢٣٦.

من أهل الله فخام، ووصل إلينا من طرائقهم أخذاً وإجازةً عدة وافرة وجُمْلَة متكاثرة، ذكرنا كلها أو جُلَّهَا في فِهْرِسْتَيْنَا: الشموس الشارقة، ومُخْتَصَرها البدور السافرة... ثم بدا لي أن أنتخب من تلك الطرائق أَرْبَعِيْن سوية، وأفردها بِرِسَالَة مبينة لأسانيدها السنية... سميتها بالسَّلْسَبِيْل المَعِيْن.

والطرق إلىٰ الله تعالىٰ كثيرة: الشَّاذِلِيَّة، والسُّهْرَوَرْدِيَّة، والقَادِرِيَّة، إلىٰ غير ذٰلِكَ، حتىٰ قال بعضهم: إنها بعدد أنفاس الخَلَائِق، وهي وإن تشعبت فهي في الحقيقة وَاحِدَة، إذ مطلوب الكل وَاحِد... ولنا بحمد الله اتصالات بطرق عديدة بأسانيد أكيدة[1].

والطريقة السَّنُوْسِيَّة التي اختارها فرع من الشَّاذِلِيَّة[2]، ومبناها كما يقول أَحْمَد الشَّرِيْف علىٰ متابعة السُّنَّة في الأقوال والأفعال والأحوال والاشتغال بالصلاة علىٰ النَّبِيّ ﷺ في عموم الأوقات.

والسَّنُوْسِيَّة تجمع بين الطريقتين: البُرْهَانِيَّة والإشراقية، كأُسْلُوْب للوُصُوْل إلىٰ الكَمَال الأعلىٰ، والطرق الصُّوْفِيَّة تتبع إحداهما.

أما الإشراقية: فَدَأْبُ ذويها، كما يقول أَحْمَد الشَّرِيْف، تَصْفِيَة النفوس من الأكدار، وتَوْجِيْهها نحو الحق لنهج المَعَارِف والأَسْرَار، بدون تعلم ولا تَعْلِيْم، بمُجَاهَدَة النفس ومخالفتها، بإذاقتها البؤس، وملازمة ذكر الله، حتىٰ تنقدح في قلب الذَّاكِر الأَنْوَار، وهي من باب ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ - البقرة: ٢٨٢.

وأما البُرْهَانِيَّة: فَدَأْبُ ذويها اتباع الأوامر واجتناب النواهي، أي: تَعْمِيْر الظواهر بالآداب علىٰ متابعة أقوال النَّبِيّ ﷺ، وتَعْمِيْر البواطن بمُرَاقَبَة الله في جميع الحَرَكَات

---

(١) السَّلْسَبِيْل المَعِيْن ص٥-٦.

(٢) أخذ السَّنُوْسِيّ الطريقة عن الشَّيْخ عَبْد الوَهَّاب التازي، وهو عن الشَّيْخ أَحْمَد الصِّقِلِّيّ، وهو عن الشَّيْخ مُصْطَفَىٰ البَكْرِيّ. وهٰذِهِ الطريقة شَاذِلِيَّة خَلْوَتِيَّة، كما أخذ عن أَحْمَد بن إِدْرِيْس وهو شَيْخ الشَّاذِلِيَّة. / شَجَرَة النّوْر الزَّكِيَّة ص٤٠٠.

والسكنات علىٰ السُّنَن النَّبَوِيّ.

وطريقة السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ جَامِعَة بينهما، فمن أراد الإشراقية سلك به سَبِيْلها، ومن أراد البُرْهَانِيَّة سلك به سَبِيْلها، ولٰكِن السَّنُوْسِيَّة تفضل غَالِباً الطريقة البُرْهَانِيَّة.

وكان السَّيِّد السَّنُوْسِيّ يأمر سالكي طريقته بِقِرَاءَة صَحِيْح البُخَارِيّ، والمُوَطَّأ، وبُلُوْغ المَرَام في الحَدِيْث، ورِسَالَة ابن أبي زَيْد القَيْرَوَانِيّ في الفِقْه، والرَّسَائِل السبع في التَّصَوُّف.

وأوراد الطريقة السَّنُوْسِيَّة هي القُرْآن الكَرِيْم، ثم الاسْتِغْفَار، والتهليل، والصلاة علىٰ النَّبِيّ ﷺ.

ويتم الذكر بِقِرَاءَة الأوراد من غير مصاحبة للموسيقىٰ، وليس فيها الرقص، وأكل الزجاج، وطعن السيوف(١).

وكان السَّنُوْسِيُّون يجتمعون في الزوايا برئاسة الشَّيْخ أو المُقَدَّم في الزاوية، فيقرؤون بعضاً من القُرْآن الكَرِيْم مع مراعاة أَحْكَام التجويد بدون ترنم، ثم يتلون الصلاة العَظِيْمَة التي رتبها السَّيِّد أَحْمَد بن إِدْرِيْس(٢).

ويذهب أَحْمَد الشَّرِيْف حَفِيْد السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ إلىٰ تَعْظِيْم الأَوْلِيَاء، ويرىٰ فيهم الوَسَائِل بين الله والعبد، وينكر علىٰ القائلين أن لا وسيلة بين الخَالِق والمخلوق. ويقول: إن الأنبياء صلوات الله عليهم إن هم إلَّا وَسَائِل إلىٰ الله.

كما يذهب إلىٰ تقديم قول الأَوْلِيَاء عند التعارض، فيقول:

إذا وقع خلاف في مَسْأَلَة بين عُلَمَاء الشَّرْع، وبقيت غامضة، فالقول فيها ما يقول

---

(١) الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص٢٤٥-٢٥١.

(٢) الاجتماع الدِّيْنِيّ: الخَشَّاب ص٣٧٢.

عُلَمَاء البَاطِن أهل التَّصَوُّف[١]. وهٰذِهِ من المَسَائِل التي يكاد يجمع عليها عُلَمَاء التَّصَوُّف.

والطريقة السَّنُوْسِيَّة، كما قال السَّيِّد أَحْمَد الشَّرِيْف لشَكِيْب أَرْسَلَان، **طريقة عَمَلِيَّة تعمل بالكِتَاب والسُّنَّة**، ولا تكتفي بالأوراد والأذكار دون القيام بعزائم الإسْلَام كما كان عليه الصدر الأول، ولذٰلِكَ وفقوا للجِهَاد، ووقفوا في وجه دولة عَظِيْمَة كدولة إيطاليا منذ سنين طَوِيْلَة[٢].

فهي تجمع بين العَمَل الشَّرْعِيّ بحذافيره والتجرد الصُّوْفِيّ إلىٰ أقصىٰ درجاته، وتنظيم بين الظَّاهِر والبَاطِن نظماً لم يوفق إليه غيرها[٣].

والعَمَل عندهم مبني علىٰ التعاون، فالسَّنُوْسِيُّون يجتمعون في ليلتي الجمعة والإثنين من كل أُسْبُوع إلىٰ جانب أيام المواسم الإسْلَامِيَّة، فيطعمون الفُقَرَاء ويواسونهم.

ومن عادات السَّنُوْسِيِّيْن المقيمين جوار الزاويا، أنهم كانوا يحضرون طعامهم إلىٰ الزاويا، يطعمون منه الموجودين وعابري السَّبِيْل، بخلاف ما تخرجه الزوايا من الأطعمة كل يوم، ولهٰذَا حرمت الطريقة السَّنُوْسِيَّة التسول[٤]، فكان الغَرِيْب أو السابل أو الفَقِيْر المُعْتَرّ ينزل بالزاوية، فيقيم فيها ما يشاء، ويتضيف ما يشاء، ولا يسأله أحد عن شيء.

---

(١) تَعْلِيْق شَكِيْب أَرْسَلَان علىٰ: حَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ ج٢ ص١٥٩-١٦٠.

وما أورده آرنولد في: الدعوة إلىٰ الإسْلَام ص٣٧١ حين يقول: إنهم يحرمون التضرع للأَوْلِيَاء وزيارة قبورهم تحريماً تاماً، هو قول يخالف ما ذكرناه عنهم من حَفِيْد السَّيِّد السَّنُوْسِيّ، وهو أَوْثَق من غيره.

ولعل آرنولد استفاد هٰذَا من قياسه علىٰ الوَهَّابِيَّة، الذين تأثر بهم السَّيِّد السَّنُوْسِيّ.

(٢) تَعْلِيْق شَكِيْب أَرْسَلَان علىٰ: حَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ ج٢ ص١٦١.

(٣) تَعْلِيْق شَكِيْب أَرْسَلَان علىٰ: حَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ ج٢ ص١٦٤.

(٤) الاجتماع الدِّيْنِيّ: الخَشَّاب ص٣٧٢-٣٧٣.

فكانت الزوايا السَّنُوْسِيَّة الملاجئ الوحَيْدَة في الصحراء للمسافرين والتائهين والواردين والشاردين(١).

وحتمت الطريقة علىٰ شُيُوْخ زواياها مَعْرِفَة الأسواق التجارية في جهاتهم، ثم حالة هٰذِهِ الاسواق، وأمرتهم بالتجارة، علىٰ أن يخصص قسم من الأَرْبَاح للزوايا، ويخصص القسم البَاقِي للطريقة أو الجمعية السَّنُوْسِيَّة عامة(٢).

دعوة السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ إلىٰ العَمَل والتعاون:

كان السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ داعية إلىٰ العَمَل والتعاون فيه، فحين سأله بعض الطلبة أن يعلمهم الكيمياء، قال: الكيمياء تحت سكة المحراث.

وكان يقول أَيْضاً: الكيمياء هي كد اليمين وعرق الجبين.

وكان يشوق الطلبة والمريدين إلىٰ القيام علىٰ الحرف والصناعات، فيقول مُطَيِّباً خاطرهم، ومُرَغِّباً بالحِرَف، لئلا يظنوا أن طبقتهم أدنىٰ من طبقة العُلَمَاء: (يكفيكم من الدِّيْن حسن النية، والقيام بالفرائض الشَّرْعِيَّة، وليس غيركم بأفضل منكم).

وأَحيَاناً يشتغل معهم ويشجعهم قائلاً: (يظن أهل الاوريقات والسُّبَيْحَات أنهم يسبقوننا عند الله، لا والله ما يسبقوننا)، ويريد بأهل الاوريقات العُلَمَاء، وبأهل السُّبَيْحَات العَابِدِيْن والقَانِتِيْن، فكأنه يقول للصناع: لا تظنوا أنكم دون العُلَمَاء والزهاد مقاماً(٣).

اهتمامه بالزراعة:

وكان السَّيِّد السَّنُوْسِيّ وابنه المَهْدِيّ من بعده يهتمان بالزراعة جداً، بدليل الجِنَان

---

(١) تَعْلِيْق شَكِيْب أَرْسَلَان علىٰ: حَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ ج١ ص٢٩٧-٢٩٨.

(٢) الاجتماع الدِّيْنِيّ: الخَشَّاب ص٣٧٢-٣٧٣.

(٣) تَعْلِيْق شَكِيْب أَرْسَلَان علىٰ: حَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ ج٢ ص١٦٤.

التي نسقوها بجوار الزوايا، فلا تجد زاوية إلَّا ولها بُسْتَان أو بساتين(١).

وكان من عاداتهم: أن يتبرع كل فرد من القبيلة التي تبنىٰ بأرضها الزاوية بحراثة يوم، وحصاد يوم، ودراسة يوم، من أرض الزاوية، فلذٰلِكَ يسهل عِمْرَان الزوايا بدون نفقة كَبِيْرَة.

فأينما حل السَّنُوْسِيُّون عَمَّرُوا وثَمَّرُوا، فكانت البساتين والفواكه والثِّمَار في تلك البِقَاع القاصية المحفوفة بالفلوات(٢).

وقد أدخلوا في الكُفْرَة والجَغْبُوْب زراعات وأغراساً، جلبوها من أقاصي البُلْدَان، لم يكن لأحد هناك عهد بها(٣).

دعوته إلىٰ الجِهَاد والاستعداد له:

كان السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ يدعو إلىٰ الاستعداد لحَرْب الإيطاليين، وإلىٰ الجِهَاد ضد المعتدين علىٰ البلاد.

إنه الوَلِيّ الصالح، الذي ينظر بنور الله.

حيث أخبر عن احتلال الإيطاليين ليبيا، فتحقق ذٰلِكَ بعد أكثر من نصف قرن(٤).

قال مرة للشَّيْخ الكاسح، أحد زعماء قبيلة العواقير: ماذا أعددتَ يا شَيْخ الكاسح

---

(١) تَعْلِيْق شَكِيْب أَرْسْلَان علىٰ: حَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ ج٢ ص١٦٣.

(٢) تَعْلِيْق شَكِيْب أَرْسْلَان علىٰ: حَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ ج١ ص٢٩٧-٢٩٨.

(٣) تَعْلِيْق شَكِيْب أَرْسْلَان علىٰ: حَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ ج٢ ص١٦٣-١٦٤.

(٤) تُوُفِّيَ السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ سنة ١٢٧٦هـ=١٨٥٩م. وقصف الإيطاليون بنغازي في سنة ١٣٢٩هـ=١٩١١م، واحتلوها، واحتلوا أَيْضاً المدن السَّاحِلِيَّة كطَرَابُلُس ودرنة وطبرق. ودارت بين المحتلين وبين المُجَاهِدِيْن السَّنُوْسِيِّيْن وأبناء البلاد ورِجَال الحكومة العُثْمَانِيَّة معارك طاحنة، سجلوا فيها صفحات مَجِيْدَة خَالِدَة.

انظر: الثِّمَار الزَّكِيَّة للحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة ص٢٠٢ وما بعدها.

للنابولتان (أي: إيطاليا) إذا غزا بلادك ليأخذها؟

فقال له الشَّيْخ الكاسح: أعددتُ له جراباً من البارود، وشَيْئاً من الرصاص.

فقال له السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ: إذا كنتَ، وأنتَ شَيْخ القبيلة، ولم يوجد عندك إلَّا هٰذَا المقدار القليل، فماذا يوجد عند أفراد القبيلة؟

وأخبره أن النابلتان آتٍ للبلاد لا محالة، وسيصيبكم منه أذىٰ كَبِيْر، وأن الله مع الصابرين، ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ - هود: ١١٣.

وكان السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ يحدث مجالسيه بذٰلِكَ، ويأمرهم بالاحتياط، وأن يأمروا مُعَلِّمِي الصِّبْيَان بإلقاء الدروس في هٰذَا الشأن.

وكان يأمر رؤساء الزوايا بأن يقتنوا أنواع السلاح ما استطاعوا إلىٰ ذٰلِكَ سَبِيْلاً، ويحتفظوا به في مخازن خاصة.

وذات مرة قال لأحد شُيُوْخ القبائل: إن النابولتان سيغزو هٰذَا البلد، ويقف أهلها للدفاع عنها موقفاً مشرفاً، وسيتخذ جميع الوَسَائِل لإخضاعهم. ومن بين هٰذِهِ الوَسَائِل سيقدمون الأموال للإغراء، فماذا أنتم فاعلون في هٰذِهِ الحالة؟

فقال الشَّيْخ: إننا سنأخذ المال، ونثني عليهم، نقاتلهم.

فأجابه السَّيِّد السَّنُوْسِيّ: من يقبل هديتهم لا يقاتلهم.

وعندما وصل السَّيِّد السَّنُوْسِيّ إلىٰ العزيات عام ١٢٦٩هـ، قادماً من الحِجَاز، أخذت وفود القبائل تتوافد لزيارته، ويطلقون الأعيرة النارية ابْتِهَاجاً بقدومه حسب عاداتهم.

وفي إحدىٰ الليالي، كان يتصدر مجلسه، وفيه شُيُوْخ الزوايا والعشائر، فسمع الأعيرة النارية، فسأل عن سبب ذٰلِكَ، فقيل له: إن مزاراً (أي: زائرين) من قبائل العواقير قد وصل الآن، فقال: لقد نَبَّهْنَا أكثر من مرة للمحافظة علىٰ الرصاص والبارود، وأن لا

تستعمل إلَّا عند الحاجة. وأن الوقت الذي نَدَّخِر له السلاح لآتٍ.

فقال له الشَّيْخ مُحَمَّد بن الشفيع: أتنتظر غزواً خارجياً قريباً؟

فالتفت السَّيِّد السَّنُوْسِيّ عنه إلىٰ الشمال، وكان يستقبل القِبْلَة، وقال، وقد تَقَطَّعَ وجهه: أكاد أقول لكم إنني أرىٰ العدو رأي العين، ومن مَدَّ الله في عُمْره منكم سوف يقاتله، وهو آتٍ من هنا، وأشار إلىٰ جهة البَحْر، فاصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون، ثم استشهد بالآية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾ - الأنفال.

وأصبح أتباع الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة يستعدون لأعدائهم، الذين أخبر شَيْخهم بأنهم قادمون.

وكانت معاركهم البطولية فيما بعد ضد إيطاليا وفرنسا وبريطانيا مشهودة يذكرها التَّارِيْخ[1].

وكان السَّيِّد المَهْدِيّ يحث إخوانه ومريديه دائماً علىٰ الفروسية والرماية، ويبث فيهم روح الأنفة والنشاط، ويحملهم علىٰ الطراد والجلاد، ويعظم في أعينهم فضيلة الجِهَاد.

قال شَكِيْب: وحَدَّثَنِي السَّيِّد أَحْمَد الشَّرِيْف: أن عمه المَهْدِيّ كانت عنده خمسون بندقية خاصة به، وكان يتعاهدها بالمسح والتنظيف بيده، لا يرضىٰ أن يمسحها له أحد من أتباعه المَعْدُوْدِيْن بالمئات قصداً وعمداً، ليقتدي به الناس، ويحتفلوا بأمر الجِهَاد وعُدَّته وعَتَاده. وكان نهار الجمعة يوماً خاصاً بالتمرينات الحَرْبِيَّة من طراد

---

(١) الثِّمَار الزَّكِيَّة للحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة ص١٠٨-١٠٩.

وأشار شَكِيْب أَرْسَلَان في تَعْلِيْقَاته علىٰ حَاضِر العَالَم الإِسْلَامِيّ، إلىٰ هٰذا، وإلىٰ كَرَامَاته.

ورماية وما أشبه ذٰلِكَ. فكان يجلس السَّيِّد في مَرْقَب عال، والفرسان تنقسم صَفَّيْن، ويبدأ الطراد، فلا ينتهي إلَّا في آخر النهار، وأَحيَاناً يضعون هدفاً، ويأخذون بالرماية، حتىٰ كنت ترىٰ طلبة العلم والمريدين أكثرهم فرساناً ورماة، لكثرة ما كان يأخذهم بهٰذَا المران. وكان يجيز السَّابِقين في الطراد أو يقرطسون في الرمي بجوائز ذات قِيْمَة، ترغيباً لهم في فَضَائِل الحَرْب.

لذٰلِكَ أثبتت السَّنُوْسِيَّة قوتها في الحَرْب، حيث صارت تصارع القوىٰ الكُبْرَىٰ(١).

ومع هٰذَا الجانب الروحي والعَمَلِيّ الذي سعىٰ السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ إلىٰ المزاوجة بينهما، والذي نصت عليه الآيات القُرْآنِيَّة والأَحَادِيْث الشَّرِيْفَة، **كان الزهد علىٰ رأسه**، لأن الإنسان عابر سَبِيْل في دنياه، لذٰلِكَ قال:

ألا إنـما الـدنيـا غَـضَـارَةُ أَيْـكَـةٍ   إذا اخْضَرَّ منها جانبٌ جَفَّ جَانِبُ
فـلا تَـكْـتَـحِـلْ عيناكَ يوماً بعَبْرَةٍ   علىٰ ذاهـبٍ منها فإنك ذَاهِـبُ(٢)

الأمر الثاني: الزاوية:

هي ركيزة النظام السَّنُوْسِيّ، وهي التَّطْبِيْق العَمَلِيّ للفكرة الإِصْلَاحِيَّة التي نادىٰ بها مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ(٣).

حقيقتها:

نظام الزوايا معروف في العالم الإِسْلَامِيّ منذ قرون، وذكر السَّيِّد السَّنُوْسِيّ حقيقتها، وهي:

١. أن الزاوية هي في الحقيقة بيت من بيوت الله، ومسجد من مساجده.

---

(١) تَعْلِيْق شَكِيْب أَرْسَلَان علىٰ: حَاضِر العَالَم الإِسْلَامِيّ ج٢ ص١٦٣.
(٢) إِيْقَاظ الوَسْنَان ص١٠.
(٣) الفكر الإِسْلَامِيّ في تطوره ص٩٥.

٢. المقصود من تأسيسها هو تعلم العلم وتَعْلِيْمه، وإقْرَاء القُرْآن وتفهيمه، وإقامة شعائر الدِّيْن للوافدين عليها والمقيمين بها.

٣. ابْتِهَاج الأرض حولها بأنواع الأشجار، فيكثر السكان لكثرة الثِّمَار، وتنتشر العمَارَة، وتتسع الإدارة(١).

محتوياتها:

تتكون الزاويا مما يأتي:

١. بيت خاص لسكن الشَّيْخ، وبيوت خاصة بسكن وَكِيْل الزاوية، ومعلم الأطفال، وبيوت خاصة بالضيوف، وبيوت للطلبة الغرباء ويطلق عليها خلوة، ومُقَسّمَة حسب موطن الغرباء، وكل قسم منها يسمىٰ رباطاً، وبيوت للمرضىٰ، والصِّنَاعَة المهنية، ومساكن الخدم.

٢. المسجد.

٣. المدرسة، لتدريس العُلُوْم الإسْلَامِيَّة لمن أتم حفظ القُرْآن، لإعداده طالباً في الجَامِع الأَزْهَر في المَرْحَلَة العَالِيَة.

٤. المَكْتَبَة.

٥. مخازن لحفظ المؤن، وإصْطَبْل، ومتجر، وفرن.

٦. لها حرم آمن يُلتجأ إليه.

٧. حول أبنيتها ومؤسساتها سور خارجي به عدة أبواب.

٨. حولها مبان يشيدها أغنياء الأهالي، ليأووا إليها في الصيف.

٩. لها متسع من الأراضي الزراعية والآبار والصهاريج لحفظ الماء، وحَدَائِق

(١) الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص٢٣٧.

صَغِيْرَة ملحقة بالبيوت[١].

ولا تقام الزاوية إلَّا في بقعة مُخْتَارة اخْتِيَاراً دقيقاً، بحيث تسهل فيها الحياة، وتؤدي رسالتها، فتقام بجوار الآبار، وأطلال الرُّوْمَان في الصحراء الغربية، ومُلْتَقَىٰ طرق القوافل...[٢].

وأغلب الزوايا مُخْتَار لها أجمل البِقَاع وأخصب الأرضين، وفيها الآبار التي لا تنزح من كثرة مائها، وفي الجبل الأخضر هي بجانب عُيُوْن جارية وأَنْهُر صَافِيَة[٣].

السلطة في الزاوية:

وتتألف من:

١. شَيْخ الزاوية، وهو مُقَدَّم الزاوية القيم عليها، والذي يتولىٰ أُمُور القبيلة، ويفصل الخصومات، ويبلغ الأوامر الصادرة من رئيس النظام السَّنُوْسِيّ، ويخطب الجمعة، ويقود المُجَاهِدِيْن. وأمره مطاع وجوباً باسم السَّيِّد السَّنُوْسِيّ.

٢. مجلس يضم وَكِيْل الزاوية وشُيُوْخ وأَعْيَان القبيلة المرتبطة بها، ووجهاء المُهَاجِرِيْن. ومهمة المجلس النَّظَر في مشاكل الأهالي.

٣. وَكِيْل الدخل والخرج، الذي يلي شَيْخ الزاوية، وإليه النَّظَر في الزراعة وجميع الأُمُور الاقْتِصَادِيَّة.

٤. الشَّيْخ الذي يقيم الصلاة في المسجد، ويعلم الأطفال، ويتولىٰ عُقُوْد النكاح،

(١) الفكر الإسْلَامِيّ في تطوره ص٩٥-٩٦. والحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص٢٣٨.
(٢) الفكر الإسْلَامِيّ في تطوره ص٩٥-٩٦.
(٣) تَعْلِيْق شَكِيْب أَرْسْلَان علىٰ: حَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ ج١ ص٢٩٨.

ويصلي علىٰ الجَنَائِز(١).

أراضي الزاوية:

قد تكون من الأراضي الموقوفة عليها، أو جاءت من طريق الهبة، أو البيع، أو من الأراضي الموات التي استصلحت.

ويقوم بزراعتها سكانها، بإشراف شَيْخها(٢).

موارد الزاوية وعدد سكانها:

موارد الزاوية من الزراعة، وتربية المواشي، والهبات، والزكاة(٣). وكان السَّنُوْسِيُّون يؤدون إلىٰ الإمَام المَهْدِيّ زكاة أموالهم، وكان يفرض عليهم حين الحاجة بعض الضرائب والتكاليف، فَيُلَبُّون أمره(٤). وكان عدد سكان أصغر زاوية خمسين بأطفالهم ونسائهم. أما الزاويا الكَبِيْرَة كالجَغْبُوْب والكُفْرَة فتجاوز عددهم الألف(٥).

انتشار الزوايا:

كانت أول زاوية بناها السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ هي زاوية أبي قُبَيْس بمَكَّة سنة ١٢٥٣هـ=١٨٣٧م، للقيام بالدعوة السَّنُوْسِيَّة، وتتابع بعد ذٰلِكَ بناؤه الزوايا، وتضاعف عددها أيام المَهْدِيّ ابنه، في مِصْر وإستانبول والحِجَاز وطَرَابُلُس وبَرْقَة وتُوْنُس والجَزَائِر والمَغْرِب والسُّوْدَان وما يليها.

واختلفوا في عدد هٰذِهِ الزوايا علىٰ أقوال كثيرة، فذكر دوفرييه ١٢١ زاوية في كتابه

---

(١) تَعْلِيْق شَكِيْب أَرْسْلَان علىٰ: حَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ ج١ ص٢٩٧. والحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص٢٣٨.

(٢) الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص٢٤٠-٢٤٢.

(٣) الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص٢٤٢.

(٤) نشأة الحَرَكَة العَرَبِيَّة الحَدِيْثَة ص٧٧.

(٥) الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص٢٤٢.

الذي كتبه سنة ١٨٨٣م، وذكر بريتشارد ١٤٦ زاوية، ورسم خريطة تبين مَوَاقِعها، وذكر الدَّجَانِيّ أَسْمَاء ١٩٢ زاوية[١].

وسمىٰ شَكِيْب أَرْسَلَان ١٣٢ زاوية، وغالبها ذكر أَسْمَاء شُيُوْخها[٢].

وذكر أَيْضاً في تَعْلِيْق آخر: أن مجموع زوايا السَّنُوْسِيَّة اليوم ثلاثمائة زاوية[٣]. وقال ولا تزال زوايا كثيرة في المَغْرِب والسُّوْدَان والحَبَشَة والصومال مجهولة عندنا[٤]. وقال أَيْضاً: وقد سرنا في طريقنا إلىٰ جِهَاد طَرَابُلُس نحو شهر من إسْكَنْدَرِيَّة...، فكنا بعد كل مَرْحَلَة ثلاث ساعات أو أكثر نجد زاوية سَنُوْسِيَّة، عدا زوايا كثيرة ليست مصاقبة للطريق السُّلْطَانِيّ، فإن لكل قبيلة زاوية، وإذا تعددت فُرُوْع القبيلة فلكل فخذ زاوية[٥].

وعِلَّة انتشارها في الصحراء، هي:

أن السَّيِّد السَّنُوْسِيّ كان يهدف من دعوته إلىٰ إصْلَاح المجتمع الإسْلَامِيّ، ونشر الإسْلَام، ورأىٰ أن أهل البادية تربة خصبة لنشر أفكاره، فهم أبسط تفكيراً من أهل المدن، وأكثر اندفاعاً وإخلاصاً، وهم يعجبون بالعالم، ويسمونه في بعض المناطق بالفَقِيْه، ويعهدون له بتربية أولادهم.

فكان نظام الزوايا مناسباً لحياة البادية، وسد حاجات المُحِيْطين بها التَّعْلِيْمِيَّة والاقْتِصَادِيَّة والقضائية ونحوها، وكانت طريقته الصُّوْفِيَّة منسجمة مع فطرة البدو وتقاليدهم، وذٰلِكَ لأنهم يؤمنون بالأَوْلِيَاء وبكَرَامَاتهم، ولهم مقامات منها مقام سَيِّدِي

---

(١) الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص٢٦١-٢٦٢ و ص٢٨٢-٢٨٥.
(٢) تَعْلِيْق شَكِيْب أَرْسَلَان علىٰ: حَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ ج٢ ص٤٠٤-٤٠٧.
(٣) تَعْلِيْق شَكِيْب أَرْسَلَان علىٰ: الإسْلَام في إفْرِيْقِيَّا: بونه موري - حَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ ج٢ ص٤٠٠.
(٤) تَعْلِيْق شَكِيْب أَرْسَلَان علىٰ: حَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ ج٢ ص٤٠٧.
(٥) تَعْلِيْق شَكِيْب أَرْسَلَان علىٰ: حَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ ج١ ص٢٩٧ وج٢ ص١٤١.

رَافِع الأَنْصَارِيّ في البيضاء، ويحترمون المرابطين من القديم، لجِهَادهم في سَبِيْل الله تعالىٰ.

وصار معنىٰ المرابط في الشمال الإفْرِيْقِيّ يقابل (دَرْوِيْش) في الشرق الإِسْلَامِيّ.

ثم إن نظام الزوايا طريقة للتحضر، فقد ذكر شَكِيْب أَرْسَلَان: أنه لا يوجد في الصحراء مساكن مبنية بالحجر غير الزوايا السَّنُوْسِيَّة(١). ثم إن الصحراء بعيدة عن السلطة، يستطيع العَمَل فيها بحريته.

وقد رأىٰ أهل الصحراء في السَّيِّد السَّنُوْسِيّ الوَلِيّ الصالح، من سُلَالَة الرَّسُوْل ﷺ، والعَالِم الفَقِيْه المُعَلِّم، وصاحب المدرسة والمسجد، والمُحَكَّم الذي يَفُضُّ النزاع القبلي، لذٰلِكَ أثمرت دعوته، وانتشرت فيهم انتشاراً كَبِيْراً(٢).

ولم يقتصر أمر انتشارها علىٰ الصحراء بل عم المدن، وعم البلاد الوثنية المجاورة فآتت أُكُلَهَا، وأينعت ثِمَارها.

وبانتشار الزوايا انتشر الإِسْلَام بالمبشرين به الدارسين في تلك الزوايا. فذكر بونه موري نشاطهم في إفْرِيْقِيَّا، فقال: يرحل كل سنة مئات من دعاة السَّنُوْسِيَّة، لبث دعاية الإِسْلَام في إفْرِيْقِيَّا الداخلية من سواحل الصومال شرقاً إلىٰ السنغامبية غرباً، وصار معهد الجَغْبُوْب أعظم مدرسة لمبشري الإِسْلَام في أواسط إفْرِيْقِيَّا(٣).

وقال ستودارد: اتجهت السَّنُوْسِيَّة وتغلغلت جنوباً في القارة الإفْرِيْقِيَّة مبشرة بالرِّسَالَة المُحَمَّدِيَّة، حيث هنالك الملايين من الزِّنْج الوثنيين طفقوا يقبلون أيما إقبال علىٰ الدخول في الإِسْلَام أفواجاً(٤).

---

(١) تَعْلِيْق شَكِيْب أَرْسَلَان علىٰ: حَاضِر العَالَم الإِسْلَامِيّ ج١ ص٢٩٧.

(٢) الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص٢٦٣-٢٦٨.

(٣) الإِسْلَام في إفْرِيْقِيَّا: بونه موري - حَاضِر العَالَم الإِسْلَامِيّ ج٢ ص٤٠٠.

(٤) حَاضِر العَالَم الإِسْلَامِيّ ج١ ص٣٠٠.

وقال ايوالدفولز: وزِيَـادَة عدد الحجيج في منطقة بُحَيْرَة تشاد يعود إلىٰ تَأْثِير السَّنُوْسِيَّة، تلك القوة العَظِيْمَة في أواسط إفْرِيْقِيَّا، فالأثر الروحي لهٰذِهِ القوة عَظِيْم، وقد حولت السَّنُوْسِيَّة الزنوج الوثنيين إلىٰ الإسْلَام، ونافست بنجاح البعثات التبشيرية المَسِيْحِيَّة، وأثرت بقوة علىٰ الزنوج وحَضَّرتهم[1].

وأصبحت عدة قبائل إفْرِيْقِيَّة كانت من قبل وثنية أو مسلمة إسْلَاماً اسمياً من أتباع الإسْلَام المتحمسين، منذ أن حل فيهم دعاة السَّنُوْسِيَّة، كقبيلة (بِيْلي) التي تسكن بلاد إِنِيدي الجبلية شرقي بُوْرْكو، فأسلم وثنيوها، وعرف الباقون من المُسْلِمِيْن فيها إسْلَاماً سطحياً حقيقة الإسْلَام.

وكشعب (التِّيْدَا) في بلاد تِيْبِسْتي بالصحراء جنوبي واحة فَزَّان، حيث عرفوا حقيقة الإسْلَام بعد أن كانت معرفتهم به سطحية.

ويقوم دعاة السَّنُوْسِيَّة بدعاية نشيطة في بلاد الجَلَّا، فيرسلون إليها كل عام دعاة من (هَرَر)، حيث تتمتع السَّنُوْسِيَّة هناك بنفوذ كَبِيْر، ومنهم كل الرؤساء في بلاط الأَمِيْر تَقْرِيْباً بدون استثناء[2].

وهٰكَذَا ألقت السَّنُوْسِيَّة أشعتها، وأرسلت روادها إلىٰ معظم إفْرِيْقِيَّا الشمالية، وحتىٰ جَزِيْرَة العَرَب، وحتىٰ جزر المَلَايُو، يقيمون مراكز لمُعَارَضَة سَيْطَرَة القوات الغَرِيْبَة عن الإسْلَام، وأثبتت السَّنُوْسِيَّة قدرتها البَالِغَة علىٰ التوسع الدِّيْنِيّ[3].

---

(١) الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص٢٧٤.

حتىٰ قال بَامَّات في مجالي الإسْلَام ص٤٩٢: وحَوَّلَ السَّنُوْسِيُّون في قليل من السنين مئات الأُلوف من زنوج جنوب إفْرِيْقِيَّا الغربي إلىٰ مُسْلِمِيْن.

(٢) الدعوة إلىٰ الإسْلَام ص٣٧٢.

(٣) مجالي الإسْلَام ص٤٩١.

وانظر: الدعوة إلىٰ الإسْلَام ص٣٧١.

وما زالت أقطار شمال إفْرِيْقِيَّا من أقصاها إلىٰ أقصاها مستقر السَّنُوْسِيَّة، فمن مُرَّاكُش حتىٰ الصومال ترىٰ البلاد مرصعة بالزوايا(١).

وبسبب هٰذَا النشاط السَّنُوْسِيّ وتوسعه الكَبِيْر، شكت جمعيات المبشرين بأسرها حزنها من نجاح الإسْلَام في أواسط إفْرِيْقِيَّا كالنيجر والكونغو والكامرون وديار بُحَيْرَة تشاد، وأكثر شكواها موجه إلىٰ الطريقة السَّنُوْسِيَّة، قال شَكِيْب: كما طالعنا في مؤلفات أوربية عديدة(٢).

● **ومن طرق السَّنُوْسِيِّيْن في نشر الدعوة:**

أنهم كانوا يشترون الأرقاء صغاراً من السُّوْدَان، ويربونهم في جَغْبُوْب وغَدَامِس وغيرهما، ثم متىٰ أَكْمَلوا تَحْصِيْل العُلُوْم اعتقوهم، وسرحوهم إلىٰ أطراف السُّوْدَان، يهدون أبناء جلدتهم(٣).

ودعاة السَّنُوْسِيَّة يخرجون بهيئة تجار أو بهيئة مبشرين يهدون إلىٰ الإسْلَام الأقوام الفتيشيين، ويبنون زوايا جديدة في هٰذِهِ الأقطار الوَاسِعَة الشاسعة الممتدة من شمال إفْرِيْقِيَّا إلىٰ أقصىٰ أقاصي السُّوْدَان.

وأَحيَاناً يؤسسون مَمَالِك، مثل: سَلْطَنَة رَابِح، وأَحْمَدو، وساموري(٤).

وقدر عدد السَّنُوْسِيِّيْن دوفريه سنة ١٨٣٣م بحوالي ثلاثة ملايين نسمة، بينما

---

(١) حَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ ج١ ص٢٩٦.

(٢) تَعْلِيْق شَكِيْب أَرْسَلَان علىٰ: حَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ ج٢ ص١٦٣.

(٣) الإسْلَام في إفْرِيْقِيَّا: بونه موري - حَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ ج٢ ص٤٠٠. والدعوة إلىٰ الإسْلَام ص٣٧٢.

(٤) الإسْلَام في إفْرِيْقِيَّا: بونه موري - حَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ ج٢ ص٤٠٠، وأشار إلىٰ كوبولاني.

قدرهم بونه موري بأربعة ملايين(١).

أما الشَّيْخ مخلوف فقد ذكر أنهم يعدون بعشرات الملايين، منتشرون في العالم الإسْلَامِيّ(٢).

تنظيم الزوايا:

كان السَّنُوْسِيُّون علىٰ درجات:

١. المتسبون، وهم السواد الأعظم من أتباع الطريقة.

٢. المريدون، وهم المقيمون في الزوايا إقامة دائمة، وهم عِمَاد الطريقة، ويشتغلون بالزراعة، وعلىٰ استعداد للجِهَاد.

٣. شُيُوْخ الزوايا، وهم رؤساء الزوايا، وحُكَّام المنطقة التي تقوم فيها الزاوية.

٤. الخواص، الذين يتألف منهم مجلس السَّنُوْسِيَّة الأعلىٰ برئاسة الإمَام(٣).

ومجلس السَّنُوْسِيَّة كان يتألف علىٰ عهد السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ من السَّادَة:

أَحْمَد الريفي من الجَزَائِر، وعَلِيّ عَبْد المَوْلَىٰ من سَفَاقُس بتُوْنُس، وعِمْرَان بن بَرَكَة الفَيْتُوْرِيّ من ليبيا الغربية، ومُحَمَّد مُصْطَفَىٰ المَدَنِيّ من تِلِمْسَان بالجَزَائِر، ومُحَمَّد البَكْرِيّ من واحة بِسْكِرَة بالجَزَائِر.

ومهمة هٰذَا المجلس إعداد وتَوْجِيْه الزوايا السَّنُوْسِيَّة علىٰ أُصُوْل الفكرة

---

(١) الإسْلَام في إفْرِيْقِيًا: بونه موري - حَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ ج٢ ص٤٠٠. والحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص٢٧٥.

(٢) شَجَرَة النّوْر الزَّكِيَّة ص٣٩٩.

(٣) نشأة الحَرَكَة العَرَبِيَّة الحَدِيْثَة ص٧٧.

السَّنُوْسِيَّة وطريقتها[١].

وكانت الزوايا السَّنُوْسِيَّة في مختلف البلاد تتلقىٰ أوامرها وتَعْلِيماتها من السَّيِّد الإمَام في زاويتهم الرئيسة بنظام رائع متناسق، فكان الإمَام بمثابة حاكم وسُلْطَان عَظِيْم، وهو مطاع وجوباً من قبل السَّنُوْسِيِّيْن.

ودقة النظام هٰذِهِ لم يسبق لها مثيل في سائر الجمعيات، سياسية كانت أو دينية، خفية أو علنية[٢].

وكان للقبائل المجاورة للزوايا فضل في معاونة رِجَال السَّنُوْسِيَّة علىٰ القيام برسالتها، سواء في تَمْكِيْنهم بالمساعدات المالية والعَيْنِيّة السخية، أو في تأمينهم من تعرض الأعراب أو غزوهم الزاوية[٣].

وهٰكَذَا أصبحت الزوايا مركز نشاط كَبِيْر، يعنىٰ بشؤون الدِّيْن والدنيا، وجعلت القُرْآن الكَرِيْم دُسْتُوْراً عَمَلِيّاً للمُسْلِمِيْن في حياتهم. واتجهت رسالتها إلىٰ تَصْفِيَة النفوس من الأحقاد، وبناء جَمَاعَة قَوِيَّة متساندة لا يغمز جانبها العدو.

وتحولت الزوايا عند بِدَايَة الغزو الإيطالي لليبيا سنة ١٩١١م إلىٰ مراكز للمقاومة الشَّعْبِيَّة التي استمرت إلىٰ سنة ١٩١٨م، ولم تنته المقاومة إلَّا بعد إبادة الاستعمار الغربي البقية من السَّنُوْسِيِّيْن، فسلمت إنجلترا جَغْبُوْب إلىٰ ايطاليا باسم حكومة مِصْر، ودخلت فرنسا فَزَّان باسم باي تُوْنُس، وباسم المحافظة علىٰ تُوْنُس.

وكان آخر عمل وحشي للإجهاز علىٰ المقاومة الشَّعْبِيَّة إلقاء عُمَر المُخْتَار، من قادة الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة، من طائرة حلقت به فوق جمع كَبِيْر من اللِّيْبِيِّيْن، إثارة للرعب

(١) الفكر الإسْلَامِيّ في تطوره ص٩٧.

(٢) الاجتماع الدِّيْنِيّ: الخَشَّاب ص٣٧١ و٣٧٣. وحَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ ج١ ص٢٩٧-٢٩٨.

(٣) الفكر الإسْلَامِيّ في تطوره ص٩٨.

في قلوبهم.

وبعد انتهاء المقاومة الشَّعْبِيَّة اتخذ الإيطاليون الزوايا نقاط حراسة علىٰ الحدود، ولتتبع بقية السَّنُوْسِيِّيْن[١].

السَّنُوْسِيَّة والاستعمار الأوربي:

أحرزت الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة تقدماً هائلاً في الشمال الإفْرِيْقِيّ، وتحولت قبائل وثنية إلىٰ الإسْلَام، وأخفقت أمامها البعثات التبشيرية الأوربية.

فدعا ذٰلِكَ فرنسا إلىٰ أن تعاديها، وتشوه حقيقتها، فأرسلت عدداً من الرحالة يستكشفون أمرها، منهم دوفرييه الذي ذكر أنها خطر عَظِيْم يتهدد مصالح فرنسا والمَسِيْحِيَّة في إفْرِيْقِيَّا، وأنها هي المسؤولة عن جميع حوادث اغتيال الرحالة الأوربيين في الصحراء، وأنها مُتَعَصِّبة ضد اليَهُوْد والنَّصَارَىٰ، وأنها ساعدت جميع الثورات في الجَزَائِر، ووَافَقَهُ آخرون كالرحالة لوي رين، ومونتيه، وهوايت، وفيرود.

والحق أنها خطر ضد مصالح فرنسا، وساعدت ثورات الجَزَائِر، وهو أمر طبيعي لدعوة إسْلَامِيَّة تحافظ علىٰ مصالح المُسْلِمِيْن.

أما كونها مُتَعَصِّبة ضد اليَهُوْد والنَّصَارَىٰ فهو افتراء، لأن دعاتها متمسكون بالإسْلَام، والإسْلَام يأبىٰ ذٰلِكَ، لا سِيَّمَا وأن المُؤَيَّد لاحظ أن نَصَارَىٰ ويَهُوْد بَرْقَة يقسمون باسم المَهْدِيّ، ولٰكِن يصدق هٰذَا الكلام علىٰ كراهيتهم للمستعمرين، وهٰذَا أمر مشهور لا يشك فيه أحد، وقد انتقد افتراء هٰؤُلَاءِ بريتشارد والحشائشي[٢].

---

(١) الفكر الإسْلَامِيّ في تطوره ص٩٦-٩٧.

وانظر كلاماً وَاسِعاً عن الزاوية وتنظيماتها في: الثِّمَار الزَّكِيَّة للحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة ص٧٧-٩٢.

(٢) الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص١٩٧-١٩٩.

ونظراً للسُّلْطَان الذي يتمتع به السَّيِّد السَّنُوْسِيّ في قومه كانت الحكومات الغربية من فرنسية وإنجليزية وإيطالية تتحاشَاه، متبعة معه سِيَاسَة الحذر واللين. كما كان هو يتحاشَاها أَيْضاً، لأنه موقن أن تحرر المُسْلِمِيْن السياسي يجب أن يسبقه انتشار التجدد الروحاني والدعوة الأَخْلَاقِيَّة في المُسْلِمِيْن.

فلهٰذَا لم يتوقف في جِهَاده نحو إدراك هٰذِهِ الغَايَة: بتَهْذِيْب أَخْلَاق رعيته وترقيتها، وبتَحْسِيْن أسباب المعايش، وتوفير وَسَائِل الكسب، وإنماء الزراعة، وتنشيط التجارة، وبنشر المدارس، وإقامة الزوايا، وتَعْلِيْم الناس طاعة الوكلاء والمُقَدّمين[1].

السَّنُوْسِيَّة والدولة العُثْمَانِيَّة:

ذكر البعض: أن العلاقة بين السَّنُوْسِيِّيْن والعُثْمَانِيِّيْن لم تكن علىٰ الود والإخلاص، وأن السَّنُوْسِيّ ناصب السُّلْطَان عَبْد الحَمِيْد العداء، وأن الأتراك يخشون حركته[2].

إلَّا أن هٰذَا وهم، أُريد منه إيجاد فجوة بينهما.

ويكفي في رده: أن السَّنُوْسِيّ وإن كان إدْرِيْسِيّاً من نسل قُرَيْش، ويعتقد أن الإمَامَة محصورة بقُرَيْش، إلَّا أنه كان يرىٰ أن الدولة العُثْمَانِيَّة سياج الأُمَّة ورمز وحدتها، باعتبارها ملجأ الإسْلَام، والسُّلْطَان هو أكبر ملوك المُسْلِمِيْن. ومما يَدُلّ علىٰ حسن العلاقة بين الطرفين ما يأتي:

أن السَّيِّد السَّنُوْسِيّ حين نزل في طَرَابُلُس أوائل سنة ١٢٥٧هـ احتفل به أشقر باشا والي طَرَابُلُس من سنة ١٢٥٤هـ إلىٰ ١٢٥٨هـ، وبايعه علىٰ أخذ الطريقة منه.

وانظر: تَعْلِيْق شَكِيْب أَرْسَلَان علىٰ: حَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ ج٢ ص١٤٠. والإسْلَام في إفْرِيْقِيَّا: بونه موري - حَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ ج٢ ص٣٩٨.

(١) حَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ ج١ ص٢٩٨-٣٠٠.

(٢) حَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ ج١ ص٢٩٠ و٢٩٦ و٢٩٨.

وكذٰلِكَ كانت العلاقة بين السَّيِّد السَّنُوْسِيّ والولاة الآخرين، مثل: مُحَمَّد أمين باشا (سنة ١٢٥٨-١٢٦٤هـ)، ومُحَمَّد باشا صالح حاكم بنغازي.

وأرسل السَّنُوْسِيّ شَيْخ زاوية بنغازي إلىٰ إستانبول، فحصل من السُّلْطَان عَبْد المَجِيْد علىٰ فرمان سنة ١٨٥٦هـ يعفي أملاك الزوايا من الضرائب، ويسمح لها بجباية نقود من أتباعها، وحصل أبو القَاسِم العيساوي علىٰ فرمان آخر من السُّلْطَان عَبْد العَزِيْز يؤكد الفرمان الأول[1].

وجهد السُّلْطَان عَبْد الحَمِيْد في التعرف علىٰ السَّنُوْسِيَّة، فطلبت الداخلية من واليها في طَرَابُلُس كَمَال باشا (سنة ١٨٩٣-١٨٩٨م)، فأجاب:

بأن ما يدور في زوايا الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة هو: تلاوة القُرْآن، وتَعْلِيْم أُصُوْل الدِّيْن وبَاقِي العُلُوْم والآداب.

وذكرت الرِّسَالَة فائدة الزاوية في تحويل عُرْبَان البادية إلىٰ أُنَاس عرفوا شرف الدِّيْن والدنيا، وأُصُوْل المَذْهَب، والشَّرِيْعَة، وطاعة أُولي الأمر.

وبهٰذَا خدموا الإنسانية والإسْلَام، وهم علىٰ أتم ورع وصَلَاح، وليس لهم ما يغاير الشَّرِيْعَة، وليس لهم أطوار مخالفة للتَّابِعِيَّة للخِلَافَة، ونفىٰ عنهم الشائعات المغرضة[2].

وأوفد السُّلْطَان عَبْد الحَمِيْد أَيْضاً رَشِيْد باشا والي بنغازي ومعه الصَّادِق المُؤَيَّد العظم إلىٰ جَغْبُوْب سنة ١٨٨٩م، فأحسن المَهْدِيّ استقبالهم، وأراهم الزاوية وما فيها.

وفي سنة ١٨٩٥هـ أكد المَهْدِيّ إخلاصه للسُّلْطَان حين أرسل الشَّيْخ العيساوي إلىٰ إستانبول يطلب تأكيد الفرمانات الصادرة للسَّنُوْسِيِّيْن.

---

(١) الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص٨٠ و١٠٣-١٠٥ و١٦٣. والفكر الإسْلَامِيّ في تطوره ص٩٩. وحَرَكَة الجَامِعَة الإسْلَامِيَّة ص٢٣٠.

(٢) الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص٢٠٤.

ومما زاد السُّلْطَان عَبْد الحَمِيْد ثِقَة بالحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة كثرة شكايات الدول الأوربية من الحَرَكَة[1]، وقد رأىٰ السُّلْطَان فيها قوة عَسْكَرِيَّة مُعَدَّة إعداداً مادياً ومعنوياً للمواجهة العَسْكَرِيَّة المتوقعة مع العدو، فجهزها بالمقدار الكافي من الأسلحة والعتاد، كما ذكر في مذكراته.

وبَيَّنَ في رسالته إلىٰ المَهْدِيّ السَّنُوْسِيّ الوَسَائِل العَمَلِيَّة الواجبة الاتباع لمواجهة المبشرين، وذٰلِكَ بتكثير عدد الدعاة والعُلَمَاء، وإعدادهم الإعداد المناسب، وبثهم في أنحاء إفْرِيْقِيَّا لنشر الإسْلَام، والتأكيد علىٰ أهمية الخِلَافَة في حياة المُسْلِمِيْن، ودور وحدتهم في دفع العدو[2].

هٰذَا كله يوضح أن الشَّيْخ السَّنُوْسِيّ لم يطمع بالخِلَافَة، ولم يحارب الدولة العُثْمَانِيَّة، وكذٰلِكَ ابنه المَهْدِيّ من بعده. بل كانا يرميان إلىٰ المحافظة علىٰ الاستقرار، ودفع الاضطراب الذي عم البلاد، وخاصة بعد احتلال فرنسا للجَزَائِر.

وأن ما وصل إلىٰ مسامع الولاة والسُّلْطَان من تشكيك بذٰلِكَ الولاء، لم يَبْقَ له من أثر بعد انجلاء حقيقة موقف السَّنُوْسِيَّة الإيْجَابِيّ من الدولة العُثْمَانِيَّة.

طابع الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة:

تميزت الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة بأنها:

١. حَرَكَة إسْلَامِيَّة، أنشأها السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ، لها أثرها في مقاومة الاستعمار الغربي، وتأسيس الدولة اللِّيْبِيَّة الحَدِيْثَة.

---

(١) انظر الشكاوىٰ في: تَعْلِيْق شَكِيْب أَرْسْلَان علىٰ: حَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ ج٢ ص١٦٢.

(٢) حَرَكَة الجَامِعَة الإسْلَامِيَّة ص٢٣١-٢٣٤.

وانظر قصيدة أبي النَّصْر مقرب شاعر السَّنُوْسِيِّيْن التي يمدح بها المَهْدِيّ، ويذكر فيها ولاءه للسُّلْطَان. / تَعْلِيْق شَكِيْب أَرْسْلَان علىٰ: حَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ ج١ ص٢٩٠.

٢. حَرَكَة عامة، امتدت من الجَزِيْرَة العَرَبِيَّة والشَّام إِلىٰ المَغْرِب، ولم تختص بقوم معينين.

٣. حَرَكَة روحية، تهدف إِلىٰ تطهير النفوس وصفائها.

٤. حَرَكَة سياسية، تهدف إِلىٰ القيام بواجبات الدولة نحو رعاياها في فصل الخصومات بينهم، والدفاع عن البلاد عند هجوم العدو، وصيانة الخِلَافَة العُثْمَانِيَّة.

٥. حَرَكَة فكرية، تهدف إِلىٰ تَوْضِيْح مبادئ الإِسْلَام من الكِتَاب والسُّنَّة، متخذة أُسْلُوْب الإِقْنَاع واللين في الدعوة.

٦. حَرَكَة تَعْلِيْمِيَّة، تسعىٰ إِلىٰ تَنْوِيْر أتباعها بهدي الكِتَاب والسُّنَّة.

٧. حَرَكَة اجتماعية، فكانت دعوة إِلىٰ العِبَادَة والسعي في الحياة معاً، وإعداد الفرد إعداداً فكرياً وعَسْكَرِيّاً ليدافع عن النفس والوطن[1].

ولما كانت الحَرَكَة قد سعت إِلىٰ إعادة الإِسْلَام بصفائه وبريقه الأول إِلىٰ المجتمع، واتخذت الوَسَائِل الكفيلة بالوُصُوْل إِلىٰ هٰذَا الهدف، نجحت في:

١. إقامة سلطة تبعها الناس بقناعتهم، لأنها نابعة من إيمانهم.

٢. إِصْلَاح المجتمع والنفوس، فاتجهت إِلىٰ البناء والإنتاج ونشر الفَضَائِل ومحاربة الرَّذِيْلَة.

٣. نشر الإِسْلَام بين القبائل الوثنية، وتوكيده فيمن كان إِسْلَامه سطحياً.

فخرجت تلك القبائل البدائية من عالم الهمجية وظلمات الجهالة إِلىٰ عالم النُّوْر والتحضر.

---

(١) الفكر الإِسْلَامِيّ في تطوره ص١٠٠-١٠١.

وهٰذِهِ النتائج قصارىٰ ما يمكن تَحْقِيْقه في مجتمع بَدَوِيّ، أو مشابه له، متخلفٍ من جميع النواحي. فرفرف السَّلَام علىٰ البلاد، وسادت الطمأنينة النفوس والأموال والأعراض، بشكل ليس له مثيل في البلاد.

أما مؤاخذة السَّنُوْسِيَّة علىٰ أنها لم تهتم بالعُلُوْم العَمَلِيَّة[1]، فلا أراها وَارِدَة، لأن تلك العُلُوْم تحتاج إلىٰ مجتمع متحضر متقدم، ينشأ أبناؤه علىٰ الدراسة في معاهد متخصصة لها قدراتها وإمكاناتها، وهٰذِهِ لا تتوفر في المجتمع البَدَوِيّ الذي نشأت دعوته فيه، مع ملاحظة أن المَهْدِيّ كان يحرص علىٰ التَّدْرِيْب العَسْكَرِيّ للمريدين، ويتعهد بنادقه بنفسه ليقتدي به الناس.

ولعل حَرَكَة الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه أقرب الحَرَكَات الإِسْلَامِيَّة إلىٰ الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة من حيث: ضرورة الرجوع إلىٰ طريقة السَّلَف، وتطهير الدِّيْن من البدع والخرافات، وضرورة نشر التَّعْلِيْم الدِّيْنِيّ الصَّحِيْح، ونبذ التعصب، والاستفادة من تفكير الغرب بالقدر الذي ينهض بالقوم[2].

---

(١) الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: الدَّجَانِيّ ص٢٧٩.

(٢) الاجتماع الدِّيْنِيّ: الخَشَّاب ص٣٧٥.

فِهْرِس المَصَادِر[١]

- **إتْحَاف المُنْصِفِيْن والأُدَبَاء في الاحتراس عن الوَبَاء**: حمدان خوجة، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٢٥٥هـ.

تقديم وتَحْقِيْق: مُحَمَّد بن عَبْد الكَرِيْم.

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجَزَائِر، سنة ١٩٦٨م.

- **الاجتماع الدِّيْنِيّ**: الدكتور أَحْمَد الخَشَّاب.

الطَّبْعَة الثالثة، مَكْتَبَة القَاهِرَة الحَدِيْثَة، دار الاتحاد العَرَبِيّ للطِّبَاعَة، سنة ١٩٧٠م.

- **اخْتِصَار عُلُوْم الحَدِيْث**: الحافظ عِمَاد الدِّيْن أبو الفِدَاء إسْمَاعِيْل بن عُمَر بن كَثِيْر القُرَشِيّ الدِّمَشْقِيّ الشَّافِعِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٧٧٤هـ=١٣٧٣م.

وشرحه:

البَاعِث الحَثِيْث، لأَحْمَد مُحَمَّد شَاكِر، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٧٧هـ=١٩٥٨م.

الطَّبْعَة الثالثة، مَطْبَعَة مُحَمَّد عَلِيّ صبيح وأولاده، القَاهِرَة، سنة ١٣٧٧هـ=١٩٥٨م.

---

(١) رَتَّبْتُ المصادرَ حسب الحروف الهِجائية، دون اعتبار لـ (ال، أبو، ابن).

وأَثْبَتُّ التواريخَ المِيْلَادِيَّة علىٰ النَّحْو الوارد في كتاب (**الأَعْلَام**) للزِّرِكْلِيّ، ومُخْتَصَره كتاب (**مُعْجَم الأَعْلَام**) لبَسَّام عَبْد الوَهَّاب الجَابِيّ، وكذا الوارد في (**مُعْجَم المُؤَلِّفِيْن**) لعُمَر رِضَا كَحَّالَة، و(**تَكْمِلَة مُعْجَم المُؤَلِّفِيْن**) لمُحَمَّد خَيْر رَمَضَان يُوْسُف.

وقَارَنْتُ التَّارِيْخَيْنِ الهِجْرِيّ والمِيْلَادِيّ للتأكد من تَوَافُقِهِمَا، بما ورد في كتاب (**جدول السِّنِيْن الهِجْرِيَّة بلياليها وشهورها بما يُوَافِقها من السِّنِيْن المِيْلَادِيَّة بأيامها وشهورها**) للمستشرق ف. وِيْسْتَنْفِلْد، الذي ترجمه إلىٰ اللُّغَة العَرَبِيَّة: د. عَبْد المُنْعِم مَاجِد، وعَبْد المُحْسِن رَمَضَان.

● **الإِرْشَاد إِلىٰ قواطع الأَدِلَّة في أُصُوْل الاعْتِقَاد**: إِمَام الحَرَمَيْن أبو المَعَالي ضِيَاء الدِّيْن عَبْد المَلِك بن عَبْد الله بن يُوْسُف الجُوَيْنِيّ النَّيْسَابُوْرِيّ الشَّافِعِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٤٧٨هـ=١٠٨٥م.

تَحْقِيْق: أ. د. مُحَمَّد يُوْسُف مُوسَىٰ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٨٣هـ=١٩٦٣م، وعَلِيّ عَبْد المُنْعِم عَبْد الحَمِيْد.

الطَّبْعَة الثالثة، الناشر: مَكْتَبَة الخانجي، القَاهِرَة، الشركة الدولية للطِّبَاعَة، القَاهِرَة، سنة ١٤٢٢هـ=٢٠٠٢م.

● **إِرْشَاد السَّارِي إِلىٰ شَرْح صَحِيْح البُخَارِيّ**: شِهَاب الدِّيْن أَحْمَد بن مُحَمَّد القَسْطَلَّانِيّ الشَّافِعِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٩٢٣هـ=١٥١٧م.

والبُخَارِيّ هو الإِمَام أبو عَبْد الله مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيْل بن إِبْرَاهِيْم بن المُغِيْرَة بن بَرْدِزْبَهْ الجُعْفِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٢٥٦هـ=٨٧٠م.

وبهامشه:

شَرْح الإِمَام النَّوَوِيّ أبي زَكَرِيَّا مُحْيِي الدِّيْن يَحْيَىٰ بن شَرَف بن مُرِي **النَّوَوِيّ** أو النَّوَاوِيّ الشَّافِعِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٦٧٦هـ=١٢٧٧م، **علىٰ صَحِيْح مُسْلِم** بن الحَجَّاج القُشَيْرِيّ النَّيْسَابُوْرِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٢٦١هـ=٨٧٥م.

دار الكتاب العَرَبِيّ، بَيْرُوْت، وهي الطَّبْعَة المُصَوَّرَة عن الطَّبْعَة السابعة التي طبعت بالمَطْبَعَة الأَمِيْرِيَّة، بُوْلَاق، مِصْر، سنة ١٣٢٣-١٣٢٧هـ.

● **الأُسْتَاذ الإِمَام**: الأُسْتَاذ مُصْطَفَىٰ عَبْد الرازق، وَزِيْر الأوقاف وشَيْخ الأَزْهَر، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٦٦هـ=١٩٤٧م.

وهي مَقَالَة كانت مُقَدِّمَة لكتاب (دروس من القُرْآن الكَرِيْم) لمُحَمَّد عَبْدُه.

كتاب الهِلَال، العدد ٩٦، مِصْر، سنة ١٩٥٩م.

● **الإِسْلَام في إِفْرِيْقِيّا**: المسيو بونه موري. ملخصُهُ في: حَاضِر العَالَم الإِسْلَامِيّ، الجزء الثاني ص٣٦٠-٤٠١.

- **الإِسْلَام والتجديد في مِصْر**: الدكتور تشارلز آدمس.

ترجمة: عَبَّاس مَحْمُوْد.

قدم له: مُصْطَفَىٰ عَبْد الرازق، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٦٦هـ=١٩٤٧م.

لجنة ترجمة دائرة المَعَارِف الإِسْلَامِيَّة، القَاهِرَة، سنة ١٩٣٥م.

- **الإِسْـلَام والـنَّـصْـرَانِـيَّة مع العلم والـمَـدَنِـيَّـة**: الـشَّـيْـخ مُـحَـمَّـد عَـبْـدُه، الـمُـتَـوَفَّـىٰ سنة ١٣٢٣هـ=١٩٠٥م.

مَطْبَعَة مُحَمَّد عَلِيّ صبيح، القَاهِرَة، سنة ١٣٧٣هـ=١٩٥٤م.

- **أُصُوْل الدِّيْن**: جمال الدِّيْن أَحْمَد بن مُحَمَّد بن مَحْمُوْد الحَنَفِيّ الغَزْنَوِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٥٩٣هـ=١١٩٧م.

تَحْقِيْق وتَعْلِيْق: د. عُمَر وفيق الدَّاعُوْق.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، دار البشائر الإِسْلَامِيَّة، سنة ١٤١٩هـ=١٩٩٨م.

- **الأَعْـلَام - قَـامُـوْس تَـرَاجُـم لأَشهر الـرِّجَـال والنساء من الـعَـرَب والمُـسْـتَـعْـرِبِـيْـن والمُسْتَشْرِقِيْن**: خَير الدِّيْن بن مَحْمُوْد بن مُحَمَّد الزِّرِكْلِيّ الدِّمَشْقِيّ، المُتَوَفَّىٰ بالقَاهِرَة سنة ١٣٩٦هـ=١٩٧٦م.

الطَّبْعَة الرابعة، دار العِلم للملايين، سنة ١٩٧٩م.

- **أَعْلَام ليبيا**: طاهر أَحْمَد الزاوي، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٤٠٦هـ=١٩٨٦م.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، دار إحياء الكتب العَرَبِيَّة، عِيسَىٰ البابي الحَلَبِيّ، القَاهِرَة، سنة ١٩٦١م.

- **الأَعْمَال الكَامِلَة للإمَام مُحَمَّد عَبْدُه، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٢٣هـ=١٩٠٥م.**

جَمَعَهَا وحَقَّقَهَا: أ. د. مُحَمَّد عُمَارَة، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٤٤١هـ=٢٠٢٠م.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، المُؤَسَّسَة العَرَبِيَّة للدراسات والنشر، بَيْرُوْت، سنة ١٩٧٢-١٩٧٤م. وهي في ستة مجلدات:

المجلد الأول: الكتابات السياسية. وفي أول هٰذَا المجلد إلىٰ ص٢٦٧ منه، دراسة معمقة في الفكر السياسي والاجتماعي للأُسْتَاذ الإمَام، وجوانب إصْلَاحه وحياته، كتبها: الأُسْتَاذ مُحَمَّد

عُمَارَة محقق هٰذِهِ الأَعْمَال.

المجلد الثاني: الكتابات الاجتماعية.

المجلد الثالث: الإصْلَاح الفكري والتربوي والإلٰهِيَّات.

المجلد الرابع والخامس: في تَفْسِيْر القُرْآن الكَرِيْم.

المجلد السادس: الفَتَاوَىٰ، والفَهَارِس العامة.

● **أَعْيَان القرن الثالث عشر في الفكر والسِّيَاسَة والاجتماع**: خَلِيْل مَرْدَم بك، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٧٩هـ=١٩٥٩م.

قَدَّمَ له وعَلَّقَ حَوَاشِيَه نَجْلُهُ: عَدْنَان مَرْدَم بك، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٤٠٨هـ=١٩٨٨م.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، لجنة التُّرَاث العَرَبِيّ، بَيْرُوْت، لُبْنَان، سنة ١٩٧١م.

● **الإِمَام عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، رائد النهضة العِلْمِيَّة والفكرية**: الأُسْتَاذ الزُّبَيْر بن رحال.

دار الهُدَىٰ للطِّبَاعَة والنشر والتوزيع، الجَزَائِر.

● **الإِمَام عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، الزعيم الروحي لحَرْب التَّحْرِيْر الجَزَائِرِيَّة**: د. مَحْمُوْد قَاسِم.

دار المَعَارِف، مِصْر، سنة ١٩٦٨م.

● **انتشار الإِسْلَام في القارة الإِفْرِيْقِيَّة**: الدكتور حسن إِبْرَاهِيْم حسن، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٨٨هـ=١٩٦٨م.

الطَّبْعَة الثالثة، مَكْتَبَة النهضة المِصْرِيَّة، سنة ١٩٨٤م.

● **الأَنْسَاب**: أبو سَعْد عَبْد الكَرِيْم بن مُحَمَّد بن مَنْصُوْر التَّمِيْمِيّ السَّمْعَانِيّ المَرْوَزِيّ الشَّافِعِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٥٦٢هـ=١١٦٦م.

حَقَّق ج١-٦ عَبْد الرَّحْمٰن بن يَحْيَىٰ المُعَلِّمِيّ اليَمَانِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٨٦هـ=١٩٦٦م. و ج٧-٨ مُحَمَّد عَوَّامَة. و ج٩ مُحَمَّد عَوَّامَة ورياض مُرَاد. و ج١٠ عَبْد الفَتَّاح مُحَمَّد الحُلْو. و ج١١ رياض مُرَاد ومطيع الحافظ. و ج١٢ أكرم البوشي.

الناشر: مُحَمَّد أمين دمج، بَيْرُوْت، لُبْنَان.

ج١-٦ الطَّبْعَة الثانية سنة ١٤٠٠هـ=١٩٨٠م. ج٧ الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ سنة ١٣٩٦هـ=١٩٧٦م.

ج٨ بلا تَارِيْخ ولا طَبْعَة، والجزءان ٧–٨ في مَطْبَعَة مُحَمَّد هَاشِم الكُتُبِيّ بدِمَشْق. ج٩ الطَّبْعَة الثانية سنة ١٤٠١هـ=١٩٨١م. ج١٠ الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ سنة ١٤٠١هـ=١٩٨١م. ج١١ الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ سنة ١٤٠٥هـ=١٩٨٤م. ج١٢ الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ سنة ١٤٠٤هـ=١٩٨٤م.

● **إِيْضَاح المَكْنُوْن في الذَّيْل علىٰ كَشْف الظُّنُوْن عن أَسَامِي الكتب والفُنُوْن**: إِسْمَاعِيْل باشا بن مُحَمَّد أمين بن ميرسَلِيْم البابانِي أَصْلاً، والبَغْدَادِيّ مولداً ومسكناً، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٣٩هـ=١٩٢٠م.

طبع بعِنَايَة: مُحَمَّد شَرَف الدِّيْن يالتقايا، ورفعت بيلكه الكليسي.

منشورات مَكْتَبَة المُثَنَّىٰ، بَغْدَاد، وهي الطَّبْعَة المُصَوَّرَة علىٰ طَبْعَة إستانبول سنة ١٩٤٥م.

● **إِيْقَاظ الوَسْنَان في العَمَل بالحَدِيْث والقُرْآن**: السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٢٧٦هـ=١٨٥٩م.

طبع بمَعْرِفَة وزارة الإعْلَام والثقافة اللِّيْبِيَّة، دار الكتاب اللُّبْنَانِيّ، بَيْرُوْت، سنة ١٣٨٨هـ=١٩٦٨م.

● **ابن بَادِيْس حياته وآثاره**: إعداد وتصنيف: أ. د. عَمَّار الطَّالِبِيّ، بالاشتراك مع الناشر.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، دار ومَكْتَبَة الشركة الجَزَائِرِيَّة، طبع دار اليقظة العَرَبِيَّة، سنة ١٩٦٨م.

● **ابن بَادِيْس وعُرُوْبَة الجَزَائِر**: مُحَمَّد المِيْلِيّ.

دار الثقافة ودار العَوْدَة، بَيْرُوْت، سنة ١٩٧٣م.

● **البَاعِث الحَثِيْث**: أَحْمَد مُحَمَّد شَاكِر. انظر: اخْتِصَار عُلُوْم الحَدِيْث.

● **بَحْر الكَلَام**: أبو المُعِيْن مَيْمُوْن بن مُحَمَّد النَّسَفِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٥٠٨هـ=١١١٤م.

تَحْقِيْق: السَّيِّد يُوْسُف أَحْمَد.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، دار الكتب العِلْمِيَّة، بَيْرُوْت، سنة ١٤٢٦هـ=٢٠٠٥م.

● **البِدَايَة والنِّهَايَة**: الحافظ عِمَاد الدِّيْن أبو الفِدَاء إِسْمَاعِيْل بن عُمَر بن كَثِيْر القُرَشِيّ الدِّمَشْقِيّ الشَّافِعِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٧٧٤هـ=١٣٧٣م.

الناشر: مَكْتَبَة المَعَارِف، بَيْرُوْت، سنة ١٤١٢هـ=١٩٩١م، وهي طَبْعَة مُصَوَّرَة علىٰ الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ المطبوعة بمِصْر.

● **بَهْجَة الأَسْرَار ومعدن الأَنْوَار في بعض مَنَاقِب القُطْب الرَّبَّانِيّ مُحْيِي الدِّيْن أبي مُحَمَّد عَبْد القَادِر الجِيْلَانِيّ**: نور الدِّيْن أبو الحسن عَلِيّ بن يُوْسُف بن حريز اللَّخْمِيّ الشَّطَّنَوْفِيّ الشَّافِعِيّ، شَيْخ الإِقْرَاء بالديار المِصْرِيَّة، المُتَوَفَّىٰ بالقَاهِرَة سنة ٧١٣هـ=١٣١٤م.

اعتنىٰ به: أَحْمَد فريد المَزْيَدِي.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، دار الكتب العِلْمِيَّة، بَيْرُوْت، لُبْنَان، سنة ١٤٢٣هـ=٢٠٠٢م.

● **بَيَان مَذْهَب البَاطِنِيَّة وبُطلانه، (وهو مَنْقُوْل من كتاب قَوَاعِد عَقَائِد آل مُحَمَّد)**: مُحَمَّد بن الحَسَن الدَّيْلَمِيّ. أتمه سنة ٧٠٧هـ.

عني بتَصْحِيْحه: ر. شتروطمان.

إستانبول، مَطْبَعَة الدولة، سنة ١٩٣٨م. وهو من النشريات الإِسْلَامِيَّة لجمعية المستشرقين الألمانية.

● **تَأْوِيْل النَّصّ الشَّرْعِيّ**: أ. د. قَحْطَان عَبْد الرَّحْمٰن الدُّوْرِيّ.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، كتاب-ناشرون، بَيْرُوْت، لُبْنَان، سنة ١٤٣٩هـ=٢٠١٨م.

● **تَاج العَرُوْس من جَوَاهِر القَامُوْس**: السَّيِّد أبو الفَيْض مُحَمَّد مُرْتَضَىٰ بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد الحُسَيْنِيّ الزَّبِيْدِيّ الحَنَفِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٢٠٥هـ=١٧٩٠م.

والمُرَاد بالقَامُوْس هو القَامُوْس المُحِيْط، للفَيْرُوْزَابَادِيّ.

تَحْقِيْق: عدد من الأَساتذة.

الجزء ٢٨: تَحْقِيْق: د. مَحْمُوْد مُحَمَّد الطَّنَاحِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٤١٩هـ=١٩٩٩م.

راجعه: عَبْد السَّلَام مُحَمَّد هَارُوْن، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٤٠٨هـ=١٩٨٨م.

إصدار وزارة الإِعْلَام بالكُوَيْت، مَطْبَعَة حكومة الكُوَيْت، ج١ سنة ١٣٨٥هـ=١٩٦٥م – ج٤٠ سنة ١٤٢٢هـ=٢٠٠١م.

● **التَّاج المُكَلَّل من جَوَاهِر مآثر الطراز الآخر والأول**: مُحَمَّد صِدِّيْق حسن خان القَنَّوْجِيّ البُخَارِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٠٨هـ.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسْلَامِيَّة، دولة قَطَر، سنة ١٤٢٨هـ=٢٠٠٧م.

● **تَارِيْخ الأُسْتَاذ الإمَام الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه، (المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٢٣هـ=١٩٠٥م)**: السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٥٣هـ=١٩٣٥م.

الجزء الأول: الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، مَطْبَعَة المَنَار، مِصْر، سنة ١٣٥٠هـ=١٩٣١م.

الجزء الثاني (في نشأة الإمَام): الطَّبْعَة الثانية، مَطْبَعَة المَنَار، مِصْر، سنة ١٣٤٤هـ.

الجزء الثالث (في تأبين الإمَام ومراثيه): الطَّبْعَة الثانية، مَطْبَعَة المَنَار، مِصْر، سنة ١٣٦٧هـ.

● **تَارِيْخ الخُلَفَاء**: جَلَال الدِّيْن عَبْد الرَّحْمٰن بن أبي بَكْر السُّيُوْطِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٩١١هـ=١٥٠٥م.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ التي أصدرتها اللجنة العِلْمِيَّة بمركز دار المِنْهَاج للدراسات والتَّحْقِيْق العِلْمِيّ، دار المِنْهَاج، المَمْلَكَة العَرَبِيَّة السُّعُوْدِيَّة، سنة ١٤٣٣هـ=٢٠١٢م.

● **تَارِيْخ الشعوب الإسْلَامِيَّة**: كارل بروكلمان، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٧٥هـ=١٩٥٦م.

الطَّبْعَة السابعة، بَيْرُوْت، سنة ١٩٧٧م.

● **تَارِيْخ مِصْر الحَدِيْث من الفَتْح الإسْلَامِيّ إلىٰ الآن**: جرجي زَيْدَان، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٣٢هـ=١٩١٤م.

الطَّبْعَة الثانية، مَطْبَعَة الهِلَال، مِصْر، سنة ١٩١١م.

● **تَبْصِرَة الأَدِلَّة في أُصُوْل الدِّيْن علىٰ طريقة الإمَام أبي مَنْصُوْر المَاتُرِيْدِيّ**: أبو المُعِيْن مَيْمُوْن بن مُحَمَّد النَّسَفِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٥٠٨هـ=١١١٤م.

تَحْقِيْق: كلود سَلَامَة.

من منشورات المعهد العِلْمِيّ الفرنسي للدراسات العَرَبِيَّة بدِمَشْق، طبع الجزء الأول سنة ١٩٩٠م، والثاني سنة ١٩٩٣م.

● **تَحْرِيْر المرأة**: قَاسِم أمين، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٢٦هـ=١٩٠٨م.

مُؤَسَّسَة هِنْداوي للتَّعْلِيْم والثقافة، سنة ٢٠١٢م.

● **تَرَاجُم مَشَاهِيْر الشرق في القرن التاسع عشر**: جرجي زَيْدَان، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٣٢هـ=١٩١٤م.

الطَّبْعَة الثانية، بَيْرُوْت.

● **تعريف بالإمَام عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس**: توفيق مُحَمَّد شَاهِيْن.

منشور في آخر تَفْسِيْر ابن بَادِيْس، الذي جمعه ورتبه: مُحَمَّد الصالح رَمَضَان، وتوفيق مُحَمَّد شَاهِيْن.

الطَّبْعَة الثانية، دار الفكر، بَيْرُوْت.

● **تَعْلِيْق شَكِيْب أَرْسْلَان**: انظر: حَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ.

● **تَفْسِيْر القُرْآن بالمُصْطَلَحَات**: أ. د. مُحْسِن عَبْد الحَمِيْد.

بحث نشر في مَجَلَّة الدراسات الإسْلَامِيَّة، بَغْدَاد، العدد الثالث، سنة ١٣٩١هـ=١٩٧١م.

● **تَفْسِيْر المَنَار، أو تَفْسِيْر القُرْآن الحَكِيْم**: السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٥٣هـ=١٩٣٥م.

وفيه صَفْوَة ما قاله الأُسْتَاذ الإمَام الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٢٣هـ=١٩٠٥م.

الطَّبْعَة الثانية، مطابع الهيئة العامة للكتاب، سنة ١٩٧٢-١٩٧٨م.

● **التَّفْسِيْر ورِجَاله**: مُحَمَّد الفاضل بن عاشور، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٩٠هـ=١٩٧٠م.

الطَّبْعَة الثانية، دار الكتب الشَّرْقِيَّة، تُوْنُس، سنة ١٩٧٢م، مَطْبَعَة الشركة التُّوْنُسِيَّة لفُنُوْن الرسم.

● **التَّفْسِيْر والمُفَسِّرُوْن (بحث تفصيلي عن نشأة التَّفْسِيْر وتَطَوُّره، وألوانه ومَذَاهِبه، مع عرض شامل لأشهر المُفَسِّرِيْن، وتحليل كَامِل لأهم كُتُب التَّفْسِيْر من عَصْر النَّبِيّ ﷺ إلىٰ عَصْرنا الحاضر)**: الشَّيْخ مُحَمَّد حُسَيْن الذَّهَبِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٩٧هـ=١٩٧٧م.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، الناشر: دار الكُتُب الحَدِيْثَة، القَاهِرَة، طبع ج١ في مَطْبَعَة السَّعَادَة، القَاهِرَة،

وج٢-٣ في مطابع دار الكتاب العَرَبِيّ، مِصْر. ج١-٢ سنة ١٩٦١م، وج٣ سنة ١٩٦٢م.

● **التَّمْهِيْد لقَوَاعِد التَّوْحِيْد**: أبو الثناء مَحْمُوْد بن زَيْد الحَنَفِيّ المَاتُرِيْدِيّ اللَّامِشِيّ، المُتَوَفَّىٰ أوائل القرن السادس الهِجْرِيّ.

تَحْقِيْق: عَبْد المَجِيْد تُرْكِيّ.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، دار الغرب الإسْلَامِيّ، بَيْرُوْت، سنة ١٩٩٥م.

● **الثِّمَار الزَّكِيَّة للحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة في ليبيا**: د. عَلِيّ مُحَمَّد الصَّلَّابِيّ.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، مُؤَسَّسَة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القَاهِرَة، سنة ١٤٢٩هـ=٢٠٠٨م.

● **جَامِع كَرَامَات الأَوْلِيَاء**: يُوْسُف بن إسْمَاعِيْل النَّبْهَانِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٥٠هـ=١٩٣٢م.

تَحْقِيْق ومراجعة: إبْرَاهِيْم عَطْوَة عِوَض.

دار المَعْرِفَة، بَيْرُوْت، لُبْنَان، سنة ١٤١٤هـ=١٩٩٤م، وهي مُصَوَّرَة علىٰ طَبْعَة مُصْطَفَىٰ البابي الحَلَبِيّ وأولاده بمِصْر سنة ١٩٦٢م.

● **حَاضِر العَالَم الإسْلَامِيّ**: لوثروب ستودارد الأمريكي.

نقله إلىٰ العَرَبِيَّة: عجاج نويهض، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٤٠٢هـ=١٩٨٢م.

وعَلَّق عليه: الأَمِيْر شَكِيْب أَرْسْلَان، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٦٦هـ=١٩٤٦م.

الطَّبْعَة الثالثة، دار الفكر، بَيْرُوْت، سنة ١٣٩١هـ=١٩٧١م.

● **حُجَّة الله علىٰ العَالَمِيْن في معجزات سَيِّد المُرْسَلِيْن**: يُوْسُف بن إسْمَاعِيْل النَّبْهَانِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٥٠هـ=١٩٣٢م.

الطَّبْعَة المُصَوَّرَة، بَيْرُوْت.

● **حَرَكَة الجَامِعَة الإسْلَامِيَّة**: أَحْمَد فَهْد بَرَكَات الشوابكة.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، مَكْتَبَة المَنَار، الزرقاء، الأُرْدُنّ، سنة ١٩٨٤م.

- **الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر**: أَحْمَد صدقي الدَّجَانِيّ.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، سنة ١٩٦٧م.

- **حَرَكَة عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس ودورها في يقظة الجَزَائِر**: د. فهمي سَعْد.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، دار الرحاب، بَيْرُوْت، سنة ١٩٨٣م.

- **حياة مُحَمَّد**: مُحَمَّد حُسَيْن هيكل، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٧٦هـ=١٩٥٦م.

الطَّبْعَة الثانية عشرة، دار المَعَارِف، مِصْر، سنة ١٩٧٤م.

- **الخِلَافَة أو الإِمَامَة العظمىٰ**: السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٥٣هـ=١٩٣٥م.

نشرت مباحثه تباعاً في المجلدين ٢٣و٢٤ من مَجَلَّة المَنَار، وجمعت منها سنة ١٣٤١هـ، وطُبِعَت في مَطْبَعَة المَنَار، مِصْر.

- **دائرة المَعَارِف الإِسْلَامِيَّة.**

ترجمة: أَحْمَد الشنتناوي، وإِبْرَاهِيْم زَكِيّ خُوْرْشِيْد، وعَبْد الحَمِيْد يُوْنُس.

مراجعة: د. مُحَمَّد مَهْدِيّ عَلَّام، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٤١٢هـ=١٩٩٢م.

دار الفكر، بَيْرُوْت، وهي مُصَوَّرَة علىٰ الطَّبْعَة المِصْرِيَّة.

- **الدُّرَر السَّنِيَّة في أَخْبَار السُّلَالَة الإِدْرِيْسِيَّة**: السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٢٧٦هـ=١٨٥٩م.

طبع بمَعْرِفَة وزارة الإِعْلَام والثقافة اللِّيْبِيَّة، دار الكتاب اللُّبْنَانِيّ، بَيْرُوْت، سنة ١٣٨٨هـ=١٩٦٨م.

- **الدعوة إلىٰ الإِسْلَام، بحث في تَارِيْخ نشر العَقِيْدَة الإِسْلَامِيَّة**: سير توماس و. آرنولد، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٤٩هـ=١٩٣٠م.

ترجمه إلىٰ العَرَبِيَّة وعَلَّقَ عليه: أ. د. حسن إِبْرَاهِيْم حسن، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٨٨هـ=١٩٦٨م، و د. عَبْد المَجِيْد عَابِدِيْن، وإِسْمَاعِيْل النحراوي.

الطَّبْعَة الثالثة، مَكْتَبَة النهضة المِصْرِيَّة، القَاهِرَة، مَطْبَعَة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القَاهِرَة، سنة ١٩٧١م.

- **دُوَل الإِسْلَام في التَّارِيْخ**: الحافظ شمس الدِّيْن أبو عَبْد الله مُحَمَّد بن أَحْمَد بن عُثْمَان بن قَايْمَاز التُّرْكُمَانِيّ الدِّمَشْقِيّ الذَّهَبِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٧٤٨هـ=١٣٤٨م.

تَحْقِيْق: حسن إِسْمَاعِيْل مروة.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، دار صادر، بَيْرُوْت، سنة ١٩٩٩م.

- **الذَّيْل علىٰ طَبَقَات الحَنَابِلَة**: ابن رَجَب زَيْن الدِّيْن أبو الفَرَج عَبْد الرَّحْمٰن بن أَحْمَد بن عَبْد الرَّحْمٰن السَّلامِيّ البَغْدَادِيّ الدِّمَشْقِيّ الحَنْبَلِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٧٩٥هـ=١٣٩٣م.

تَصْحِيْح: مُحَمَّد حَامِد ابن الشَّيْخ سَيِّد أَحْمَد الفَقِي، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٧٨هـ=١٩٥٩م.

مَطْبَعَة السُّنَّة المُحَمَّدِيَّة، مِصْر، سنة ١٩٥٢م.

- **الربا والمعاملات في الإِسْلَام**: السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٥٣هـ=١٩٣٥م.

كتب مُقَدّمتها وأتمها: مُحَمَّد بَهْجَة البَيْطَار، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٩٦هـ=١٩٧٦م.

نشر مَكْتَبَة القَاهِرَة، مِصْر، سنة ١٩٦٠م.

- **رِجَال الفكر والدعوة في الإِسْلَام**: أبو الحسن عَلِيّ الحَسَنِيّ النَّدْوِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٤٢٠هـ=١٩٩٩م.

الطَّبْعَة الرابعة، دار ابن كَثِيْر، دِمَشْق، بَيْرُوْت، سنة ١٤٣٣هـ=٢٠١٢م.

- **رحلات الإِمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا.**

جمعها وحققها: الدكتور يُوْسُف ايبش.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، المُؤَسَّسَة العَرَبِيَّة للدراسات والنشر، بَيْرُوْت، سنة ١٩٧١م، مَطْبَعَة الحرية، بَيْرُوْت.

- **رِسَالَة التَّوْحِيْد**: الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٢٣هـ=١٩٠٥م.

وعليها:

تَعْلِيْقَات للسَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٥٣هـ=١٩٣٥م.

الطَّبْعَة السابعة عشرة، دار المَنَار، مِصْر، سنة ١٣٧٦هـ.

● **الرِّسَالَة القُشَيْرِيَّة في علم التَّصَوُّف**: أبو القَاسِم عَبْد الكَرِيْم بن هَوَازِن القُشَيْرِيّ النَّيْسَابُوْرِيّ الشَّافِعِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٤٦٥هـ=١٠٧٣م.

مَكْتَبَة مُحَمَّد عَلِيّ صبيح، القَاهِرَة، سنة ١٩٥٧م.

● **رَشِيْد رِضَا الإمَام المُجَاهِد**: الدكتور إبْرَاهِيْم أَحْمَد العَدَوِيّ.

الدار المِصْرِيَّة للتأليف والترجمة، سلسلة أَعْلَام العَرَب ٣٣، مَكْتَبَة مِصْر، مَطْبَعَة مِصْر، سنة ١٩٦٤م.

● **زعماء الإصْلَاح في العَصْر الحَدِيْث**: أَحْمَد أمين، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٧٣هـ=١٩٥٤م.

دار الكتاب العَرَبِيّ، بَيْرُوْت.

● **سُبُل الهُدَىٰ والرَّشَاد في سِيْرَة خَيْر العِبَاد**: شمس الدِّيْن أبو عَبْد الله مُحَمَّد بن يُوْسُف الصَّالِحِيّ الدِّمَشْقِيّ الشَّامِيّ الحَنَفِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٩٤٢هـ=١٥٣٦م.

تَحْقِيْق: مجموعة من الأَساتذة.

وزارة الأوقاف بمِصْر، المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسْلَامِيَّة، لجنة إحياء التُّرَاث الإسْلَامِيّ، القَاهِرَة، مطابع مُخْتَلِفَة. طُبِعَ الجزء الأول سنة ١٣٩٢هـ=١٩٧٢م، وطُبِعَ الجزء الثالث عشر سنة ١٤٣٠هـ=٢٠٠٩م.

● **السَّلْسَبِيْل المَعِيْن في الطرائق الأَرْبَعِيْن**: السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٢٧٦هـ=١٨٥٩م.

طبع بمَعْرِفَة وزارة الإعْلَام والثقافة اللِّيْبِيَّة، دار الكتاب اللُّبْنَانِيّ، بَيْرُوْت، سنة ١٣٨٨هـ=١٩٦٨م.

● **السُّنَّة والشِّيْعَة، أو الوَهَّابِيَّة والرَّافِضَة**: السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٥٣هـ=١٩٣٥م.

الطَّبْعَة الثانية، دار المَنَار، القَاهِرَة، سنة ١٣٦٦هـ=١٩٤٧م.

● **سِيَر أَعْلَام النُّبَلَاء**: الحافظ شمس الدِّيْن أبو عَبْد الله مُحَمَّد بن أَحْمَد بن عُثْمَان بن قَايْمَاز التُّرْكُمَانِيّ الدِّمَشْقِيّ الذَّهَبِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٧٤٨هـ=١٣٤٨م.

تَحْقِيْق: عدد من الأساتذة.

أَشْرَف علىٰ تَحْقِيْق الكتاب وخَرَّج أَحَادِيْثه: الشَّيْخ شُعَيْب الأَرْنَـؤُوْط، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٤٣٨هـ=٢٠١٦م.

الطَّبْعَة العاشرة، مُؤَسَّسَة الرِّسَالَة، بَيْرُوْت، سنة ١٤١٤هـ=١٩٩٤م.

● **السَّيِّد رَشِيْد رِضَا أو إخاء أَرْبَعِيْن سنة**: الأَمِيْر شَكِيْب أَرْسْلَان، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٦٦هـ=١٩٤٦م.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، مَطْبَعَة ابن زَيْدُوْن، دِمَشْق، سنة ١٣٥٦هـ=١٩٣٧م.

● **شَجَرَة النّوْر الزَّكِيَّة في طَبَقَات المَالِكِيَّة**: الشَّيْخ مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عُمَر مخلوف، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٦٠هـ=١٩٤١م.

دار الكتاب العَرَبِيّ، بَيْرُوْت، وهي طَبْعَة مُصَوَّرَة عن الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ التي طُبعت في سنة ١٣٤٩هـ بالمَطْبَعَة السَّلَفِيَّة، مِصْر.

● **شَذَرَات الذَّهَب في أَخْبَار من ذَهَب**: أبو الفلاح شِهَاب الدِّيْن عَبْد الحَيّ بن أَحْمَد بن مُحَمَّد، بن العِمَاد الحَنْبَلِيّ العَكري الدِّمَشْقِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٠٨٩هـ=١٦٧٩م.

حققه وعلق عليه: مَحْمُوْد الأَرْنَؤُوْط.

أَشْرَف علىٰ تَحْقِيْقه وخرج أَحَادِيْثه: عَبْد القَادِر الأَرْنَؤُوْط.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، دار ابن كَثِيْر، دِمَشْق، بَيْرُوْت، سنة ١٤١٢هـ=١٩٩١م.

● **شَرْح جَوْهَرَة التَّوْحِيْد**: البَاجُوْرِيّ أو البَيْجُوْرِيّ بُرْهَان الدِّيْن إبْرَاهِيْم بن مُحَمَّد بن أَحْمَد الجِيْزَاوِيّ الشَّافِعِيّ، شَيْخ الأَزْهَر، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٢٧٦هـ=١٨٦٠م. طَبَعَهُ مُحَقِّقُهُ باسم: حَاشِيَة علىٰ جَوْهَرَة التَّوْحِيْد، المسمىٰ: (تُحْفَة المُرِيْد علىٰ جَوْهَرَة التَّوْحِيْد).

وجَوْهَرَة التَّوْحِيْد منظومة لبُرْهَان الدِّيْن أبي الأمداد إبْرَاهِيْم بن إبْرَاهِيْم بن حَسَن بن عَلِيّ المَالِكِيّ اللَّقَانِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٠٤١هـ=١٦٣١م.

تَحْقِيْق: أ. د. عَلِيّ جمعة مُحَمَّد الشَّافِعِيّ.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، دار السَّلَام للطِّبَاعَة والنشر، القَاهِرَة، سنة ١٤٢٢هـ=٢٠٠٢م.

● **شَـرْح الخَرِيْدَة البَهِيَّة**: أبو البَرَكَات أَحْمَد بن مُحَمَّد بن أَحْمَد الـدَّرْدِيْر الـعَدَوِيّ المَالِكِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٢٠١هـ=١٧٨٦م.

و**الخَرِيْدَة البَهِيَّة** منظومة في العَقَائِد، لشارحها أبي البَرَكَات أَحْمَد الدَّرْدِيْر.

وعليها:

حَاشِيَة الصَّاوِيّ أَحْمَد بن مُحَمَّد المَالِكِيّ الخَلْوَتِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٢٤١هـ=١٨٢٥م.

مَكْتَبَة القَاهِرَة، مَطْبَعَة حِجَازِيّ.

● **شَرْح رَمَضَان أَفَنْدِي**.

علىٰ:

شَرْح العَقَائِد النَّسَفِيَّة، لسَعْد الدِّيْن مَسْعُوْد بن عُمَر بن عَبْد الله التَّفْتَازَانِيّ الشَّافِعِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٧٩٣هـ=١٣٩٠م.

درسعادت، سنة ١٣١٤هـ.

● **شَرْح العَقَائِد العَضُدِيَّة**: الدَّوَّانِيّ. انظر: العَقَائِد العَضُدِيَّة.

● **شَرْح العَقَائِد النَّسَفِيَّة**: سَعْد الدِّيْن مَسْعُوْد بن عُمَر بن عَبْد الله التَّفْتَازَانِيّ الشَّافِعِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٧٩٣هـ=١٣٩٠م.

ومتن **العَقَائِد النَّسَفِيَّة**، لنَجْم الدِّيْن أبي حَفْص عُمَر بن مُحَمَّد بن أَحْمَد بن إِسْمَاعِيْل النَّسَفِيّ السَّمَرْقَنْدِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٥٣٧هـ=١١٤٢م.

وبهامشه:

حَاشِيَة علىٰ الشَّرْح، للمَوْلَىٰ مصلح الدِّيْن مُصْطَفَىٰ بن مُحَمَّد الكَسْتَلِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٩٠١هـ=١٤٦٠م.

تليها:

حَاشِيَة أُخْرَىٰ علىٰ الشَّرْح المذكور، **للمَوْلَىٰ** أَحْمَد بن مُوسَىٰ **الخَيَالِيّ**، المُتَوَفَّىٰ سنة ٨٦٠هـ.

وبهامشها:

حَاشِيَة الشَّيْخ رَمَضَان البهشتي، المُتَوَفَّىٰ سنة ٩٧٩هـ.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، در سعادت، تُرْكِيَّا، سنة ١٣٢٦هـ. أعادت مَكْتَبَة المُثَنَّىٰ طبعها بالأوفست.

● **شَرْح المَقَاصِد**: سَعْد الدِّيْن مَسْعُوْد بن عُمَر بن عَبْد الله التَّفْتَازَانِيّ الشَّافِعِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٧٩٣هـ=١٣٩٠م.

و**المَقَاصِد (مَقَاصِد الطَّالِبِيْن)**، للتَّفْتَازَانِيّ نفسه.

تَحْقِيْق: د. عَبْد الرَّحْمٰن عَمِيْرَة.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، عالم الكتب، بَيْرُوْت، سنة ١٤٠٩هـ=١٩٨٩م.

● **شِفَاء الصدر بأَرْي المَسَائِل العشر**: السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٢٧٦هـ=١٨٥٩م.

طبع بمَعْرِفَة وزارة الإعْلَام والثقافة اللِّيْبِيَّة، دار الكتاب اللُّبْنَانِيّ، بَيْرُوْت، سنة ١٣٨٨هـ=١٩٦٨م.

● **الشِّفَا بتَعريف حُقوق المُصْطَفَىٰ**: القَاضِي أبو الفَضْل عِيَاض بن مُوسَىٰ بن عِيَاض اليَحْصُبِيّ السَّبْتِيّ المَالِكِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٥٤٤هـ=١١٤٩م.

تَحْقِيْق: عَلِيّ مُحَمَّد البجاوي.

مَطْبَعَة عِيسَىٰ البابي الحَلَبِيّ وشركاه، القَاهِرَة، الإيداع بدار الكتب المِصْرِيَّة، سنة ١٩٧٧م.

● **الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس، فلسفته وجهوده في التربية والتَّعْلِيْم**: تُرْكِيّ رَابِح.

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجَزَائِر، سنة ١٩٦٩م.

● **الصُّوْفِيَّة والفُقَرَاء**: أبو العَبَّاس تَقِيّ الدِّيْن أَحْمَد بن عَبْد الحَلِيْم بن عَبْد السَّلَام بن تَيْمِيَّة الحَرَّانِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٧٢٨هـ=١٣٢٨م.

تقديم: د. مُحَمَّد جميل غازي.

الناشر: دار المَدَنِيّ للطِّبَاعَة والنشر والتوزيع، جدة، مَطْبَعَة المَدَنِيّ، المُؤَسَّسَة السُّعُوْدِيَّة بمِصْر، القَاهِرَة.

● **الطَّبَقَات الكُبْرَىٰ**، المسمىٰ، **لواقح الأَنْوَار القُدْسِيَّة في مَنَاقِب العُلَمَاء والصُّوْفِيَّة**: أبو المَوَاهِب عَبْد الوَهَّاب بن أَحْمَد بن نور الدِّيْن عَلِيّ الشَّعْرَانِيّ الأَنْصَارِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٩٧٣هـ=١٥٦٥م.

تَحْقِيْق وضبط: أ. د. أَحْمَد عَبْد الرَّحِيْم السايح، والمستشار توفيق عَلِيّ وهبة.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، مَكْتَبَة الثقافة الدِّيْنِيَّة، القَاهِرَة، سنة ١٤٢٦هـ=٢٠٠٥م.

● **عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس وبناء قاعدة الثورة الجَزَائِرِيَّة**: بَسَّام العَسَلِي.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، دار النفائس، بَيْرُوْت، سنة ١٩٨٢م.

● **العِبَر في خَبَر من غَبَر**: الحافظ شمس الدِّيْن أبو عَبْد الله مُحَمَّد بن أَحْمَد بن عُثْمَان بن قَايْمَاز التُّرْكُمَانِيّ الدِّمَشْقِيّ الذَّهَبِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٧٤٨هـ=١٣٤٨م.

تَحْقِيْق: فؤاد سَيِّد، و د. صَلَاح الدِّيْن المُنَجِّد.

مَطْبَعَة حكومة الكُوَيْت، سنة ١٩٦٠-١٩٦٦م.

ومِنْ ذُيُوْل العِبَر:

(الذَّيْل الأَول من سنة ٧٠١-٧٤٠هـ)، للحافظ شمس الدِّيْن أبي عَبْد الله مُحَمَّد بن أَحْمَد بن عُثْمَان بن قَايْمَاز التُّرْكُمَانِيّ الدِّمَشْقِيّ الذَّهَبِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٧٤٨هـ=١٣٤٨م.

(والذَّيْل الثاني من سنة ٧٤١-٧٦٤هـ)، للحُسَيْنِيّ الدِّمَشْقِيّ، شمس الدِّيْن أبي المَحَاسِن، مُحَمَّد بن عَلِيّ بن الحَسَن، المُتَوَفَّىٰ سنة ٧٦٥هـ=١٣٦٤م.

تَحْقِيْق: مُحَمَّد رَشَاد عَبْد المُطَّلِب. مراجعة: د. صَلَاح الدِّيْن المُنَجِّد، وعَبْد الستار أَحْمَد فَرَّاج.

وزارة الإِرْشَاد والأنباء في الكُوَيْت، مَطْبَعَة حكومة الكُوَيْت.

● **العَقَائِد العَضُدِيَّة**: عَضُد الدِّيْن عَبْد الرَّحْمٰن بن أَحْمَد الإِيْجِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٧٥٦هـ=١٣٥٥م.

ومعه:

شَرْح جَلَال الدِّيْن مُحَمَّد بن أَسْعَد **الدَّوَّانِيّ الصِّدِّيْقِيّ**، المُتَوَفَّىٰ سنة ٩١٨هـ.

ومعه:

حَاشِيَة إِسْمَاعِيْل الكَلَنْبَوِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٢٠٥هـ.

وبهامشه:

حَاشِيَة المَرْجَانِيّ، و**حَاشِيَة الخَلْخَالِيّ**، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٠١٤هـ.

درسعادت، مَطْبَعَة عُثْمَانِيَّة، سنة ١٣١٦هـ.

- **العَقِيْدَة الإِسْلَامِيَّة ومَذَاهِبهَا**: أ. د. قَحْطَان عَبْد الرَّحْمٰن الدُّوْرِيّ.

الطَّبْعَة السادسة، كتاب – ناشرون، بَيْرُوْت، سنة ١٤٣٧هـ=٢٠١٦م.

- **الغُنْيَة لطَالِبي طريق الحق عَزَّ وجَلَّ**: الشَّيْخ عَبْد القَادِر الجِيْلَانِيّ بن مُوسَىٰ بن عَبْد الله الحَسَنِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٥٦١هـ=١١١٦م.

تَحْقِيْق: مُحَمَّد خَالِد عُمَر.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، دار إحياء التُّرَاث العَرَبِيّ، بَيْرُوْت، سنة ١٤١٦هـ=١٩٩٦م.

- **الفَائِق في أُصُوْل الدِّيْن**: رُكْن الدِّيْن مَحْمُوْد بن مُحَمَّد الملاحمي الخُوَارِزْمِيّ المُعْتَزِلِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٥٣٦هـ=١١٤١م.

تَحْقِيْق وتقديم: ويلفرد مادلونگ، مارتين مكدرموت.

انتشارات: مُؤَسَّسَة پژوهشي حكمت وفلسفة إيران، ومُؤَسَّسَة مطالعات إسْلَامِيّ دانشگاه آزاد برلين – ألمان جَامِعَة برلين. طُبِعَ في طِهْرَان، سنة ١٣٨٦هـ.

- **فَتَاوَىٰ الإِمَام مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا.**

جمع وتَحْقِيْق: الدكتور صَلَاح الدِّيْن المُنَجِّد، ويُوْسُف ق. خوري.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، دار الكتاب الجديد، بَيْرُوْت، سنة ١٩٧٠-١٩٧٢م، مطابع الأمان، بَيْرُوْت.

- **الفَتْح الرَّبَّانِيّ والفَيْض الرَّحْمَانِيّ**: الشَّيْخ عَبْد القَادِر الجِيْلَانِيّ بن مُوسَىٰ بن عَبْد الله الحَسَنِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٥٦١هـ=١١١٦م.

منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، بَغْدَاد، سنة ٢٠٠٧م.

- **فَتْح العَلِيّ المَالِك في الفتوىٰ علىٰ مَذْهَب الإِمَام مَالِك**: أبو عَبْد الله مُحَمَّد بن أَحْمَد بن مُحَمَّد، المُلَقَّب بعِلِيْش (أو عُلَيْش)، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٢٩٩هـ=١٨٨٢م.

وبهامشه:

تَبْصِرَة الحُكَّام في أُصُوْل الأقضية ومناهج الأَحْكَام، للقَاضِي بُرْهَان الدِّيْن إِبْرَاهِيْم بن عَلِيّ بن أبي القَاسِم بن مُحَمَّد بن فَرْحُوْن المَالِكِيّ المَدَنِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٧٩٩هـ=١٣٩٧م.

شركة مَكْتَبَة ومَطْبَعَة مُصْطَفَىٰ البابي الحَلَبِيّ وأولاده، مِصْر، سنة ١٩٥٨م.

● **فَتْح القَدِيْر الجَامِع بين فَنَّي الرِّوَايَة والدِّرَايَة من علم التَّفْسِيْر**: مُحَمَّد بن عَلِيّ الشَّوْكَانِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٢٥٠هـ=١٨٣٤م.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، دار ابن حَزْم، بَيْرُوْت، سنة ١٤٢١هـ=٢٠٠٠م.

● **فُتُوْح الغَيْب**: الشَّيْخ عَبْد القَادِر الجِيْلَانِيّ بن مُوسَىٰ بن عَبْد الله الحَسَنِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٥٦١هـ=١١١٦م.

دار الطِّبَاعَة العَامِرة، القَاهِرَة، سنة ١٢٨١هـ.

● **الفُرْقَان بين أَوْلِيَاء الرَّحْمٰن وأَوْلِيَاء الشيطان**: أبو العَبَّاس تَقِيّ الدِّيْن أَحْمَد بن عَبْد الحَلِيْم بن عَبْد السَّلَام بن تَيْمِيَّة الحَرَّانِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٧٢٨هـ=١٣٢٨م.

دار النَّذِيْر، بَغْدَاد، سنة ١٩٦٩م.

● **الفِصَل في المِلَل والأَهْوَاء والنِّحَل**: الإمَام أبو مُحَمَّد عَلِيّ بن أَحْمَد بن سَعِيْد بن حَزْم الأَنْدَلُسِيّ الظَّاهِرِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٤٥٦هـ=١٠٦٤م.

تَحْقِيْق: د. مُحَمَّد إِبْرَاهِيْم نَصْر، و د. عَبْد الرَّحْمٰن عَمِيْرَة.

الطَّبْعَة الثانية، دار الجيل، بَيْرُوْت، سنة ١٤١٦هـ=١٩٩٦م.

● **فضائح البَاطِنِيَّة، وفَضَائِل المُسْتَظْهِرِيَّة**، ويسمىٰ، **المُسْتَظْهِرِيّ**: الإمَام حُجَّة الإِسْلَام أبو حَامِد مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن أَحْمَد الغَزَالِيّ الطُّوْسِيّ الشَّافِعِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٥٠٥هـ=١١١١م.

حَقَّقَهُ: عَبْد الرَّحْمٰن بَدَوِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٤٢٣هـ=٢٠٠٢م.

الناشر: الدار القومية للطِّبَاعَة والنشر بالقَاهِرَة، سنة ١٩٦٤م.

● **الفكر الإِسْلَامِيّ الحَدِيْث وصلته بالاستعمار الغربي**: الدكتور مُحَمَّد البَهِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٤٠٢هـ=١٩٨٢م.

الطَّبْعَة الرابعة، الناشر: مَكْتَبَة وهبة بالقَاهِرَة، سنة ١٩٦٤م.

● **الفكر الإسْلَامِيّ في تطوره**: الدكتور مُحَمَّد البَهِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٤٠٢هـ=١٩٨٢م.

الطَّبْعَة الثانية، مَكْتَبَة وهبة، دار التضامن للطِّبَاعَة، سنة ١٤٠١هـ=١٩٨١م.

● **فَوَات الوَفَيَات، والذَّيْل عليها**: مُحَمَّد بن شَاكِر بن أَحْمَد الكُتُبِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٧٦٤هـ=١٣٦٣م.

تَحْقِيْق: أ. د. إحْسَان عَبَّاس، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٤٢٤هـ=٢٠٠٣م.

دار صادر، بَيْرُوْت، سنة ١٩٧٣م.

● **قادة الفكر الإسْلَامِيّ عبر القرون**: عَبْد الله بن سَعْد الرُّوَيْشِد.

الناشر: مَكْتَبَة عِيسَىٰ البابي الحَلَبِيّ وشركاه، مِصْر، طُبِعَ بدار إحياء الكتب العَرَبِيَّة، مِصْر، سنة ١٩٧٣م.

● **قَلَائِد الجَوَاهِر في مَنَاقِب عَبْد القَادِر**: مُحَمَّد بن يَحْيَىٰ التَّاذِفِيّ الحَلَبِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٩٦٣هـ.

وبهامشه:

فُتُوْح الغَيْب، للشَّيْخ عَبْد القَادِر الجِيْلَانِيّ بن مُوسَىٰ بن عَبْد الله الحَسَنِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٥٦١هـ=١١١٦م.

الطَّبْعَة الثالثة، شركة مَكْتَبَة ومَطْبَعَة مُصْطَفَىٰ البابي الحَلَبِيّ وأولاده بمِصْر، سنة ١٣٧٥هـ=١٩٥٦م.

● **الكَامِل في التَّارِيْخ**: عِزّ الدِّين أبو الحَسَن عَلِيّ بن أبي الكَرَم مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عَبْد الكَرِيْم الشَّيْبَانِيّ الجَزَرِيّ، المعروف بابن الأَثِيْر، المُتَوَفَّىٰ سنة ٦٣٠هـ=١٢٣٣م.

راجعه وصححه: الدكتور مُحَمَّد يُوْسُف الدَّقَّاق.

الطَّبْعَة الرابعة، دار الكتب العِلْمِيَّة، بَيْرُوْت، سنة ١٤٢٤هـ=٢٠٠٣م.

● **كَشْف الظُّنُوْن عن أَسَامِي الكُتُب والفُنُوْن**: مُصْطَفَىٰ بن عَبْد الله، الشهير بحاجي خَلِيْفَة وبكاتب چَلَبِي، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٠٦٧هـ=١٦٥٧م.

طبع بعِنَايَة: مُحَمَّد شَرَف الدِّيْن يالتقايا، ورفعت بيلكه الكليسي.

منشورات مَكْتَبَة المُثَنَّىٰ ببَغْدَاد، وهي الطَّبْعَة المُصَوَّرَة علىٰ طَبْعَة إستانبول، سنة ١٩٤١م.

● **اللُّبَاب في تَهْذِيْب الأَنْسَاب**: عِزّ الدِّيْن أبو الحَسَن عَلِيّ بن أبي الكَرَم مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عَبْد الكَرِيْم الشَّيْبَانِيّ الجَزَرِيّ، المعروف بابن الأَثِيْر، المُتَوَفَّىٰ سنة ٦٣٠هـ=١٢٣٣م.

الناشر: مَكْتَبَة المُثَنَّىٰ، بَغْدَاد.

● **لباب النُّقُوْل في أسباب النُّزُوْل**: جَلَال الدِّيْن عَبْد الرَّحْمٰن بن أبي بَكْر السُّيُوْطِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٩١١هـ=١٥٠٥م.

مطبوع بهامش تَفْسِيْر الجَلَالَيْن.

المَطْبَعَة الهَاشِمِيَّة، دِمَشْق، سنة ١٣٥٨هـ.

● **اللُّمَع**: أبو نَصْر عَبْد الله بن عَلِيّ بن مُحَمَّد بن يَحْيَىٰ السَّرَّاج الطُّوْسِيّ، المُلَقَّب بطاووس الفُقَرَاء، المُتَوَفَّىٰ سنة ٣٧٨هـ=٩٨٨م.

حققه، وقدم له، وخرج أَحَادِيْثه: د. عَبْد الحَلِيْم مَحْمُوْد، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٩٨هـ=١٩٧٨م، وطه عَبْد البَاقِي سرور.

ملتزم الطبع والنشر: دار الكتب الحَدِيْثَة، مِصْر، ومَكْتَبَة المُثَنَّىٰ، بَغْدَاد. مَطْبَعَة السَّعَادَة، مِصْر، سنة ١٣٨٠هـ=١٩٦٠م.

● **لَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة وسواطع الأَسْرَار الأَثَرِيَّة**: مُحَمَّد بن أَحْمَد بن سالم بن سُلَيْمَان الحَنْبَلِيّ السَّفَّارِيْنِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١١٨٨هـ=١٧٧٤م.

وهو شَرْح منظومة: **الدُّرَّة المُضِيَّة في عَقِيْدَة الفِرْقَة المَرْضِيَّة**.

والشَّرْح والمنظومة كلاهما للسَّفَّارِيْنِيّ.

مطابع دار الأَصْفَهَانِيّ وشركاه، جدة، سنة ١٣٨٠هـ.

● **مجالي الإِسْلَام**: حَيْدَر بَامَّات.

ترجمة: عادل زعيتر، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٧٧هـ=١٩٥٧م.

مَطْبَعَة عِيسَىٰ البابي الحَلَبِيّ، القَاهِرَة، سنة ١٩٥٦م.

● **مَجلَّة المَنَار.**

أنشأها وأصدرها في مِصْر: السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٥٣هـ=١٩٣٥م.

● **محاضرات في تَارِيْخ الجَزَائِر الحَدِيْث، بِدَايَة الاحتلال:** أ. د. أبو القَاسِم سَعْد الله، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٤٣٥هـ=٢٠١٣م.

معهد البحوث والدراسات العَرَبِيَّة، دار نَافِع، القَاهِرَة، سنة ١٩٧٦م.

● **مُحَصِّل أَفْكَار المُتَقَدِّمِيْن والمُتَأَخِّرِيْن من العُلَمَاء والحكماء والمُتَكَلِّمِيْن:** فَخْر الدِّيْن الرَّازِيّ، أبو عَبْد الله مُحَمَّد بن عُمَر بن الحُسَيْن الخَطِيْب التَّيْمِيّ البَكْرِيّ القُرَشِيّ الشَّافِعِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٦٠٦هـ=١٢١٠م.

وبذَيْله:

تَلْخِيْص المُحَصِّل، لنَصِيْر الدِّيْن الطُّوْسِيّ أبي عَبْد الله مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن الحَسَن، المُتَوَفَّىٰ سنة ٦٧٢هـ=١٢٧٤م.

مراجعة وتقديم: طه عَبْد الرَّؤُوْف سَعْد.

مَكْتَبَة الكُلِّيَّات الأَزْهَرِيَّة، القَاهِرَة.

● **مُحَمَّد عَبْدُه:** عَبَّاس مَحْمُوْد العَقَّاد، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٨٣هـ=١٩٦٤م.

من سلسلة أَعْلَام العَرَب، رقم ١، المُؤَسَّسَة المِصْرِيَّة العامة.

● **مُحَمَّد عَبْدُه:** عُثْمَان أمين، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٩٨هـ=١٩٧٨م.

من سلسلة أَعْلَام الإِسْلَام.

دار إحياء الكتب العَرَبِيَّة، عِيسَىٰ البابي الحَلَبِيّ، مِصْر، سنة ١٩٤٤م.

● **مُحَمَّد عَبْدُه بطل الثورة الفكرية في الإِسْلَام:** قَدْرِيّ قَلْعَجِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٩٨٦م.

من سلسلة أَعْلَام الحرية.

الطَّبْعَة الثانية، دار العلم للملايين، بَيْرُوْت، سنة ١٩٥٦م.

● **مُخْتَصَر أَخْبَار الخُلَفَاء**: عَلِيّ بن أنجب، المعروف بابن السَّاعِي البَغْدَادِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٦٧٤هـ=١٢٧٥م.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، المَطْبَعَة الأَمِيْرِيَّة، بُوْلَاق، مِصْر، سنة ١٣٠٩هـ.

● **المُخْتَصَر في أَخْبَار البَشَر (تَارِيْخ أَبي الفِدَاء)**: الملك المُؤَيَّد عِمَاد الدِّيْن أبو الفِدَا إِسْمَاعِيْل صاحب حماة ابن السُّلْطَان نور الدِّيْن أبي الحسن عَلِيّ بن مَحْمُوْد، المُتَوَفَّىٰ سنة ٧٣٢هـ=١٣٣١م.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، المَطْبَعَة الحُسَيْنِيَّة المِصْرِيَّة.

● **المَدْخَل إلىٰ الدِّيْن الإِسْلَامِيّ**: أ. د. مُنِيْر حَميد البَيَاتِيّ، و أ. د. قَحْطَان عَبْد الرَّحْمٰن الدُّوْرِيّ.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، وزارة التَّعْلِيْم العالي والبَحْث العِلْمِيّ العِرَاقِيَّة، دار الحُرِّيَّة ببَغْدَاد، سنة ١٣٩٦هـ=١٩٧٦م.

● **مِرْآة الجَنَان وعِبْرَة اليَقْظَان في مَعْرِفَة ما يُعْتَبَرُ من حَوَادِث الزَّمَان**: أبو مُحَمَّد عَبْد الله بن أَسْعَد بن عَلِيّ اليَمَنِيّ المَكِّيّ اليَافِعِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٧٦٨هـ=١٣٦٧م.

وضع حواشيه: خَلِيْل المَنْصُوْر.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، دار الكتب العِلْمِيَّة، بَيْرُوْت، لُبْنَان، سنة ١٤١٧هـ=١٩٩٧م.

● **مِرْآة الزَّمَان في تواريخ الأَعْيَان**: شمس الدِّيْن أبو المُظَفَّر يُوْسُف بن قزأوغلي بن عَبْد الله، المعروف بسِبْط ابن الجَوْزِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٦٥٤هـ=١٢٥٦م.

تَحْقِيْق: إِبْرَاهِيْم الزيبق، وآخرين.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، الرِّسَالَة العالمية، بَيْرُوْت، سنة ١٤٣٤هـ=٢٠١٣م.

● **المَسَائِل العشر، المسمىٰ، بُغْيَة المَقَاصِد في خُلَاصَة المراصد**: السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٢٧٦هـ=١٨٥٩م.

طبع بمَعْرِفَة وزارة الإِعْلَام والثقافة اللِّيْبِيَّة، دار الكتاب اللُّبْنَانِيّ، بَيْرُوْت، سنة ١٣٨٨هـ=١٩٦٨م.

● **المُسْتَفَاد من ذَيْل تَارِيْخ بَغْدَاد**: الحافظ مُحِبّ الدِّيْن أبو عَبْد الله مُحَمَّد بن مَحْمُوْد بن حسن الشَّافِعِيّ، ابن النَّجَّار البَغْدَادِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٦٤٣هـ=١٢٤٥م.

انتقاه: الحافظ شِهَاب الدِّيْن أَحْمَد بن أَيْبَك الحُسَامِيّ الدِّمْيَاطِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٧٤٩هـ=١٣٤٨م.

حققه وعلق عليه: مُحَمَّد مولود خلف.

أَشْرَف عليه وراجعه: أ. د. بشار عَوَّاد معروف.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، مُؤَسَّسَة الرِّسَالَة، بَيْرُوْت، سنة ١٤٠٦هـ=١٩٨٦م.

● **المُسَلْسَلَات العشرة في الأَحَادِيْث النَّبَوِيَّة**: السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٢٧٦هـ=١٨٥٩م.

طبع بمَعْرِفَة وزارة الإعْلَام والثقافة اللِّيْبِيَّة، دار الكتاب اللُّبْنَانِيّ، بَيْرُوْت، سنة ١٣٨٨هـ=١٩٦٨م.

● **مُعْجَم البُلْدَان**: شِهَاب الدِّيْن أبو عَبْد الله يَاقُوْت بن عَبْد الله الحَمَوِيّ الرُّوْمِي البَغْدَادِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٦٢٦هـ=١٢٢٩م.

دار صادر، بَيْرُوْت، سنة ١٩٧٧م.

● **مُعْجَم المُؤَلِّفِيْن، تَرَاجُم مُصَنِّفِي الكُتُب العَرَبِيَّة**: عُمَر رِضَا كَحَّالَة، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٤٠٨هـ=١٩٨٧م.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، مُؤَسَّسَة الرِّسَالَة، بَيْرُوْت، سنة ١٤١٤هـ=١٩٩٣م.

وطَبْعَة مَكْتَبَة المُثَنَّىٰ، بَغْدَاد، ودار إحياء التُّرَاث العَرَبِيّ، بَيْرُوْت، طَبْعَة مُصَوَّرَة.

● **المُقَدِّمَة**: أبو زَيْد ولي الدِّيْن عَبْد الرَّحْمٰن بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد، بن خَلْدُوْن الحَضْرَمِي المَغْرِبِيّ الإشْبِيْلِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٨٠٨هـ=١٤٠٦م.

تَحْقِيْق: دَرْوِيْش الجويدي.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، المَكْتَبَة العَصْرِيَّة للطِّبَاعَة والنشر، الدار النموذجية، المَطْبَعَة العَصْرِيَّة، بَيْرُوْت، سنة ١٤١٥هـ=١٩٩٥م.

- **مُقَدِّمَة مُوَطَّأ الإمَام مَالِك** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٢٧٦هـ=١٨٥٩م.

طبع بمَعْرِفَة وزارة الإعْلَام والثقافة اللِّيْبِيَّة، دار الكتاب اللُّبْنَانِيّ، بَيْرُوْت، سنة ١٣٨٨هـ=١٩٦٨م.

- **المَقْصَد الأَرْشَد في ذكر أصحاب الإمَام أَحْمَد**: بُرْهَان الدِّيْن إبْرَاهِيْم بن مُحَمَّد بن عَبْد الله بن مُحَمَّد بن مُفْلِح، المُتَوَفَّىٰ سنة ٨٨٤هـ=١٤٧٩م.

تَحْقِيْق وتَعْلِيْق: د. عَبْد الرَّحْمٰن بن سُلَيْمَان العُثَيْمِيْن.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، مَكْتَبَة الرُّشْد للنشر والتوزيع، الرِّيَاض، المَمْلَكَة العَرَبِيَّة السُّعُوْدِيَّة، مَطْبَعَة المَدَنِيّ، القَاهِرَة، سنة ١٤١٠هـ=١٩٩٠م.

- **المِلَل والنِّحَل**: أبو الفَتْح مُحَمَّد بن عَبْد الكَرِيْم بن أبي بَكْر أَحْمَد الشَّهْرَسْتَانِيّ الشَّافِعِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٥٤٨هـ=١١٥٣م.

تَصْحِيْح وتَعْلِيْق: أَحْمَد فهمي مُحَمَّد.

الطَّبْعَة الثانية، دار الكتب العِلْمِيَّة، بَيْرُوْت، سنة ١٤١٣هـ=١٩٩٢م.

- **مَنَاقِب الإمَام أَحْمَد بن حَنْبَل**: الحافظ جَمَال الدِّيْن أبو الفَرَج عَبْد الرَّحْمٰن بن عَلِيّ بن مُحَمَّد التَّيْمِيّ البَكْرِيّ القُرَشِيّ البَغْدَادِيّ الحَنْبَلِيّ، المعروف بابن الجَوْزِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٥٩٧هـ=١٢٠١م.

تَحْقِيْق: أ. د. عَبْد الله بن عَبْد المُحْسِن التُّرْكِيّ.

الطَّبْعَة الثانية، الرِّيَاض، سنة ١٤٠٩هـ.

- **المُنْتَظَم في تَارِيْخ الملوك والأُمَم**: الحافظ جَمَال الدِّيْن أبو الفَرَج عَبْد الرَّحْمٰن بن عَلِيّ بن مُحَمَّد التَّيْمِيّ البَكْرِيّ القُرَشِيّ البَغْدَادِيّ الحَنْبَلِيّ، المعروف بابن الجَوْزِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٥٩٧هـ=١٢٠١م.

تَحْقِيْق: مُحَمَّد عَبْد القَادِر عطا، ومُصْطَفَىٰ عَبْد القَادِر عطا.

راجعه: نَعِيْم زرزور.

الطَّبْعَة الثانية، دار الكتب العِلْمِيَّة، بَيْرُوْت، سنة ١٤١٥هـ=١٩٩٥م.

● **المَنْهَج الأَحْمَد في تَرَاجُم أصحاب الإمَام أَحْمَد**: أبو اليُمْن مُجِيْر الدِّيْن عَبْد الرَّحْمٰن بن مُحَمَّد بن عَبْد الرَّحْمٰن العُمَرِيّ العُلَيْمِي المَقْدِسِيّ الحَنْبَلِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٩٢٨هـ=١٥٢٢م.

تَحْقِيْق: مَحْمُوْد الأَرْنَؤُوْط، وآخرين.

أَشْرَف علىٰ تَحْقِيْق الكتاب وخرج أَحَادِيْثه: عَبْد القَادِر الأَرْنَؤُوْط.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، دار صادر، بَيْرُوْت، سنة ١٩٩٧م.

● **مَنْهَج الإمَام مُحَمَّد عَبْدُه في تَفْسِيْر القُرْآن الكَرِيْم**: د. عَبْد الله مَحْمُوْد شحاتة، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٤٢٣هـ=٢٠٠٢م.

المجلس الأعلىٰ لرعاية الفُنُوْن والآداب والعُلُوْم الاجتماعية، القَاهِرَة، سنة ١٩٦٣م.

● **المَنْهَل الـرَّوِيّ الرَّائِق في أسانيد العُلُوْم وأُصُـوْل الطرائق**: السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٢٧٦هـ=١٨٥٩م.

طبع بمَعْرِفَة وزارة الإعْـلَام والثقافة اللِّيْبِيَّة، دار الكتاب اللُّبْنَانِيّ، بَيْرُوْت، سنة ١٣٨٨هـ=١٩٦٨م.

● **مُهْجَة البَهْجَة ومَحَجَّة اللَّهْجَة**: المؤلف مجهول. قال: انتخبتها من بَهْجَة الأَسْرَار، بعد أن حذفتُ الأسانيد، وهذبتها، وأضفتُ إضافات ملتقطة من بعض الكتب المعتبرة.

والكتاب هو زبدة كتاب (**بَهْجَة الأَسْـرَار ومعدن الأَنْـوَار**) لأبي الحسن نور الدِّيْن عَلِيّ بن يُوْسُف بن حريز اللَّخْمِيّ الشَّطَّنَوْفِيّ الشَّافِعِيّ، شَيْخ الإقْرَاء بالديار المِصْرِيَّة، المُتَوَفَّىٰ بالقَاهِرَة سنة ٧١٣هـ=١٣١٤م.

حققه: د. جمال الدِّيْن فالح الكيلاني.

وطبعه باسم (بَهْجَة الأَسْرَار ومعدن الأَنْوَار).

الطَّبْعَة الثانية، الناشر: المنظمة المَغْرِبِيَّة للتربية والثقافة والعُلُوْم، فاس، المَغْرِب.

● **المَوَاقِف**: عَضُد الدِّيْن عَبْد الرَّحْمٰن بن أَحْمَد الإيْجِيّ الشَّافِعِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٧٥٦هـ=١٣٥٥م.

وطُبِعَ معه:

شَرْح المَوَاقِف، للسَّيِّد الشَّرِيْف عَلِيّ بن مُحَمَّد بن عَلِيّ الجُرْجَانِيّ الحُسَيْنِيّ الحَنَفِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٨١٦هـ=١٤١٣م.

وعليه:

حَاشِيَة عَبْد الحَكِيْم بن شمس الدِّيْن مُحَمَّد **السِّيَالْكُوْتِيّ** اللَّاهُوْرِيّ البَنْجَابِيّ الهِنْدِيّ الحَنَفِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٠٦٧هـ=١٦٥٦م.

و**حَاشِيَة المَوْلَىٰ حَسَن چَلَبِي** بن مُحَمَّد شَاه بن حَمْزَة الرُّوْمِيّ الحَنَفِيّ الفَنَارِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٨٨٦هـ=١٤٨١م.

صَحَّحَهُ: مُحَمَّد بَدْر الدِّيْن النَّعْسَانِيّ الحَلَبِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٦٢هـ=١٩٤٣م.

الطَّبْعَة الثانية، منشورات الشَّرِيْف الرَّضِيّ، مَطْبَعَة أَمِيْر، قُم، سنة ١٤١٥هـ، وهي مُصَوَّرَة علىٰ الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ التي طُبعت بنفقة مُحَمَّد أفندي ساسي التُّوْنُسِيّ بمَطْبَعَة السَّعَادَة، مِصْر، سنة ١٣٢٥هـ=١٩٠٧م.

- **موقف صاحب المَنَار من المُفَسِّرِيْن**: أ. د. مُحْسِن عَبْد الحَمِيْد.

بحث نُشِرَ في مَجَلَّة كُلِّيَّة الآداب، جَامِعَة بَغْدَاد، العدد ١٣.

- **النُّجُوْم الزَّاهِرَة في مُلُوك مِصْر والقَاهِرَة**: جمال الدِّيْن أبو المَحَاسِن يُوْسُف بن تَغْرِي بَرْدِي الأَتَابَكِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٨٧٤هـ=١٤٧٠م.

الجزء ١-١٢ طَبْعَة دار الكتب المِصْرِيَّة، المُصَوَّرَة بمطابع كوستاتسوماس، القَاهِرَة.

والجزء ١٣-١٦ طَبْعَة الهيئة المِصْرِيَّة العامة للكتاب، سنة ١٩٧٠-١٩٧٢م.

- **نشأة الحَرَكَة العَرَبِيَّة الحَدِيْثَة**: مُحَمَّد عزة دروزة، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٤٠٤هـ=١٩٨٤م.

الطَّبْعَة الثانية، المَكْتَبَة العَصْرِيَّة، بَيْرُوْت، سنة ١٩٧١م.

- **هَدِيَّة العَارِفِيْن أَسْمَاء المُؤَلِّفِيْن وآثَار المُصَنِّفِيْن**: إِسْمَاعِيْل باشا ابن مُحَمَّد أمين بن مير سَلِيْم البابانِي أَصْلاً والبَغْدَادِيّ مولداً ومسكناً، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٣٩هـ=١٩٢٠م.

طبع بعِنَايَة: مُحَمَّد شَرَف الدِّيْن يالتقايا، ورفعت بيلكه الكليسي.

منشورات مَكْتَبَة المُثَنَّىٰ، بَغْدَاد، وهي الطَّبْعَة المُصَوَّرَة علىٰ طَبْعَة إستانبول، سنة ١٩٥١م.

● **الوحي المُحَمَّدِيّ، ثُبُوْت النُّبُوَّة بالقُرْآن، ودعوة شعوب المَدَنِيَّة إلىٰ الإسْلَام، دين الأُخُوَّة الإنسانية والسَّلَام**: السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٥٣هـ=١٩٣٥م.

الطَّبْعَة السادسة، الناشر: مَكْتَبَة القَاهِرَة، مِصْر، شركة الطِّبَاعَة الفنية المُتَّحِدَة، القَاهِرَة، سنة ١٩٦٠م.

● **الوَهَّابِيُّوْن والحِجَاز (طائفة من مَقَالَات نشرت في المَنَار والأهرام)**: السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٣٥٣هـ=١٩٣٥م.

الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ، مَطْبَعَة المَنَار، مِصْر، سنة ١٣٤٤هـ.

● **اليَوَاقِيْت والجَوَاهِر في بَيَان عَقَائِد الأكابر**: أبو المَوَاهِب عَبْد الوَهَّاب بن أَحْمَد بن نُور الدِّيْن عَلِيّ الشَّعْرَانِيّ الأَنْصَارِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٩٧٣هـ=١٥٦٥م.

مِصْر، سنة ١٩٥٩م.

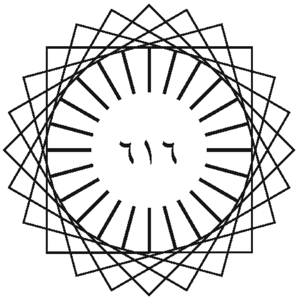
דוד

فِهْرِس المَوْضُوْعَات

مُقدِّمَة الطَّبْعَة الأُوْلَى ٥

خطة الدراسة: ٨

الفصل الأول

الشَّيْخ عَبْد القَادِر الجِيْلَانِيّ

تَمْهِيْد ١٣

المَبْحَث الأول: شخصية الشَّيْخ عَبْد القَادِر الجِيْلَانِيّ ١٥

اسمه ونسبه: ١٥

الشَّيْخ عَبْد القَادِر سِبْط أبي عَبْد الله الصَّوْمَعِيّ الزَّاهِد ١٩

الشَّيْخ عَبْد القَادِر خال السَّيِّد أَحْمَد بن الرِّفَاعِيّ ٢٠

عبارة ابن رَجَب والعُلَيْمِيّ وابن مُفْلِح ٢٢

عبارة ابن السَّاعِي في نسبه، وتَرْجِيْحِي ٢٤

سنة مِيْلَاده: ٢٦

مكان ولادته: ٢٨

الاختلاف في تحديد (جيل) ٢٩

عَصْره: ٣٢

الخُلَفَاء الذين عاصرهم ٣٢

الأُمَرَاء السلاجقة ٣٣

الدولة الفَاطِمِيَّة والإِسْمَاعِيْلِيَّة ٣٣

عَقَائِد الإسْمَاعِيْلِيَّة ٣٤
قتل الإسْمَاعِيْلِيَّة، ومنهم: أبو سَعِيْد الجَنَّابِيّ وولده، للناس والعُلَمَاء ٣٦
البَاطِنِيَّة والحشاشون ٣٦
الفتوىٰ بتكفير الإسْمَاعِيْلِيَّة ٣٧
إسقاط صَلَاح الدِّيْن الدولة الفَاطِمِيَّة ٣٧
حروب الفرنجة مع نور الدِّيْن زَنْكِي ٣٨
ظهور الشَّيْخ عَبْد القَادِر وتسلّمه الزعامة الدِّيْنِيَّة ٣٩
قدومه بَغْدَاد: ٣٩
وروده إلىٰ زاوية الشَّيْخ حَمَّاد الدَّبَّاس ٤٠
شُيُوْخه، في الحَدِيْث والفِقْه والأدب: ٤٠
تلاميذه: ٤٥
لقاء ابن قُدَامَة وعَبْد الغَنِيّ المَقْدِسِيّ به ٤٥
مَذْهَبه: ٤٨
عقيدته: ٥٠
طريقة الشَّيْخ عَبْد القَادِر في التَّصَوُّف: ٥٢
اصطحابه الدَّبَّاس، والمُخَرِّمِيّ ٥٢
مدرسة المُخَرِّمِيّ في باب الأَزَج ٥٤
ملازمته الانقطاع والخلوة ٥٥
تربية المريدين، وأُصُوْلها عنده: ٥٦
مجالسه ووعظه: ٦٢
كان يكتب في مجلسه ٤٠٠ مَحْبَرَة عَالِم وغيره ٦٤

خروجه من مدرسته يوم الجمعة فقط ٦٤
كلامه في الأُسْبُوع ثلاث مرات ٦٤
كان سكوته أكثر من كلامه، وكان يتكلم علىٰ الخواطر........ ٦٥
سعة علمه:........ ٦٥
كان يتكلم في ١٣ علماً ٦٥
تعجب ابن الجَوْزِيّ من سعة علم الشَّيْخ في التَّفْسِيْر........ ٦٦
كتبه:........ ٦٧
فتاواه، علىٰ مَذْهَب الشَّافِعِيّ وأَحْمَد: ٧١
صفته: ٧١
لبسه في وسط الشتاء قَمِيْصاً:........ ٧٤
إنفاقه على الفُقَرَاء: ٧٥
نُزُوْله عند فَقِيْر في الحلة........ ٧٧
الفَقِيْر والمَلَّاح ٧٨
قوله الحق وموقفه من السُّلْطَان:........ ٧٩
إنكاره علىٰ المنافقين........ ٨٠
هيبته:........ ٨١
إجْلَال الناس له:........ ٨١
ثناء المشايخ عليه: السَّمْعَانِيّ، عَدِيّ بن مُسَافِر، أبو مَدْيَن، وغيرهم ٨١
أوصافه:........ ٨٩
لقبه:........ ٩٠
تواضعه:........ ٩٠

صدقه: ٩١
التوبة على يديه: ٩٣
عِبَادته: ٩٥
توكله على الله: ٩٥
كَرَامَاته: ٩٦
قول ابن رَجَب، والقَنَّوْجِيّ، في بَهْجَة الأَسْرَار ١٠٣
قدمي على رَقَبَة كل وَلِيّ: ١٠٤
أولاده: ١٠٦
المحنة بعد وفاته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ١١١
زوجاته: ١١٣
وفاته، ودفنه بمدرسته: ١١٣
عُمْره: ١١٥
رثاؤه: ١١٦
المَبْحَث الثاني: تصوف الشَّيْخ عَبْد القَادِر الجِيلَانِيّ، وطريقه في الإصْلَاح ١١٧
ظهور اسم التَّصَوُّف: ١١٧
التَّصَوُّف في أصل اللُّغَة: ١١٨
التَّصَوُّف اصْطِلَاحاً: ١١٩
الزهد وفكرة الحب الإلٰهِيّ ١٢٢
الطرق الصُّوفِيَّة، ومنها: القَادِرِيَّة ١٢٣
ظهور الأَفْكَار الفلسفية والشطح ١٢٣
التَّصَوُّف عند الشَّيْخ عَبْد القَادِر: ١٢٤

أُصُوْل طريق التَّصَوُّف: ١٢٥
الأصل الأول: تقوىٰ الله في السر والعَلَانِيَة........ ١٢٥
الأصل الثاني: متابعة خاتم النَّبِيِّيْن مُحَمَّد ﷺ ١٢٩
الأصل الثالث: الإعراض عن الخَلْق في الإقبال والإدبار........ ١٣٢
الأصل الرابع: الرضا عن الله تعالىٰ في القليل والكثير ١٣٣
الأصل الخامس: الرجوع إلىٰ الله تعالىٰ في السراء والضراء ١٣٤
الرضا بالبلاء ١٣٥
السَّمَاع عند الشَّيْخ عَبْد القَادِر: ١٣٦
طريق الشَّيْخ عَبْد القَادِر في الإِصْلَاح: ١٣٧
١- إِصْلَاح الفرد: ١٣٧
المُجَاهَدَة........ ١٣٧
التوكل ١٣٩
حسن الخلق ١٤٠
الشكر........ ١٤٠
الصبر ١٤١
الرضا ١٤٢
الصدق........ ١٤٢
٢- التمسك بالكِتَاب والسُّنَّة: ١٤٣
تألمه لحال الدِّيْن وما أصاب المُسْلِمِيْن........ ١٤٦
٣- الدعوة إلىٰ العلم، والتَّفَقُّه في الدِّيْن، والعَمَل به: ١٤٧
٤- استخفافه بالدنيا وإنكاره علىٰ المخالفين: ١٤٩

٥- العَدْل: ١٥٠
٦- الرحمة بالناس: ١٥١
٧- التواضع: ١٥٢
٨- الأَعْمَال بالخواتيم: ١٥٢
٩- النصح: ١٥٣
١٠- الجِهَاد: ١٥٣
١١- التوبة وشروطها: ١٥٤
الوَرَع ١٥٥
الخاتمة ١٥٩

الفصل الثاني
الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه

تَمْهِيد ١٦٣
الأُسرة الخِدَيْوِيَّة في مِصْر ١٦٣
(١) مُحَمَّد عَلِيّ باشا بن إبْرَاهِيْم أغا بن عَلِيّ، مؤسس الأُسرة الخِدَيْوِيَّة بمِصْر ... ١٦٣
(٢) إبْرَاهِيْم باشا بن مُحَمَّد عَلِيّ باشا ١٦٥
(٣) عَبَّاس باشا بن طوسون باشا بن مُحَمَّد عَلِيّ باشا ١٦٦
(٤) سَعِيْد باشا بن مُحَمَّد عَلِيّ باشا ١٦٦
(٥) إسْمَاعِيْل باشا بن إبْرَاهِيْم باشا بن مُحَمَّد عَلِيّ ١٦٧
إسْمَاعِيْل باشا والديون المِصْرِيَّة: ١٦٨
(٦) مُحَمَّد توفيق باشا الخِدَيْوِي ١٦٩
(٧) عباش باشا حلمي ١٧٢
(٨) حُسَيْن كَامِل بن الخِدَيْوِي إسْمَاعِيْل ١٧٣

(٩) الملك فؤاد الأول ١٧٤
(١٠) الملك فاروق، وابنه: أَحْمَد فؤاد الثاني ١٧٤
المَبْحَث الأول: شخصية الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه ١٧٧
اسمه، ومولده، وأُسرته:..................................... ١٧٧
طلبه العلم: ١٧٨
لقاؤه بالشَّيْخ دَرْوِيْش:...................................... ١٧٩
تَخَرُّجُهُ في الأَزْهَر ١٨٣
مع السَّيِّد جمال الدِّيْن الأَفْغَانِيّ:................................ ١٨٤
دخوله معه المحفل الماسوني، ثم انسحابها من الماسونية ١٨٦
بروز شخصية الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه: ١٨٩
نفيه إلىٰ مَحَلَّة نَصْر ١٨٩
مع الثورة العُرَابِيَّة ١٩٠
نفيه إلى سُوْرِيَّة: ١٩٣
عودته إلى سُوْرِيَّة:... ١٩٥
عودته إلى مِصْر، وموقفه السياسي:.............................. ١٩٦
وفاؤه لأُسْتَاذه: ١٩٨
الشَّيْخ في مناصب الحكومة، وموقفه من العائلة الخِدَيْوِيَّة:................ ١٩٩
أَخْلَاقه وشَمَائِله:.. ٢٠١
آثاره: ٢٠٤
الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه وكتاب تَحْرِيْر المرأة لقَاسِم أمين: ٢٠٧

فتاواه: ٢١٥
ومما اشتهر من فتاواه: ٢١٧
وفاته: ٢٢٦
المَبْحَث الثاني: آراء الشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه ٢٢٧
مُحَمَّد عَبْدُه رجل الإصْلَاح: ٢٣٥
أولاً: انتقاده وتَوْجِيْهه من خلال عمله بالجريدة الرسمية: ٢٣٥
ثانياً: التربية والتَّعْلِيْم: ٢٣٦
لائحة إصْلَاح التَّعْلِيْم العُثْمَانِيّ ٢٣٧
لائحة إصْلَاح القطر السُّوْرِيّ ٢٤١
مشروع إصْلَاح التربية في مِصْر ٢٤٢
المدارس الأَمِيْرِيَّة والأجنبية ٢٤٣
الجَامِع الأَزْهَر، والكتاتيب الأهلية، والمكاتب الرسمية الابتدائية ٢٤٤
المدارس التجهيزية، والمدارس العَالِيَة ٢٤٥
المُعَلِّمُون والمُرَبُّون ومدرسة دار العُلُوْم ٢٤٥
ثالثاً: إصْلَاح الأَزْهَر: ٢٤٨
الأَزْهَر ومدرسة القَضَاء الشَّرْعِيّ ٢٥١
رابعاً: إصْلَاح المحاكم الشَّرْعِيَّة: ٢٥٢
خامساً: إصْلَاح المساجد: ٢٥٤
سادساً: عمله في مجلس شُوْرَىٰ القوانين: ٢٥٦
سابعاً: عمله في الجمعية الخَيْرِيَّة الإسْلَامِيَّة: ٢٥٧
ثامناً: عمله في جمعية إحياء الكتب العَرَبِيَّة: ٢٥٧

دعوته إلى ضرورة إعادة توزيع الثروة في الأُمَّة: ٢٥٨
موقفه من الحَضَارَة الحَدِيْثَة: ٢٦٢
التَّفْسِيْر ومَنْهَجه فيه: ٢٦٤
١- السورة القُرْآنِيَّة وحدة متناسقة: ٢٦٥
٢- الكشف عن بَلَاغَة القُرْآن وإعجازه: ٢٦٦
٣- شرح مباني الإِسْلَام: ٢٦٦
٤- اطِّرَاح المبذول من الآراء في التَّفْسِيْر: ٢٦٩
٥- محاربة التقليد: ٢٧١
٦- تَحْكِيْم العقل: ٢٧٢
رده على الغزو الثقافي والفكري: ٢٧٤
١- رده علىٰ هانوتو: ٢٧٤
٢- رده علىٰ فرح أنطون: ٢٨٣

الفصل الثالث

السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا

المَبْحَث الأول: شخصية السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ٢٩٥
اسمه ومولده وأُسرته: ٢٩٥
ذكاؤه: ٢٩٦
نشأته العِلْمِيَّة: ٢٩٧
تصوفه: ٢٩٩
تَعْلِيْمه العوام، ووعظهم: ٣٠٠
شعره ونثره: ٣٠١

سفره إلى القَاهِرَة: ٣٠٢
بين السَّيِّد رَشِيْد والشَّيْخ مُحَمَّد عَبْدُه: ٣٠٢
مَجَلَّة المَنَار: ٣٠٦
تَأْثِيْر المَنَار في العالم الإسْلَامِيّ: ٣١١
مع السِّيَاسَة: ٣١١
السَّيِّد الكاتب: ٣١٧
وفاته: ٣١٨
آثاره: ٣١٩
المَبْحَث الثاني: آراء السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا ٣٢١
السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا رجل الإصْلَاح: ٣٢١
أسباب تَرْجِيْح كون الجمعية الإسْلَامِيَّة في مَكَّة المُكَرَّمَة: ٣٢٥
أهم ما يناط بالجمعية الإسْلَامِيَّة: ٣٢٥
دعوته إلى التمسك بمَذْهَب السَّلَف في العَقِيْدَة: ٣٢٧
مَذْهَب المُسْلِمِيْن في النُّصُوْص المُوْهِمَة للمُشَابَهَة: ٣٢٧
دعوته إلى نبذ التعصب وإعادة النَّظَر في الفِقْه الإسْلَامِيّ: ٣٣٤
التقليد: ٣٣٤
المَذَاهِب ووحدة الأُمَّة: ٣٣٨
ترجمة القُرْآن الكَرِيْم ووحدة الأُمَّة: ٣٤٠
نبذ التفرقة والتعصب: ٣٤٢
الاجْتِهَاد: ٣٤٥
التلفيق: ٣٤٦

تتبع الرخص: ٣٤٧
الفِقْه الإِسْلَامِيّ وتلبية مصالح الناس: ٣٤٨
اسْتِعْمَال القُرْآن في الفونوغراف: ٣٤٩
استقبال المصلي القِبْلَة في المراكب والقطارات الحديدية: ٣٥٠
رخص المسافر في سكك الحديد: ٣٥١
التصوير: ٣٥١
الكحول والعطور: ٣٥٢
البيرا: ٣٥٣
التَّلْقِيْح للجُدَرِيّ والطاعون والهَيْضَة: ٣٥٣
شرب الدخان: ٣٥٤
أوراق اليانصيب: ٣٥٥
أَرْبَاح صندوق التوفير: ٣٥٧
الربا: ٣٥٨
القراطيس المالية: ٣٦٠
التأمين: ٣٦٠
هجومه على البدع: ٣٦١
حقيقة البدعة: ٣٦٢
الدعاء بغير ما ورد ٣٦٤
السَّلَام خلف الأذان، والقُرْآن خلف الجنازة ٣٦٤
بدع الصُّوْفِيَّة ٣٦٦
بدعة الموالد ٣٦٧

بدعة زيارة القبور ٣٦٨
الاستمداد من الصَّالِحِيْن ٣٧٠
بدع أُخْرَىٰ ٣٧١
إرْشَاده إلىٰ طرق رد البدع: ٣٧٣
وقوفه بوجه الأَفْكَار الدخيلة: ٣٧٤
الإلحاد، أسبابه، مقاومته: ٣٧٤
البَابِيَّة والبَهَائِيَّة: ٣٧٥
الماسونية: ٣٧٦
الطُّوْرَانِيَّة: ٣٧٧
ردوده على المستشرقين، وكتابه: الوحي المُحَمَّدِيّ: ٣٧٨
موقفه من الحَضَارَة الغربية: ٣٩٩
تشبه المُسْلِمِيْن بغيرهم ومخالفتهم لهم: ٤٠٠
تقصير المُسْلِمِيْن في استخدام وَسَائِل الاتصال بين البلاد وفي الصناعات:.. ٤٠٢
الاكتفاء الذاتي: ٤٠٣
الجمعيات السرية: ٤٠٤
تهتك النساء: ٤٠٧
مَنْهَجه في تَفْسِيْر القُرْآن الكَرِيْم: ٤٠٨
١- السورة القُرْآنِيَّة وحدة متناسقة ٤١٠
٢- الكشف عن بَلَاغَة القُرْآن الكَرِيْم وإعجازه ٤١٠
٣- شرح مباني الإسْلَام ٤١٢
٤- اطِّرَاح المبذول من الآراء في التَّفْسِيْر ٤١٨

٥- استقلال الفكر ٤٢٠
٦- محاربة التقليد والدعوة إلىٰ الاجْتِهَاد ٤٢١
٧- تَحْكِيْم العقل ٤٢٢
٨- الاستشهاد بنُصُوْص التوراة والإنجيل ٤٢٦

الفصل الرابع
الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس

تَمْهِيْد ٤٢٩
مُقَدِّمَة تَارِيْخِيَّة ٤٣٠
الاحتلال الفرنسي للجَزَائِر، والثورات ضده: ٤٣٠
سِيَاسَة فرنسا في الجَزَائِر: ٤٣٤
١- سِيَاسَة التَّفْقِيْر: ٤٣٤
٢- التجهيل: ٤٣٥
٣- التنصير: ٤٣٨
٤- الفَرْنَسَة: ٤٤٠
يقظة الجَزَائِر وعواملها: ٤٤١
الحَرَكَات السياسية التي أعقبت اليقظة ٤٤٣
١- وحدة النواب المُسْلِمِيْن ٤٤٣
٢- جمعية نَجْم شمال إفْرِيْقِيًّا ٤٤٣
٣- حزب الشعب الجَزَائِرِيّ ٤٤٣
٤- دعاة الإدماج والتجنيس ٤٤٣
٥- جمعية العُلَمَاء المُسْلِمِيْن الجَزَائِرِيِّيْن ٤٤٤

المَبْحَث الأول: شخصية الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس ٤٤٧
نسبه ونشأته: ٤٤٧
أُسرته ٤٤٨
دراسته ورحلاته ٤٤٩
وفاته: ٤٥٣
تكوين شخصية ابن بَادِيْس: ٤٥٤
آثاره العِلْمِيَّة: ٤٥٩
المَبْحَث الثاني: آراء الشَّيْخ عَبْد الحَمِيْد بن بَادِيْس ٤٦١
ابن بَادِيْس وحَرَكَات الإصْلَاح: ٤٦١
الإصْلَاح عند ابن بَادِيْس: ٤٦٦
أولاً: إصْلَاح الفرد، ويكون بالآتي: ٤٦٦
الأمر الأول: العَقَائِد الحَقَّة ٤٦٦
١ - الإيمان بالله تعالىٰ ٤٦٦
التوسل ٤٦٨
٢ - الإيمان بالنُّبُوَّة ٤٧٠
٣ - الإيمان باليوم الآخر ٤٧٢
البدع ٤٧٣
مع الصُّوْفِيَّة ٤٧٥
الأمر الثاني: الأَخْلَاق الفاضلة ٤٧٩
تربية الشباب ٤٨٠

ثانياً: إصْلَاح المجتمع: ٤٨١
صَلَاح الأُسرة ٤٨١
صَلَاح المرأة ٤٨٢
الاجتماع علىٰ الخير والتعاون ٤٨٥
التحذير من العَصَبِيَّة ٤٨٦
الوحدة ٤٨٦
وِلَايَة الحَاكِم، وحق الأُمَّة ٤٩٠
مَسْأَلَة فصل الدِّين عن السِّيَاسَة ٤٩١
ابن بَادِيْس وجمعية العُلَمَاء المُسْلِمِيْن الجَزَائِرِيِّيْن: ٤٩٢
موقفه من الحَضَارَة الحَدِيْثَة: ٤٩٦
سَبِيْله في الإصْلَاح: ٤٩٧
أولاً: التَّعْلِيْم: ٤٩٧
مسؤولية العُلَمَاء ٤٩٨
المسجد والتَّعْلِيْم صِنْوَان ٥٠٠
آداب المُعَلِّم والمُتَعَلِّم ٥٠٢
تَعْلِيْم المرأة ٥٠٣
النشر والبعثات ٥٠٥
ثانياً: الصحافة: ٥٠٥
الدعوة إلى الله تعالى: ٥٠٧
أركان الدعوة ٥٠٧
شدة غيرته علىٰ الإسْلَام ٥٠٨

الواجب علىٰ الداعي إلىٰ الله والمُنَاظِرِ في العِلْم ٥٠٩
دروسه في التَّفْسِيْر، ومَنْهَجه فيه: ٥١٠
١ - يفسر الألفاظ بأرجح معانيها اللُّغَوِيَّة ٥١٠
٢ - يجعل عناوين يُسْتَعَان بها علىٰ فهم معنىٰ الآية ٥١١
٣ - يفسر القُرْآن بالقُرْآن أولاً ٥١١
٤ - يعتمد صَحِيْح المَنْقُوْل وسديد المَعْقُوْل ٥١٢
٥ - يعتمد التَّفْسِيْر العِلْمِيّ للآيات الكونية ٥١٢
٦ - يرفض الروايات الإسرائيلية التي لم يَرِدْ لها دليل صَحِيْح ٥١٣
٧ - يتخذ من الآيات سَبِيْلاً للكلام عن نظام الإسْلَام ٥١٣
دروسه في الحَدِيْث الشَّرِيْف: ٥١٣
فِقْهُهُ: ٥١٤
عنايته باللُّغَة العَرَبِيَّة: ٥١٥
دعوته إلىٰ تعلم اللُّغَات الأجنبية ٥١٨
العَرَب ووحدتهم: ٥١٩
العَرَب ومنزلتهم: ٥٢٠
العُرُوْبَة والقومية: ٥٢١
بناء الشخصية الجَزَائِرِيَّة: ٥٢٣
١ - المحافظة علىٰ تقاليد الإسْلَام ٥٢٣
٢ - العَمَل علىٰ لَمّ شَعَث الأُمَّة الجَزَائِرِيَّة، وتَحْقِيْق حريتها ٥٢٤
٣ - الحرص علىٰ الأُخُوَّة بين الشعوب ٥٢٦
مهاجمته سِيَاسَة الاندماج ٥٢٦

الوطنية: ٥٢٨

خاتمة: ٥٣٠

الفصل الخامس
السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ

تَمْهِيْد ٥٣٥

المَبْحَث الأول: شخصية السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ ٥٣٧

نسبه: ٥٣٧

ولادته: ٥٣٨

نشأته ورحلاته: ٥٣٩

وفاته: ٥٤٦

عَقِبُهُ: ٥٤٧

شخصيته: ٥٥١

العوامل التي أَثَّرَتْ في شخصيته: ٥٥٢

تلاميذه: ٥٥٣

آثاره العِلْمِيَّة: ٥٥٤

المَبْحَث الثاني: آراء السَّيِّد مُحَمَّد بن عَلِيّ السَّنُوْسِيّ ٥٥٩

١- وجوب التمسك بالكِتَاب والسُّنَّة: ٥٥٩

٢- فتح باب الاجْتِهَاد: ٥٦٠

٣- التَّصَوُّف الموزون بمِيْزَان الشَّرِيْعَة: ٥٦١

٤- العَمَل الدؤوب لتَحْقِيْق الآمال: ٥٦٢

عوامل الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: ٥٦٢

الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة والحَرَكَة الوَهَّابِيَّة: ٥٦٣
نظام الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة، وطريقته في الدعوة: ٥٦٤
هدف النظام السَّنُوْسِيّ، وسُبُل تَحْقِيْقِهِ: ٥٦٥
الأمر الأول: الطريقة الصُّوْفِيَّة: ٥٦٥
دعوة السَّيِّد إلىٰ العَمَل والتعاون ٥٦٩
اهتمامه بالزراعة ٥٦٩
دعوته إلىٰ الجِهَاد والاستعداد له ٥٧٠
الأمر الثاني: الزاوية: ٥٧٣
حقيقة الزاوية ٥٧٣
محتوياتها ٥٧٤
السلطة في الزاوية ٥٧٥
أراضي الزاوية ٥٧٦
موارد الزاوية، وعدد سكانها ٥٧٦
انتشار الزوايا ٥٧٦
من طرق السَّنُوْسِيِّيْن في نشر الدعوة ٥٨٠
تنظيم الزوايا ٥٨١
السَّنُوْسِيَّة والاستعمار الأوربي: ٥٨٣
السَّنُوْسِيَّة والدولة العُثْمَانِيَّة: ٥٨٤
طابع الحَرَكَة السَّنُوْسِيَّة: ٥٨٦
فِهْرِس المَصَادِر ٥٨٩
فِهْرِس المَوْضُوْعَات ٦١٧
الآثار المطبوعة للمُؤَلِّف ٦٣٥

الآثار المطبوعة للمُؤَلِّف

الكتب:

١. **الاحتكار وآثاره في الفِقْه الإسلَامِيّ. الطَّبْعَة الأُولىٰ** بمَطْبَعَة الأُمَّة ببَغْدَاد سنة ١٣٩٤هـ=١٩٧٤م. **والطَّبْعَة الثانية** بدار الرَّشِيْد بالرِّيَاض سنة ١٤٠٣هـ=١٩٨٣م. **والطَّبْعَة الثالثة** بدار الفُرْقَان بعَمَّان – الأُرْدُنّ سنة ١٤٢١هـ=٢٠٠٠م. **والطَّبْعَة الرابعة** بدار (كتاب – ناشرون) ببَيْرُوْت سنة ١٤٣٢هـ=٢٠١١م.

٢. **الشُّوْرَىٰ بين النَّظَرِيَّة والتَّطْبِيْق. الطَّبْعَة الأُولىٰ** بمَطْبَعَة الأُمَّة ببَغْدَاد سنة ١٣٩٤هـ=١٩٧٤م. **والطَّبْعَة الثانية** بدار (كتاب – ناشرون) ببَيْرُوْت سنة ١٤٣٨هـ=٢٠١٧م.

٣. **صَفْوَة الأَحْكَام من نَيْل الأَوْطَار وسُبُل السَّلَام. الطَّبْعَة الأُولىٰ** بمَطْبَعَة دار السَّلَام ببَغْدَاد سنة ١٣٩٤هـ=١٩٧٤م. **والطَّبْعَة الثانية** بمَطْبَعَة الإرْشَاد ببَغْدَاد سنة ١٤٠٦هـ=١٩٨٦م، وزارة التَّعْلِيْم العالي والبَحْث العِلْمِيّ العِرَاقِيَّة – جَامِعَة بَغْدَاد – كُلِّيَّة الشَّرِيْعَة. **والطَّبْعَة الثالثة** بدار الفُرْقَان بعَمَّان – الأُرْدُنّ سنة ١٤١٩هـ=١٩٩٩م. **والطَّبْعَة الرابعة** بدار الفُرْقَان بعَمَّان – الأُرْدُنّ سنة ١٤٢٤هـ=٢٠٠٣م. **والطَّبْعَة الخامسة** بدار الفُرْقَان بعَمَّان – الأُرْدُنّ سنة ١٤٢٨هـ=٢٠٠٨م. **والطَّبْعَة السادسة** بدار الفُرْقَان بعَمَّان – الأُرْدُنّ سنة ١٤٣٣هـ=٢٠١٢م. **والطَّبْعَة السابعة** بدار (كتاب – ناشرون) ببَيْرُوْت سنة ١٤٣٤هـ=٢٠١٣م. **والطَّبْعَة الثامنة** بدار (كتاب – ناشرون) ببَيْرُوْت سنة ١٤٣٨هـ=٢٠١٧م.

٤. **الكَمَال بن الهُمَام، (المُتَوَفَّىٰ سنة ٨٦١هـ=١٤٥٧م)، وتَحْقِيْق رسالته: إعراب قوله ﷺ: كَلِمَتَان خَفِيْفَتَان علىٰ اللِّسَان... . الطَّبْعَة الأُولىٰ** بمَطْبَعَة جَامِعَة بَغْدَاد سنة ١٤٠٠هـ=١٩٨٠م. **والطَّبْعَة الثانية** بدار (كتاب – ناشرون) ببَيْرُوْت سنة ١٤٣٢هـ=٢٠١١م.

٥. **الاقْتِرَاح في بَيَان الاصْطِلَاح وما أُضِيف إلىٰ ذٰلِكَ من الأَحَادِيْث المَعْدُوْدَة من الصِّحَاح:** تَقِيّ الدِّيْن مُحَمَّد بن عَلِيّ، ابن دَقِيْق العِيْد، المُتَوَفَّىٰ سنة ٧٠٢هـ=١٣٠٢م، دراسة وتَحْقِيْق. **الطَّبْعَة الأُولىٰ** بمَطْبَعَة الإرْشَاد ببَغْدَاد سنة ١٤٠٢هـ=١٩٨٢م، وزارة الأوقاف والشؤون الدِّيْنِيَّة العِرَاقِيَّة – إحياء التُّرَاث الإسلَامِيّ. **والطَّبْعَة الثانية** بدار العُلُوْم بعَمَّان – الأُرْدُنّ سنة ١٤٢٧هـ=٢٠٠٧م. **والطَّبْعَة الثالثة** بدار (كتاب – ناشرون) ببَيْرُوْت سنة ١٤٤٠هـ=٢٠١٩م.

٦. **القُرْآن الكَرِيْم كلماته ومعانيه (ج٢٧-٢٨). الطَّبْعَة الأُولىٰ** بمَطْبَعَة الخلود ببَغْدَاد سنة ١٤٠٣هـ=١٩٨٣م، وزارة التربية العِرَاقِيَّة.

٧. **عَقْد التَّحْكِيْم في الفِقْه الإسلَامِيّ والقَانُوْن الوضعي. الطَّبْعَة الأُولىٰ** بمَطْبَعَة الخلود ببَغْدَاد سنة ١٤٠٥هـ=١٩٨٥م، وزارة الأوقاف والشؤون الدِّيْنِيَّة العِرَاقِيَّة – إحياء التُّرَاث الإسلَامِيّ، سلسلة الكتب الحَدِيْثَة. **والطَّبْعَة الثانية** بدار الفُرْقَان بعَمَّان – الأُرْدُنّ سنة ١٤٢٢هـ=٢٠٠٢م. **والطَّبْعَة الثالثة** بدار (كتاب – ناشرون) ببَيْرُوْت سنة ١٤٣٩هـ=٢٠١٨م.

٨. **الحَرَكَات الهَدَّامَة في الإسلَام – الرَّاوَنْدِيَّة، البَابَكِيَّة. الطَّبْعَة الأُولىٰ** بمطابع دار الشؤون الثقافية العامة ببَغْدَاد سنة ١٤٠٩هـ=١٩٨٩م، وزارة الثقافة والإعْلَام العِرَاقِيَّة.

٩. **التَّحَدِّي في آيات الإعجاز. الطَّبْعَة الأُولىٰ** بدار البَشِيْر بعَمَّان – الأُرْدُنّ سنة ١٤١٧هـ=١٩٩٧م، ونشر أصله في مَجَلَّة جَامِعَة الأَمِيْر عبد القَادِر للعُلُوْم الإسلَامِيَّة بالجَزَائِر – العدد الرابع سنة ١٤١٣هـ=١٩٩٣م.

١٠. **أُمِّيَّة الرَّسُوْل مُحَمَّد ﷺ. الطَّبْعَة الأُولىٰ** بدار البَشِيْر بعَمَّان – الأُرْدُنّ سنة ١٤١٧هـ=١٩٩٦م، ونشر أصله في مَجَلَّة جَامِعَة الأَمِيْر عبد القَادِر للعُلُوْم الإسلَامِيَّة بالجَزَائِر – العدد الخامس سنة ١٤١٤هـ=١٩٩٤م.

١١. **العَقِيْدَة الإسلَامِيَّة ومَذَاهِبها. الطَّبْعَة الأُولىٰ** بدار العُلُوْم بعَمَّان – الأُرْدُنّ سنة ١٤٢٨هـ=٢٠٠٧م. **والطَّبْعَة الثانية** بدار (كتاب – ناشرون) ببَيْرُوْت سنة ١٤٣٢هـ=٢٠١١م. **والطَّبْعَة الثالثة** بدار (كتاب – ناشرون) ببَيْرُوْت سنة ١٤٣٣هـ=٢٠١٢م. **والطَّبْعَة الرابعة** بدار (كتاب – ناشرون) ببَيْرُوْت سنة ١٤٣٤هـ=٢٠١٣م. **والطَّبْعَة الخامسة** بدار (كتاب – ناشرون) ببَيْرُوْت سنة ١٤٣٥هـ=٢٠١٤م. **والطَّبْعَة السادسة** بدار (كتاب – ناشرون) ببَيْرُوْت سنة ١٤٣٧هـ=٢٠١٦م. وتُرجم إلىٰ اللُّغَة الكُرْدِيَّة.

١٢. **البَحْث الفِقْهِيّ ومَصَادِره. الطَّبْعَة الأُولىٰ**، عِمَاد الدِّيْن للنشر والتوزيع بعَمَّان – الأُرْدُنّ سنة ١٤٣٠هـ=٢٠٠٩م. **والطَّبْعَة الثانية**، عِمَاد الدِّيْن للنشر والتوزيع بعَمَّان – الأُرْدُنّ سنة ١٤٣٢هـ=٢٠١١م. **والطَّبْعَة الثالثة** بدار (كتاب – ناشرون) ببَيْرُوْت سنة ١٤٣٤هـ=٢٠١٢م.

١٣. **مناهج الفُقَهَاء في استنباط الأَحْكَام. الطَّبْعَة الأُولىٰ** بدار (كتاب – ناشرون) ببَيْرُوْت سنة ١٤٣٢هـ=٢٠١١م.

١٤. **مناهج الفُقَهَاء في استنباط الأَحْكَام وأسباب اختلافهم. الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ** بدار (كتاب – ناشرون) ببَيْرُوْت سنة ١٤٣٦هـ=٢٠١٥م. **والطَّبْعَة الثانية** بدار (كتاب – ناشرون) ببَيْرُوْت سنة ١٤٣٨هـ=٢٠١٧م.

١٥. **مَفْهُوْم الوَسَطِيَّة في القُرْآن والسُّنَّة. الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ** بدار (كتاب – ناشرون) ببَيْرُوْت سنة ١٤٣٨هـ=٢٠١٧م.

١٦. **تَأوِيْل النَّصّ الشَّرْعِيّ. الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ** بدار (كتاب – ناشرون) ببَيْرُوْت سنة ١٤٣٩هـ=٢٠١٨م.

١٧. **حُكْم الإجْهَاض في الفِقْه الإسْلَامِيّ. الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ** بدار (كتاب - ناشرون) بِبَيْرُوْت سنة ١٤٤٠هـ=٢٠١٩م.

١٨. **عُلَمَاء عَامِلُون. الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ** بدار (كتاب - ناشرون) بِبَيْرُوْت. وهي هٰذِهِ الطَّبْعَة.

الكتب بالاشتراك مع آخرين:

أ- لوزارة التَّعْلِيْم العالي العِرَاقِيَّة:

١. **المدخل إلىٰ الدِّيْن الإسلَامِيّ**. بالاشتراك مع الدكتور مُنِيْر حَمِيْد البَيَاتِيّ. **الطَّبْعَة الأُولىٰ** بدار الحرية للطِّبَاعَة ببَغْدَاد سنة ١٣٩٦هـ=١٩٧٦م.

٢. **أُصُوْل الدِّيْن الإسلَامِيّ**. بالاشتراك مع الدكتور رُشْدِي عليَّان. **الطَّبْعَة الأُولىٰ** بدار الحرية للطِّبَاعَة ببَغْدَاد سنة ١٣٩٧هـ=١٩٧٧م. **والطَّبْعَة الثانية** بمَطْبَعَة جَامِعَة بَغْدَاد ببَغْدَاد سنة ١٤٠١هـ=١٩٨١م. **والطَّبْعَة الثالثة** بمَطْبَعَة الإرْشَاد ببَغْدَاد سنة ١٤٠٦هـ=١٩٨٦م. **والطَّبْعَة الرابعة** بمطابع دار الحِكْمَة ببَغْدَاد سنة ١٤١١هـ=١٩٩٠م، وهٰذِهِ الطبعات الثانية والثالثة والرابعة نشرتها وزارة التَّعْلِيْم العالي والبَحْث العِلْمِيّ العِرَاقِيَّة - جَامِعَة بَغْدَاد. **والطَّبْعَة الخامسة** بدار الفكر للطِّبَاعَة والنشر والتوزيع بعَمَّان - الأُرْدُنّ سنة ١٤١٦هـ=١٩٩٦م. **والطَّبْعَة السادسة** بدار الفكر للطِّبَاعَة والنشر والتوزيع بعَمَّان - الأُرْدُنّ سنة ١٤٢٢هـ=٢٠٠٢م. وتُرجم إلىٰ اللُّغَة الكُرْدِيَّة.

٣. **قَوَاعِد التلاوة**. بالاشتراك مع الدكتور فَرَج توفيق الوَلِيْد. **الطَّبْعَة الأُولىٰ** بمَطْبَعَة جَامِعَة بَغْدَاد سنة ١٤٠٠هـ=١٩٨٠م. **والطَّبْعَة الثانية** ببَغْدَاد. **والطَّبْعَة الثالثة** بمَطْبَعَة وزارة التَّعْلِيْم العالي ببَغْدَاد سنة ١٤١١هـ=١٩٩١م.

٤. **عُلُوْم القُرْآن**. بالاشتراك مع الدكتور رُشْدِي عليَّان وكاظم فتحي الرَّاوِيّ. **الطَّبْعَة الأُولىٰ** بمطابع مُؤَسَّسَة دار الكتب بالمَوْصِل سنة ١٤٠٠هـ=١٩٨٠م.

٥. **عُلُوْم الحَدِيْث ونصوص من الأثر**. بالاشتراك مع الدكتور رُشْدِي عليَّان وكاظم فتحي الرَّاوِي. **الطَّبْعَة الأُولىٰ** بمَطْبَعَة جَامِعَة بَغْدَاد سنة ١٤٠٠هـ=١٩٨٠م. **والطَّبْعَة الثانية** بدار (كتاب - ناشرون) ببَيْرُوْت سنة ١٤٣٦هـ=٢٠١٥م.

٦. **التَّفْسِيْر**. بالاشتراك مع الدكتور مُحْسِن عبد الحَمِيْد. **الطَّبْعَة الأُولىٰ** بدار المَعْرِفَة سنة ١٤٠٠هـ=١٩٨٠م.

ب- لوزارة التربية العِرَاقِيَّة:

١-٦. **التربية الإسلَامِيَّة (للمدارس الإسلَامِيَّة)**. ستة كتب، للصفوف: الرابع والخامس والسادس الابتدائي، والأول والثاني والثالث المتوسط، بَغْدَاد سنة ١٣٩٩هـ=١٩٧٩م.

٧-١٢. **الحَدِيْث الشَّرِيْف وعُلُوْمه (للمدارس الإسلَامِيَّة)**. ستة كتب، للصفوف: الأول والثاني والثالث المتوسط، والرابع والخامس والسادس الإعدادي، بَغْدَاد سنة ١٣٩٩هـ=١٩٧٩م.

١٣. **التربية الإسلَامِيَّة (للصف السادس من المدارس الشَّعْبِيَّة)**. المجلس الأعلىٰ للحَملَة الشَّامِلَّة لمحو الأُمِّيَّة الإلزامي، بَغْدَاد سنة ١٤٠٠هـ=١٩٨٠م.

١٤. **علم التجويد (للمدارس الإسلَامِيَّة)**. بالاشتراك مع الشيخ جَلَال الحَنَفِيّ والدكتور فَرَج توفيق الوَلِيْد، بَغْدَاد سنة ١٤٠٢هـ=١٩٨٢م.

البحوث:

١. **عَقْد التَّحْكِيْم في الفِقْه الإسلَامِيّ**. نشر في مَجَلَّة كُلِّيَّة الدراسات الإسلَامِيَّة – العدد الرابع سنة ١٣٩٢هـ=١٩٧٢م ببَغْدَاد، وطبع ضمن كتاب عَقْد التَّحْكِيْم في الفِقْه الإسلَامِيّ والقَانُوْن الوضعي.

٢. **التَّسْعِيْر في الفِقْه الإسلَامِيّ**. نشر في مَجَلَّة كُلِّيَّة الدراسات الإسلَامِيَّة – العدد الخامس سنة ١٣٩٣هـ=١٩٧٣م ببَغْدَاد، وطبع ضمن كتاب الاحتكار وآثاره في الفِقْه الإسلَامِيّ.

٣. **مُحَمَّد عَبْدُه – المصلح الأُستاذ**. نشر في تسعة أَعداد من مَجَلَّة الرِّسَالَة الإسلَامِيَّة ببَغْدَاد سنة ١٤٠٢هـ=١٩٨٢م.

٤. **مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا**. نشر في مَجَلَّة دراسات عَرَبِيَّة إسلَامِيَّة – العدد الثالث – السنة الثالثة، بَغْدَاد سنة ١٤٠٣هـ=١٩٨٣م، أصدرتها اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهِجْرِيّ – مَطْبَعَة الأوقاف والشؤون الدِّيْنِيَّة العِرَاقِيَّة.

٥. **مفهوم الوحي عند رَشِيْد رِضَا في كتابه: الوحي المُحَمَّدِيّ**. وهو من بحوث النَّدْوَة العِلْمِيَّة الموسومة بـ(مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا، جهوده الإصْلَاحية ومَنْهَجه العِلْمِيّ)، التي عُقدت في جَامِعَة آل البيت بالأُرْدُنّ، سنة ١٤٢٠هـ=١٩٩٩م. ونشر المعهد العالمي للفكر الإسْلَامِيّ طبعتها الأُوْلَىٰ سنة ١٤٢٨هـ=٢٠٠٧م.

٦. **الادخار**. نشر في مَجَلَّة الرِّسَالَة الإسلَامِيَّة، العدد ١٦٠-١٦١، بَغْدَاد سنة ١٩٨٣م.

٧. **عُلُوْم الحَدِيْث الشَّرِيْف**. نشر في كتاب (حَضَارَة العِرَاق) ج٧ و ج١١. بَغْدَاد سنة ١٩٨٥م، وزارة الإعْلَام العِرَاقِيَّة.

٨. **تَأْثِيْر المُحَدِّثِيْن العِرَاقِيِّيْن في خارج البلاد العَرَبِيَّة**. نشر ضمن كتاب (العِرَاق في موكب الحَضَارَة – الأصالة والتَّأْثِيْر) سنة ١٤٠٨هـ=١٩٨٨م، وزارة الإعْلَام العِرَاقِيَّة ببَغْدَاد.

٩. **مُصْطَلَح (ثَمَن)**. نشر في المَوْسُوْعَة الفِقْهِيَّة الكُوَيْتِيَّة التي تصدرها وزارة الأوقاف بالكُوَيْت سنة ١٤٠٦هـ=١٩٨٦م.

١٠. **مُصْطَلَح (مُقَايَضَة)**. أُعِدَّ للمَوْسُوْعَة الفِقْهِيَّة الكُوَيْتِيَّة أَيضاً سنة ١٤٠٩هـ=١٩٨٩م.

١١. **الحَرَكَات الهَدَّامَة في الإسلَام**. نشر ضمن بحوث ندوة (النُّصَيْرِيَّة حركة هَدْمِيَّة)، من منشورات كُلِّيَّة الشَّرِيْعَة بجَامِعَة بَغْدَاد، مَطْبَعَة الإرْشَاد ببَغْدَاد سنة ١٤٠٦هـ=١٩٨٦م، وطبع ضمن كتاب الحَرَكَات الهَدَّامَة في الإسلَام – الرَّاوَنْدِيَّة، البَابَكِيَّة.

١٢. **التَّطَرُّف الدِّيْنِي**. نشر ضمن بحوث ندوة (التَّطَرُّف الدِّيْنِي) من منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الدِّيْنِيَّة ببَغْدَاد سنة ١٩٨٦م، لكُلِّيَّة الشَّرِيْعَة بجَامِعَة بَغْدَاد.

١٣. **الإسلَام والإرهاب**. نشر ضمن بحوث ندوة (الدِّيْن والإرهاب) من منشورات منظمة المؤتمر الإسلَامِيّ الشَّعْبِيّ، مَطْبَعَة الرَّشَاد ببَغْدَاد سنة ١٤٠٨هـ=١٩٨٨م.

١٤. **الحركة البَاطِنِيَّة – الوَسَائِل والغايات**. نشر ضمن بحوث ندوة (الحركة البَاطِنِيَّة ودورها التخريبي في الفِكْر العَرَبِيّ الإسلَامِيّ) من منشورات كُلِّيَّة الشَّرِيْعَة بجَامِعَة بَغْدَاد، بَغْدَاد سنة ١٤٠٩هـ=١٩٨٩م.

١٥. **التحدي في آيات الإعجاز**. نشر في مَجَلَّة جَامِعَة الأَمِيْر عبد القَادِر للعُلُوْم الإسلَامِيَّة بالجَزَائِر، العدد الرابع سنة ١٤١٣هـ=١٩٩٣م. وهو أصل كتابي المتقدم (التحدي في آيات الإعجاز).

١٦. **أُمِّيَّة الرَّسُوْل مُحَمَّد ﷺ**. نشر في مَجَلَّة جَامِعَة الأَمِيْر عبد القَادِر للعُلُوْم الإسلَامِيَّة بالجَزَائِر، العدد الخامس سنة ١٤١٤هـ=١٩٩٤م. وهو أصل كتابي المتقدم (أُمِّيَّة الرَّسُوْل مُحَمَّد ﷺ).

١٧. **البَحْث الفِقْهِيّ**. نشر في مَجَلَّة جَامِعَة الأَمِيْر عبد القَادِر للعُلُوْم الإسلَامِيَّة بالجَزَائِر، العدد الخامس سنة ١٤١٤هـ=١٩٩٤م. وطبع ضمن كتاب البَحْث الفِقْهِيّ ومَصَادِره.

١٨. **الضمير أنا في القُرْآن الكَرِيْم**. نشر في مَجَلَّة البَيَان – جَامِعَة آل البيت بالأُرْدُنّ، المجلد الأول – العدد الرابع سنة ١٤١٩هـ=١٩٩٨م.

١٩. **مفهوم الإيمان عند الفِرَق الإسلَامِيَّة**. نشر ضمن بحوث (المُلْتَقَىٰ العِلْمِيّ الأول حول تُرَاث سَلْطَنَة عُمَان الشقيقة قديماً وحَدِيْثاً)، الذي نظمته وَحْدَة الدراسات العُمَانِيَّة بجَامِعَة آل البيت، من منشورات جَامِعَة آل البيت – الأُرْدُنّ سنة ١٤٢٣هـ=٢٠٠٢م.

٢٠. **مُقَابَلَة النصوص عند كَتَبَة الحَدِيْث الشَّرِيْف**. نشر في الجزء الثالث من كتاب (تَحْقِيْق التُّرَاث، الرؤىٰ والآفاق)، وهو أوراق المؤتمر الدولي لتَحْقِيْق التُّرَاث العَرَبِيّ الإسلَامِيّ المنعقد في جَامِعَة آل البيت، في المدة ٩-١١ من ذي القِعْدَة سنة ١٤٢٥هـ الموافق ٢١-٢٣ من كانون الأول سنة ٢٠٠٤م. إعداد وتَحْرِيْر: د. مُحَمَّد مَحْمُوْد الدروبي. منشورات جَامِعَة آل البيت، المَمْلَكَة الأُرْدُنِّيَّة الهَاشِمِيَّة، سنة ١٤٢٧هـ=٢٠٠٦م.

٢١. آداب **المُتَعَلِّم (تجربتي في التَّعْلِيْم)**. نشر في كتاب (ومضات النُّوْر في طلب العلم المبرور) للأُسْتَاذ الدكتور صَلَاح مُحَمَّد أبو الحاج، دار الفاروق، عَمَّان، المَمْلَكَة الأُرْدُنِّيَّة الهَاشِمِيَّة. الطَّبْعَة الأُوْلَىٰ سنة ١٤٣٧هـ=٢٠١٦م.

بسم الله الرَّحْمٰن الرَّحِيْم

الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِيْنَ، والصَّلَاةُ والسَّلَامُ علىٰ رَسُوْلِهِ الكَرِيْمِ، وعلىٰ آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ، إلىٰ يَوْمِ الدِّيْنِ.

في هٰذَا اليوم الخميس ١/ شعبان (٨)/ ١٤٤١هـ = ٢٦/ آذار (٣)/ ٢٠٢٠م، انتهىٰ وَلَدِي العَزِيْز الدكتور يَعْلَىٰ من طِبَاعَة هٰذَا الكتاب (**عُلَمَاء عَامِلُوْن**).

ونحن ملازمون بيتنا في عَمَّان، المَمْلَكَة الأُرْدُنِّيَّة الهَاشِمِيَّة، لا نغادره، بسبب انتشار وباء (كورونا) الفتاك، الذي عَمَّ الدنيا بأسرها.

حيث منعت الحكومة الأُرْدُنِّيَّة تجول الناس، وعطلت المدارس والدوائر الرسمية...، ونشرت قوات الأمن والجيش، حفاظاً علىٰ البلد وأهله، ووفّرت كل ما يحتاجه الناس. جزاها الله تعالىٰ كل خير، وأعانها علىٰ تَحَمُّل هٰذِهِ المسؤولية الكُبْرَىٰ.

أسأله تعالىٰ أن يدفع هٰذَا الوباء، وأن يصرف عنا جميع الشرور، وأن يحفظنا مما تخفيه المقادير، وأن يلطف بنا، وأن يرفع هٰذِهِ الغمة عن أُمتنا وأُمَم العالم جميعاً، إنه سَمِيْع مُجِيْب.

الأُستاذ الدكتور

قَحْطَان عَبْد الرَّحْمٰن الدُّوْرِيّ

عَمَّان - المَمْلَكَة الأُرْدُنِّيَّة الهَاشِمِيَّة

وآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِيْن